

The Lincoln Highway

مرة أخرى أذهلتني كتابات تاولز - بيل غيتس

أمور تاولز

طريق لينكون السريع مكتبة

كتاب حكيم ومسلّ

نيويورك تايمز ريفيو



ترجمة: إيهاب عبد الحميد

السوبر

أمور تاولز

طريق لينكون السريع

مكتبة
t.me/soramnqraa

6 6 2025

الكتاب: طريق لينكون السريع، رواية

تأليف: أمور تاوولز

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

عدد الصفحات: 608 صفحة

الترقيم الدولي: 7 - 249 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2023

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

THE LINCOLN HIGHWAY

VIKING

An imprint of Penguin Random House LLC

penguinrandomhouse.com

Copyright © 2021 by Cetology, Inc

الناشر

دار التنوير

لبنان: بيروت - الرملة البيضاء - بناية بنك لبنان والخليج - الطابق الثاني

هاتف: 009611797434

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net

www.daraltanweer.com

أُمُور تَاوُلَز

مكتبة

t.me/soramnqraa

طريق لينكون السريع

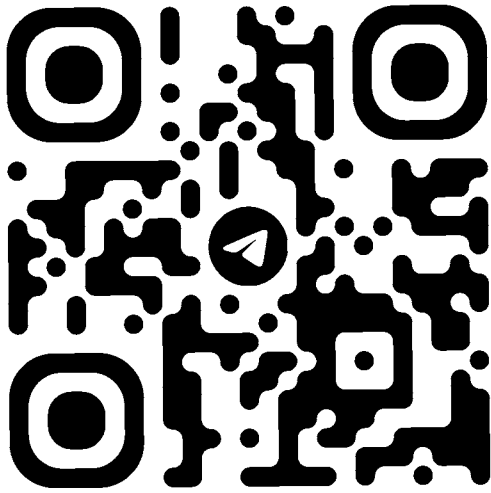
رواية

ترجمة

إيهاب عبد الحميد



إلى
أخي ستوكلي
وأختي كيمبرو



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

طريق
لنكون السريع

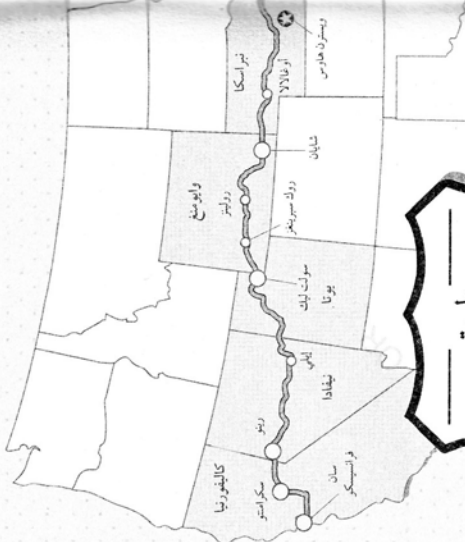
أول طريق سريع
عابر للقارات في أمريكا



أول طريق سريع عابر للقارات في أمريكا



شارع 46 غرب	شارع 45 غرب	شارع 44 غرب	شارع 43 غرب	شارع 42 غرب	شارع 41 غرب
بداية	طريق لينكون السريع	طريق لينكون السريع	طريق لينكون السريع	طريق لينكون السريع	طريق لينكون السريع
شارع 40 غرب	شارع 39 غرب	شارع 38 غرب	شارع 37 غرب	شارع 36 غرب	شارع 35 غرب



لنكون السريع طريق

أول طريق سريع
عابر للقارات في أمريكا

المساء والأرض المنبسطة،
خصبةٌ وكامدةٌ وساكنةٌ على الدوام؛
التربة المحروثة حديثًا، الممتدة لأُميال،
ثقيلةٌ وسوداء، مترعةٌ بالقوة والخشونة؛
القمح النابت، الحشائش النابتة،
الخيول الكادحة، الرجال المتعبون؛
الطرق الطويلة الخاوية،
وهج الغروب الجَهم، يخبو،
السماء السرمدية، لا تتجاوب ولا تتأثر،
وقباله ذلك جميعًا، الشباب...

«أيها الرُّواد»، ونلَّا كائِرُ

عشرة

—•—

12 يونيو، 1954 - استغرق الطريق من سالينا إلى مورغن ثلاث ساعات، قضى إيميت جلّها من دون أن ينطق بكلمة. في أول ستين ميلاً أو نحو ذلك، بذل المأمور وليامز جهداً لفتح حوار ودّي. حكى بضع قصص عن طفولته هناك في الشرق، وطرح بضعة أسئلة عن طفولة إيميت في المزرعة. لكنهما كانا سيفترقان بعدها ولن يلتقيا ثانية، ولم يرَ إيميت مغزى في الخوض في تلك الأمور الآن. وعلى ذلك، عندما عبرا الحدود من كنساس إلى نبراسكا وشغلّ المأمور المذيع، جعل إيميت ينظر من النافذة، يحدق في البراري، محتفظاً بأفكاره لنفسه.

عندما صاروا على مبعدة خمسة أميال جنوب البلدة، أشار إيميت بيده من وراء الزجاج الأمامي.

-خذ اليمين التالي. سيكون البيت الأبيض على بعد نحو أربعة أميال على الطريق.

أبطأ المأمور سيارته وانعطف يمينا. مرّ بيت آل ماكسكر، ثم بيت آل أندرسن ذي الحظيرتين الحمراءوين الكبيرتين المتماثلتين. بعدها ببضع دقائق ظهر لهما بيت إيميت قائماً إلى جوار دغل صغير من أشجار البلوط على بعد نحو ثلاثين ياردة من الطريق.

بالنسبة لإيميت، بدت كل البيوت في هذا الجزء من الريف وكأنها سقطت من السماء. غير أن سقوط بيت واطسن بدا أكثر خشونة. كانت حواف السقف الهرمي متدلية على جانبي المدخنة وإطارات النوافذ مائلة بدرجة جعلت نصف النوافذ لا يفتح بالكامل والنصف الآخر لا ينغلق بالكامل. بعد لحظات، سيصير بمقدورهما رؤية كيف تساقط الطلاء عن

الكسوة الخشبية. لكن عندما صارا على مسافة مئة قدم من المدخل، أوقف المأمور سيارته على جانب الطريق.

قال، ويداه على عجلة القيادة: إيميت. قبل أن ندخل، لديّ شيء أريد أن أقوله لك.

لم يفاجأ إيميت بأن المأمور وليامز لديه ما يقوله له. عندما وصل إيميت إلى سالاينا أول مرة، كان المأمور رجلاً ريفياً من إنديانا اسمه أكرلي، لا يميل إلى استخدام الكلمة في أي نصيحة يمكن توصيلها على نحو أكثر كفاءة بالعصا. لكن المأمور وليامز رجل متحضر، لديه ماجستير ونوايا طيبة وصورة فوتوغرافية مؤطرة لفرانكلين روزفلت معلقة وراء مكتبه. لديه أفكار جمعها من الكتب وخبرات الحياة، ووفرة من الكلمات تحت تصرفه يستطيع تحويلها إلى توجيهات.

هكذا، بدأ حديثه: بالنسبة إلى بعض الشبان الذين يأتون إلى سالاينا، تظل سلسلة الحوادث التي أوصلتهم إلينا، وأخضعتهم لدائرة نفوذنا، أيًا ما كانت، مجرد بداية لرحلة طويلة في حياة من المتاعب. إنهم صبيّة لم يتعلموا معنى الصواب والخطأ عندما كانوا أطفالاً، ولا يرون سبباً مقنعاً لتعلمه الآن. وكل ما نحاول غرسه فيهم من قيم أو طموحات، في الأغلب، يُطرح جانباً لحظة أن يتعد الواحد منهم عن أنظارنا. للأسف، مع هؤلاء الصبية تكون مسألة وقت فقط قبل أن يجدوا أنفسهم في الإصلاحية في توبيكا، أو أسوأ من ذلك.

استدار المأمور إلى إيميت.

-ما أريد أن أصل إليه، يا إيميت، أنك لست واحداً من هؤلاء. لم نعرف بعضنا منذ وقت طويل، لكن من الوقت القليل الذي قضيته معك أستطيع أن أقول إن موت ذلك الصبي يُثقل كثيراً على ضميرك. لا أحد يتخيل أن ما حدث تلك الليلة يعكس خبث روحك أو يعبر عن شخصيتك. لقد كان الوجه القبيح للصدفة. لكن بوصفنا مجتمعاً متحضراً، فإننا نطلب قدرًا من القصاص من كل يتسبب في محنة لآخرين، حتى من دون قصد. بالطبع،

يهدف هذا القصاص في جانب منه إلى ترضية أولئك الذين عانوا من وطأة المحنة - مثل أسرة الصبي. لكننا نطلب أيضًا سداد ذلك الثمن لمصلحة الشاب الذي كان وسيلة المحنة. لكي يستطيع بدوره، بعد أن تسنح له الفرصة لكي يسدّد دينه، أن يجد قدرًا من العزاء، نوعًا من التكفير، ومن ثم يستطيع أن يبدأ حياة جديدة. هل تفهمني يا إيميت؟
- أفهمك يا سيدي.

- يسعدني سماع ذلك. أعرف أن لديك أخاك لتعتني به الآن، وربما يبدو المستقبل القريب محببًا؛ لكنك شاب ذكي والحياة بأكملها أمامك. وبعد أن سددت دينك بالكامل، أتمنى أن تستغل حريتك على النحو الأمثل.
- هذا ما أنويه يا سيادة المأمور.

وفي تلك اللحظة، كان إيميت يعني ما يقول. لأنه اتفق مع معظم ما قاله المأمور. أدرك تمام الإدراك أن حياته بأكملها منبسطة أمامه وعرف أن عليه الاعتناء بأخيه. عرف أيضًا أنه كان وسيلة للمحنة لا مُدبّرًا لها. لكنه لم يتفق مع فكرة أن دينه قد سُدد بالكامل. لأنك عندما تضع بيدك حدًا للحياة إنسان فوق سطح الأرض، وبغضّ النظر عن الدور الذي لعبته الصدفة، يصير عليك، لكي تثبت للعلي القدير أنك تستحق رحمته، أن تدفع كل ما تبقى من حياتك ثمنًا لذلك.

وضع المأمور ناقل الحركة على الغيار الأول، وانعطف إلى بيت آل واطسن. في الفسحة أمام الشرفة كانت سيارتان - سيارة صالون وأخرى «بيك أب». أوقف المأمور سيارته بجانب الـ «بيك أب». عندما ترجل هو وإيميت من السيارة، خرج رجل طويل القامة في يده قبعة كاوبوي من الباب الأمامي، ثم نزل من الشرفة.

- أهلاً يا إيميت.

- أهلاً يا مستر رانسوم.

مدّ المأمور يده إلى صاحب المزرعة.

- أنا المأمور وليامز. لطيف منك أن تتعب نفسك وتأتي لاستقبالنا.

-ليس هناك تعب يا سيادة المأمور.
-أظنك تعرف إيميت منذ زمن طويل.
-منذ يوم ولادته.

وضع المأمور يداً على كتف إيميت.
-إذاً، لا داعي لأن أقول لك إنه شاب رائع. كنت أقول له في السيارة إن الحياة بأكملها منبسطة أمامه، بعد أن سدّد دينه للمجتمع.
واتفق معه مستر رانسوم: هذا صحيح.
وقف الرجال الثلاثة صامتين.

كان المأمور قد عاش في الغرب الأوسط لأقل من عام، لكنه عرف من الوقوف أمام شرفات بيوت ريفية أخرى أنك على الأرجح ستلتقى، عند هذه النقطة من الحديث، دعوةً للدخول ويُقدّم لك مشروب مرطّب؛ وعندما تتلقّى الدعوة، عليك أن تقبلها لأن رفضها سيُعد وقاحة، حتى إذا كانت أمامك رحلة تمتد لثلاث ساعات. لكن لم يظهر لا على إيميت ولا على مستر رانسوم أي نية لدعوة المأمور إلى الداخل.
هكذا، قال بعد لحظات: طيّب. ينبغي عليّ أن أنطلق في رحلة العودة الآن.

وجّه إيميت ومستر رانسوم الشكر مرة أخرى للمأمور، وصافحاه، ثم تابعا وهو يصعد إلى سيارته ويمضي في طريقه. كان المأمور قد ابتعد لمسافة رُبع ميل على الطريق عندما أوماً إيميت برأسه باتجاه السيارة الصالون.

-سيارة مستر أوبرماير؟

-ينتظرك في المطبخ.

-وبيلي؟

-قلت لسالي أن تحضره بعد قليل، حتى تنتهي من موضوعك أنت

وتوم.

أوماً إيميت برأسه.

سأله مستر رانسوم: مستعد للدخول؟

وقال إيميت: كلما أسرعنا كان أفضل.

وجدا توم وأوبرماير جالسًا أمام طاولة المطبخ الصغيرة. كان يرتدي قميصًا أبيض بكُمَين قصيرين وربطة عنق. لو كانت معه سترة فلا بد أنه تركها في سيارته لأنها لم تكن معلقة على ظهر الكرسي.

عندما دخل إيميت ومستر رانسوم من الباب، بدا أنهما باغتا المصرفي، لأنه دفع الكرسي إلى الخلف بحركة مفاجئة، ونهض، ومدّ يده، كل ذلك في حركة واحدة.

-طيب، ها أنت ذا أخيرًا يا إيميت. أنا سعيد برؤيتك.

صافح إيميت المصرفي ولم يرد.

نظر إيميت حوله، ولاحظ أن الأرض مكنوسة، والمنضدة نظيفة، والحوض فارغ، والخزانات مغلقة. بدا المطبخ أنظف من أي لحظة في ذاكرة إيميت.

قال مستر أوبرماير، وهو يشير إلى الطاولة: تفضل. لماذا لا نجلس جميعًا.

جلس إيميت على الكرسي المواجه للمصرفي. وبقي مستر رانسوم واقفًا، ساندًا كتفه إلى إطار الباب. على الطاولة كان ملف بني اللون متخم بالأوراق. كان مستويًا خارج متناول المصرفي، وكأن شخصًا آخر تركه هناك. تنحج مستر أوبرماير.

-أولًا، يا إيميت، دعني أعبر لك عن مدى أسفي بشأن والدك. لقد كان رجلًا رائعًا، وسنّه صغيرة على أن يخطفه المرض هكذا.

-أشكرك.

-على حدّ علمي، فقد سنحت الفرصة لوالتر إبيرستاد كي يجلس معك ويناقش تركة والدك عندما جئت لحضور جنازته.

قال إيميت: صحيح.

أوما المصرفي برأسه وفي عينيه نظرة تفهّم متعاطف.

-إذا، أظن أن والتر شرح لك أن والدك، قبل ثلاثة أعوام، أخذ قرضًا جديدًا فوق القرض القديم على العقار. وقتها، قال إنه يريد تحديث معدّاته. لكنني أظن، في الحقيقة، أن جزءًا معتبرًا من ذلك القرض ذهب لسداد ديون قديمة، حيث إن المُعدّة الوحيدة من مُعدّات الزراعة التي عثرنا عليها في العقار كانت جرّار «جون دير»⁽¹⁾ في الحظيرة. ولو أنني أعتقد أن الأمر لم يعد مهمًا الآن.

بدا أن إيميت ومستر رانسوم يوافقانه على أن الأمر لم يعد مهمًا الآن، لأنهما لم يهتمّا بالرد. وتنحّج المصرفي من جديد.

-النقطة التي أريد الوصول إليها هي أن المحصول، في الأعوام القليلة الماضية، لم يكن على قدر آمال والدك؛ وهذا العام، بالنظر إلى وفاة والدك، لن يكون هناك محصول على الإطلاق. لذلك ليس أمامنا خيار إلا المطالبة بمبلغ القرض. إنه إجراء سخيف يا إيميت، أعرف ذلك، لكنني أريدك أن تفهم أنه لم يكن قرارًا سهلاً على البنك.

قال مستر رانسوم: أظنه كان يجب أن يصير قرارًا سهلاً عليكم، فتلك ليست أول مرة تتخذونه.

نظر المصرفي إلى صاحب المزرعة.

-لا يا إيد، تعرف أن ذلك ليس عدلاً. لا يوجد بنك يعطي قرضًا على أمل المصادرة.

ثم استدار المصرفي مرة أخرى إلى إيميت.

-القرض بطبيعته يتطلب سداد الفوائد مع الأصل في مواعيد محددة. وحتى مع ذلك، عندما يكون العميل في وضع طيب ويتعثر، نبذل ما في إمكاننا لتقديم تسهيلات. نمدد الأجل ونؤجل التحصيل. ووالدك مثال نموذجي على ذلك. عندما بدأ يتعثر، أعطيناه وقتًا إضافيًا. وعندما مرض، أعطيناه المزيد من الوقت. لكن الإنسان يواجه أحيانًا سوء حظ يعجز عن التغلب عليه، بصرف النظر عن الأجل الذي تعطيه له.

(1) «جون دير»: شركة لمعدات المزارع الثقيلة. (م)

مدَّ المصرفي ذراعه ليضع يده على الملف البني، معترفًا أخيرًا بأنه يخصّه.

- كان بوسعنا إخلاء العقار وعرضه للبيع قبل شهر من الآن يا إيميت. كان ذلك من حقنا. لكننا لم نفعل ذلك. انتظرنا إلى أن تنهي مدتك في سالاينا وترجع إلى البيت لكي تنام في فراشك. أردنا أن تسنح لك فرصة أن تدخل البيت مع أخيك من دون أي استعجال، أن ترتب متعلقاتك الشخصية. بل إننا طلبنا من شركة الطاقة أن تواصل إمداد الغاز والكهرباء على نفقتنا الخاصة.

قال إيميت: - كان ذلك لطفًا حقيقيًا منكم. أطلق مستر رانسوم زفرة قصيرة هازئة. وتابع المصرفي: لكن الآن بعد عودتك، لعل الأفضل لكل الأطراف المعنية أن نبدأ في إجراءات إنهاء هذه المعاملة. وبوصفك وصيًا على تركة أبيك، سنحتاج منك أن توقع على بضع أوراق. وفي غضون بضعة أسابيع، يؤسفني القول إننا سوف نحتاج منك أن تنجز الترتيبات اللازمة لكي تنتقل أنت وأخوك إلى مكان آخر. - إذا كان لديك ما يحتاج إلى توقيع، فدعنا نوقعه.

أخرج مستر أوبرماير بضع وثائق من الملف. وأدارها لكي تواجه إيميت، وتصفح الأوراق، وهو يشرح الغرض من كل بند وبند فرعي، مترجمًا المصطلحات، ومشيرًا إلى المواضيع التي ينبغي التوقيع عليها بالاسم أو بالأحرف الأولى.

- هل معك قلم؟

ناول مستر أوبرماير إيميت قلمه. ووقع إيميت الأوراق بالاسم والأحرف الأولى من دون قراءتها، ثم دفعها مجددًا عبر الطاولة.

- هل هذا كل شيء؟

قال المصرفي، بعد أن أعاد الوثائق بأمان إلى الملف: شيء واحد آخر. السيارة في الحظيرة. عندما قمنا بالجرد الاعتيادي للبيت، لم نجد أوراق التسجيل ولا المفاتيح.

-وفيمَ تريدونها؟

-القرض الثاني الذي أخذه والدك لم يكن من أجل شراء آلات زراعية محددة. كان يشمل أي معدات رأسمالية تُشترى لأجل المزرعة، ويؤسفني أن ذلك يمتد للمركبات الشخصية.

-ليس لتلك السيارة. لا يشمل تلك السيارة.

-الآن يا إيميت...

-لا يشملها لأن هذه المعدة الرأسمالية لا تخص أبي. إنها تخصني.
نظر مستر أوبرماير إلى إيميت بخليط من التشكك والتعاطف -شعوران لا يجوز اجتماعهما، في نظر إيميت، على الوجه نفسه في الآن نفسه. أخرج إيميت محفظته من جيبه، وسحب منها أوراق التسجيل، ووضعها على الطاولة.

التقطها المصرفي واستعرضها.

-أرى أن السيارة باسمك يا إيميت، لكنني أخشى أن والدك قد اشتراها نيابة عنك...

-لم يحدث.

نظر المصرفي إلى مستر رانسوم بحثًا عن دعم. وإذ لم يجد، استدار إلى إيميت مرة أخرى.

قال إيميت: على مدار صَيْفَيْن، عملتُ لحساب مستر شولتي لأكسب نقودًا تمكّنتني من شراء تلك السيارة. رَكِبْتُ هياكل بيوت. كَسَوْتُ سقوفًا. أَصْلَحْتُ شرفاتٍ. بل إنني ساعدت في تثبيت تلك الخِزَانات الجديدة في مطبخك. إذا كنت لا تصدقني، تستطيع أن تذهب لتسأل مستر شولتي. لكن في كل الأحوال، لن تلمس تلك السيارة.

قَطَّبَ مستر أوبرماير جبينه. لكن عندما مد إيميت يده ليأخذ أوراق التسجيل، أعادها له المصرفي من دون اعتراض. وعندما أخذ ملفه، لم يُفاجأ كثيرًا عندما لم يعبأ لا إيميت ولا مستر رانسوم بتوصيله إلى الباب.

بعد مغادرة المصرفي، خرج مستر رانسوم لينتظر سالي وبيلي، تاركًا إيميت يتجول في البيت بمفرده.

مثل المطبخ، وجد إيميت أن الغرفة الأمامية مرتبة أكثر من المعتاد - حيث الوسادات معتدلة بصورة قائمة في زوايا الأريكة، والمجلات مرتبة في كومة صغيرة أنيقة على طاولة القهوة، وغطاء طاولة مكتب والده مُسدلاً. في الطابق العلوي، في غرفة بيلي، كان السرير مرتبًا، ومجموعتا أغنية الزجاجات وريش الطيور مصفوفتان بانتظام على رفّيهما، وإحدى النوافذ تُركت مفتوحة لتُدخل بعضي الهواء. ولا بد أن نافذة أخرى كانت مفتوحة على الجانب الآخر من الطرقة أيضًا، إذ هبَّ تيار من الهواء كان كافيًا لتحريك الطائرات الحربية المعلقة فوق سرير بيلي: مستنسخات من «سبّفاير»، و«وارهوك»، و«ثاندر بولت».

ابتسم إيميت برقةٍ لدى رؤيتها.

لقد صنع تلك الطائرات وهو في سن بيلي تقريبًا. أعطته أمه العدة في عام 1943، عندما لم يكن إيميت وأصدقاؤه يتحدثون إلا عن المعارك الدائرة في الساحات الأوروبية وساحات المحيط الهادي، عن باتون على رأس الجيش السابع وهو يجتاح شواطئ صقلية، وعن «سرب الأغنام السوداء» بقيادة بابي بوينغتون وهو يذيق العدو مرارة الهوان في بحر سليمان. كان إيميت قد جمّع النماذج على طاولة المطبخ بدقة مهندس. رسم الشعارات والأرقام المتسلسلة على الهياكل مستخدمًا أربع زجاجات صغيرة من طلاء المينا وفرشاة رقيقة الشعر. وعندما انتهى منها، وضعها جميعًا فوق الكومود في صفٍّ قطري، تمامًا مثلما كان لها أن تصطف فوق سطح حاملة طائرات.

منذ سن الرابعة، أظهر بيلي إعجابه بها. أحيانًا، عندما يرجع إيميت من المدرسة، كان يجد بيلي يقف على كرسيٍّ بجوار الكومود يتكلم مع نفسه بلغة طيار مقاتل. وهكذا، عندما بلغ بيلي السادسة، علق إيميت ووالده الطائرات من السقف فوق سرير بيلي كمفاجأة في عيد ميلاده.

واصل إيميت السير في الطُّرُقَة إلى غرفة والده، حيث وجد مظاهر الهدام نفسها: السرير مرتّب، الصور الفوتوغرافية على الكومود نظيفة من الغبار، الستائر مشدودة إلى الخلف ومعقودة بربطة فَرَاثَة. اقترب إيميت من إحدى النوافذ وتطلع إلى أرض والده. بعد أن ظلت الحقول تُحَرِّث وتُزْرَع لعشرين عامًا، تُرِكَت مهملةً لموسم واحد فقط، وها هي العين ترى الزحف الدؤوب للطبيعية - الشَّيْخ وزهرة الشَّيْخ وعُشْبَة الحديد شَقَّتْ الأرض وثَبَّتت مواضعها بين حشائش البراري. إذا تُرِكَت مهملة لبضعة أعوام أخرى، سوف تنظر فتظن أن أحدًا لم يفلح تلك الفدادين من قبل قط. هزَّ إيميت رأسه.

سوء حظ...

هكذا أسماه مستر أوبرماير. سوء حظ أعظم من أن يتغلب المرء عليه. وكان المصرفي محقًّا، إلى حدٍّ ما. فعندما يتعلق الأمر بسوء الحظ، كان لدى والد إيميت منه ما يكفي ويفيض دائمًا. غير أن إيميت عرف أن ذلك ليس كل شيء. فعندما يتعلق الأمر بسوء التقدير، كان لدى تشارلي واطسن ما يكفي ويفيض من ذلك أيضًا.

كان والد إيميت قد وفد إلى نبراسكا من بوسطن عام 1933، ترافقه زوجته الجديدة وحلمٌ بفلاحة الأرض. على مدار العقدَيْن التاليين، حاول زراعة القمح، والذرة، والصويا، بل والبرسيم، غير أن الخيبة واجهته عند كل منعطف. إذا اختار في عام ما أن يزرع محصولًا يحتاج إلى ماء وفير، ضَرَبَ الجفاف الأرض لعامين. فإذا انتقل إلى محصول يحتاج إلى شمس وفيرة، تجمَّعت السحب الرعدية في الغرب. الطبيعة لا ترحم، قد تقول معترضًا. إنها لا تبالي ولا سبيل إلى التنبؤ بها. لكن أن يغيّر المزارع المحاصيل التي يزرعها كل سنتين أو ثلاثة؟ حتى عندما كان صبيًّا لا يزال، عرف إيميت أن تلك أمانة لرجل لا يعرف ما الذي يفعله.

هناك، وراء الحظيرة، كانت معدةٌ من طراز خاص مستوردة من ألمانيا لحصد الذرة العُويْجَة. في زمنٍ ما كانت تُعتبر لازمةً ولا غنى عنها، لكنها

سرعان ما غدت غير ضرورية، والآن لم يعد لها استخدام -لأن والده لم يمتلك الحس السليم ليعيد بيعها فور أن توقّف عن زراعة الذرة العُويّجة. اكتفى بأن وضعها هناك في الفُسْحَة وراء الحظيرة معرّضة للأمطار والثلوج. عندما كان إيميت في عمر يبلي وكان أصدقاؤه يأتون إليه من المزارع المجاورة ليلعبوا معه -أولادٌ كانوا، في ذروة الحرب، متحمسين لتسلق أيّما معدّة آليّة والتظاهر بأنّها دبابة- لم يضعوا أقدامهم على الحصّادة، إذ استشعروا غريزيّاً أنّها فالٌ سيئ على نحو ما، وأن هيكلها الذي يأكله الصدأ ليس إلا ميراثاً للخبيّة على المرء أن يبقى بعيداً عنه، سواءً من باب الأدب أم من باب الحفاظ على النفس.

وهكذا، ذات ليلة، عندما كان إيميت في الخامسة عشرة والسنة الدراسية توشك على الانتهاء، استقل دراجته وذهب إلى البلدة، وطرق باب مستر شولتي، وطلب وظيفة. استغرب مستر شولتي من طلب إيميت حتى إنه أجلسه إلى طاولة الطعام وقدم له شريحة من فطيرة. ثم سأل إيميت ما الذي يجعل صبيّاً نشأ في مزرعة يرغب في قضاء إجازة الصيف وهو يدق المسامير. لم يذهب إيميت إلى مستر شولتي لأنه يعرف أنه رجل ودود، أو لأنه يعيش في أحد أجمل البيوت في البلدة. بل ذهب إليه لأنه تصوّر أن النجار لديه عمل طوال الوقت، ومهما حدث. فاليوت، مهما كانت المهارة التي شُيّدت بها، تنهالك. المفصّلات ترتخي، ألواح الأرضية تبلى، وصّلات السقف تتفسخ. وما عليك إلا أن تطوف بيت واطسن لكي ترى بعينيك الطرق المتنوعة التي يخلف بها الزمن آثاره على المباني الريفية.

في أشهر الصيف، كانت ثمة ليالٍ يعلو فيها هزيم الرعد أو صفير الريح الجافة ويسمع فيها إيميت والده يتقلب في الغرفة المجاورة، عاجزاً عن النوم -وليس من دون سبب. لأن المزارع الذي أخذ رهناً عقاريّاً يشبه رجلاً يمشي على درابزين جسر يبدئين ممدودتين وعينين مغمضتين. كانت حياة يُقاس فيها الفارق بين الوفرة والجَدَب بيضع بوصات من الأمطار أو بضع ليالٍ من الصقيع.

غير أن النجار لا يرقد صاحيًا في الليل قلقًا بشأن الطقس. بل يرحّب بقسوة الطبيعة. يرحّب بالعواصف الثلجية العنيفة والأمطار الغزيرة والأعاصير المدمرة. يرحب بظهور العفن وانقراض الحشرات. تلك قوى طبيعية تنال على نحو بطيء ولكن محتوم من سلامة البيت، وتضعف أساساته، وتفسخ دعاماته، وتُضعِف مَلاطه.

لم يقل إيميت كل ذلك عندما طرح عليه مستر شولتي السؤال. بل وضع شوكته على الطاولة، وأجاب ببساطة: المسألة كما أراها، يا مستر شولتي، أن الثيران كانت عند أيوب، أما نوح، فكانت عنده مطرقة. أطلق مستر شولتي ضحكة ووظف إيميت على الفور.

معظم المزارعين في الريف، إذا عاد أكبر أولادهم إلى البيت ذات ليلة ليقول إنه قد حصل على عمل عند نجار، كانوا سيعطونه كلمتين لا ينساها. وفوق ذلك، كانوا سيستقلون سيارتهم قاصدين بيت النجار ليعطوه هو الآخر كلمتين - كلمتين يتذكّرهما عندما تسوّل له نفسه مرة أخرى التدخل في تنشئة ابن رجل آخر.

لكن ليلة عاد إيميت إلى البيت وأخبر والده أنه حصل على وظيفة مع مستر شولتي، لم يغضب والده. بل أنصت باهتمام. وبعد لحظة من التفكير، قال إن مستر شولتي رجل صالح وإن النجارة مهارة مفيدة. وفي اليوم الأول من الصيف، أعدّ لإيميت فطورًا شهيًا وصَرَّ له غداءً، ثم أرسله مصحوبًا بمباركته إلى صنعة رجل آخر.

ولعلّ تلك كانت أمانة أخرى على سوء التقدير.

عندما عاود إيميت النزول إلى الطابق السفلي، وجد مستر رانسوم جالسًا على دَرَج الشرفة وساعده على ركبتيه وقبعته لا تزال في يده. جلس إيميت بجواره وجعل كلاهما يتطلّع إلى الحقول الجرداء. على مبعده نصف ميل، كنت ترى بالكاد السياج الذي يحدّد بداية مزرعة الرجل. وفقًا

لآخر حسابات إيميت، كان لدى مستر رانسوم أكثر من تسعمئة رأس من الماشية وثمانون رجلاً يعملون لصالحه.

قال إيميت: أريد أن أشكرك لأنك أخذت بيلى عندك.

- كان ذلك أقل ما نفعله. علاوة على ذلك، تستطيع تخيل مدى سعادة سالي بذلك. صحيح أن رعاية شؤوني المنزلية تكفيها وتفيض، لكن رعاية أخيك أمر آخر. لقد صرنا جميعاً نأكل أفضل منذ وصول بيلى. ابتسم إيميت.

- ولؤ. لقد صنع ذلك فارقاً كبيراً بالنسبة لبيلى؛ وكان من دواعي ارتياحي أن أعرف أنه في بيتكما.

أوماً مستر رانسوم برأسه، متقبلاً تعبير الشاب الصغير عن الامتنان. ثم قال بعد برهة: المأمور وليامز يبدو رجلاً صالحاً.

- إنه رجل صالح.

- لا يبدو مثل أهل كنساس...

- لا. لقد نشأ في فيلادلفيا.

أدار مستر رانسوم قبعته في يده. وأحس إيميت أن ثمة ما يدور في عقل جاره. كان يحاول أن يقرر كيف يقوله، أو ما إن كان ينبغي أن يقوله. أو ربما يحاول فقط اختيار اللحظة المناسبة لقوله. لكنك أحياناً تجد أن اللحظة قد اختيرت لك، مثلما عندما ظهرت سحابة من الغبار على بعد ميل في الطريق، مؤشِّرةً على اقتراب ابنته.

قال: -إيميت. المأمور واردن كان مصيباً حين قال إنك سددت دينك في ما يتعلق بالمجتمع. لكن بلدتنا هذه بلدة صغيرة، أصغر بكثير من فيلادلفيا، ولن تجد الجميع في مورغن يرون الأمر مثلما يراه المأمور. -أنت تتكلم عن آل سنايدر.

-أنا أتكلم عن آل سنايدر يا إيميت، لكن الأمر لا يقتصر على آل سنايدر. لديهم أقارب في هذه الأرياف. لديهم جيران وأصدقاء قدامى. لديهم أناس يتاجرون معهم وأبناء أبرشيتهم. كلنا نعرف أن الورطة التي

وجد جيمي سنايدر نفسه فيها، أيًا كانت، كانت من صنع يدي جيمي نفسه. على مدار السنين السبع عشرة التي عاشها، جلب الصبي على نفسه كل أنواع المشكلات. لكن ذلك لا يفرق مع أخوته. خاصةً بعد أن فقدوا جو الصغير في الحرب. فإذا لم يُرضهم كثيرًا أنك عوقبت بثمانية عشر شهرًا فقط في سالينا، فقد ثارت ثائرتهم، ولهم الحق، عندما عَرَفُوا بإطلاق سراحك مبكرًا ببضعة أشهر بسبب وفاة والدك. والأرجح أنهم سيفعلون ما بوسعهم ليجعلوك تشعر بوطأة ثائرتهم تلك بقدر الإمكان، مرة بعد مرة. لذلك، وبينما تنبسط حياتك بأكملها أمامك، أو بالأحرى، لأن حياتك بأكملها تنبسط أمامك، لعلك تفكر في أن تبدأها في مكان آخر.

قال إيميت: لا داعي للقلق. بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الآن، أعتقد أنني وبيلي لن نكون في نبراسكا. أو ما مستر رانسوم برأسه.

- حيث إن والدك لم يترك لك الكثير، أريد أن أعطيكما أنتما الاثنين شيئًا صغيرًا يساعدكما في بدايتكما الجديدة.

- لا أستطيع أن أقبل نقودًا يا سيد رانسوم. لقد فعلت لنا ما يكفي بالفعل.

- إذا، اعتبرها قرضًا. تستطيع أن ترده فور أن تستقر.

علق إيميت: في الوقت الحالي، أظن أن آل واطسن شَبَعُوا من القروض.

ابتسم مستر رانسوم وأوما برأسه. ثم نهض ووضع قبعته على رأسه بينما كانت «البليك أب» القديمة التي يُسمونها «بيتي»، تهدر في المدخل وسالي وراء عجلة قيادتها وبيلي في الكرسي المجاور لها. قبل أن تنزل متوقفة بفرقة انطلقت من ماسورة العادم، كان بيلي يفتح الباب ويقفز إلى الأرض. وبحقيبة قماشية معلّقة على كتفيه، تصل إلى مقعدة بنطاله، ركض متجاوزًا مستر رانسوم ولف ذراعيه حول خصر إيميت.

نزل إيميت على ركبتيه لكي يحضن أخاه الصغير.

كانت سالي تقترب الآن في فستان أحد زاهي الألوان وفي يديها صينية فُرن وعلى وجهها ابتسامة.

أمعن مستر رانسوم النظر في الفستان والابتسامة، بَسَمَتْ فلسفي.
قالت: طيب. انظروا من هنا. لا تَعْصُرْه هكذا يا بيلي واطسن، سيموت
في يديك.

نهض إيميت ووضع إحدى يديه على رأس أخيه.
- أهلاً يا سالي.

كعادتها عندما تتوتر، دخلت سالي في صُلب الموضوع: البيت كُنُس
وكل الأسرة سُوِّيت، وهناك صابونة جديدة في الحمام، وزبدة وحليب
وببيض في البرّاد.

قال إيميت: -شكراً يا سالي.

-اقترحْتُ أن تنضمّا إلينا على العشاء، لكن بيلي أصر على أن تأكلا
أول وجبة لكما معاً في البيت. وحيث إنك عدت لتوك، فقد أعددتُ لكما
«كاسرول».

-لم تكوني مضطرة لأن تتعبي نفسك بكل ذلك يا سالي.

-تعبُ أو لا تعب، ها هو. كل ما عليك أن تضعه في الفرن على درجة
350 لخمس وأربعين دقيقة.

وإذ أخذَ منها إيميت «الكاسرول»، هزّت سالي رأسها.

-كان يجب أن أكتب ذلك.

قال مستر رانسوم: أعتقد أن إيميت يستطيع تذكّر التعليمات. وإذا لم
يتذكر، سيتذكرها بيلي بالتأكيد.

قال بيلي: نضعه في الفرن على درجة 350 لخمس وأربعين دقيقة.

استدار مستر رانسوم إلى ابنته.

-أنا متأكد أن الأولاد متلهفون لتبادل الأخبار، ونحن لدينا بعض

الشؤون في البيت.

-سأدخل لدقيقة واحدة فقط لأؤكد من أن كل شيء...

-سالي!

هكذا قال مستر رانسوم بطريقة لا تقبل الجدل.

أشارت سالي إلى بيلي وابتسمت.

-انتبه إلى نفسك أيها الصغير.

أخذ إيميت وبيلي يراقبان مستر رانسوم وسالي بينما يصعد كل منهما إلى شاحته ويقودها إلى الطريق. ثم استدار بيلي إلى إيميت واحتضنه ثانية.

-أنا سعيد بعودتك إلى البيت يا إيميت.

-وأنا سعيد بعودتي إلى البيت يا بيلي.

-لن يكون عليك الرجوع إلى سالينا هذه المرة، صحيح؟

-لا. لن يكون عليّ الرجوع إلى سالينا. هيا بنا.

أطلق بيلي سراح إيميت، ودخل الأخوان البيت. في المطبخ، فتح إيميت البرّاد ووضع «الكاسرول» في الرف السفلي. على الرف العلوي كان الحليب والبيض والزبدة الموعودة. وكان هناك أيضًا برطمان من صلصة التفاح المصنوعة منزليًا وآخر من الخوخ المحفوظ.

-تريد أن تأكل شيئًا؟

-لا، شكرًا يا إيميت. سالي أعطتني شطيرة من زبدة الفول السوداني

قبل أن تأتي مباشرة.

-ماذا عن بعض الحليب؟

-بالطبع.

بينما يصب إيميت كوبين من الحليب ويضعهما على الطاولة، أنزل بيلي حقيبة ظهره ووضعها على كرسي شاغر. فتح الغطاء العلوي، وأخرج بحرص حزمة صغيرة ملفوفة بورق الألومنيوم، ثم فضّها. كانت كومة من ثمانين قطع من «الكوكيز». وضع اثنتين على الطاولة، واحدة لإيميت وواحدة لنفسه. ثم طوى ورق الألومنيوم، وأعاد بقية «الكوكيز» إلى حقيبة ظهره، وأغلق إبريمي الغطاء، ورجع إلى مقعده.

قال إيميت: -يا لها من حقيبة!

قال بيلي: -إنها حقيبة جيش حقيقية من حقائب الجيش الأمريكي. ولو

أنها من النوع الذي يسمونه «مخلفات الجيش»، لأنها لم تصل إلى الحرب فعليًا. اشتريتها من متجر مستر غندرسون. وحصلتُ أيضًا على مصباح يدوي من المخلفات وبوصلة من المخلفات وهذه الساعة من المخلفات. مدَّ بيلى ذراعه ليعرض الساعة الملفوفة بصورة سائبة حول معصمه.

-فيها عقربٌ للثواني أيضًا.

بعد أن أبدى إيميت إعجابه بالساعة، تناول قضمة من «الكوكيز».

-لذيذة. برقائق الشوكولاته؟

-نعم. سالي صنعتها.

-هل ساعدتها؟

-نظفتُ السلطانية.

-طبعًا.

-الحقيقة أن سالي صنعت عَجَنَةً كاملةً، لكن مستر رانسوم قال إن ذلك سيكون كثيرًا جدًّا، فقالت له إنها ستعطينا أربع قطع فقط، لكنها أعطتنا ثماني في السر.

-لحسن حظنا.

-أحسن من أن نحصل على أربع قطع فقط. لكن لو حصلنا على العَجنة كلها لكان أحسن وأحسن.

ابتسم إيميت وتناول رشفة من الحليب، وهو يقيّم أخاه من فوق حافة الكوب. كان أطول بنحو بوصة كاملة وشعره أقصر، مثلما يقتضي وجوده في بيت آل رانسوم، لكن بخلاف ذلك بدا بالجسد نفسه والروح نفسها. بالنسبة لإيميت، كان الابتعاد عن بيلى هو الجزء الأصعب في ذهابه إلى سالينا، لذا أسعده أن يجده لم يتغير كثيرًا. كان سعيدًا بالجلوس معه حول طاولة المطبخ القديمة. ورأى أن بيلى سعيد بالجلوس هناك هو الآخر.

سأله إيميت، وهو يضع الكوب على الطاولة: السنة الدراسية انتهت بخير؟

أوما بيلى برأسه.

-حصلتُ على مئة وخمسة بالمئة في اختبار الجغرافيا.

-مئة وخمسة بالمئة!

شرح بيلى :- عادةً، لا يوجد شيء اسمه مئة وخمسة بالمئة. عادةً، مئة بالمئة من أي شيء هي أقصى ما تستطيع الحصول عليه.

-وكيف إذا انتزعت خمسة بالمئة إضافية من مسز كوبر؟

-كان هناك سؤال بدرجات إضافية.

-وماذا كان السؤال؟

اقتبس بيلى من الذاكرة.

-ما أعلى بناية في العالم.

-وعرفت الإجابة؟

-عرفتها.

...

-ألن تخبرني بها؟

هز بيلى رأسه.

-هذا سيكون غشاً. عليك أن تعرف بنفسك.

-كلام معقول.

بعد لحظة من الصمت، أدرك إيميت أنه يحدّق في حليبه. الآن، كان هو من لديه شيء يشغل عقله. هو من يحاول أن يقرّر كيف يقوله، أو إذا ما كان ينبغي أن يقوله، أو متى يقوله.

استهلّ كلامه: بيلى. لا أعرف ماذا قال لك مستر رانسوم، لكننا لن نستطيع أن نعيش هنا بعد الآن.

قال بيلى: -أعرف. بسبب المصادرة.

-صحيح. هل تفهم معنى ذلك؟

-معناه أن «بنك الادخار والتسليف» يمتلك بيتنا الآن.

-هذا صحيح. لكن حتى إذا كانوا سيأخذون البيت، كان يمكننا أن نبقى في مورغن. كان يمكننا أن نعيش مع آل رانسوم لبعض الوقت، وأرجع أنا

للعمل مع مستر شولتي، وعندما يأتي الخريف ترجع أنت إلى المدرسة، وفي نهاية المطاف ندّخر ما يمكننا من الحصول على بيت خاص بنا. لكنني فكرت أن ذلك قد يكون وقتًا مناسبًا لنا أنت وأنا لكي نجرّب شيئًا جديدًا... كان إيميت قد فكّر كثيرًا كيف يصيغ كلماته، لأنه خشي أن تتسبّب فكرة مغادرة مورغن في اضطراب لبيلي، خاصة وأنه لم يمضِ إلا وقت قصير منذ وفاة والدهما. غير أن لبيلي لم يكن مضطربًا على الإطلاق.

-وأنا كنت أفكر في الأمر نفسه يا إيميت.

-فعلًا؟

أوما لبيلي برأسه بقدر من الحماسة.

-بعد رحيل بابا ومصادرة البيت، لم يعد هناك ما يُلزمنا بالبقاء في مورغن. نستطيع أن نحزم أغراضنا وننطلق بالسيارة إلى كاليفورنيا. قال إيميت بابتسامة:-أعتقد أننا متفقان. الفارق الوحيد أنني أرى أن نتجه إلى تكساس.

قال لبيلي، وهو يهز رأسه:-أوه، لا نستطيع أن نتجه إلى تكساس.

-ولمّ لا؟

-لأننا يجب أن نتجه إلى كاليفورنيا.

فتح إيميت فمه ليتكلم، غير أن لبيلي كان قد نهض بالفعل عن كرسيه واتجه إلى حقيبة ظهره. هذه المرة، فتحَ الجيب الأمامي، وأخرج مطروفاً أصفر صغيراً، وعاد إلى مقعده. وبينما كان يفك الخيط الأحمر بحرص ليفتح المطروف، شرع يشرح: بعد جنازة بابا، عندما ذهبتُ إلى سالاينا، أرسلنا مستر رانسوم أنا وسالي إلى البيت لنبحث عن الأوراق المهمة. في الدُّرج السفلي من كومود بابا، وجدنا علبة معدنية. لم تكن مقفلة، لكنها كانت من ذلك النوع الذي تستطيع قفله إذا أردت. بداخلها كانت أوراق مهمة، تمامًا مثلما قال مستر رانسوم -مثل شهادات ميلادنا وقسيمة زواج ماما وبابا. لكن في أسفل العلبة، في قاعها، وجدتُ هذه.

قَلَبَ لبيلي المطروف على الطاولة فانزلقت منه تسع بطاقات بريدية.

استطاع إيميت أن يحزر من خلال حالة البطاقات أنها ليست قديمة جدًا ولا جديدة جدًا. بعضها كان صورًا فوتوغرافية والبعض الآخر رسومًا، لكنها جميعًا ملونة. كانت البطاقة العلوية صورة لـ «ويلش موتور كورت» في أوغالا، نبراسكا. نُزِلَ حديثُ المظهر به شاليهات بيضاء وزراعات على جانبي الطريق وسارية تحمل العلم الأمريكي.

قال بيلي: -إنها بطاقات بريدية. لك ولي. من ماما.

بُوِغَت إيميت. كانت قُرابة ثمانِي سنوات قد مرّت منذ وضعتهما أمُّهما في الفراش، وقَبَلَتْهما متمنيّةً لهما ليلة سعيدة، وخرَجَت من الباب -ولم يسمعا كلمة منها بعد ذلك. لا مكالمات هاتفية. لا خطابات. لا طرود ملفوفة بأناقة تصل قبل الكريسماس. ولا حتى نيمية من شخص تصادف وأن سمع شيئًا من شخص آخر. على الأقل، كان ذلك الوضع كما ظنّه إيميت، إلى الآن.

التقط إيميت بطاقة «ويلش موتور كورت» وقَبَلَهَا. مثلما قال بيلي، كانت موجهةً إليهما بخطّ أمهما الأنيق. وكعادة البطاقات البريدية، كان النصُّ محصورًا في بضعة أسطر. كانت الجُمَل، معًا، تعبّر عن مدى اشتياقها لهما بالفعل بالرغم من أنها لم ترحل إلا منذ يوم واحد. تناول إيميت بطاقة أخرى من الكومة. في الزاوية اليسرى العليا كان «كاوبوي» على ظهر حصان، والأنشطة التي يدورّها تمتدّ إلى واجهة البطاقة وقد كُتِبَ داخلها تحياتي من رولينز، وايومِنغ - عاصمة السهول. قَلَبَ إيميت البطاقة. في سِتِّ جُمَل، منها واحدة ملتقّة حول الزاوية اليمنى السفلى، كتبت أمُّهما أنها لم تَرَ حتى الآن «كاوبوي» يدورّ حبلًا في رولينز، لكنها رأت الكثير من الأبقار. واختتمّت بالتعبير مجددًا عن مدى حبها واشتياقها لهما.

استعرض إيميت بعينه البطاقات الأخرى على الطاولة، قارئًا أسماء مختلف البلدات، الموتيلات والمطاعم، المناظر والمعالم، ملاحظًا أن كل الصور باستثناء واحدة تُعدُّ بسما زرقاء صافية.

وإذ أدرك إيميت أن أخاه يراقبه، حافظ على جمود قسماته. لكنه شعر
بوخزة استياء -استياء من والدهما. لا بد أنه قطع الطريق على البطاقات
وأخفاها بعيداً عنهما. لا يهتم مدى غضبه من زوجته، ليس من حقه أن
يخفيها عن ولديه، وخصوصاً عن إيميت، الذي كان كبيراً بما يكفي لأن
يقرأها بنفسه. غير أن الوخزة التي شعر بها إيميت لم تستمر لأكثر من
لحظة. لأنه عرف أن والده فعل الشيء الحكيم الوحيد. في نهاية المطاف،
أيُّ خير يمكن أن يُرتجى من تلقى، من حين لآخر، بضع جُمْل مكتوبة على
ظهر بطاقة مقاس ثلاث في خمس بوصات بيد امرأة هَجرت طفليها بكامل
رغبتها؟

أعادَ إيميت البطاقة من رولينز إلى الطاولة.

سأله بيلي: -تذكر كيف غادرتنا ماما في الخامس من يوليو؟

-أتذكر.

-ظَلَّت تكتب لنا بطاقة كل يوم على مدار الأيام التسعة التالية.

تناول إيميت البطاقة من أوغالا لثانيةً ونظر إلى ما فوق المنطقة التي
كُتبت فيها أهمها عزيزاي إيميت وبيلي، لكنه لم يجد تاريخاً.

قال بيلي: -لم تكتب أُمي التواريخ. لكنك تستطيع معرفتها من الأختام
البريدية.

أخذ بيلي بطاقة أوغالا من يد إيميت، وقلَّب كل البطاقات، فاردًا إيَّاهَا
على الطاولة، وأخذ يشير من خِتم إلى آخر.

-الخامس من يوليو. السادس من يوليو. لم يكن هناك سابع من يوليو،
لكنَّ هناك اثنتان في الثامن من يوليو. هذا لأن السابع من يوليو، عام 1946،
كان يوم أحد ومكتب البريد يغلق يوم الأحد، لذا كان عليها أن ترسل
بطاقتين يوم الاثنين. لكن انظر إلى هذه.

رجع بيلي إلى الجيب الأمامي لحقيبة ظهره وأخرج شيئاً بدا وكأنه
مطوية. عندما فردها على الطاولة، رأى إيميت أنها خريطة طُرُق للولايات
المتحدة من إحدى محطات «فيلبس 66» للوقود. وكان يشقُّ الخريطة من

أولها لآخرها، في المنتصف، طريقٌ علّمه بيلي بالحبر الأزرق. في النصف الغربي من البلاد رُسِمَت دوائر حول أسماء تسع بلدات على طول المسار. شرح بيلي، وهو يشير إلى الخط الأسود الطويل: هذا طريق لينكون السريع. لقد اخترع عام 1912 وسُمِّي باسم أبراهام لينكون، وكان الطريق السريع جدًا الذي يمتد من أحد طرفي أمريكا إلى الطرف الآخر. بادئًا من ساحل المحيط الأطلسي، جعل بيلي يتتبع الطريق السريع بطرف إصبعه.

-يبدأ من ميدان تايمز سكوير في مدينة نيويورك وينتهي على بعد ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعين ميلًا في حديقة لينكون بارك في سان فرانسيسكو. وهو يشقُّ مدينة سِستِرا ل سيتي، على بعد خمسة وعشرين ميلًا فقط من بيتنا. توقف بيلي للحظة لكي يَنقِلَ إصبعه من سِستِرا ل سيتي إلى النجمة السوداء الصغيرة التي كان قد رسمها على الخريطة ليؤشِّر بها إلى موضع بيتهما.

-عندما غادرتنا ماما في الخامس من يوليو، هذا هو الطريق الذي مضت فيه...

رفع بيلي البطاقات البريدية، وقَلَبَهَا وشرع يصفّها على النصف الأسفل من الخريطة في تتابع باتجاه الغرب، واضعًا كل بطاقة تحت البلدة التي تقابلها.

أوغالالا. شايان. رولينز. روك سبرينغز. سولت ليك سيتي. إيلي. رينو. ساكرامنتو.

حتى البطاقة الأخيرة، التي تصوّر بناية كلاسيكية كبيرة تنتصب فوق نافورة في إحدى حدائق سان فرانسيسكو.

أطلق بيلي زفرة رضا بعد أن رأى البطاقات مرتبة على الطاولة. بيد أن المجموعة حين اكتملت أربكت إيميت، وكأنهما ينظران إلى المراسلات الخاصة بشخص آخر - شيء لا يصحُّ لهما رؤيته.

قال: -بيلي، أنا لست واثقًا أننا ينبغي أن نذهب إلى كاليفورنيا.

-يجب أن نذهب إلى كاليفورنيا يا إيميت. ألا ترى؟ هذا هو ما جعلها ترسل لنا البطاقات. لكي نستطيع تعقبها.
-لكنها لم ترسل أي بطاقة منذ ثمانية أعوام.
-لأنها بتاريخ الثالث عشر من يوليو توقفت عن الحركة. كل ما علينا أن نفعله هو أن نأخذ طريق لينكون السريع إلى سان فرانسيسكو، وهناك سنجدها.

شعر إيميت برغبة غريزية في أن يقول شيئًا حكيمًا لأخيه يشبه عن أفكاره. شيء عن أهمها، كيف أنها لم تتوقف بالضرورة في سان فرانسيسكو، وكيف أنها يمكن أن تكون قد استمرت في طريقها بكل بساطة، والأرجح أنها فعلت ذلك؛ وأنها رغم تفكيرها في ولديها في تلك الليالي التسع الأولى، فإن كل الدلائل تشير إلى أنها لم تعد تفكر فيهما من وقتها. لكنه استقر، في نهاية المطاف، على الإشارة إلى أنها حتى لو كانت في سان فرانسيسكو، فسوف يكون من المستحيل فعليًا العثور عليها.

أوما بيلي برأسه بطريقة شخص سبق وأن فكّر في تلك المعضلة.
-هل تتذكر كيف أخبرتني أنّ ماما تحب الألعاب النارية جدًا، وأنها كانت تأخذنا في طريق طويل إلى سيوارد في الرابع من يوليو لكي نشاهد العرض الكبير؟

لم يتذكر إيميت أنه أخبر أخاه بذلك، وحين وُضع كل الأمور في الاعتبار، لم يتخيل أنه شعر برغبة يومًا في أن يفعل ذلك. لكنه لم يستطع إنكار صحة المقولة نفسها.

مد بيلي يده إلى البطاقة الأخيرة، تلك التي تصوّر البناية الكلاسيكية والنافورة. وبعد أن قلبها، سار بإصبعه على كلمات أمه.

-هذا هو قصر جوقة الشرف في حديقة لينكون بارك في سان فرانسيسكو وفي كل عام في الرابع من يوليو يقام فيه واحد من أكبر عروض الألعاب النارية في كاليفورنيا كلها.
رفع بيلي وجهه إلى أخيه.

- سوف تكون في ذلك المكان يا إيميت. في عرض الألعاب النارية في قصر جوقة الشرف في الرابع من يوليو.

شرع إيميت يقول: -بيلي...

غير أن بيلي، الذي تبين بالفعل التشكك في صوت أخيه، بدأ يهز رأسه بقوة. ثم عاد ونظر إلى الخريطة على الطاولة، وسار بإصبعه على مسار أمهما.

-أوغالالا إلى شايان، شايان إلى رولينز، رولينز إلى روك سبرينغز، روك سبرينغز إلى سولت ليك سيتي، سولت ليك سيتي إلى إيلي، إيلي إلى رينو، رينو إلى ساكرامنتو، وساكرامنتو إلى سان فرانسيسكو. هذا هو الطريق الذي سنسلكه.

أرجع إيميت ظهره في كرسيه وأخذ يفكر.

لم يكن قد اختار تكساس عشوائيًا. كان قد فكر في سؤال إلى أين ينبغي أن يتجه هو وأخوه، بطريقة متأنية ومنهجية. قضى ساعات في المكتبة الصغيرة في سالاينا يقلب صفحات «الدليل الشامل» وأجزاء دائرة المعارف إلى أن أصبح سؤال إلى أين ينبغي أن يتجها واضحًا تمامًا. غير أن بيلي ظل يسلك مسار تفكيره الخاص بالتأني نفسه، والمنهجية نفسها، وكان يرى إجابته الخاصة عن السؤال بالوضوح نفسه.

-طيب يا بيلي، سأقول لك شيئًا. لماذا لا تعيد هذه البطاقات إلى مظروفها وتركنا نأخذ بعض الوقت للتفكير في ما قلته.

بدأ بيلي يومئ برأسه من جديد.

-هذه فكرة جيدة يا إيميت. هذه فكرة جيدة.

جمع بيلي البطاقات البريدية معًا مرتبًا إياها من الشرق إلى الغرب، ودسها في مظروفها، ولف الخيط الأحمر إلى أن أحكم إغلاقه، وأعادها إلى حقيبته.

-خذ بعض الوقت للتفكير في الأمر يا إيميت. وسترى.

في الطابق العلوي، انشغل بيلي في شؤونه داخل غرفته، وأخذ إيميت حَمَامًا طويلًا، ساخنًا. عندما انتهى، جمع ملابسه من على الأرض -الملابس التي كان قد ارتداها في ذهابه إلى سالاينا ورجوعه منها- وأخرج علبة السجائر من جيب القميص، وألقى بالكومة في القمامة. بعد لحظة، تخلص من السجائر أيضًا، حريصًا على أن يدسّها تحت ملابسه.

في غرفته، ارتدى بنطال جينز جديدًا وقميصًا من الدنيم مع حزامه المفضّل وحذائه المفضّل. ثم مد يده في دُرج الكومود العلوي وأخرج زوجين من الجوارب ملفوفين على هيئة كرة. فَرَدَهُمَا، ونفضَ أحدهما إلى أن سقطت منه مفاتيح سيارته. ثم عبرَ الطرقة ودسَّ رأسه في غرفة أخيه.

كان بيلي جالسًا على الأرض إلى جوار حقيبة ظهره. في حِجره علبة التبغ الصفيح الزرقاء القديمة التي تحمل صورة لجورج واشنطن، بينما على البساط كل دولاراته الفضية مرتّبة في أعمدة و صفوف.

قال إيميت: -يبدو أنك وجدت المزيد وأنا بعيد.

أجابه بيلي، وهو يضع أحد الدولارات في مكانه بحرص: -ثلاثة.

-وكم بقي لك حتى تكتمل المجموعة.

جعل بيلي يلكز المواضع الخالية في شبكة الصفوف والأعمدة بسبابته. 1881.- 1894. 1895. 1903.

-لقد اقتربت جدًا.

أومأ بيلي برأسه موافقًا.

-لكن سيكون من الصعب جدًا العثور على دولارَيّ عام 1894 وعام

1895. كنت محظوظًا بالعثور على دولار عام 1893.

ثم رفع رأسه إلى أخيه.

-هل كنت تفكر في أمر كاليفورنيا يا إيميت؟

-كنت أفكر في الأمر، لكنني أحتاج إلى التفكير أكثر قليلًا.

-طَيِّب.

عندما أعاد بيلي انتباهه إلى دولاراته الفضية، أجال إيميت بصره في

غرفة أخيه للمرة الثانية ذلك اليوم، ومن جديد جعل يتمعن في المجموعتين المصفوفتين بانتظام على الرقّين، وفي الطائرات المعلقة فوق السرير.
-بيلي...

رفع بيلي رأسه من جديد.

-سواءً ذهبنا إلى تكساس أم كاليفورنيا، أظن سيكون من الأفضل أن نسافر خفيفين. ما دمنا ننوي أن نبدأ بداية جديدة.

-كنت أفكر في الأمر نفسه يا إيميت.

-فعلاً؟

-البروفيسور أبرناثي يقول إن المسافرين الجسور حين ينطلق في رحلته لا يحمل إلا ما تتسع له حقيبة عُدة. لهذا السبب اشتريتُ حقيبة ظهري من متجر مستر غندرسون. لكي أكون جاهزاً للمغادرة فور رجوعك إلى البيت. معي بالفعل كل شيء أحتاج إليه فيها.

-كل شيء؟

-كل شيء.

ابتسم إيميت.

-سأذهب إلى الحظيرة لألقي نظرة على السيارة. تريد أن تأتي؟

سأل بيلي متفاجئاً: -الآن؟ انتظر! لحظة واحدة! لا تذهب من دوني!
بيلي، الذي كان قد وضع الدولارات الفضية على البساط وفقاً لتسلسلها الزمني، جعل الآن يقشّها بيده ويرميها في مكانها في علبة التبغ الصفيح بأسرع ما في إمكانه. أغلق الغطاء، وأعاد العلبة الصفيح إلى داخل حقيبته وأعاد تعليق الحقيبة على ظهره. ثم تقدّم نزولاً على السلم وخروجاً من الباب.

بينما يجتازان الفناء، نظر بيلي من فوق كتفه ليبلغ أخاه أن مستر أوبرماير وضع قفلاً على باب الحظيرة، لكن سالي كسرتة بعتلة تحتفظ بها في مؤخرة شاحنتها.

كما هو متوقّع، وجدا سنادة القفل المثبّنة بباب الحظيرة -والقفل لا

يزال مغلقًا حولها- متدليةً من دون إحكام على براغيها. في الداخل، كان الهواء دافئًا ومألوفًا، تفوح منه رائحة ماشية رغم أنهم لم يربّوا ماشية في المزرعة منذ كان إيميت صبيًا.

توقّف إيميت ليترك عينيه تتكيفان. أمامه كان جرّار «جون دير» الجديد ومن ورائه حصّادة قديمة متهالكة. أكمل إيميت سيره إلى مؤخرة الحظيرة، وتوقّف أمام جسم كبير ذي مِثل مغطّى بالقماش.

قال بيلي: -مُسْتَر أوبرماير نزع الغطاء، لكننا أعدناه أنا وسالي. قبض إيميت على زاوية الغطاء، وسحبّه بيديه إلى أن ألقيه تحت قدميه، وهناك، منتظرًا حيث تركّها قبل خمسة عشر شهرًا، كانت سيارة بلون سماوي فاتح وأربعة أبواب -سيارته الـ«ستاديبكر لاندكروزر» موديل 1984.

بعد أن مرّر إيميت كفّه على غطاء المحرك، فتح باب السائق ودخل. لبرهة، جلس ساكنًا ويداه على عجلة القيادة. عندما اشتراها، كانت قد قطعت 80 ألف ميل على عدّاد المسافات، وكانت بها انبعاجات على غطاء المحرك، وحروق سجائر في كِسوة الكراسي، لكنها كانت تسير بنعومة. أدخل المفتاح وأداره، وضغط زر بدء التشغيل، مستعدًا لسماع قرقرة المحرك اللطيفة -لكنها ظلت صامتة.

بيلي، الذي كان قد ظل واقفًا على مسافة، اقترب مترددًا.
-عَطْلَانَة؟

-لا يا بيلي. لا بد أن البطارية فارغة. يحدث هذا عندما تترك السيارة متوقفة لوقت طويل. لكنها مشكلة سهلة الحل.
بدا الارتياح على وجه بيلي، وجلس على حزمة قش وأنزل حقيبة ظهره.
-هل تريد قطعة «كوكيز» أخرى يا إيميت.
-أنا بخير. لكن تفضل أنت.

بينما يفتح بيلي حقيبته، خرج إيميت من السيارة، ودار حولها، وفتح الصندوق. وإذا اطمأن إلى أن الغطاء المرفوع يحجب أنظار أخيه، شدّ كِسوة

اللباد التي تغطي التجويف حيث يستكنّ الإطار الاحتياطي ومرر يده بلطف حول انحناءته الخارجية. في الأعلى، وجد المظروف الذي يحمل اسمه، بالضبط حيث قال والده إنه سيجده. وبداخله كانت رسالة بخط والده. مكتوب آخر بخط اليد من شبح آخر، هكذا فكر إيميت.

ولدي العزيز،

عندما تقرأ هذه الرسالة، أظن أن المزرعة سوف تكون في أيدي البنك. ربما تكون غاضبًا أو محبطًا مني لهذا السبب، ولن ألوّمك على ذلك.

ستذهل حين تعرف قدر ما تركه لي والدي عند وفاته، وقدر ما تركه جدي لوالدي، وقدر ما تركه له جدي الأكبر. لا أتكلّم عن أسهم وسندات فقط، بل عن بيوت ولوحات فنية. أثاث وفضيات مائدة. عضويّات في نوادي وجمعيات. هؤلاء الرجال الثلاثة جميعًا كرّسوا أنفسهم للتقليد البيوريتاني القائم على نيل الحظوة في عيني الرب بأن يتركوا لأولادهم أكثر مما تُرك لهم. في هذا المظروف، ستجد كل ما تركته لك - تَرَكَتَن، واحدة كبيرة، والأخرى صغيرة، كلاهما مدنّس بصورة ما.

بينما أكتب لك هذه الرسالة، أشعر بقدر من العار كوني، إذ اخترت أن أعيش حياتي مثلما عشتها، كسرت الدائرة الفاضلة التي كرّسها أسلافي. مع ذلك، يملأني في الوقت نفسه الفخر لمعرفتي أنك سوف تحقق باستخدام هذا التذكّار الصغير، بلا شك، أكثر مما كان لي أن أحقق بثروة معتبرة.

مع حبي وإعجابي،

والدك، تشارلز وليام واطسن.

كانت أولى التَرَكَتَيْن مشبوكةً إلى الخطاب بمشبك ورق: صفحة واحدة منتزعة من كتاب قديم.

لم يكن والد إيميت من النوع الذي يصبُّ جام غضبه على أولاده حتى عندما يستحقون ذلك. في الحقيقة، المرة الوحيدة التي يتذكر إيميت أن والده احتدَّ فيها عليه بقوة كانت عندما أرسلوه من المدرسة إلى البيت لأنه شوَّه كتابًا مدرسيًا. في ذلك اليوم، أوضح له بكل شدَّة أن تشويه الكتب من شيم البرابرة. إنه بمثابة توجيه ضربة إلى أكثر منجزات الإنسان قدسية ونبلاً - القدرة على تسطير أفضل أفكاره ومشاعره لكي تتوقَّر لبني جنسه أجيالاً وراء أجيال.

هكذا، كان انتزاع والده لصفحة من كتاب ضرباً من التدنيس. وما جعل الأمر صادمًا أكثر أن تلك الصفحة انتزعت من كتاب «المقالات» لـرالف والدو إمرسون⁽¹⁾ - ذلك الكتاب الذي أجَّلَّه والده أكثر من أي كتاب آخر. أسفل الصفحة وضع والده بحرص خطأً بالجبر الأحمر تحت جُمْلَتَيْن. ثمة لحظة في تعلم كل إنسان يصل فيها إلى قناعة أن الحسد جهل؛ أن التقليد انتحار؛ أنه يجب أن يقبل نفسه بحلوها ومرَّها، كقدَّره ونصيبه؛ أنه، رغم كَوْن العالم مليئًا بالخيرات، لن ينال حبة ذرة واحدة يقات عليها إلا من خلال ما يسبغه من كدٍّ على قطعة الأرض التي مُنحت له لكي يفلحها. فالقوة التي تَسْكُنُه مستجدة في طبيعتها، ولا أحد غيره يعرف ماذا يستطيع أن يفعل بها؛ وحتى هو لا يعرف ذلك إلا أن يحاول.

لاحظ إيميت أن هذه الفقرة من إمرسون تمثل شيئين في الوقت نفسه. أولاً، تمثل اعتذارًا؛ تفسيرًا للسبب الذي جعل والده، على خلاف كل منطق سليم، يترك وراءه البيوت واللوحات الفنية، عضويَّات النوادي والجمعيات، لكي يأتي إلى نبراسكا ويفلح الأرض. قدَّم والد إيميت هذه الصفحة من إمرسون كدليل - وكأنها أمرٌ مقدَّس - على كونه لم يملك خيارًا آخر.

(1) الفقرة من مقالة «الاعتماد على الذات»، إحدى أشهر المقالات في الأدب الأمريكي، وتُعد فقرة مركزية في «الفلسفة المتعالية» الأمريكية. (م)

لكن إذا كانت، من ناحية ما، اعتذارًا، كانت، من ناحية أخرى، تحريضًا -تحريضًا لإيميت على ألا يشعر بالندم، ولا الذنب، ولا التردد وهو يدبر ظهره للثلاثمئة فدان التي كرّس لها والده نصف حياته، ما دام يهجرها لكي يلاحق قَدْرَه ونصيبه من دون حسد ولا تقليد، وما دام يكتشف، إِبَان ذلك، قدراته التي لا يمتلكها غيره.

وراء صفحة إمرسون داخل المظروف كانت التِرْكَة الثانية، حزمةٌ من الأوراق النقدية الجديدة فئة العشرين دولارًا. مرّر إيميت إبهامه على حوافها اليابسة النظيفة، فقَدَّر مجموعها بـ150 ورقة، تبلغ قرابة الثلاثة آلاف دولار.

لكن إذا استطاع إيميت أن يفهم لماذا اعتَبَرَ والده الصفحة المنتزعة من الكتاب ضربًا من التدنيس، لم يقبل الوصف نفسه على الأوراق النقدية. لعل والده وصف النقود بأنها مدنّسة لأنه خبأها من وراء ظهر دائنيه. وبذلك، انتهك كلاً من التزامه القانوني وإحساسه الخاص بالصواب والخطأ. لكن بعد أن دفع ديونه وفوائدها على مدار عشرين سنة، كان والده قد سدّد ثمن المزرعة مرتين. وسدّده مجددًا بالعمل الشاق والإحباط، بزواجه، وأخيرًا بحياته. لذلك، لا، لم يبدُ تجنّيب ثلاثة آلاف دولار تدنيسًا في عيني إيميت. بالنسبة له، استحقَّ والده كل سِنْتٍ منها.

أخذ إيميت ورقة نقدية ووضعها في جيبه، ثم أعاد المظروف إلى مكانه فوق الإطار وأنزل كسوة اللباد إلى مكانها.

قال بيلي: -إيميت...

أغلق إيميت الصندوق ونظر إلى بيلي، غير أن بيلي لم يكن ينظر إليه. كان ينظر إلى هيتين واقفتين عند باب الحظيرة. وإذا كان ضوء أول المساء وراءهما، لم يستطع إيميت التعرف عليهما. على الأقل إلى أن مدَّ النحيفُ المفتول على اليسار ذراعيه وقال: تا-دا!

دوقة

كان عليك أن ترى النظرة على وجه إيميت عندما تبينَ مَنْ الذي يقف بالباب. من التعبير المرتسم على وجهه، كنت تظن أننا ظهرنا من العدم. في الأربعينيات، كان هناك فنان متخصص في خدع الهروب، اشتهر باسم كزانتزاكس. بعض الظرفاء في الصنعة كانوا يسمونه هوديني هاكنساك المخبول⁽¹⁾، غير أن ذلك لم يكن عدلاً. فبينما كان النصف الأول من عرضه مهزوزاً بعض الشيء، كان الختام تحفة بديعة. أمام عينيك، كان يُقَيَّد بالسلاسل، ويُحبس داخل صندوق، ويُغَطَّس في حوض زجاجي كبير. تدخل شقراء حسناء إلى الخشبة ومعها ساعة عملاقة بينما ينبري مقدّم المراسم لتذكير الجمهور بأن الإنسان العادي لا يستطيع حبس أنفاسه لأكثر من دقيقتين، وأن معظم الناس حين يُحرَمون من الأكسجين يدوخون بعد أربع دقائق ويفقدون الوعي بعد ستّ. يصعد اثنان من محققي «وكالة بنكرتون للتحريات» إلى الخشبة للتأكد من أن قفل الصندوق مؤمّن جيداً، بينما يقف كاهنٌ من الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية جاهزاً بكامل هيئته -رداء كهنوتي أسود طويل ولحية بيضاء طويلة- تحسباً لأن تقتضي الحاجة أن يتلو عليه صلواته الأخيرة. يُنَزَل الصندوق في الماء وتُشغَّل الشقراء الساعة. عند الدقيقة الثانية، يصفر الجمهور ويضحك هازئاً. عند الدقيقة الخامسة، تُسمع صيحات «أوه» و«آه». لكن عند الدقيقة الثامنة، يتبادل محققاً وكالة بنكرتون نظرات قلقة. وعند الدقيقة العاشرة، يرسم

(1) هوديني: الإشارة إلى هاري هوديني، أحد رواد فن الإحياء والهروب من القيود. وهاكنساك: مدينة في ولاية نيوجيرسي. (م)

الكاهن الصليب على صدره ويتلو صلاة مبهمة. وعند الدقيقة الثانية عشرة، بينما تنفجر الشقراء في البكاء، يندفع اثنان من عمال المسرح من وراء الستائر لمساعدة محققي وكالة بنكرتون في رفع الصندوق من الحوض. بعدها يُسقط ليرتطم بالخشبة بينما تندفق المياه على أضواء الخشبة التحتيّة وتَسقط في حفرة الأوركسترا. عندما يحاول أحد محققي وكالة بنكرتون فتح القفل وتضطرب المفاتيح في يده، يزيحه الآخر جانبًا، ويسحب مسدسه، ويطلق النار على القفل. يرفع الغطاء بقوة ويقلب الصندوق رأسًا على عقب، ليكتشف أنه... فارغ. عند تلك النقطة، ينزع الكاهن لحيته فنرى أنه ليس إلّا كزانتراكس، وشعره لا يزال مبللًا، بينما ينظر كل متفرج من الجمهور في دهشة مهولة. هكذا بدا إيميت واطسن عندما تعرّف على الواقفين بالباب. من بين كل الناس في العالم، لم يصدق أنهما نحنُ.

-دوقة؟

-بشحمه ولحمه. ووولي أيضًا.

بدا مصعوقًا لا يزال.

-لكن كيف...؟

ضحكت.

-هذا هو السؤال، صحّ؟

وضعت يداً على جنب فمي وخفضت صوتي: أخذنا توصيلة مع المأمور. عندما كان يستكمل إجراءات خروجك، انسللنا إلى صندوق سيارته.

-لا يمكن أن تكون جادًا.

-أعرف. ليست ما يمكن أن نسميها رحلة على الدرجة الأولى. مع الحرارة التي تبلغ مئة درجة بالداخل ووولي الذي يشتكي كل عشر دقائق من رغبته في الذهاب إلى الحمام. وعندما عبرنا الحدود إلى نبراسكا؟ ظننت أنني سأصاب بارتجاج من كثرة المطبّات في الطريق. لا بد أن يكتب أحدهم خطابًا لحاكم الولاية!

قال وولي، وكأنه قد انضم للحفل لتوّه: -هيه يا إيميت.
يجب أن تحب ذلك في وولي. دائماً يأتي متأخراً نحو خمس دقائق،
يظهر على الرصيف الخطأ ومعه الحقائق الخطأ بينما يغادر قطار المحادثة
المحطة. البعض قد يجد هذه السمة مستفزة بعض الشيء، لكنني أفضل
الشخص الذي يأتي متأخراً خمس دقائق عن الشخص الذي يأتي مبكراً
خمس دقائق، أبداً وعلى الدوام.

من زاوية عيني كنت قد أخذت أراقب الصبي، الذي كان جالساً على
حزمة من القش، وهو يتقدم بحرص باتجاهنا. عندما أشرت إليه، تجمّد
مثل سنجاب وسط العشب.

-بيلي، صحّ؟ أخوك يقول إنك حاد الذكاء. هل هذا صحيح؟
ابتسم الصبي واقترّب أكثر إلى أن صار يقف إلى جوار إيميت، ثم رفع
رأسه إلى أخيه.

-هل هم أصحابك يا إيميت.

-طبعاً أصحابه.

وشرح إيميت: -إنهما من سالينا.

كنت على وشك أن أستطرد عندما لاحظت السيارة. كان تركيزي قد
انصبّ على السعادة بالتثام الشمل فلم أرها وراء الآلة الضخمة.

-هل تلك هي الستادبيكر يا إيميت؟ ماذا يسمّون ذلك اللون؟ «بيبي
بلو»؟

من الناحية الموضوعية، بدت أشبه بسيارة يمكن أن تقودها زوجة
طبيب أسنانك إلى صالة «بينغو»⁽¹⁾، لكنني أطلقت صفيراً بأي حال. ثم
استدرتُ إلى بيلي.

-بعض الأولاد في سالينا ثبّتوا صورة لفتاتهم التي تركوها في الديار

(1) بينغو: لعبة قمار شهيرة تستخدم فيها بطاقات عليها أرقام، يقوم اللاعب باختيار
مجموعة منها، ثم تُسحب الأرقام عشوائياً لتحديد الفائز. (م)

أسفل السرير العلوي لكي يظلوا يحدّقون فيها قبل إطفاء الأنوار. وبعضهم اختار صورة لإليزابيث تيلور أو مارلين مونرو. لكن أخاك ثبّت إعلانًا مقطوعًا من مجلة قديمة يحمل صورة بالألوان الكاملة لسيارته. سأكون صريحًا معك يا بيلي. لقد سخرنا كثيرًا من أخيك لهذا السبب. أن يحمل هذا العَرام الحالم لأوتوموبيل. لكن الآن، بعد أن رأيتها عن قرب... هزرتُ رأسي تعبيرًا عن التقدير.

ثم قلت وأنا أستدير إلى إيميت: هيه، هل يمكن أن نأخذها في لقّة؟ لم يجب إيميت لأنه كان ينظر إلى وولي -الذي كان ينظر إلى شبكة عنكبوت من دون عنكبوت.

سأله: -كيف حالك يا وولي؟

استدار وولي، وفكر في الأمر لبرهة.

-أنا بخير يا إيميت.

-متى آخر مرة أكلتَ فيها؟

-أوه، لا أعرف. يهيا لي قبل أن ندخل سيارة المأمور. صحّ يا دوق؟

استدار إيميت إلى أخيه.

-بيلي، هل تتذكر ما قالته سالي عن العشاء؟

-قالت أن نطبخه على درجة 350 لخمس وأربعين دقيقة.

-لماذا لا تأخذ وولي إلى البيت، وتضع الطبق في الفرن، وتجهز

الطاولة. أريد أن أري دوقه شيئًا ما، لكننا سنلحق بكما على الفور.

-أوكيه يا إيميت.

ونحن نتابع بيلي ووولي وهما يسيران عائدين إلى البيت، تساءلت

ماذا يريد إيميت أن يُريني. لكن عندما استدار ناحيتي، لم يبدُ على طبيعته.

في الحقيقة، بدا متعكر المزاج. أظن أن ذلك يحدث لبعض الناس عندما

يتعرّضون للمفاجآت. أما أنا، فأحب المفاجآت. أحب عندما تُخرج الحياة

أرنبًا من قبعة. أحب عندما يأتي «الصحن الأزرق الخصوصي»⁽¹⁾ فأجده
ديكًا روميًا مع الحشو في منتصف مايو. لكن بعض الناس لا يحبون أن
يباغتهم شيء - حتى الأخبار الطيبة.

-دوقة، ماذا تفعلان هنا؟

الآن، كانت المفاجأة من نصيبي.

-ماذا نفعل هنا؟ جئنا لرؤيتك يا إيميت. ورؤية المزرعة. أنت تعرف
الحال. تسمع حكايات كثيرة من أحد أصحابك عن حياته في الديار فتجد
نفسك في النهاية ترغب في رؤيتها بنفسك.

لأوضح مقصدي، أشرت إلى الجرّار وحزمة القش والبراري الأمريكية
الممتدة بالانتظار خارج الباب، تبذل ما في وسعها لتقنعنا أن الأرض
مسطّحة، في نهاية المطاف.

تابع إيميت نظراتي، ثم عاد واستدار إليّ، وقال: سأقول لك. دعنا
نذهب لنأكل شيئًا، وسأعطيك أنت وولي جولة سريعة، وننام ليلة هانئة،
ثم في الصباح، أعيدكما بسيارتي إلى سالينا.
أشحت بيدي.

-لا لزوم لأن توصلنا بسيارتك إلى سالينا يا إيميت. لقد عدتَ إلى
بيتك للتوّ. علاوة على ذلك، لا أظننا سنرجع. على الأقل ليس الآن.
أغمض إيميت عينيه للحظة.

-كم شهرًا تبقتَ من عقوبتكما؟ خمسة أم ستة؟ لقد صرتما عمليًا في
الخارج.
اتفقتُ معه.

-صحيح. صحيح تمامًا. لكن عندما تولى المأمور وليامز المسؤولية
بعد أكرلي، طردَ تلك الممرضة من نيو أورليانز. تلك التي كانت تساعد

(1) «الصحن الأزرق الخصوصي»: وجبة رخيصة اشتهرت بها المطاعم البسيطة،
تتغير مكوناتها يوميًا، وتُقدّم عادة في صحن أزرق مقسّم إلى ثلاثة أجزاء، يحتوي
على لحم وخضروات وخبز. (م)

وولي في الحصول على دوائه. الآن لم يعد معه إلا زجاجات قليلة أخيرة، وأنت تعرف كم يصيبه الغم من غير دوائه...
-إنه ليس دواءه.

هزرتُ رأسي موافقًا.

-سموم قوم عند قوم مشروبات منشطة، صح؟

-دوقة، لست مضطرًا إلى قولها صريحة واضحة لك أنت، من بين كل الناس. لكن كلما طال غيابكما من دون تصريح أكثر وكلما ابتعدتما أكثر عن سالايانا، ساءت العواقب أكثر. وكلاكما بلغتما الثامنة عشرة هذا الشتاء. لذلك إذا أمسكوا بكما وأنتما تعبران حدود الولاية، قد لا يعيدونكما إلى سالايانا. قد يرسلونكما إلى توبيكا.

دعنا نواجه الأمر: معظم الناس يحتاجون إلى سلم وتليسكوب لكي يجمعوا اثنين واثنين. لهذا السبب، عندما تحاول أن تشرح نفسك تجد أن الأمر لا يستحق الجهد. لكن ليس لإيميت واطسن. إنه من النوع الذي يستطيع أن يرى الصورة بأكملها من أول كلمة -المخطط الأكبر وكل التفاصيل الصغيرة. وعلى ذلك، رفعت يديّ مستسلمًا.

-أنا معك مئة بالمئة يا إيميت. بل إنني حاولت أن أقول نفس الشيء بنفس الكلمات لولي. لكنه لا ينصت. لقد أصرّ بكل استماتة على القفز من فوق السور. كانت لديه خطة كاملة. يغادر ليلة سبت، ينطلق إلى البلدة، ويسرق سيارة. بل إنه اختلس سكينًا عندما كان في وردية المطبخ. ليس سكين تقشير يا إيميت. أنا أتكلم عن سكين جزّار. لا أقول إن وولي يمكن أن يؤذي أي روح. أنت وأنا نعرف ذلك. لكن الشرطة لا تعرف ذلك. يرون غريبًا مضطربًا بنظرة زائغة في عينيه وسكين جزّار في يده، فيطلقون عليه النار مثل كلب. لذلك قلت له إنه إذا أعاد السكين إلى مكانه، سأساعده على الخروج من سالايانا بسلام وأمان. وضع السكين، وانسللنا إلى صندوق السيارة، وهو ووب! صرنا هنا.

وكل ذلك كان صحيحًا.

باستثناء الجزء المتعلق بالسكين.

هذا ما تسميه تزويقًا -مبالغة صغيرة لا تضر من أجل التأكيد. مثل الساعة العملاقة في عرض كزانتراكس، أو إطلاق محققَي وكالة بنكرتون الرصاص على القفل. هذه العناصر الصغيرة التي تبدو غير ضرورية من على السطح لكنها بطريقة ما تعطي معنى للعرض بأكمله.

-اسمع يا إيميت، أنت تعرفني. لديّ استعداد أن أكمل مدتي ثم أكمل مدة وولي. خمسة أشهر أو خمس سنوات، ما الفارق؟ لكن بالنظر إلى حالة وولي الذهنية، لا أظنه كان يستطيع البقاء لخمسة أيام أخرى. حوّل إيميت نظره إلى الاتجاه الذي سار فيه وولي.

كنا نعرف كلانا أن مشكلته في الوفرة. وولي، الذي نشأ في إحدى تلك البنايات التي يحرسها الحجاب في «أبر إيست سايد»، كان لديه بيت في الريف، وسائق في السيارة، وطباخ في المطبخ. جدّه كان صديقًا لتيدي وفرانكلين روزفلت، ووالده كان بطلاً في الحرب العالمية الثانية. لكنّ ثمة شيئاً في كل هذا الحظ السعيد يمكن أن يكون زائداً عن الحد. لديك روح رقيقة تشعر، قبالة كل تلك الوفرة، بنوع من الذعر المحدق، وكأنّ تلك الكومة من البيوت والسيارات والروزفلتات سوف تنهار على رأسه. مجرد التفكير في ذلك يفسد شهيته ويثير أعصابه. يصير من الصعب عليه التركيز، الأمر الذي يؤثر على قدرته على القراءة، والكتابة، والحساب. يطلبون منه مغادرة إحدى المدارس الداخلية فيُرسَل إلى أخرى. ثم ربما إلى أخرى. في نهاية المطاف، سوف يحتاج شاب مثله إلى شيء ما يبعده عن العالم. ومن يلومه؟ أنا سأكون أول من يخبرك أن الأثرياء لا يستحقون دقيقتين من تعاطفك. لكن شاباً كبير القلب مثل وولي؟ تلك قصة مختلفة تماماً.

رأيت من تعبيرات إيميت أنه يحسبها بالطريقة نفسها، يفكر في طبيعة وولي الحساسة ويتساءل إن كان يجدر بنا إعادته إلى سالاينا أم مساعدته على الاستمرار في طريقه بأمان. كانت معضلة تستعصي على الحل. لكنني أظنهم يسمونها معضلة لهذا السبب.

قلت، وأنا أضع يدًا على كتف إيميت: لقد كان يومًا طويلًا. ما رأيك أن نرجع إلى البيت ونأكل لقمة معًا؟ بعد أن نتناول طعامنا، سنكون في حالة ذهنية أفضل تسمح لنا بتقصي الأسباب وتدارس الحثثات.

طبيخ الأرياف...

تسمع كثيرًا عنه في الشرق حيث نشأت. إنه أحد تلك الأشياء التي يوقرُها الناس حتى لو لم تمنح لهم فرصة تجربتها بأنفسهم. مثل العدالة ويسوع. لكن على خلاف معظم الأشياء التي يُعجب بها الناس من بعيد، يستحق طبيخ الأرياف الإعجاب. إنه شهّي أكثر بمرتين من أي شيء تجده في «دلمونيكوز»⁽¹⁾ ومن دون كل تلك البهرجة. ربما لأنهم يستخدمون وصفات أتقتها جدّات جدّات جدّاتهم ووصلن بها إلى حد الكمال. أو ربما يرجع الأمر إلى كل تلك الساعات التي يقضونها في صحبة الخزائير والبطاطس. أيًا كان السبب، لم أدفع صحنِي بعيدًا إلا بعد أن ملأته للمرة الثالثة.

- تلك كانت وجبة بمعنى الكلمة.

استدرتُ إلى الصبي -الذي لا يعلو رأسه عن سطح الطاولة إلا قليلًا.

- ما اسم تلك الحساء ذات الشعر الداكن يا بيلي؟ صاحبة الفستان ذي الأزهار والحداء الثقيل التي يجب أن نشكرها على هذا الطبق اللذيذ؟

قال: -سالي رانسوم. إنه كاسرول الدجاج. مصنوع من إحدى دجاجاتها.

- من إحدى دجاجاتها! هيه، يا إيميت، ماذا يقول المثل؟ ذلك الذي يتحدث عن أقصر طريق إلى قلب الرجل؟

قال إيميت: -إنها جارتنا.

قلت مسلّمًا: -ربما. لكنني عرفتُ عددًا لا يحصى من الجيران، ولم أعرف جارة تصنع لي الكاسرول. ماذا عنك يا وولي؟

(1) دلمونيكوز: أحد المطاعم العريقة والراقية في مدينة نيويورك. (م)

كان وولي يدور أسنان شوكتة في مرقته.

- ما الموضوع؟

سألته بصوت أعلى قليلاً: - هل عرفت من قبل جارة تصنع لك الكاسرول؟

فكر في الأمر لثانية.

- لم يسبق لي أن أكلت كاسرول من قبل.

ابتسمت ورفعت حاجبي إلى الصبي. فابتسم ورفع حاجبيه لي.

كاسرول أو لا كاسرول، رفع وولي رأسه فجأة وكأن فكرة مواتية راودته.

- هيه، يا دوق. هل سنحت لك الفرصة لسؤال إيميت عن الطيْشة؟

- الطيْشة؟

هكذا سأل بيلي، وهو يرفع رأسه قليلاً فوق الطاولة.

- هذا هو السبب الثاني الذي جعلنا نأتي إلى هنا يا بيلي. سننطلق في طيْشة صغيرة ونأمل أن يأتي أخوك معنا.
قال إيميت: - طيْشة...

قلت: - ظللنا نسميها هكذا لأننا لم نجد كلمة أفضل. إنها عمل صالح، نوع من «المتسفا»⁽¹⁾. في الحقيقة إنها تنفيذ لوصية رجل يحتضر. وإذا بدأتُ أشرح، نظرتُ من إيميت إلى بيلي، ثم إلى إيميت مجدداً، إذا بدا الفضول على كليهما.

- عندما مات جدُّ وولي، ترك بعض المال لوولي داخل ما يسمونه صندوق استثماري. أليس ذلك صحيحاً يا وولي؟
أوماً وولي برأسه.

(1) متسفا: «عمل صالح»، باللغة اليديّة. ويستخدم دوق بعض الكلمات اليديّة على طول الكتاب، تعكس تنشّته في عالم المسرح في نيويورك أكثر مما تعكس خلفيته الدينية. (م)

-الآن، الصندوق الاستئماني حساب استثمار خصوصي يُنشأ لمصلحة القاصر ويقوم عليه وصي يتخذ جميع القرارات إلى أن يصل القاصر إلى سن البلوغ، وعند تلك النقطة يستطيع القاصر أن يفعل بالمال ما يريد. لكن عندما بلغ وولي سن الثامنة عشرة، وبسبب اجتهاد فقهي قانوني جامع بعض الشيء، حصل الوصي -وهو زوج أخت وولي- على حُكم اعتبره غير لائق مزاجيًا. ألم يكن ذلك هو المصطلح يا وولي؟ أكد وولي بابتسامة اعتذارية: -غير لائق مزاجيًا.

-وبذلك، بسطَ زوج أخته سلطته على الصندوق إلى أن يحسّن وولي من مزاجه، أو إلى ما شاء الله. أيهما أقرب.

-ويسمونه صندوق استئماني؟

-يبدو هذا شأنًا من شؤون وولي يا دوق، فما دخلك بالأمر؟

-دخلنا يا إيميت. ما دخلنا بالأمر.

-اقتربتُ بكرسيٍّ من الطاولة أكثر قليلًا.

-وولي وعائلته لديهم بيت في شمال نيويورك...

قال وولي: -مخيّم.

وصوّبتُ: -مخيّم، حيث تجتمع العائلة من وقت لآخر. طيّب، أثناء «الكساد»، عندما بدأت البنوك تتعثر، قرر جدُّ وولي الكبير أنه لا يمكن أن يثق بالكامل في النظام المصرفي الأمريكي من جديد. وهكذا، تحسبًا، وضع مئة وخمسين ألف دولار نقدًا في خزانة داخل الحائط في المخيم. لكن الأمر المثير هنا -بل يمكنك أن تقول القُدري- أن قيمة صندوق وولي تبلغ بالضبط تقريبًا مئة وخمسين ألف دولار.

توقفت للحظة لكي تترك كلماتي أثرها. ثم نظرت إلى إيميت مباشرة. -ولأن وولي إنسان كبير القلب متواضع الاحتياجات، اقترح أننا إذا رافقناه، أنت وأنا، إلى الأديرونذاك⁽¹⁾ لكي نساعد على الحصول على حقّه، فسوف يُقسّم الغلّة إلى ثلاثة أقسام متساوية.

(1) الأديرونذاك: منطقة متجعات جبلية في شمال ولاية نيويورك. (م)

قال بيلي: -مئة وخمسين ألف دولار مقسّمة على ثلاثة تساوي خمسين ألف دولار.

قلت: -بالضبط.

وقال وولي: -الكل للواحد والواحد للكل.

أرجعتُ ظهري في كرسيّ، وحدّق إيميت في لبرهة. ثم استدار إلى وولي.

-كانت فكرتك؟

واعترف وولي: -كانت فكرتي.

-ولن ترجع إلى سالائنا؟

وضع وولي يديه في حجره وهزّ رأسه.

-لا يا إيميت. لن أرجع إلى سالائنا.

رمى إيميت وولي بنظرة متفحّصة، وكأنه يحاول صياغة سؤال آخر. لكن وولي، الذي كان عازفًا بطبيعته عن إجابة الأسئلة ويمتلك خبرة طويلة في تجنبها، شرع يرفع الصحون.

وضع إيميت يداً على فمه، وقد بدا عليه التردد. وملّت أنا على الطاولة.

-العقدة الوحيدة هي أن المخيم يُفتح دائماً في آخر عطلة نهاية أسبوع من يونيو، الأمر الذي لا يترك لنا وقتاً طويلاً. يجب أن أتوقف وقفة سريعة في نيويورك لأرى والدي، لكننا سنتجه بعدها مباشرة إلى الأديرونداك. ينبغي أن نعيدك إلى مورغن قبل الجمعة -متعباً قليلاً من الطريق، ربما، لكن مبتهجاً بخمسين رُزمة. فكر في ذلك للحظة يا إيميت... أقصد، ماذا يمكنك أن تفعل بخمسين رُزمة؟ ماذا ستفعل بخمسين رُزمة؟

الإرادة الإنسانية لغز غامض، أكثر غموضاً من أي شيء آخر -أو هذا ما سيقنعك به الأطباء النفسائيون. وفقاً لهم، دوافع الإنسان قلعة من دون مفتاح. تُشكّل متاهة متعدّدة الطبقات تخرج منها الأفعال المفردة غالباً من دون منطق أو سبب جاهز يمكن تمييزه. لكنها، في الحقيقة، ليست بذلك

التعقيد. إذا أردت أن تفهم دوافع إنسان ما، كل ما عليك أن تسأله: ماذا ستفعل بخمسين ألف دولار؟

عندما تطرح ذلك السؤال على معظم الناس، سيحتاجون إلى بضع دقائق للتفكير، لاستعراض الإمكانيات والنظر في مختلف الخيارات. وهذا يخبرك بكل ما تحتاج إلى معرفته عنهم. لكن عندما تطرح الأسئلة على رجل مميز، رجل جدير بالاعتبار، سيجيب في غمضة عين -وبأدق التفاصيل. لأنه سبق وأن فكر بالفعل في ما سيفعله بخمسين رزمة. فكر في ذلك وهو يحفر الخنادق، أو وهو ينجز أعمالاً مكتبية، أو يطبخ في مطعم فقير. فكر في ذلك وهو يستمع إلى زوجته، أو يضع أولاده في الفراش، أو يحرق في السقف في منتصف الليل. بمعنى ما، ظل يفكر في ذلك طيلة حياته.

عندما طرحْتُ السؤال على إيميت، لم يردُّ، لكن ليس لأنه لم يمتلك جوابًا. لقد رأيت من تعبيرات وجهه أنه يعرف بالضبط ما الذي سيفعله بخمسين ألف دولار، بالنكلة والدايم⁽¹⁾.

وإذ جلسنا صامتين، حوّل ببلي أنظاره منِّي إلى أخيه، ثم إليَّ مجددًا؛ لكن إيميت ظل ينظر عبر الطاولة مباشرة وكأننا صرنا فجأة، هو وأنا، الشخصين الوحيدين في الغرفة.

-ربما كانت فكرة وولي وربما لم تكن كذلك يا دوق. بأي حال، لا أريد أن أكون جزءًا منها. لا الوقفة في المدينة، ولا الرحلة إلى الأديرونذاك، ولا الخمسين ألف دولار. غداً، سيكون عليّ أن أهتم ببعض الأمور في البلدة. لكن صباح الاثنين، سيكون أول ما نفعله أنا وببلي أن نوصلك أنت وولي بسيارتي إلى محطة غريهاوند في أوماها. ومن هناك تستطيعان استقلال حافلة إلى مانهاتن، أو الأديرونذاك، أو أي مكان تريدان. ثم سنرجع أنا وببلي في الستادبيكر لنهتم بشؤوننا.

(1) النكلة: خمسة سنتات. الدايم: عشرة سنتات. (م)

كان إيميت جادًا وهو يلقي هذه الخطبة الصغيرة. في الحقيقة، لم يسبق أن رأيت شخصًا بهذه الجدية. لم يرفع صوته، ولم يرفع عينيه عني ولو مرة - ليس حتى لينظر إلى بيلي، الذي جعل ينصت لكل كلمة بنظرة مندهشة وعينين مفتوحتين على وسعهما.

عند تلك اللحظة، خَطَرَ لي خاطر. الحماقة التي ارتكبتها. لقد عرضتُ كل التفاصيل أمام الصبي مباشرة.

مثلما قلت من قبل، إيميت واطسن يفهم الصورة أفضل من معظم الناس. يفهم أن الرجل يستطيع أن يتحلَّى بالصبر، لكن إلى حدود؛ أن من الضروري له، من حين إلى آخر، أن يرمي مفتاحًا انكليزيًا بين تروس العالم لكي يحصل على حقِّه الذي منحه له الرب. لكن بيلي؟ في سن الثامنة، الأرجح أنه لم يضع قدمه خارج ولاية نبراسكا. لذا لم تكن لتتوقع منه أن يفهم كل تعقيدات الحياة الحديثة، كل الدقائق التي تجعلك تحكم على شيء بأنه عادل أو غير عادل. بل إنك، في الحقيقة، لن تريده أن يفهم ذلك. وبوصفه الأخ الأكبر للصبي، والوصيِّ عليه وحاميه الوحيد، كانت مهمة إيميت أن يُجنِّب بيلي نحو ذلك من تقلبات الدهر بقدر استطاعته.

أرجعتُ ظهري في كرسيٍّ وأومات برأسي إيماءة تفهِّم.

- لا تقل شيئًا آخر يا إيميت. لقد فهمتك بكل وضوح.

بعد العشاء، أعلن إيميت أنه ذاهب إلى آل رانسوم ليسألهم أن يأتوا ويشحنوا بطارية سيارته. ولما كان البيت على مبعدة ميل كامل، عرضتُ مرافقته، لكنه رأى أن الأفضل أن نظل أنا وولي بعيدًا عن الأنظار. وهكذا، بقيت جالسًا إلى طاولة المطبخ، أثرثر مع بيلي بينما يغسل وولي الصحون. بالنظر إلى ما ذكرته بالفعل عن وولي، لعلك تظن أنه لم يُخلَق لغسل الصحون - أن عينيه ستسرحان وذهنه سيشرد وسيؤدي المهمة عمومًا بلا حماسة ولا انتباه. لكن وولي أخذ يغسل تلك الأطباق وكأن حياته تتوقف على ذلك. برأس محنيٍّ بزاوية خمس وأربعين درجة ولسانٍ مضغوط بين

أسنانه، جعل يدور الإسفنجة على سطح الصحون بعزم لا يلين، مزيلاً بعض البقع التي ظلت هناك لسنوات وأخرى لم تكن هناك من الأصل. كان منظره مدهشاً. لكن مثلما قلت، أنا أحب المفاجآت. عندما حوِّلت انتباهي إلى بيلي من جديد، كان يفضّ حزمة صغيرة من ورق الألومنيوم أخرجها من شَنْطة ظهره. من داخل ورق الألومنيوم أخرج بحرص أربع قطع من «الكوكيز» ووضعها على الطاولة -واحدة أمام كل كرسي.

قلت: -طَيِّب، طَيِّب، طَيِّب. ماذا لدينا هنا؟

قال بيلي: -«كوكيز» برقائق الشوكولاتة. سالي صنعتها.

ونحن نمضغ في صمت، لاحظت أن بيلي يحدّق بقدر من الخجل في سطح الطاولة، وكأنه يريد أن يطلب شيئاً.

-ماذا في ذهنك يا بيلي؟

قال ببعض التردد: -الكل للواحد والواحد لكل. هذه من «الفرسان

الثلاثة»، صح؟

-بالضبط، يا مون آمي⁽¹⁾.

لعلك تتخيل أن الصبي، بعد أن تعرّف بنجاح على مصدر الاقتباس، سيرقص طرباً، لكنه بدا واجماً. واجماً جداً. هذا بالرغم من أن مجرد ذكر «الفرسان الثلاثة» يرسم ابتسامة عادة على وجه الصبيّة الصغار. هكذا، حَيَّرني شعور بيلي بالإحباط. إلى أن هممت بتناول قضمة أخرى، فتذكرت ترتيب «الكل للواحد والواحد لكل» الذي وُضعت به قطع «الكوكيز» على الطاولة.

أنزلتُ قطعتي.

-هل شاهدت «الفرسان الثلاثة» يا بيلي؟

-لا

(1) مون آمي mon ami: صديقي، بالفرنسية، وهي اللغة التي كُتبت بها رواية «الفرسان الثلاثة». (م)

هكذا اعترف، وعلى وجهه لمحة من الوجوم نفسه، قبل أن يضيف:
لكنني قرأتها.

-إذا فلا بد أنك تعرف أفضل من غيرك كيف يكون العنوان مضللاً
أحياناً.

رفع بيلى رأسه عن الطاولة.

-ولماذا يا دوقة؟

-لأن «الفرسان الثلاثة»، في واقع الأمر، قصة عن أربعة فرسان. صحيح
أنها تفتح على الرفاقية المبهجة بين أورثوس وباثوس وأرتميس.
-آثوس، وبورثوس، وآراميس؟

-بالضبط. لكن القضية المركزية للحكاية هي الوسيلة التي من خلالها
يأتي المغامر الشاب...

-دارتانيان.

-... التي يأتي بها دارتانيان ليلتحق بركب الثلاثي الباسل. وذلك عن
طريق إنقاذ شرف الملكة، لا أقل.

قال بيلى، وهو يعتدل في كرسيه: هذا صحيح. الحقيقة أنها قصة عن
أربعة فرسان.

على شرف إتمام المهمة، ألقيت ببقية قطعة «الكوكيز» تبقي في فمي
ونفضت الفتات عن أصابعي. لكن بيلى كان يحدق فيّ بحدة جديدة.

-أشعر بأن شيئاً آخر يدور في ذهنك، يا وليام الصغير⁽¹⁾.

مال إلى الأمام بقدر ما تسمح له الطاولة وتحدث هامساً: هل تريد أن
تسمع ماذا سأفعل بخمسين ألف دولار؟

ملت إلى الأمام، وتحدثت هامساً بدوري: أتحرق شوقاً لذلك.

-سأبني بيتاً في سان فرانسيسكو، كاليفورنيا. سيكون بيتاً أبيض مثل
بيتنا هذا بشرفة صغيرة ومطبخ وصالة أمامية. وفي الطابق العلوي، ستكون

(1) بيلى اسم تدليل شائع لـ «وليام» في الولايات المتحدة. (م)

ثلاث غرف نوم. فقط بدلاً من حظيرة الجرّار، سيكون هناك كراج لسيارة إيميت.

-يعجبني ذلك يا بيلي. لكن لماذا سان فرانسيسكو؟

-لأن أماننا هناك.

أرجعت ظهري في كرسيّ.

-لا تقل ذلك!

هناك في سالينا، كلما ذكر إيميت أمه -ولم يتكرر ذلك كثيرًا، لا شك في هذا- استخدم دائمًا الزمن الماضي. لكنه لم يستخدمه بطريقة توحى بأن أمه ذهبت إلى كاليفورنيا. بل استخدمه بطريقة توحى بأنها ذهبت إلى العالم الآخر.

أضاف بيلي: -سنغادر مباشرة بعد أن نسطحبك أنت ووولي إلى محطة الحافلات.

-بهذه البساطة، ستحزمان البيت في صناديق وتنتقلان إلى كاليفورنيا؟ -لا. لن نحزم البيت في صناديق يا دوق. سنأخذ معنا فقط ما تتسع له حقيبة عُدة.

-ولماذا ستفعلان ذلك؟

-لأن إيميت والبروفيسور أبرناثي يتفقان على كونها أفضل طريقة لكي يبدأ المرء من جديد. سنأخذ طريق لينكون السريع إلى سان فرانسيسكو، وفور وصولنا إلى هناك، سنعثر على أمانا ونبني بيتنا.

لم يسمح لي قلبي أن أخبر الصبي أن أمه إذا لم ترغب في العيش في بيت أبيض صغير في نبراسكا، فلن ترغب في العيش في بيت أبيض صغير في كاليفورنيا. لكن بعيدًا عن نزوات الأمومة، قدّرتُ أن حلم الصبي سيتكلف أقل من الميزانية بأربعين ألف دولار.

-تعجبني خطتك يا بيلي. لأنها تحمل ما تتطلبه الخطط المُخلصة من تفصيل. لكن هل أنت متأكد أن حلمك كبير بما يكفي؟ أقصد، بخمسين ألف دولار تستطيع أن تشتري أكثر من ذلك بكثير. تستطيع أن تمتلك

حوض سباحة ورئيسًا للخدم. تستطيع أن تمتلك كَرَّاجًا فيه أربع سيارات. هز بيلي رأسه وعلى وجهه نظرة جادة، ثم قال: لا. لا أظن أننا سنحتاج إلى حوض سباحة أو رئيس خدم يا دوقة.

هممت بأن أقول بطريقة لطيفة إن صبيًا في سنه لا يجب أن يقفز إلى الاستنتاجات، إن أحواض السباحة ورؤساء الخدم ليسوا من الأمور سهلة المنال، وإن من ينالونهم لن يتخلوا عنهم بسهولة، عندما رأيت وولي فجأة واقفًا أمام الطاولة وفي إحدى يديه صحنٌ وفي الأخرى إسفنجة.

- لا أحد يحتاج إلى حوض سباحة أو رئيس خدم يا بيلي.
لا تعرف أبدًا ما الذي سيجذب انتباه وولي. يمكن أن يكون طائرًا واقفًا على فرع شجرة، أو أثر قدم في الثلج، أو شيئًا قاله شخص ما بالأمس. لكن أيًا كان ما يجعل وولي يفكر، فهو دائمًا يستحق الانتظار. وهكذا، بينما اتخذ وولي المقعد المجاور لبيلي، أسرعْتُ إلى حوض الغسيل، وأغلقتُ صنبور المياه، وعدت إلى كرسيّ، كلّي آذان صاغية.
استرسل وولي: لا أحد يحتاج إلى كَرَّاج فيه أربع سيارات. لكني أظن أن ما ستحتاج إليه هو المزيد من غرف النوم.

-ولماذا يا وولي؟

-لكي يستطيع الأصدقاء والأقارب أن يأتوا للزيارة في العطلات. أو ما بيلي برأسه اعترافًا بحسّ وولي السليم، فواصل وولي تقديم المقترحات، وهو يزداد حماسة كلما مضى أكثر.

-يجب أن تكون لديك شرفة بسقف ناتئ لكي تستطيع الجلوس تحته في العصريّات المطيرة، أو الرقود فوقه في ليالي الصيف الدافئة. وفي الطابق السفلي يجب أن تكون غرفة مكتب، وغرفة عظيمة بمدفأة كبيرة تكفي ليتجمّع حولها الجميع عندما تهطل الثلوج. ويجب أن يكون لديك مخبأ صغير تحت السلم، ومكان خصوصي في الزاوية لشجرة الكريسماس.

الآن، لم يعد من الممكن إيقاف وولي. فبعد أن طلب ورقة وقلماً، أدار

كرسيه إلى جوار بيلى وبدأ يرسم مخطّط طوابق بأدق التفاصيل. لم يكن سكيثشًا من النوع الذي ترسمه على ظهر منديل ورقي. بل اتضح أن وولي يرسم مخططات الطوابق مثلما يغسل الصحون. رُسِمَت الغرف بمقياس سليم، ظهرت فيه الجدران متوازية والأركان بزوايا قائمة دقيقة. كانت عينك تلمعان لرؤيتها.

إذا نَحِينَا جانبًا مزايا الشرفة المسقوفة مقارنة بالكِرَاج ذي السيارات الأربع، سيتعين عليك الإشادة بوولي بوصفه حالمًا عظيمًا. إذ كان المكان الذي تخيَّله نيابةً عن بيلى أكبر بثلاث مرات من ذلك الذي تخيَّله الصبي بنفسه، ولا بد أنه مسَّ وترًا عنده. إذ عندما انتهى وولي من رسم الصورة، سأله بيلى أن يضيف سهمًا يشير إلى الشمال ونجمة حمراء كبيرة يؤشر بها إلى الموقع الذي ينبغي أن توضع فيه شجرة الكريسماس. وعندما انتهى وولي من ذلك، طوى الصبي مخطط الطوابق بحرص ودسّه في شَنْطَته. وولي أيضًا بدا راضيًا. ولو أن وولي، بعد أن شدَّ بيلى حزامي شَنْطَته بأناقة وأحكم إغلاقهما ورجع إلى كرسيه، نظر إليه بابتسامة حزينة، ثم قال: أتمنى لو لم أعرف مكان أمي.

-ولماذا يا وولي؟

-لكي أستطيع أن أذهب وأبحث عنها مثلك.

بعد أن صارت الصحون نظيفة، واصطحب بيلى وولي إلى الطابق العلوي ليريه أين يأخذ حمامًا. جعلتُ أتجول في البيت لأعانيه. لم يكن سرًّا أن والد إيميت ضيَّع ماله وممتلكاته. بيد أن نظرة واحدة في أرجاء المكان تجعلك تعرف أن ذلك لم يكن بسبب إدمانه على الشراب. عندما يكون رجل البيت سكيثشًا، تستطيع أن تعرف. تعرف من مظهر الأثاث ومظهر الفناء الأمامي. تعرف من النظرة على وجوه الصُّبْيَةِ. لكن حتى لو كان والد إيميت لا يشرب الخمر، قدَّرتُ أنني سأجد شرابًا ما في مكان ما - زجاجة من براندي التفاح ربما، أو شُنَابُس النعناع مخفية بعيدًا عن

العيون في انتظار مناسبة خاصة. في هذا الجزء من الريف، عادة ما يكون الحال كذلك.

بدأت بخزانات المطبخ. في الأولى، وجدت الصحون والسلطانيات. في الثانية، الأكواب والأقداح. في الثالثة وجدت التشكيلة المعتادة من الأطعمة المعلّبة، لكن لا أثر لأي زجاجة، ولا حتى وراء برطمان العسل الأسود الذي له من العمر عشر سنين.

لم تكن هناك أي خَمرة في خزانة التُّخَفِ أيضًا. لكن في قسمها السفلي كان طقمٌ صينيٌّ فاخرٌ مبعثرًا تغطيه طبقة رقيقة من الغبار. طقمٌ لا يقتصر على صحون الطعام، تفهمني. كانت هناك سلطانيات حساء، وصحون للسلطة، وصحون للحلويات، وبرج مترنّج من فناجين القهوة. عددتُ عشرين قطعة من كل صنف إجمالاً - في بيت ليست فيه غرفة طعام.

راودتني ذكرى غائمة عن أن إيमित قد حكى لي أن والديه نشأ في بوسطن. طيّب، إذا كانا قد نشأ في بوسطن، لا بد أن ذلك كان في «بيكون هِل»⁽¹⁾. كانت تلك أغراضاً من النوع الذي يُهدى لعروس الطبقة الراقية، مصحوباً بتوقع أن تُورث من جيل إلى جيل. غير أن المجموعة الكاملة كانت تملأ الصوان لِعَيْنِهِ، أي أنها لن تدخل في حقيبة عُدة. الأمر الذي يجعلك تتساءل...

في الصالة الأمامية، كان المكان الوحيد الذي يصلح لتخزين زجاجة هو طاولة المكتب القديمة الكبيرة في الزاوية. جلسْتُ في الكرسي ورفعت الغطاء. كان سطح الكتابة يحمل الإكسسوارات المعتادة - مقصاً، فتاحة خطابات، دفترَ أوراق وقلم رصاص - لكن الأدراج كانت مزدحمة بأشياء مبعثرة من كل شكل وصنف ليس من شأنها الوجود هناك، مثل منبه قديم، ونصف رزمة من أوراق اللعب، ونِكَلات ودَائِمات مبعثرة. بعد أن لملتُ الفكة السائبة (القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود)،

(1) بيكون هِل: من الأحياء العريقة الراقية في بوسطن. (م)

فتحتُ الدُّرج السفلي وأنا أشبك إصبعي متمنيًا، عالمًا بأنه مكان كلاسيكي لتخزين زجاجات الخمر. غير أنني لم أجد فيه مساحة تكفي لزجاجة، لأن الدرج كان مملوءًا لحاقته بالخطابات.

لم يتطلب الأمر أكثر من نظرة واحدة لأعرف طبيعة تلك الفوضى: فواتير لم تسدد. فواتير من شركة الكهرباء ومن شركة الهاتف، وكل من كان أحرق بما يكفي لأن يقدم لمستر واطسن خدمة بالأجل. في أسفل الكومة، ستكون الإخطارات الأصلية، ثم رسائل التذكير، بينما هنا في الأعلى تظهر إخطارات فسخ العقود والإنذارات باتخاذ إجراءات قانونية. بعض المظاريف لم تُفتح من الأساس.

لم أستطع أن أمنع ابتسامة.

كان هناك نوع من الطرافة في احتفاظ مستر واطسن بتلك التشكيلة من الخطابات في الدُّرج السفلي - على مبعدة قدم واحدة من سلة المهملات. لقد تطلَّب حشرُ تلك الفواتير داخل المكتب جهدًا لا يزيد عن إيداعها طيَّ النسيان. لعله لم يستطع إجبار نفسه على الاعتراف بأنه لن يسدها أبدًا. والذي أنا لم يكن ليكلّف نفسه تلك المشقة بكل تأكيد. بالنسبة له، الفاتورة غير المسدّدة مصيرها القمامة بأسرع ما يمكن. بل إنه كان، في الحقيقة، مصابًا بحساسية تجاه الورق الذي تُطبع عليه الفواتير، فكان يذهب إلى حد بعيد لضمان ألا تصل إليه في المقام الأول. لهذا السبب عُرف عن هاريسون هيويت الذي لا مثيل له، والذي كان شديد الالتزام عندما يتعلق الأمر باللغة الإنكليزية، أنه يخطئ من حين لآخر في تهجئة عنوانه.

غير أن شَنَّ حرب على هيئة البريد الأمريكية ليس بالأمر الهين. فهم يمتلكون أسطولًا كاملاً من الشاحنات تحت إمرتهم، وجيشًا من جنود المشاة لا هدف لهم في الحياة إلا التأكد من أن المظروف الذي يحمل اسمًا يجد طريقه إلى يديك. ولهذا السبب عُرف عن آل هيويت أنهم يدخلون من البهو ويغادرون من مهرَب الحريق، في الخامسة صباحًا غالبًا.

آه، كان أبي يقول، وهو يتوقف للحظة بين الطابقين الرابع والثالث ويشير باتجاه الشرق. الفجرُ ذو الأصابع الوردية!⁽¹⁾ اعتبر نفسك محظوظًا أنك من معارفه، يا ولدي. ثمة ملوك لم تقع عيونهم عليه قط!

من الخارج، سمعتُ إشارات الـ«بيك آب» الخاصة بمستر رانسوم تستدير في مدخل آل واطسن. مَسَحَتْ أضواء المصابيح الأمامية الغرفة من اليمين إلى اليسار للحظات بينما تتجاوز البيت وتتجه نحو الحظيرة. أغلقتُ دُرج المكتب السفلي لكي تبقى كومة الإشعارات في أمن وسلام إلى يوم الحساب.

في الطابق العلوي، دسستُ رأسي في غرفة بيلي، حيث كان وولي ممددًا بالفعل على السرير. كان يدندن بصوت خفيض ويحدّق في الطائرات المعلقة من السقف. لعله كان يفكر في والده في مقصورة طائرته المقاتلة على ارتفاع عشرة آلاف قدم. ذلك هو المكان الذي يكون فيه والد وولي دائمًا بالنسبة لوولي: في موضع ما بين مدرج إقلاع حاملة الطائرات وقاع بحر الصين الجنوبي.

وجدتُ بيلي في غرفة والده، جالسًا على الطريقة الهندية على أغطية الفراش وشَنَطَ ظهره إلى جانبه وكتابٌ أحمر كبير في حجره.

-هيه، أيها الكاوبوي سريع الطلقات، ماذا تقرأ؟

-«الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من الرحالة البواسل»، للبروفيسور أبيكوس أبرناثي.

أطلقتُ صفيّرًا.

-مدهش! هل هو جيّد؟

-أوه، لقد قرأته أربعًا وعشرين مرة.

-إذا ربما لا تكون «جيّد» وصفًا كافيًا.

(1) «الفجر ذو الأصابع الوردية»: عبارة من الأوديسة، تشير إلى البدايات الجديدة.

دخلتُ الغرفة، وتمشّيت قليلاً من أولها إلى آخرها بينما كان الصبي يقلّب الصفحة. فوق الكومود كانت صورتان مؤطّرتان. الأولى لزوج واقف وزوجته جالسة في ملابس مُنقَلَب القرن. آل واطسن من «بيكون هِل»، لا شك. والأخرى لإيميت وبيلي منذ سنوات قليلة وحسب. كانا جالسين في الشرفة نفسها التي جلس فيها إيميت وجاره في وقت سابق من ذلك اليوم. ولم تكن هناك صورة لوالدة بيلي وإيميت.

قلت، وأنا أعيد صورة الأخوين إلى الطاولة: هيه يا بيلي. هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟

-أوكيه يا دوقة.

-متى غادرتَ أمكما إلى كاليفورنيا بالضبط.

-في الخامس من يوليو 1946.

-هذه إجابة دقيقة. إذاً، فقد نهضتَ وغادرتَ، هه؟ ولم تسمعوا عنها

بعد ذلك.

قال بيلي، وهو يقلّب صفحة أخرى: -لا. سمعنا عنها مرة أخرى. أرسلتَ لنا تسع بطاقات بريدية. بهذه الطريقة عرفنا أنها في سان فرانسيسكو. للمرة الأولى منذ دخلتُ الغرفة، رفعَ رأسه عن كتابه.

-هل يمكن أن أسألك سؤالاً يا دوقة؟

-حقك، سؤال بسؤال يا بيلي.

-لماذا يسئونك دوقة؟

-على اسم المقاطعة التي وُلدتُ فيها⁽¹⁾.

-وأين هي المقاطعة التي وُلدتَ فيها؟

-على بعد خمسين ميلاً من نيويورك.

-تقصد من مدينة نيويورك؟

(1) دوقة اسمه بالانكليزية duchess، ويعني «دوقة»، مؤنث «دوق». في الوقت نفسه، ثمة مقاطعة في ولاية نيويورك، تلك التي يشير إليها، اسمها dutchess (وهو الهجاء القديم لـ duchess)، وقد سُميت على اسم «دوقة يورك». (م)

-هي عيناها.

-هل سبق وذهبت إلى مدينة نيويورك؟

-لقد ذهبت إلى مئات المدن يا بيلي، لكنني ذهبت إلى مدينة نيويورك أكثر مما ذهبت إلى أي مكان آخر.

-هذا هو مكان البروفيسور أبرناثي. هاك، انظر.

قَلَبَ الكتاب إلى إحدى الصفحات الأولى، وعَرَضَهُ عَلَيَّ.

-البنط الصغير يصيني بالصداع يا بيلي. لماذا لا تأخذ أنت هذا الشرف. نظر في كتابه، وبدأ يقرأ بمساعدة طرف إصبعه.

-قارئ الأعزُّ، أكتب إليك اليوم من مكتبي المتواضع في الطابق الخامس والخمسين من مبنى إمباير ستيت في تقاطع شارع أربعة وثلاثين مع الجادة الخامسة في جزيرة مانهاتن بمدينة نيويورك في أقصى شمال شرقي بلادنا العظيمة -الولايات المتحدة الأمريكية.

رفع بيلي رأسه بدرجة من التوقُّع. فأجَبْتُهُ بنظرة استفسار. وسألني:- هل سبق وقابلت البروفيسور أبرناثي؟ ابتسمت.

-لقد قابلت الكثير من الناس في بلادنا العظيمة والكثير منهم من جزيرة مانهاتن، لكن بحسب علمي، لم يسبق لي أن سعدت بلقاء بروفيسورك. قال بيلي:- أوه.

لاذ بالصمت للحظة، ثم قَطَبَ جبينه الصغير. سألته: شيء آخر؟

-لماذا ذهبتَ إلى مئات المدن يا دوق؟

-والدي كان مُشَخَّصَاتِيًّا، ومع أننا كنا نقيم عمومًا في نيويورك، كنا نقضي قسمًا معتبرًا من العام ونحن نساfer من بلدة إلى أخرى. تجدنا في بافلو هذا الأسبوع وفي بيتسبرغ في الأسبوع التالي. ثم كليفلاند أو كانساس سيتي. بل إنني قضيت بعض الوقت في نبراسكا، صدَّق أو لا تصدَّق. عندما كنت في مثل عمرك تقريبًا، عشت لفترة في ضواحي مدينة صغيرة تسمى لويس.

قال بيلي: أعرف لويس. إنها على طريق لينكون السريع. في منتصف المسافة بين هنا وأوماها.

-أنت تمزح!

وضع بيلي كتابه جانباً ومد يده لشنطة ظهره.

-معي خريطة. هل تريد أن ترى؟

-سأكتفي بكلمتك.

ترك بيلي الشنطة. ثم قطب جيبيه من جديد.

-عندما كنت تتحرك من بلدة إلى أخرى، كيف كنت تذهب إلى

المدرسة.

-ليس كل ما يستحق المعرفة تجده بين أغلفة المجلات الوافية يا

ولدي. دعنا نقول ببساطة إن مدرستي كانت السكة، وكتابي التمهيدي

التجربة، ومُعَلِّمي إصبع القدر المتقلب.

ظهر على بيلي أنه يتفكر في هذا لبرهة، وبدأ واضحاً أنه لم يكن واثقاً

إن كان عليه أن يقبل مبدأً ذاك كقاعدة مسلم بها. ثم، بعد أن أوما برأسه

لنفسه مرتين، رفع رأسه وقد بدت على وجهه مسحة من حرج.

-هل يمكن أن أسألك سؤالاً آخر يا دوق؟

-ناولني.

-ما هو المشخصاتي؟

ضحكت.

-المشخصاتي هو الرجل الذي يقف على الخشبة يا بيلي. ممثل.

مددت يدي، ونظرت في البعيد وشرعت أترنم منعماً:

كان يجدر بها أن تموت في يوم آجل،

كنا سنجد وقتاً لخبر كهذا.

غداً، وغداً، وغداً،

يزحف الغد بهذي الخطي البطيئة يوماً إثر يوم

حتى آخر مقطع من سجل الزمان؛

وكل أماسينا تُنير للأغرار

سبيلهم إلى الموت تحت التراب⁽¹⁾.

كان إلقاء جِداً جِداً، إذا كان لي أن أحكم بنفسي. بالتأكيد، كانت وقفتي مبتدلة بعض الشيء، لكنني وضعتُ شحنة عظيمة من الإنهاك في كلمات غداً، ونطقْتُ عبارة الموتُ تحت التراب القديمة بلهيب مشؤوم.

حدجني بيلي بنظرته واسعة العينين، تلك المسجّلة باسمه. قلتُ: -وليام شكسبير من المسرحية الاسكتلندية. الفصل الخامس، المشهد الخامس.

-هل كان والدك ممثلاً شكسبيرياً؟

-شكسبيريّ جِداً.

-هل كان مشهوراً؟

-أوه، كان معروفاً بالاسم في كل الحانات من بيتالوما إلى بكبسي⁽²⁾.

بدا بيلي منبهراً. لكن جبينه عاد للتقطيب من جديد. قال: لقد تعلمتُ القليل عن وليام شكسبير. البروفيسور أبرنathi يسميه أعظم مغامر لم يركب البحر قط. لكنه لم يذكر أي شيء عن المسرحية الاسكتلندية.

-ليس غريباً. تعرف، المسرحية الاسكتلندية هي الاسم الذي يطلقه ناس المسرح على «مَكْبِث». قبل بضعة قرون، تَقَرَّر أن المسرحية ملعونة، وأن ذِكْر اسمها يمكن أن يجلب النحس على رؤوس من يتجرأون ويمثّلونها.

-أي نوع من النحس.

-كل أنواع النحس. في أول إنتاج للمسرحية، زمان في القرن السابع

(1) «كان يجدر بها أن تموت في يوم آجل»: من مناجاة مَكْبِث لدى وفاة زوجته، من مسرحية «مَكْبِث» لشكسبير، الفصل الخامس، المشهد الخامس (ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، بتصرّف). (م)

(2) بيتالوما: بلدة في ولاية كاليفورنيا (جنوب غربي الولايات المتحدة). بكبسي: بلدة في ولاية نيويورك (شمال شرقي الولايات المتحدة). والمقصود: في طول البلاد وعرضها. (م)

عشر، مات الممثل الشاب الذي أُسند إليه دور «ليدي مكبث» قبل صعوده إلى الخشبة مباشرة. وقبل نحو مئة عام، كان أعظم ممثلين شكسبيريين في العالم أمريكيًا يُدعى فورست وبريطانيًا يُدعى ماكريدي. وبطبيعة الحال كان الجمهور الأمريكي متحيزًا لمواهب مستر فورست. وهكذا، عندما أُسند إلى ماكريدي دور مكبث في دار أوبرا «أستور بليس» - في جزيرة مانهاتن - اندلعت أعمال شغب وقعت فيها مصادمات بين عشرة آلاف شخص ولقي عديدون مصرعهم.

غني عن القول أن بيلي كان مفتونًا.

-لكن ما الذي جعلها ملعونة؟

-ما الذي جعلها ملعونة! ألم تسمع من قبل حكاية مكبث؟ حاكم غلامس أسود القلب؟ ماذا؟ لا؟ طيّب إذًا يا ولدي، أفسح لي مكانًا، وسأضّمك إلى الأخوية.

وُضِعَ موجز البروفيسور أبليناثي الوافي جانبًا. ودخل بيلي تحت الأغطية، وأطفأت أنا النور -تمامًا مثلما كان أبي يفعل عندما يستعد لأن يحكي حكاية قاتمة ومرّوعة.

بطبيعة الحال، بدأت من المستنقعات حيث الساحرات الثلاث يترنّمن: يا كدح يا ويل يا ثبور، لهلي يا نارنا، قدورنا ستفور. حكيت للصبي كيف أكرم مكبث، مدفوعًا بطموحات قريته، وفادة مليكه بخنجر في القلب؛ وكيف أن جريمة القتل بدم بارد أفضت إلى أخرى، أفضت بدورها إلى ثالثة. حكيت له كيف أصبح مكبث معذبًا برؤى شبحيّة، وكيف بدأت زوجته تسير في نومها في طرقات قلعة كودور وهي تمسح طيف الدم عن يديها. آه، لقد شددت وتر الشجاعة حتى منزع القوس، بأفضل ما يكون!⁽¹⁾

(1) «يا كدح يا ويل يا ثبور، لهلي يا نارنا، قدورنا ستفور»: من حوار «الساحرات»، الفصل الرابع، المشهد الأول (ترجمة جبرا ابراهيم جبرا). «شددت وتر الشجاعة حتى منزع القوس»: من حوار «ليدي مكبث»، الفصل الأول، المشهد السابع (ترجمة صلاح نيازي). (م).

وبعد أن تسلَّقت أشجارُ غابةِ بيرنام تلَّ «دنسيان»، وتَرَكَ مكدف، ذلك الرجل الذي لم تلده امرأة، قاتلَ الملك ذبيحًا في الحقول، أحكمت الإِغطاء حول بيلي وتمنيت له أحلامًا سعيدة. وبينما أنسحب عائداً إلى الطَّرقة، انحنيَت ولوَّحت بذراعيَّ في تحية مسرحية، وعندها رأيت بيلي الصغير وقد نزل من الفراش لكي يُضيء النور من جديد.

عندما جلستُ على حافة سريرِ إيميت، لفت نظري على الفور كل الأشياء التي لم تكن في غرفته. ففي حين ظهرت نَفَرَةٌ في الطلاء حيث استقر مسمارٌ ذات مرة، لم تكن هناك أي صور معلَّقة، ولا ملصقات، ولا رايات مثلثة. لم يكن هناك مذياع أو مشغِّل أسطوانات. ورغم وجود قضيب ستارة فوق النافذة، لم تكن هناك ستائر. لو كان ثمة صليبٌ على الحائط، لظنَّها الناظرُ صومعةً راهب.

لعله أفرغ غرفته قبل ذهابه إلى سالاينا. وضع أيام طفولته، بكل تفاصيلها، خلف ظهره، وألقى كل ما لديه من قصص مصورة وبطاقات بيسبول في القمامة. ربما. غير أن شيئاً أخبرني أن هذه غرفة شخص استعد لمغادرة منزله منذ وقت طويل طويل، بلا شيء سوى حقيبة عُدَّة.

مسحتُ أشعة مصابيح سيارة مستر رانسوم الحائط من جديد، هذه المرَّة من اليسار إلى اليمين، بينما تجتاز الشاحنة البيت عائدة إلى الطريق. بعد صوت إغلاق الباب الشبكي، سمعتُ إيميت يطفئ الأنوار في المطبخ، ثم الأنوار في الصالة الأمامية. وعندما صعد السلم، كنت بانتظاره في الطَّرقة. سألته: -دَارَتْ؟

-الحمد لله.

بدا عليه ارتياح حقيقي، لكنه بدا منهكاً بعض الشيء أيضاً. -يسيني أن أخرجك من غرفتك. لماذا لا تنام في فراشك وسأنام أنا تحت على الأريكة. قد تكون قصيرة بعض الشيء، لكن لا شك أنها مريحة أكثر من المراتب في سالاينا.

عندما قلت ذلك، لم أتوقع أن يقبل إيميت العرض. لم يكن من ذلك النوع. لكنني رأيته استحسن اللفتة. منحني ابتسامة، بل ووضع يداً على كتفي.

-لا بأس يا دوق. ابقَ في مكانك وسأنام أنا مع بيلي. أظننا جميعاً نحتاج إلى نوم هانئ.

تابع إيميت طريقه في الطُّرقة لبضع خطوات، ثم توقف واستدار.
-يجدر بك أنت ووولي أن تغيّرا هذه الملابس. يمكنه أن يجد شيئاً في دولاب أبي. مقاسهما واحد تقريباً. لقد حزمْتُ بعض الأغراض لي أنا وبيلي، لذا يمكنك أن تأخذ ما تريد من دولابي. ستجد فيه أيضاً حقيبتين مدرستين قديمتين يمكنكما استخدامهما.

-شكراً يا إيميت.

عندما واصل طريقه في الطُّرقة، عدت أنا إلى غرفته. من وراء الباب المغلق، سمعته يغتسل، ثم يذهب ليلتحق بأخيه.

رقدتُ في فراشه، ورحت أحدّق في السقف. فوق رأسي لم تكن ثمة نماذج لطائرات. كل ما كان لديّ شقٌّ في الطلاء يعكس قوساً كسولاً حول مصباح السقف. لكن في نهاية يوم طويل، ربما كان الشقُّ في الجدار هو كل ما تحتاجه لاستثارة أفكار حالمة. لأن طريقة تقوُّس هذا الخلل الصغير حول ذاك المصباح ذكّرني فجأةً بانعطافة نهر بلات حول أوماها. أوه، يا أوماها، لكم أذكرك.

كان ذلك في أغسطس عام 1944، بعد ستة شهور فقط من عيد ميلادي الثامن. ذلك الصيف، كان أبي ضمن فرقة استعراضية جوّالة تدّعي أنها تجمع المال للجهد الحربي. ومع أن العرض وُصفَ في الإعلانات بأنه «عرض عظماء الفودفيل»⁽¹⁾، كان يمكن أن يسمى أيضاً «موكب الممثلين

(1) الفودفيل: جنس مسرحي شهير، يتألف من سلسلة فصول منفصلة، قد تجمع بين الإسكتشات الهزلية، والمشاهد التراجيدية الكلاسيكية، والرقص والغناء والألعاب البهلوانية وغير ذلك. (م).

المتقاعدين». كان يفتح على بهلوان مدمن على المخدرات تصيبه الرعدة في النصف الثاني من عرضه، يعقبه كوميديان في الثمانين من عمره لا يستطيع أن يتذكر أي نكات ألقاها بالفعل. كان دور والذي أن يؤدي خلطة من أعظم مونولوجات شكسبير - أو، بحدّ تعبيره: ذخيرة من الحكمة تكفيك مدى الحياة في اثنتين وعشرين دقيقة. بلحية بلشفيّ وخنجر في حزامه، كان يرفع نظرتة ببطء عن مصابيح الخشبة بحثًا عن ملكوت الأفكار السامية الموجودة في مكان ما في الزاوية اليمنى العليا من البلكون، ومن ثم يستهل: ما ذاك النور الذي عبرَ النافذة ينساب... ومرةً أخرى لنقتحمنَ الشجرة أيها الأصدقاء الأعزاء... ولا تناقشنَ الحاجة.

من روميو إلى هنري إلى لير. تدرّجُ صنعه ترزيّ من الشاب الممسوس بالعشق، إلى البطل الناشئ، إلى الشيخ الأحمق الخرف. بحسب ما أتذكر، بدأتُ تلك الجولة في مسرح الماجستيك في ترينتو الفاتنة، نيو جيرسي. من هناك، اتجهنا صوب الغرب، مرورًا بكل الأضواء الساطعة في الداخل الأمريكي، من بيتسبرغ إلى بيوريا. وكانت المحطة الأخيرة إقامةً لمدة أسبوع في الأوديون في أوماها. كان ذلك المسرح، المحشور في مكان ما بين محطة القطار وحي الأضواء الحمراء، مكانًا عتيقًا مهيبًا شيدَّ على طراز «آرت ديكو» لم يتمتع بالحس السليم لكي يحوّل نفسه إلى دار سينما قبل فوات الأوان. معظم الوقت، ونحن على الطريق، كنا نقيم مع المؤدين الآخرين في فنادق تناسب أمثالنا - تلك التي يتردد عليها الهاربون وباعة الكتاب المقدس. لكن كلما وصلنا إلى المحطة النهائية في جولة ما - المحطة التي لا يعود يُعرف لنا فيها عنوانٌ لتحويل المراسلات - كان أبي يسجّلنا في أفخم فندق في المدينة. مزدانًا بعبّاز ونستون تشرشل وصوت جون باريمور⁽¹⁾، كان يتجه بخطوات

(1) جون باريمور: ممثل مسرحي ونجم سينمائي أمريكي، اشتهر بأداء أدوار أبناء الطبقة الأرستقراطية، والمبالغة في استعراض سلوكياتهم. (م)

وئيدة إلى مكتب الاستقبال ويطلب أن يرى غرفته. وإذ يكتشف أن الفندق محجوزٌ بالكامل وأن اسمه غير مسجَّل في قائمة الحجوزات، يعرب عن غضبه بنبرة جديرة برجل في مكانته. ماذا تقول! لا يوجد حجز! ليونيل بندرغاست بنفسه، المدير العام لفنادق «والدورف أستوريا» (وصديقي الشخصي المقرَّب)، هو الذي هانفَ مكتبكم، بعد أن أكد لي أنه ما من مكان آخر يمكنني قضاء ليلتي فيه في أوماها، لكي يحجز غرفتي! وعندما تعترف الإدارة في نهاية المطاف بأن الجناح الرئاسي شاغر ومتاح، كان بابا يسلم بأن الجناح الرئاسي، رغم أنه رجل بسيط الاحتياجات، سيؤدي الغرض على خير ما يرام، شكرًا لك.

فور أن يستقر في مقامه، كان ذلك الرجل بسيط الاحتياجات يستغل أطايب الفندق إلى آخر الحدود. كلي غرزة من ملابسنا تُرسل إلى المغسلة. متخصصو العناية بالأظافر والمدلكون يُستدعون إلى جناحنا. السعاة يُرسلون لجلب الزهور... وفي بار البهو، في السادسة من مساء كل ليلة، تُطلب جولات تلو جولات من الشراب.

كان يوم أحد من أيام أغسطس، الصباح التالي لعرضه الأخير، عندما عرض عليَّ أبي أن نخرج في جولة سياحية. فبعد أن استؤجر لسلسلة من العروض في مسرح الباليديوم في دنفر، اقترح أن نحتفل بالقيام بنزهة على ضفاف نهر متعرج.

ونحن نحمل حقائبنا وننزل السلم الخلفي للفندق، تساءل أبي إن كان حريًّا بنا، ربما، أن ننمَّ احتفالاتنا بدعوة ممثل من الجنس اللطيف لصحبتنا. وليكن مس ميلز، تلك الشابة المبهجة التي ظل ميفيستو، الساحر أحول العينين، ينشرها نصفين كل ليلة في الفصل الثاني. بعدها مباشرة، من تلك التي وجدناها واقفة في الزقاق ومعها شنطة سفر، غير الشقراء عامرة الصدر التي كنا نتحدَّث عنها للتو؟

قال أبي: -تالي هووه!

آه، يا له من نهار مبهج ذلك الذي تبدَّى بعد ذلك.

انطلقنا بالسيارة، أنا في مقعد السُّبْنَسَة ومِس مِبلز في الدرجة الأولى، ومضينا إلى حديقة بلدية كبيرة على حافة نهر بليت، حيث الحشائش وفيرة، والأشجار عالية، وأشعة الشمس تتلألأ على صفحة الماء. في الليلة السابقة، كان أبي قد طلب وجبة خلويّة مكوّنة من الدجاج المحمّر وكيزان الذرة المسلوقة الباردة. بل إنه سرق مفرش طاولة من تحت صحن فطورنا (جرّب هذا يا ميفيستو!).

مِس مِبلز، التي لا بدّ لم تتجاوز الخامسة والعشرين، بدت مبتهجة بصحبة أبي. ضحكت على كل نكاته وأعرّبت عن امتنانها الحار كلما ملأ كأسها بالنبيذ. بل إن خديّها تورّدا لبعض الإطراءات التي سرّقتها من الشاعر العظيم.

كانت قد جلبت معها مشغلّ أسطوانات محمول، وكُلِّفْتُ أنا بمهمة اختيار الأسطوانات وإنزال الإبرة بينما أخذاهما يرقصان بخطى مرتبكة على العشب.

قالوا، زمان، إن ما يملأ المعدة يُبلّد العقل. وما من قولٍ أصدق من ذلك. إذ بعد أن رمينا زجاجات النبيذ في النهر، ووضعنا الفونوغراف في صندوق السيارة، ووضعنا السيارة على الغيار الأول، عندما ذكرَ أبي أننا يجب أن نتوقّف وقفة سريعة في بلدة قريبة، لم أشكّ في الأمر. وعندما توقفنا أمام مبنى قديم من الحجر فوق تلٍ وطلّب مني أن أنتظر مع راهبة شابة في إحدى الغرف ريثما يتحدث إلى راهبة أكبر سنًا في غرفة أخرى، لم أشكّ في الأمر أيضًا. الحقيقة، فقط عندما تصادّف وألقيت نظرة من النافذة ولمحتُ أبي يخرج بسيارته من مدخل المبنى ورأسُ مِس مِبلز على كتفه، أدركتُ أنني ابتلعتُ الطعام.

تسعة

— • —

إيميت

استيقظ إيميت على رائحة لحم مقدّد يُقلى في المقلاة. لم يستطع تذكر آخر مرة استيقظ فيها على رائحة لحم مقدّد. على مدى أكثر من عام، ظل يستيقظ على أنين النفير وصخب أربعين صبيًا في السادسة وخمس عشرة دقيقة صباحًا. وسواءً كان الجو مطيرًا أو صحواً لا يكون أمامهم إلا أربعين دقيقة للاستحمام، وارتداء الملابس، وترتيب الأسرة، وتناول الفطور، والاصطفاف لبدء المهام. كان الاستيقاظ على مرتبة حقيقية مكسوة بملاءات قطن نظيفة ورائحة اللحم المقدّد في الهواء قد صار أمرًا غير مألوف للغاية، غير متوقّع للغاية، حتى إن إيميت احتاج لبرهة لكي يتساءل من أين جاء اللحم المقدّد ومن الذي يطهوه.

تقلّب فرأى أن يبلي قد غادر الغرفة والساعة على طاولة الفراش تؤثر إلى العاشرة إلا ربعًا. أطلق سبّابًا خافتًا، ثم نزل من الفراش وارتدى ملابسه. كان قد أراد أن يذهب إلى البلدة ويرجع منها قبل خروج المصلّين من الكنيسة.

في المطبخ، وجد يبلي ودوقة جالسين متواجهين -وسالي عند الموقد. أمام الولدان كانت صحنون لحم مقدّد وبيض، وفي وسط الطاولة سلة من البسكويت وبرطمان من الفراولة المحفوظة.

قال دوقة لدى رؤية إيميت: يا فتى، تعال وانضم إلينا في هذه العزومة. سحب إيميت كرسيًا، ونظر إلى سالي، التي كانت ترفع دورق القهوة. -لم تكوني مضطرة لإعداد الفطور لنا يا سالي.

ردًا على ذلك، وضعت قدحًا أمامه على الطاولة.

-هاك قهوتك. ييضك سيكون جاهزًا بعد دقيقة.

ثم استدارت على عقبيها وعادت إلى الموقد.

دوقة، الذي تناول لتوّه قضمة أخرى من قطعة بسكويت، كان يهز رأسه بامتنان.

-لقد سافرتُ في كل أرجاء أمريكا يا سالي، لكنني لم أذوق قط أي شيء مثل هذا البسكويت. ما هي وصفتك السرية؟
-لا سرّ في وصفتي يا دوقة.

-إذا يجدر بك أن تحتفظي بها سرّاً. وبيلي يقول إنك صنعت الجيلي أيضاً.

-هذه فاكهة محفوظة، لا جيلي. لكن نعم. أصنعها في يوليو من كل عام.

قال بيلي: -الأمر يستغرق يوماً كاملاً. يجب أن ترى مطبخها. ستجد سلالاً من التوت والفراولة على كل منضدة وكيّساً به خمسة أرطال من السكر وأربعة قدور مختلفة تُبَقَّب على الموقد.
أطلق دوقة صفيراً وهز رأسه من جديد.

-ربما تكون موضة قديمة، لكن من موقعي هذا، أقول إنها تستحق الجهد.

استدارت سالي عن الموقد وشكرت دوقة بنبرة رسمية بعض الشيء.
ثم نظرت إلى إيميت.
-هل أنت جاهز؟

من دون انتظار إجابة، قدّمت له وجبته. فقال: حقيقةً لم تكوني مضطرة لأن تتعبي نفسك هكذا. كان يمكننا أن نعد فطورنا بأنفسنا، وهناك الكثير من المربّي في الخزانة.

قالت سالي وهي تضع صحنه أمامه: -سأتذكر ذلك في ما بعد.

ثم ذهبت إلى حوض الغسيل وشرعت تجلو المقلاة.

كان إيميت يحدق في ظهرها عندما وجّه له بيلي الحديث.

-هل سبق وأن ذهبت إلى الإمبريال يا إيميت؟

استدار إيميت إلى أخيه.

-ماذا تقول يا بيلي؟ الإمبريال؟

-دار السينما في سالينا.

قَطَّب إيميت جبينه وهو ينظر إلى دوقه، الذي سارع بوضع الأمور في نصابها.

-أخوك لم يذهب قَط إلى الإمبريال يا بيلي. فقط أنا وبعض الأولاد الآخرين ذهبنا.

أوما بيلي برأسه، وقد بدا عليه أنه يفكر في شيء ما.

-هل كان عليكم الحصول على تصريح خاص للذهاب إلى السينما؟

-لم تكن تحتاج إلى تصريح، بقدر ما تحتاج إلى... روح المبادرة.

-لكن كيف كنتم تخرجون؟

-آه! سؤال معقول في ظل الظروف. سالينا لم تكن تشبه السجن

بالضبط يا بيلي، بأبراج حراسة وأضواء كاشفة. كانت أشبه بمعسكر التأهيل في الجيش -مُجمَّع وسط الخلاء يضم عددًا من العنابر وقاعة طعام وبعض الشبان الأكبر سنًا في زِيٍّ موحد يصرخون فيك لأنك تتحرك بأسرع من اللازم عندما لا يصرخون فيك لأنك تتحرك بأبطأ من اللازم. لكن الشبان في الزِيٍّ الموحد -الشاويشيّة، إذا سمحت لي - لم ينأوا معنا. كانت لديهم عنابرهم الخاصة، التي تضم طاولة بلياردو، ومذراع، وثلاجة مليئة بالبيرة. وهكذا، بعد أن تُطفأ الأنوار يوم السبت، وبينما يعكف هؤلاء على الشراب ولعب البلياردو، كان عدد قليل منا ينسل من نافذة الحمام ويتجه إلى البلدة.

-هل كانت بعيدة؟

-ليست بعيدة جدًا. إذا هرولت عبر حقول البطاطس، ستصل بعد عشرين دقيقة إلى نهر. في معظم الأوقات، لا يتجاوز عمق النهر بضعة أقدام، وتستطيع أن تخوض فيه في ملابسك الداخلية وتصل إلى وسط المدينة في الوقت المناسب لحضور حفلة العاشرة. يمكنك الاستمتاع

بكيس فشار وزجاجة صودا، ومشاهدة الفيلم من البلكون، والعودة إلى الفراش قبل الواحدة صباحًا، بلا حس ولا خبر.
-بلا حس ولا خبر.

كذلك كرّر بيلى، بمسحةٍ من إجلال، قبل أن يضيف: -لكن كيف كنتم تدفعون ثمن التذاكر؟
واقترح إيميت: -لِمَ لا نغيّر الموضوع؟
قال دوقه: -لِمَ لا؟

سالى، التي كانت تجفّف المقلاة، وضعتها على سطح الموقد بخبطة مسموعة، ثم قالت: -سأذهب لأرتب الأسرة.
قال إيميت: -لست مضطّرة إلى ترتيب الأسرة.
-لن ترتب نفسها.

غادرت سالى المطبخ وسمعوا خطاها وهي تصعد السلم.
نظر دوقه إلى بيلى ورفع حاجبيه.
قال إيميت، وهو يدفع كرسيه إلى الخلف: -بعد إذنكما.
بينما يصعد إيميت السلم، سمع دوقه وأخاه يفتحان حوارًا حول كونت مونت كريستو وهروبه الإعجازي من سجنه على الجزيرة -هكذا كانت طريقتهما في تغيير الموضوع.

عندما وصل إيميت إلى غرفة أبيه، كانت سالى ترتب السرير بالفعل بحركات سريعة، دقيقة.

قالت، من دون أن ترفع رأسها إليه: -لم تذكر أن لديك ضيوفًا.
-لم أعرف أن لدي ضيوفًا.
نفّست سالى الوسائد بضربة على الطرفين، ثم سَدَّتْها على لوح السرير.
-بعد إذنك.

قالتها وهي تميل بجسدها متجاوزةً إيميت الواقف في إطار الباب لتخرج إلى الطرقة متجهةً إلى غرفته.

عندما لحق بها إيميت، وجدها تحدّق في السرير -لأن دوقه كان قد

رَبَّهٗ بالفعل. أَعْجَبَ إِيْمِيْت بِالْجَهْدِ الَّذِي بَذَلَهُ دَوْقَةً، لَكِنَّهُ لَمْ يُعْجِبْ سَالِي. سَحَبَتِ اللَّحَافَ وَالْمَلَاءَةَ ثُمَّ فَرَدَتْهُمَا مَجْدَدًا وَشَرَعَتْ تَشْدُهُمَا بِأَحْكَامِ حَوْلِ الْمَرْتَبَةِ بِنَفْسِ الْحَرَكَاتِ السَّرِيعَةِ الدَّقِيقَةِ. عِنْدَمَا حَوَّلَتْ إِنْتِبَاهَهَا إِلَى الْوَسَائِدِ، أَلْقَى إِيْمِيْت نَظْرَةً عَلَى السَّاعَةِ فَوْقَ طَاوِلَةِ الْفِرَاشِ. كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ الْعَاشِرَةِ وَالرَّبْعِ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ لَذَلِكَ، أَيَّا كَانَ ذَلِكَ.

-إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ فِي ذَهْنِكَ يَا سَالِي...

تَوَقَّفْتُ سَالِي فَجْأَةً وَنَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ذَلِكَ الصَّبَاحِ.

-وَمَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَهْنِي؟

-أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنِّي لَا أَعْرِفُ.

-يَبْدُو هَذَا صَحِيحًا.

سَوَّتْ فَسْتَانَهَا وَهَمَّتْ بِالْإِتِّجَاهِ إِلَى الْبَابِ، لَكِنَّهُ كَانَ وَاقِفًا فِي طَرِيقِهَا.

-أَنَا آسَفٌ أَنِّي لَمْ أَظْهَرِ امْتِنَانًا فِي الْمَطْبَخِ. كُلُّ مَا كُنْتُ أَحَاوِلُ قَوْلَهُ

إِنْ...

-أَعْرِفُ مَا كُنْتُ تَحَاوِلُ قَوْلَهُ لِأَنَّكَ قُلْتَهُ. إِنِّي لَمْ أَكُنْ مُضْطَرَّةً لِأَنِّ أَتَعَبُ

نَفْسِي وَأَفَوَّتُ الْكَنِيسَةَ لَكِي أَعَدَّ لَكُمْ الْفُطُورَ هَذَا الصَّبَاحِ؛ مِثْلَمَا لَمْ أَكُنْ

مُضْطَرَّةً لِأَنِّ أَتَعَبُ نَفْسِي وَأَعَدَّ لَكُمْ الْعِشَاءَ لَيْلَةَ أَمْسٍ. وَهُوَ كَلَامٌ جَمِيلٌ.

لَكِنْ لِمَعْلُومَاتِكَ، أَنْ تَقُولَ لِشَخْصٍ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا لِأَنِّ يَتَعَبُ نَفْسَهُ

لَكِي يَفْعَلُ شَيْئًا مَا، يَخْتَلِفُ عَنِ إِظْهَارِ الْإِمْتِنَانِ لِمَا فَعَلَهُ. يَخْتَلِفُ كَثِيرًا.

بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ عِدَدِ بَرَطْمَانَاتِ الْمَرْبِيِّ الْجَاهِزَةِ فِي الْخَزَانَةِ.

-هَلْ هَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ؟ الْمَرْبِيُّ فِي الْخَزَانَةِ؟ سَالِي، لَمْ أَقْصِدْ

الِاسْتِخْفَافَ بِفَاكِهِتِكَ الْمَحْفُوظَةِ. إِنَّهَا أَفْضَلُ بِالطَّبْعِ مِنَ الْمَرْبِيِّ فِي الْخَزَانَةِ.

لَكِنِّي أَعْرِفُ الْجَهْدَ الَّذِي بَذَلْتَهُ لِصَنْعِهَا، وَلَمْ أَرْغَبْ فِي أَنْ أَجْعَلَكَ تَشْعُرِينَ

بِضَرُورَةٍ إِهْدَارِ بَرَطْمَانٍ عَلَيْنَا. فَنَحْنُ لَسْنَا فِي مَنَاسِبَةٍ خَاصَّةٍ.

-رَبِّمَا يَهْمُكَ أَنْ تَعْرِفَ، يَا إِيْمِيْت وَاطْسُنْ، أَنِّي سَعِيدَةٌ بِأَنْ أَقْدَمَ فَاكِهِتِي

الْمَحْفُوظَةَ لِأَكْلِهَا أَصْدِقَائِي وَأَقَارِبِي مِنْ دُونِ أَيِّ مَنَاسِبَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ تِلْكَ

الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا. لَكِنْ لَعَلَّنِي، أَقُولُ لَعَلَّنِي فَقَطْ، فَكُرْتُ أَنَّكَ وَبِيلِي قَدْ

ترغبان في التمتع ببرطمان أخير قبل أن تحزما أغراضكما وتنتقلا إلى كاليفورنيا من دون كلمة واحدة.

أغمض إيميت عينيه. واستطردت هي: -حين أفكر في الأمر، أظنني ينبغي أن أشكر حظي السعيد أن صديقك دوقه تمتّع بحضور الذهن لكي يخبرني عن نواياكم. لولا ذلك، كان يمكن أن أمرّ عليكم غداً صباحاً وقد أعددت البانكيك والسجق فقط لأكتشف أنه لا وجود لمن يأكلها.

-آسف أنني لم أجد الفرصة لإخبارك يا سالي. لكنني لم أحاول إخفاء الأمر أو شيء من هذا القبيل. لقد تكلمتُ عنه مع والدك عصر أمس. الحقيقة، كان هو من فتح الموضوع -قائلاً ربما من الأفضل لي أنا وبيلي أن نرفع مراسينا ونبدأ بداية جديدة في مكان آخر.

نظرت سالي إلى إيميت.

-أبي قال ذلك. إنكما يجب أن ترفعا المراسي وتبدأ بداية جديدة.

-بعبارة أو بأخرى...

-طيب، لا يبدو ذلك أمراً يدعو للبهجة.

مرت سالي من جوار إيميت، وتابعت طريقها إلى غرفة بيلي، حيث كان وولي راقداً على ظهره ينفخ في السقف، محاولاً تحريك الطائرات.

وضعت يديها في خاصرتها.

-ومن تكون أنت الآخر؟

رفع وولي رأسه متفاجئاً.

-أنا وولي.

-هل أنت كاثوليكي يا وولي؟

-لا، أنا أسقفي.

-ما الذي يُبقيك في الفراش إذا؟

اعترف وولي: -لست متأكداً.

-الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً ولا يزال أمامي الكثير من العمل.

لذلك، عندما أعدُّ من واحد لخمسة، سوف أرْتب ذلك السرير، سواء كنت فيه أم لا.

قفز وولي من تحت الغطاء في «البوكسر» الداخلي وجعل يراقب مشدوهاً بينما أخذت سالي ترتب السرير. وحين كان يهرش في قمة رأسه، لاحظ إيميت على العتبة.

-هيه يا إيميت.

-هيه يا وولي.

ضيق وولي عينيه وهو ينظر إلى إيميت للحظة، قبل أن يشرق وجهه.

-هل هذا لحم مقدَّد؟

قالت سالي: -ها!

اتجه إيميت إلى السلم، ونزل إلى الطابق السفلي، ثم خرج من الباب.

كان من دواعي ارتياح إيميت أن يجلس وحيداً وراء عجلة قيادة الستادبيكر.

منذ غادر سالينا، لم يجد تقريباً أي فرصة للبقاء مع نفسه. أولاً كانت الرحلة مع المأمور، ثم مستر أوبرماير في المطبخ ومستر رانسوم في الشرفة، ثم دوقة وولي، والآن سالي. كل ما أراده إيميت، كل ما كان يحتاج إليه، فرصة لأن يصفّي ذهنه لكي ينطلق في الحالة الذهنية السليمة، أيّاً كانت الوجهة التي سيقررها هو وبيلي، سواء تكساس أم كاليفورنيا أو مكان آخر. لكن بينما ينعطف إيميت في شارع 14، وجد أن ما يشغل باله ليس المكان الذي سيقصده هو وبيلي، بل حواراه مع سالي.

أنا متأكد أنني لا أعرف.

كان هذا ردّه عندما سألته عمّا يدور في بالها. وبالمعنى الضيق للكلمة، لم يكن يعرف.

لكن كان يمكن أن يخمّن تخميناً جيداً.

كان يفهم جيداً ما تأمله سالي. بل لعله سبق وأن أعطاها سبباً لهذه

الآمال. هذا ما يفعله الشباب: يؤجّجون لهيب آمال بعضهم البعض - إلى أن تبدأ ضرورات الحياة في التجلي. غير أن إيميت لم يكن قد أعطاه سبباً قوياً لآمالها منذ ذهب إلى سالينا. عندما كانت ترسل له تلك الطرود - بما فيها من حلوى «الكوكيز» المنزلية وأخبار البلدة - لم يردّ عليها بكلمة شكر. لا في الهاتف ولا في رسالة. وقبل عودته إلى الديار، لم يرسل لها كلمة عن وصوله الوشيك أو يطلب منها ترتيب البيت. لم يطلب منها أن تكنس أو ترتّب الأسرة أو تضع صابونة في الحمام أو بيضاً في البرّاد. لم يطلب منها أن تفعل أي شيء.

فهل شعر بالامتنان عندما اكتشف أنها اختارت القيام بتلك الأشياء لأجله هو وبيلي؟ بالطبع كان ممتناً. لكن أن يكون المرء ممتناً لك لا يعني أن يكون مدينّاً لك، هذا أمر مختلف تماماً.

وبينما يمضي إيميت بسيارته، رأى تقاطع شارع 7 يقترب. عرف إيميت أنه إذا انعطف يميناً ودار عائداً في شارع 22D، يمكنه الوصول إلى البلدة من دون أن يُضطر إلى المرور بساحة المعارض. لكن ماذا سيكون المغزى من وراء ذلك؟ ساحة المعارض ستظل هناك سواء مرّ بها أم لا. ستظل هناك سواء ذهب إلى تكساس أو إلى كاليفورنيا أو إلى أي مكان آخر.

لا، اختيار الطريق الطويل لن يغيّر شيئاً. غير أنه، ربما، سيجعل الشخص يتخيل للحظة أن ما حدث بالفعل لم يحدث على الإطلاق. لذلك لم يستمر إيميت في طريقه مباشرة متجاوزاً ذلك التقاطع فحسب، بل أبطأ السيارة إلى سرعة عشرين ميلاً في الساعة وهو يقترب من ساحة المعارض، ثم توقف على جانب الطريق المقابل حيث لم يكن أمامه خيار إلا إلقاء نظرة فاحصة.

على مدى واحد وخمسين أسبوعاً في السنة، تظل ساحة المعارض بالضبط كما هي الآن - أربعة فدادين مغطاة بالقش لكي يكتم التراب. لكن في الأسبوع الأول من أكتوبر، تصير بعيدة كل البعد عن الخواء. تمتلئ بالموسيقى والناس والأضواء. تجد فيها خيولاً موسيقية دوّارة وسيارات

تصادم وأكشاكًا ملوثة حيث يستطيع المرء تجريب يده في تصويب الكرات والرماية بالبندقية. تجد خيمة مخططة ضخمة يجتمع فيها القضاة، تحيطهم الرسميات اللائقة، فيتداولون، ويُسبغون الأوسمة على أكبر ثمرة قرع وأشهى فطيرة مارينغ بالليمون. وتجد ساحة مطوّقة بمدرّجات تنعقد فيها منافسات جرّ الأوزان بالجرّارات الزراعية، وتكتيف العجول بالحبّال، وحيث يجلس المزيد من القضاة ليمنحوا المزيد من الأوسمة. وهناك في المؤخرة، وراء رُكن الطعام مباشرة، تجد خشبة مسرح مضاءة بكشّافات قوية لأجل مسابقة الموسيقى.

بجوار بائع غزل البنات مباشرةً، من بين كل الأماكن، في الليلة الأخيرة من المعرض، حدث أن قرر جيمي سنايدر افتعال شجار معه. عندما صاح جيمي بعبارته الأولى، ظن إيميت أنه يتحدّث إلى شخص آخر، لا بُدّ -لأنه لم يعرف جيمي إلا سطحيًا. إيميت، الذي كان يصغر جيمي بعام، لم يدرّس في أي فصل من فصوله ولم يلعب في أي فريق من فرقهِ، لذلك لم تكن هناك مناسبة للاختلاط معه.

بيد أن جيمي سنايدر لم يكن بحاجة إلى معرفتك. كان يحب توجيه الإهانات للناس سواء عرفهم أم لا. ولا يهم السبب. كان يمكن أن يكون الملابس التي ترتديها، أو الطعام الذي تأكله، أو الطريقة التي عبرت بها أختك الشارع. نعم يا سيدي، كان يمكن أن يكون أي شيء، ما دام التعليق عليه يستفزك ويثير أعصابك.

من الناحية الأسلوبية، كان جيمي يحب صياغة إهاناته في صورة تساؤلات. تظهر عليه أمارات الفضول والوداعة وهو يسأل أول سؤال، من دون أن يوجّهه إلى شخص بعينه. فإذا لم يمْسُ ذلك وترًا حساسًا، يجيب على السؤال الأول بنفسه، ثم يسأل آخر، مثل زوبعة تدور إلى الداخل.

أليس ذلك لطيفًا؟ ذاك كان سؤاله الأول الذي طرحه عندما رأى إيميت يمسك يدَ بيلي. أقصد، أليس ذلك ألطف شيء رأيتموه في حياتكم؟ عندما أدرك إيميت أن جيمي يقصده، لم يعبأ بالأمر. ماذا يهمّ إذا رآه

الناس يُمسك يد شقيقه الأصغر في معرض من معارض المقاطعة؟ من ذا الذي سيُحجم عن الإمساك بيد صبي في السادسة من عمره وسط زحام كبير في الثامنة مساءً؟

هكذا، حاول جيمي مجددًا. منتقلًا إلى المرحلة الثانية، تساءل بصوت عالٍ عما إذا كان والد إيميت لم يشترك في الحرب لأنه صُنِّفَ C-3، تصنيف الخدمة الإلزامية الذي يسمح للمزارعين بإرجاء التجنيد. واستغرب إيميت لهذه الإهانة، بالنظر إلى عدد الرجال في نبراسكا الذين صُنِّفوا C-3. استغربها كثيرًا حتى إنه لم يستطع منع نفسه من التوقف والالتفات - وكان ذلك خطؤه الأول.

الآن، وبعد أن استحوذ جيمي على انتباه إيميت، أجاب عن التساؤل بنفسه.

قال: لا، تشارلي واطسن لن يُصنَّفَ C-3. لأنه لا يستطيع أن يزرع حشائش في جنة عدن. لا بُدَّ أنه صُنِّفَ F-4⁽¹⁾.

هنا، أدار جيمي إصبعًا حول أذنه ليوحى بعجز تشارلي واطسن عن التفكير السليم.

بداهةً، كانت تلك إهانات صبيانية، لكنها بدأت تجعل إيميت يكرُّ على أسنانه. شعر بالحرارة تتصاعد إلى سطح جلده. لكنه شعر أيضًا بأن يبلي يشدُّ يده - ربما للسبب البسيط المتمثل في أن مسابقة الموسيقى أو شكت على البدء، أو ربما لأن يبلي، حتى في سن السادسة، فهِمَّ أنه لا خير يُرتجى من الاشتباك مع أمثال جيمي سنايدر. لكن قبل أن يتمكن يبلي من شدِّ إيميت بعيدًا، جرَّبَ جيمي واحدةً أخرى.

قال: لا، لا يمكن أن يكون لأنه F-4. إنه أتفه من أن يكون مجنونًا. أظن أنه إذا لم يحارب، فذلك لأنه كان E-4. أو ما يسمُّونه الاستنكاف الـ...

(1) 3-c، و E-4، و F-4: ثلاثة أسباب للإعفاء من التجنيد وقت الحرب. C-3 للأعمال الضرورية التي تحتاج إليها الدولة، و F-4 للاضطرابات الذهنية، و E-4 للاستنكاف الضميري. (م)

قبل أن يتمكن جيمي من نطق كلمة «الضميري»، كان إيميت قد وجّه إليه ضربة. وجّه إليه ضربة من دون حتى أن يترك يد أخيه، مطلقاً قبضته من كتفه في لكمة مستقيمة كسرت أنف جيمي.

لم يكن الأنف المكسور هو ما قتله، بالطبع. كانت السقطة. لقد اعتاد جيمي على الحديث من دون أن يردّه أحدٌ حتى إنه لم يجهّز نفسه للكلمة. جعلته يترنح إلى الوراء، وهو يرفرف بذراعيه. وعندما تعثرت قدم جيمي في ضفيرة من الكابلات، سقط على ظهره مباشرة، واصطدم رأسه بقلب خرساني كان يثبت وتد الخيمة.

وفقاً للتقرير الطبي، سقط جيمي بقوة جعلت زاوية القلب الخرساني تحفر حفرة مثلثة بعمق بوصة كاملة في مؤخرة جمجمته. وضعته في غيبوبة تركته يتنفس، لكنها كانت تمتص قواه تدريجيّاً. بعد اثنين وستين يوماً، كانت قد استنزفت الحياة من جسده بالكامل، بينما تجلس أسرته على جنب سريريه ساهرة تتهجّد في صلواتها من دون طائل.

كما قال المأمور، الوجه القبيح للصدفة.

كان الشريف بيترسون، مدير شرطة المقاطعة، هو من نقل خبر وفاة جيمي إلى باب آل واطسن. وقد أرجأ توجيه الاتهامات، في انتظار أن يرى كيف ستتطوّر حالة جيمي. في هذه الأثناء، التزم إيميت الصمت، إذ لم يجد فائدة من الكلام عمّا حدث من وجهة نظره بينما يحارب جيمي من أجل البقاء.

بيد أن أصحاب جيمي لم يلتزموا الصمت. تكلموا عن الشجار كثيراً وباستفاضة. تكلموا عنه في المدرسة، وفي فوّارة الصودا⁽¹⁾، وفي غرفة معيشة آل ساندرز. حكوا كيف كانوا هم الأربعة في طريقهم إلى كُشْك غزل البنات عندما اصطدم جيمي بإيميت عفواً؛ وكيف لكّمه إيميت في وجهه، قبل أن يجد جيمي حتى الفرصة للاعتذار.

(1) فوّارة الصودا: نوع قديم من المطاعم الصغيرة كان يقدّم طعاماً خفيفاً، وآيس كريم، ومياهًا غازية (من الماكينة)، وما إلى ذلك. (م)

مستر ستريتر، محامي إيميت، شجعه على أن يقف على المنصة ويحكي روايته. لكن في أي رواية تسود، كان جيمي سيموت ويُدفن. على ذلك، أخبر إيميت مستر ستريتر أنه ليس بحاجة إلى محاكمة. وفي الأول من مارس عام 1953، في جلسة استماع أمام القاضي شومر في محكمة المقاطعة، وبعد أن اعترف بذنبه بمحض إرادته، حُكم عليه بقضاء ثمانية عشر شهرًا في برنامج إصلاح خاص بالقصر في مزرعة ببلدة سالينا، تكساس.

في غضون عشرة أسابيع، لن تكون ساحة المعارض خاوية، هكذا فكر إيميت. سوف تُنصب الخيمة ويعاد بناء الخشبة ويجتمع الناس من جديد في انتظار المسابقات والطعام والموسيقى. وإذ وضع إيميت الستادبيكر على الغيار الأول، وجد بعض العزاء في أنه وييلي، عندما تبدأ الاحتفالات، سيكونان على مبعدة أكثر من ألف ميل.

أوقف إيميت سيارته في المرجة المجاورة للمحكمة. ولما كان يوم أحد، كانت أغلب المتاجر مغلقة. مرَّ سريعًا بمتجر غندرسون ومحل «بخمسة وب عشرة»، حيث أنفق العشرين دولارًا من مظروف والده على نثرِيَّات من أجل الرحلة الوشيكة إلى الغرب. ثم، بعد أن وضع أكياسه في السيارة، سار على قدميه في شارع جيفرسون متجهًا إلى المكتبة العامة.

في أول الغرفة المركزية، جلست أمينة مكتبة في منتصف العمر أمام مكتب على شكل V. عندما سألها إيميت أين يمكن أن يجد أدلة المدن ودوائر المعارف، قادتة إلى قسم المراجع وأشارت إلى مجلدات متنوعة. وأثناء ذلك، أحس إيميت أنها تتفحصه من وراء نظارتها، ثم تعود وتنظر إليه، وكأنها تعرَّفت عليه. لم يدخل إيميت المكتبة منذ كان صبيًا، لكن لعلها تعرَّفت عليه لأسباب مختلفة، ليس أقلها صورته التي ظهرت في الصفحة الأولى من صحيفة البلدة أكثر من مرة. في البداية، كانت صورة تسجيله في المدرسة إلى جوار صورة جيمي. ثم صورة إيميت واطسن

وهو يُقتاد إلى مركز الشرطة لكي يوجَّه إليه اتهام رسمي، وإيميت واطسن وهو ينزل سلالم المحكمة في الدقائق التالية لجلسة الاستماع. كانت الفتاة في متجر مستر غندرسون قد رmqته بنظرة مشابهة.

سألت أمينة المكتبة بعد لحظات:- هل أساعدك في العثور على شيء معين؟

- لا يا سيدتي. أنا أعرف ما أبحث عنه.

عندما تراجعت إلى مكتبها، سحب إيميت المجلدات التي أرادها، وحملها إلى إحدى الطاولات، واتخذ مقعدًا.

على مدى جُلِّ أيام عام 1952، ظل والد إيميت يصارع مرضًا أو آخر. غير أنَّ نوبة إنفلونزا لم يستطع التخلص منها في ربيع العام 53 كانت ما دفع الدكتور وينسلو إلى إرساله إلى أوماها للمزيد من الفحوصات. في الخطاب الذي أرسله والد إيميت إلى سالاينا بعدها ببضعة شهور، طمأن ابنه أنه عاد للوقوف على قدميه ويسير قُدِّمًا في طريق التعافي. مع ذلك، كان قد وافق على القيام برحلة أخرى إلى أوماها لكي يتمكن المتخصصون من إجراء بضع فحوصات أخرى، كعادة المتخصصين.

عندما قرأ إيميت الخطاب، لم ينخدع بتطمينات والده التقليدية أو بتعليقه الممتعض على هوس الأطباء. لطالما استخدم والده الكلمات الملطفة. كلمات ملطفة ليصف حال الزراعات، والحصاد المتوقع، ولماذا اختفت أمهما فجأة. علاوة على ذلك، كان إيميت كبيرًا بما يكفي لأن يعرف أن الطريق إلى التعافي نادرًا ما يُقرش بالزيارات المتكررة للمتخصصين.

ثم أزيحت جانبًا كل الشكوك حول مآل مرض مستر واطسن ذات صباح من صباحات أغسطس عندما نهض عن طاولة الفطور وأغشي عليه أمام عيني بيلى مباشرة، الأمر الذي استدعى رحلة ثالثة إلى أوماها، هذه المرة في سيارة إسعاف.

تلك الليلة -بعد أن تلقى إيميت المكالمة الهاتفية من دكتور وينسلو في مكتب المأمور- بدأت خطة تشكُّل. أو لمزيد من الدقة، كانت خطة ظل

إيميت يقلبها في مؤخرة رأسه من حين إلى آخر منذ شهور، غير أنها انتقلت الآن إلى مقدمة رأسه، تتجلى في سلسلة من التنوعات تختلف في التوقيت والمدى، لكنها تحدث دائماً في مكان آخر غير نبراسكا. ومع تدهور حالة والده على مدار الخريف، أصبحت الخطة أكثر وضوحاً؛ وعندما توفي في شهر إبريل ذاك، كانت قد صارت غاية في الوضوح -وكان والد إيميت قد تنازل عن حيويته ذاتها ليمنح نوايا إيميت الحيوية.

كانت الخطة بسيطة. فور أن يخرج إيميت من سالينا، سيحزم هو وبيلي أغراضهما ويتجهان إلى منطقة حضرية كبيرة -مكان ليس فيه لا صوامع غلال، ولا حصّادات، ولا ساحات معارض - حيث يستخدمان القليل المتبقي من تركة والدهما لشراء بيت.

ليس من الضروري أن يكون بيتاً كبيراً. يمكن أن يكون بيتاً على الطراز الكولونيالي أو الفيكتوري، مغطى بالألواح الخشبية أو مسقوفاً ببلاطات التّكسية. المهم أن يكون بحاجة إلى ترميم.

لأنهم لن يشتريا هذا البيت ليملاّه بالأثاث وأدوات المائدة والقطع الفنية، أو حتى بالذكريات. سوف يشتريان البيت لإصلاحه وبيعه. ولتدبير المعيشة، سوف يحصل إيميت على وظيفة لدى بناء محلي، لكن في المساء بينما يُنجز بيلي فروضه المدرسية، سوف يعمل إيميت على إصلاح البيت، بوصةً بعد بوصة. أولاً، ينجز أي أشغال لازمة في السقف والنوافذ لضمان صمود البيت أمام تقلبات الطقس. ثم يحول انتباهه إلى الجدران، والأبواب، والأرضية. ثم إلى الأفاريز والدرازينات وحُجيرات التخزين. وفور أن يصير البيت في حالة ممتازة، حيث النوافذ تنفتح وتنغلق ودرجات السلم لا تُصرّ وأجهزة التدفئة لا تُقعقع، فور أن تبدو كل زاوية جاهزة وعلى خير ما يرام، عندها، وعندها فقط، سوف يعرضانه للبيع.

إذا لعب إيميت أوراقه جيداً، إذا اختار البيت المناسب في الحي المناسب وبذل مقدار العمل المناسب، قدّر أن باستطاعته مضاعفة نقوده في أول بيعة -ما يسمح له باستثمار العوائد في بيتين متهدّمين آخرين، حيث

يستطيع أن يبدأ العملية نفسها من جديد. فقط هذه المرة، عندما يكتمل العمل في البيتين، سوف يبيع واحدًا ويؤجّر الآخر. إذا حافظ إيميت على تركيزه، يستطيع في غضون بضعة أعوام، وفقًا لحساباته، أن يدخر ما يكفي من مال لكي يترك الوظيفة ويُسْغَل معه رجلًا أو رجلين. ثم يصير بمقدوره تجديد بيتين وجمع الإيجار من أربعة. لكن في وقت قصير، وتحت أيّ ظروف، لن يقترض ولو ستًّا واحدًا.

بخلاف اجتهاده في العمل، قدّر إيميت أن ثمة شيئًا واحدًا آخر فقط جوهريًا لنجاحه، وهو أن ينفذ خطته في منطقة حضرية كبيرة وفي حالة توسّع. في ضوء ذلك، كان قد زار المكتبة الصغيرة في سالينا، وفتح المجلد الثامن عشر من «دائرة المعارف البريطانية» على الطاولة، ونسخ التالي:

تعداد سكان تكساس

1920	4,700,000
1930	5,800,000
1940	6,400,000
1950	7,800,000
1960 (متوقع)	9,600,000

عندما عثر إيميت على المدخل الخاص بتكساس، لم يعبأ حتى بقراءة الفقرات الافتتاحية - تلك التي تلخّص تاريخ الولاية، وتجارتها، وثقافتها، ومناخها. عندما رأى أن تعداد السكان سوف يرتفع إلى أكثر من الضعف بين عامي 1920 و1960، كان ذلك كل ما يحتاج إلى معرفته.

لكن بالمنطق نفسه، ينبغي عليه أن يكون منفتحًا على أن يضع في اعتباره أي ولاية متنامية من ولايات الاتحاد.

فور أن جلس إيميت في مكتبة مورغن، أخرج الورقة من محفظته ووضعها على الطاولة. ثم فتح المجلد الثالث من دائرة المعارف وأضاف عمودًا آخر.

تعداد سكان تكساس تعداد سكان كاليفورنيا

1920 700,000 ,4 1920 400,000 ,3

1930 800,000 ,5 1930 700,000 ,5

1940 400,000 ,6 1940 900,000 ,6

1850 800,000 ,7 1950 600,000 ,10

1960 (متوقع) 600,000 ,9 1960 (متوقع) 700,000 ,15

تفاجأ إيميت بنمو كاليفورنيا حتى إنه قرر هذه المرة أن يقرأ الفقرات الافتتاحية. ومنها عرف أن اقتصادها يتوسع على جبهات متعددة. فالولاية التي ظلت من عمالقة الزراعة لزمان طويل، حوّلتها الحرب إلى رائدة في مجال بناء السفن والطائرات؛ وأصبحت هوليوود مصنع الأحلام في العالم؛ أمّا موانئ سان دييغو، ولوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو، فتمثّل، حين تُجمع معاً، أكبر بوابة للتجارة في الولايات المتحدة الأمريكية. في الخمسينيات وحدها، بحسب ما تفيد التوقعات، سوف يزداد عدد سكان كاليفورنيا بأكثر من خمسة ملايين مواطن، بمعدل يقترب من خمسين بالمئة.

فكرة أنه وشقيقه سوف يعثران على أهمها بدت مجنونة مثلما بدت في اليوم السابق، إن لم تكن أكثر جنوناً، بالنظر إلى النمو في تعداد سكان الولاية. لكن إذا كان هدف إيميت أن يجدد البيوت ويبيعها، تصير الحجة في صالح كاليفورنيا دامغة لا تقبل الجدل.

أعاد إيميت الورقة إلى محفظته ودائرة المعارف إلى الرف. لكن بعد أن أدخل المجلد الثالث في مكانه، عاد وسحب المجلد الثاني عشر. ومن دون أن يجلس، انتقل إلى المدخل الخاص بنبراسكا وألقى نظرة على الصفحة. لاحظ إيميت، بمسحة رضا متجهّم، أن تعداد السكان بين عامي 1920 و1950 ظل يحوم حول رقم 3, 1 مليون نسمة، وأن التوقعات تفيد بأن ذلك العدد لن يزيد ولا بمقدار إنسان واحد.

أعاد إيميت المجلد إلى مكانه واتجه إلى الباب.

-هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

كان إيميت قد تجاوز مكتب الاستعلامات، فاستدار لمواجهة أمينة المكتبة. كانت نظارتها الآن مرفوعة فوق رأسها، ورأى إيميت أنه أخطأ في تقدير عمرها. لم تتجاوز الخامسة والثلاثين على الأرجح. قال: وجدته، شكرًا لك.

-أنت أخو بيلي، صحيح؟

قال، وقد تفاجأ بعض الشيء: -أنا هو.

ابتسمت وأومأت برأسها.

-أنا إيلي مَثايسِن. عرفتُ من الشبه الكبير بينكما.

-هل تعرفين أخي جيدًا؟

-أوه، لقد قضى هنا وقتًا طويلًا. على الأقل منذ غيابك. أخوك يحب

القصص الجيدة.

اتفق معها إيميت بابتسامة.

-هذا صحيح تمامًا.

مع إنه، حين كان يخرج من الباب، لم يستطع إلا أن يضيف بينه وبين

نفسه: بَحَلُّوْها ومُرَّها.

كان ثلاثة منهم يقفون بجوار الستاديبكر عندما رجع إيميت من

المكتبة. لم يتعرف على الطويل الواقف إلى اليمين في قبعة كاوبوي، لكن

الواقف إلى اليسار كان إيدي، الشقيق الأكبر لجيني أندرسن، والواقف

في المنتصف كان جاكوب سنايدر. من الطريقة التي كان إيدي يركل بها

الرصيف، عرفَ إيميت أنه لم يرغب في أن يكون في ذلك الموقف. وإذا

رأى الغريب الطويل إيميت يقترب، لكزَ جاك في جنبه. عندما رفع جاك

عينه، عرفَ إيميت أنه لم يرغب في أن يكون في هذا الموقف بدوره.

توقف إيميت على بعد بضع أقدام ومفاتيحه في يده وأومأ برأسه

للرجلين اللذين يعرفهما.

- جاك. إيدي.

لم يردُّ عليه أيُّ منهما.

فكر إيميت في تقديم اعتذار لجاك، غير أن جاك لم يكن هناك ليحصل على اعتذار. سبق لإيميت أن اعتذر بالفعل لجاك وبقيّة آل سنايدر. اعتذر في الساعات التي تلت الشجار، ثم في مركز الشرطة، وأخيرًا على سلالم المحكمة. لم تنفع اعتذاراته آل سنايدر بشيء وقتها، ولن تنفعهم بشيء الآن. قال إيميت: - لا أريد مشاكل. أريد فقط أن آخذ سيارتي وأرجع إلى البيت.

قال جاك: - لا أستطيع أن أترك تفعل ذلك.

والأرجح أنه كان مصيبًا. فمع أن الحديث بين إيميت وجاك لم يكن قد استمر لأكثر من دقيقة، كان الناس يتجمعون حولهم بالفعل. بضعة عمّال زراعيين، والأرملتان الشقيقتان، وصيّان كانا يضيّعان الوقت في مرّجة المحكمة. إذا فتحت الكنيسة الخمسينيّة أو الكنيسة التجمّعيّة الأبواب للمصلّين، فسيزداد الزحام. أيّا كان ما سيحدث بعد ذلك كان سيصل بالتأكيد إلى سنايدر الأب، ما يعني أن جاك ليس أمامه إلا طريق واحد لإنهاء هذه المواجهة.

وضع إيميت مفاتيحه في جيبه، تاركًا يديه إلى جنبه.

كان الغريب هو من تكلم أولاً. استند إلى باب الستادبيكر، وأرجع قبعته إلى الخلف وابتسم.

- يبدو أن جاك هنا لديه معك عمل لم ينته بعد يا واطسن.

استقبل إيميت نظرة الغريب، ثم استدار عائداً إلى جاك.

- إذا كان لديك عمل لم ينته يا جاك، فتعال نُنْهيه.

بدا على جاك أنه لا يعرف كيف يبدأ، وكأن الغضب الذي توقع أن يشعر به -الذي كان يُفترض أن يشعر به- بعد كل تلك الشهور، صار يتملص منه فجأة. وهكذا، مقلداً سلوك شقيقه، بدأ بسؤال: تظن نفسك مصارعاً، صحيح يا واطسن؟

لم يُحر إيميت جوابًا.

-وربما تكون مصارعًا، طالما أنك تضرب رجلًا بلا مبرّر.

-لم يكن بلا مبرّر يا جاك.

تقدم جاك نصف خطوة، وهو يشعر الآن بشيء قريب من الغضب.

-هل تقول إن جيمي حاول أن يضربك أولًا؟

-لا. لم يحاول أن يضربني.

أوماً جاك برأسه وهو يطبق على أسنانه، ثم تقدم نصف خطوة أخرى.

-طالما أنك تحب توجيه اللكمة الأولى إلى تلك الدرجة، لماذا لا

توجه اللكمة الأولى إليّ؟

-لن أوجه لكمة إليك يا جاك.

حدّق جاك في إيميت للحظة، ثم أشاح بنظره بعيدًا. لم ينظر إلى صاحبيه. لم ينظر إلى سكان البلدة الذين تجمعوا ورائه. بل أبعد نظره كيلا ينظر إلى شيء محدد. وعندما استدار من جديد، وجّه إلى إيميت لكمة يُمنى مُتقاطعة.

ولأن جاك لم يكن ينظر إلى إيميت عندما قام بتلك الحركة، طاشت قبضته وأصابت أعلى خدّ إيميت بدلًا من أن تصيبه في فكّه مباشرة. غير أن الضربة كانت قوية بما يكفي لأن يترنح إيميت يمينًا.

الآن، تقدم الجميع خطوة إلى الأمام. إيدي والغريب، والمتفرجون، وحتى المرأة التي تدفع عربة أطفال والتي كانت قد انضمت لتوّها إلى الزحام. الجميع باستثناء جاك. إذ ظل حيثما كان، يتابع إيميت بنظرته. رجع إيميت إلى المكان الذي كان فيه قبل لحظة، وعاود وضع يديه إلى جانبيه.

كان وجه جاك متورّدًا بمزيج من الإجهاد والغضب، وربما مسحة من الحرج أيضًا.

قال: -ارفع قبضتيك.

رفع إيميت قبضتيه عاليًا في وضعيّة الملاكمة، لكن ليس عاليًا بما يكفي لأن يدافع عن نفسه بفاعلية.

هذه المرة، ضربه جاك في فمه. ترنح إيميت ثلاث خطوات إلى الخلف، وهو يشعر بمذاق الدم على شفتيه. استعاد توازنه وتقدم الخطوات الثلاث التي تعيده إلى متناول قبضة جاك. وإذا سمع الغريب يصرخ في جاك ليحرّضه، رفع إيميت قبضتيه قليلًا ووجّه له جاك لكمة أسقطته أرضًا.

فجأة، فَقَدَ العالم استواءه، ومال بزواوية ثلاثين درجة. لكي يجلس إيميت على ركبتيه، كان عليه أن يستند بكلتا يديه على الرصيف. وحين دفع نفسه إلى أعلى، شعرَ بسخونة النهار تتصاعد من الخرسانة عبر كَفَّيه. على أطرافه الأربعة، انتظر إيميت إلى أن يصفو رأسه، ثم شرع في النهوض.

تقدم جاك خطوة إلى الأمام. قال، بصوت مفعم بالغضب: لا تنهض مرة أخرى. لا تنهض مرة أخرى يا إيميت واطسن.

عندما نهض إيميت منتصبًا بكامل طوله، شرع يرفع قبضتيه، لكنه لم يكن جاهزًا للنهوض بعد، في نهاية المطاف. دارت الأرض ومالت إلى أعلى، فسقط إيميت مرة أخرى على الرصيف مطلقًا آهة قصيرة.

صاح شخص ما: -يكفي هذا. يكفي هذا يا جاك.

كان الشَّريف بيترسون، يشق طريقه بين المتفرجين.

أمر الشَّريف أحد مساعديه بأن يبعد جاك جانبًا وأمر آخر أن يفرّق الحشد. ثم نزل على ركبتيه لكي يقيّم حالة إيميت. بل إنه مد يده وأدار رأس إيميت لكي يحظى بنظرة أفضل على جنب وجهه الأيسر.

-لا تبدو مصابًا بكسور. هل ستكون بخير يا إيميت؟

-سأكون بخير.

بقي الشَّريف بيترسون مقرّصًا على ركبتيه.

-هل سترغب في توجيه اتهام؟

-على ماذا؟

أشار الشريف إلى مساعده لكي يطلق سراح جاك، ثم استدار مجددًا إلى إيميت، الجالس الآن على الرصيف، يمسح الدم عن شفته.
-متى رجعت؟

-بالأمس.

-لم يستغرق جاك وقتًا طويلًا قبل أن يجدك.

-لا يا سيدي، ليس وقتًا طويلًا.

-طيب، لا أستطيع أن أقول إنني متفاجئ.

لاذ الشريف بالصمت لبرهة.

-هل تقيم في منزلك؟

-نعم يا سيدي.

-طيب إذا. دعنا نغسل وجهك قبل أن نرسلك إلى بيتك.

أخذ الشريف بيد إيميت ليساعده على النهوض. لكنه، وهو يفعل ذلك، انتهز الفرصة لينظر إلى مفاصل قبضة إيميت.

مضت الستاديبكر بالشريف وإيميت في شوارع البلدة؛ إيميت في مقعد الراكب والشريف وراء عجلة القيادة، يتحركان بوتيرة بطيئة لطيفة. كان إيميت يتحقق من أسنانه بطرف لسانه عندما قطع الشريف، الذي كان يصفر أغنية لهانك وليامز، صفيره وقال: ليست سيارة سيئة. كم تبلغ سرعتها القصوى؟

-حوالي ثمانين من دون أن تهتز.

-أنت تمزح!

بيد أن الشريف واصل القيادة بوتيرته البطيئة، أخذًا انعطافات واسعة كسول وهو يصفر لحنه. عندما تجاوز الطريق الفرعي المؤدي إلى مركز الشرطة، رmqه إيميت بنظرة متسائلة. شرح له الشريف: فكرت أن آخذك إلى بيتنا. لندع ماري تلقي نظرة عليك.

لم يعترض إيميت. شعر بالامتنان لفرصة الاغتسال قبل الرجوع إلى البيت، لكنه لم يرغب في الذهاب إلى مركز الشرطة مرة أخرى.

بعد أن توقف في مدخل بيت آل بيترسون، هَمَّ إيميت بفتح الباب عندما لاحظ أن الشَّريف لا يتحرك. ظل جالسًا مكانه ويداه على عجلة القيادة -تمامًا مثلما فعل المأمور في اليوم السابق.

وبينما كان إيميت ينتظر الشَّريف حتى يُفصح عمَّا في باله أيَّا كان، تطلع من الزجاج الأمامي إلى الإطار المتأرجح المعلق من شجرة البلوط في الفناء. لم يعرف إيميت أطفال الشَّريف، لكنه كان يعرف أنهم كبار، ووجد نفسه يتساءل ما إن كانت الأرجوحة أثرًا من أيام صباهم، أم أن الشَّريف قد علقها لأحفاده. مَنْ يعرف، هكذا فكَّر إيميت؛ لعلها ظلت معلقة من قبل أن يشتري آل بيترسون المكان.

أخيرًا، شرع الشَّريف يتكلم: لم أَصِلْ إلا في نهاية شجاركما الصغير، لكن من النظر إلى يدك وإلى وجه جاك، أحزَرَ أنك لم تصارع بقوة. لم يردُّ إيميت.

استرسل الشَّريف في نبذة تأمل: طيِّب، لعلك ظننتَ أنك تستحق ذلك. أو لعلك، بعد أن عشت ما عشت، قررت أن زمن العراك قد فات وانقضى بالنسبة لك.

نظر الشَّريف إلى إيميت وكأنه ينتظر منه أن يقول شيئًا، لكن إيميت ظل يلوذ بالصمت، يحدق في الأرجوحة من وراء الزجاج الأمامي.

سأله الشَّريف بعد برهة: -هل تمنع إذا دخنتُ في سيارتك؟ ماري لم تعد تسمح لي بالتدخين في البيت.

-لا أمانع.

أخرج الشَّريف بيترسون علبة سجائر من جيبه ونقر عليها مخرجًا سيجارتين من الفتحة، وقدم واحدة لإيميت. عندما قَبَلَهَا إيميت، أشعل الشَّريف السيجارتين بقداحته. ثم، احترامًا لسيارة إيميت، أنزل الزجاج.

قَالَ بعد أن سحب نَفْسًا وأخرجه: -الحرب انتهت منذ أكثر من عشرة أعوام الآن. لكن بعض الأولاد الذين رجعوا منها يتصرفون وكأنهم لا يزالون يقاتلون فيها. خُذ داني هوغلاند مثلاً. لا يمر شهر إلا وتصلني

مكالمة بسببه. في يوم تجده في استراحة على جانب الطريق يتعارك في شجار افتعله بنفسه، وبعد بضعة أسابيع تجده في ممر داخل سوبرماركت يصفع زوجته الشابة الجميلة بظهر يده.

هز الشريف رأسه وكأنه محتار ما الذي رأته الشابة الجميلة في داني هوغلاند في المقام الأول.

-والثلاثاء الماضي؟ أفزعوني من فراشي في الثانية صباحًا لأن داني كان يقف أمام بيت آل إيفرسون وفي يده مسدس، يصرخ متحدثًا عن مَظْلَمَة قديمة ما. لم يعرف آل إيفرسون عن ماذا كان يتحدث. لأن مَظْلَمَة داني، كما تبين بعد ذلك، لم تكن مع آل إيفرسون. كانت مع آل باركر. لم يكن يقف أمام البيت الصحيح ببساطة. بل إني انتبهت الآن إلى أنه لم يكن حتى في الشارع الصحيح.

ابتسم إيميت رغمًا عن نفسه.

قال الشريف، وهو يشير بسيجارته إلى جمهور خفي: الآن، على الجانب الآخر من الطيف، تجد هؤلاء الأولاد الذين رجعوا من الحرب وهم يُقسِمون على أنهم لن يرفعوا أيدهم مرة أخرى أبدًا على إنسان مثلهم. وإني أحمل الكثير من الاحترام لموقفهم ذلك. من حقهم بكل تأكيد أن يتخذوا هذا الموقف. لكن المشكلة أن الأمر عندما يتعلق بشرب الويسكي، فهؤلاء الأولاد يجعلون داني هوغلاند يبدو مثل شماس في الكنيسة. لا يفزعني أحدٌ من الفراش أبدًا بسببهم. لأنهم لا يخرجون ويقفون أمام بيت آل إيفرسون أو بيت آل باركر أو بيت أي شخص آخر في الثانية صباحًا. في تلك الساعة، يكونون جالسين في غرفة معيشتهم يشقون طريقهم إلى قاع زجاجة من مشروب ما في الظلام. كل ما أقوله يا إيميت، إني لست واثقًا إن كانت تلك الطريقة ناجعة. لا تستطيع أن تبقى في الحرب، لكنك لا تستطيع أيضًا أن تطرح رجولتك جانبًا. بالتأكيد، تستطيع أن تترك نفسك لتتلقى ضربًا مبرحًا مرة أو مرتين. هذا يعود لك. لكن في نهاية المطاف، سيكون عليك أن تقف لتدافع عن نفسك مثلما كنت تفعل.

نظر الشريف الآن إلى إيميت.

-هل تفهمني يا إيميت؟

-نعم، أفهمك يا سيدي.

-فهمتُ من إد رانسوم أنك قد تغادر البلدة.

-سنگادر غداً.

-طيب إذا. بعد أن ننظفك، سأذهب إلى آل سنايدر وأحرص على

أن يتعدوا عن طريقك في هذه الأثناء. وبينما أفعل ذلك، هل هناك أي

شخص آخر يُكدرُك بأي متاعب؟

فتح إيميت النافذة المجاورة ورمى سيجارته، ثم قال: غالباً، ما ظلّ

يكدرني هو نصائح الناس.

دوقة

كلما وصلتُ إلى بلدة جديدة، أحبُّ أن أحدد مواضع قدمي. أريد أن أفهم خريطة الشوارع وخريطة الناس. في بعض المدن قد يستغرق منك ذلك أيامًا. في بوسطن، يمكن أن يستغرق أسابيع. في نيويورك، سنوات. العظيم في مورغن، نبراسكا، أنه لا يستغرق إلا دقائق قليلة.

شُيِّدَت المدينة على شبكة هندسية تقع المحكمة في منتصفها. وفقًا للميكانيكي الذي أوصلني في الونش الخاص به، قضى شيوخ البلدة، زمان في ثمانينيات القرن التاسع عشر، أسبوعًا كاملًا يتشاورون حول أفضل طريقة لتسمية الشوارع قبل أن يقرروا - وهم يضعون عيونهم على المستقبل - تسمية الشوارع من الشرق إلى الغرب بأسماء الرؤساء ومن الشمال إلى الجنوب بأسماء الأشجار. وكما تبين لاحقًا، كان يمكن أن يستقروا على أسماء الفصول وألوان أوراق اللعب، إذ ظلت البلدة، بعد خمسة وسبعين عامًا، تحتوي على أربعة شوارع متقاطعة لا أكثر.

-هاودي⁽¹⁾!

هكذا بادرتُ السيدتين اللتين اقتربتا مني في اتجاهين متقابلين، ولم تردُّ أيُّ منهما الـ«هاودي».

الآن، لا تفهمني خطأً. فبلدة مثل هذه تتمتع بنوع معيّن من السحر. وهناك نوع معيّن من الناس سيحب أن يعيش هنا أكثر من أي مكان آخر - حتى في القرن العشرين. مثل الشخص الذي يريد أن يضيف معنى على العالم. فحين تعيش في المدينة الكبيرة، وتظل تتهافت هنا وهناك وسط

(1) هاودي: تحية عامة بمعنى «كيف حالك»، اختصارًا لـ how do you do. (م)

كل ذلك الصخب وتلك الدَّوْشَة، قد تبدو لك حوادث الحياة عشوائية. لكن في بلدة بهذا الحجم، عندما يسقط بيانو من النافذة وينزل على رأس شخص ما، فثمة احتمال كبير أن تعرف لماذا استحقَّ ذلك المصير.

على أي حال، كانت مورغن من البلدات التي حين يحدث فيها شيء خارج عن المعتاد، يتجمع الناس ليتفرجوا. وهكذا، عندما اقتربتُ من المحكمة، رأيتُ نصف دائرة من المواطنين المستعدين لإثبات هذه النقطة. من على بعد خمسين قدمًا عرفتُ أنهم عيّنة تمثيلية من هيئة الناحيين المحلية. كان هناك فلاحون يعتمرون قبعات، وأرامل متأنفات يحملن سُنَط اليد، وفِتْيَة في «أفرولات». بل وكانت ثمة أم تقترب بخطى سريعة وهي تدفع عربة أطفال وإلى جوارها طفل تعلم المشي لتوّه.

رميتُ بقية قرطاس الآيس كريم في القمامة، وتقدمتُ لألقي نظرة أقرب. ومن ذا الذي وجدته في مركز الخشبة؟ ليس إلا إيميت واطسن -يعبّره فتى قرويٌّ سمين، لديه مظلمة سمينة.

بدأت الإثارة على وجه الجمهور الذي تجمع للفرجة على المشهد، على الأقل بطريقة أهل الغرب الأوسط. لم يصرخوا أو يكشروا عن أسنانهم، لكنهم كانوا سعداء بالمرور صدفةً في اللحظة المناسبة. إنه شيء سوف يتحدثون عنه في دكان الحلاقة وعند الكوافير لأسابيع تالية.

من جانبه، بدأ إيميت مذهلاً. وقف وعيناه مفتوحتان على وسعهما وذراعه إلى جانبه، لا حريصاً على البقاء في مكانه، ولا متعجلاً الذهاب. خصمه هو مَنْ بدأ مضطرباً. كان يراوح مكانه في قلق، وقميصه ينزُّ العرق، مع أنه اصطحب اثنين من مَحَاسِيبِه لمساعدته. قال له إيميت: جاك، لا أريد مشاكل. أريد فقط أن آخذ سيارتي وأرجع إلى البيت.

- لا أستطيع أن أتركك تفعل ذلك.

وإن بدا أن ذلك بالضبط ما أراد من إيميت أن يفعله.

عندها، تدخل أحد المساعدين -الطويل في قبة الكابوي- ليسخن

الأجواء.

- يبدو أن جاك هنا لديه معك عمل لم ينتهِ بعد يا واطسن.
لم يسبق لي رؤية هذا الكاوبوي من قبل، لكن من القبعة المائلة على رأسه والابتسامة المرتسمة على وجهه، عرفتُ بالضبط مَنْ كان. كان الفتى الذي ابتداءً ألفَ شجار من دون أن يوجّه أيّ لكمة لأيّ أحد.
إذاً، ماذا فعل إيميت؟ هل ترك الكاوبوي يستفزّه؟ هل قال له أن يخرس ويُعنى بشؤونه؟ لم يتواضع حتى ويرد عليه. فقط استدار إلى جاك وقال: إذا كان لديك عمل لم ينتهِ، فتعالْ نُنْهيه.

باو!

إذا كان لديك عمل لم ينتهِ، فتعالْ نُنْهيه.
قد تقضي حياتك كلها لكي تقول جملة كهذه فلا تجد حضور الذهن الذي يجعلك تقولها عندما تأتي اللحظة. هذا النوع من الرزانة ليس نتاج تربية أو ممارسة. إمّا أن تولد به أم لا. وغالبًا، لا.
لكن هنا يأتي الجزء الأفضل.

تبين أن جاك هذا هو شقيق الفتى من آل سنايدر الذي أخرجه إيميت من الخدمة عام 1952. فهمتُ ذلك لأنه بدأ يتحدث ببعض الهراء عن اللكمة الجبّانة التي تلقاها جيمي، وكأن إيميت واطسن يمكن أن ينحدر إلى مستوى ضرب رجل على غفلة منه.

عندما فشل في إثارة غيظه، أشاح ذلك الفتى الذي يتحدث عن «القتال النزيه» بوجهه وكأنه سَرَحَ في أفكاره، ثم، من دون تحذير، ضربَ إيميت في وجهه. بعد أن ترنح إيميت إلى اليمين، نفّضَ الضربة عن نفسه، وعاود الوقوف منتصبًا، ثم تقدم مرة أخرى باتجاه جاك.

ها نحن أولاء، هكذا فكر الحشد. لأن الواضح أن إيميت كان يستطيع أن يعجن هذا الفتى من الضرب، حتى لو كان أخفّ منه بعشرة أرتال وأقصر منه ببوصتين. لكن لخيبة أمل الحشد، لم يتقدم إيميت أكثر. توقف في نفس النقطة التي كان يقف فيها قبل لحظة.

وهو ما استفز جاك. احمرَّ وجهه حتى صار في لون ملابسه الداخلية،

وبدأ يصرخ داعيًا إيميت لأن يرفع قبضتيه. فرفع إيميت قبضتيه، إلى حدّ ماء، وشنّ جاك هجمة أخرى. هذه المرة، ضَرَبَ إيميت في بُوْزه مباشرة. ترنّح إيميت من جديد، لكنه لم ينقلب. استعاد توازنه، وهو ينزف من شفته، ورجع ليأكل واحدةً أخرى.

أثناء ذلك، كان الكاوبوي -وهو لا يزال مستندًا باستخفاف إلى باب سيارة إيميت- يصرخ، فرّجه يا جاك، وكأن جاك على وشك أن يلقن إيميت درسًا. لكن السحر انقلب على الساحر. وكان إيميت هو من لَقنَ الدرسَ.

ألان لاد في «شين».

فرانك سيناترا في «من هنا وإلى الأبدية».

لي مارفن في «الجامح»⁽¹⁾.

أتعرف المشترك بين هؤلاء الثلاثة؟ إنهم جميعًا أكلوا «عَلَقَة». لا أقصد لكمةً في الأنف أو ضربةً في البطن تَقَطِّعُ النَّفْسَ. أقصد عَلَقَة. حيث تُصَفَّرُ آذانهم، وتَدْمَعُ عيونهم، ويتذوّقون الدم على أسنانهم. أكلَ لاد عَلَقَتَهُ في حانة غرافتون من صبيان رايكرو. وأكلَ سيناترا عَلَقَتَهُ في السجن العسكري على يد الشاويش فاتسو. ومارفن، أكلَ عَلَقَتَهُ على يديّ مارلون براندو في شارع ببلدة أمريكية صغيرة يشبه هذا الشارع، بينما تَحَلَّقَ حشدٌ آخر من المواطنين الشرفاء لكي يتفرجوا. مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ

الاستعداد لأن تأكل عَلَقَة: من هنا تُعرف أنك تتعامل مع رجل مميّز. رجل مثل هذا لا يقف متراخيًا على هامش العُرْكَه لـكي يدلق البنزين على نيران شخص آخر؛ ولا يرجع إلى البيت سالمًا معافي. إنه يتقدم إلى الأمام وإلى المركز، غير هيّاب، مستعدًا للوقوف على قدميه إلى أن يعجز عن الوقوف أصلًا.

(1) «شين» Shane، و«من هنا إلى الأبدية» From Here to Eternity، و«الجامح» The

Wild One: ثلاثة أفلام أمريكية من إنتاج عام 1953. (م)

كان إيميت هو من يُلقن الدرس. وليس لجاك فقط. كان يلقنه للبلدة اللعينة بأكملها.

لا أقول إنهم فهموا ما يحدث أمامهم. كنت تعرف من التعبيرات المرتسمة على وجوههم أن بيت القصيد في هذا الدرس يطير من فوق رؤوسهم.

جاك، الذي بدأ في الارتعاش، كان يفكر على الأرجح أنه لا يستطيع الاستمرار في ما يفعله أكثر من ذلك. لذلك، هذه المرة، حاول أن يجعلها ضربة قاضية. وبعد أن واءم بين غايته وغضبه، أطلق واحدة أسقطت إيميت أرضاً.

أطلق الحشد بأكمله شهقة خفيفة، وتنهد جاك في ارتياح، وأطلق الكابوي ضحكة تشف قصيرة، وكأنه هو من وجّه اللكمة. ثم هم إيميت بالوقوف على قدميه من جديد.

يا ربي، كم تمنيت لو كانت معي كاميرا. كان بإمكانني أن ألتقط صورة وأرسلها إلى مجلة «لايف». كانوا سيضعونها على الغلاف.

كان المشهد جميلاً، أقول لك. لكنه يفوق تحمّل جاك. تقدم إلى الأمام، وبدأ أنه قد ينفجر في البكاء، وبدأ يصرخ في إيميت ألا ينهض. أنه يجب ألا ينهض، وأنه يعني ما يقوله.

لا أعرف إن كان إيميت سمعه أصلاً، بالنظر إلى أن حواسه كانت مشوّشة على الأرجح. ولو أن سماعه جاك من عدمه لا يغير من الأمر شيئاً. كان سيفعل نفس الشيء في كلتا الحالتين. تقدم وهو يتمايل بعض الشيء، وعاد ليقف في مرمى خصمه، فاردًا قامته، ورافعاً قبضتيه. ثم لا بدّ أن الدم قد اندفع من رأسه لأنه ترنح وسقط على الأرض.

رؤية إيميت على ركبتيه كانت منظرًا لا يسرّ العين، لكنها لم تقلقني. كان يحتاج فقط إلى لحظة لكي يللم شتاته ويستطيع أن ينهض ويرجع إلى نقطة الضرب. وقدرته على ذلك كانت واضحة وضوح الشمس. لكن قبل أن تسنح له الفرصة، تدخّل الشّريف وأفسد العرض.

-يكفي هذا. يكفي هذا.

كذلك قال، وهو يشق طريقه وسط المتفرجين المحدثين.
وبناءً على أمر الشريف، بدأ مساعدٌ في تفريق الحشد، ملوحًا بذراعيه وقائلًا للجميع إن الوقت قد حان لكي يمضوا في حال سبيلهم. لكن لم تكن ثمة حاجة بالمساعد لأن يفرّق الكابوي. لأن الكابوي فرّق نفسه. لحظة ظهور السلطات في المشهد، أنزل حافة طاقيته على وجهه وشرع يسير على مهل حول المحكمة وكأنه يتجه إلى متجر المعدات لشراء عبوة طلاء.

وسرّت على مهل وراءه.

عندما وصل الكابوي إلى الجانب الآخر من المبنى، عبّر أحد الرؤساء ومضى في اتجاه إحدى الأشجار. كان شديد الحرص على وضع مسافة بين نفسه وبين صنيعة يده، حتى إنه تجاوز سيدة عجوزًا تمسك عكازًا وتحاول وضع كيس بقالة في المقعد الخلفي لسيارتها «فورد تي» قديمة الطراز، من دون أن يقدم لها يد العون. قلت: -اسمحي لي يا سيدتي.
-شكرًا لك أيها الشاب.

حين كانت الجدة تتخذ مقعدها وراء عجلة القيادة، كان الكابوي قد وصل إلى منتصف الشارع. عندما انعطفت يمينًا في زقاق وراء السينما، كان عليّ أن أركض فعليًا لكي ألحق به، مع أن الركض شيء أحاول تجنبه عموماً من حيث المبدأ.

الآن، قبل أن أخبرك بما حدث بعد ذلك، أظنني يجب أن أقدم لك بعض السياق بإعادتك إلى الزمن الذي كنت فيه في التاسعة من عمري وأعيش في لويس.

عندما تركني أبي في «دارسان نيكولاس للبنين»، كانت الراهبة المسؤولة امرأة لها آراء محدّدة وِسْنٌ غير محدّد اسمها الأخت أغنيس. وبداهةً، فإن المرأة العنيدة حين تجد نفسها في وظيفة إنجيليّة مع جمهور من الأسرى تنزع على الأرجح إلى استغلال كل فرصة لكي تعبّر عن وجهة نظرها. لكن

ليس الأخت أغنيس، مثل مؤدّ مخضرم، كانت تعرف كيف تختار اللحظة. كانت تستطيع أن تدخل دُخْلَةً هادئة، وتبقى في مؤخرة الخشبة، وتنتظر إلى أن ينتهي الجميع من حوارهم، ثم تستولي على العرض بأكمله في خمس دقائق تحت دائرة الضوء.

كان توقيتها المفضّل لإفشاء حكمتها قبل دخول الفراش مباشرة. تأتي إلى المهجع، وتراقب بصمت بينما تهول الأخوات الأخريات هنا وهناك في أرديتهن الرهبانيّة، يأمرن طفلاً بطيٍّ ملابسه، وآخر بغسيل وجهه، والجميع بتلاوة صلواتهم. ثم، عندما ندخل جميعنا تحت الأغطية، تسحب الأخت أغنيس كرسيًا وتلقّي درسها. مثلما قد تتخيّل، كانت الأخت أغنيس حريصة على الالتزام بالقواعد النحوية الخاصة بالكتاب المقدس. لكنها كانت تتحدث بنبرة متعاطفة حتى إن كلماتها تُخرس الثرثرة المتقطّعة وتبقى في آذاننا بعد انطفاء الأنوار.

كان أحد دروسها المفضلة درسًا تسميه «سلاسل التجاوزات». يا أولاد، هكذا كانت تبدأ كلامها بطريقتها الأمومية، في حياتكم سوف ترتكبون تجاوزاتٍ في حق آخرين وسوف يرتكب آخرون تجاوزاتٍ في حقكم. وتلك التجاوزات المتقابلة سوف تصبح سلاسل تقيّدكم. التجاوزات التي ارتكبتموها بحق آخرين سوف تظل عالقة بأذهانكم في صورة ذنب، والتجاوزات التي ارتكبتها آخرون في حقكم في صورة سُخْط. تعاليم يسوع المسيح موجودة لتحريركم من كليهما. لتحريركم من الذنب من خلال التكفير ومن السُّخْط من خلال الصفح. فقط بعد أن تتحرروا من هذين القيدَين كليهما، يصير بإمكانكم أن تعيشوا حياتكم بحبٍّ في قلوبكم واطمئنان في خطاكم.

في ذلك الوقت، لم أفهم عن أي شيء تتكلم. لم أفهم كيف يمكن لتجاوز صغير أن يعرقل خطاك، إذ وفقًا لتجربتي كان الميالون لارتكاب التجاوزات هم دائمًا أول من يلوذون بالفرار. لم أفهم لماذا عندما يرتكب شخص ما تجاوزًا بحقك، يكون عليك أن تحمل العبء نيابةً عنه. وبالتأكيد

لم أفهم معنى أن تحوز اطمئنانًا في خطاك.. لكن الأخت أغنيس كانت تحب أيضًا أن تقول: الحكمة التي يرى الرب ألا يسبغها علينا عند الميلاد، يمنحنا إياها عبر نعمة التجربة. وبكل تأكيد، مع تقدمي في العمر، بدأت التجربة تضفي على عِظَةِ الأخت أغنيس بعض المعنى.

مثلما لدى وصولي إلى سالينا للمرة الأولى.

كان شهر أغسطس، والهواء دافئ، والأيام طويلة، وينبغي علينا أن ننبش أوّل محصول من البطاطس من باطن الأرض. كان «أكرلي العهد القديم» يجعلنا نعمل من الفجر إلى الغسق، حتى إننا بعد أن ننتهي من عشاءنا، لا نعود نرغب إلا في نوم هانئ. مع ذلك، فور إطفاء الأنوار، كثيرًا ما وجدت نفسي أنقلب على جمر الهموم متسائلًا ما الذي جاء بي إلى سالينا في المقام الأول، مسترجعًا كل تفصيلة مريرة إلى أن يصبح الديك. وفي ليالٍ أخرى، تخيلتُ أنني أستدعى إلى مكتب المأمور، حيث ينقل لي بوقار خبر حادث سيارة أو حريق في فندق قضى فيه والدي نحبه. وبينما تُسكن تلك الرؤى خواطري في لحظتها، كانت تظل تلحُّ عليّ لبقية الليل مصحوبة بإحساس بالندم المخزي. هكذا كانا هناك: الشُّخط والذَّنْب. قوَّتان متعارضتان تجعلانني أتخبط في الحيرة، إلى أن أستسلم لاحتمالية ألا أنام هانئًا بعدها أبدًا.

لكن عندما استلم المأمور وليم المسؤولية من أكرلي ودشن عصر الإصلاح، أنشأ برنامجًا للفصول المسائية بهدف إعدادنا لحياة المواطنين الصالحين. ومن أجل بلوغ تلك الغاية، أحضر مدرّسًا للتربية المدنية ليحدثنا عن أفرع الحكومة الثلاثة. وأحضر عضوًا في المجلس البلدي ليحدثنا عن مصيبة الشيوعية وأهمية كل صوت في الانتخابات. وسرعان ما صرنا جميعًا نتمنى لو استطعنا العودة إلى حقول البطاطس بأسرع ما يمكن. ثم منذ بضعة أشهر، رتَّب لإحضار محاسب قانوني معتمد لشرح أساسيات الإدارة المالية الشخصية. وبعد أن وصف العلاقة بين الأصول والخصوم، اتجه هذا المحاسب القانوني المعتمد إلى السبورة وفي

ضربات سريعة قليلة أوضح لنا كيفية تسوية الحسابات. في تلك اللحظة، وأنا جالس في الصف الخلفي في ذلك الفصل الصغير الحار، فهمتُ أخيراً ما كانت تتكلم عنه الأخت أغنس.

لقد قالت إننا، على مدار حياتنا، قد نرتكب تجاوزات في حق آخرين وقد يرتكب آخرون تجاوزات في حقنا، ما يُسفر عن السلاسل سالفة الذكر. لكن ثمة طريقة أخرى للتعبير عن الفكرة نفسها: ألا وهي أننا عبّرَ ما نرتكبه من أخطاء نضع أنفسنا في موضع المَدِين لشخص آخر، تمامًا مثلما يضع الشخص الآخر نفسه، من خلال ما يرتكبه من أخطاء، في موضع المَدِين لنا. ولما كانت تلك الديون -المستحقة علينا والمستحقة لنا- هي ما يجعلنا نتقلّب على جمر الهموم في الساعات الأولى من الصباح، فالطريقة الوحيدة لكي ننعّم بنوم هانئ بالليل هي أن نسوّي حساباتنا.

لم يكن إيميت أفضل مني بكثير في الإنصات داخل الفصل، لكنه لم يكن بحاجة لأن يولي انتباهه لهذا الدرس على وجه الخصوص. كان قد تعلّمه قبل زمن طويل من مجيئه إلى سالاينا. تعلّمه بالتجربة المباشرة عندما نشأ في ظلال إخفاقات أبيه. لهذا السبب وقّع على أوراق المُصادرة تلك من دون تفكير. لهذا السبب لم يكن ليقبل قرضًا من مستر رانسوم أو طقم الصيني من قسم الخزّانة السفلي. ولهذا السبب كان سعيدًا تمامًا بأن يأكل العُلقة.

تمامًا مثلما قال الكاوبوي، كان لدى جاك وإيميت عملٌ لم ينتهِ. وبصرف النظر عن مَنْ الذي استَفَزَ مَنْ، أو مَنْ الذي استَفَزَ مِنْ مَنْ، فعندما ضُرب إيميت الفتى سنايدر في معرض المقاطعة، وقّع في دَيْن يشبه تمامًا الدَّيْن الذي وقّع فيه والده عندما رَهَنَ مزرعة الأسرة. ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، ظل يحوِّم فوق رأس إيميت -يمنعه هو من النوم ليلاً- إلى أن سدد الدَّيْن على يدي دائئه وأمام عيون تابعيّه.

لكن إذا كان إيميت مدينًا بدَّيْن يسدده لجاك سنايدر، فلم يكن مدينًا بأي شيء لَعَيْن للكاوبوي. لا بِشَيْكِل، ولا بدراخمة، ولا بِسِنْت أحمر.

-هيه، يا راعي البقر. انتظر!
هكذا ناديت عليه وأنا أهرول وراءه.
استدار الكابوي وتفحصني من فوق إلى تحت.
-هل أعرفك؟
-ليس لك بي معرفة يا سيدي.
-إذا، ماذا تريد؟

رفعت يدي لكي أستعيد أنفاسي قبل أن أرد: هناك عند المحكمة، قلت إن صديقك جاك لديه عملٌ لم ينتهِ مع صديقي إيميت. فإن كان لكلامي قيمة، أظنني أستطيع أن أدفع بالسهولة نفسها بأن إيميت هو مَنْ كان لديه عملٌ لم ينتهِ مع جاك. لكن في كلتا الحالتين، سواءً أكان جاك لديه عملٌ مع إيميت أو إيميت لديه عملٌ مع جاك، أظننا نتفق على أنه لم يكن عملاً يخصك.

-يا فتى، لا أعرف عن ماذا تتحدث.
حاولتُ أن أكون أكثر وضوحًا.

-ما أقوله إنه حتى لو كان جاك لديه سبب وجيه لكي يعطي إيميت عُلقة، وإيميت لديه سبب وجيه لكي يأكل العُلقة، لم يكن لديك مبرر لكل ما قمت به من تحريض وشماتة. بمرور الوقت، أعتقد أنك ستندم على الدور الذي لعبته في حوادث اليوم، وستجد نفسك تتمنى لو تستطيع التكفير عن خطأك -لأجل سلامك النفسي. لكن لمّا كان إيميت سيغادر البلدة غدًا، سيكون الأوان قد فات ساعتها.

قال الكابوي: هل تعرف ماذا أعتقد؟ أعتقد بأنك تستطيع أن تذهب وتكح نفسك.

ثم استدار وهمّ بالابتعاد. هكذا ببساطة. من دون كلمة وداع. أعترف بأنني شعرت بقدر من الإهانة. أقصد، ألم أكن أحاول مساعدة غريب على فهم عبءٍ من صنيعته هو نفسه، وأعطاني هو عَرْضَ قَفَاه؟ كان ردُّ فعله من ذلك النوع الذي يمكن أن يثنيك عن العمل الخيري بعد

ذلك طيلة حياتك. غير أن الأخت أغنس كان لديها درس آخر: عندما تُنفذ عمل الرب، ينبغي أن نتحلى بالصبر. فمثلما يقابل الإنسان المستقيم، بكل تأكيد، انتكاسات في الطريق إلى العدالة، فلسوف يجد الرب، بكل تأكيد أيضاً، يمدّه بالوسيلة كي تكون له الغلبة.

ثم، انظر وعائين، ما ذا الذي ظهر أمام ناظريّ غير صندوق نفايات دار السينما مملوءاً لحافته بمخلفات الليلة المنصرمة؟ وما ذا الذي أطلّ برأسه من بين زجاجات الكوكاكولا وعُلب الفشار غير لوح خشبيّ مقاس اثنين في أربعة طوله قدما⁽¹⁾.

-هيه! انتظر لحظة.

هكذا ناديته مجدداً وأنا أتقافز باتجاهه في الزقاق.

استدار الكابوي على عقبيه ومن النظرة على وجهه عرفت أنه يهتّم بقول شيء لا يقدّر بثمن، شيء يمكنه أن يرسم الابتسامات على وجوه كل الصبية في البار. لكن أظنني لن أعرف أبداً، لأنني ضربته قبل أن يتمكن من الكلام.

كانت لكمة قوية طوّت في جنب رأسه الأيسر. قبعته، التي طارت في الهواء، تشقّلت قبل أن تحط على الجانب الآخر من الزقاق. سقط في مكانه في التوّ واللحظة مثل دمية ماريونيت انقطعت خيوطها.

الآن، لم يسبق لي أن ضربتُ أي إنسان في حياتي. ولكي أكون صريحاً، كان انطباعي الأول أن تساءلتُ عن مدى الألم الذي شعر به. نقلتُ اللوح الاثنتين في أربعة إلى يدي اليسرى، ونظرت إلى كفي اليمنى، حيث تركت عليه حافة الخشبة خطّين أحمرين. رميت الخشبة على الأرض، وفركت كفيّ معاً لأخفف الوخزة. ثم انحنيت على الكابوي لأحظى بنظرة أفضل. كانت ساقاه مطوّيتين تحته وأذنه اليسرى مشقوقة من المنتصف، لكنه لا

(1) مقاس اثنين في أربعة: أبعاد قياسية للوح خشبيّ سمكه بوصتان (خمسة سنتيمترات)، وعرضه أربع بوصات (عشرة سنتيمترات). (م)

يزال محتفظاً بوعيه. أو بما يكفي من الوعي. سألتُه: هل تسمعني، يا زاعي البقر؟

ثم رفعت صوتي لأؤكد من كونه يسمعني.
-اعتبر نفسك سددت الدَّينَ بالكامل.

بينما يبادلني النظرات، أخذت رموشه ترتعش للحظة. لكنَّ فمه افتَرَّ بعدها عن ابتسامة صغيرة، وعرفتُ من الطريقة التي انطبقت بها جفونه أنه سينام مثل طفل رضيع.

وأنا أخرج من الزقاق، لم أشعر فقط بفيض متدفق من الرضا الأخلاقي، بل بأن وقع أقدامي صار أكثر خفَّةً بعض الشيء وخطوتي صارت أكثر طَرَبًا بعض الشيء.

طيَّب، أنت تعرف، هكذا فكرت في نفسي وأنا أبتسم. إنه اطمئنانٌ في خطاي.

ولا بُدَّ أنه ظهر عليَّ. لأنني عندما خرجت من الزقاق وقلت «هاودي» للشيخين اللذين مرَّا بي، ردَّ كلاهما بـ«هاودي». عندما كنت أحاول الوصول إلى البلدة، مرَّت بي عشر سيارات قبل أن يلتقطني الميكانيكي، أما الآن، عندما أردت العودة إلى بيت آل واطسن، توقفت لي أول سيارة لتعرض عليَّ توصيلة.

وولي

الطريف في أي قصة، هكذا فُكّر وولي - بينما إيميت في البلدة، ودوقة يتمشّى، وييلي يقرأ بصوت عالٍ من كتابه الأحمر الكبير - الطريف في أي قصة هو أنها يمكن أن تُحكى بكل الأطوال المختلفة.

أول مرة سمع فيها وولي قصة «كونت مونت كريستو»، لا بُدّ أنه كان أصغر من بييلي. كانت عائلته تقضي الصيف في المخيم في الأديرونداك، وفي كل ليلة تقرأ له أخته فصلًا قبل أن يخلد إلى النوم. غير أن الكتاب الذي قرأت منه أخته كان الكتاب الأصلي الذي ألفه ألكسندر دوما، والذي يبلغ من الطول ألف صفحة.

مشكلة سماع قصة مثل «كونت مونت كريستو» من النسخة البالغة ألف صفحة أنك كلما شعرت بأن ثمة جزءًا مثيرًا قادمًا في الطريق، تضطر إلى الانتظار والانتظار والانتظار إلى أن يصل أخيرًا. في الحقيقة، تضطر أحيانًا إلى انتظار وصوله طويلًا إلى أن تنسى أنه قادم أصلاً وتترك نفسك تنجرف إلى النوم. لكن في كتاب بييلي الأحمر، اختار البروفيسور أبرناثي أن يحكي القصة بأكملها في ثماني صفحات. لذلك، في نسخته، عندما تشعر بأن ثمة جزءًا مثيرًا قادمًا في الطريق، تجده يصل في غمضة عين.

مثل الجزء الذي يقرأه بييلي الآن - الجزء الذي يُقتاد فيه إدموند دانتييس، بعد إدانته بجريمة لم يرتكبها، لكي يقضي بقية حياته في قلعة «شاتو ديف» الرهيبة. حتى وهو يُقتاد مكبلًا بالأغلال عبر بوابات السجن الجبارة، تعرف أنه لا بُدّ سوف يهرب. لكن في حكي مستر دوما، تجد نفسك مضطراً، قبل أن يستعيد حريته، إلى الإنصات إلى جُمل كثيرة جدًا متفرقة عبر العديد من الفصول ما يجعلك تشعر بأنك أنت من يسكن «شاتو ديف»! أما مع

البروفيسور أبرناثي، فالأمر مختلف. في نسخته، تجد وصول البطل إلى السجن، والسنوات الثماني التي قضاها في حبسه الانفرادي، وصدافته مع أبي فاريما، وهروبه الإعجازي، كلها تحدث في الصفحة نفسها. أشار وولي إلى السحابة التي تمر منفردة من فوق رأسيهما.

-هكذا أتصوّر قلعة «شاتو ديف».

علم بيلى بحرص مكان وقفته بإصبعه، ورفع رأسه إلى حيث أشار وولي، واتفق معه على الفور.

-بجدرانها الحجرية المنتصبة.

-وبرج المراقبة في المنتصف.

ابتسم وولي وبيلى معاً لدى رؤية السحابة، غير أن التعبير على وجه بيلى صار أكثر جدية.

-هل يمكن أن أسألك سؤالاً يا وولي؟

-طبعاً، طبعاً.

-هل كانت الحياة في سالينا صعبة؟

وإذ جعل وولي يتدبّر في السؤال، حوّلت قلعة «شاتو ديف» العالية فوق رأسيهما نفسها إلى عابرة محيطات -بمدخنة عملاقة حلّت محل برج المراقبة.

قال وولي: -لا، لم تكن صعبة جدّاً يا بيلى. بالتأكيد ليست بصعوبة «شاتو ديف» على إدموند دانتيس. المسألة أن... المسألة أن كل يوم في سالينا كان «يوم كل يوم».

-ما هو «يوم كل يوم» يا وولي.

استغرق وولي برهة أخرى في التفكير.

-عندما كنا في سالينا، كنا كل يوم نستيقظ في الوقت نفسه ونرتدي الملابس نفسها. كل يوم نتناول الفطور على الطاولة نفسها مع الناس أنفسهم. وكل يوم نقوم بالأعمال نفسها في الحقول نفسها قبل أن نذهب إلى النوم في الساعة نفسها في الأسرة نفسها.

مع أن بيلي كان مجرد صبي، أو ربما لأنه كان مجرد صبي، بدا أنه فهم أنه بينما لا شيء يعيب الاستيقاظ أو ارتداء الملابس أو تناول الفطور في حد ذاتها، فثمة شيء مزعج في القيام بهذه الأشياء بالطريقة نفسها بالضبط، يومًا بعد يوم، خاصة في النسخة المؤلفة من ألف صفحة التي تمثل حياة المرء. بعد أن أوماً بيلي برأسه، وجد المكان الذي توقّف فيه، وعاود القراءة من جديد.

ما لم يجد وولي الشجاعة لأن يقوله لبيلي أن حياة سالينا تلك كانت تشبه الحياة في العديد من الأماكن الأخرى، من دون أدنى شك. كانت هكذا بكل تأكيد في المدرسة الداخلية. وليس فقط في سان جورج، آخر مدرسة التحق بها وولي. بل إنهم كانوا، في المدارس الداخلية الثلاث التي حضرها وولي، يستيقظون كل يوم في الوقت نفسه، يرتدون الملابس نفسها، ويتناولون الفطور على الطاولة نفسها مع الناس أنفسهم قبل أن يتوجهوا لحضور الفصول نفسها في قاعات الدرس نفسها.

لطالما تساءل وولي عن ذلك الأمر. لماذا اختار مدراء المدارس الداخلية أن يجعلوا من كل يوم «يوم كل يوم؟» بعد بعض التأمل، بدأ يشبه في كونهم فعلوا ذلك لأنه يجعل إدارة الأمور أسهل. بتحويل كل يوم إلى «يوم كل يوم»، سيعرف الطباخ دائمًا متى يطبخ الفطور، ومدرّس التاريخ متى يدرّس التاريخ، ومراقب الرّدهات متى يراقب الرّدهات. غير أن وولي عاش، بعد ذلك، لحظة تجلّ.

كان ذلك في الفصل الدراسي الأول من سنته الثالثة للمرة الثانية (في مدرسة سان مارك). في طريقه من فصل الفيزياء إلى صالة الألعاب الرياضية، تصادف وأن لاحظ عميد الطلبة يخرج من تاكسي أمام المدرسة. فور أن رأى وولي التاكسي، خطر له كم ستكون مفاجأة سارة لو إنه قام بزيارة إلى أخته، التي كانت قد اشترت مؤخرًا بيتًا أبيض كبيرًا في «هاستينغز أون هُدسون». وهكذا، قفز وولي إلى مقعد السيارة الخلفي، وأعطى السائق العنوان.

سأله السائق مندهشًا، تقصد في نيويورك؟
وأكد وولي، أقصد في نيويورك. وانطلقا.

عندما وصل وولي بعد بضع ساعات، وجد أخته في المطبخ على
وشك تقشير حبة بطاطس.

هالو يا أختي!

لو كان وولي قد قام بزيارة مفاجئة لأي عضو آخر من عائلته، لحيّاه
على الأرجح بوابل من المَن، واللماذ، والماذا (خصوصًا وقد احتاج إلى
150 دولارًا لسائق التاكسي، الذي انتظره بالخارج). لكن سارة، بعد أن
دفعت الأجرة للسائق، وضعت الغلاية على الموقد، وبعض «الكوكيز» في
صحن، وقضى كلاهما وقتًا عظيمًا من أوقات زمان -جالسين إلى طاولتها
يناقشان كل المواضيع المختلفة التي تصادف وأن خطرت برأسيهما.

لكن بعد ساعة أو نحو ذلك، دخل زوج أخت وولي، «دينيس»، من
باب المطبخ. كانت أخت وولي أكبر من وولي بسبع سنوات، وكان
«دينيس» أكبر من سارة بسبع سنوات، لذلك، من الناحية الحسابية، كان
«دينيس» في الثانية والثلاثين في ذلك الوقت. غير أن «دينيس» كان أيضًا
أكبر من نفسه بسبع سنوات، ما جعله يشارف على الأربعين في الروح.
لهذا السبب، لا شك، كان يشغل بالفعل منصب نائب رئيس شركة «ج.
ب. مورغان وأولاده وشركاه».

عندما رأى «دينيس» وولي جالسًا أمام طاولة المطبخ، شعر بقدر من
الانزعاج، إذ كان يفترض بوولي أن يكون في مكان آخر. لكنه انزعج أكثر
عندما رأى حبة البطاطس نصف المقشرة على المنضدة.

سأل سارة: متى نتناول العشاء؟

أخشى أنني لم أبدأ في إعدادة بعد.

لكنها السابعة والنصف.

أوه، بالله عليك يا دينيس.

للحظة، نظر «دينيس» إلى سارة غير مصدّق، ثم استدار إلى وولي وسأله إن كان يسمح له بأن يتحدث مع سارة على انفراد.

وفقاً لخبرات وولي، عندما يطلب شخص التحدث على انفراد مع شخص آخر، لا تعرف ماذا تفعل بنفسك. فمن ناحية، لا يخبرونك كم سيطول الحديث، لذلك يصعب أن تعرف إلى أي حد ينبغي أن تتخبط في نشاط جديد. أينبغي عليك أن تستغل الفرصة لزيارة الحمام؟ أم تبدأ لعبة «بازل» تُصوّر سباقاً للمراكب الشراعية بها خمسون شراعاً؟ وكم ينبغي عليك أن تبتعد؟ بالتأكيد سيكون عليك أن تبتعد لمسافة تجعلك لا تستطيع سماع كلامهم. فلهذا السبب طلبوا منك المغادرة في المقام الأول. لكن يبدو دائماً وكأنهم قد يريدونك أن تعود بعد بعض الوقت، لذلك يصير عليك أن تظل قريباً بما يكفي لسماعهم عندما ينادونك.

فعل وولي ما بوسعه لكي يمسك العصا من المنعطف⁽¹⁾، فذهب إلى غرفة المعيشة، حيث رأى بيانو لم يلعب عليه أحد وبعض الكتب وساعة أجداد غير مشحونة - تلك الساعة، فكر معي، التي سُميت على نحو شديد الحصافة إذ إنها كانت تخص جدّهما! لكن، كما تبين لاحقاً، بالنظر إلى مدى الانزعاج الذي شعر به «دينيس»، لم تكن غرفة المعيشة بعيدة بما يكفي، لأن وولي سمع كل كلمة.

أنت من رغب في الانتقال بعيداً عن المدينة، كان دينيس يقول، لكن أنا من ينبغي عليه أن ينهض مع بزوغ الفجر لكي ألحق بقطار الساعة 6:42 لكي أستطيع أن أكون في البنك في الموعد لحضور اجتماع لجنة الاستثمار الساعة 8:00. وعلى مدار معظم الساعات العشر التالية، بينما أنت هنا يعلم الله وحده ماذا تفعلين، أعمل أنا مثل الكلب. ثم، إذا أسرعْتُ إلى محطة «غراند سترال» وحالفني الحظ ولحقْتُ بقطار الساعة 6:14، يُحتمل أن

(1) يمسك العصا من المنعطف: يميل وولي أحياناً إلى تغيير كلمة في الأمثال أو الأقوال المأثورة. وفي هذا المثل يستخدم كلمة «منعطف» بدلاً من «منتصف». (م)

أصل إلى البيت في السابعة والنصف. بعد يوم كهذا، هل أطلب الكثير حين أطلب أن يكون العشاء في انتظاري على الطاولة؟ تلك كانت لحظة التجلي. إذ خطرَ لولي فجأة، وهو واقفٌ أمام ساعة جدّه ينصت إلى زوج أخته، أن مدارسٍ سان جورج وسان مارك وسان بول لعلها رَتَّبَت أن يكون كل يوم «يومَ كل يوم» ليس لأن ذلك يجعل الأمور أسهل في إدارتها، لكن لأنها أفضل طريقة ممكنة لتأهيل الشباب الراقي لكي يحرصوا على اللحاق بقطار 6:42 لكي يصلوا دائماً في الموعد لحضور اجتماعاتهم الساعة 8:00.

في اللحظة التي انتهى فيها وولي من ذكرياته عن ذلك التجلي، وصل بيلي في قصته إلى النقطة التي كان فيها إدموند دانتيس، بعد هروبه الناجح من السجن، في الكهف السري على جزيرة مونت كريستو أمام كومة بديعة من الألماس، واللؤلؤ، والياقوت، والذهب.

-هل تعرف ماذا سيكون بديعاً يا بيلي؟ هل تعرف ماذا سيكون بديعاً قطعائياً؟⁽¹⁾

علم بيلي السطر الذي وقف عنده، ورفع رأسه عن كتابه.
-ماذا يا وولي؟ ما الذي سيكون بديعاً قطعائياً؟
-يومٌ من النوع الفريد من نوعه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) قطعائياً: يميل وولي أيضاً إلى دمج كلمتين معاً: في هذه الحالة كلمتي «قطعاً» و«نهائياً». (م)

سالي

في قدّاس الأحد الأسبوع الماضي، قرأ أبونا بايك قصة من الأناجيل تقول إن يسوع وتلاميذه، بعد وصولهم إلى إحدى القرى، يتلقون دعوة من امرأة لزيارة بيتها. بعد أن تُكرّم تلك المرأة، مارثا، وفادتهم، تنسحب إلى مطبخها لتعدّ لهم شيئاً يأكلونه. وبينما هي تطبخ وتخدم الجميع فتملاً الأقداح لمن يريد وتغرف أطباقاً ثانية لمن يريد، تظل أختها، ماري، جالسة عند قدمي يسوع.

في نهاية المطاف، يفيض الكيل بمارثا وتُفصح عن مشاعرها. تقول، يا ربّ، ألا ترى أن أختي الكسولة تركتني أخدم وحدي، فلماذا لا تأمرها بأن تعينني؟ أو شيء من هذا القبيل. ويردّ يسوع: مارثا، أنت تهتمين وتضطربين لأمر كثيرة، ولكنّ الحاجة إلى واحدٍ. ومارثا هي من اختارت النصيب الصالح.

طيّب، اعذريني. لكن إذا احتجت يوماً إلى دليل على أن الإنجيل كتبه رجلٌ، فهناك الدليل.

أنا مسيحية صالحة. أوّمن بالله الآب العظيم، خالق السماء والأرض. أوّمن أن يسوع المسيح، ابنه الوحيد، وُلدَ من مريم العذراء وعانى من بطش بيلاتس البُنطي، وصُلب، ومات، ودُفن، وفي اليوم الثالث قام من جديد. أوّمن أنه صعد إلى السماء، أنه سوف يرجع ثانية ليُدين الأحياء والأموات. أوّمن أن نوح بنى سفينة وساق إليها من كل كائن زوجين قبل أن تمطر السماء أربعين يوماً وأربعين ليلة. بل إنني مستعدة لتصديق أن شجيرة عُليق تتوقد بالنار تكلمت إلى موسى. لكنني لستُ مستعدة لتصديق أن يسوع المسيح مخلصنا - ذلك الذي في غمضة عين يشفي الأبرص أو يعيد للأعمى بصره - يمكن أن يدير ظهره لامرأة تُعنى بشؤون منزلها.

لذلك، فأنا لا ألومه.

من ألومهم هم: متى، ومُرقص، ولوقا، ويوحنا، وكل رجل آخر عمل كاهناً أو واعظاً من وقتها.

من وجهة نظر الرجل، الشيء الوحيد الضروري هو أن تجلسي عند قدميه وتُنصتي لما يقوله، لا يهتمُّ كم من الوقت سيلزمه ليقوله، ولا كم مرّة قاله من قبل. أنتِ، في ظنّه، لديك وفرة من الوقت للجلوس والإنصات لأن الطعام يُعدُّ نفسه بنفسه. المُنُّ ينزل من السماء، وبإشارة من إصبع يمكن أن يتحول الماء إلى نبيذ. أيُّ امرأة سبق وأن أتعبت نفسها في خبز فطيرة تفاح يمكن أن تخبركِ بأن الرجل يرى العالم هكذا.

لكي تخبزي فطيرة تفاح، عليكِ أولاً أن تصنعي العجين. عليكِ أن تقطّعي الزبدة في الدقيق، وتضيفي إليها بيضة مخفوقة وبضع ملاعق من الماء المثلج، وتركيها تتماسك طوال الليل. في اليوم التالي، عليكِ أن تقشري التفاح وتقوّريه، تقطّعيه إلى أصابع، وتقلّبيه مع سكر القرفة. عليكِ أن تفرد العجينة وتضمّميها وتشكلي الفطيرة، ثم تضعيها في الفرن على درجة 425 لخمس عشرة دقيقة وعلى درجة 350 لخمس وأربعين أخرى. أخيراً، عندما ينتهي العشاء، تقطّعين بحرص شريحةً وتضعينها في صحن على الطاولة حيث يغرس فيها رجلٌ شوكته، في منتصف كلامه، ويلقُم نصفها في فمه ويبتلع من دون مضغ، لكي يستطيع أن يرجع إلى قول ما كان يقوله من دون أن يترك فرصة لأحد كي يقاطعه.

والفراولة المحفوظة؟ لا تجعليني أبدأ في الكلام عن الفراولة المحفوظة.

إعداد الفاكهة المحفوظة، مثلما لَفَتَ بيلي الصغير، وكان محقّقاً في ذلك، مغامرةٌ مهدّدة للوقت. مجرّد التقاط الفاكهة يستغرق منك نصف يوم. ثم يصير عليكِ أن تغسلي الفاكهة وتنزعي سُويقاتها. عليكِ أن تعقّمي الأغذية والبرطمانات. فور أن تجمعي المكوّنات، عليكِ أن تسوّيها على نار متوسطة وتراقبها بعيني صقر، لا تتركي نفسك تشردين أكثر من بضع

أقدام بعيداً عن الموقد لتأكدي من أنها لن تهترئ. عندما تصير جاهزة، صَبِّي الفاكهة المحفوظة، واحكّمي إغلاق البرطمانات، وانقليها إلى حجرة الخزين على صينية مَرَّة بعد مَرَّة. عندها فقط يمكنكِ البدء في عملية التنظيف، وهي شُغلةٌ في حد ذاتها.

ونعم، مثلما لَفَتَ دوقه، تغليب الفاكهة المحفوظة قد يكون موضحة قديمة بعض الشيء، تُذكّرنا بعصر الأقبية وقوافل عربات الجرّ. أعتقد بأن كلمة فاكهة محفوظة صارت مهجورة مقارنةً بكلمة مربّى الأكثر تحديداً وصراحة.

وهي، مثلما لَفَتَ إيميت، فوق كل شيء، غير ضرورية. فبفضل مستر سماكر⁽¹⁾، صار عند البقال خمسة عشر نوعاً مختلفاً من المربى تُباع بسعر تسعة عشر سنتاً للبرطمان، موسماً بعد موسم. في الحقيقة، صارت المربى متاحة في كل مكان، وتستطيعين فعلياً أن تشتريها من متجر المعدات. إذًا، نعم، صناعة الفراولة المحفوظة مهدّرة للوقت، وموضحة قديمة، وغير ضرورية.

فلماذا إذًا، قد تتساءلين، أزعج نفسي بصناعتها؟
أفعل ذلك لأنها مهدّرة للوقت.

مَنْ قال إن الأشياء المفيدة لا يجب أن تأخذ وقتاً؟ لقد كان الحُجّاج يستغرقون شهوراً للإبحار إلى صخرة بلايموث. واستغرق جورج واشنطن سنوات لكي يكسب الحرب الثورية. واستغرق الروّاد عقوداً لفتح الغرب. الوقت هو ما يستخدمه الرب للتفريق بين العاقل المتبطل والكادح المجتهد. لأن الوقت جبلٌ عالٍ ينظر العاقل المتبطل إلى انحداره الحاد فيرقد وسط زهور الزنبق في الحقل على أمل أن يمُرَّ شخصٌ ما ومعه دورقٌ من الليمونادة. ما يتطلبه السعي النافع هو التخطيط، والجهد، والانتباه، والاستعداد للتنظيف.

(1) سماكر: شركة أمريكية للصناعات الغذائية تأسست عام 1897. (م)

وأفعل ذلك لأنها موضة قديمة.

فالشيء لا يكون أفضل لمجرد كونه جديدًا؛ بل غالبًا ما يكون أسوأ. أن تقولي من فضلك وشكرًا لك صار موضة قديمة جدًّا. أن تتزوجي وتربي أطفالًا صار موضة قديمة. التقاليد، تلك الوسائل التي نعرف بها مَنْ نحنُ، لم تعد إلَّا موضة قديمة.

أنا أصنع الفاكهة المحفوظة بالطريقة التي تعلَّمْتُها من أمي، رحمها الله. وهي صنعت الفاكهة المحفوظة بالطريقة التي تعلَّمْتُها من أمها، والجدَّة صنعت الفاكهة المحفوظة بالطريقة التي تعلَّمْتُها من أمها. وهكذا دواليك، رجوعًا في العصور طيلة الطريق إلى حواء. أو، على الأقل، إلى مارثا. وأفعل ذلك لأنها غير ضرورية.

إذ ما اللُّطف إن لم يكن تأدية فعل مفيد لشخص آخر وغير مطلوب في الوقت نفسه؟ ليس ثمة لُطف في أن تدفعي فاتورة ما. ليس ثمة لُطف في أن تنهضي مع الفجر لكي تُطعمي الخنازير فضلات الطعام، أو تحلبي الأبقار، أو تجمععي البيض من عشَّة الدجاج. بالمثل، ليس هناك لُطف في أن تعديَّ عشاءً، أو تنظفي المطبخ بعد أن يصعد والدك إلى الطابق العلوي بلا كلمة شكر.

ليس هناك لُطف في إيباد الأبواب وإطفاء الأنوار، أو في جمع الملابس من فوق أرضية الحمام لوضعها في سلَّة الغسيل. ليس هناك لُطف في أن تعتني ببيت لأن أختك الوحيدة تمتعت بالحس السليم الذي جعلها تتزوج وتنتقل إلى بينساكولا.

لا، قلتُ لنفسي وأنا أدخل الفراش وأطفئ النور، ليس هناك لُطف في أيٍّ من ذلك.

إذ يبدأ اللطف عندما تنتهي الحاجة.

دوقة

بعد أن صعدتُ إلى الطابق العلوي بعد العشاء، هَممت بأن أنقلب على سرير إيميت عندما لاحظت نعومة الأغطية. تجمدت في مكاني للحظة، ثم ملت على المرتبة لأحظى بنظرة أقرب. كان الأمر واضحًا. لقد أعادت ترتيبه.

ظننت أنني قد قمت بعمل جيد جدًا، لو كان لي أن أحكم. لكن سالي قامت بعمل أفضل. لم تكن هناك تجعيدة واحدة على السطح. وفي الموضع الذي تُطوى فيه الملاءة عند الطرف العلوي للبطانية، كان هناك مربع أبيض ارتفاعه أربع بوصات يمتد من إحدى حافتي السرير إلى حافته الأخرى وكأنها قاسته بمسطرة. بينما عند الطرف السفلي، كانت قد حشرت الأغطية بإحكام شديد حتى صار بإمكانك رؤية زوايا المرتبة من تحت البطانية، مثلما تستطيع رؤية جين راسل⁽¹⁾ من تحت كنزتها.

كان قطعةً من الجمال، حتى إنني لم أرغب في تعكير صفوه إلى أن أكون مستعدًا بالفعل للنوم. وهكذا، جلست على الأرض، مستندًا إلى الحائط، وجعلت أفكر في الأخوين واطسن، بينما أنتظر أن يخلد الآخرون إلى النوم.

في وقت سابق من ذلك اليوم، بعد أن عدت إلى البيت، كان وولي وبيلي لا يزالان راقدين على العشب في الخارج. سألني وولي: -كيف كانت نزهتك؟ -مُنعشة. وأنتما، ماذا فعلتما؟ -بيلي كان يقرأ لي بعض القصص من كتاب البروفيسور أبرناثي.

(1) جين راسل: ممثلة ومغنية وعارضة أزياء أمريكية. (م)

-يؤسفني أن ذلك فاتني. أي قصص؟
كان بيلي يسرد القائمة عندما وصل إيميت بسيارته وتوقف في مدخل البيت.

بالحديث عن القصص، هكذا فكرتُ في نفسي...
بعد لحظة، سيخرج إيميت من سيارته في هيئة مزرية. بالتأكيد سيكون مصابًا بتورم في شفته وبعض الكدمات؛ بل وربما بداية اسوداد حول عينه. كان السؤال: كيف سيفسر لهما؟ هل تعثر في شق في الرصيف؟ هل سقط من فوق سلم؟

من خبرتي، أفضل شرح هو ذلك الذي يستفيد من غير المتوقع. مثل: كنت أجتاز مرجة العشب المجاورة للمحكمة وأنا أراقب طائرًا جميلًا من فصيلة السُّبْد رابضًا على فرع شجرة عندما اصطدمت كرة قدم بوجهي. بشرح مثل ذلك، يركز مستمعوك على طائر السُّبْد فوق في الشجرة، ولا يلتفتون أبدًا إلى الكرة القادمة في الطريق.

لكن عندما وصل إيميت إلينا وسأله بيلي بعينه المفتوحتين على وسعهما ما الذي حدث، قال إيميت إنه صادف جاك سنايدر وهو في البلدة، وإن جاك ضربته. هكذا، ببساطة.

استدرتُ إلى بيلي، متوقعًا أن أرى تعبير صدمة أو ربما غضب، لكنه كان يومئ برأسه وينظر متأملًا. سأله بعد لحظة: -هل رددت الضربة؟ قال إيميت: -لا. بدلًا من ذلك، عددتُ إلى عشرة.

ثم ابتسم بيلي لإيميت، ورد إيميت ابتسامة بيلي. حقًا، كم في الأرض والسماء، يا هوراشيو، من أمور لا تحلم بها فلسفتك⁽¹⁾.

(1) «كم في الأرض والسماء، يا هوراشيو...»: من مسرحية «هاملت» (الفصل الأول، المشهد الخامس). (م)

بُعِيدَ منتصف الليل، دسستُ رأسي في غرفة وولي. من صوت أنفاسه، عرفت أنه ضائع في أحلامه. شبكت إصبعي متمنيًا ألا يكون قد تناول جرعة كبيرة من دوائه قبل ذهابه إلى الفراش لأنني سأضطر إلى أن أصحّيه قريبًا. كان الأخوان واطسن غارقين في النوم أيضًا، إيميت مُسَطَّحٌ على ظهره وبيلي متكورٌ على جنبه. في ضوء القمر رأيت كتاب الصبي عند قدم السرير. إذا مد ساقيه، قد يسقط على الأرض، لذلك نقلته إلى الكومود، ووضعتَه في المكان الذي كان يجب أن تشغله صورة أمه.

وجدت بنطلون إيميت معلقًا على ظهر كرسي - وكل جيوبه خاوية. درت حول السرير على أطراف أصابعي، وقرصت بجوار طاولة الفراش. لم يكن الدُّرج يبعد أكثر من قدم واحدة عن وجه إيميت، لذا كان عليّ أن أفتحه برفق، بوصةً بعد بوصة. لكن المفاتيح لم تكن هناك أيضًا. كنت قد بحثت عنها في السيارة وفي المطبخ قبل صعودي إلى الطابق العلوي. فأين وضعها بحق الجحيم؟

وبينما أنعم الفكر، مسح شعاعٌ مصابيح سيارةِ الغرفة مع انعطاف السيارة وتوقفها في مدخل بيت آل واطسن. بهدوء، مضيت في الطريقة وتوقفتُ أعلى السلم. من الخارج سمعت باب السيارة ينفتح. بعد لحظات، تعالى وقع أقدام تدخل الشرفة ثم تخرج منها، ثم انغلق الباب ومضت السيارة في طريقها.

عندما تأكدت من أن أحدًا لم يستيقظ، نزلت إلى المطبخ، وفتحت الباب الشبكي، وخرجت إلى الشرفة. في البعيد رأيت أضواء السيارة عائدة إلى الطريق. استغرق الأمر مني لحظة أخرى لكي ألاحظ صندوق الأحذية عند قدمي وقد خُربِشت على سطحه أحرف سوداء كبيرة.

ربما لا أكون من طلبة العلم، لكنني أعرف اسمي حين أراه، حتى لو كان على ضوء القمر. نزلت على ركبتيّ، ورفعت الغطاء برفق، وأنا أتساءل ما الذي يمكن أن يكون في الداخل بحق الرب.

- طيّب! يا للهول!

ثمانية

—•—

إيميت

عندما انطلقوا في الخامسة والنصف صباحًا، كان إيميت في روح معنوية طيبة. في الليلة السابقة، بمساعدة خريطة بيلى، وضع مخططًا للرحلة. كان الطريق من مورغن إلى سان فرانسيسكو يزيد عن ألف وخمسمئة ميل بقليل. إذا استطاعا قطع أربعين ميلًا في الساعة في المتوسط لمدة عشر ساعات في اليوم - ما يترك لهما وقتًا كافيًا للأكل والنوم - سيصير بمقدورهما إنجاز الرحلة في أربعة أيام.

بالطبع كان هناك الكثير ممّا يمكن رؤيته بين مورغن وسان فرانسيسكو. فمثلما شهدت بطاقات أمهما البريدية، كانت هناك فنادق للمسافرين ومعالِم أثرية، حَلَبات رُوديو ومنتزهات. فإذا كنت مستعدًا للانحراف عن طريقك، بإمكانك زيارة جبل راشمور، وينبوع «أولد فيثفول»، وأحدود «غراند كانيون». بيد أن إيميت لم يرغب في إهدار وقت أو مال على الرحلة إلى الغرب. كلما بكَرا بالوصول إلى كاليفورنيا، صار بمقدوره أن يبدأ العمل أسرع؛ وكلما ازدادت النقود في حوزتهما لدى وصولهما، صار بمقدورهما شراء بيت أفضل. إذا شرعا في تبديد نقودهما القليلة وهما في الطريق، سيصير عليهما القبول بشراء بيت أسوأ قليلًا في منطقة أسوأ قليلًا، الأمر الذي سيعود عليهما، عندما يحين وقت البيع، بربح أسوأ قليلًا. بالنسبة لإيميت، كلما سارعا في عبور البلاد كان أفضل.

كان هاجس إيميت الرئيسي عندما خلدوا إلى النوم هو خشيته من ألا يستطيع إيقاظ الآخرين، أن يهدر الساعات الأولى من ضوء النهار على إنزالهم من الأسرّة وإخراجهم من الباب. لكن ما كان عليه أن يخشى ذلك. فعندما استيقظ في الخامسة، كان دوقة يتحمّم بالفعل واستطاع سماع

وولي وهو يُدِنِدِن في غرفته. كان بيلي قد تَمدى إلى حد النوم في ملابسه كيلا يضطر إلى ارتدائها عندما يستيقظ. وعندما اتخذ إيميت موقعه وراء عجلة القيادة وأخرج المفاتيح من فوق واقية الشمس، كان دوقه في المقعد الأمامي وبيلي في المقعد الخلفي إلى جوار وولي وخريطته في حِجره. وعندما انعطفوا إلى الطريق، بعد الفجر بقليل، لم يُلقِ أيُّ منهم نظرة إلى الوراء.

ربما كانت لديهم جميعًا أسباب للتحرك مبكرًا، هكذا فكر إيميت. ربما كانوا جميعًا مستعدين للتواجد في مكان آخر.

ولأن دوقه هو مَنْ جلس في المقعد الأمامي، سأله بيلي إن كان يريد أن يمسك الخريطة. عندما رفض دوقه بحجّة أن القراءة في السيارات تَقْلِب معدته، شعر إيميت بقدر من الراحة، إذ كان يعرف أن دوقه لا يتنبه كثيرًا للتفاصيل، بينما بيلي وُلِدَ فعليًا ليكون ملاحًا. إذ لم يجهّز نفسه ببوصلته وأقلامه الرصاص فحسب، بل كانت معه مسطرة كي يستطيع حساب المسافة بالأميال من كل بوصة على مقياس الرسم. لكن عندما أعطى إيميت إشارة ضوئية استعدادًا للانعطاف في الطريق رقم 34، وجد نفسه يتمنى لو أن دوقه هو من تولى المهمة، في نهاية المطاف.

قال بيلي: -لست مضطرًا لتشغيل الإشارة بعدُ. علينا الاستمرار في طريقنا مباشرة لمسافة قليلة أخرى.

أوضح له إيميت: -أنا أنعطف في الطريق رقم 34 لأنه أسرع طريق إلى أوماها.

-لكن طريق لينكون السريع يقود إلى أوماها.

أوقف إيميت السيارة على جانب الطريق واستدار برأسه إلى شقيقه.

-صحيح يا بيلي. لكنه يُبعدنا قليلًا.

سأل دوقه بابتسامة: -يُبعدنا قليلًا عن ماذا؟

قال إيميت: -يُبعدنا قليلًا عن المكان الذي نتجه إليه.

نظر دوقه في المرأة إلى المقعد الخلفي.

-قُل لي كم نبتعد عن طريق لينكون السريع يا بيلي؟
بيلي، الذي كان قد وضع مسطرتَه بالفعل على الخريطة، قال إن الطريق
على بعد سبعة عشر ميلاً ونصف.

وولي، الذي كان قد ظلَّ ينظر صامتاً إلى المناظر الطبيعية، استدار إلى
بيلي وقد استيقظ فضوله.

-ما هو طريق لينكون السريع يا بيلي؟ هل هو طريق خصوصي؟

-لقد كان أول طريق سريع يقطع أمريكا من شرقها إلى غربها.

ردّد وولي في مهابة: -أول طريق سريع يقطع أمريكا من شرقها إلى
غربها.

وقال دوقة مشجعاً: -هيا يا إيميت. ماذا تعني سبعة عشر ميلاً ونصف؟
تعني سبعة عشر ميلاً ونصف، هكذا أراد إيميت أن يرد، تضاف إلى
المئة وثلاثين ميلاً التي سنقطعها خارج مسارنا لكي نأخذكما إلى أوماها.
لكن في الوقت نفسه، عرف إيميت أن دوقة على حق. المسافة المضافة
لا تستحق الذكر، خاصة بالنظر إلى الإحباط الذي سيصيب بيلي إذا أصر
على أن يأخذ الطريق رقم 34. قال: -طَيِّب. سنسلك طريق لينكون السريع.
عندما رجع إلى الطريق، شعر بأنه يسمع شقيقه وهو يومئ برأسه تأكيداً
على أن تلك فكرة جيدة.

على مدار السبعة عشر ميلاً ونصف التالية، لم ينطق أيُّهم بكلمة. لكن
عندما انعطف إيميت يميناً عند «سترال سيتي»، رفع بيلي رأسه عن خريطته
وقد ظهرت عليه الإثارة. قال: -ذاك هو. ذاك هو طريق لينكون السريع.

شرع بيلي ينحني إلى الأمام ليرى المناظر أمامهم، ثم ينظر من فوق
كتفه ليرى المناظر من خلفهم. ربما كانت «سترال سيتي» مدينة بالاسم
فقط، غير أن بيلي، بعد أن حلمَ لشهور بالرحلة إلى كاليفورنيا، جعل ينظر
بإعجاب لحفنة المطاعم والموتيلات، سعيداً بأنها لا تختلف عمّا ظهر في
بطاقات أمهما البريدية. أما مسألة سيرهم في الاتجاه العكسي فيبدو أنها لم
تصنع فارقاً كبيراً بالنسبة له.

وكان وولي يشاطر بيلي شعوره بالإثارة، ينظر إلى خدمات الطريق باستمتاع متجدد.

-إذًا، هذا الطريق يمتد من الساحل إلى الساحل؟
صَوَّب له بيلي: -يمتد تقريبًا من الساحل إلى الساحل. إنه يمضي من مدينة نيويورك إلى سان فرانسيسكو.

قال دوقه: -يبدو لي ذلك امتدادًا من الساحل إلى الساحل.
-باستثناء أن طريق لينكون السريع لا يبدأ عند المياه ولا ينتهي عندها.
إنه يبدأ في ميدان تايمز سكوير وينتهي في «قصر جوقة الشرف».

سأل وولي: -هل سُمِّي على اسم أبراهام لينكون.
قال بيلي: -هذا صحيح. وهناك تماثيل له على طول الطريق.
-على طول الطريق؟

-قَوَّات فتیان الكشافة جمَّعت المال لتكليف الفنانين بصناعتها.
قال وولي بابتسامة: -هناك تماثيل نصفية لأبراهام لينكون فوق مكتب جدي الكبير. كان من أشد المعجبين بالرئيس لينكون.

سأل دوقه: -كم عُمر هذا الطريق؟
-لقد اخترعه مستر كارل ج. فيشر عام 1912.
-اخترعه؟

قال بيلي: -نعم. اخترعه. رأى أن الشعب الأمريكي ينبغي أن يكون قادرًا على الانتقال من أحد طرفي البلاد إلى الطرف الآخر. وشيّد أول قطاعات من الطريق عام 1913، بدعم من التبرعات.

سأل دوقه غير مصدّق: -الناس أعطوه نقودًا لإنشائه؟
أوما بيلي برأسه بقوة.

-ومنهم توماس إديسون وتيدي روزفلت.
صاح دوقه: -تيدي روزفلت؟

وقال وولي: -فطيع!

وبينما يمضون في طريقهم شرقًا -وبيلي يسمي على النحو الواجب

كل بلدة يمرون بها- شعر إيميت بالرضا كونهم، على الأقل، يقضون وقتًا طيبًا أخيرًا.

نعم، كانت الرحلة إلى أوماها ستخرجهما من طريقهما، لكن لأنهما بدأ الرحلة مبكرًا، قدّر إيميت أنهما يستطيعان توصيل دوقة ووولي إلى محطة الحافلات، ثم الاستدارة بالسيارة، والوصول بسهولة إلى أوغالالا قبل حلول الظلام. بل وربما يصلان إلى شايان. لقد كانوا في شهر يونيو، ومن ثم أمامهم ثماني عشرة ساعة من الضوء. بل وإذا كانا على استعداد للقيادة لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميًا، وقطع خمسين ميلًا في الساعة في المتوسط، هكذا فكر إيميت، سيصير بإمكانهما إنجاز الرحلة بأكملها في أقل من ثلاثة أيام.

لكن عندها أشار ببلي إلى بُرج مياه في البعيد مكتوب عليه بالطلاء اسم «لويس».

-انظر يا دوقة. إنها لويس. أليست المدينة التي عشتَ فيها؟

سأل إيميت، وهو ينظر إلى دوقة: -أنتَ عشتَ في نبراسكا؟

وأكد دوقة: -لسنوات قليلة عندما كنت طفلًا.

بعدها، اعتدل في مقعده ينظر حوله وقد ازداد انتباهه، ثم قال لإيميت: -

هيه. هل يمكن أن نخطف زيارة قصيرة؟ سأحب أن ألقى نظرة على المكان.

تعرف، لأجل أيام زمان.

-دوقة...

-أوه، هيا. أرجوك؟ أعرف أنك قلت إنك تريد الوصول إلى أوماها قبل

الثامنة، لكن يبدو أننا نقضي وقتًا رائعًا.

قال ببلي، بعد أن نظر إلى ساعة مخلفات الجيش: -نحن متقدمون عن

جدولنا باثنتي عشرة دقيقة.

-هاك. هل ترى؟

-نستطيع أن نخطف زيارة قصيرة. لكن لنلقي نظرة واحدة فقط.

-هذا كل ما أطلبه.

عندما وصلوا إلى حدود المدينة، تولى دوقه مهمة الملاحه، وجعل يومئ برأسه إلى كل معلّم يمرون به.

-نعم. نعم. نعم. ها نحن! خذ ذلك اليسار بجوار مركز الإطفاء.
انعطف إيميت يسارًا، وقاده الطريق إلى حي سكني يضم بيوتًا راقية
على قِطْع من الأرض مُهندَمة جيدًا. بعد بضعة أميال، مروا بكنيسة ذات
أبراج عالية مستدقّة وحديقة. قال دوقه: -خذ اليمين التالي.
قادهم اليمين إلى طريق واسع متعرّج تتناثر فيه الأشجار.
-توقف هناك.

توقف إيميت.
كانوا أسفل تل مكسوٌّ بالعشب، على قمته مبنى حجري كبير. وبدا
المبنى، الذي يرتفع ثلاثة طوابق ويتصبّب بُرْيُج عالٍ على كل جانب منه،
مثل قصر من قصور الضياع.

سأل بيلي: -هل كان ذلك بيتك؟
قال دوقه بضحكة: -لا. إنها مدرسة من نوع ما.
سأل وولي: -مدرسة داخلية؟
-شيء من هذا القبيل.
لبرهة، أخذوا جميعًا يمتعون أنظارهم بفخامة المبنى. ثم استدار دوقه
إلى إيميت.

-هل يمكن أن أدخل؟
-لماذا؟
-لألقي التحية.

-دوقه، إنها السادسة والنصف صباحًا.
-إذا لم أجد أحدًا صاحيًا، سأترك رسالة. سيفرحون بذلك جدًّا.
سأل بيلي: -رسالة لمدرّسيك؟
-بالضبط. رسالة لمدرّسيّ. ما قولك يا إيميت. لن يستغرق الأمر أكثر
من بضع دقائق. خمس دقائق على الأكثر.

ألقى إيميت نظرة على ساعة لوحة القيادة: - طيّب. خمس دقائق.
أمسك دوقة بالحقيبة المدرسية الصغيرة عند قدميه، وترجّل من السيارة
وجعل يصعد التل مهرولاً باتجاه المبنى. في المقعد الخلفي، كان بيلي
يشرح لـ لوولي لماذا أراد هو وإيميت الوصول إلى سان فرانسيسكو قبل
الرابع من يوليو. أطفأ إيميت المحرك، وجعل يحرق من وراء الزجاج
الأمامي، متمنياً لو كانت معه سيجارة.

وصلت دقائق دوقة الخمس ثم مَضَتْ.

ثم خمسٌ أخرى.

هز إيميت رأسه وهو يوتّخ نفسه على السماح لدوقة بدخول المبنى.
لا أحد يَسْقُط على مكان لخمس دقائق، أيّا كانت الساعة، لا سيّما إذا كان
عاشقاً للكلام مثل دوقة.

خرج إيميت من السيارة ودار حولها إلى المقعد الأمامي. استند إلى
الباب، ورفع رأسه إلى المدرسة، فلاحظ أنها مبنية من نفس الحجر
الجيري الذي شيّدوا به المحكمة في مورغن. الأرجح أن الحجر جاء من
أحد المحاجر في مقاطعة كاس. في أواخر العقد الأول من القرن التاسع
عشر، كان يُستخدم في بناء مجالس المدن، والمكتبات، والمحاكم في كل
البلدات على نطاق مئتي ميل. بعض المباني كانت تتشابه للغاية في مظهرها
حتى إنك تنتقل من بلدة إلى التالية فتشعر أنك لم تبارح مكانك أصلاً.

حتى والحال كذلك، بدا أن ذلك المبنى ينقصه شيء ما. استغرق إيميت
بضع دقائق قبل أن يدرك مبعث الغرابة، ألا وهو غياب مدخل رئيسي
واضح. سواء صُمِّم أصلاً كقصر من قصور الضياع أو كمدرسة، فإن مبنى
بهذه الفخامة كان لا بُد أن يتمتع بمجاز يليق به. كان لا بُد أن يكون أمامه
مدخل سيارات محفوف بالأشجار يؤدي إلى باب أمامي مهيب.

خطر لإيميت أنهم لا بُد توقفوا وراء المبنى. لكن لماذا لم يوجّههم
دوقة للالتفاف إلى المقدّمة؟

ولماذا أخذ معه الحقيبة المدرسية؟

قال لبيلي ووولي: -سأرجع على الفور.

وأجاباه، من دون أن يرفعا رأسيهما عن خريطة بيلي: -أوكيه.

تسلق إيميت التل، ومضى باتجاه باب في منتصف المبنى. أثناء سيره، كان إحساسه بالانزعاج يتزايد، وهو يكاد يتشوّق إلى التعنيف الذي سيوجّهه إلى دوقة فور العثور عليه. سيقول له، بعبارات واضحة، إنهم ليس لديهم وقت لهذا النوع من الهراء. إن ظهوره من غير دعوة كان عبثاً في حد ذاته، وإن الرحلة إلى أوماها تُبعده هو وشقيقه عن طريقهما بساعتين ونصف. خمس ساعات عندما تحسبها ذهاباً وإياباً. غير أن تلك الأفكار فارقت رأس إيميت فور رؤيته للوح الزجاجي المكسور -اللوحة الأقرب إلى مقبض الباب. فتح إيميت الباب ببطء، وخطا إلى الداخل، وشظايا الزجاج تتهشم تحت نعليه حذائه.

وجد إيميت نفسه في مطبخ كبير فيه حوضاً غسيل معدنيان كبيران، وموقد بعشر عيون، وبرّاد كبير بحجم غرفة. مثل معظم المطابخ في المؤسسات، كان قد رُتب وُجهّز للعمل في الليلة السابقة -مناضده نُظفت، وخزاناته أُغلقت، وقدوره عُُلّقت على خطاطيفها.

الخلل الوحيد، بخلاف الزجاج المكسور، كان في منطقة الخزين على الجانب الآخر من المطبخ، حيث كانت بضعة أدراج قد فُتحت والملاعق مبعثرة على الأرض.

اجتاز إيميت باباً متأرجحاً، ودخل قاعة طعام مكسوة بالألواح الخشبية فيها ست طاولات طويلة من ذلك النوع الذي تجده في الأديرة. وما أضاف إلى الهالة الدينية كان نافذة كبيرة من الزجاج الملون تلقي بأنماط صفراء، وحمراء، وزرقاء على الجدار المقابل. كانت النافذة تصوّر اللحظة التي عرّض فيها يسوع، بعد قيامته من الموت، جروح يديه -فقط، في هذا التصوير، كان ثمة أطفال برفقة الحواريين المنبهرين.

خرج إيميت من باب قاعة الطعام الرئيسي، ودخل بهواً ضخماً. عن يساره كان الباب الأمامي المهيب الذي توقّع وجوده، بينما عن يمينه سلّم

مصنوع من خشب البلوط المصقول نفسه. تحت ظروف أخرى، كان إيميت سيحب أن يتباطأ قليلاً لكي يعاين النقوش والمنحوتات على ألواح الباب ودرازينات السلم، لكنه ما إن بدأ يتأمل في حُسن صنعها، حتى سمع أصوات هرج ومرج قادمة من مكان ما بالأعلى.

صعد إيميت السلم، قافزاً درجتين بعد درجتين، من فوق بَعَثَرَة ملاعق أخرى. في الطابق الثاني، وقف أمام طُرْقَتَيْن تقودان إلى اتجاهين متعاكسين، غير أن جلبة الأطفال التي لا تُخطئها الأذن جاءت من الطريقة اليمنى. وعليه، مضى في ذلك الاتجاه.

أول باب قابله إيميت كان يفتح على مَهْجَع. وبينما ارتصّت الأسرة في صفّين منتظمين، كانت البياضات مختلطة والأسرة خالية. الباب التالي كان يؤدي إلى مَهْجَع ثانٍ به صفّان آخران من الأسرة والمزيد من البياضات المختلطة. لكن في هذه الغرفة، كان ستون طفلاً في منامات زرقاء متجمعين في ست حلقات صاخبة وسط كلٍّ منها برطمانٌ من الفراولة المحفوظة. في بعض تلك المجموعات، كان الأطفال يتناوبون على البرطمان على النحو الواجب، بينما في أخرى جعلوا يتشاجرون من أجل الوصول إليه، يغرسون ملاعقهم في البرطمان ويحوّلون محتوياته إلى أفواههم بأسرع ما في إمكانهم، لكي يتمكنوا من شنّ هجمة أخرى على البرطمان قبل أن يفرغ. للمرة الأولى، خطر لإيميت أن تلك ليست مدرسة داخلية. إنها دار أيتام.

وبينما يحاول إيميت استيعاب الفوضى، لاحظ وجوده طفلٌ في العاشرة يضع نظّارة على وجهه، فشَدَّ أحد الصُّبْيَة الأكبر سنّاً من كُمّه. رفع الصبي الأكبر وجهه إلى إيميت، ثم أوماً إلى أحد أترابه. من دون تبادل كلمة واحدة، تقدم الاثنان كتفاً بكتف لكي يقفا حائلاً بين إيميت والآخرين. رفع إيميت كلتا يديه في إيماءة سلام.

-لم آتِ لأزعاجكم. أنا فقط أبحث عن صديق. الشخص الذي جلب لكم المربي.

أخذ الصبيَّان الأكبر سنًا يحدقان في إيميت صامتَيْن، لكن الصبي ذا النظارة أشار باتجاه الطريقة.

-لقد عاد من حيث جاء.

غادر إيميت الغرفة وعاد أدراجه إلى بسطة السلم. وهمَّ ينزوله عندما سمع من الطريقة المقابلة صوتًا مكتومًا لامرأة تصرخ، أعقبه دق قبضة على خشب. توقف إيميت، ثم تابع السير في الطريقة، حيث وجد بابَيْن وقد وُضع كرسيٌّ مائل تحت مقبض كل منهما. كان الصراخ والدق يأتي من وراء الباب الأول.

-افتح هذا الباب الآن.

عندما حرك إيميت الكرسي وفتح الباب، كادت امرأة أربعينية ترتدي رداء نوم أبيض طويل أن تسقط في الطريقة. وراءها، رأى إيميت امرأة أخرى جالسة على سرير، تبكي.

-كيف تجرؤ!

هكذا صرخت المرأة التي كانت تدق الباب، فور أن استعادت توازنها. تجاهلها إيميت واتجه إلى الباب الثاني ليرفع الكرسي الثاني. داخل هذه الغرفة كانت امرأة ثالثة راكعة تصلي بجوار سريرها وامرأة أكبر سنًا تجلس بسلام في كرسي عالي الظهر تدخن سيجارة. فور أن رآته قالت:- آه. كم هو لطيف منك أن تفتح الباب. ادخل. ادخل.

وإذ كبست المرأة الأكبر سيجارتها في المنفضة في حجرها، تقدم إيميت خطوة إلى الأمام مترددًا. لكن حتى وهو يفعل ذلك، دخلت الأخت من الغرفة الأولى وراءه. صرخت مجددًا: كيف تجرؤ!

قالت المرأة الأكبر: يا أخت بيرينيس. لماذا ترفعين صوتك على هذا الشاب؟ ألا ترين أنه محررنا؟

الآن، دخلت الأخت الباكية إلى الغرفة وعيناها لا تزالان تفيضان بالدموع، واستدارت المرأة الأكبر لكي تخاطب المرأة الراكعة.

-الرفقة قبل الصلاة، يا أخت إيلين.

-نعم يا أخت أغنس.

نهضت الأخت إيلين من مكانها إلى جوار السرير وأخذت الأخت الباكية بين ذراعيها، وهي تقول، هشش هشش هشش، بينما حوّلت الأخت أغنس انتباهها مجددًا إلى إيميت.

-ما اسمك، أيها الشاب؟

-إيميت واطسن.

-طيب يا إيميت واطسن، ربما تستطيع أن تنوّرنا بما يحصل هنا في سان نيكولاس هذا الصباح.

شعر إيميت بميل قوي لأن يستدير ويخرج من الباب، غير أن ميله للرد على الأخت أغنس كان أقوى.

-كنت أوصل صديقًا إلى محطة الحافلات في أوماها وطلب مني أن أتوقف. قال إنه كان يعيش هنا...

الآن، كانت الأخوات الأربع ينظرن إلى إيميت، الأخت الباكية لم تعد تبكي، والأخت المُهدّدة لم تعد تهدهد. الأخت الصارخة لم تعد تصرخ، لكنها تقدمت خطوة مفعمة بالتهديد تجاه إيميت.

-من ذلك الذي كان يعيش هنا؟

-اسمه دوقة...

-ها!

هكذا صاحت، وهي تستدير إلى الأخت أغنس.

-ألم أقل لكنّ إنها ليست آخر مرة نراه فيها! ألم أقل لكنّ إنه سيرجع يومًا ما لكي يقترف فعلًا أخيرًا من أفعال العفّرة؟

تجاهلت الأخت أغنس الأخت بيرينيس، ونظرت إلى إيميت وقد ارتسم على وجهها فضول رقيق.

-لكن قل لي يا إيميت، لماذا حبسنا دانيال في غُرنا؟ لأي سبب؟

تردد إيميت. وشجعتة الأخت بيرينيس: -اخبرنا؟

هز إيميت رأسه، وهو يشير إلى اتجاه المهاجع.

-بحسب ظني، جعلني أتوقف هنا لكي يستطيع أن يجلب بعض برطمانات مربى الفراولة للأولاد.

أطلقت الأخت أغنس تنهيدة رضا.

-هاك. هل ترين يا أخت بيرينيس؟ ما عاد دانيال الصغير لاقترافه هو فعل من أفعال الإحسان.

أيّا كان ما يقترفه دوقه، فكّر إيميت، فهذا الانحراف الصغير آخرهم ثلاثين دقيقة بالفعل؛ واستشعر أنه إذا تردد الآن، قد يظل عالقًا هنا لساعات.

قال، وهو يتراجع باتجاه الباب: - طيّبٌ إذا، إذا كان الجميع بخير... لا. انتظر.

هكذا قالت الأخت أغنس، وهي تمد يدها.

فور أن صار إيميت في الطرقة، تقدّم مسرعًا إلى بسطة السلم. وعندما كانت أصوات الأخوات تعلو من خلفه، تلاحقه، اندفع نازلاً الدّرج، واجتاز قاعة الطعام، وخرج من باب المطبخ، وقد غشاه إحساس عام بالارتياح.

كان في منتصف الطريق نزولاً على التل عندما لاحظ أن بيلي يجلس على العشب وحقيبة ظهره إلى جانبه وكتابه الأحمر الكبير في حجره -بينما لم يكن هناك أثر لا لـوولي، ولا للستادبيكر.

-أين السيارة؟

قال إيميت، بأنفاس متقطعة، عندما وصل إلى أخيه.

رفع بيلي رأسه عن كتبه.

-دوقه ووولي استعاراهما. لكنهما سيُرجعانهما.

-يُرجعانهما بعد ماذا؟

-بعد أن يذهبا إلى نيويورك.

للحظة، جعل إيميت يحدق في شقيقه، متحيرًا وحنقًا في آن.

وإذ شعر بيلي أن ثمة خطأ ما، شرع في تطمين أخيه. قال: لا تقلق. دوقه وَعَدَ أنهما سيرجعان قبل الثامن عشر من يونيو، ما يترك لنا وقتًا طويلاً لكي نصل إلى سان فرانسيسكو قبل الرابع من يوليو.

قبل أن يتمكن إيميت من الرد، كان بيلي يشير إلى شيء وراءه.
قال: -انظر.

استدار إيميت، فرأى هيئة الأخت أغنس تنزل التل، وذيل رداءها
الرهباني الأسود الطويل منتفخ وراءها كأنها تطفو على الهواء.

-هل تقصد الستادبيكر؟
كان إيميت يقف بمفرده في مكتب الأخت أغنس يتكلم مع سالي على
الهاتف. قال: نعم، الستادبيكر.
-ودوقة أخذها؟

-نعم.
حلت فترة صمت على الجانب الآخر من الخط. قالت: -لا أفهم.
أخذها إلى أين؟
-إلى نيويورك.

-نيويورك، نيويورك؟
-نعم. نيويورك، نيويورك.

-وأنتما في لويس؟
-تقريبًا.
-ظننتكما متجهين إلى كاليفورنيا. لماذا في لويس تقريبًا؟ ولماذا دوقة
في طريقه إلى نيويورك.

كان إيميت قد بدأ يندم على مهاتفة سالي. لكن هل كان أمامه خيار
آخر؟

-اسمعي يا سالي، لا شيء من هذا يهم الآن. المهم أنني يجب أن أستعيد
سيارتي. لقد هاتفتُ المحطة في لويس والواضح أن ثمة قطارًا متجهًا إلى
الشرق يتوقف هناك في وقت لاحق اليوم. إذا لحقتُ به، أستطيع أن أسبق

دوقة إلى نيويورك، وأستعيد السيارة، وأرجع إلى نبراسكا قبل الجمعة. وسبب اتصالي أني في هذه الأثناء أحتاج لشخص يعتني ببيلي. -إذا لماذا لم تقل ذلك؟

بعد أن وصف إيميت المكان لسالي ووضع سماعة هاتف مسر أغنس، نظر من النافذة ووجد نفسه يفكر في يوم الحكم عليه.

قبل التوجه إلى المحكمة مع والده، كان إيميت قد أخذ شقيقه جانباً ليشرح له أنه تنازل عن حقه في المحاكمة. شرح أنه لم يقصد أن يسبب لجيمي أيّ أذى حقيقي، لكنه ترك غضبه يستحوذ عليه، وأنه مستعد لتقبُّل تبعات أفعاله.

وإذا كان إيميت يشرح ذلك، لم يهز ببيلي رأسه معترضاً أو يقول إن إيميت يرتكب خطأً. بدا متفهماً أن ما يفعله إيميت هو الصواب. لكن إذا كان إيميت سيُقرُّ بالذنب من دون جلسة استماع، أراد ببيلي أن يَعِدَه بشيء واحد.

-وما هو يا ببيلي؟

-عِدني أنك كلما شعرت برغبة في ضرب شخصٍ ما في سورة غضب، عِدَّ إلى عشرة أولاً.

لم يكتف إيميت بأن يَعِدَه بذلك، بل تصافحا على ذلك. مع ذلك، قال إيميت في نفسه إن العدَّ إلى عشرة ما كان سيكفي، لو كان دوقة هنا الآن.

عندما دخل إيميت قاعة الطعام، كانت ممتلئة بضجيج ستين صبيّاً يتكلمون في الوقت نفسه. أيُّ قاعة طعام مزدحمة بالأولاد غالباً ما تكون صاخبة، غير أنّ إيميت خَمَّن أن هذه القاعة أكثر صخباً من المعتاد، إذ كان الصَّبِيَّة يعيشون من جديد حوادث الصباح: الظهور المفاجئ لحليف غامض أحضرَ لهم برطماناتٍ من المربي بعد أن حَبَس الأخوات في حُجراتهن. من الوقت الذي قضاه في سالاينا، عرف إيميت أن الأولاد

لا يعيشون الحوادث من جديد من باب شعورهم بالإثارة ببساطة. بل يعيشون الحوادث من جديد لكي يحولوها إلى أسطورة -لكي يتفقوا على كل التفاصيل الأساسية للقصة التي ستظل تتردد في طُرقات دار الأيتام، بكل تأكيد، لعقود قادمة.

وجد إيميت بيلي والأخت أغنس جالسَيْن جنبًا إلى جنب أمام منتصف إحدى الطاولات الشبيهة بطاولات الأديرة. وكان صحنٌ من الخبز الفرنسي المحمص، نصف مأكول، قد دُفع جانبًا ليفسح مكانًا لكتاب بيلي الأحمر الكبير.

كانت الأخت أغنس تقول، وهي تضع إصبعًا على إحدى الصفحات:-
أعتقد أن البروفيسور أبرناثي تَبَعَكَ كان ينبغي أن يُدرج يسوع مكان جيسون. إذ كان بالتأكيد أحد أعظم الرُحالة البواسل عبر التاريخ. ألا تتفق معي يا وليام؟ آه! ها هو أخوك!

جلس إيميت على الكرسي المقابل للأخت أغنس، فقد كان الكرسي المقابل لبيلي مشغولًا بحقيبة ظهره.

-هل نقدم لك بعض الخبز الفرنسي المحمص يا إيميت؟ أو ربما بعض القهوة والبيض؟

-لا، شكرًا يا أختنا. أنا بخير.

أومأت إلى حقيبة الظهر.

-لا أظن أن الفرصة سنحت لكي تخبرني إلى أين كنتما تتجهان عندما قادتكما المقادير إلى رفقتنا.

قادتكما المقادير إلى رفقتنا، فكَّر إيميت بجبين مقطَّب.

-كنا فقط نأخذ دوقه -أو دانيال- وصديق آخر إلى محطة الحافلات في أوماها.

قالت الأخت أغنس:-آه، نعم. أظنك ذكرت ذلك من قبل.

قال بيلي:-لكن الرحلة إلى المحطة كانت مجرد التفاقة. أصلًا، كنا في طريقنا إلى كاليفورنيا.

صاحت الأخت أغنس متعجبة، وهي تنظر إلى بيلي: كاليفورنيا! يا للإثارة. ولماذا تتجهان إلى كاليفورنيا؟ وهكذا، شرح بيلي للأخت أغنس كيف تركت أمهما البيت عندما كانا صغيرين، وكيف مات أبوهما بالسرطان، وأخبرها بأمر البطاقات البريدية في العلبة داخل الكومود - تلك التي كانت أمهما قد أرسلتها بالبريد من تسع محطات مختلفة على طول طريق لينكون السريع في طريقها إلى سان فرانسيسكو.

واختتم بيلي كلامه: - وهذا هو المكان الذي سنجدها فيه. قالت الأخت أغنس بابتسامة: - طيب، تبدو مغامرة حقيقية. وقال إيميت: - لا أعرف شيئاً عن المغامرات. الحقيقة أن البنك صادَرَ المزرعة. وكنا بحاجة إلى بداية جديدة، وبدلاً لنا من المعقول أن نفعل ذلك في مكان أستطيع أن أجده فيه عملاً.

قالت الأخت أغنس، بطريقة أكثر اتزاناً: - نعم، طبعاً. أخذت تتفحص إيميت للحظة، ثم نظرت إلى بيلي. - هل أنهيتَ فطورك يا بيلي؟ لماذا لا ترفع صحنوك. ستجد المطبخ هناك مباشرة.

أخذت الأخت أغنس وإيميت يراقبان بيلي وهو يضع أدوات مائدته وكوبه فوق صحنه ويحملها ويمضي بها بحرص. ثم حوَّلت انتباهها مجدداً إلى إيميت.

- هل هناك مشكلة؟

فوجئ إيميت بالسؤال بعض الشيء.

- ماذا تقصدين؟

- قبل لحظة، بدا عليك قدر من الانزعاج عندما تفاعلتُ مع حماسة أخيك تجاه الرحلة إلى الغرب.

- أظنني كنت أفضل لو لم تشجِّعيه.

- ولماذا؟

-لم نسمع من أمّنا منذ ثماني سنوات وليست لدينا فكرة عن مكانها. وأخي، مثلما لعلك أحسست، يملك خيالاً خصباً. لذلك، عندما أجد فرصة، أحاول مساعدته على البقاء بعيداً عن الإحباطات -بدلاً من أن أراكم عليه أسبَاباً للمزيد منها.

تمعّنت الأخت أغنس في إيميت، وشعر بنفسه يراوح مكانه في كرسيه. لم يحب إيميت الكهنوت أبداً. نصف الوقت كان يبدو له وكأن ثمة واعظاً يحاول أن يبيّعك شيئاً لا تحتاج إليه؛ والنصف الآخر يحاول أن يبيّعك شيئاً تمتلكه بالفعل. لكن عندما يتعلق الأمر بأصحاب الأزياء الكهنوتية، كانت الأخت أغنس تثير أعصابه أكثر من الآخرين. سألته: -هل تصادف وأن لاحظت النافذة ورائي.

-نعم.

أومات برأسها، ثم أغلقت كتاب بيّلي بلطف.

-عندما جنّت إلى سان نيكولاس لأول مرة عام 1942، كانت تلك النافذة تترك عليّ تأثيراً غامضاً. كان فيها شيء يأسر انتباهي، لكن بطريقة لا أستطيع تحديدها بدقة. في بعض العصريّات، عندما يعمّ الصمت، كنت أجلس ومعي فنجان من القهوة -تقريباً في المكان الذي تجلس فيه الآن- وأظل أحرق فيها، ببساطة لكي أستوعبها. ثم ذات يوم، أدركت ما الذي يؤثر فيّ بهذه القوة. إنه الفارق بين التعبيرات على وجوه الحواريين والتعبيرات على وجوه الأطفال.

استدارت الأخت أغنس قليلاً في كرسيها لكي تتمكن من رفع نظرها إلى النافذة. وبقدر من التردد، تابع إيميت نظراتها.

-إذا نظرت إلى وجوه الحواريين، تستطيع أن تفهم أن بعض الشك لا يزال يداخلهم تجاه ما قد رأوه للتوّ بأعينهم. بالطبع، يفكرون بينهم وبين أنفسهم، لا بُدّ أنها حيلة أو وهم من نوع ما، إذ لقد شهدنا بأعيننا موته على الصليب، وحملنا جسده بأيدينا إلى القبر. لكن إذا نظرت إلى وجوه

الأطفال، لن ترى ولو لمحةً من شك. تراهم ينظرون إلى هذه المعجزة بمهابة وانبهار، لكن من دون إنكار.

عرف إيميت أن الأخت أغنس امرأة طيبة السريرة. وبالنظر إلى كونها امرأة ستيّة كَرَسَتْ حياتها ليس فقط لخدمة الكنيسة، ولكن لخدمة الأيتام، عرف إيميت عندما بدأت قصتها أنها تستحق كامل انتباهه. لكن عندما تحدّثت، لم يستطع إيميت منع نفسه من ملاحظة أن الأنماط الصفراء، والحمراء، والزرقاء من النافذة ذاتها التي كانت تَصِفُها قد تحركت من الحائط إلى سطح الطاولة، مسجّلةً تقدم الشمس في السماء وضياع ساعةٍ أخرى.

-... ثم صعد التل وهو يحمل حقيبة إيميت المدرسية وكسر نافذة باب المطبخ!

وكانه أحد الصبيان في دار الأيتام، كان يبلي يعيد سرد حوادث الصباح وقد غمرته الإثارة، بينما سالي تناور بسيارتها، «بيتي»، وسط حركة المرور. -كسر النافذة؟

-لأن الباب كان موصداً! ثم دخل إلى المطبخ وأخذ حِفْنة ملاعق وحملها إلى الطابق العلوي، إلى المهاجع.

-وماذا أراد أن يفعل بحفنة الملاعق؟

-أراد الملاعق لأنه أحضرَ لهم فراولتك المحفوظة!

تفحّصت سالي ببلي وقد لاحت عليها الصدمة.

-أعطاهم برطماناً من فراولتي المحفوظة؟

قال ببلي: -لا. أعطاهم ستة. أليس ذلك ما قلته يا إيميت.

استدار كل من ببلي وسالي إلى إيميت، الذي كان ينظر من شباك في المقعد الأمامي.

أجاب من دون أن ينظر إليهما: -هذا ما قلته فعلاً.

وقالت سالي، كأنها تكلم نفسها: -لا أفهم.

مالت إلى الأمام فوق عجلة القيادة، وضغطت دواسة البنزين لتتجاوز سيارة صالون أمامها.

-لم أعطه إلا ستة برطمانات. كان يمكن أن تكفيه من الآن وحتى الكريسماس. لماذا بحق الأرض يعطي المجموعة كلها لمجموعة من الأغراب؟

وشرح بيلي: -لأنهم أيتام.

قالت سالي: -نعم، بالطبع يا بيلي. أنت محق تمامًا. لأنهم أيتام. وبينما تومئ سالي برأسها تقديرًا لاستدلال بيلي وإحسان دوقه، لم يستطع إيميت منع نفسه من ملاحظة أن سُخطها على مرَبَّتْها يتجاوز كثيرًا سُخطه على مصير سيارته.

-هناك!

قال إيميت وهو يشير إلى المحطة.

لكي تأخذ سالي الدوران، قطعت الطريق على سيارة شيفروليه. وعندما أوقفت السيارة، خرج ثلاثتهم منها. لكن بينما كان إيميت يلقي نظرة خاطفة على مدخل المحطة، اتجه بيلي إلى صندوق الشاحنة، وسحب حقيبة ظهره، وشرع يورجحها على ظهره.

وإذ رأت سالي ذلك، ظهرت عليها المفاجأة، ثم نظرت إلى إيميت وقد ضيقت عينيه في تأنيب. وسألته هامسة: ألم تخبره؟ طيب، لا تنتظر مني أن أخبره أنا!

أخذ إيميت شقيقه جانبًا، وبادره بالقول: بيلي، ليس عليك أن تعلق حقيبة ظهرك الآن.

قال بيلي، وهو يُحكّم شدَّ الشريطين على كتفيه: -لا بأس. أستطيع أن أخلعها عندما نركب القطار.

نزل إيميت على ركبتيه.

-أنت لن تركب القطار يا بيلي.

-ماذا تقصد يا إيميت؟ لماذا لن أركب القطار؟

-الأفضل لك أن تذهب مع سالي بينما أستعيد أنا السيارة. لكن فور أن أستعيدها، سأرجع مباشرة إلى مورغن لكي آخذك. لن يستغرق الأمر أكثر من بضعة أيام.

لكن عندما كان إيميت يشرح ذلك، كان بيلي يهز رأسه. ثم قال: لا. لا. لا أستطيع العودة مع سالي يا إيميت. لقد غادرنا مورغن بالفعل ونحن في طريقنا إلى سان فرانسيسكو.

-هذا صحيح يا بيلي. نحن في طريقنا إلى سان فرانسيسكو. لكن الآن، السيارة في طريقها إلى نيويورك.

عندما قال إيميت ذلك، انفتحت عينا بيلي على وسعهما وكأن إلهامًا قد تنزل عليه. وقال: نيويورك هي المكان الذي يبدأ عنده طريق لينكون السريع. بعد أن نأخذ القطار ونجد الستادبيكر، نستطيع أن نقودها إلى تايمز سكوير ونبدأ رحلتنا من هناك.

نظر إيميت إلى سالي بحثًا عن دعم. أخذت سالي خطوة إلى الأمام ووضعت يداً على كتف بيلي. ثم قالت، بصوتها الحازم: -بيلي، أنت محق تمامًا.

الآن كانت سالي هي من أخذها إيميت جانبًا.
-سالي...

هكذا شرع يقول، لكنها أوقفته.

-إيميت، تعرف أن لا شيء أَحَبَّ عليّ من أن آخذ بيلي ثلاثة أيام أخرى. بل وسأحب، ويشهد الله على ذلك، لو آخذته ثلاث سنوات أخرى. لكنه قضى بالفعل خمسة عشر شهرًا ينتظر عودتك من سالينا. وفي تلك الأثناء، فَقَدَ والده وبيته. مكان بيلي، عند هذا المنعطف، بجانبك، وهو يعرف هذا. وأتخيل أنه يظنك قد صرّت تعرف ذلك أنت أيضًا.

ما كان يعرفه إيميت حقًا هو أنه يحتاج للذهاب إلى نيويورك والعثور على دوقه بأسرع ما يمكن، وأن بقاء بيلي معه لن يسهّل هذه المهمة على الإطلاق.

لكن من ناحية وجيهة، كان بيلي محققًا: لقد غادرا مورغن بالفعل. فبعد أن دفنا أبوهما وحزما حقيبتيهما، عليهما أن يضعا هذا الجزء من حياتهما وراء ظهريهما. سيكون من دواعي الراحة لكليهما أن يعرفا أنه مهما حدث تاليًا، لن يضطرا إلى الرجوع أبدًا.

استدار إيميت إلى أخيه: - طيّب يا بيلي. سنذهب إلى نيويورك معًا. أو ما بيلي مُقِرًّا أن ذلك هو القرار المعقول.

بعد أن انتظرت سالي أن يعيد بيلي شدَّ الشريطين على ظهره، أعطته حضنًا، وذكّرت أنه يتبّه على تصرفاته وعلى أخيه. ثم من دون أن تعطي حضنًا لإيميت صعدت إلى شاحتها. لكن فور أن أدارت المحرك، نادته إلى نافذتها. وقالت: - شيء واحد آخر.

- وما هو.

- إذا أردت أن تطارد سيارتك إلى نيويورك فهذا شأنك. لكنني لا أنوي قضاء الأسابيع القليلة التالية وأنا أستيقظ في منتصف الليل من فرط القلق. لذلك، بعد بضعة أيام من الآن، عليك أن تتصل بي هاتفياً لتجعلني أطمئن أنكما في أمان.

همَّ إيميت بالاعتراض على طلب سالي، كونه غير عملي؛ همَّ بأن يقول إن تركيزه، فور وصولهما إلى نيويورك، سينصبُّ على البحث عن السيارة؛ أنه لا يعرف أين سيقيمان، أو ما إن كانا سيجدان هاتفًا...

- لا يبدو أنك وجدت أي مشكلة في العثور على وسيلة للاتصال بي في السابعة من صباح اليوم لكي أترك ما في يدي أيّا كان وأقود طوال الطريق إلى لويس. وليس لديّ شك أنك ستستطيع، في مدينة كبيرة مثل نيويورك، أن تجد هاتفًا آخر ووقتًا لاستخدامه.

قال إيميت: - طيّب. سأتصل.

قالت سالي: - عظيم. متى؟

- متى ماذا؟

- متى ستصل؟

-سالي، أنا حتى لم...

-ليكن الجمعة إذاً. اتّصل بي يوم الجمعة في الثانية والنصف.

قبل أن يتمكن إيميت من الرد، وضعت سالي سيارتها على الغيار الأول، وانطلقت بها إلى مخرج المحطة، حيث توقفت، بانتظار انفراجة في المرور.

في وقت سابق من ذلك الصباح وهما يستعدان لمغادرة دار الأيتام، كانت الأخت أغنس قد أهدت يبلي قلادةً في سلسلة قالت إنها ميدالية كريستوفر، القديس الراعي للمسافرين. عندما استدارت إلى إيميت، خشي هو الآخر أن تهديه ميدالية. عوضاً عن ذلك، قالت إنها تريد أن تسأله عن شيء، لكن قبل أن تفعل ذلك، لديها قصة أخرى تحكيها: قصة دوقة وكيف تُرك في رعايتها.

في عصر أحد أيام صيف عام 1944، هكذا قالت، ظهّر رجل في نحو الخمسين من عمره على باب دار الأيتام وإلى جانبه فتاة صغيرة نحيلة في الثامنة عشرة. فور أن صار الرجل بمفرده مع الأخت أغنس في مكتبها، شرح لها أن شقيقه وزوجة شقيقه توفيا في حادث سيارة، وأنه القريب الحيّ الوحيد للصبي. بالطبع، أكثر ما يتمناه كان أن يعتني بابن أخيه، خاصةً في تلك السن الحرجة؛ لكن لأنه ضابط في القوات المسلحة، تقرر أن يُنقل إلى فرنسا في نهاية الأسبوع، ولا يعرف متى سيرجع من الحرب، أو إذا كان سيرجع أصلاً...

-الآن، لم أصدّق كلمة مما قاله هذا الرجل. ليس فقط لأن شعره الأشعث لا يدل على كونه ضابطاً في القوات المسلحة، أو لأن معه فتاة صغيرة جميلة تنتظره في المقعد الأمامي لسيارته المكشوفة. كان واضحاً تماماً أنه والد الصبي. لكن ليس من شأني أن أشغل نفسي بتدليس الرجال معدومي الضمير. من شأني أن أشغل نفسي بالأولاد الذين يهجرهم أهلهم. وكُن متأكداً يا إيميت، أن دانيال الصغير قد هُجر. نعم، عاود والده الظهور بعدها بستتين ليستعيد دانيال، عندما وجدَ أن ذلك مناسباً له، غير

أن دانيال لم يتوقع ذلك. معظم الأولاد الذين يأتون إلى رعايتنا أيتام بحق. لدينا أولاد توفي لهم الأب والأم بالإنفلونزا أو في حريق، أو توفيت أمهاتهم لدى ولادتهم وتوفي آباؤهم في نورماندي. وإنها لتجربة رهيبة لهؤلاء الأطفال الذين يصير عليهم أن يشبوا محرومين من حب آبائهم. لكن تخيّل أن تصبح يتيماً لا نتيجة لفاجعة، بل برغبة والدك وهواه - بقراره أنك قد أصبحت عبئاً عليه.

توقفت الأخت أغنس قليلاً ليستقر أثر كلماتها.

-ليس لديّ شك أنك غاضب من دانيال كونه أخذ راحته مع سيارتك. لكننا أنت وأنا نعرف أن ثمة خيراً في داخله، خيراً ظل بداخله منذ البداية، لكنه لم يجد قط الفرصة لكي ينمو ويزدهر. في هذه اللحظة الحرجة من حياته، ما يحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر هو صديق يقف إلى جانبه ويعتمد عليه؛ صديق يستطيع أن يبعده عن الحماقات ويساعده في العثور على طريقه لكي يحقق هدفه في الحياة بوصفه إنساناً مسيحياً.

-يا أختنا، قلت إنك ستسأليني عن شيء. لم تقولي إنك ستسأليني شيئاً. تمعنّت الراهبة في إيميت لثانية، ثم ابتسمت.

-أنت محقّ تماماً يا إيميت. أنا لا أسألك عن شيء. أنا أسألك أن تفعل ذلك.

-عندي بالفعل شخص أعنتني به. شخص من دمي ولحمي ویتيم هو الآخر.

نظرت إلى بيلي، بابتسامة حنون، لكنها استدارت بعد ذلك إلى إيميت بعزم لم يَلن.

-هل تحسب نفسك مسيحياً يا إيميت.

-لست من مرتادي الكنائس.

-لكن هل تحسب نفسك مسيحياً.

-لقد نُشئتُ مسيحياً.

-إذاً فأنا أتخيّل أنك تعرف قصة السامريّ الطيّب.

-نعم يا أختنا، أعرف القصة. وأعرف أن المسيحي الطيب يساعد الإنسان المحتاج.

-نعم يا إيميت. المسيحي الطيب يُظهر رَأْفَةً تجاه من يمرون بظروف عصيبة. وهذا هو الجزء المهم من مغزى القصة. لكن ثمة نقطة أخرى لا تقل أهمية يطرحها يسوع؛ ألا وهي أننا لا نختار دائمًا الناس الذين نُسبغ عليهم إحساننا.

فُيَل الفجر، عندما خرج إيميت بالسيارة من بيته، كان قد انعطف إلى الطريق بشعور أنه وبيلي صارا غير مُثْقَلَيْن بأيِّ أعباء -متحرِّران من كلِّ دَينٍ أو التزام وهما يبدأان حياتهما من جديد. والآن، بعد أن سافرا لستين ميلًا فقط بعيدًا عن بيتهما، وفي الاتجاه العكسي، كان قد قطع على نفسه وَعْدَيْن في ساعتين.

فور أن هدأت حركة المرور أخيرًا وانعطفت سالي يسارًا خارجةً من المحطة، تَوَقَّع إيميت أن تستدير برأسها وتلَوِّح له. غير أن سالي مالت إلى الأمام على عجلة القيادة، ودهست دواسة البنزين. أطلقت «بيتي» نارًا من أنبوب العادم، واتجهتا معًا إلى الغرب من دون نظرة في اتجاهه. فقط عندما خرجتا مسرعتين من مدى بصره، أدرك إيميت أنه لا يحمل أيَّ نقود.

دوقة

يا له من يوم، يا له من يوم، يا له من يوم! ربما لا تكون سيارة إيميت أسرع سيارة على الطريق، لكن الشمس كانت عالية، والسموات زرقاء، والابتسامات مرتسمة على وجوه كل من مررنا بهم.

بعد أن تركنا لويس، في أول مئة وخمسين ميلاً رأينا صوامع غلال أكثر عددًا من البشر. وبدأت معظم البلدات التي اجتزناها مقتصرة على شيء واحد من كل شيء، وكأنما بموجب مراسيم محلية: سينما واحدة ومطعم واحد؛ مقبرة واحدة وبنك ادخار وتسليف واحد؛ وعلى أغلب الظن، حَسُّ واحد بالصواب والخطأ.

لكن معظم الناس لا يهتمهم أين يعيشون. عندما يستيقظون في الصباح، لا يتطلعون إلى تغيير العالم. يريدون فنجانًا من القهوة وقطعة من الخبز المحمص، يقضون ساعات عملهم الثماني، ثم يختتمون يومهم بزجاجة بيرة أمام التلفزيون. ذلك ما يفعلونه، على نحو أو آخر، سواء عاشوا في أتلانتا، أو جورجيا، أو نوم، أو ألاسكا. وإذا كان معظم الناس لا يهتمهم أين يعيشون، فلن يهتمهم بالتأكيد أين يذهبون.

هذا ما منحَ طريق لينكون السريع سحره.

عندما ترى الطريق السريع على الخريطة، يبدو لك وكأن ذلك المدعو فيشر الذي تحدّث عنه بيلي قد أخذ مسطرة ورسم خطأ مستقيمًا عبر البلاد، ولتذهب الجبال والأنهار إلى الجحيم. وإذا فعل ذلك، لا بُدَّ أنه تخيل أن ذلك سوف يوفرّ معبرًا سريعًا لحركة البضائع والأفكار من المحيط إلى المحيط، في استيفاءٍ نهائي لرغبة الأقدار. غير أن كل من مررنا بهم بدوا راضين تمام الرضا عن افتقارهم لأيّ هدف. دع الطريق ينهض

لاستقبالك، هكذا يقول الأيرلنديون، وهذا ما حدث للرحالة البواسل على طريق لينكون السريع. كان ينهض لاستقبال كل واحد منهم، سواءً اتجهوا شرقاً، أم غرباً، أم داروا في دوائر.

قال وولي: -كان لطفاً فظيماً من إيميت أن يُعيرنا سيارته.

-صحيح.

ابتسم للحظة، ثم تقطّب جبينه تماماً مثل بيلي.

-هل تظنهما واجها مشكلة في الرجوع إلى البيت؟

قلت: -لا. أراهن أن سالي جاءت بأقصى سرعة في شاحنتها، وأن ثلاثهم يجلسون الآن في مطبخها يأكلون البسكويت والجيلي.

-تقصد البسكويت والفاكهة المحفوظة.

-بالضبط.

لقد شعرتُ حقاً ببعض الأسف لأجل إيميت الذي اضطر إلى قطع الرحلة ذهاباً إلى لويس ثم رجوعاً منها. لو عرفتُ أنه يحتفظ بالمفاتيح تحت واقية الشمس، لأمكنني أن أوفرّ عليه مشقة الرحلة.

المفارقة أننا عندما انطلقنا من بيت إيميت، لم أكن أنوي استعارة السيارة. في ذلك الوقت تطلعتُ إلى استقلال حافلة «غريهاوند». ولم لا؟ في الحافلة تجلس في كرسيك مستريحاً. تستطيع أن تأخذ غفوة، أو تتكلم قليلاً مع مندوب المبيعات ذي الحذاء الجلديّ على الطرف الآخر من الممر. لكن ونحن نهئم بالاستدارة باتجاه أوماها، انفتح بيلي في الكلام عن طريق لينكون السريع، وبعدها لم ننتبه إلا ونحن في ضواحي لويس. ثم عندما خرجتُ أمام سان نيكولاس، كانت الستادبيكر واقفة بجوار الرصيف والمفتاح في المحرّك ومقعد السائق شاغراً. وكأنّ إيميت وبيلي خططاً للأمر بأكمله. أو الرب الرحيم. سواءً هذا أم ذاك، بدا أن القدر يتجلى بكل وضوح - حتى وإن اضطر إيميت إلى القيام بالرحلة في الاتجاه العكسي.

قلت لـ وولي: -الخبر الطيب أننا إذا حافظنا على هذه الوتيرة، ينبغي

أن نصل إلى نيويورك صباح الأربعاء. نستطيع أن نرى أبي، ثم نظير إلى المعسكر، ونرجع ومعنا حصاة إيميت قبل أن يفتقدنا. وبالنظر إلى حجم البيت الذي اختلقته أنت وبيلي، أظن إيميت سيكون سعيدًا بالحصول على القليل من النقديّة الإضافية عندما يهبط في سان فرانسيسكو.

ابتسم وولي لدى ذكر بيت بيلي. فأضفت: بالحديث عن الوتيرة، كم أمانا لكي نصل إلى شيكاغو؟
فارتّ الابتسامة وجه وولي.

في غياب بيلي، كنت قد كلّفته بمهمة الملاحاة. ولمّا لم يسمح لنا بيلي باستعارة خريطته، كان علينا أن نشترى واحدة (من إحدى محطات «فيليس 66» للوقود بالطبع). وتمامًا مثل بيلي، كان وولي قد علّم المسار بحرص بخط أسود يتتبع طريق لينكون السريع طيلة الطريق إلى نيويورك. لكن فور أن صرنا في الطريق، بدأ يتصرف كأنه لا يطيق صبرًا لإدخال الخريطة في صندوق التابلوه.

سألني بنوع من التوجّس لا تخطئه الأذن: تريدني أن أحسب المسافة؟
- سأقول لك يا وولي: لماذا لا تنسى أمر شيكاغو وتجد لنا شيئًا صغيرًا نسמעه في المذيع.

وعلى الفور، عادت الابتسامة إلى وجهه.
يُفترَض بالمؤشر أن يكون مضبوطًا على محطة إيميت المفضلة، لكننا كنا قد تركنا تلك الإشارة وراءنا في نبراسكا. لذلك عندما شغل وولي المذيع، لم يخرج من السماعة إلا وشيش.

لبضع ثوانٍ، صبَّ وولي كل تركيزه على الأمر، وكأنه أراد أن يحدد بالضبط أيّ نوع من الوشيش كان. لكن فور أن بدأ يدير المؤشر، عرفتُ أنني أمام إحدى مواهب وولي الدفينة الأخرى - مثل الصحون ومخططات الطوابق. لأن وولي لم يكتفِ بإدارة المؤشر على أمل أن يأتي الخير، بل أداره مثل لص خزائن. ضَيّق عينيه ووضع لسانه بين أسنانه، وراح يحرك تلك الإبرة البرتقالية الصغيرة ببطء عبر الطيف الترددي إلى أن يسمع أوهى

لمحة من إشارة. عندها يتباطأ أكثر، ويترك الإشارة تكتسب قوةً ووضوحًا إلى أن يتوقف فجأة لدى التقاط استقبال مثالي.

الإشارة الأولى التي وقع وولي عليها كانت محطة لموسيقى «الكانتري». كانت تذيع نمرةً عن راعي بقر في المروج فقد إِمَّا امرأته أو فرسه. قبل أن أتبيّن إن كانت هذه أم تلك، كان وولي قد أدار المؤشر. في المحطة التالية كان تقريرٌ عن المحاصيل يُبثُّ إلينا مباشرة من مدينة أيوا البعيدة، ثم الخطبة النارية لواعظ معمداني، ثم مقطوعة لبيتهوفن تُعزف بطريقة مبسّطة. وإذ لم يتوقف وولي حتى عند سماع الـ«شو بوم»، شو بوم⁽¹⁾، بدأتُ أتساءل إن كان سيجد أي شيء في المذياع جيدًا بما يكفي. لكن عندما وصل إلى التردّد رقم 1540، كان إعلانٌ عن حبوب إفطار في بدايته. وهكذا، ترك وولي عجلة المؤشر، وجعل يحدّق في المذياع، موليًا للإعلان ذلك النوع من الانتباه الذي يحتفظ به الشخص عادة لطبيب أو عَرَّاف. وهكذا بدأ الأمر.

أوه، لَكُمْ أحبّ الفتى الإعلانات. على مدار الأميال المئة التالية، لا بُدّ أنّا استمعنا إلى خمسين منها. وكان يمكن أن تكون عن أي شيء. عن كاديلاك «كوبّي دي فيل» أو مشدّات صدر «بلايتكس» الجديدة. بدا أن ذلك لا يهمُّ. لأن وولي لم يبدُ مهتمًا بشراء أي شيء. ما كان يسحره هو الدراما.

في بداية الإعلان، كان وولي ينصت بجدية بالغة بينما يسرد الممثل -أو الممثلة- معضلةً معينة تؤرّقه أو تؤرقها. مثل النكهة الفاترة لسجائر المِنتول أو بقع العشب على سراويل الأطفال. من التعبير المرتسم على وجه وولي، تعرف أنّه لا يشارك الممثل في همّه فحسب، بل إن شكّا يسيطر عليه أن كلّ مساعي السعادة محكومٌ عليها بالإحباط. لكن فور أن

(1) «شو بوم»: الإشارة إلى أغنية Life Could Be a Dream، لفريق the Chords، إحدى الأغنيات الرائجة في الخمسينيات. (م)

تُقرّر تلك الأرواح المعذبة أن تجرّب هذا المنتج الجديد أو ذاك، تُشرق
قسمات وولي، وعندما يكتشفون أن المنتج المذكور لم يكتفِ بإزالة العقد
المتكتّلة في البطاطس المهروسة فحسب، بل العقد المتكتّلة في حيواتهم
ذاتها، تنفرج شفتا وولي عن ابتسامة، ويظهر عليه الانتعاش والاطمئنان.
على مبعدة بضعة أميال من أميس، أيوا، صادفَ وولي إعلانًا قدّم لنا أمّا
عرفت لتوّها -لفرط ارتياحها- أن كلاً من أولادها الثلاثة قد وصل على
العشاء مصطحبًا ضيفًا. لدى تجلي هذه العقبة الكؤود، أطلق وولي شهقة
مسموعة. لكننا سمعنا فجأة وميض عصا سحرية، ثم من ذا الذي ظهر غير
«الشيف بوياردي» بقبّعته المتنفخة الكبيرة ولُكّنته الأكثر انتفاخًا؟ بتلويحة
أخرى من العصا، ظهرت ستُّ علب من «صلصة السباغيتي باللحم
المفروم» في صف واحد على المنضدة، جاهزة لإنقاذ اليوم.
-ألا يبدو ذلك لذيذًا؟

هكذا قال وولي متنهّدًا، بينما جعل الأولاد في المذيع يدسّون شوكلاتهم
في صحنونهم. صحتُ مرتعبًا: لذيذ! إنه طعام معلّب يا وولي.
-أعرف. أليس مدهشًا؟

-مدهش أو غير مدهش، العشاء الإيطالي لا يؤكّل بهذه الطريقة.

استدار وولي إليّ وعلى وجهه نظرة فضول حقيقي.

-وكيف يؤكّل العشاء الإيطالي يا دوق؟

أوه، من أين أبدأ. سألته: هل سمعت من قبل عن مطعم ليونيللوز؟ فوق
في شرق هارلم؟
-لا أظن.

-إذا فالأفضل أن تسحب كرسيًا.

بذل وولي جهدًا صادقًا لكي يفعل ذلك. وبدأت أنا أقول: ليونيللوز
مكان إيطالي صغير يضم عشر مقصورات، وعشر طاولات، وبار.
المقصورات مكسوّة بالجلد الأحمر، والطاولات مغطاة بمفارش حمراء
وبيضاء، وسيناترا يغني في صندوق الموسيقى، تمامًا مثلما قد تتوقع.

العقبة الوحيدة هي أنك إذا دخلت من الشارع ليلة الخميس وطلبت طاولة، لن يسمحوا لك بالجلوس لتناول العشاء - حتى إن كان المكان خاليًا. كعاشق للفوازير، أشرق وجه وولي.

- لماذا لن يسمحوا لك بالجلوس لتناول العشاء يا دوق؟
- السبب الذي يجعلهم لا يسمحون لك بالجلوس، يا وولي، هو أن كل الطاولات مشغولة.

- لكنك قلت لتوك إن المكان خالٍ.

- وهو كذلك.

- إذا، مشغولة بمن؟

- لعمري، يا صديقي، هذا بيت القصيد⁽¹⁾. تعرف، الطريقة التي يعمل بها ليونيللوز هي أن كل طاولة في المكان محجوزة إلى أبد الدهر. إذا كنت واحدًا من زبائن ليونيللوز، تستطيع أن تأخذ طاولة لأربعة أفراد بجوار صندوق الموسيقى في أيام السبت في الساعة الثامنة. وتدفع لتلك الطاولة كل ليلة سبت، سواءً ظهرت أم لم تظهر، كيلا يستطيع غيرك استخدامها. أدتُ رأسي إلى وولي.

- هل أنت معي إلى الآن؟

قال: - أنا معك.

ورأيتُ أنه كذلك.

- لنقل إنك لست زبونًا عند ليونيللوز، لكنك محظوظ بما يكفي لأن يكون أحد أصدقائك زبونًا هناك، وهذا الصديق أعطاك حق استخدام طاولته وهو خارج البلدة. عندما تحين ليلة السبت، ترتدي أبهى حلة وتوجه إلى هارلم بصحبة أقرب ثلاثة من أصدقائك.
- أنت ويلي وإيميت مثلاً.

- بالضبط. أنا ويلي وإيميت مثلاً. لكن فور أن نستقر جميعًا ونطلب شرابًا، لا تزعجوا أنفسكم بطلب قوائم الطعام.

(1) «لعمري، هذا بيت القصيد»: من مناجاة «أكون أو لا أكون» الشهيرة لهاملت. (م)

-ولِمَ لا؟

-لأنهم في ليونيللوز، ليست لديهم قوائم طعام.

بتلك العبارة، استحوذت فعليًا على كامل اهتمام وولي. أقصد، أطلق شهقة أكبر من تلك التي أطلقها أثناء إعلان «الشيف بوياردي».

-وكيف يمكن أن تطلب عشاءً من غير قائمة طعام يا دوق؟

شرحت له: -في ليونيللوز، فور أن تتخذوا مقاعدكم وتطلبوا مشروباتكم، سيسحب النادل كرسيًا إلى طاولتكم، ويديره إلى الخلف، ويجلس عليه وذراعه على ظهره لكي يخبركم بالضبط ما الذي يقدمونه تلك الليلة. مرحبًا بكم في ليونيللوز، سيقول، الليلة لدينا، كمقَبَّلات، خرشوف محشي، وبلح بحر بصوص المارينارا، ومحار أوريجناتا، وكاليماري فريتي. للطبق الأول لدينا مكرونة لينغويني بالمحار، وسباغيتي كاربونارا، وبيني بولونيز. وللطبق الرئيسي، دجاج كاتشاتوري، وبتلو سكالوبيني، وبتلو ميلانيز، وأوسو بوكو.

ألقيت نظرة خاطفة على الملاح الجالس بجانبني.

-أستطيع أن أرى من التعبير المرتسم على وجهك أنك متهيّب من كثرة الأصناف يا وولي، لكن لا تقلق. لأن الطبق الوحيد الذي يجب عليك أن تطلبه في ليونيللوز هو الطبق الذي لم يذكره النادل: فيتوتشيني ميو أموري، طبق المطعم المخصوص. باستا طازجة مخلوطة مع صوص الطماطم، واللحم المقدّد، والبصل المُكْرَمَل، ورقائق الفلفل الحار.

-لكن لماذا لا يذكر النادل هذا الطبق، إذا كان طبق المطعم

المخصوص؟

-لا يذكره لأنه طبق المطعم المخصوص. هكذا تسير الأمور مع الفيتوتشيني ميو أموري. إمّا أنك تعرفه جيدًا فتطلبه، أو لا تستحق أن تأكله. عرفت من الابتسامة المرتسمة على وجه وولي أنه يستمتع ببليلته في ليونيللوز.

سألني: -هل كانت لدى والدك طاولة في ليونيللوز؟

ضحكت: - لا يا وولي. والدي لم تكن لديه طاولة في أي مكان. لكن على مدار ستة أشهر مجيدة، كان المتردوتيل، وكان مسموحًا لي أن أتكع في المطبخ، ما دمت لا أقف في طريق أحد.

هممت بأن أحكي لولي عن لو، الشيف، عندما التفَّ حولنا سائق شاحنة بسرعة جنونية وهو يلوح بقبضته.

عادة، كنت سأرد عليه بأن أعض على إبهامي⁽¹⁾، لكن عندما رفعت رأسي لأفعل ذلك، أدركت أنني قد انغمست كثيرًا في سرد حكايتي، حتى إنني تركت السيارة تبطئ إلى ثلاثين ميلًا في الساعة. لا عجب أن سائق الشاحنة خرج عن شعوره.

لكن عندما عدت لأدوس دؤاسة البنزين، سقطت الإبرة البرتقالية في عداد السرعة فجأة من خمسة وعشرين إلى عشرين. وعندما دهست الدؤاسة إلى الأرض، تراجعنا إلى خمسة عشر، وعندما ملتُ إلى جانب الطريق، تدرجت السيارة حتى توقفت.

أطفأت المحرك بالمفتاح، ثم أدركته ثانية، وضغطت زر التشغيل، لكن بلا فائدة.

«ستادبيكر لعينة»، هكذا غمغمت بيني وبين نفسي. الأرجح أنها البطارية مرة أخرى. لكن حتى وأنا أفكر في هذا، أدركت أن المذياع لا يزال شغلاً، لذا لا يمكن أن تكون البطارية. ربما شيء له علاقة بالبوجيات⁽²⁾...؟

سألني وولي: - هل نفذ البنزين؟

بعد أن نظرت إلى وولي لثانية، نظرت إلى عداد البنزين. هو أيضًا له إبرة برتقالية رفيعة، وبطبيعة الحال كانت الإبرة قابعة في القاع.

-الظاهري يا وولي. الظاهر.

من حظنا، كنا لا نزال داخل حدود مدينة أميس، ورأيت أمامنا على

(1) أعض على إبهامي: إيماءة سباب شكسبيرية من مسرحية «روميو وجوليت». (م)

(2) البوجيات: اسم شائع لـ «شمعات إشعال المحركات». (م)

الطريق، في نقطة غير بعيدة، علامة الحصان الأحمر الطائر، شعار محطات موبيل. وضعت يديّ في جيبيّ، وأخرجت الفكّة المتبقية من دُرج مكتب مستر واطسن. بعد أن أنفقت منها على الهمبرغر وقرطاس الآيس كريم اللذين كنت قد اشتريتهما في مورغن، لم يتبقّ منها إلا سبع سنتات.

-وولي، هل معك أي نقود؟

-نقود؟

ما الذي يجعل الناس الذين يولّدون ومعهم نقود هم من ينطقون الكلمة وكأنها كلمة أجنبية؟ هكذا تساءلت.

خرجت من السيارة، ونظرت إلى الطريق من أمامي ومن خلفي. على الجانب الآخر من الشارع كان مطعم صغير قد بدأ يمتلئ بالزبائن الذين يتوافدون لتناول الغداء. وبعده مغسلة ملابس آليّة وفي ساحة انتظارها سيارتان. لكن إلى الأمام قليلاً كان متجر مشروبات لا يبدو أنه قد فتح أبوابه بعد.

في مدينة نيويورك، لن تجد صاحب متجر مشروبات عليه القيمة يترك نقدية في الدُرج من ليلة إلى أخرى. لكننا لم نكن في مدينة نيويورك. كنا في الأراضي الوسطى، حيث معظم الناس الذين يقرأون شعار «في الربّ نثق» المكتوب على ورقة الدولار يأخذون الكلمات بمعناها الحرفي. لكن تحسباً لاحتمال البعيد ألا تكون هناك أي نقود في دُرج النقدية، قدّرت أنني أستطيع أن ألتقط صندوق ويسكي وأعرض على عامل محطة الوقود بضع زجاجات مقابل أن يملأ خزاننا.

المشكلة الوحيدة كانت في كيفية الدخول.

-اعطني المفاتيح، هل تسمح؟

مال وولي جانباً، وأخرج المفاتيح من «الكونتاكْت»⁽¹⁾ وناولها لي من النافذة.

(1) الكونتاكْت: اسم شائع لمقوم التشغيل الكهربائي المتصل ببطارية السيارة (م)

-شكرًا.

قلتُها وأنا أستدير إلى صندوق السيارة.

-دوقة؟

-نعم يا وولي؟

-هل تظن من الممكن...؟ هل تظنني أستطيع...؟

عمومًا، لا أحب أن أحشر نفسي في عادات الآخرين. إذا أراد رجل أن ينهض مبكرًا ويذهب إلى القدّاس، فلينهض مبكرًا ويذهب إلى القدّاس؛ وإذا أراد أن ينام حتى الظهر وهو يرتدي ملابس الليلة الماضية، فلينام حتى الظهر وهو يرتدي ملابس الليلة الماضية. لكن لأن وولي لم تبقَ معه إلا زجاجات قليلة من الدواء ولأنني كنت أحتاج إليه من أجل الملاحه، كان عليّ أن أطلب منه تفويت جرعة الضحى.

ألقيت نظرة أخرى على متجر المشروبات. لم تكن لدي فكرة كم سيستغرق الوقت لكي أدخل وأخرج. لذلك، في تلك الأثناء، ربما يكون من الأفضل أيضًا أن يضيع وولي في أفكار.

قلت: -طيّب. لكن لماذا لا تكتفي بقطرة أو قطرتين.

كان يمد يده بالفعل إلى صندوق التابلوه وأنا أتهجه إلى مؤخرة السيارة. عندما فتحت صندوق السيارة، ابتسمتُ رغماً عني. لأن بيلى عندما قال إنه وإيميت متجهين إلى كاليفورنيا بأقل القليل الذي يمكنهما وضعه في حقيبة عُدّة، ظننتُ أنه يتحدث مجازًا. لكن لم يكن هناك أي مجاز في الأمر. كانت حقيبة عُدّة، مثلما قال. أزحتها جانبًا، ورفعت كسوة اللباد التي تغطي الإطار الاحتياطي. إلى جوار الإطار، رأيت «الكوريك» وذراعه. كانت الذراع بسمك عصا الحلوى، لكنها قوية بما يكفي لرفع ستادبيكر، وقدّرتُ أنها ستكون كافية لفتح باب ريفي.

تناولتُ الذراع بيدي اليسرى، وهممتُ بإنزال كسوة اللباد إلى مكانها باليمنى. وفي تلك اللحظة رأيتهَا. زاوية ورقة صغيرة بارزة من وراء سواد الإطار، تبدو بيضاء كجناح ملاك.

إيميت

استغرق إيميت نصف ساعة لكي يجد الطريق إلى بوابات ساحة الشحن. فبينما كان خطًا الركاب والشحن متلاصقين، كان كل منهما يعطي ظهره للآخر. لذلك، فرغم أن المسافة بين صالة هذا وصالة ذاك لا تتجاوز بضعة مئات من الياردات، كان عليك القيام بالتفافه طولها ميل كامل لكي تنتقل من مدخل إحدهما إلى مدخل الأخرى. في البداية، أخذ المسار إيميت بحذاء مجاز أنيق من المتاجر، لكنه بعدها عبر فوق الخطوط الحديدية إلى منطقة مسابك، وساحات خرده، وكراجات.

بعد أن جعل إيميت يتبع السياج السلكي الذي يحد ساحة القطارات، بدأ يشعر بهول المهمة الماثلة أمامه. فبينما لم تكن صالة الركاب تتسع لأكثر من بضعة مئات من المسافرين الذين يصلون أو يغادرون من هذه المدينة متوسطة الحجم يوميًا - كانت ساحة الشحن هائلة الامتداد. بمساحتها التي تزيد على خمسة فدادين، كانت تشتمل على ساحة استقبال، وساحة تبديل جرارات، وغُرَف قيادة، ومكاتب، ومناطق صيانة، بيد أن أكثر ما فيها كان عربات الشحن الصندوقيّة. المئات من تلك العربات. مصفوفة في خطوط مستقيمة، يعلوها الصدا، عربة بعد أخرى، وصف بعد آخر على مد البصر. وسواء كان مقررًا لها الاتجاه شرقًا أم غربًا، شمالًا أم جنوبًا، محمّلة أم فارغة، كانت تمامًا مثلما قد تتصورها بالحسّ السليم: غفلاً من الاسم، وغير متميزة.

كان مدخل الساحة يطلّ على شارع واسع تصطف على طولهِ المستودعات. وإذا اقترب إيميت، كان الشخص الوحيد في مرمى البصر رجلًا في منتصف العمر على كرسي متحرك متمركزًا بالقرب من البوابة.

حتى من تلك المسافة، رأى إيميت أن ساقيه قد بُترتا من فوق الركبة -مُصابَ حرب، ولا شك. إذا كانت نية هذا المحارب القديم أن يتكسَّب من طيبة الغرباء، فكَّر إيميت، كان الأجدر به أن يجلس أمام صالة الركاب. لكي يقيِّم إيميت الموقف، انتقل إلى الجانب الآخر من الطريق ليواجه البوابة، ووقف في مدخل بناية مهجورة. في مكان لا يبتعد كثيرًا وراء السياج، رأى مبنى من الطوب من طابقين في حالة جيدة نسبيًا. ذلك سيكون مقر مركز القيادة -الغرفة التي تضم الكشوفات والجداول. بسداجة، تخيل إيميت أنه سيتمكن من الانسلال إلى المبنى خلصة ليتسقط المعلومات التي يريدها من أحد الجداول المعلقة على أحد الجدران. لكن وراء البوابة مباشرة كان مبنى صغير يبدو شديد الشبه بمخفر.

بطبيعة الحال، عندما كان إيميت يعاين المبنى، توقفت شاحنة في المدخل فخرج لها رجلٌ بزي رسمي من المخفر ومعه كشف لكي يسمح بمقتضاه للشاحنة بالدخول. لن يكون هناك أي انسلال أو تسقط للمعلومات، هكذا فكَّر إيميت. سيكون عليه أن ينتظر المعلومات حتى تأتي إليه.

ألقي إيميت نظرة على ساعة مخلفات الجيش، التي أعاره بيلي إياها. كانت الحادية عشرة والربع. وإذ قدَّر أنه سيحظى بفرصته عندما تحين ساعة الغداء، أراح ظهره في ظلال المدخل ووقف يتحين الفرصة، وأفكاره ترجع إلى أخيه.

لدى دخول إيميت وبيلي صالة الركاب، كان انتباهًا شديدًا قد تبدَّى على وجه بيلي؛ جعل يتمعَّن في السقوف العالية وشبابيك التذاكر، في المقهى وماسح الأحذية وكشك الجرائد. قال: لم أرَ محطة قطارات من قبل.

-هل هي مختلفة عمَّا توقعته؟

-إنها مثلما توقعت تمامًا.

قال إيميت، بابتسامة: هيا. لنجلس هنا.

قاد إيميت شقيقه عبر منطقة الانتظار الرئيسية إلى زاوية هادئة فيها مقعد طويل شاغر.

خلع بيلي حقيبة ظهره، وجلس، ثم انزلق قليلاً ليفسح مكاناً لإيميت، غير أن إيميت لم يجلس.

-يجب أن أستعلم عن مواعيد القطارات إلى نيويورك يا بيلي. لكن الأمر قد يستغرق بعض الوقت. إلى أن أرجع، أريدك أن تعدني أن تبقى في مكانك.

-أوكيه يا إيميت.

-ضُغ في اعتبارك، هذه ليست مورغن. ستجد الكثير من الناس يأتون ويذهبون، كلهم غرباء. ربما الأفضل ألا تكلم أحداً.

-أنا فاهم.

-جيد.

-لكن إذا أردت معرفة مواعيد قطارات نيويورك، لماذا لا تسأل في شبّاك الاستعلامات؟ إنه هناك تحت الساعة.

عندما أشار بيلي، نظر إيميت وراءه إلى شبّاك الاستعلامات، ثم التحق بشقيقه على المقعد.

-بيلي، نحن لن نأخذ أحد قطارات الركب.

-ولمّ لا يا إيميت؟

-لأن كل نقودنا في الستادبيكر.

فكر بيلي في هذا الأمر، ثم مديده إلى حقيبة ظهره.

-نستطيع استخدام دولاراتي الفضية.

بابتسامة، أوقف إيميت يد شقيقه.

-لا نستطيع أن نفعل ذلك. أنت تجمعها منذ سنين. ولم يبق لك إلا القليل، صحّ؟

-إذاً، ماذا سنفعل يا إيميت؟

-سنأخذ توصيلة مجانية في أحد قطارات البضائع.

القواعد، بالنسبة لمعظم الناس، شرٌّ لا بُد منه، هكذا قدَّر إيميت. إنها مُناكدة يلزم الامتثال لها مقابل التمتع بامتياز العيش في عالم منظم. ولهذا السبب تجد معظم الناس، عندما يُتركون لأهوائهم، مستعدين لتوسيع حدود القاعدة. الإسراع في طريق خالٍ أو اختطاف تفاحة من بستان بلا حراسة. لكن عندما يتعلق الأمر ببيلي، لم يكن مجرد مُمثِّل للقواعد، بل كان متشدِّداً في التقيد بها. كان يسوِّي فراشه ويغسل أسنانه من دون أن يطلب منه أحد. يصرُّ على الوصول إلى المدرسة قبل الجرس الأول بخمس عشرة دقيقة، ويرفع يده دائماً في الفصل قبل أن يتكلم. على ذلك، كان إيميت قد فكَّر كثيراً كيف يصوغ كلماته، واستقر أخيراً على عبارة توصيلة مجانية، على أمل أن تخفَّف من أي هواجس ضميرية كانت ستُخامر شقيقه لا بُد. ومن التعبير المرتسم على وجه بيلي، عرفَ إيميت أنه أحسن الاختيار.

قال بيلي، وقد اتسعت عيناه قليلاً: مثل المتسللين؟

-صحيح، مثل المتسللين.

رَبَّتْ إيميت على ركبة شقيقه، ونهض من على المقعد واستدار ليمضي في طريقه.

-مثل دوقة ووولي في سيارة المأمور.

توقَّف إيميت واستدار.

-كيف عرفت بذلك يا بيلي؟

-دوقة أخبرني. أمس بعد الإفطار. كنا نتكلم عن «كونت مونت كريستو»⁽¹⁾ وكيف هرب إدmond دانتيس، المسجون ظلماً، من قلعة «شاتو ديف» بأن دخل في الكيس المخصَّص لجثة آبي فاريا وخيَّطه حول نفسه، لكي يحمله الحراس الغافلون ويخرجون به من بوابة السجن. وأوضح دوقة كيف أنه هو ووولي قد فعلا الشيء نفسه تقريباً. كيف أنهما، هما اللذان سُجنا ظلماً، قد اختبأ في صندوق سيارة المأمور وأخرجهما المأمور

(1) كونت مونت كريستو: رواية شهيرة من تأليف: ألكسندر دوما، ترجمة محمد آيت حنا، منشورات دار التنوير.

غافلاً من البوابة. الفارق أن دوقة ووولي لم يُلقَ بهما في البحر. أثناء ذلك، كان بيلي يتحدث بالحماسة نفسها التي سبق وأظهرها وهو يَصِفُ لسالي ما حدث في دار الأيتام - بما فيها من نافذة مكسورة وملاعق مبعثرة.

عاود إيميت الجلوس.
-بيلي، يبدو أنك تحب دوقة.
بادله بيلي النظر في حيرة وارتباك.
-ألا تحب دوقة يا إيميت؟
-أحبه. لكن كوني أحب شخصاً لا يعني أنني أحب كل ما يفعله هذا الشخص.

-مثل عندما تخلى عن فواكه سالي المحفوظة؟
ضحك إيميت.
-لا، ليست عندي مشكلة في ذلك. أقصد أشياء أخرى...
وإذ ظل بيلي يحدق فيه، بحث إيميت عن مثال مناسب.
-تذكر قصة دوقة عن الذهاب لمشاهدة الأفلام؟
-تقصد عندما كان يتسلل من نافذة الحمام ويهرول عبر حقول البطاطس.

-صحيح. طيّب، القصة فيها أكثر قليلاً مما حكاه دوقة. لم يكن مجرد مشارك عندما كان الأمر يتعلق بالتسلل إلى البلدة، بل كان المحرّض المدبّر. هو من كان يطرح الفكرة ويجمع عدداً من الآخرين كلما أراد أن يشاهد فيلماً. في أغلب الأحيان، يكون الأمر مثلما قال. إذا تسللوا إلى الخارج ليلة سبت حوالي الساعة التاسعة، يمكنهم الرجوع قبل الواحدة صباحاً، بلا حسٍّ ولا خبر. لكن ذات ليلة، كان دوقة متلهفاً على مشاهدة فيلم جديد من أفلام الغرب من بطولة جون واين. ولما كانت قد ظلت تُمطر طوال الأسبوع وبدا أنها قد تمطر المزيد، لم يستطع إقناع أحد بالذهاب معه إلا تاونهاوس، زميلي في السرير ذي الطابقين. وبينما هما في

منتصف الحقول، بدأت الأمطار تنهمر. ومع أن ملابسهما كانت تتخضّل بالمياه وحذاءاهما يعلقان في الوحل، واصلاً التقدم. لكن عندما وصلا إلى النهر أخيراً، الذي كان منسوبه يعلو بسبب المطر، جلس دوقه مكانه وتخلّى عن الفكرة برمتها. قال إنه برداًن جدّاً، مبلّل جدّاً، متعب جدّاً، ولا يستطيع المضي أبعد من ذلك. أمّا تاونهاوس، ففكر أنه لن يتراجع بعد أن بلغ ذلك الحد. لذا، قطع النهر سباحة، تاركاً دوقه وراءه.

كان بيلى يومئ برأسه وإيميت يتكلّم، وقد قطّب جبينه في انتباه. -كل ذلك كان يمكن أن يمر بخير، لكن بعد أن غادر تاونهاوس، قرر دوقه أنه مبلّل جدّاً، وبردان جدّاً، ومتعب جدّاً، ولا يستطيع الرجوع على قدميه كل ذلك الطريق إلى العنابر. وهكذا، خرج إلى أقرب طريق، واستوقف سيارة «بيك آب» كانت تمر، وطلب من سائقها توصيلةً إلى مطعم صغير على الطريق. المشكلة الوحيدة أن سائق الـ«بيك آب» كان شرطياً خارج ساعات العمل. وبدلاً من أن يأخذ دوقه إلى المطعم، أخذه إلى المأمور. وعندما رجع تاونهاوس في الواحدة صباحاً، كان الحراس في انتظاره. -وهل عوقب تاونهاوس.

-نعم يا بيلى. عوقب عقاباً شديداً. ما لم يقله إيميت لشقيقه أن المأمور أكرلي كانت لديه قاعدتان بسيطتان عندما يتعلق الأمر بالمخالفات المتعمّدة. القاعدة الأولى أنك تستطيع دفع الثمن بالأسابيع أو الضربات. تدخل في مشجرة داخل قاعة الطعام فإمّا أن تضاف ثلاثة أسابيع إلى مدة عقوبتك أو تتلقى ثلاث جلادات على ظهرك. أمّا قاعدته الثانية فكانت كالتالي: بما أن قدرة الأولاد «الزئوج» على التعلّم تبلغ نصف قدرة الأولاد البيض، فيجب أن تكون دروسهم أطول بمرتين. لذلك، بينما عوقب دوقه بأربعة أسابيع أضيفت إلى مدة عقوبته، تلقى تاونهاوس ثماني جلادات من الكرباج -هناك، أمام قاعة الطعام بينما اصطف الجميع ليشاهدوه.

-بيت القصيد، يا بيلى، أن دوقه مفعم بالطاقة والحماسة والنيات الطيبة

أيضًا. غير أن طاقته وحماسه تقفان أحيانًا حائلًا أمام نواياه الطيبة، وعندما يحدث ذلك تقع العواقب غالبًا على شخص آخر.

كان إيميت قد تمنى أن تدفع هذه الذكرى ببلي للتفكير بعض الشيء، ومن التعبير المرتسم على وجه ببلي بدا أنه أصاب الهدف.

قال ببلي: -هذه قصة حزينة.

وقال إيميت: -هي كذلك.

-تجعلني أشعر بالأسف على دوقه.

نظر إيميت إلى شقيقه متفاجئًا.

-لماذا يا ببلي؟ إنه هو من وضع تاونهاوس في ورطة.

-لكن هذا لم يحدث إلا لأن دوقه لم يعبر النهر عندما كان منسوبه مرتفعًا.

-هذا صحيح. لكن لماذا يجعلك ذلك تشعر بالأسف عليه؟

-لأنه لا بُدَّ لا يعرف السباحة يا إيميت. وخجل من الاعتراف بذلك.

تمامًا مثلما توقع إيميت، بُعيدَ الظهر بدأ بعض موظفي السكك الحديدية يخرجون من البوابة في طريقهم لتناول الغداء. وإذ جعل إيميت يراقبهم، لاحظ أنه أخطأ تمامًا في تقديره للمكان الذي ينبغي أن يتركز فيه المحارب القديم. كان كل من يخرج تقريبًا يعطيه شيئًا -نكلة، أو دايم، أو كلمة طيبة.

فهم إيميت أن الرجال الذين يخرجون من المبنى الإداري هم على الأغلب من يمتلكون المعلومات التي يحتاج إليها. هم المسؤولون عن وضع الجداول وتوجيه الحركة، وهم من سيعرفون أيَّ عربات سوف تُلحق بأي قطارات في أي أوقات وإلى أين ستتجه. غير أن إيميت لم يقترب منهم. عوضًا عن ذلك، انتظر آخرين: عمال المكابح وعمال الشحن والميكانيكيّة -الرجال الذين يعملون بأيديهم ويتقاضون أجورهم بالساعة. غريزيًا، عرف إيميت أن أولئك الرجال هم من قد يرون فيه نسخة

من أنفسهم، وإذا لم يغمرهم التعاطف، على الأقل لن يعبأوا كثيرًا بتذكرة أخرى تذهب إلى خزانة السكك الحديدية. لكن إذا كانت الغريزة أخبرت إيميت أن هؤلاء هم الرجال الذين ينبغي أن يقترب منهم، فقد أخبره العقل أن ينتظر شاردًا يسير وحيدًا، فصحيح أن العامل الكادح قد يكون مستعدًا للّي القواعد لأجل خاطر شخص غريب، لكنه ربما يُحجم عن ذلك إن كان وسط رفقة من آخرين.

كان على إيميت أن ينتظر قرابة نصف ساعة قبل أن تسنح له أول فرصة -عامل وحيد في بنطال جينز و«تي شيرت» أسود بدا لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر. وإذا توقف الشاب ليشعل سيجارة، عبرَ إيميت الشارع. وقال: بعد إذنك.

نترَ الشاب عود الثقاب ليُطفئه، ورمى إيميت بنظرة سريعة، لكنه لم يرد. استرسل إيميت في القصة التي كان قد لَفَّقها، فشرح له كيف أن له عمًا مهندسًا من «كنساس سيتي»، كان من المفترض أن يتوقف في لويس في وقت ما عصر ذلك اليوم على متن قطار بضائع متجه إلى نيويورك، لكن إيميت لم يستطع تذكر أي قطار كان، أو موعد وصوله.

عندما رأى إيميت هذا الشاب لأول مرة، تخيل أن قربهما في السن سيلعب لصالحه. لكن فور أن بدأ في الكلام، أدرك أنه أخطأ في ذلك أيضًا. بدا التعبير على وجه الشاب طاردًا لإيميت مثلما يمكن لتعبير مرتسم على وجه شاب.

قال، بابتسامة ملوئية: -أنت تمزح. عمٌ من كنساس سيتي. تخيل ذلك! سحبَ الشاب نفسًا ونترَ سيجارته غير المنتهية في الشارع. -لماذا لا تصنع لنفسك معروفًا، يا فتى، وتذهب إلى بيتك. ماما تتساءل أين أنت.

عندما مضى الشاب يتسكع في حال سبيله، التقت عينا إيميت بعيني الشحاذ، الذي ظل يراقبه طوال الحديث. حوّل إيميت أنظاره إلى المخفر ليرى إن كان الحارس يراقب بدوره، لكنه كان مسترخيًا في كرسيه يقرأ صحيفة.

الآن، خرج رجلٌ أكبر سنًا في «أفرو» ووقف يتبادل بضع كلمات ودودة مع الشحاذ. كان الرجل يعتمر طاقية أزاحت إلى الوراء على رأسه بطريقة تجعلك تتساءل لماذا اعتمرها أصلاً. عندما بدأ يمضي في طريقه، اقترب منه إيميت.

إذا كان القربُ في السن مع الرجل الأول قد مثلَّ عقبة، قرر إيميت أن يستغل الفارق في السن مع الرجل الثاني أفضل استغلال. قال بأدب: -بعد إذنك يا سيدي.

استدار الرجل ونظر إلى إيميت بابتسامة ودود. -هيه، يا ولدي. كيف أخدمك؟

بينما جعل إيميت يكرر قصة عمّه، أخذ الرجل في الأفرول ينصت باهتمام، بل ويميل إلى الأمام قليلاً وكأنه لا يريد أن يفوت كلمة واحدة. لكن فور أن انتهى إيميت، هز رأسه.

-كنت أتمنى أن أساعدك يا زميلي، لكنني أصلحها فقط، لا أسأل إلى أين تتجه.

وإذ تابع الميكانيكي طريقه، بدأ إيميت يتقبل فكرة أنه بحاجة إلى خطة عمل جديدة تمامًا. -هيه، أنت!

سمع إيميت صوتاً يناديه، فاستدار ليجده الشحاذ. قال إيميت، وهو يُخرج جيبي بنطاله: أنا آسف. ليس معي أي شيء لك.

-لم تفهمني يا صاحبي. أنا الذي لدي شيء لك. وإذ تردّد إيميت، تقدم الشحاذ بكرسيه المتحرك ليقرب منه. -أنت تريد أن تنطّ في قَطْر بضائع⁽¹⁾ متجه إلى نيويورك. صحّ؟ أظهر إيميت قدرًا من الدهشة.

-أنا فقدتُ ساقِي، لا أذني! لكن اسمع: إذا كنت تحاول أن تنطّ في

(1) سلاحظ أن المؤلف يستخدم كلمات عاميّة في سياق الحوار. (م)

قَطْر، فأنت تسأل الأشخاص الخطأ. جاكسون لن يكلف نفسه ويدوس على رجلك إذا رأى النار تُمسك فيها. ومثلما يقول آرنى، إنه يصلحها فقط. وهو ليس أمر بسيط، انتبه، لكنه يتعلّق بكيف يسير القَطْر؛ ولا يتعلّق بإلى أين يسير. لذلك، لا فائدة من سؤال جاكسون أو آرنى. لا، سيادتكم. إذا أردت أن تعرف كيف تنظّ في قَطْر إلى نيويورك، فالرجل الذي يجب أن تتكلّم معه هو أنا.

لا بدّ أن التشكك ظهر على وجه إيميت، لأن الشحاذ ابتسم ابتسامة واسعة وأشار بإبهامه إلى صدره.

-أنا عملت في السكك الحديدية خمسة وعشرين عام. خمس عشرة عام كعامل مكابح وعشرة في ساحة التبديل هنا في لويس. كيف تظنني فقدت ساقَيّ؟

أشار إلى حجره بابتسامة أخرى. ثم نظر إلى إيميت من فوق إلى تحت، وإن بطريقة ألطف من طريقة العامل الشاب.

-كم سنّك؟ ثمانية عشر؟

قال إيميت: -هذا صحيح.

-صدّق أو لا تصدّق. أنا بدأت أركب السكة الحديد عندما كنت أصغر منك ببضع سنين. في تلك الأيام، كانوا يقبلون بك إذا كنت في السادسة عشرة، ربما في الخامسة عشرة، إذا كنت أطول من سنّك.

هز الشحاذ رأسه بابتسامة حنين، ثم أراح ظهره إلى الوراء مثل رجل يجلس في كرسيه المفضل في غرفة المعيشة، وظهر عليه الاسترخاء.

-بدايتي كانت على خطوط «يونيون باسيفيك» وعملت على الممر الجنوبي الغربي لسبعة أعوام. وقضيت ثمانية أعوام أخرى أعمل على «سكك حديد بنسلفانيا» -الأكبر في البلاد. في تلك الأيام، كنت أتحرّك أكثر مما أقف. ووصلت الأمور إلى حد أنني عندما أكون في البيت، عندما أخرج من الفراش في الصباح أشعر وكأن البيت كله يدور تحت قدميّ. ويصير عليّ أن أتشبّث بقطع الأثاث لأستطيع السير إلى الحَمَّام.

ضحك الشحاذ وهز رأسه ثانية.

-نعم. «بنسلفانيا». «برلنغتون». «يونيون باسيفيك» و«غريت نورثرن». أعرف كل الخطوط.

ثم لاذ بالصمت. شجعه إيميت بلطف: كنت تتكلم عن قطار إلى نيويورك.

-صحيح. «التفاحة الكبيرة»!⁽¹⁾ لكن هل أنت واثق من موضوع نيويورك؟ المشكلة في ساحة البضائع أنك تستطيع الذهاب إلى أي مكان يخطر ببالك، وكثير من الأماكن التي لم تخطر ببالك. فلوريدا. تكساس. كاليفورنيا. ماذا عن سانتافي؟ هل ذهبت إلى هناك من قبل؟ هذه بلدة تستحق. في هذا الوقت من السنة يكون الطقس دافي في النهار ولطيف في الليل، وهناك ستقابل ألطف «سنيوريتات»⁽²⁾ في حياتك.

وإذ بدأ الشحاذ يضحك، خشي إيميت أن يضع خيط محادثتهما ثانية، فقال: سأحب أن أذهب إلى سانتافي في وقت ما، لكن في الوقت الحالي، يجب عليّ الذهاب إلى نيويورك.

توقف الشحاذ عن الضحك وارتسم على وجهه تعبير أكثر جدية. -طيب، هذه هي الحياة باختصار، أليست كذلك؟ تحب أن تذهب إلى مكان وتضطر إلى أن تذهب إلى مكان آخر.

نظر الشحاذ عن يمينه وعن يساره، ثم دفع كرسيه ليقرب أكثر. -أعرف أنك كنت تسأل جاكسون عن قَطْر بعد الظهر إلى نيويورك. الآن، سيكون هذا قَطْر «إمباير سبيشيال» الخصوصي، الذي يغادر في الواحدة وخمسة وخمسين، وهو قَطْر جميل. يجري بسرعة تسعين ميل في الساعة ولا يقف إلا ستّ مرات، تستطيع أن تصل إلى المدينة في أقل من عشرين ساعة. لكن إذا كنت تريد الوصول إلى نيويورك، لن ترغب في

(1) التفاحة الكبيرة The Big Apple: اسم يطلق على مدينة نيويورك. (م)

(2) سنيوريتات، جمع سنيوريتاً (سيدة بالأسبانية). (م)

ركوب «إمباير سبيشال». لأنه عندما يصل إلى شيكاغو، يأخذ حمولة عربية كاملة من السندات المدفوعة لحاملها المتجهة إلى وولستريت. ولا ينطلق بأقل من أربعة حراس مسلحين، وعندما يقررون إخراجك من القطر، لن ينتظروا حتى يتوقف في محطة.

رفع الشحاذ رأسه في الهواء.

-الآن، «ويست كوست بريشابلز»، يمر بلويس في السادسة. وهو ليس ركوبة سيئة. لكن في هذا الوقت من السنة، سيكون مملوء لحافته وسيكون عليك أن تركبه في ضيِّ النهار. لذلك لن تريد «بريشابلز» أيضاً. ما تريده هو «صَنِست إيست»، الذي سيمر بلويس بعد منتصف الليل بقليل. وأستطيع أن أخبرك بالضبط كيف تعتليه، لكن قبل أن أفعل ذلك، سيكون عليك أن تجيب عن سؤال واحد.

قال إيميت: تفضّل.

ابتسم الشحاذ ابتسامة واسعة: ما الفارق بين طن من الدقيق وطن من المقرمشات؟

عندما عاد إيميت إلى صالة الركاب، ارتاح قلبه لرؤية بيلي حيث تركه -جالساً على المقعد الطويل وإلى جواره حقيبة ظهره وفي حجره كتابه الأحمر الكبير.

عندما انضم له إيميت، رفع بيلي رأسه بقدر من الإثارة.

-هل عرفت أيّ قطار سنأخذه لأجل التوصيلة المجانية يا إيميت؟

-عرفت يا بيلي. لكنه لا يتحرك إلا بعد منتصف الليل بقليل.

أوماً بيلي برأسه ليُبدي موافقته، وكأن بعد منتصف الليل بقليل هو التوقيت المناسب لتحركه.

قال إيميت، وهو يخلع ساعة يد أخيه: -تفضل.

قال بيلي: -لا. ارتديها أنت الآن. نحتاج إلى متابعة الوقت.

بينما يعيد إيميت ربط حزام الساعة حول معصمه، لاحظ أنها تقترب

من الثانية. قال:- أنا أتضوّر جوّعًا. ربما آخذ جولة وأرى إن كنت أستطيع تدبير شيء نأكله.

-لست مضطرًا لتدبير شيء يا إيميت. غداؤنا معي.

مد بيلي يده في حقيبة ظهره وأخرج زمزميته، ومنديلين ورقّيين، وشطيرتين ملفوفتين في ورق الشمع، لفّةً محكمة مشدودة الحواف. ابتسم إيميت، وهو يقول في نفسه إن سالي تلف شطائرهما بالأناقة التي تسوّي بها أسرتها.

قال بيلي:- واحدٌ لحم بقري مشوي وواحد لحم خنزير. لا أتذكر إن كنت تحب اللحم البقري أكثر من لحم الخنزير، أم لحم الخنزير أكثر من اللحم البقري، لذا قررنا أن آخذ واحدًا من هذا وواحدًا من ذاك. كلاهما عليه جبن، لكن فقط اللحم البقري عليه مايونيز.

قال إيميت:- سأخذ اللحم البقري.

فصّ الأخوان غلاف الشطيرتين وتناولوا قضمّةً كبيرة. فقال إيميت: بارك الله في سالي.

هزّ بيلي رأسه موافقًا على ما قاله إيميت، لكنه بدا مستغربًا من توقيت الملاحظة. رفع إيميت شطيرته في الهواء. فقال بيلي:- أوه. الشطيرتان ليستا من سالي.

-ليستا منها؟

-إنهما من مسز سِمبسونز.

تجمّد إيميت للحظة والشطيرة في الهواء، بينما تناول بيلي قضمّة أخرى.

-من هي مسز سِمبسونز يا بيلي.

-السيدة اللطيفة التي جلست بجانبني.

-جلست بجانبك هنا؟

أشار إيميت إلى المكان الذي كان يجلس فيه.

-لا. جلست بجانبني هنا.

قالها بيلى وهو يشير إلى المكان الخالى عن يمينه.

-هي من أعدت هاتين الشطيرتين؟

-اشترتهما من المقهى، ثم عادت بهما لأنى قلت لها إنى يجب أن ألزم

مكانى.

وضع إيميت شطيرته على المقعد.

-لا ينبغى أن تقبل الشطائر من الغرباء يا بيلى.

-لكنى لم أقبل الشطائر عندما كنا غرباء يا إيميت. قبلتها عندما صرنا

أصدقاء.

أغمض إيميت عينيه للحظة. ثم قال، بالطف ما يستطيع: بيلى، لا يمكن أن تصير صديقاً لشخص بأن تتكلم معه في محطة قطار. حتى إذا قضيتما ساعة معاً جالسَيْن على المقعد نفسه، لن يعرف أيُّ منكما شيئاً عن الآخر. وصوب له بيلى: أعرف الكثير عن مسز سيمبسونز. أعرف أنها نشأت على أطراف أوتوموا، أيوا، في مزرعة تشبه مزرعتنا، ولو أنهم لم يزرعوا إلا الذرة ولم تُصادر مزرعتهم أبداً. ولديها ابتتان، واحدة تعيش في سان لويس وواحدة تعيش في شيكاغو. والواحدة التي تعيش في شيكاغو، واسمها ماري، على وشك أن تلد طفلاً. أول أطفالها. ولهذا السبب كانت مسز سيمبسونز هنا في المحطة. لتأخذ قطار «إمباير سيشيال» إلى شيكاغو لكي تتمكن من مساعدة ماري في العناية بطفلها. ومستر سيمبسونز لم يستطع الذهاب لأنه رئيس «نادي ليونز» وسيرأس عشاء ليلة الخميس.

رفع إيميت يديه إلى أعلى.

-طيب يا بيلى. أرى أنك عرفت الكثير عن مسز سيمبسونز. لذلك ربما

لم تعودا غريبين بمعنى الكلمة. حدث بينكما قليل من التعارف. لكن هذا لا يجعلكما صديقين. لكي تصبحا صديقين لا تكفى ساعة أو ساعتين. يحتاج ذلك إلى فترة أطول. أوكيه؟

-أوكيه.

رفع إيميت شطيرته وتناول قزمة أخرى.

وسأله بيلي: - كم؟

ابتلع إيميت اللقمة. وتساءل: كم؟

- كم تحتاج من الوقت للكلام مع أحد الغرباء قبل أن تصير صديقين.

لبرهة، فكر إيميت في أن يخوض في تفاصيل العلاقات وتطورها عبر

الزمن. لكنه، عوضاً عن ذلك، قال: - عشرة أيام.

فكر بيلي في هذا للحظة، ثم هز رأسه.

- عشرة أيام تبدو وقتاً طويلاً جداً للانتظار حتى يصير الناس أصدقاء يا

إيميت.

واقترح إيميت: - ستة أيام؟

قضم بيلي قضمة وأخذ يمضغ وهو يفكر، ثم أوماً برأسه في رضا،

وقال: - ثلاثة أيام.

قال إيميت: - طيّب. سنتفق على أننا نحتاج إلى ثلاثة أيام على الأقل

لكي يصبح الشخص صديقاً. لكن قبل ذلك سنفكر فيه بوصفه غريباً.

قال بيلي: - أو من المعارف.

- أو من المعارف.

عاد الأخوان للأكل.

أوماً إيميت برأسه تجاه الكتاب الأحمر الكبير، الذي كان بيلي قد

وضعه في المكان الذي احتلته مسز سيمبسونز.

- ما هذا الكتاب الذي تقرأه؟

- «الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من الرخالة

البواسل»، للبروفيسور أليكوس أبرناثي.

- يبدو مقنعاً. هل لي أن ألقى نظرة؟

بمسحة قلق، نظر بيلي من الكتاب إلى يدي أخيه ثم إلى الكتاب مجدداً.

وضع إيميت شطيرته على المقعد، ومسح يديه بحرص في المنديل.

بعدها، ناوله بيلي الكتاب.

وإذ كان إيميت يعرف أخاه جيداً، لم يفتح الكتاب على صفحة عشوائية

في المنتصف. بل بدأ من البداية - من أوّل البداية - بأن فتح على الغلاف الداخلي. وخيرًا فعل. إذ بينما كان غلاف الكتاب الخارجي أحمر مصمّمًا بعنوان ذهبي، كان يحتل الغلاف الداخلي رسمٌ لخريطة تفصيلية للعالم تتخللها تشكيلة من الخطوط المنقّطة. وكان كل خط مميزًا بحرف من الحروف ويشير، على الأرجح، إلى مسار مغامرة مختلفة.

بيلي، الذي كان قد وضع شطيرته ومسح يديه بمنديله هو الآخر، ترحّح قليلًا بالقرب من إيميت لكي يتمكن من قراءة الكتاب معًا - تمامًا مثلما كان يفعل عندما كان أصغر سنًا وإيميت يقرأ له من كتاب مصوّر. وتماّمًا مثل تلك الأيام، نظر إيميت إلى بيلي ليرى إن كان مستعدًا لكي يستمر. ولدى إيماءة بيلي، قلب إيميت إلى صفحة العنوان، حيث فوجئ بوجود إهداء.

إلى بيلي واطسن الباسل،
مع تمنياتي بكل أنواع الأسفار والمغامرات،
إلاي ماثيسن

مع أن الاسم بدا مألوفًا على نحو غامض، لم يستطع إيميت تذكر من هي إلاي ماثيسن. ولا بُد أن بيلي استشعر فضول شقيقه، لأنه وضع إصبعًا بلطف على توقيعها.
-أمينة المكتبة.

بالطبع، فكّر إيميت. صاحبة النظّارة التي تكلمت عن بيلي بمودة كبيرة. قلب إيميت الصفحات، فقابل فهرس المحتويات.

Achilles	Boone
Ceasar	Dantès
Edison	Fogg
Galileo	Hercules
Ishmael	Jason
King Arthur	Lincoln

Magellan	Napoleon
Orpheus	Polo
Quixote	Robin Hood
Sindbad	Theseus
Ulysses	da Vinci
Washington	Xenos
You	Zorro ⁽¹⁾

قال بيلي: -إنها مرتبة هجائيًا.

بعد لحظة، عاد إيميت إلى الغلاف الداخلي ليقارن بين أسماء الأبطال والحروف الملحقة بالخطوط المنقطة المختلفة. نعم، هكذا فُكِّر، لدينا ماجلان يبحر من إسبانيا إلى جزر الهند الشرقية، ونابليون يزحف إلى روسيا، ودانيال بون يستكشف براري كنتاكي.

بعد أن ألقى إيميت نظرة سريعة على المقدمة، بدأ يقلّب في فصول الكتاب الستة وعشرين، وكل منها طوله ثماني صفحات. وبينما كان كل فصل يقدم لمحة عن صبا أحد الأبطال، كان التركيز الرئيسي على مآثره، وإنجازاته، وما تركه من إرث. فهم إيميت السبب الذي جعل شقيقه يرجع إلى هذا الكتاب مرة بعد مرة، لأن كل فصل كان يضم تشكيلة من الخرائط والرسوم التوضيحية المصمّمة لإيقاع السحر في النفوس: مثل مخطط آلة الطيران الخاصة بدافينشي وخريطة المتاهة التي حارب فيها ثيسوس المينوتور.

مع اقترابه من نهاية الكتاب، توقف إيميت عند صفحتين بيضاوين.

(1) فضلنا وضع الأسماء بالإنكليزية للحفاظ على ترتيبها الهجائي، وهي كالتالي: «أخيل، بون، قيصر، دانتي، إديسون، فوغ، غاليليو، هركيوليس، إسماعيل، جيسون، الملك آرثر، لينكون، ماجلان، نابليون، أورفيوس، بولو، كيخوته، روبن هود، سندباد، ثيسوس، يوليسوس، دافينشي، واشنطن، زينوس (الغريب/الأجنبي)، أنت، زورو». (م)

- يبدو أنهم نَسُوا طباعة أحد الفصول.

- أَنْتَ فَوَّتْ صفحة.

مد بيلى يده، وقلب الصفحة إلى الوراء. هنا مجددًا كانت الصفحتان

بيضاوين، باستثناء اسم الفصل في الركن الأعلى الأيسر: أَنْتَ

لمس بيلى الصفحة الخالية بمسحةٍ من إجلال.

- هنا يدعوك البروفيسور أبرناثي إلى تسجيل قصة مغامرتك الخاصة.

قال إيميت، بابتسامة: - أظنك لم تحقّق مغامرتك بعد.

- أظننا فيها الآن.

- ربما تستطيع أن تبدأ في تسجيلها بينما ننتظر القطار.

هزَّ بيلى رأسه. ثم قلب الصفحات طيلة الطريق رجوعًا إلى الفصل

الأول وقرأ الجملة الافتتاحية: من المناسب أن نبدأ مغامراتنا بقصة «أخيل

سريع القدمين»، الذي خلّد هوميروس مآثره القديمة في قصيدته الملحمية،

«الإلياذة».

رفع بيلى رأسه عن كتابه ليشرح.

- بدأت أسباب حرب طروادة بـ «اختيار باريس». فبعد أن شعرت ربّة

الشقاق بالغضب كونها لم تُدعَ إلى وليمة على جبال الأوليمب، ألقت

بتفاحة ذهبية على المائدة كتبت عليها إلى جميلة الجميلات. وعندما طالبت

كل من أثينا، وهيرا، وأفروديت بالتفاحة بوصفها حقّها، أرسلهن زيوس

إلى الأرض، حيث اختير باريس، الأمير الطروادي، لحسم الخلاف.

أشار بيلى إلى رسم إيضاحي لثلاث نساء بأردية مسترسلة على

أجسادهن وقد تجمّعن حول شاب جالس تحت شجرة.

- ولكي يؤثّرَن في باريس، عرضت عليه أثينا الحكمة، وعرضت

عليه هيرا القوة، وعرضت عليه أفروديت أجمل امرأة في العالم، هيلين

الإسبرطية، زوجة الملك مينلاوس. عندما اختار باريس أفروديت، ساعدته

على اختطاف هيلين وإخفائها، ما أثار نائرة مينلاوس فأعلن الحرب. لكن

هوميروس لم يبدأ القصة من البداية.

حرك بيلي إصبعه إلى الفقرة الثالثة وأشار إلى عبارة لاتينية من ثلاث كلمات.

-بدأ هوميروس قصته in medias res، بمعنى «في منتصف الشيء». بدأ في السنة التاسعة من الحرب حيث البطل، أخيل، يلوك أحقاده في خيمته. ومن وقتها، صارت تلك الطريقة التي تُسرَد بها الكثير من أعظم قصص المغامرات.

رفع بيلي رأسه إلى شقيقه.
-أنا واثق أننا في مغامرتنا يا إيميت. لكنني لن أستطيع أن أبدأ في تسجيلها إلى أن أعرف أين منتصفها.

دوقة

كنا أنا وولي راقدين على سريرينا في أحد موتيلات «هوجو» على مبعدة نحو خمسين ميلاً غرب شيكاغو. عندما مررنا بأول «هوجو»، بعد عبور المسيسيبي مباشرة إلى إلينوي، أبدى ولي إعجابه بالسقف البرتقالي والبرج الأزرق المستدق. وعندما مررنا بالثاني، عاد ليدير رأسه إليه فجأة - وكأنه ظن أن عينيه تخدعانه، أو أنني فقدت الاتجاهات بطريقة ما. قلت: لا تقلق. إنه «هوارد جونسون».

- هوارد من؟

- مطعم وموتيل للسيارات يا ولي. إنها في كل مكان، وكلها متشابهة. - كلها؟

- كلها.

عندما كان ولي في السادسة عشرة من عمره، كان قد ذهب إلى أوروبا خمس مرات على الأقل. ذهب إلى لندن وباريس وفيينا، حيث تجوّل في صالات المتاحف وحضر عروض الأوبرات وصعد إلى قمة برج إيفل. لكن في أرضه وفي بلاده، كان قد قضى معظم وقته يتنقل ذهاباً وإياباً بين شقة في بارك أفينيو، والبيت في الأديرونداك، وردحات ثلاث مدارس داخلية ثانوية في نيو إنغلاند. ما لم يعرفه ولي عن أمريكا كان يمكن أن يملأ الأخدود العظيم.

نظر ولي من فوق كتفه لدى مرورنا بمدخل المطعم.

- ثمانية وعشرون نكهة للآيس كريم.

هكذا قرأ بقدر من الدهشة.

لذا عندما بدأ الوقت يتأخر وصرنا متعبين وجائعين، ورأى ولي أول برج أزرق فاتح مستدق يُلوح في الأفق، لم يكن هناك مفر.

كان وولي قد قضى الكثير من الليالي في فنادق، لكن ليس في أمثال «هوارد جونسونز». عندما دخلنا الغرفة، جعل يتفحصها مثل محقق خاص من كوكب آخر. فتح الخزانات، واندesh، إذ وجد مكواة ولوحًا للكي. فتح دُرج طاولة الفراش، واندesh حين وجد نسخة من الكتاب المقدس. وعندما دخل الحمام، خرج على الفور حاملاً قطعتي صابون صغيرتين. -إنهما ملفوفتان، كل واحدة على حدة.

فور أن استقرّينا، شغل وولي التلفزيون. عندما جاءت الإشارة، ظهر «لون رينجر»⁽¹⁾، يعتمر قبعة أكبر وأكثر بياضاً حتى من قبعة الشيف بوياردي. كان يتكلم إلى كاوبوي شاب، يعطيه محاضرة في الصدق، والعدل، والأسلوب الأمريكي. وكنت ترى أن صبر الكاوبوي ينفد، لكن في اللحظة التي كاد فيها أن يمد يده إلى مسدسه ذي الخزنة السادسة، حوّل وولي القناة.

الآن كان الرقيب «جو فرايدي»، في بدلة وقبعة فيدورا يلقي الخطبة نفسها بالضبط على شقيّ يُصلح دراجته البخارية. كان صبر الشقيّ ينفد أيضاً. لكن في اللحظة التي بدا فيها أنه يتهاى لرفع مفكّ البراغي ليضرب به الرقيب فرايدي على أمّ رأسه، حوّل وولي القناة. هانحن من جديد، هكذا فكرتُ.

بطبيعة الحال، ظل وولي يغير القناة إلى أن وجد إعلاناً. ثم بعد أن خفض الصوت حتى كتمه تماماً، رفع وسادتيّ يسندهما إلى لوح السرير واسترخى في رقاذه.

أليس وولي النموذجي؟ في السيارة فُتن بصوت الإعلانات من دون أيّ صور. الآن أراد أن يشاهد صور الإعلانات من دون أصواتها. وعندما انتهى الفاصل الإعلاني، أطفأ وولي نور سريريه وانزلق ليتمكن من وضع يديه وراء رأسه والتحديث في السقف.

(1) لون رينجر Lone Ranger: شخصية خيالية أمريكية لراعي بقر مقنّع يحارب الشر. (م)

كان وولي قد تناول بضع قطرات أخرى من الدواء بعد العشاء وقدَّرتُ أنها ستمارس سحرها عليه في هذا التوقيت. لذا فوجئت بعض الشيء عندما وجدته يخاطبني.
-هيه يا دوقه.

قالها وهو لا يزال ينظر إلى السقف.

-نعم يا وولي؟

-في ليلة السبت في الثامنة ونحن نجلس أنا وأنت وإيميت وبيلي حول الطاولة بجوار صندوق الموسيقى، مَنْ أيضًا سيكون هناك؟
استلقت على ظهري، ورفعت رأسي إلى السقف أنا أيضًا.

-في ليونيللوز؟ دعنا نرى. في ليلة السبت سيكون لديك بعض الرؤوس الكبيرة من مجلس البلدية. ملاكم وبعض رجال العصابات. ربما جو ديماجيو ومارلين مونرو، إذا تصادَف وكانا في المدينة.

-كلهم سيكونون في ليونيللوز في نفس الليلة؟

-هذا ما يحدث، يا وولي. تَفْتَح مكانًا لا يستطيع أحد دخوله، فتجد الجميع يتسابقون عليه.

فكر وولي في هذا لدقيقة.

-وأيّن يجلسون؟

أشرت إلى مكانٍ في السقف.

-رجال العصابات في المقصورة المجاورة للعمدة. والملاكم هناك بجوار البار يأكل المحار بصحبة مغنيّة ما. والزوجان ديماجيو إلى الطاولة المجاورة لطاولتنا. لكن هاكّ الجزء الأهم يا وولي. هناك في المقصورة المجاورة لباب المطبخ رجلٌ صغير زحف الصَّلَع على رأسه في بدلة مقلّمة يجلس بمفرده.

قال وولي: -أراه. مَنْ هو؟

-ليونيللو براندوليني.

-تقصد صاحب المطعم.

-هو بنفسه.

-ويجلس بمفرده؟

-بالضبط. على الأقل في الشطر الأول من المساء. عادةً، يستقر في مكانه حوالي الساعة السادسة قبل أي شخص آخر في المكان. يأكل لقمة ويشرب كأسًا من نبيذ كياتي. يراجع الحجوزات وربما يستقبل مكالمات على أحد تلك الهواتف طويلة السلك التي يستطيعون نقلها إلى طاولتك. لكن حوالي الثامنة، عندما تبدأ الدممة في المكان، يجرع «دابل اسبريسو» ويبدأ في الانتقال من طاولة إلى طاولة. كيف حال الجميع الليلة؟ يقول، بينما يرّبت على كتف أحد الزبائن. سعيدٌ برؤيتك ثانية. أنت جائع؟ أتمنى ذلك. لأن لدينا الكثير من الطعام. وبعد أن يطري على السيدات بوضع مجاملات، يشير إلى ساقى البار. هيه، ياروكو، جولة أخرى هنا لأصدقائي. ثم يمضي إلى الطاولة التالية، حيث المزيد من التريبات على الأكتاف، والمزيد من المجاملات للسيدات، وجولة أخرى من المشروبات. أو ربما -هذه المرة- طبق من الكالاماري، أو بعض قطع من كيك التيراميسو. بأي حال، كله على حساب المكان. وعندما ينتهي ليونيللو من جولاته، سوف يشعر كل من في المكان -وأقصد الجميع، من العُمدة إلى مارلين مونرو- وكأن الليلة مميزة عن غيرها.

ظل وولي صامتًا، يعطي اللحظة اعتبارها المستحق. بعدها، أخبرته بشيء لم يسبق أن قلته لأي إنسان من قبل.

-هذا ما سأفعله يا وولي. هذا ما سأفعله، لو كانت معي خمسين رزمة.

سمعته ينقلب على جنبه لكي ينظر إليّ.

-تحصل على طاولة في ليونيللوز؟

ضحكت.

-لا يا وولي. بل أفتح ليونيللوز الخاص بي. مطعم إيطالي صغير بمقصورات جلدية حمراء وسيناترا في صندوق الموسيقى. مكان ليس

به قوائم طعام وكل طاولاته محجوزة. في المقصورة بجوار المطبخ، سأتناول عشاءً صغيراً وأستقبل بعض المكالمات. ثم حوالي الثامنة، بعد «دابل اسبريسو»، أنقل من طاولة إلى أخرى أحبي الزبائن وأقول لساقي البار أن يرسل لهم جولة أخرى من المشروبات -على حساب المكان. بدا أن وولي أحبّ فكرتي بقدر ما أحبّ فكرة بيلى تقريباً، لأنه بعد أن انقلب على ظهره كان يبتسم إلى السقف، متخيلاً كيف سيبدو المشهد تقريباً بنفس الوضوح الذي تخيلته به. ربما أوضح.

غداً، هكذا فكرت، سأجعله يرسم لي مخطط طوابق. سألني بعد لحظة: -وأين سيكون؟

-لا أعرف بعد يا وولي. لكن فور أن أقرر، ستكون أول من يعرف. وابتسم لذلك أيضاً.

بعدها ببضع دقائق، كان في عالم الأحلام. عرفت لأن ذراعه انزلت عن حافة السرير، فتركها معلقة مكانها وأصابه ثملس السجادة. نهضت، وأعدت ذراعه إلى جنبه وغطّيته بالبطانية من أسفل السرير. ثم ملأت كوباً من الماء ووضعت على طاولة الفراش. مع أن دواءه يتركه عطشاناً دائماً في الصباح، لا يتذكر وولي أبداً أن يضع كوباً من الماء في متناول يده قبل أن ينحرف إلى النوم.

بعدها أطفأت التلفزيون، وخلعت ملابسني، ودخلت تحت أغطيتي، وجدتنني أتساءل، أين سيكون؟

من البداية، لطالما تخيلت أنني عندما أمتلك مكاني الخاص سيكون ذلك في المدينة -ربما تحت في غرينيتش فيلدج في شارع مكدوغال أو شارع سوليفان، في إحدى تلك البقاع الصغيرة حول الناصية من نادي الجاز والكافيهات. لكن ربما كنت على المسار الخطأ. ربما يتعين عليّ أن أفتح في ولاية ليس فيها ليونيللوز بعدد. ولاية مثل... كاليفورنيا. بالطبع، هكذا فكرت. كاليفورنيا.

بعد أن نحصل على ودیعة وولي ونعود بالسيارة إلى نبراسكا، لن نضطر

حتى إلى الخروج من السيارة. سيكون الأمر مثل هذا الصباح مع وولي وبيلي في المقعد الخلفي، وأنا وإيميت في الأمام، الاختلاف الوحيد أن بوصلة بيلي ستشير الآن إلى الغرب.

المشكلة كانت في ترددي تجاه سان فرانسيسكو.

لا تسئ فهمي. فريسكو⁽¹⁾ مدينة فيها الكثير من الأجواء - بالضباب الذي ينجرف بحذاء المرفأ، والخمور جيّة الذين ينجرفون في حي تيندرلويين، والتنانين الورقية العملاقة التي تنجرف في شوارع «تشاينا تاون». لهذا السبب نرى دائماً في الأفلام شخصاً يُقتل هناك. مع ذلك، وبالرغم من كل تلك الأجواء، لم يبدو لي أن سان فرانسيسكو تستحق مكاناً مثل ليونيللوز. إنها فقط لا تمتلك تلك الروح الأنيقة.

لكن لوس أنجلوس؟

لوس أنجلوس لديها من الأناقة الكثير، حتى إن بإمكانها تعليلها في زجاجات وبيعها في ما وراء البحار. إنها المكان الذي ظل نجوم السينما يعيشون فيه منذ بداية نجوم السينما. ومؤخراً، صارت المكان الذي يفتح فيه الملاكمون ورجال العصابات متاجرهم. حتى سيناترا انتقل إلى هناك. وإذا كان «أبو العيون الزرق» يستطيع هجرة «التفاحة الكبيرة» إلى «مدينة الأشرطة الملونة»، فنحن أيضاً نستطيع⁽²⁾.

لوس أنجلوس، هكذا فكرت بيني وبين نفسي، حيث الصيف يمتد طوال الشتاء، وحيث كل نادرة نجمة صغيرة قيد الاكتشاف، وحيث أسماء الشوارع قد استهلكت منذ زمن بعيد كل الرؤساء والأشجار. الآن، هذا ما أسميه بداية جديدة!

لكن إيميت كان محقاً بشأن حقبة العُدّة. القيام ببداية جديدة لا يقتصر على امتلاك عنوان جديد في بلدة جديدة. لا يقتصر على امتلاك وظيفة

(1) فريسكو: يقصد سان فرانسيسكو. (م)

(2) «أبو العيون الزرق»: فرانك سيناترا. «مدينة الأشرطة الملونة»: هوليوود. (م)

جديدة، أو رقم هاتف جديد، أو حتى اسم جديد. البداية الجديدة تتطلب
مَسْح السُّبُورَة. وهذا يعني تسديد كل ما عَلَيْكَ من ديون، واسترداد كل ما
لَكَ من ديون.

عندما تَخْلِي إيميت عن المزرعة وتَلْقَى الضرب في ميدان عام، سَوَى
حساباته. وإذا كنا سنتجه إلى الغرب معًا، إذاً فلعل الوقت قد حان لكي
أُسوي أنا حساباتي.

لم يتطلب الأمر طويلاً لكي أقوم بالحِسْبة. كنت قد قضيت أكثر مما
يكفي من الليالي في سريري في سالينا وأنا أفكر في ديوني التي لم تُسَدَّد،
وهكذا، طَفَّت الديون الأكبر على السطح مباشرة، وإجمالاً ثلاث: دينُ
أوفِّيهِ، واثنان أحصَّلهما.

إيميت

مضى إيميت وبيلي بخطى سريعة وسط الشجيرات المحاذية لقاعدة السكة الحديدية العالية، المتجهة غربًا. كان الأسهل أن يسيرا على القضبان، غير أن إيميت اعتبرها فكرة طائشة حتى في ضوء القمر. توقّف، ثم نظر وراءه إلى بيلي، الذي كان يبذل جهده للحاق به.

-متأكد أنك لا تريدني أن أحمل حقيبة ظهرك؟
-أنا بخير يا إيميت.

عاد بيلي إلى وتيرته، وألقى نظرة على ساعة بيلي فرأى أنها الثانية عشرة إلا ربعًا. كانا قد غادرا المحطة في الحادية عشرة والربع. ومع أن المشي كان أصعب مما توقعه إيميت، بدا أنهما لا بُد أن يصلا الآن إلى حرجة الصنوبر، لذا أطلق تنهيدة ارتياح عندما لاحت لهما أخيرًا الصور الظلية المدببة للأشجار دائمة الخضرة في الأفق. وإذا وصلا إلى الحرجة، توغلا لبضع خطوات داخل ظلالها وانتظرا في صمت، ينصتان إلى البوم فوق رأسيهما ويشمّان رائحة إبر الصنوبر تحت أقدامهما.

ألقى إيميت نظرة أخرى على ساعة بيلي، فرأى أنها صارت الحادية عشرة وخمسا وخمسين دقيقة. قال: -انتظر هنا.

تسلّق إيميت منحدر السكة العالية، ونظر إلى القضبان تحت قدميه. في البعيد رأى نقطة الضوء المنبعثة من مقدمة القاطرة. رجع إيميت إلى أخيه وسط الظلال، وسرّه أنهما لم يسيرا على القضبان. فمع أن القاطرة بدت لعين إيميت على بعد ميل كامل، ما إن وصل إلى أخيه، حتى رأى سلسلة عربات الشحن الطويلة تنطلق من أمامهما، سريعة كأنها البرق. أمسك بيلي بيد إيميت، من فرط الإثارة أو القلق.

قدّر إيميت أن خمسين عربية تدفقت على السكة العالية فوقهما قبل أن يبدأ القطار في التباطؤ. عندما توقف في النهاية، كانت العربات العشر الأخيرة تواجه مباشرة المكان الذي وقف فيه إيميت وبيلي، تمامًا مثلما أخبره الشحاذ.

إلى الآن، حدث كل شيء كما قال الشحاذ إنه سيحدث.

ما الفارق بين طن من الدقيق وطن من المقرمشات؟ كان هذا هو السؤال الذي طرحه الشحاذ على إيميت هناك في ساحة الشحن. ثم بغمزة من عينه أجاب على فزورته هو: نحو مئة قدم مربعة.

الشركة صاحبة الشحنات التي تسافر ذهابًا وإيابًا على المسار نفسه - هكذا مضى يشرح بسجيته الطيبة - تصير أفضل حالًا عمومًا إن امتلكت حاوياتها الخاصة تجنبًا للتذبذب في الأسعار. ولأن منشأة «نابسكو»⁽¹⁾ في مانهاتن تتسلم شحنات أسبوعية من الدقيق من الغرب الأوسط وترسل شحنات أسبوعية من السلع المصنعة مرة أخرى إلى تلك المنطقة، كان من المنطقي أن تمتلك عرباتها الخاصة. المشكلة الوحيدة أن كيس القمح أكثر كثافة من أي بضاعة أخرى تقريبًا، وصندوق المقرمشات أقل كثافة من أي بضاعة أخرى تقريبًا. لذلك، في حين تمتلئ عربات الشركة إبان اتجاهها غربًا، ففي طريق عودتها إلى نيويورك، تبقى خمس أو ست عربات فارغة دائمًا، ولا يهتم أحد بإحكام إغلاقها.

الراكب المجاني، هكذا أوضح الشحاذ، يعتبر نفسه سعيد الحظ لأن العربات الفارغة تُربط إلى مؤخرة القطار. إذ عندما يصل وابور «صنست إيست» إلى بلدة لويس بعد الثانية عشرة بدقائق، تظل عربية السبنسة، آخر عرباته، بعيدة عن المحطة بميل كامل.

فور أن توقف القطار، سارع إيميت بتسلق السكة العالية، وجرب أبواب

(1) نابسكو Nabisco: شركة البسكويت الوطنية National Biscuit Company، التي تصنع مقرمشات «ريتز» وحلوى «أوريو» من بين منتجات أخرى. (م)

أقرب العربات، فوجد الباب الثالث غير مُوصَد. بعد أن لَوَّح لبيلي كي يقترب، ورفعَه إلى داخل العربة، صعد وراءه وَجَرَ الباب ليغلقه ببطء عالية - ما أغرق العربة في ظلام دامس.

كان الشحاذ قد أخبره أن بوسعهما ترك الكوة في السقف مفتوحة لتُدخل ضوءًا وهواءً - بشرط أن يحرصا على إغلاقها عندما يقتربان من شيكاغو، حيث يصعب أن تمر الكوة المفتوحة من دون أن يلاحظها أحد. غير أن إيميت لم يكن قد فكر في فتح الكوة قبل إغلاق باب العربة، أو حتى تحديد مكانها. تحسَّس بيديه بحثًا عن المزلاج ليتمكن من فتح الباب مرة أخرى، بيد أن القطار انتفض إلى الأمام، فأرسله يترنح إلى الورا وارتطم بالجدار المقابل.

في الظلام سمع شقيقه يتحرك. فحذره قائلاً: ابقَ في مكانك يا بيلي، إلى أن أجد المزلاج.

لكن، فجأة، وجد شعاعًا من الضوء يسطع باتجاهه.

- هل تريد أن تستخدم مصباحي اليدوي؟

ابتسم إيميت: - نعم يا بيلي، من فضلك. أو الأفضل، لماذا لا تُسلِّط الشعاع على ذلك السلم في الزاوية.

تسلق إيميت السلم، وفتح الكوة، فسمح لضوء القمر ودفقة من الهواء المنعش بالدخول. بعد أن تعرضت العربة لضوء الشمس طوال النهار، لا بُد أن الحرارة بداخلها كانت ثمانين درجة.

- لماذا لا تستلقي هناك؟

قالها إيميت وهو يقود بيلي إلى الطرف الآخر من العربة، حيث لا تُمكن رؤيتهما بسهولة في حال أطل أحدهم برأسه من الكوة.

أخرج بيلي قميصين من حقيبة ظهره، وناول واحدًا لإيميت، شارحًا أنهما إذا طوياهما يستطيعان استخدامهما كوسادتين، مثل الجنود. ثم بعد أن أعاد ربط الحزامين، رقد ورأسه على قميصه المطوي وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

ومع أن إيميت كان مرهقًا مثل أخيه تقريبًا، عرف أنه لن يستطيع أن يستغرق في النوم بهذه السرعة. كان متوترًا جدًّا من حوادث اليوم. ما أرادَه بحق كان سيجارة. وكان عليه الاكتفاء بشربة ماء.

تناول إيميت حقيبة ظهر بيلي بهدوء، وحملها إلى بقعة تحت الكوة، حيث كان الهواء ألطف قليلًا، وجلس وظهره إلى الجدار. فكَّ حزامي الحقيبة، وأخرج زمزمية بيلي، وفتح غطاءها، وشرب جرعة. كان إيميت عطشانًا جدًّا حتى إنه كان يمكن أن يفرغها بسهولة، لكنهما قد لا يجدان فرصة للحصول على مزيد من الماء إلى أن يصلا إلى نيويورك، لذا شرب جرعة أخرى، وأعاد الزمزية إلى الحقيبة، وأعاد ربط الحزامين بإحكام تمامًا مثلما قد يفعل أخوه. همَّ إيميت بوضع الحقيبة على الأرض عندما لاحظَ الجيب الخارجي. ألقى نظرة على بيلي، ثم فتح الغطاء وأخرج المظروف الأصفر.

لبرهة، جلس إيميت والمظروف في يديه وكأنه يحاول أن يزنه. بعد أن ألقى نظرة أخرى على أخيه، فكَّ الخيط الأحمر وأسقط بطاقات أمّه البريدية في حجره.

عندما كان إيميت صبيًّا، لم يكن أبدًا ليصف أمّه بأنها تعيسة. لا أمام شخص آخر ولا بينه وبين نفسه. لكن في الوقت نفسه، على مستوى غير منطوق، عرف أنها كذلك. عرف ذلك ليس من الدموع أو العويل والنواح، لكن من منظر المهام غير المكتملة في الساعات الأولى من الظهرية. ينزل إلى المطبخ، فيجد دسنة من حبَّات الجَزَر بجوار السكين فوق لوح التقطيع، ستُّ منها مقطّعة وستُّ سليمة. أو يرجع من الحظيرة، فيجد نصف الغسيل يرفرف على الحبل والنصف الآخر مخضَّل بالمياه داخل السلة. فإذا بحث ليرى أين ذهبت أمّه، غالبًا ما يجدها جالسة على الدَّرَج الأمامي ومرفقاها على ركبتها. وعندما يقول هامسًا، وبقدر من التردد، ماما؟، ترفع رأسها وكأنها صادفت مفاجأة سارة. تفسح له مكانًا إلى جانبها على درجة السلم، وتضع ذراعها على كتفيه أو تنكش شعره، ثم ترجع إلى النظر إلى ما كانت

تنظر إليه من قبل، أيًا كان - شيء ما في مكان ما بين درَج الشرفة الأمامية وبين الأفق.

ولأن الأطفال الصغار لا يعرفون الطريقة التي ينبغي أن تجري بها الأمور، يتخيلون أن عادات بيتهم هي عادات العالم. فإذا نشأ الطفل في أسرة تُتبادل فيها الكلمات الغاضبة على العشاء، سوف يفترض أن الكلمات الغاضبة تُتبادل على كل طاولة مطبخ؛ بينما إذا نشأ في أسرة لا تُتبادل فيها الكلمات على العشاء أصلاً، فسوف يفترض أن كل الأسر تأكل في صمت. مع ذلك، وبالرغم من غلبة تلك الحقيقة، عرف إيميت الصغير أن الأشغال المنزلية التي تُترك نصف مُنجزَة في ساعات الظهر المبكرة إشارة على خلل ما - تمامًا مثلما سوف يعرف بعدها ببضع سنوات أن تغيير المحاصيل من موسم إلى آخر إشارة على مُزارع ضائع لا يعرف ماذا يفعل. رفع إيميت البطاقات البريدية عاليًا في ضوء القمر، وجعل يراجعها واحدة بعد أخرى في ترتيبها من الشرق إلى الغرب - أوغالا، شايان، رولينز، روك سبرينغز، سولت ليك سيتي، إيلي، رينو، ساكرامنتو، سان فرانسيسكو - ماسحًا بعينه الصور من الزاوية إلى الزاوية وقارئًا الرسائل كلمةً بعد كلمة، وكأنه ضابط مخبرات يبحث عن مراسلات مشفرة من عميل في الميدان. لكن إذا كان قد تفحص البطاقات الليلة بتمعن أكثر مما فعل وهو جالس أمام طاولة المطبخ، فلم يتفحص أيًا منها بتمعن أكثر مما تفحص الأخيرة.

هذا هو قصر جوقة الشرف في حديقة لينكون بارك في سان فرانسيسكو، هكذا كُتب عليها، وفي كل عام في الرابع من يوليو يقام فيه واحد من أكبر عروض الألعاب النارية في كاليفورنيا كلها.

لم يتذكر إيميت أنه أخبر بيلي بحبّ أمهما للألعاب النارية، لكنه كان أمرًا لا جدال فيه. أثناء نشأتها في بوسطن، كانت أمه تقضي الصيف في بلدة صغيرة مطلة على «كيب دود». ومع أنها لم تتكلم كثيرًا عن أيامها هناك، فقد وصفت بحماسة قديمة كيف كانت إدارة رجال الإطفاء المتطوعين

ترعى عرضاً للألعاب النارية فوق المرفأ يوم الرابع من يوليو. عندما كانت طفلة، كانت هي وأسرتها تشاهد العرض من طرف رصيفهم البحري. لكن فوراً أن كبرت، سُمح لها بأن تجدّف بين المراكب الشراعية التي تتأرجح في مراسيها لكي تتمكن من مشاهدة عروض الألعاب النارية وهي مستلقية وحدها في قاع قاربها.

عندما كان إيميت في الثامنة، عرفت أمّه من مستر كارتر ايت في متجر المعدات أن بلدة سيوارد -التي تبعد أقل قليلاً من ساعة عن مورغن- تقيم احتفالاً صغيراً في الرابع من يوليو، بموكب بعد الظهر وألعاب نارية بعد حلول الظلام. لم تكن والدة إيميت مهتمة بالموكب. لذلك، بعد أن تناول إيميت ووالداه عشاءً مبكراً، استقلوا شاحنتهم وانطلقوا في الرحلة.

كان مستر كارتر ايت قد قال إنه احتفال صغير، وتخيلت أم إيميت أنه سيكون مثل غيره من الاحتفالات في البلدات الصغيرة، بلافتات من صنع أطفال المدارس، ومرطبات تبيعها نساء الأبرشيّة على طاولات قابلة للطي. لكن عندما وصلوا، ذهلت حين اكتشفت أن الرابع من يوليو في سيوارد يتوارى إلى جواره أيّ رابع من يوليو آخر رأته في حياتها. كان احتفالاً تستعد له البلدة طيلة العام ويتوافد عليه الناس من أماكن بعيدة بعد «دي موان». عندما وصل آل واطسن، كان مكان الوقوف الوحيد المتاح لسيارتهم يبعد عن مركز المدينة بميل كامل، وعندما دخلوا أخيراً حديقة «بلوم كريك بارك»، حيث ينطلق عرض الألعاب النارية، كانت كل بوصة مربعة من العشب قد احتلتها أسرٌ تجلس على بطاطين وتتناول عشاءها الخلوي.

العام التالي، قرّرت أمّه ألا ترتكب الخطأ نفسه. على الفطور في الرابع من يوليو، أعلنت أنهم سيغادرون إلى سيوارد بعد الغداء مباشرة. لكن فوراً أن أعدت عشاءهم الخلوي وفتحت دُرج أدوات المائدة لتأخذ بعض الشوكات والسكاكين، توقفت وجعلت تحديق. ثم استدارت، وخرجت من المطبخ، وصعدت السلم وإيميت في عقيبها. نقلت كرسيّاً من غرفة

نومها، وصعدت عليه ومدت يدها إلى جبل قصير معلق من السقف. عندما شدَّت الحبل، انفتحت كوةً وانسدل منها سلم مُنزلق يقود إلى عليّة. فتح إيميت عينيه على وسعهما، واستعد لأن تأمره أمّه بالبقاء في مكانه، غير أن تركيزها بأكمله كان منصباً على هدفها حتى إنها ارتقت السلم من دون أن تتوقف لتلقي عليه ملاحظة تحذيرية. وعندما تسلق الدرجات الضيقة وراءها، كانت مشغولة جداً بتحريك الصناديق حتى إنها لم تشغل نفسها بإرساله إلى أسفل من جديد.

بينما انشغلت أمّه في بحثها، جعل إيميت يعاين مخزون العليّة الغريب: جهاز راديو قديم يقاربها طولاً، وكرسيّان هزازان مكسوران، وآلة كاتبة سوداء، وصندوقان كبيران مغطيان بملصقات ملوَّنة. قالت أمّه: ها هي ذي.

منَحَت إيميت ابتساماً، ورفعت ما بدت أنها حقيبة ملابس. فقط، عوضاً عن الجلد، كانت مصنوعة من الخوص.

عندما رجعت أمّه إلى المطبخ، وضعت حقيبة الملابس على الطاولة. رآها إيميت تتصبَّب عرقاً من دفء العليّة، وعندما مسحت جبينها بظهر يدها، تركت مسحةً من غبار على جلدها. بعد أن فتحت مشبكّي الحقيبة، ابتسمت لإيميت مجدداً، ثم فتحت الغطاء.

كان إيميت يعرف جيداً أن حقائب الملابس المخزّنة في العليّة غالباً ما تكون فارغة، لذا فوجئ عندما رأى أن الحقيبة ليست مملوءة فقط، بل موضَّبةٌ إلى حدِّ الاكتمال. داخلها، مرتَّبٌ بأناقة، كان كل شيء تحتاج إليه من أجل الخروج في نزهة. تحت أحد الشرائط كانت كومة من ستّة أطباق حمراء، بينما تحت الآخر، برُجٌّ من ستّ أكواب حمراء. كانت ثمة حوافظ طويلة ضيقة مليئة بالشوكات، والسكاكين، والملاعق، وأخرى أصغر لفتاحة النبيذ. بل وكانت في إحداها نُقرتان مخصّصتان لرشاشتي الملح والفلفل. وفي تجويف الغطاء، كان مفرش طاولة ذو مربّعات حمراء وبيضاء مثبت في موضعه بشريطين من الجلد.

على مدار حياته، لم يسبق لإيميت رؤية أيّ أدوات مجموعة معًا بهذا الإبداع - حيث لا شيء ناقصًا، ولا شيء زائدًا، وكل شيء في مكانه. ولن يرى أيّ شيء مثل هذا بعدها، إلى أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره، عندما رأى طاولة العمل في سقيفة مستر شولتي بتشكيلتها المرتبة من الفتحات، والمشابك، والخطاطيف المخصّصة لحمل أدواته المختلفة.

-واه!

قال إيميت متعجبًا، وضحكت أمه.

-كانت من خالتك الكبيرة إيدنا.

ثم هزت رأسها.

-لا أظنني فتحتها منذ تزوجنا. لكننا سنستفيد منها الليلة!

ذلك العام وصلوا إلى سيوارد في الثانية بعد الظهر ووجدوا مكانًا في وسط العشب يفرشون عليه مفرشهم ذي المربّعات. والد إيميت، الذي كان قد أعرب عن بعض التردد حيال الذهاب في تلك الساعة المبكرة من النهار، لم يُبدِ أيّ علامة على التملل فور أن صاروا هناك. بل إنه، وفي ما يشبه المفاجأة، أخرج زجاجة من النبيذ من حقيبته. وشرب والد إيميت، وحكى والد إيميت قصصًا عن عمّته سادي البخيلة وعمّه ديف كثير السرحان وعن كل أقاربه المجانين هناك في الشرق، ما جعل والد إيميت تضحك كما لم تضحك من قبل إلا نادرًا.

بمرور الساعات، امتلأ العشب بالمزيد من البطاطين والسلال، وبالمزيد من الضحك والمشاعر الطيبة. وعندما هبط الليل أخيرًا، واستلقى الزوجان واطسن على مفرشهما ذي المربّعات وإيميت بينهما، وصفّرت أولى الألعاب النارية وفرّقعت، قالت أمّه: لم أكن لأفوّت ذلك ولو أعطوني العالم كله. وفي طريق العودة تلك الليلة، بدا لإيميت أن ثلاثتهم سوف يحضرون احتفال الرابع من يوليو في سيوارد لبقية حياتهم.

لكن في فبراير التالي - في الأسابيع التي تلت ولادة بيلى - لم تُعد والدته على طبيعتها فجأة. في بعض الأيام تكون متعبة جدًا لا تستطيع حتى

أن تبدأ شُغلَ المنزل الذي اعتادت أن تتركه نصف مُنَجَز. وفي أيام أخرى، لا تنهض من الفراش أصلاً.

عندما بلغ بيلي من العمر ثلاثة أسابيع، بدأت مسز إبيرز -التي كان لأولادها أولادٌ- تأتي كل يوم للمساعدة في رعاية شؤون البيت والاهتمام باحتياجات بيلي بينما تحاول والدته إيميت استعادة قوتها. بحلول أبريل، صارت مسز إبيرز تأتي في الصباحات فقط، وبحلول يونيو، لم تعد تأتي على الإطلاق. لكن على العشاء في الأول من يوليو، عندما سأل والد إيميت بقدر من الحماسة أي ساعة ينبغي عليهم أن يتجهوا إلى سيوارد، قالت والدته إيميت إنها ليست واثقة من كونها تريد الذهاب.

عندما نظر إيميت من فوق الطاولة، ظنَّ أنه لم يسبق أن رأى أباه كسير القلب على هذا النحو من قبل. غير أن والد إيميت، كمألوف عادته، مضى قدماً، مدعوماً بثقة لم تكن مِثَاله كثيراً للتعلم من سابق التجارب. في صباح الرابع من يوليو، أعدَّ والد إيميت العشاء الخلوي. أنزل الكؤة وتسلق السلم الضيق لكي يُنزل الحقيبة الخوص من العلّة. وضع بيلي في السلّة التي كان ينام فيها وأحضر الشاحنة إلى الباب الأمامي. وعندما دخل في الواحدة ونادى، هيا، تعالوا جميعاً! لا نريد أن نضيّع مكاننا المفضل! وافقت أم إيميت على الذهاب. أو بالأحرى، رضخت.

صعدت إلى الشاحنة ولم تنطق بكلمة. لم ينطق أيٌّ منهم بكلمة. لكن فور أن وصلوا إلى سيوارد وشقوا طريقهم إلى منتصف الحديقة وفرش والده المفروش ذي المربّعات وبدأ يُخرج الشوكات والسكاكين من حوافظها، قالت والدته إيميت: هات، دعني أساعدك. في تلك اللحظة، بدا وكأن حملاً ثقيلاً قد رُفع من على صدورهم جميعاً.

بعد أن أخرجت الأكواب البلاستيكية الحمراء، وضعت الشطائر التي كان زوجها قد أعدها. أطعمت بيلي صلصة تفاح كان زوجها قد فكر في إحضارها، وجعلت تهز سلّة بيلي إلى الأمام وإلى الخلف إلى أن راح

في النوم. وهما يشربان النبيذ الذي تذكّر زوجها إحضاره، طلبت منه أن يحكي بعضًا من تلك القصص عن أعمامه وعماته المجانين. وعندما بُعيد هبوط الليل، انفجر أول وابل فوق الحديقة مطلقًا رشاشًا متفخًا من الشرر الملون، مدت يدها لكي تضغط على يد زوجها، ومنحته ابتسامة رقيقة والدموع تنسال على وجهها. وعندما رأى إيميت والدّه دموعها، ابتسما، إذ عرفا أنها دموع امتنان - امتنان أن زوجها، بدلًا من أن يتراخى مع فتورها المبدئي، ثابرَ لكي يتمكن أربعتهم من الاستمتاع بهذا العرض البديع معًا في هذه الليلة الصيفية الدافئة.

عندما وصل آل واطسن إلى البيت، وبينما يُدخل والد إيميت سلّة الرضيع وحقيبة أدوات النزهة، أمسكت والدّة إيميت بيد إيميت وقادته إلى الطابق العلوي، ووضعت في الفراش، وأحكمت الأغطية من حوله، وأعطته قبلة على جبينه، قبل أن تمضي في الطريقة لتفعل الأمر نفسه مع بيلي. تلك الليلة، استغرق إيميت في نوم هانئ مثل أيّ ليلة أخرى في حياته. وعندما استيقظ في الصباح، كانت أمه قد رحلت.

بنظرة أخيرة على «قصر جوقة الشرف»، أعاد إيميت البطاقات البريدية إلى مظروفها. ولفّ الخيط الأحمر الرفيع ليقفل عليها بالداخل، وأعادها إلى حقيبة بيلي، وهو يحرص على إغلاق إيزيمي الحزامين بإحكام.

السنة الأولى كانت صعبة على تشارلي واطسن، هكذا تذكّر إيميت وهو يتخذ مكانه إلى جوار أخيه. استمرت مَحَن الطبيعة بلا هوادة. وحوّمت المتاعب المالية فوق الرؤوس. وجعل سكان البلدة يتبادلون النميمة بحريّة حول رحيل مسز واطسن المفاجئ. غير أن أكثر ما أثقل على والدّه - ما أثقل عليهما كليهما - كان إدراكهما أن والدّة إيميت عندما أمسكت بيد زوجها مع انطلاق الألعاب النارية، لم تفعل ذلك امتنانًا لإصراره، ووفائه، ودعمه، بل امتنانًا لكونه إذ لطفها وأخرجها من وعكتها لكي تشهد هذا العرض السحري، ذكّرها بالفرح الذي قد تُصيّبه، فقط لو قررت أن تترك حياتها اليومية وراء ظهرها.

سبعة

—•—

دوقة

-إنها خريطة!

صاح وولي متفاجئاً.

-هي كذلك.

كنا نجلس في مقصورة في الـ«هوجو» بانتظار فطورنا. أمام كلِّ منَّا مفرش صحون ورقي كان أيضًا خريطة مبسّطة لولاية إلينوي توضح الطرق والبلدات الرئيسية إلى جانب بعض الرسوم التوضيحية للمعالم المحلية خارجة عن مقياس الرسم. علاوة على ذلك، كان هناك ستة عشر موتيل «هوارد جونسونز»، كلٌّ منها بسقفه البرتقالي الصغير وبرجه الأزرق المستدق.

قال وولي، وهو يشير إلى أحدها: -نحن هنا الآن.

-سأخذ بكلمتك.

-وهاك طريق لينكون السريع. وانظر إلى هذا!

قبل أن أتمكن من النظر لرؤية ما هذا، وضعت نادلتنا -التي لا يمكن أن تكون تجاوزت السابعة عشر عامًا- صحوننا على المفرش أمام كل منَّا. قطّب وولي جبينه. وبعد أن راقبها وهي تتراجع، دفع صحنّه إلى اليمين حتى يتمكن من مواصلة معاينة الخريطة بينما يتظاهر بالأكل.

كانت مفارقةً أن ترى الانتباه الضئيل الذي أولاه وولي لفطوره، بالنظر إلى الانتباه الكبير الذي كان قد أولاه لطلب هذا الفطور. فعندما سلّمته النادلة قائمة الطعام، بدا متوترًا بعض الشيء لحجمها. سحبَ نفّسًا، وشرع في قراءة أوصاف كل طبق بصوت عالٍ. ثم، لكي يتأكد من أنه لم يفوّت شيئًا، رجع إلى البداية وقرأها من جديد. عندما رجعت نادلتنا لتأخذ طلبنا،

أبلغها بثقة أنه سيأخذ فطائر الوافل -أو لنجعلها بيضاً مخفوقاً- فقط، لكي يتحول إلى البانكيك عندما استدارت لتذهب. لكن عندما وصل البانكيك الذي طلبه وولي، وبعد أن زَيْن سطحه بدوامة من الشُرَبَات، تجاهله لحساب اللحم المقدّد. أمّا أنا، من جانبي، الذي لم أعبأ حتى بإلقاء نظرة على القائمة، فسرعان ما أتيتُ على اللحم البقري المهروس المملح، والبيض العيون. بعد أن نظفت صحنِي، أرجعت ظهري إلى الخلف وجعلتُ أنظر حولي، وأنا أفكر أن وولي إذا أراد أن يأخذ فكرة عن كيف سيبدو مطعمي، يستطيع الاكتفاء بالنظر إلى أحد مطاعم «هوارد جونسونز». لأنه سيكون على النقيض منه في كل شيء.

من ناحية «الأجواء»، كان أصحاب «هوارد جونسونز» الطيبون قد قرروا نقل ألوان سَقْفهم الشهير إلى داخل المطعم عن طريق كساء المقصورات باللون البرتقالي الفاقع والندل باللون الأزرق الفاقع -مع أن توليفة البرتقالي والأزرق لم تُعرف بقدرتها على إثارة الشهية منذ بداية الزمان. كان العنصر المعماري الحاسم داخل المساحة هو سلسلة متصلة من النوافذ العريضة ذات الألواح الثابتة، التي تمنح الجميع إطلالة حرّة بلا عوائق على ساحة انتظار السيارات. وكان المطبخ نسخة متأنقة مما قد تجده في مقصف، والسمة الحاسمة في تركيبة الزبائن كانت أنك بنظرة واحدة تستطيع أن تعرف عنهم أكثر ممّا تريد معرفته.

خذُ مثلاً ذلك الرفيق أحمر الوجه في المقصورة المجاورة الذي يمسح صفار ببيضته بزواية رغيف الخبز المحمّص الأسمر. بائع متجول، ولا شكّ -ولقد رأيت منهم ما يكفيني بقية حياتي. في شجرة عائلة الكهول المنسيّين، يُعدُّ الباعة المتجولون أولاد عمومة مباشرين لقدامى الممثلين. يذهبون إلى البلدات نفسها في العربات نفسها ويطعمون في الفنادق نفسها. والحقيقة أن الطريقة الوحيدة للتفرقة بينهما أن الباعة المتجولين ينتعلون أحذية أكثر عمليّة.

وكأنني كنت أحتاج لدليل، بعد أن راقبته وهو يستخدم إجادته للنّسب

المثوية في حساب إكرامية نادلته، رأيته يدوّن ملاحظات على حواشي الإيصال، ويطويه نصفين، ويدسّه في محفظته لأجل الأولاد هناك في الحسابات. عندما وقف البائع المتجول ليذهب، لاحظت من الساعة على الحائط أنها صارت السابعة والنصف. قلت: وولي، الفكرة من الاستيقاظ مبكرًا هي الوصول مبكرًا. لذا لماذا لا تتعامل مع بعض من هذا البانكيك بينما أذهب لتلبية نداء الطبيعة. بعدها يمكن أن ندفع الفاتورة وننطلق. -طبعًا، طبعًا.

قالها وولي، وهو يدفع صحنه بوضع بوصات أخرى إلى اليمين. قبل أن أذهب إلى حمام الرجال، حصلت على بعض الفكة من الصرّاف وانسللت إلى كابينة هاتف. كنت أعرف أن أكرلي قد رجع ليتقاعد في إنديانا، لكنني لم أعرف أين تحديدًا. وهكذا، طلبت من عامل السترال أن يبحث عن رقم سالاينا ويوصلني به. بالنظر إلى تلك الساعة المبكرة، رنّ الهاتف ثماني مرات قبل أن يجيبه أحدهم أخيرًا. أظنها كانت لوسيندا، الفتاة ذات الشعر البني والنظارة الوردية التي تحرس باب المأمور. ارتديت عباءة والدي واتخذت نبرة الملك ليرتّب أيام زَمان. تلك هي النبرة التي كان والدي يستخدمها كلما احتاج إلى عون صغير من شخص ما على الجانب الآخر من الخط. بطبيعة الحال، استلزم ذلك لكنة بريطانية، لكن مشوبة بمسحة من ارتباك.

شرحتُ لها أنني عمُّ أكرلي من إنكلترا، وأخبرتها أنني أريد أن أرسل له بطاقة في يوم الاستقلال لكي أطمئنه ألا ضغائن بيننا، لكن يبدو أنني ضيّعتُ مفكّرة العناوين. فهل هناك أيُّ طريقة تراها لتساعد شيخًا كثير النسيان مثلي؟ بعد دقيقة، رجعتُ بالجواب: 132 طريق شجر الورد في ساوث بيند. انتقلتُ وأنا أصفر من كابينة الهاتف إلى حمّام الرجال، ومَن وجدتُ واقفًا أمام المبالٍ إلا الرفيق أحمر الوجه من المقصورة المجاورة؟ عندما انتهيت من مهمتي والتحقت به عند الأحواض، منحته ابتسامة خاطفة في المرأة.

-تبدو لي، يا سيدي، رجل مبيعات.

نظر إلى انعكاس صورتي، وقد بدا عليه قدر من الانبهار.

-أنا بالفعل أعمل في المبيعات.

أومات برأسي: هيثك تبدو كرجل ودود عركته الحياة.

-شكرًا لك.

-من باب إلى باب؟

قال، وقد شعر بقدر من الإهانة: لا. أنا أدير حسابات بعينها.

-بالطبع. في أيِّ مجال، إذا سمحت لي بالسؤال؟

-أجهزة المطبخ.

-مثل البرّادات وغسالات الأطباق؟

أجفل قليلاً، وكأني لمست وترًا حساسًا لديه: نحن متخصصون في

الأجهزة الكهربائية العصرية الأصغر حجمًا. مثل الخلّاطات والخفّاقات

اليدوية. فعلّقت: صغيرة لكن لا غنى عنها.

-أوه، نعم، صحيح.

-إذا، خبرني، كيف تقوم بعملك؟ عندما تأخذ حسابًا ما، أقصد، كيف

تتّم البيعة؟ كيف تبيع خلّاطك على سبيل المثال؟

-خلّاطاتنا تبيع نفسها.

من الطريقة التي ألقى بها هذه العبارة المحفوظة، عرفت أنه فعلَ ذلك

عشرة آلاف مرة من قبل.

-أنت متواضع جدًّا، أنا واثق من ذلك. لكن جدّيًا، عندما تتحدث عن

خلّاطك مقارنة بخلّاطات المنافسين، كيف... تُمايز بينها؟

عند سماع كلمة تُمايز، اكتسبت كلماته طابعًا رصينًا وخصوصيًا.

لا يهمّ أنه يتحدث إلى فتى في الثامنة عشر من عمره في حمّام مطعم

«هوارد جونسونز». كان يتأهب لإلقاء عبارات المبيعات المحفوظة الآن

ولم يستطع أن يكبح جماح نفسه حتى إن أراد. استهل حديثه قائلاً: كنت

أمزح معك قليلًا عندما قلتُ إن خلّاطنا يبيع نفسه. لأن كل الخلّاطات،

كما ترى، منذ زمن ليس بالبعيد، تأتي بثلاثة إعدادات: بطيئة، متوسطة، وسريعة. أمّا شركتنا فكانت الأولى التي تُمايز أضرار خلّاطها من حيث نوع المهمة المطلوبة: مزج، ضرب، خفق.

-فكرة عبقرية. لا بُد أنكم احتكرتم السوق لأنفسكم.
اعترف قائلًا: حدث ذلك لبعض الوقت. لكن سرعان ما لحق بنا المنافسون.

-إذًا، عليكم أن تظلوا سباقين بخطوة طوال الوقت.
-بالضبط. لهذا السبب، أصبحنا في هذا العام، ويشرفني أن أقول ذلك، أول مصنع خلّاطات في أمريكا يقدّم مرحلة رابعة من الخلط.
-مرحلة رابعة؟ بعد المزج، والضرب، والخفق؟
كدت أموت من الإثارة.
-الهرس.

قلت: -برافو.
وبطريقة ما، كنت أعنيها.
رمقته بنظرة سريعة أخرى، تلك المرة نظرة إعجاب. ثم سأله إن كان قد شارك في الحرب.
-لم أنل هذا الشرف.
هكذا قال، للمرة العشرة آلاف أيضًا.
هززت رأسي في تعاطف.

-أيُّ هرج ومرج عندما عاد الأولاد إلى الديار. ألعاب نارية ومواكب.
عُمدٌ يشبكون قلادات في طيّات الشُّترات. وكل هاته السيدات الجميلات يقفن طوابير لتقبيل أيّ أبله في زيّ عسكري. لكن تعرف رأيي؟ رأيي أن الشعب الأمريكي ينبغي أن يُبدي مزيدًا من الولاء للباعة المتجولين.
لم يستطع أن يعرف إن كنت أراوغه أم لا. لذا أضفيت على صوتي مسحة من عاطفة.

-أبي كان بائعًا متجولًا. أوه، يا للأُميال التي قطعها. يا لأجراس البيوت

التي قَرَعَهَا. يا لليالي التي قضاها بعيدًا عن دفء البيت. أقول لك إن الباعة المتجولين ليسوا مجرد رجال كادحين، إنهم جنود مشاة الرأسمالية! أظن أن وجهه قد تورّد فعليًا لتلك العبارة. ولو إنه أمر يصعب تحديده بالنظر إلى لون بشرته.

قلت، وأنا أمد يدي، حتى قبل أن أجفّفها: شرفٌ لي أن أقابلك، يا سيدي.

عندما خرجتُ من الحمام، رأيت نادلتنا ولوّحَتْ لها لكي تأتني. سألتني: هل تريد شيئًا آخر؟

أجبته: -فقط الحساب. لدينا أماكن نزورها وأناس نراهم. لدى عبارة أماكن نزورها، بدّت عليها الحسرة. وإني واثق من أنني لو أخبرتها ساعتها أننا متجهان إلى نيويورك وعرضتُ عليها توصيلة، لقفزت في المقعد الخلفي من دون أن تكلف نفسها عناء تغيير زيّ العمل -ولو ليس لسبب إلا لترى ما الذي يحدث عندما تنطلق بالسيارة إلى ما وراء حافة مفرش الصحون.

قالت: -سأجلبه لك.

وأنا أتجه إلى مقصورتنا، شعرتُ بالندم على السخرية من اهتمام جارنا بالإيصالات. إذ خطرَ لي فجأة أننا يجب أن نفعل شيئًا مماثلًا لأجل إيميت. فحيث إننا كنا نستخدم النقود من مظروفه لتغطية نفقاتنا، كان له كل الحق أن يتوقع منّا حسابًا متكاملًا لدى عودتنا -لكي نردّ له ماله قبل تقسيم الوديعة.

في الليلة السابقة، تركتُ وولي يدفع فاتورة العشاء وذهبت لمعاينة الفندق. الآن، قررتُ أن أسأله عن قيمة تلك الفاتورة، لكن عندما وصلتُ إلى مقصورتنا، لم يكن هناك وولي.

أين ذهب؟ هكذا تساءلتُ، وأنا أقلبُ عينيّ. لا يمكن أن يكون في الحمّام، فقد جئت لتوي من هناك. وإذ كنت أعرف ولعه بالأشياء اللامعة والملونة، رفعت بصري إلى منضدة الآيس كريم، لكن لم يكن هناك

إلا ولدان صغيران يضغطان أنفيهما على الزجاج، متمنّين لو لم يكن الوقت مبكرًا هكذا. وإذ تزايدت الهواجس بداخلي، استدرت إلى النوافذ الزجاجية العريضة.

تطلعت إلى ساحة الانتظار، محرّكًا أنظاري عبر البحر المتلألئ من الزجاج والنيكل وصولًا إلى المكان الذي كنت قد أوقفت فيه الستادبيكر، والذي لم تعد الستادبيكر فيه. أخذت خطوةً إلى اليمين -متفاديًا اثنين من الشعور المنتفخة المصقّفة على طراز كوّارة النحل- ونظرت باتجاه مدخل ساحة الانتظار في اللحظة المناسبة لأرى سيارة إيميت تنعطف يمينًا في طريق لينكون السريع.

-يا دينَ ربِّ الأرباب!

شحب وجه النادلة، التي تصادف وصولها بالحساب في اللحظة نفسها. فقلت: سامحيني على فرنسيّتي!

ثم ألقيت نظرة على الحساب، وأعطيتها ورقة بعشرين من المظروف. عندما أسرعَت لتأتي بالباقي، ارتميت في مقعدي وجعلت أحرق من فوق الطاولة إلى المكان الذي لا بُدَّ كان فيه وولي. على صحنه، الذي كان قد عاد إلى موضعه الأول، كان اللحم المقدّد قد اختفى، ومعه شريحة صغيرة من البانكيك.

بينما كنت أبدي إعجابي بالدقّة التي اقتطع بها وولي شريحة صغيرة رفيعة بهذا القدر من وسط الكؤومة، لاحظتُ أن سطح الطاولة الفورمايكا ظاهرٌ من تحت صحنه الخزفي. بمعنى أن مفرش الصحون قد اختفى.

دفعْتُ صحنِي جانبًا، والتقطت مفرشي من تحته. وكما قلت من قبل، كان خريطة لإلينيوي، توضح الطرق والبلدات الرئيسية. لكن في الزاوية اليمنى السفلى كانت هناك خريطة أخرى محلية صغيرة داخل مربع لمنطقة وسط المدينة، في مركزها مربع أخضر صغير، وينهض من منتصف ذلك المربع الأخضر الصغير، ويبدو كبيرًا وكأنما بالحجم الطبيعي، تمثال لأبراهام لينكون.

وولي

هام دي دام دي دام، أخذ وولي يدندن وهو يلقي نظرة أخرى على الخريطة في حجره. أداؤها أحلى، لا شيء يضاهيها، الحياة معها أجمل⁽¹⁾... أوه، هام دي دام دي دام.
-ابتعد عن الطريق!

هكذا صاح أحدهم وهو يتجاوز الستادبيكر ويطلق نفيده ثلاث مرات.
-اعتذارات، اعتذارات، اعتذارات.

ردّ وولي ردًا ثلاثيًا على النفيير الثلاثي، وهو يلوّح بيده معذرًا.
مال وولي ليعاود السير في حارته، واعترف أن القيادة بخريطة في حرك ليست من الأعمال المستحسنة على الأرجح، حيث تضطّرك إلى النظر لأسفل ثم لأعلى طوال الوقت. لذا، أبقى عجلة القيادة في يده اليسرى، ورفع الخريطة باليمنى. بهذه الطريقة صار بإمكانه النظر إلى الخريطة بعين وإلى الطريق بعين أخرى.

في اليوم السابق، عندما أمّن دوق «خريطة طرق فيليبس 66 الأمريكية» من محطة وقود فيليبس 66، أعطاهها لوولي، قائلًا إنه يتولى القيادة، لذا سيكون على وولي أن يتولى الملاحه. وقبّل وولي هذه المسؤولية بقدر من الانزعاج. عندما يعطونك خريطة محطة وقود، تجد مقاسها مثاليًا -مثل برنامج العروض في المسرح. لكن لكي تقرأ خريطة محطة وقود، ينبغي عليك أن تفردّها وتفردّها وتفردها إلى أن يلتصق المحيط الهادي بناقل السرعة ويحتك المحيط الأطلنطي بباب الراكب الأمامي.

فور أن تفتح خريطة محطة الوقود بكامل مساحتها، الأرجح أن منظرها

(1) «أداؤها أحلى...»: أغنية إعلانية عن إحدى سيارات شيفروليه. (م)

وحده سيجعلك تدوخ، لأنها تتشابه قطعاً من فوق إلى تحت ومن جنب إلى جنب بطرق سريعة وطرق فرعية وألف طريق صغير، كل منها مُعلَّم باسم صغير دقيق أو رقم صغير دقيق. ذكَّرت وولي بكتاب صف الأحياء الذي درسه عندما كان في سان بول. أم كان في سان مارك؟ على أيِّ حال، في أول هذا المجلَّد، على صفحة يسرى، كانت صورةٌ للهيكَل العظمي للإنسان. بعد أن تنظر بتمعُّن في هذا الهيكَل العظمي حيث كل العظام المختلفة في أماكنها السليمة، عندما تقلِّب الصفحة متوقِّعاً أن يَخْتَفِيَ الهيكَل العظمي، تجد الهيكَل العظمي لا يزال هناك -لأن الصفحة التالية مصنوعة من ورق شفاف! مصنوعة من ورق شفاف لكي تستطيع أن تدرس الجهاز العصبي فوق الهيكَل العظمي مباشرة. وعندما تقلِّب الصفحة بعد ذلك، تستطيع أن تدرس الهيكَل العظمي، والجهاز العصبي والجهاز الدوري بكل خطوطه الزرقاء والحمراء الصغيرة.

عرفَ وولي أن هدف هذا الرسم التوضيحي متعدد الطبقات أن يجعل الأمور شديدة الوضوح، بيد أنه وجدها مزعجة جدًّا. أكانت صورةٌ لرجل أم امرأة، على سبيل المثال؟ كبيراً أم صغيراً؟ أسود أم أبيض؟ وكيف تعرف كل الخلايا الدموية والنبضات العصبية التي تسافر بطول تلك الشبكة المعقدة، إلى أين يُفترض أن تذهب؟ وفور وصولها إلى هناك، كيف تجد طريق العودة إلى الديار؟ هكذا كانت خريطة طرق فيليبس 66: رسماً توضيحياً بمئات الشرايين، والأوردة، والشعيرات الدموية المتفرعة في كل اتجاه إلى أن لا يعود أيُّ مسافر على أيِّ منها بقادر على معرفة إلى أين يذهب.

غير أن الحال مختلف تماماً مع خريطة مفرش الصحون من «هوارد جونسونز»! إذ لم تكن بحاجة لأن تطويها أصلاً. ولم تكن مغطاة بخليط من الطرق السريعة والطرق الفرعية. بل تجد عليها بالضبط العدد الصحيح من الطرق. وتلك المسمَّاة مسمَّاة بوضوح، بينما غير المسمَّاة ليست مسمَّاة أصلاً.

السمة الأخرى الجديرة بالثناء في خريطة «هوارد جونسونز» كانت الرسوم التوضيحية. معظم صنَّاع الخرائط يبرعون على وجه الخصوص

في كَمْش الأشياء. الولايات، والبلدات، والأنهار، والطرق، كل منها يُكَمْش إلى بُعد أصغر. لكن على مفرش صحون «هوارد جونسونز»، بعد تقليص البلدات، والأنهار، والطرق، أضاف صانع الخرائط مجموعة منتقاة من الرسوم التوضيحية أكبر مما يُفترض أن تكون. مثل خيال مآة كبير في الزاوية اليسرى السفلية يوضح مكان حقول الذرة. أو النمر الكبير في الزاوية اليمنى العلوية الذي يوضح لك حديقة حيوانات لينكون.

تلك كانت بالضبط طريقة القراصنة في رسم خرائط الكنز. يكمشون المحيط والجزر إلى أن تصبح صغيرة وبسيطة جداً، لكنهم بعدها يضيفون سفينة كبيرة قبالة الساحل، ونخلة كبيرة على الشاطئ، وتشكيلاً صخرياً كبيراً على تل يشبه جمجمة ويتعد خمس عشرة خطوة بالضبط عن علامة X التي تُحدّد الموقع.

في المربع المرسوم في الزاوية اليمنى السفلية من مفرش الصحون، كانت ثمة خريطة داخل الخريطة، تُظهر مركز البلدة. وفقاً لهذه الخريطة، إذا انعطفت يميناً في «الشارع الثاني» وقدت لمسافة بوصة ونصف، ستصل إلى حديقة «ليبرتي بارك»، في منتصفها تمثال كبير عظيم لأبراهام لينكون. فجأة، بعينه اليسرى، رأى وولي علامة «الشارع الثاني». من دون أن يضيّع لحظة، أخذ انعطافة حادة إلى اليمين على أنغام نفير آلة تنبيه آخر. صاح: اعتذارات!

مال على الزجاج الأمامي، فرأى لمحة من خضار. قال: ها نحن. ها نحن.

بعدها بدقيقة كان هناك.

توقف إلى جانب الرصيف، وفتح بابه فكادت أن تطيح به سيارة صالون مسرعة.

-أوووبس!

أغلق وولي الباب، وحشر نفسه في المساحة الضيقة لكي ينتقل إلى المقعد المجاور، وخرج من الباب الآخر، وانتظر انفراجة في المرور، ثم اندفع عابراً الشارع.

في الحديقة، كان النهار ساطعًا ومُشمسًا. الأشجار مورقة والأجمة مُزهرة، وبراعم الأقحوان نابثة على جانبي الممشى. -ها نحنُ.

قالها ثانية وهو ينطلق مسرعًا.

لكنه وجد الممشى المحفوف بالأقحوان، فجأة، يتقاطع مع ممشى آخر، ما قدّم لولّي ثلاثة خيارات مختلفة: أن ينعطف يسارًا، أن ينعطف يمينًا، أو أن يمضي قدمًا. تمّنّى وولّي لو كان قد أخذ معه خريطة مفرش الصحون، وجعل ينظر في كل اتجاه. عن يساره كانت أشجار وشجيرات ومقاعد خضراء داكنة. عن يمينه كان المزيد من الأشجار، والشجيرات، والمقاعد، وكذا رجل في بدلة فضفاضة وقبعة ذات حواف عريضة ليّنة بدا مألوفًا على نحو غامض. لكن أمامه، إذا ضيّق عينيه، كان يستطيع أن يرى نافورة. صاح: أها!

إذ إن التماثيل، وفقًا لخبرة وولّي، عادةً ما تنهض في محيط النوافير. مثل تمثال غاريبالدي القريب من النافورة في حديقة واشنطن سكوير بارك، أو تمثال المَلَك أعلى تلك النافورة الكبيرة في سنترال بارك.

بثقة تزايدت، ركضَ وولّي إلى حافة النافورة وتوقف وسط الشُّبُورة المنعشة لكي يحدد اتجاهاته. بنظرة سريعة اكتشف أن النافورة دائرة تتفرع منها ثمانية مماشٍ مختلفة (إذا حسبت ذلك الممشى الذي جاء يهرع منه لتوّه). قاوم وولّي الإحباط، وبدأ يدور بخطى بطيئة في اتجاه عقارب الساعة حول محيط النافورة، مدققًا في كل ممشى وهو يظلل عينيه بيده كقبطان وسط البحر. وهناك، في نهاية الممشى السادس، كان أبراهام الأمين بشخصه.

بدلاً من أن يهرع وولّي في هذا الممشى، سار، احترامًا للتمثال، بخطى لينكويّنة واسعة إلى أن توقّف على بُعد بضع أقدام منه.

يا له من شبه رائع، فكر وولّي. إذ لم يقبض التمثال على هيئة الرئيس وقوامه فحسب، بل بدا أنه يُظهر تهذيبه وكياسته. فبينما كان لينكون، في أغلب الأحيان، يصوّر، مثلما قد يتوقع المرء، بلحيته الطويلة وشاربه

المحفوف ومعطفه الأسود الطويل، لجأ ذلك النحات إلى خيار غير اعتيادي: في يده اليمنى، كان الرئيس يمسك قبعته بخفة من حافتها، وكأنه قد أنزلها للتو بعد إذ رأى أحد معارفه في الشارع.

جلس وولي على أحد المقاعد أمام التمثال، وحوّل أفكاره إلى اليوم السابق، عندما كان يبلي يشرح تاريخ طريق لينكون السريع في المقعد الخلفي لسيارة إيميت. كان يبلي قد ذكر أن الطريق عندما بدأ إنشاؤه (في سنة ألف وتسعمئة وكذا وكذا)، جعل المتحمّسون يطلّون الحظائر وأعمدة السياجات على طول الطريق بأشرطة حمراء، وبرتقالية، وزرقاء. كان بوسع وولي تصوّر ذلك على نحو مثالي، لأنه ذكّر كيف كانت أسرته في الرابع من يوليو تعلق أشرطة ملونة بالأحمر، والأبيض، والأزرق من روافد السقف المائلة في الغرفة العظيمة ومن درابزين الشرفة. أوه، لكم أحبّ جدّه الكبير الرابع من يوليو.

في عيد الشكر، والكريسماس، وعيد الفصح، لم يشغل جدّ وولي الكبير باله سواء اختار أولاده الاحتفال بالعيد معه أو ذهبوا للاحتفال مع شخص آخر. لكن عندما يتعلق الأمر «بيوم الاستقلال»، لم يكن ليقبل التغيب بأيّ حجة كانت. كان يوضح بجلاء تام أن على كل واحد من أولاده، وأحفاده، وأولاد أحفاده الحضور إلى الأديرونذاك بغضّ النظر عن المسافة التي يجب أن يقطعها. وكانوا يجتمعون.

في الأول من يوليو، يبدأ أبناء العائلة في إيقاف سياراتهم في مدخل البيت، أو الوصول إلى محطة القطارات، أو الهبوط على مهبط الطائرات الصغير على بعد عشرين ميلاً. بحلول عصر اليوم الثاني، يصير كل مكان صالح للنوم في البيت مشغولاً -الأجداد، والأعمام، والعَمَّات في غرف النوم، وأبناء العمومة الأصغر سنّاً في شُرْفَة النوم، وكل أولاد العمومة المحظوظين بتجاوز الثانية عشرة من أعمارهم داخل الخيام وسط أشجار الصنوبر.

عندما يحل الرابع من يوليو، يصير غداً خلويّاً على مَرَجَة العشب، تعقبه سباقات الزوارق، وسباقات السباحة، ومسابقات الرماية بالبندقية

والقوس، ومباراة «استيلاء على العَلَم» كبيرة وعظيمة⁽¹⁾. في السادسة بالتمام والكمال تُوزَع الكوكيتلات في الشرفة. في السابعة والنصف يُقرع الجرس ويتخذ الجميع طريقهم إلى الداخل من أجل عشاء مؤلف من الدجاج المقلي، وكيزان الذرة، و«كعكات مافن» دورثي الشهيرة بالتوت الأزرق. ثم في العاشرة، يجذّف العمُّ بوب والعمُّ راندي إلى الطوافة في منتصف البحيرة لكي يُطلقا الألعاب النارية التي أحضرها من بنسلفانيا. كم كان يبلي سيحب ذلك، فكّر وولي بابتسامة. كان سيحب الشرائط الملونة على درابزين السياج والخيام بين الأشجار و سلال كعكات المافن بالتوت الأزرق. لكن أكثر ما كان سيحبه هو الألعاب النارية، التي كانت تبدأ دائماً بصافرات وفرقات، لكنها تتكاثر وتتكاثر إلى أن تبدو وكأنها تملأ السماء بأسرها.

لكن حتى عندما كانت تلك الذكرى الرائعة تُخامر وولي، تعكّرت ملامحه، لأنه كاد أن ينسى ما كانت تسميه أمّه سبب وجودنا جميعاً هنا: الإلقاء. كل سنة في الرابع من يوليو، فور أن يوضع كل الطعام على المائدة، وعوضاً عن صلاة الشكر، كان أصغر طفل دون السادسة عشرة يتخذ مكانه أو مكانها على رأس الطاولة ويُلقى من «إعلان الاستقلال». في سياق الحوادث البشرية، و، نحن نؤمن بأن الحقائق التالية من البديهيات، وما إلى ذلك⁽²⁾.

لكن، كما كان جدُّ وولي الكبير يحب أن يَلْفِت، إذا كان السادة واشنطن، وجيفرسون، وأدامز قد امتلكوا الرؤية لتأسيس الجمهورية، فإن مستر لينكون هو من امتلك الشجاعة للوصول بها إلى حد الكمال. لذا، عندما يرجع ابنُ العم أو ابنَةُ العم إلى مقعده أو مقعدها بعد الانتهاء من إلقاء «الإعلان»، كان أصغر طفل دون العاشرة يتخذ مكانه أو مكانها على

(1) «الاستيلاء على العَلَم»: لعبة شبابية بين «جَيْشَيْن» يحاول كل منهما الاستيلاء على عَلَم الجيش الآخر. (م)

(2) «في سياق الحوادث البشرية...»: من العبارات الواردة في مقدمة إعلان الاستقلال. (م)

رأس المائدة من أجل إلقاء «خطاب غيتسبرغ» بأكمله⁽¹⁾.

عندما ينتهي ذلك، كان المتحدث يقف وينحني وتنفجر الغرفة بهتاف لا يقل حرارة وصخبًا عن الهتاف في ختام الألعاب النارية. ثم تطوف الصواني والسلال على المائدة على صوت الضحكات والتهليل. كانت لحظة لطالما تطلّع إليها وولي.

تطلّع إليها إلى أن حل السادس عشر من مارس عام 1944، يوم بلوغه العاشرة.

فور أن انتهت أمه وشقيقته من غناء «عيد ميلاد سعيد»، شعرت أخته الأكبر، كيتلين، أن عليها أن تلفت إلى أنه عندما يحل الرابع من يوليو، سيكون دور وولي لكي يقف عند رأس المائدة. وشعر وولي بانزعاج بالغ من هذا الخبر حتى إنه لم يستطع إنهاء قطعة كعكة الشوكولاتة. لأن وولي، إن كان يعرف أي شيء في سن العاشرة، فهو أنه فاشل تمامًا في الاستحفاظ⁽²⁾.

وإذ شعرت أخته سارة -التي كانت قد أنجزت قبل سبع سنوات إلقاء لا يشوبه شائبة- بقلقه، عرضت أن تعمل مدرّبة له. قالت لولي مبتسمة: حفظ الخطاب أمر في المتناول. إنه مؤلف من عشر جمل فقط. في البداية، شدّ هذا التطمين من أزر وولي. لكن عندما قدّمت له أخته نص الخطاب الفعلي، اكتشف أنه بينما قد يبدو مؤلفًا من عشر جمل فقط للوهلة الأولى، كانت الجملة الأخيرة وحدها، في واقع الأمر، ثلاث جمل متخفية في صورة واحدة.

-إنها، في الواقع والحقّانيّة (مثلما اعتاد وولي أن يقول)، اثنتا عشرة جملة، لا عشرة فقط.

(1) خطاب غيتسبرغ: أحد أشهر الخطب في التاريخ الأمريكي، ألقاه أبراهام لينكون في 19 نوفمبر عام 1863 عند مقبرة الجنود الوطنية في مدينة غيتسبرغ، بنسلفانيا، بعد شهور من هزيمة جيوش الكونفدرالية أمام جيوش الاتحاد في معركة غيتسبرغ. ووضع فيه لينكون الأسس التي تبنّاها إعلان الاستقلال في ما بعد. (م)

(2) الاستحفاظ: من الكلمات التي يخترعها وولي، مزيج من «الاستذكار» و«الحفظ». (م)

وأجابت سارة: - حتى لو!

لكن، من باب الاطمئنان، اقترحت أن يبدأ استعداداتهما قبلها بوقت طويل. في الأسبوع الأول من أبريل، سيتعلم وولي إلقاء الجملة الأولى كلمة بكلمة. ثم في الأسبوع الثاني من أبريل، سيتعلم الجملتين الأولى والثانية. ثم في الأسبوع الثالث، الجمل الثلاث الأولى، وهكذا، إلى أن يتمكن وولي بعد اثني عشر أسبوعًا، ومع اقتراب شهر يونيو من نهايته، من إلقاء الخطاب بأكمله من دون خلل ولا زلل.

وعلى هذا النحو بالضبط استعدّا. أسبوعًا بعد أسبوع، تعلّم وولي جملة بعد أخرى إلى أن صار بمقدوره إلقاء الخطاب بأكمله. في الحقيقة، بحلول الأول من يوليو، كان قد ألقاه من البداية إلى النهاية، ليس فقط أمام سارة، ولكن أمام نفسه في المرأة، وأمام حوض المطبخ وهو يساعد دورثي في غسل الصحون، ومرة في زورق في منتصف البحيرة. لذا عندما حل اليوم المخيف، كان وولي مستعدًا.

بعد أن ألقى ابن عمه إدوارد أجزاء من إعلان الاستقلال وتلقّى جولة من التصفيق الحار، اتخذ وولي الموقع المتميز.

لكن عندما همّ بأن يبدأ، اكتشف المشكلة الأولى في خطة أخته: الناس. فبينما سبق لوولي أن ألقى الخطاب مرات عدة أمام أخته وكثيرًا بمفرده، لم يسبق له قط أن ألقاه أمام أي شخص آخر. ولم يكن ذلك حتى أي شخص آخر. كانوا ثلاثين من أقرب أقربائه مصطفىين إلى جانبي مائدة في صفتين متبهيّن، أمّا الجالس على الطرف المقابل له فلم يكن إلا جدّه الكبير بشحمه ولحمه.

ألقى وولي نظرة إلى سارة، فتلقّى منها إيماءة تشجيع، الأمر الذي عزز ثقته بنفسه. لكن عندما همّ بأن يبدأ، اكتشف المشكلة الثانية في خطة أخته: الزّي. فبينما سبق لوولي أن ألقى الخطاب في بنطاله المصّلع، وفي منامته، وفي رداء سباحته، لم يسبق له ولو مرة أن ألقاه في سترّة زرقاء تسبب له الحكة وربطة عنق بالأحمر والأبيض تقبّض على حلقه.

وإذ شدَّ وولي ياقته بإصبع ملوئٍ، بدأ بعض أولاد عمه الأصغر سنًا يُقرقرون في ضحكات مكتومة.
-ششش! قالت جدته.

عاود وولي النظر إلى سارة، التي أعطته إيماءة ودية أخرى، وقالت:
هيا!

مثلما علَّمته بالضبط، وقف وولي منتصب القامة، وسحب نفسين عميقين، وبدأ: قبل ثمانية عقود وسبع.. قبل ثمانية عقود وسبع سنين مَضَتْ.

تعالَت المزيد من الضحكات نصف المكتومة من أولاد عمه الأصغر سنًا، أعقبتها «ششش!» أخرى من جدته.

تذكَّر وولي أن سارة أوصته إن شعر بتوتّر أن ينظر إلى فوق رؤوس العائلة، فرفع عينيه إلى رأس الأيل على الحائط. لكنه وجد نظرة الأيل غير متعاطفة، فحاول أن ينظر إلى حذائه بدلًا من ذلك.

وبدأ من جديد: قبل ثمانية عقود وسبع سنين مَضَتْ...
-جَلَبَ آباؤنا.

هكذا شجعت سارة هامسة.

قال وولي وهو يرفع رأسه إلى أخته: جَلَبَ آباؤنا.. جَلَبَ آباؤنا لهذه القارب..

-لهذه القارة...

-لهذه القارة أُمَّة جديدة. أُمَّة جديدة...

...أنشئت في حرية.

سمع صوتًا وديًا يقول العبارة الأخيرة.

غير أنه لم يكن صوت سارة. كان صوت ابن عمه جيمس، الذي تخرَّج في برينستون قبلها بأسابيع. وهذه المرة، عندما عاود وولي الإلقاء، انضمت إليه سارة وجيمس. وقال ثلاثتهم بصوت واحد: أنشئت في حرية، وكُرِّسَتْ لفرضية أن كل البشر خُلِقُوا سواسية.

ثم إن أقارب آخرون، سبقَ وأن كُلفُوا في أوقاتهم بمهمة إلقاء خطاب

مستر لينكون، شرعوا ينضمون بأصواتهم. ثم التحق بالجوقة أعضاء من العائلة لم يسبق قط أن طلب منهم إلقاء الخطاب، لكنهم سمعوه مرّات عديدة حتى صاروا يحفظونه بدورهم عن ظهر قلب. وسرعان ما صار كل من إلى المائدة -بمن فيهم الجد الأكبر- يُلقون: وعندما قالوا في صوت واحد تلك الكلمات الجليّة والمفعمة بالأمل، التي تؤكد أن حكم الشعب، بيد الشعب، من أجل الشعب، لن يفنى من على سطح الأرض، انفجرت العائلة في جولة من الهتاف لم تسمع الغرفة مثلها من قبل.

بالتأكيد، كانت تلك الطريقة التي أراد بها أبراهام لينكون لخطابه أن يُلقى من بعده. ليس من صبي صغير يقف بمفرده على رأس مائدة في سترة مثيرة للحكة، بل من أربعة أجيال من عائلة واحدة يتلون معاً في تناغم كامل. آه لو استطاع والده أن يكون هناك، كذلك فكر وولي، وهو يمسخ دمة عن خدّه ببطن يده. آه لو استطاع والده أن يكون هنا الآن.

بعد أن تغلب وولي على كآباته وانتهى من تقديم آيات الاحترام للرئيس، رجع من الطريق الذي جاء منه. هذه المرة، عندما وصل إلى النافورة، حرص على الالتفاف حول محيطها عكس عقارب الساعة إلى أن يصل إلى الممشى السادس.

المماشي لا تبدو مثلما هي من طرفيها، لذا تقدّم وولي، وقد بدأ يتساءل إن كان ارتكب خطأ. ربما أخطأ في عدّ المماشي عندما سار عكس عقارب الساعة حول النافورة. لكن بينما يفكر في الرجوع أدراجه، رأى صاحب القبعة ذات الحواف العريضة اللينة.

عندما منحه وولي ابتسامة تعرّف، ردّ عليه الرجل بابتسامة تعرّف. لكن عندما أعطاه وولي تلويحة صغيرة، لم يردّ الرجل التلويحة، عوضاً عن ذلك دسّ يديه في الجيبين الفضفاضين في سترته الفضفاضة. ثم صنع بذراعيه دائرة بأن وضع قبضة يده اليمنى على كتفه اليسرى وقبضة يده اليسرى على كتفه اليمنى. راقب وولي الرجل مفتوناً وقد بدأ يحرك يديه على طول ذراعيه المتقابلين تاركاً أشياء بيضاء صغيرة عند كل بوصة منهما.

-إنه فُشار!

قالها وولي متعجبًا.

فور أن امتدت حبات الفشار من قمة كتفيه إلى قمة راسه، بدأ الرجل ببطء يفتح ذراعيه إلى أن صار ممدودين على جانبيه مثل... مثل...
مثل خيال المآة! هكذا أدرك وولي. لهذا السبب بدا له صاحب القبعة ذات الحواف العريضة اللينة مألوفًا. لأنه بدا تمامًا مثل خيال المآة في الزاوية اليسرى السفلية من خريطة مفرش الصحن.

فقط، لم يكن هذا الرجل خيال مآة. كان النقيض لخيال المآة. إذ فور أن امتد ذراعه بكامل طولهما، بدأت كل العصافير الصغيرة التي تسكن هنا وهناك ترفرف في الهواء وتحلق بالقرب من ذراعيه.

وإذ جعلت العصافير تلتقط حبات الفشار، هرع سنجابان كانا يختبآن تحت أحد المقاعد إلى قدمي الجنتلمان. ظن وولي للحظة، بعينين مفتوحتين على وسعهما، أنهما سيتسلقانه مثل شجرة. لكن السنجابين، اللذين كانا يعرفان عملهما، انتظرا إلى أن تسقط العصافير من حين لآخر حبة فُشار من ذراعي الجنتلمان على الأرض.

لا بُد أن أتذكر إخبار دوقه بكل هذا، هكذا فكر وولي وهو يهرول في طريقه.

إذ بدا رجل الطيور في حديقة ليبرتي بارك عظيم الشبه بالرجل في تلك الفودفيلات القديمة التي يحب دوقه أن يحكيها له.

لكن عندما خرج وولي إلى الشارع، تبخّرت الصورة المبهجة لرجل الطيور الواقف ماذًا ذراعيه وحلت محلها صورة أقل بهجة لضابط شرطة يقف وراء سيارة إيميت وفي يده دفتر مخالفات.

إيميت

استيقظ إيميت بإحساس غامض أن القطار لم يعد يتحرك. ألقى نظرة على ساعة بيّلي، فرآها تتجاوزت الثامنة بقليل. لا بُدّ أنهما وصلا إلى «سيدار رايدز» بالفعل.

بهذوء، كيلا يوقظ أخاه، نهض إيميت، وتسلق السلم، وأخرج رأسه من الكوة في السقف. نظر إلى الوراء، فرأى أن القطار، الذي كان الآن على خط جانبي، قد تمدد بمقدار عشرين عربة إضافية على الأقل.

وإذ وقف إيميت على السلم، ووجهه معرّض لهواء الصباح اللطيف، لم تعد أفكار الماضي هي ما يهيّج حواسه. ما كان يهيّج حواسه الآن هو الجوع. منذ غادر مورغن، لم يأكل إلا الشطيرة التي أعطاها له أخوه في المحطة. بيّلي، على الأقل، تصرف بحكمة وتناول الفطور في دار الأيتام عندما قدّم له. في تقدير إيميت، لا تزال أمامهما ثلاثون ساعة أخرى قبل أن يصلا إلى نيويورك، وليس لديهما في حقيبة ظهر بيّلي إلا زمزية مياه وآخر قطع «الكوكيز» التي صنعتها سالي.

لكن الشحاذ، عندما أخبر إيميت أن قطاره سيتوقّف لبضع ساعات على خط جانبي خاص خارج «سيدار رايدز»، قال إنه سيتوقّف لكي تستطيع شركة «جنرال ميلز» أن تشبّك بعضاً من عرباتها بمؤخرة القطار - عربات مكدسة من الأرض إلى السقف بصناديق حبوب الإفطار.

نزل إيميت السلم وأيقظ أخاه برفق.
-القطار سيتوقّف هنا لبعض الوقت يا بيّلي. سأذهب لأبحث عن شيء نأكله.

-أوكيه يا إيميت.

عاد ببلي للنوم، وتسلق إيميت السلم وخرج من الكوة. وحين لم ير أي دليل على الحياة على الخط من الأمام أو الخلف، بدأ يتقدّم باتجاه مؤخرة القطار. ولأن عربات «جنرال ميلز» كانت محمّلة، عرف إيميت أنها ستكون موصدة على الأغلب. فقط تمنى أن تكون إحدى الكوى قد تركت غير موصدة سهواً. وإذ قدّر أن أمامه أقل من نصف ساعة قبل أن يُعاود القطار سيره، تحرك بأسرع ما في إمكانه، قافزاً من سطح عربة إلى التالية. بيد أنه توقّف عندما وصل إلى آخر عربات «نابسكو» الخاوية. فمع أنه رأى الأسطح المستطيلة المستوية لعربات «جنرال ميلز» تمتد إلى البعيد، كانت العربتان أمامه مباشرة لهما السقف المقوّس المميّز لعربات الركّاب. بعد قليل من التردد، نزل إيميت إلى الرصيف الضيق ونظر عبر النافذة الصغيرة في الباب. معظم العربة كان محجوباً بالستائر التي تغطي النوافذ من الداخل، غير أن القليل الذي استطاع إيميت رؤيته كان واعداً. بدت مثل غرفة جلوس في عربة خاصة فاخرة بعد ليلة من الاحتفالات. وراء زوجين من الكراسي عالية الظهر، رأى إيميت طاولة قهوة مغطاة بكؤوس فارغة، وزجاجة شامبانيا مقلوبة رأساً على عقب في سطل من الثلج، وبوفيه صغير عليه بقايا وجبة ما. يُفترض أن يكون الركاب في مقصورات النوم في العربة المجاورة.

فتح إيميت الباب، ودخل بهدوء. وهو يتحسّس موطئ قدميه، رأى أن الاحتفالات التي أقيمت تركت الغرفة في حالة من الفوضى. تناثر على الأرضية ريش من وسادة ممزّقة إلى جانب أرغفة خبز صغيرة وحبات عنب، وكأنها استُخدمت كذخيرة في معركة ما. كان الزجاج الأمامي لساعة من طراز «ساعات الأجداد» مفتوحاً، والعقارب في واجهتها مفقودة. وكان يغط في نوم عميق على أريكة بجوار البوفيه رجل في منتصف عشرينياته يرتدي بدلة توكسيدو متسخة وعلى خديه الخطوط الحمراء الفاقعة المميّزة لمقاتلي الأباتشي.

فكر إيميت في الخروج من العربة واستئناف طريقه فوق السقف،

لكنه لم يكن ليحظى بفرصة أفضل من هذه. ثَبَّتْ إِيْمِيْت عَيْنِيْهِ عَلَى الْهَيْئَةِ النَّائِمَةِ، وَمَرَّ بَيْنَ الْكَرَاسِيِ عَالِيَةِ الظَّهْرِ وَتَقَدَّمَ بِحَذَرٍ. عَلَى الْبُوفِيَةِ كَانَتْ سُلْطَانِيَّةٌ مِنَ الْفَاكْهَةِ، وَأَرْغَفَةٌ مِنَ الْخَبْزِ، وَقَطْعٌ مِنَ الْجَبْنِ، وَلَحْمٌ خَنْزِيرٍ نَصْفٌ مَأْكُولٌ. كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا بَرَطْمَانٌ مَقْلُوبٌ مِنَ الْكَاتَشْبِ، لَا بُدَّ أَنَّهُ مَصْدَرٌ طَلَاءِ الْحَرْبِ. عِنْدَ قَدَمِيْهِ، وَجَدَ إِيْمِيْت كَيْسَ الْوَسَادَةِ الْمَمْرُقَةِ. سَارَعَ يَمْلَأُهُ بِطَعَامٍ يَكْفِيْ لِيَوْمَيْنِ، وَلَوَاهُ مِنْ رَقْبَتِهِ لِيُحْكَمَ إِغْلَاقُهُ. ثُمَّ أَلْقَى نَظْرَةً آخِرَةً عَلَى النَّائِمِ وَاسْتَدَارَ بِاتِّجَاهِ الْبَابِ.

-أَوْه، أَتِيهَا الْمَضِيفُ...

مَرْتَمِيًّا عَلَى أَحَدِ الْكَرَاسِيِ عَالِيَةِ الظَّاهِرِ كَانَ رَجُلٌ آخَرٌ فِي بَدَلَةِ تَوَكْسِيدُو.

كَانَ انْتِبَاهُ إِيْمِيْت مَنْصَبًا عَلَى النَّائِمِ، لِذَا مَرَّ مُبَاشِرَةً بِجَوَارِ ذَلِكَ الْآخَرِ مِنْ دُونِ أَنْ يَلَاظِظَهُ -الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ غَرِيبًا بِالنَّظَرِ إِلَى حَجْمِهِ. لَا بُدَّ أَنَّهُ طَوْلُهُ كَانَ سِتًّا أَقْدَامَ وَوِزْنُهُ مِثْقَالِي رطل. لَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِهِ أَيْ طَلَاءٌ، لَكِنْ كَانَتْ ثَمَّةٌ شَرِيحَةٌ مِنْ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ مُلْتَصِقَةً بِأَنَاقَةٍ عَلَى جَيْبِ صَدْرِهِ، وَكَأَنَهَا مَنْدِيلٌ.

بَعَيْنَيْنِ نَصْفَ مَغْمُضَتَيْنِ، رَفَعَ الْعَرَبِيدُ يَدًا وَفَرَدَ بِيْطَاءَ إَصْبَعًا لِيُشِيرَ إِلَى شَيْءٍ عَلَى الْأَرْضِ.

-إِذَا كَانَ لَكَ أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيَّ...

نَظَرَ إِيْمِيْت إِلَى الْإِتِّجَاهِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ، فَرَأَى زَجَاجَةً جِئَ نَصْفُ فَارَغَةٍ مَقْلُوبَةٍ عَلَى جَنْبِهَا. وَضَعَ إِيْمِيْت كَيْسَ الْوَسَادَةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَالتَقَطَ الزَجَاجَةَ وَنَاوَلَهَا لِلْعَرَبِيدِ، الَّذِي اسْتَقْبَلَهَا بِتَنْهِيدَةٍ.

-عَلَى مَدَارِ سَاعَةٍ تَقْرِيْبًا، ظَلَلَتْ أَضْعَ عَيْنِيَّ عَلَى هَذِهِ الزَجَاجَةِ، وَأَنَا أَقْلَبُ مُخْتَلِفَ الْحِيلِ الَّتِي قَدْ تَنْتَهِي بِهَا إِلَى حَيَازَتِي. صَرَفْتُهَا جَمِيعًا، وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، بَوَصَفِهَا خَائِبَةً، حَمَقَاءَ، أَوْ تَتَحَدَّى قَوَانِيْنَ الْجَاذِبِيَّةِ. فِي النِّهَايَةِ، لَجَأْتُ إِلَيَّ الْمَلَاذِ الْآخِرِ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ رَجُلٌ يَرِيدُ إِنْجَازَ شَيْءٍ مَا وَالَّذِي اسْتَنْفَدَ كُلَّ خِيَارٍ بِاسْتِثْنَاءِ إِنْجَازِهِ بِنَفْسِهِ -بِعِبَارَةِ أُخْرَى، صَلَّيْتُ. صَلَّيْتُ

لفرديناند وبارثولوميو، القديسين الراعيين لعربات البولمان والزجاجات المقلوبة. وتنزل عليّ ملاكٌ من ملائكة الرحمة.

نظر إلى إيميت بابتسامة امتنان، ثم أعرب فجأة عن اندهاشه.
-أنت لست المضيف!

قال إيميت: -أنا واحد من عمّال المكابح.
-لك الشكر على أي حال.

استدار العريد إلى اليسار، وتناول كأس مارتيني كانت على طاولة مستديرة صغيرة وبدأ يملأها بحرص بالجن. وبينما يفعل ذلك، لاحظ إيميت أن الزيتون في قاع الكأس مرشوقٌ فيها عقربُ الدقائق الخاص بالساعة.

بعد أن ملأ العريد الكأس، نظر إلى إيميت: هل تسمح لي بدعوتك؟
-لا، شكرًا لك.

-لأنك في ساعات العمل، أليس كذلك؟
رفع شرابه باتجاه إيميت، وأفرغ الكأس في جرعة واحدة، ثم جعل يتأمل بحسرة.

-كان من الحكمة أن ترفض. هذا الجن فاترٌ إلى درجة غير طبيعية. إلى درجة إجرامية، تستطيع أن تقول. مع ذلك...

أعاد ملء الكأس، ثم رفعها مجددًا إلى شفثيه، لكنه توقف هذه المرة وقد بدا عليه القلق.

-ليست عندك فكرة أين نحن؟

-خارج سیدار رابيدز.

-أيوا؟

-نعم.

-والساعة؟

-حوالي الثامنة والنصف.

-صباحًا؟

قال إيميت: نعم، صباحًا.
 بدأ العرييد يميل كأسه، لكنه توقف مجددًا.
 -ليس صباح الخميس؟
 -لا. إنه الثلاثاء.
 قالها إيميت وهو يحاول احتواء نفاد صبره.
 تنهّد العرييد في ارتياح، ثم مال باتجاه النائم على الأريكة.
 -هل سمعتَ ذلك يا مستر باكر؟
 عندما لم يردّ باكر، وضع العرييد كأسه، وتناول رغيف خبز صغير من
 جيب سترته، ورشّق به رأس مستر باكر، رشقة سديدة.
 -أقول: هل سمعتَ ذلك؟
 -سمعتُ ماذا يا مستر باركر؟
 -لسنا يوم الخميس بعد.
 انقلب باكر على جنبه، وواجه الحائط.
 -طفلُ الأربعاء حزينٌ عليل، طفلُ الخميس درُّهُ طويل⁽¹⁾.
 حدّق باركر في رفيقه متفكرًا، ثم مال على إيميت.
 -بيني وبينك، مستر باكر هو الآخر فاطر إلى درجة غير طبيعية.
 قال مستر باكر للحائط: -لقد سمعتُ ذلك.
 تجاهله باركر واستمر يُفضّض لإيميت.
 -عادةً، لست من النوع الذي يشغل نفسه بأشياء مثل أيام الأسبوع.
 لكن مستر باكر وأنا ملتزمان بعهدة مقدّسة. فذلك الرجل النائم هنيئًا في
 المقصورة المجاورة ليس إلا ألكسندر كننغهام الثالث، الحفيد المحبوب
 لمالك هذه العربة البهيجة. ولقد تعهدنا بإرجاع مستر كننغهام إلى شيكاغو،
 إلى باب «نادي ألعاب الرّاكيت» (الراكيت بالـq، بعد إذنك، لا بالـk)⁽²⁾.

(1) «طفلُ الأربعاء حزين عليل...»: من أغنية أطفال عن أيام الأسبوع. (م)
 (2) «نادي ألعاب الرّاكيت»، أو «ألعاب المضرب»: تكتب أحيانًا racket، وفي أحيان
 أخرى racquet، متأثرة بالفرنسية ربما. (م).

بحلول ليلة الخميس في السادسة، حتى يصير بالإمكان تسليمه بأمان...
-إلى أيدي أسريه. هكذا قاطعه باكر.

وصوّب له باركر: -إلى يدي عروسه المستقبلية. وهي مهمة لا ينبغي أن تؤخذ بخفة، يا سيّد عامل المكابح. إذ إن جدّ مستر كَنَنُغهام هو المشغل الأكبر لعربات التبريد في أمريكا وجدّ العروس هو المنتج الأكبر لأصابع السجق. لذلك أظنك تستطيع رؤية أهمية توصيل مستر كَنَنُغهام إلى شيكاغو في الموعد.

وقال باكر: -مستقبل الفطور في أمريكا يعتمد على هذا.
ووافقه باركر: -صحيحٌ تمامًا. صحيحٌ تمامًا.

لقد تربّى إيميت على ألا يستخف بأيّ إنسان. كان أبوه يقول: الاستخفاف بإنسانٍ ما يفترض أنك تعرّف الكثير عن حظّه في الحياة، عن نواياه، عن أفعاله في العلن والسّرّ وتستطيع الحكم على شخصيته مقارنةً بشخصيتك من دون أن تخشى سوء التقدير. لكن وهو يراقب الشاب المدعو باركر يُفرغ كأسًا أخرى من الجن الفاتر ثم يسحب الزيتونة من عقرب الدقائق بأسنانه، لم يستطع أن يمنع نفسه من تقييم الرجل والحكم عليه بأنه خفيف العقل.

هناك في سالينا، كانت إحدى القصص التي أحبّ دوقة أن يحكيها -أثناء عملهم في الحقول أو قضاء الوقت في العنابر- تدور حول مؤدّ أطلق على نفسه اسم البروفيسور هاينرش شوايتزر، رائد التحريك العقلي. عندما تُرفع الستارة على البروفيسور، نراه جالسًا في منتصف الخشبة أمام طاولة صغيرة عليها مفرش أبيض، وأدوات عشاء لفرد واحد، وشمعة غير مشتعلة. من خارج الخشبة يظهر نادل، يقدم للبروفيسور شريحة لحم، ويصبّ له كأسًا من النبيذ، ويشعل الشمعة. عندما يغادر النادل، يشرع البروفيسور، من دون استعجال، في تناول بعض من اللحم، وارتشاف بعض من النبيذ، ويغرس شوكته بصورة عمودية في الشريحة -كل ذلك من دون أن ينطق بكلمة. بعد أن يمسح شفّتيه بمناديله، يرفع إبهامًا وإصبعًا منفرجين

في الهواء. وبينما يَضُمُّهُمَا مَعًا ببطء، يُتَفَتَفُ لَهْبُ الشمعة، ويخمد، تاركًا خيطًا طويلًا من الدخان. بعدها، يحدق البروفيسور في نبيذه إلى أن يغلي ويفيض من حافة الكأس. عندما يحوّل انتباهه إلى صحنه، يلتوي النصف الأعلى من الشوكة إلى أن يصير بزاوية تسعين درجة. عند تلك النقطة، تكون قد سَرَت بين الجمهور، الذي تلقى تنبيهًا في بداية العرض بالتزام صمت كامل، دمدمة كاشفة عن دهشة أو عدم تصديق. يرفع البروفيسور يده، ويَهْدِي القاعة. يغمض عينيه، ويشير بكفّيه تجاه الطاولة. ومع زيادة تركيزه، تبدأ الطاولة في الارتعاش إلى درجة تُسَمَع معها قوائمها وهي تتخبط في سطح الخشبة. يفتح البروفيسور عينيه، وبحركة مفاجئة يزيح يديه إلى اليمين، فينطلق مفرش الطاولة في الهواء، تاركًا صحن العشاء، وكأس النبيذ، والشمعة في أماكنها.

المشهد بأكمله كان خدعة. إيهام معقّد يتحقق عبر استخدام أسلاك، وكهرباء، ونفثات من الهواء غير مرئية. والبروفيسور شوايتزر؟ وفقًا لدوقة، كان بولنديًا من بكبسي ليس له على التحريك العقلي سلطانٌ يكفيه لإسقاط مطرقة على قدميه.

لا، فكر إيميت بقدر من مرارة، أمثال شوايتزر في هذا العالم ليسوا في مكانة تؤهلهم لتحريك الأشياء بنظرة أو حركة من اليد. هذه القوة حكرٌ على أمثال باركر.

على أغلب الظن، لم يسبق لأحد أن أخبر باركر أنه يمتلك قوة على التحريك العقلي؛ ولم يتوجّب عليهم هذا. لقد تعلّم ذلك من الخبرة، بدءًا من أيام طفولته، عندما كان يطلب لعبة في واجهة متجر ما أو آيس كريم من بائع في الحديقة. لقد علّمته الخبرة أنه إذا أراد شيئًا بقوة كافية، سوف يجده في يديه في النهاية، حتى إن كان ذلك يتحدى قوانين الجاذبية. فكيف يستطيع الإنسان أن ينظر، من دون استخفاف، إلى رجل يمتلك هذه القوة الاستثنائية فيستخدمها لاستعادة بقايا زجاجة جن من الطرف الآخر من غرفة ما من دون أن ينهض عن كرسيه؟

لكن حتى عندما كانت تلك الأفكار تراود إيميت، كان ثمة طنين رقيق وبدأت الساعة منزوعة العقارب تطلق دقاتها. ألقى إيميت نظرة على ساعة بيلي وعلى وجهه بارقة من قلق أن تكون قد بلغت التاسعة. لقد أساء تقدير مرور الوقت. يمكن للقطار أن يتحرك الآن في أي لحظة.

وإذ تناول إيميت كيس الوسادة عند قدميه، حوّل باركر أنظاره.
-ستغادر؟

-يجب أن أرجع إلى القاطرة.

-لكننا تعارفنا للتوّ. لا داعي للعجلة. تفضل بالجلوس.

مال باركر وسحب الكرسي الشاغر ذي الذراعين يقربه من كرسيه، ما سدّ الطريق إلى الباب فعلياً أمام إيميت.

من بعيد، سمع إيميت هسيس بخار بينما رُفعت المكابح وبدأ القطار في التحرك. دفع إيميت الكرسي الشاغر جانباً وتقدم خطوة باتجاه الباب.
-انتظر!

صاح باركر، ثم وضع يديه على ذراعي الكرسي، ورفع نفسه. فور أن صار باركر واقفاً، أدرك إيميت أنه أكبر حتى مما قد بدا له. وقف يترنح في مكانه لحظة، وقد كادت رأسه تلمس سقف العربة، ثم مال مترنحاً إلى الأمام وهو يمد يديه، وكأنه يريد أن يقبض على إيميت من قميصه.

شعر إيميت بدفقة من الأدرينالين وبإحساس مقزز أن الزمن يعيد نفسه على نحو مُنذر بالشر. وراء باركر ببضع أقدام كانت طاولة القهوة وعليها الكؤوس الفارغة وزجاجة الشامبانيا المقلوبة. بالنظر إلى عدم ثبات وقفة باركر، عرف إيميت من دون تفكير أنه إذا أعطى باركر دفعة واحدة في عظمة الصدر، يستطيع إسقاطه مثل شجرة. كانت فرصة أخرى قدّمتها الصدفة لإيميت لكي يَقلّب كل خططه للمستقبل رأساً على عقب بفعل واحد في لحظة واحدة.

غير أن باركر، برشاقة مفاجئة، دسّ فجأة ورقة مطوية من فئة خمسة دولارات في جيب قميص إيميت. ثم تراجع إلى الوراء، وسقط في كرسيه.

-مع جزيل الامتتان.

هكذا صاح باركر، بينما يخرج إيميت من الباب.

تسلق إيميت السلم وهو يمسك كيس الوسادة بإحدى يديه، وهرول فوق سطح العربة وقفز فوق الفجوة المؤدية إلى العربة التالية -تمامًا مثلما سبق أن فعل ذلك الصباح.

الفارق أن القطار الآن كان يتحرك، يتمايل قليلاً يسارًا ويمينًا، ويزداد سرعةً. قدّر إيميت أنه يتحرك بسرعة عشرين ميلًا فقط في الساعة، لكنه كان قد شعر بقوة الهواء الذي يصطدم به عندما كان يقفز بين العربات. إذا وصل القطار إلى سرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، سيحتاج إلى الركض بسرعة شديدة لكي يقفز من فوق الفجوة؛ وإذا وصل إلى أربعين، لم يكن متأكدًا أنه سيستطيع القفز من فوق الفجوة أصلًا.

بدأ إيميت يجري.

لم يستطع تذكر عدد العربات التي كان قد عبرها هذا الصباح قبل أن يصل إلى الـ«بولمان». بإحساس متزايد بالاستعجال، رفع رأسه ليرى إن كان يستطيع تحديد العربة ذات الكوة المفتوحة. غير أن ما رآه بدلًا من ذلك على مدار نصف ميل أمامه، كان انحناء القطار على التواء في القضبان. ورغم أن التواء القضبان كانت هي الثابتة والقطار هو المتحرك، فمن وجهة نظر إيميت من مَرَصَدِهِ المرتفع بدا أن الالتواء هي التي تتحرك، تتقدم في طريقها بسرعة أسفل سلسلة العربات، متجهة إليه بلا هوادة، مثلما تتقدم الموجه على طول جبل عندما يُخَفَّق من أحد طرفيه.

بدأ إيميت يعدو بأقصى سرعة على أمل الوصول إلى العربة التالية قبل الانحناء. بيد أن الانحناء وصلت أسرع مما توقع، ومرّت من تحت قدميه أثناء قفزته. ومع تمايل العربة، هبط إيميت بغير استواء ووجد نفسه يندفع إلى الأمام حتى إنه بعد لحظة كان ممددًا على بطنه منفرج الساقين فوق السطح وإحدى قدميه مدلاة من فوق الحافة.

عازمًا على ألا يترك كيس الوسادة، جاهد إيميت لكي يقبض على شيء

ما، أيّ شيء، بيده الحرّة. من دون أن ينظر، أمسك بحافة معدنية وسحب نفسه باتجاه منتصف السطح.

تحرك إيميت ببطء إلى الخلف، من دون أن ينهض، باتجاه الفجوة التي قفز لتوّه من فوقها. وإذ عثر على السلم بقدميه، انزلق إلى الورااء أكثر، ونزل السلم، وارتمى على البسطة الضيقة بين العربتين، وهو يلهث من فرط الإجهاد ويكتوي بتوبيخ الذات.

ما الذي كان يفكر فيه؟ يقفز من عربة إلى عربة بهذه السرعة. كان يمكن بسهولة أن يطيح من فوق القطار. ماذا كان سيحدث ليلي عندها؟ كان القطار يتحرك الآن بسرعة خمسين ميلاً في الساعة على الأقل. عند نقطة ما في الساعة القادمة لا بُد أنه سيبطئ، عندها يستطيع أن يشق طريقه بسلام عائداً إلى عربته. نظر إيميت إلى ساعة أخيه ليعرف الوقت، فاكشف أن بلورّتها قد انكسرت وعقرب الثواني تجمّد في مكانه.

القس جون

عندما رأى القس جون أن ثمة شخصًا نائمًا في العربة، كاد أن يمضي في طريقه. عندما يتوجَّب على المرء قطع طريق طويل، يمكن أن يُقال الكثير عن الرفقة. والرحلة في عربة شحن طويلة الساعات شحيحة في أسباب الراحة، وكل إنسان، أيًّا كانت درجة صَعَلَكته، لديه قصة يمكن أن تُهذَّب أو تُسَلِّي. لكن منذ أن رأى آدم جنة عدن لآخر مرة، أودَعَت الخطيئة في قلوب الرجال إلى درجة صار معها حتى الميَّالين إلى الوداعة والطيبة يجدون أنفسهم، أحيانًا، جشعين وقُساءً. لذا، عندما يَجِدُ المسافرُ المنهَك في حوزته نصف باينت من الويسكي أو ثمانية عشر دولارًا كسبها بعرق جبينه، فالحكمة تقتضي أن يتجاوز عن منافع الرِّفقة ويقضي الساعات في أمان العُزلة.

هذا ما كان القس جون يفكر فيه عندما رأى الغريب يعتدل جالسًا، ويُشعل مصباحًا يدويًا، ويسلِّط شعاعه الضيق على صفحات كتاب كبير الحجم - كاشفًا أنه ليس أكثر من صبي صغير.

هاربٌ، هكذا فُكِّر القس جون بابتسامة. لا شك أنه تشاجر مع والديه وتسلَّل هاربًا حاملًا جَرَبَنديته على كتفه، منطلقًا على طريقة توم سوير⁽¹⁾ - هذا القارئ الصغير. وعندما يصل الصبي إلى نيويورك سيُرْحَب بلحظة اكتشافه، لكي تستطيع السلطات إعادته إلى لسان أبيه اللاذع وحضن أمه الدافئ.

بيد أن نيويورك لا تزال على مبعده يوم كامل، ومع أن الصَّبيَّة قد يكونوا طائشين، محدوددي الخبرة، وسدَّجًا، فهم يتمتعون بنوع من الذكاء العملي.

(1) توم سوير: الصبي الصغير في رواية «مغامرات توم سوير» لمارك توين. (م)

ففي حين أن الرجل البالغ الذي يندفع خارجًا في سورة غضبه يفعل ذلك، على الأرجح، من دون قميص على ظهره، يتمتع الصبي الذي يهرب من بيته، دائمًا، بالبصيرة اللازمة لأن يأخذ معه شطيرة. بل وربما قطعة من الدجاج المحمّر المتبقي من العشاء الذي أعدته أمه في الليلة الماضية. ثم لدينا المصباح اليدوي. كم مرة في العام الماضي وحده وجدَ القسُّ جون في توفّر مصباح يدوي في المتناول ضربًا من العناية الإلهية؟ أكثر مما يستطيع أن يحضر.

-هاللو، يا أنت!

من دون أن ينتظر ردًا، نزل القس جون السلم ونفض التراب عن ركبتيه. وقد لاحظ أن الصبي رفع عينيه بقدر من التفاجؤ، لكنه كان مهذبًا فلم يسلط ضوءه على وجه الوافد الجديد. فقال القس: على جنود الرب، تطول الساعات وتَشُحُّ أسباب الراحة. لذا، عن نفسي، سأرحّب بقليل من الصحبة. هل تمانع إذا انضممتُ إليك بجوار نارك؟

سأل الصبي: -ناري؟

أشار القس جون إلى المصباح اليدوي. وقال: اعذرني. أنا أتكلم بالمعنى الشعري. إنها من مخاطر المهنة التي يعيشها كل من يرتدي عباءة الدين. أنا القس جون، في خدمتك.

عندما مد جون يده، نهض الصبي وصافحها كجنتلمان صغير.

-اسمي بيلي واطسن.

-سعيدٌ بمقابلتك يا وليام.

مع أن الظنَّ إنَّ قديمً، أظهر الصبي مسحةً منه.

-هل أنت قسٌّ حقيقي؟

ابتسم القس جون.

-ليس لديّ لا برجٌ مستدقٌ ولا أجراسٌ تحت إمرتي، يا ولدي. بل إنني

مثل سمّي، المعمدان، الطريقُ المفتوح كنيسةً وعامةُ الناس رعيتي. لكن نعم، أنا قسٌّ حقيقي مثل أيما قسٍّ قد تقابله.

قال الصبي: أنت ثاني شخص من أصحاب العباءات ألتقيه في يومين.
-احك لي.

-بالأمس، قابلت الأخت أغنيس في سان نيكولاس في لويس. هل تعرفها.

قال القس بغمزة ذات مغزى: -لقد عرفتُ الكثير من الأخوات في حياتي، لكن لا أظنني سعدتُ بمعرفة واحدة اسمها أغنيس.

ابتسم القس جون للصبي، ثم سمح لنفسه بالجلوس. عندما انضم إليه الصبي، أعرب جون عن إعجابه بالمصباح اليدوي وتساءل إن كان له أن يلقي عليه نظرة أقرب. من دون تردد، أعطاه له الصبي، وهو يشرح له: إنه مصباح يدوي من مخلفات الجيش. من الحرب العالمية الثانية.

وكأنما ليمتّع القس جون أنظاره بضوء المصباح اليدوي، استخدمه لمعاينة بقية العربة، وكانت مفاجأة سارة أن لاحظ أن جَرَبِنْدِيَّة الصبي أكبر مما بدت له في أول الأمر.

-أَوَّلُ ما خلقَ الربُّ.

هكذا علّق القس جون في تقدير وهو يعيد المصباح اليدوي إلى صاحبه.

مجددًا، نظر الصبي إليه في فضول. ولكي يفسر له، استشهد القس جون بالآية: وقال الله ليكن نورٌ، فكان نورٌ.

قال الصبي: -لكن قبلها، في أوَّل البداية، خلق الربُّ السموات والأرض. ألا يجعل ذلك النورَ ثالثَ خَلْقِهِ.

تنحّج القس جون: -أنت محقٌّ تمامًا يا وليام. على الأقل، بالمعنى التقني. على أي حال، أظننا نستطيع الافتراض بأن الربَّ ينظر بعين الرضا حين يرى ثالثَ خَلْقِهِ بعد أن سُخِّرَ لمنفعة الرجال في الحرب، يجد لنفسه حياةً ثانية يُستخدَم فيها كأداة لتهديب صبيّ.

بتلك الملاحظة الشافية ألجم لسان الصبي، ووجد القس جون نفسه يختلس نظرة متلهفة إلى حقيقته.

في اليوم السابق، كان القس جون يعظُ بكلمة الرب على هامش أحد لقاءات الإحياء المسيحية الجوّالة في ضواحي سידار رايدز. ومع أن القس لم يكن رسميًا جزءًا من اللقاء، فقد تأثّر الحضور بأوصافه الحيّة لبحيرة النار المتّقدة بالكبريت حتى إنه ظل يعظ من مطلع الشمس إلى مغربها من دون حتى أن يقطع من الوقت ما يكفي لتناول لقمة سريعة. وفي المساء، عندما بدأ الجمعُ في طيّ الخيام، كان القس جون قد اعتزم الانسحاب إلى حانة قريبة، حيث كانت فتاة صغيرة جميلة من جوقه الكنيسة الميثودية قد وافقت على الانضمام إليه على العشاء و، ربما، كأس من النبيذ. لكن تصادف أن قائد الجوقة كان أيضًا والد الفتاة، وظلّ شيءٌ يؤدّي إلى آخر، إلى أن اضطر القس جون إلى المغادرة بأسرع مما انتوى. وعليه، فعندما جلس إلى جوار الصبي، كان شديد التلهّف على القفز إلى اللحظة التي يتقاسمان فيها الخبز والملح.

بيد أن الالتزام بقواعد «الإتيكيت» في عربة شحن فارغة ضروري، شأنه شأن الالتزام بها على موائد الأساقفة. وقواعد «الإتيكيت» الخاصة بالطريق تقتضي أن يتعرف المسافر على زميله المسافر قبل أن ينتظر مشاركته طعامه. وتحقيقًا لهذه الغاية، أخذ القس جون زمام المبادرة.

- قل لي، أيها الشاب، ما الذي تقرأه؟

- «الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من الرّحالة البواسل» للبروفيسور أبيكوس أبرناثي.

- يبدو جديرًا بالقراءة! تسمّح لي؟

مجددًا، أعطى الصبي أحد ممتلكاته من دون لحظة تردّد. مسيحيّ قلبًا وقالبًا، هكذا فكّر القس جون، وهو يفتح الكتاب. عندما وصل إلى فهرس المحتويات، أدرك جون أنه، بحق، موجزٌ وافيٌّ للأبطال، على نحو أو آخر. شجعه القس على الحديث: - لا شك أنك منطلقٌ في مغامرتك الخاصة.

ردًا عليه، أو ما الصبي برأسه في همّة: - لا تخبرني. دعني أخمن.

نظر القس جون في الكتاب، ومرر إصبعه على القائمة.

-مممم. دعني أرى. نعم، نعم.

نقرَ بإصبعه على الكتاب وهو يتسم، ثم رفع رأسه إلى الصبي.

-أظنك منطلقاً في رحلة حول العالم في ثمانين يوماً -على طريقة

فيلياس فوغ.

قال الصبي: -لا. أنا لست منطلقاً في رحلة حول العالم.

نظر القس جون مجدداً إلى فهرس المحتويات.

-هل تخطط لركوب البحار السبعة مثل سندباد...؟

هز الصبي رأسه من جديد. وفي الصمت الجليل الذي أعقب ذلك،

تذكر القس جون كيف يمكن للمرء أن يملّ سريعاً من ألعاب الأطفال.

-لقد نلت مني يا وليام. أنا أستسلم. لماذا لا تخبرني إلى أين تأخذك

مغامرتك.

-إلى كاليفورنيا.

رفع القس جون حاجبيه. أينبغي عليه أن يخبر الفتى أنه من بين كل

الاتجاهات المحتملة التي يمكن أن يسافر فيها، قد اختار أقل الاتجاهات

احتمالاً أن يوصله إلى كاليفورنيا؟ سيكون خبراً مفيداً للصبي من دون

شك، لكنه أيضاً قد يربكه. وأي فائدة تُجنى من وراء ذلك؟

-كاليفورنيا، تقول؟ وجهة ممتازة. أتخيل أنك متجه إلى هناك على أمل

العثور على الذهب.

ابتسم القس ابتسامة مشجعة. وردّ الصبي بطريقته البيغائية: لا، أنا لست

متجهاً إلى كاليفورنيا على أمل العثور على الذهب.

انتظر القس جون أن يستطرد الصبي، غير أن الاستطرد لم يبدُ من طبيعته.

على أي حال، فكر القس جون، يبدو أن المحادثة قد طالت بما يكفي.

-أيّما تصادف واتّجهنا ولايّما أسباب كانت، فمن حسن حظي أن أجد

نفسي في صحبة فتى لديه معرفة بالكتاب المقدس وحبّ للمغامرة. لكن

الشيء الوحيد الناقص لكي يجعل رحلتنا أكثر مثالية...

عندما توقف القس، نظر الصبي إليه في ترقب.

...سيكون شيئاً نَقْصِمُ فيه ونحن نقضي وقتنا في الحديث.

ابتسم القس جون ابتسامة متحسرة. ثم حان دوره أن ينظر في ترقب. غير أن الصبي لم يطرّف له جفن.

فكر القس جون. هل يمكن أن يكون وليام الصغير داهيةً أريبًا؟

لا. ليس من هذا النوع. فعلى طبيته ونقاء سريره، كان سيقسم معه شطيّة لو كانت معه واحدة. لسوء الحظ، يبدو أن الشطيّة الذي أخذها معه انطلاقاً من سلامة حسّه، أيّاً كانت محتوياتها، قد أكلت بالفعل. فالصبيّة الهاربون، رغم تمتعهم ببُعد نظر يجعلهم يأخذون معهم طعاماً، يفتقرون عادةً إلى الانضباط الذاتي اللازم لتقسيمه على طول الرحلة. قطّب القس جون جبينه.

عندما يُنعم الرب على المختال الفخور، إنّما يُنعم عليه بالخيبة والخذلان. هذا درسٌ ألقاه القس جون كثيراً على الكثير من الأرواح تحت الكثير من الخيام وبأثر عظيم. مع ذلك، كلما ظهرَ في طريق تفاعلاته هو نفسه برهانٌ على هذا الدرس، بدا له دائماً مفاجأة غير سارة. قال القس جون بقدر من الحدة: يجدر بك أن تطفئ النور. كيلا تُهدر البطاريات.

وإذ رأى الصبي ما في هذا الاقتراح من حكمة، تناول مصباحه اليدوي وأطفأه. لكن عندما مد يده إلى جَرَبِنْدِيّته ليضعه فيها، انبعث صوت رقيق من الحقيبة.

عندما سمع القس جون الصوت، اعتدل في جلسته أكثر قليلاً واختفى العبوس من على وجهه.

أكان صوتاً يعرفه؟ لقد كان صوتاً مألوفاً جداً، غير متوقّع جداً، ومحبيباً جداً حتى إنه حفّز كل ذرّة في كيانه - مثلما تُحفّز خشخشة فأرٍ حقولٍ في أوراق الخريف قطاً. إذ كان ما انبعث من الجَرَبِنْدِيّة جلجلةً عمّلات معدنية لا تخطئها الأذن.

بينما يدسُّ الصبي مصباحه، رأى القس جون قمة علبة تبغ صفيح وسمع العملات تتحرك بداخلها وكأنما على أنغام الموسيقى. ليست سنتات ولا نِكَلات، انتبه؛ تلك التي تُعلن عن نفسها بصوت فقير يناسبها. بل كانت بالتأكيد تقريبًا أنصاف دولارات أو دولارات فضية.

في ظل هاتِه الظروف، شعرَ القس جون برغبة ملحة في الابتسام، في الضحك، بل وفي الغناء. لكنه كان، أولًا وقبل كل شيء، رجلًا صاحب خبرة. لذا، عوضًا عن ذلك، قدَّم للصبي الابتسامة المشاكسة لصديق قديم - ما الذي لديك هناك يا وليام يا صغير؟ هل هذا الذي أراه تبغ؟ لا تقل لي إنك منغمس في غواية تدخين السجائر.

- لا يا سيدي القس. أنا لا أدخن السجائر.
- الحمد لله. لكن لماذا، من فضلك خبّرني، تحمل معك هذه الصفيحة؟

- لأنني أحفظ فيها مجموعتي.
- مجموعة، تقول! أوه، كم أحب المجموعات. هل لي أن أراها؟
أخرج الصبي العلبة الصفيح من حقيبته، لكن رغم أنه سبق وشاركه مصباحه اليدوي وكتابه بكل سرور، بدا ترددده واضحًا في عرض مجموعته. مجددًا، وجد القس نفسه يتساءل إن كان وليام الصغير ليس بالسذاجة التي يتظاهر بها. بيد أنه، حين تتبّع نظرة الصبي إلى أرض العربة الخشنة المتربة، أدرك أن الصبي إذا كان مترددًا، فإنما يرجع ذلك إلى أنه لا يعتبر السطح جديرًا بمقتنياته.

أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا، هكذا اعترف جون، بالنسبة لهاوي جمع قطع الصيني الفاخرة أو المخطوطات النادرة، أن يكون مدققًا في مسألة الأسطح التي توضع عليها مقتنياته الغالية. لكن عندما يتعلق الأمر بالعملات المعدنية، فهذا السطح بالتأكيد مثله مثل ذاك السطح. ففي نهاية المطاف، قد تنتقل العملة المعدنية القياسية، على مرِّ حياتها، من خزانة وجيه إلى كفٍّ شحاذٍ ذهابًا وإيابًا عدة مرات. لقد وجدت نفسها على طاولات البوكر وفي

صواني النذور. لقد حُمِلت إلى المعركة في حذاء بطل وضاعت وسط
الوسائد المخملية في مخدع سيدة شابة. إن العملة القياسية الواحدة تدور
حول العالم وتركب البحار السبعة.

ما كانت ثمة حاجة إذاً لهذا الحرص الزائد. العملات المعدنية ستظل
جاهزة لتأدية الغرض منها بعد أن تُفرد على أرضية عربية شحن مثلما كانت
يوم ضُربت في دارِ سكِّ العملة. كل ما كان يحتاجه الصبي هو قليل من
التشجيع.

قال القس جون: -هاك، دعني أساعدك.

لكن عندما مد القس جون يده، تراجع الصبي -وهو لا يزال يضع يده
على علبة الصفيح وعينه على الأرض.

ولما كانت تلك طبيعة ردود الأفعال التلقائية، فقد حفزت حركة الصبي
المفاجئة إلى الورا القس على أن يميل بغتة إلى الأمام.

الآن، وقد صارت يدا كل منهما على العلبة، أظهر الصبي عزماً مشيراً
للإعجاب وهو يسحبها تجاه صدره، بيد أن قوة الطفل لا تقارن بقوة الرجل
البالغ. لحظات وكانت العلبة في حوزة القس. أمسكها جون وأبعدها بيده
اليمنى، بينما وضع يده اليسرى على صدر الصبي ليبقيه بعيداً.
حذره قائلاً: -حذار يا وليام.

غير أنه، كما تبين، لم يكن بحاجة لهذا التحذير. إذ لم يعد الصبي
يحاول استعادة العلبة أو محتوياتها. كان الصبي الآن، وكأن روح الرب قد
استحوذت عليه، يهز رأسه وينطق بعبارات غير مترابطة، وكأنه غير واع بما
حوله. كانت جربنديته مشدودة بقوة إلى حجره، وكان واضحاً أنه متفعل
جداً، لكنه مسيطر على نفسه.

قال القس جون وهو يشعر بالرضا: -الآن، دعنا نرى ما بداخلها.

فتح الغطاء، وسكب المحتويات. وفي حين كانت جلبة صغيرة
محببة قد نجمت عن تخبط علبة الصفيح، ذكره صوت المحتويات وهي
تنسكب على الأرضية الخشبية الصلبة بصوت ماكينات القمار وهي

تسكب عملاتها لصاحب الحظ السعيد. بأنامله، فردّ القس جون برفق العملات على الأرض. كان هناك على الأقل أربعون منها وكانت جميعها دولارات فضية.

قال القس جون: -ليتمجد اسم الرب!
إذ كانت العناية الإلهية، بكل تأكيد، هي التي وضعت هذه الغنيمة بين يديه.

ألقي نظرة سريعة على وليام، وسرّه أن يجده لا يزال مسيطرًا على نفسه. سمح ذلك لجون أن يحوّل انتباهه بالكامل إلى الهبة التي تنزلت عليه من السماء. التقط أحد الدولارات، ورفعها بزاوية أمام ضوء الصباح الذي بدأ يسطع عبر الكوة.

همس القس: -ألف وثمانمئة وستة وثمانين.
ثم سارع برفع عملة أخرى من الكومة. ثم أخرى، ثم أخرى. 1898. 1905. 1909. 1912. 1882!

نظر القس إلى الصبي بتعبير لاح عليه تقديرٌ جديد، إذ لم يكن وصفهُ لمحتويات العلبة بـ«المجموعة» وصفًا فارغًا. فما هو أمامه لم يكن ببساطة مدخرات صبي ريفي. بل عيّنات جُمعت بصر من الدولارات الفضية الأمريكية المسبوكة في سنوات مختلفة -بعضها يساوي غالبًا أكثر من دولار واحد. ربما أكثر بكثير من دولار واحد.

من يعرف كمّ تساوي هذه الكومة الصغيرة؟
القس جون لم يعرف. هذا هو المؤكد. لكن فور أن يصل إلى نيويورك، سيعرف بسهولة. اليهود في شارع سبعة وأربعين سيعرفون بالتأكيد كم تساوي وغالبًا سيجدّهم مستعدين لشرائها. لكنهم ليسوا محل ثقة في إعطائه سعرًا عادلاً. ربما هناك مطبوعات في مكان ما تُبيّن قيمة العملات. نعم، هذا هو الحال. هناك دائمًا مطبوعات تُبيّن قيمة الأشياء التي يحبها هواة الجمع. ولحسن الحظ، يقع الفرع الرئيسي لمكتبة نيويورك العامة على مرمى حجر من المكان الذي يزاول فيه اليهود تجارتهم.

بدأ الصبي، الذي ظل يكرر هامسًا الكلمة نفسها مرة بعد مرة، يرفع صوته.

قال القس جون، بلهجة وعيد: -اهدأ الآن.

غير أن القس عندما نظر إلى الصبي -الذي يهتز في مكانه والجربنديّة في حجره، بعيدًا بهذا القدر عن دياره، وجائعًا، ومنطلقًا في الاتجاه الخطأ- أصابته وخزة من التعاطف المسيحي. كان قد تخيل، في لحظة انتشاء، أن الرب أرسل له الصبي. لكن ماذا لو كان العكس؟ ماذا لو كان الرب أرسله هو للصبي؟ ليس رب ابراهيم، الذي يصعق الخاطيء بأسرع مما ينطق اسمه، لكن رب المسيح. أو حتى المسيح نفسه، ذلك الذي طمأن قلوبنا أننا مهما جدنا عن الصراط، نستطيع دائمًا أن نجد المغفرة بل وحتى الفداء إذا نحن أعدنا توجيه خطانا إلى صراط الفضيلة.

ربما كان مقدّرًا له أن يساعد الصبي على بيع مجموعته. أن يوصله بأمان إلى المدينة ويتفاوض نيابة عنه مع اليهود ليتأكد أنهم لا يستغلونه. بعدها سيأخذه جون إلى محطة بنسلفانيا، حيث يضعه على متن قطار إلى كاليفورنيا. وكل ما سيطلبه في المقابل مجرد وهبة رمزية. ضريبة عُشور ربما. لكن تحت سقف المحطة الشاهق، وإذا يحيط بهما رفاقهما من المسافرين من كل ناحية، سيُصّر الصبي على اقتسام غنيمتهما إلى شطرين متساويين!

ابتسم القس جون لتلك الأفكار.

لكن ماذا إذا غيّر الصبي رأيه...؟

ماذا إذا ذهب إلى أحد المتاجر في شارع سبعة وأربعين، ووجده يعترض فجأة على بيع مجموعته. ماذا إذا ضَمَّ الصفيحة إلى صدره بقوة مثلما يضم جربنديّة الآن، معلنا لكل من يُنصت له أن العملات عملاته. أوه، لكم سيستمع اليهود بذلك! لكم سيتلذذون بفرصة استدعاء الشرطة، وتوجيه أصابع الاتهام إلى قس، ورؤيتهم يأخذونه.

لا. إذا كان الرب الرحيم قد تدخّل، فذلك لكي يُرسل الصبي إليه، لا العكس.

نظر إلى وليم بهزة رأس بها قدر من التعاطف.

بيد أن القس جون، وهو يفعل ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة القوة التي يقبض بها الصبي على الجربندية. كان قد ضمَّها إلى صدره، ولف ذراعيه حولها، ورفع ركبته إليها، وخفض ذقنه وكأنما لجعلها غير مرئية للعين المجردة.

-خبرني يا وليام. ماذا لديك أيضًا في حقيقتك هذه...؟
من دون أن ينهض، بدأ الصبي ينزلق إلى الورا على أرضية العربة الخشنة المتربة من دون أن يخفف قبضته على الجربندية.
أجل، علق القس. انظر كيف يمسك بها إلى صدره حتى وهو يتزحزح بعيدًا. هناك شيء آخر في تلك الحقيبة، وباللله لأعرف ما هو.
وإذ نهض القس جون على قدميه، سمع صرير عجلات معدنية بينما بدأ القطار يتحرك.

رائع، هكذا فكّر. سيَعْتَق الحقيبة من الصبي والصبي من العربة. بعدها يستطيع أن يسافر إلى نيويورك في أمان عزله ومعه مئة دولار أو أكثر.
بيدين ممدودتين إلى الأمام، تقدم القس جون خطوة صغيرة بينما التصق الصبي بالحائط. عندما تقدم القس خطوة أخرى، بدأ الصبي ينزلق إلى يمينه، فقط ليجد نفسه محاصرًا في الزاوية حيث لا مهرب يلجأ إليه.
خَفَّف القس نبرته، فصارت نبرة تفسير لا اتهام: -أرى أنك لا تريدني أن أنظر في حقيقتك يا وليام. لكنها إرادة الرب أن أفعل ذلك.

الصبي، الذي كان مستمرًا في هزّ رأسه، أغمض عينيه الآن مثل شخص يعترف باقتراب المحتوم لكنه يتمنى ألا يشهد وصوله.
برفق، مد جون يده إلى أسفل، وقبض على الجربندية، وشرع يرفعها. غير أن قبضة الصبي كانت مُحْكَمَةً. مُحْكَمَةً جدًا حتى إن القس جون عندما بدأ يرفع، وجد نفسه يرفع الحقيبة والصبي معًا.
أطلق القس جون ضحكة صغيرة على كوميديا الموقف. كان موقفًا من تلك التي يمكن أن تراها في أحد أفلام باستر كيتون⁽¹⁾.

(1) باستر كيتون: أحد رواد السينما الأمريكية الصامتة. (م)

لكن كلما حاول القس جون أن يرفع الحقيقة بقوة أكبر، ازداد تمسك الصبي بها؛ وكلما ازداد تمسكه بها، اتضح أكثر أن شيئاً ذا قيمة مخبأ بداخلها.

قال القس جون، في نبرة كشفت نفاد صبر مبرّر: -هيا، اتركها. غير أن الصبي، الذي ظل يهز رأسه وعيناه مغمضتان بقوة، أخذ يردد تعويذته بصوت أعلى وأوضح.

-إيميت، إيميت، إيميت.

-لا يوجد إيميت هنا.

قالها القس جون في صوت مهدئ، لكن الصبي لم يُظهر أي علامة على إرخاء قبضته.

وإذ لم يعد أمام القس جون خيار آخر، ضربه.

نعم، ضرب الصبي. لكنه ضربه مثلما قد تضرب المدرسة الشديدة تلميذاً، لتصحيح سلوكه وإجباره على الانتباه.

بدأت بعض الدموع تتدحرج على خدي الصبي، لكنه لا فتح عينيه ولا أرخى قبضته.

بما يشبه تنهيدة، قبض القس جون على الجربندية بقوة بيده اليمنى وأرجع اليسرى إلى الوراء. هذه المرة، سيضرب الصبي مثلما كان أبوه هو يضره -بقوة على الوجه بمؤخرة اليد. أحياناً، مثلما أحبّ أبوه أن يقول، لكي تترك أثراً «في الطفل»، عليك أن تترك أثراً «على الطفل». لكن قبل أن يتمكن القس جون من تحريك يده، تعالت خبطة قوية من ورائه.

من دون أن يترك الصبي، نظر جون من فوق كتفه.

واقفاً في الطرف الآخر من العربة، بعد أن سقط من الكوة، كان زنجي بطول ستّ أقدام⁽¹⁾.

(1) زنجي: اخترنا هذه الترجمة لكلمة Negro التي لم تكن في ذلك الوقت قد أصبحت كلمة مسيئة، بل كانت تستخدم للإشارة إلى ذوي البشرة السوداء في الخمسينيات. وكان يستخدمها مارتن لوثر كينغ على سبيل المثال. (م)

صاح القس: -يوليسيس!

للحظة، لم يتحرك يوليسيس ولم ينطق. لعل المشهد أمامه تشوّش بانتقاله المفاجئ من نور النهار إلى الظل. بيد أن عينيه سرعان ما تكيّفتا. قال، بطريقة غير متعجلة: -اترك الصبي.

لكن القس جون لم يكن يمسك الصبي. كان يمسك الحقيبة. ومن دون أن يتركها، بدأ يشرح الموقف بأسرع ما يستطيع: هذا اللص الصغير تسلل إلى العربة وأنا غارق في النوم. لحسن الحظ، استيقظت في اللحظة التي كان يفتش فيها في حقيبتي. وفي العراك الذي تلا ذلك، انسكبت مدخراتي على الأرض.

-اترك الصبي أيّها القس. لن أقولها ثانية.

نظر القس جون إلى يوليسيس، ثم أفلت قبضته ببطء.

-أنت محقّ تمامًا. لا داعي لتعنيفه أكثر من ذلك. لا بُد أنه تعلم الدرس.

سأجمع دولاراتي وأرجعها إلى حقيبتي وكفى.

لحسن الطالع، لم يعترض الصبي. لكن ما أثار دهشة القس جون، أن تراجع له لم يكن بداعي الخوف. على العكس، كان الصبي، الذي لم يعد يهز رأسه وعيناه مغمضتان، يحدّق الآن في يوليسيس وقد ارتسمت الدهشة على وجهه.

لعله لم يسبق أن رأى زنجيًا، هكذا فكّر القس جون.

وكان ذلك هو المطلوب. إذ قبل أن يستعيد الصبي حواسّه، كان القس جون قد لمّم المجموعة. ولكي يفعل ذلك نزل على ركبتيه وبدأ يكنس العملات.

قال يوليسيس: -اتركها مكانها.

نظر القس جون وراءه إلى يوليسيس، ويداه لا تزالان تحلّقان على بُعد بضع بوصات فوق الغنيمة، وتحدث بصوت فيه مسحة من سُخط.

-كنت فقط سأستعيد حقي المشروع في...

-ولا عملة واحدة.

قال يوليسيس. وغير القس نبرته: أنا لست طماعًا، يا يوليسيس. مع أنني كسبت تلك الدولارات بعرق جبينني، هل أقترح عليك أن نقتدي بحكم سليمان ونقسم النقود نصفين؟⁽¹⁾

حتى وهو يقدم هذا الاقتراح، أدرك القس جون بقدر من الجزع أنه قلب الدرس رأسًا على عقب. وكان ذلك سببًا آخر لأن يستمر في طريقه. -نستطيع أن نقسمه إلى ثلاث حصص متساوية إذا أحببت. واحدة لك، وواحدة لي، وواحدة للصبي.

لكن بينما يقدم القس جون اقتراحه، استدار يوليسيس إلى باب العربة، وفتح المزلاج، ودفع الباب يفتحه بهدير مسموع. وقال للقس: -هنا ستنزّل. عندما أخذ القس جون حقيبة الصبي في يده أول مرة، كان القطار يتحرك بالكاد، بيد أنه كان قد اكتسب سرعة معتبرة في هذه الأثناء. في الخارج، كانت فروع الأشجار تجري في الاتجاه المعاكس بسرعة انطمست معها ملامحها.

أجاب مصدومًا: -هنا؟ الآن؟

-أنا أركب بمفردي أيها القس. أنت تعرف ذلك.

-نعم، أتذكر أنك تفعل ذلك. لكن الرحلة في عربة شحن طويلة الساعات شحيحة أسباب الراحة؛ ولا شك أن بعض الرفقة المسيحية... -لأكثر من ثمانية أعوام، ظللتُ أركب بمفردي من دون منفعة الرفقة المسيحية. وإذا وجدت نفسي فجأة بحاجة إليها، فلن تكون رفقتك أنت بالتأكيد.

نظر القس جون إلى الصبي يستعطف فيه حسَّ الإحسان على أمل أن

(1) حكم سليمان: الإشارة إلى القصة المأثورة حيث تنازعت امرأتان على طفل، وزعمت كل منهما أنها أمه. وعندما وقفتا أمام سليمان أمر بأن يُقسم الطفل نصفين وتأخذ كل أم نصفًا. إحدى المرأتين لم تعترض، فإذا كانت لن تأخذ الطفل، لن تأخذه غريمتها. أما الأخرى فتوسلت إلى سليمان أن يعطي الطفل لغريمتها، فقط يبقى على حياته. ومن ذلك عرف سليمان أن الأخيرة هي الأم الحقيقية. (م)

يتقدم للدفاع عنه، غير أن الصبي كان لا يزال يحدق في الزنجي مشدوهاً.
رضخَ القس: -طَيِّب، طَيِّب. لكل إنسان الحق في أن يصاحب من
يشاء، ولا أريد أن أفرض عليك رفقتي. سأصعد السلم، وأخرج من الكوة،
وأمضي في طريقي إلى عربة أخرى.

قال يوليسيس: -لا. هذا هو الطريق الذي ستسلكه.

للحظة، تردّد القس جون. لكن عندما همّ يوليسيس بالتحرك ناحيته،
تقدّم إلى الباب.

في الخارج، لم تبدُ الأرض مرّجة. على طول القضبان كانت سكةٌ
عالية مكسوةٌ بخليط من الحصى والشجيرات، ومن ورائها غابة كثيفة
وقديمة. من يعرف كم يبعدون عن أقرب بلدة أو طريق.

وإذ استشعر القس جون أن يوليسيس صار خلفه، نظر إلى الورا
باستجداء، غير أن الزنجي لم ينظر في عينيه. هو الآخر كان يراقب الأشجار
وهي تجري في الاتجاه العكسي، يراقبها من دون تبكيت من ضمير.
توسّل إليه مرة أخرى: -يوليسيس!

-بمساعدتي أو من دونها، أيّها القس.

أجاب القس جون، وهو يستجمع نبرة الاستياء حين تخرج من رجل
نزيه: -طَيِّب، طَيِّب. سأقفز. لكن قبل أن أفعل ذلك، تستطيع على الأقل أن
تسمح لي بلحظة للصلاة.

هز يوليسيس كتفيه، بطريقة غير محسوسة تقريباً.

قال القس جون بطريقة حاسمة: -المزمور ثلاثة وعشرون سيكون
مناسباً. نعم، أعتقد أن المزمور ثلاثة وعشرين سيؤدي الغرض على أكمل
وجه.

وضع القس كفّيه معاً وأغمض عينيه: -الرب راعيّ فلا يعوزني شيء.
في مراعي خُضر يرْبُضني. إلى مياه الراحة يوردني. يردّ نفسي. يهديني إلى
سبل البرّ من أجل اسمه.

بدأ القس يتلو المزمور ببطء وهدوء، في نبرة تواضع. لكن عندما وصل

إلى الآية السادسة بدأ صوته يرتفع بحسّ من القوة الداخلية التي لا تظهر إلا في جنود الرب.

رتّل وهو يرفع يديه، وكأنه يلوّح بالكتاب المجيد فوق رؤوس رعيّته المتعبدين: نعم، أيضًا إذا سرّْتُ في وادي ظلّ الموتِ لا أخافُ شرًّا، لأنك أنتَ معي. عصاك وعكازك يعزّيانني!

لم يكن قد تبقى على المزمور إلا آيتان أخريان، لكن ما من آيتين كانتا لتلائما الموقف أكثر. وإذ كان القس جون في كامل هندامه، وبعد أن وصل بخطبته إلى النبرة الملائمة، لا بُد أن الآية التالية، تُرتّب قدامي مائدة تجاه مُضايقي، كانت ستخز يوليسيس حتى تصل منه إلى النخاع. وسيجد نفسه يرتعش عندما يختتم القس جون قائلاً: إنما خيرٌ ورحمةٌ يتبعانني كلّ أيام حياتي، وأسكنُ في بيت الربِّ إلى مدى الأيام!

غيرَ أن القس جون لم يجد الفرصة أبدًا لكي يصل إلى تلك الذروة الخطابية المنشودة، إذ بينما يهْمُ بإلقاء الآيتين الأخيرتين، دفعه يوليسيس ليطير في الهواء.

مكتبة

t.me/soramnqraa

يوليسيس

عندما استدار يوليسيس عن الباب، وجد الصبي الأبيض يرفع رأسه إليه، ومخلَّطه مضمومة بين ذراعيه.

أشار يوليسيس بإحدى يديه إلى الدولارات.
- اجمع أشياءك يا ولدي.

بيد أن الصبي لم يتحرك ليفعل مثلما قيل له. فقط ظل يحدق من دون أن يبدو عليه الهلع.

لا بُدَّ أنه في الثامنة أو التاسعة فحسب، هكذا فُكّر يوليسيس. ليس أصغر كثيرًا مما سيكون عليه ولدي الآن. واستطرد بنبرة أكثر رقة: مثلما سمعتني أخبر القس. أنا أركب بمفردي. هكذا كانت الأمور وهكذا ستبقى. لكن في غضون نصف ساعة أو نحو ذلك، سنقابل منحدرًا حادًا وسيطئ القطار. عندما نصل إليه، سأُنزلك على العشب ولن يصيبك أذى. هل تفهم؟

بيد أن الصبي ظل يحدق وكأنه لم يسمع كلمة، وبدأ يوليسيس يتساءل إن كان عيبًا. لكنه عندها نطق: - هل كنت في حرب؟

بوغت يوليسيس من السؤال. قال بعد لحظة: - نعم، كنتُ في حرب. تقدم الصبي خطوة إلى الأمام.

- هل ركبْتَ البحر؟

أجاب يوليسيس بنبرة دفاعية بعض الشيء: - كلنا كنا وراء البحار. فُكّر الصبي في نفسه، ثم تقدّم خطوة أخرى.

- هل تركت وراءك زوجة وابناً؟

يوليسيس، الذي لم يسبق أن تراجع أمام رجل، تراجع أمام الطفل. تراجع بحركة مفاجئة حتى كان المراقب ليظن أن الصبي لمس سلكًا عاريًا على سطح جلده.

سأل، وهو يرتجف: -هل نعرف أحدنا الآخر؟

-لا. لا نعرف أحدنا الآخر. لكنني أعتقد أنني أعرف مَنْ هو الرجل الذي سُمِّيتَ على اسمه.

-الجميع يعرفون أنني سُمِّيتُ على اسم يوليسيس غرانت، قائد جيش الاتحاد، السيف البتَّار في يد مستر لينكون.

قال الصبي وهو يهز رأسه: -لا. لا، لم يكن هذا اليوليسيس. -أظنني أعرف أفضل منك.

استمر الصبي يهز رأسه، ولو ليس بإيماءة اعتراض. كان يهز رأسه بإيماءة صبر وتعاطف.

قال مجددًا: -لا. لا بُدَّ أنك سُمِّيتَ على اسم يوليسيس العظيم.

نظر يوليسيس إلى الصبي وقد تزايد شعوره بالحيرة، مثل شخص وجد نفسه فجأة في حضرة روح شفيفة.

لبرهة، أدار الصبي نظرتَه إلى سقف العربة. عندما عاد لينظر إلى يوليسيس كانت عِيناه قد انفتحتا على وسعهما وكأن فكرةً قد أصابته فجأة. قال: أستطيع أن أريك.

جلس على الأرض، وفتح غطاء مخلاته، وأخرج كتابًا أحمر كبيرًا. قلبَ الصفحات إلى صفحة قريبة من النهاية وشرع يقرأ.

غني لي، يا ربَّة الشَّعر، عن الطَّواف العظيم الأريب

أوديسيوس، المعروف باسم يوليسيس

ذي القامة الفارعة والعقل المطواع

الذي بعدَ إذ أظهر شجاعته في ميدان المعارك

كُتب عليه السفر في هذا الطريق وذاك

من أرض غربية إلى أرض غربية...

الآن، كان يوليسيس هو من تقدم خطوة إلى الأمام.

قال الصبي، من دون أن يرفع رأسه عن كتابه: كل شيء هنا. في سالف

الزمان، وعلى غير رغبة منه، غادر يوليسيس العظيم زوجته وولده وركبَ

البحر لكي يقاتل في حرب طروادة. لكن فور أن حقق الإغريق النصر، انطلق يوليسيس عائداً إلى دياره بصُحبة رفاقه، فقط لكي تجنح سفينته عن مسارها مرة بعد مرة.

رفع الصبي رأسه: - لا بُدَّ أنه مَنْ سُمِّيَتْ على اسمه يا يوليسيس. ومع إن يوليسيس سبق وسمع اسمه يُنطق عشرة آلاف مرة من قبل، ففي سماعه يُنطق بلسان هذا الصبي في هذه اللحظة - في عربة الشحن هذه، في موقع ما غرب المكان الذي يتجه إليه وشرق المكان الذي كان فيه - بدا وكأنه يسمعه لأول مرة.

أمال الصبي الكتاب ليتمكن يوليسيس من رؤيته بمزيد من الوضوح. ثم ترحل قليلاً إلى يمينه، مثلما يفعل المرء عندما يُفسح مكاناً لآخر على مقعد. ووجد يوليسيس نفسه يجلس بجوار الصبي وينصت له وهو يقرأ، وكأن الصبي مسافرٌ مخضرمٌ شَدَّت الحربُ من عودِه، وهو، يوليسيس، الطفل.

في الدقائق التي أعقبت ذلك، جعل الصبي - هذا البيلي واطسن - يقرأ كيف أن يوليسيس العظيم، بعد إذ فردَ أشرعته ووجَّه دَفَّته صوب الديار، أغضبَ الإله بوسيدون بأن أعمى ابنه ذا العين الواحدة، السَّيكلوب، ومن ثم أصابته لعنة أن يظل طَوَّافاً في بحار لا ترحم. قرأ كيف أن أيولوس، خازن الرياح، أعطى يوليسيس حقيبة لتسرَّع من تقدُّمه، غير أن بحارته، الذين اشتبهوا في كونه يخبئ عنهم ذهباً، فتحوا الحقيبة، وأطلقوا الرياح، فانجرفت سفينة يوليسيس ألفَ فرسخ عن مسارها - لحظة أن لاحت للعيون شواطئ دياره التي اشتاق إليها طويلاً.

وبينما يُنصت يوليسيس، بكى، هو الذي لم يتذكر أنه بكى من قبل. بكى على سَمِيَّه وعلى بحَّارة سَمِيَّه. بكى على بينيلوبي وتيليماكوس. بكى على رفاق سلاحه الذين دُبِّحوا في ميدان القتال، وعلى زوجته وابنه، اللذين تركهما وراءه. لكنه قبل كل شيء، بكى على نفسه.

عندما التقى يوليسيس بميسي في صيف عام 1939، كانا وحيدين في العالم. في غمار الكساد، كان كل منهما قد دفن والديه، كل منهما قد غادر الولاية التي وُلد فيها -هي ألاباما وهو تينييسي- إلى مدينة سان لويس. لدى وصولهما، ظل كل منهما يتنقل من غرفة بالإيجار إلى غرفة بالإيجار ومن وظيفة إلى وظيفة من دون أصحاب أو أقارب. حتى إنهما عندما تصادف وقوفهما متجاورين أمام المشرب في مؤخرة صالة «ضوء النجوم» للرقص -وكلاهما ميال للإنصات أكثر من الرقص- كانا يؤمنان بأن حياة الوحدة هي كل ما تخبئه السماء لأمثالهما.

بأيّ فرح تبين لهما غير ذلك. في كلامهما تلك الليلة، أيّ ضحكٍ ضحكا -مثل اثنين لا يعرف كل منهما نقائص الآخر فحسب، بل وقد رأى ذلك الآخر ينسج تلك النقائص عمداً من أحلامه وخيالاته وتصرفاته الطائشة. وفور أن استجمع الشجاعة ليطلب منها مراقصته، التصقت به على حلبة الرقص بطريقة ليس من بعدها فراق. بعدها بثلاثة أشهر، عندما استؤجر كعامل صيانة للخطوط في شركة الهواتف وصار يكسب عشرين دولاراً في الأسبوع، تزوّجا وانتقلا إلى شقة من غرفتين في الشارع الرابع عشر، حيث استمرا متلاصقين في رقصتهما من مطلع الشمس إلى مغربها، وبضع ساعات أخرى.

لكن عندها، بدأت الاضطرابات وراء البحار.

تخيل يوليسيس أنه، عندما يحين الوقت، سوف يلبي نداء بلاده مثلما فعل أبوه عام 1917. لكن عندما قصف اليابانيون ميناء بيرل هاربر في ديسمبر عام 1941 وبدأ كل الأولاد يحتشدون أمام مكاتب التجنيد، قابلت ميسي -التي كانت قد انتظرت في عزلتها سنين طويلة- نظرتة بعينين ضيقتين وهزة بحركة بطيئة من رأسها، وكأنما لتقول: يوليسيس ديكسون، إياك أن تجرؤ.

وكان حكومة الولايات المتحدة ذاتها قد اقتنعت بنظرة ميسي الحاسمة، فأعلنت في أوائل عام 1942 أن كلّ عمال صيانة الهواتف ممن لديهم

خبرة سنتين يُنجزون عملاً جوهرياً ولن يُستدعوا للخدمة. لذا حتى بعد أن تزايدت الجهود الحربية، ظل هو وميسي يستيقظان في الفراش نفسه، ويتناولان الفطور على الطاولة نفسها، وينطلقان إلى وظيفتهما ومعهما سُطولُ الغداء نفسها. لكن مع كل يوم يمرُّ عليهما، كان استعداد يوليسيس لتجنب الصراع يوضع محل الاختبار، وبصورة مؤلمة.

كان يوضع محل الاختبار مع خُطب فرانكلين ديلاانو روزفلت في المذيع وهو يُطمئن الأمة أننا عبر عزيمةنا المشتركة سننتصر على قوى الشر. يوضع محل الاختبار مع عناوين الصحف. يوضع محل الاختبار مع أولاد الحي الذين يكذبون حول أعمارهم لكي يلتحقوا بالحرب. وقبل كل شيء، يوضع محل الاختبار مع الرجال الستينيين الذين ينظرون إليه وهو في طريقه إلى العمل نظرات جانبية، يتساءلون ما الذي يفعله رجل لائق جسمانيًا بحق الجحيم جالسًا في «تروللي باص» في الثامنة صباحًا بينما بقية العالم في الحرب. لكن كلما تصادف وأن مرَّ بمجند جديد في زيِّه العسكري الذي تسلمه حديثًا، وجد أمامه ميسي وقد ضيّقت عينها لكي تذكره كم انتظرت. وهكذا، ابتلع يوليسيس كبرياه، ومع مرور الشهور، ظل يركب التروলلي وهو يُلقي نظرة إلى أسفل ويحرق ساعات فراغه بين جدران شقتهما.

ثم، في يوليو من عام 1943، اكتشفت ميسي أنها حامل بطفل. ومع مرور الأسابيع، وبغض النظر عن الأخبار من هذه الجبهة أو تلك، بدأت تُشعُّ بنور داخلي لا يمكن إنكاره. بدأت تقابل يوليسيس في محطة التروলلي، وهي ترتدي فستانًا صيفيًا وتعتمر قبعة صفراء عريضة، فتشُبُّك ذراعها في ذراعها ليسيّران معًا عائدين إلى شقتهما، وهي تومئ برأسها للأصدقاء والأغراب على حدٍّ سواء. ثم مع نهاية نوفمبر، وإذ بدأ حملها يظهر على بطنها، أقنعتة على خلاف رغبته الرشيدة أن يرتدي بدلة الأحد ويأخذها إلى رقصة عيد الشكر في «صالة هلولويا».

فور أن دخل يوليسيس من الباب، عرف أنه ارتكب خطأ فظيلاً. إذ كَلَّمَا

استدار، التقت عيناه بعيني أمّ فقدت ابنها، أو زوجة فقدت زوجها، أو طفل فقد والده، وكل نظرة تُريدها النعمة الذي ظهرت على ميسي مرارة. ويزداد الأمر سوءًا عندما تلتقي عيناه بعيون غيره من الرجال في سنّه. إذا يرونها يقف مرتبكًا على حافة حلبة الرقص، فيأتون لمصافحته، بابتسامات كَبَحَها سلوكُهم الجبان، وقد انبسطت أرواحهم لرؤية رجلٍ آخر لائقٍ جسمانيًا يشاطرهم أخويّة العار.

ليلتها، رجع هو وميسي إلى شقتهما، وقبل أن يخلعا معطفيهما، أعلن يوليسيس قراره بأنه سيلتحق بالخدمة. وإذا كان قد هبّأ نفسه لاحتمال أن تغضب ميسي أو تبكي، أعرب عن نواياه كأمر مفروغ منه، قرار لا يقبل الجدل. لكن عندما انتهى من كلامه، لم ترتعش أو تذرف دمعة. وعندما ردّت، لم ترفع صوتها. قالت: إذا كان عليك أن تذهب إلى الحرب، فاذهب إلى الحرب. واجه هتلر وتوجو وذراعك مربوطة خلف ظهرك، لا يهْمُنِي. لكن لا تتوقع أن تجدنا هنا عندما ترجع.

في اليوم التالي، عندما دخل مكتب التجنيد، خشي أن يُرفض بوصفه رجلًا في الثانية والأربعين من عمره، لكن بعدها بعشرة أيام كان في معسكر فونستون وبعدها بعشرة شهور كان في طريقه للخدمة في الفرقة 92 مشاة التابعة للجيش الخامس في الحملة الإيطالية. على مدار تلك الأيام التي لا ترحم، وبرغم كونه لم يتلقَ خطابًا واحدًا من زوجته، لم يتخيل قط -أو بالأحرى، لم يترك نفسه يتخيل قط- أنها والطفل لن يكونا في انتظاره لدى عودته.

لكن عندما توقف القطار في محطة سان لويس في العشرين من ديسمبر عام 1945، لم يجدهما في المحطة. وعندما ذهب إلى شارع أربعة عشر، لم يجدهما في الشقة. وعندما تتبّع أثرهما لدى صاحب البيت، والجيران، وأصدقائها في العمل، كان الردّ هو نفسه دائمًا: بعد أن ولدت ميسي ديكسون طفلًا ذكرًا جميلًا بأسبوعين، جمعت أغراضها وغادرت المدينة من دون أن تترك وراءها كلمة عن المكان الذي اتجهت إليه.

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من رجوعه إلى سان لويس، وضع يوليسيس حقيبته على كتفه وسار عائداً إلى محطة «يونيون ستیشن». هناك، استقل القطار التالي مباشرة، ولم يهتّمه إلى أين يتجه. استقل ذلك القطار إلى نهاية الخط - إلى أتلانتا، جورجيا - ثم من دون أن يضع قدمًا خارج المحطة، استقل القطار التالي المتجه إلى اتجاه آخر واستقله إلى آخر الخط حتى سانتافي. كان ذلك قبل أكثر من ثمانية أعوام. وقد ظل على الطريق من وقتها - في عربات ركّاب عندما تتوفر النقود وفي عربات شحن عندما تنفذ ذهابًا وإيابًا في أرجاء البلاد، لم يسمح لنفسه ولو مرة واحدة أن يقضي ليلتين في المكان نفسه قبل أن يقفز إلى القطار التالي ويستقله إلى حيثما اتجه.

بينما واصل الصبي القراءة، وظل يوليسيس العظيم ينتقل من برٍّ إلى برٍّ ومن محنة إلى محنة، كان يوليسيس ينصت في صمت، والدموع تنساب من عينيه، بلا خجل. ظل ينصت بينما يواجه سَمِيّه تعاويز كيركي التي تَقْلِب البشر مسوِّخًا، وغواية حوريات البحر النَّدَاهَة التي لا ترحم، والأخطار المحدقة في المضيق، حيث سكاليا على أحد الجانبين وكاريبيديس على الآخر. لكن عندما قرأ الصبي كيف تجاهل بحّارة يوليسيس الجائعون تحذيرات العرّاف تايريسياس، وذبخوا ماشية إله الشمس، هيليوس، المقدسة، ما دفع زيوس لأن يحاصر البطل مرة أخرى بالرعد والأمواج العاتية، وضع يوليسيس يده على صفحات كتاب الصبي الصغير. وقال: -كفى.

رفع الصبي رأسه مندهشًا.

-ألا تريد سماع النهاية؟

ظل يوليسيس صامتًا للحظة.

-لا نهاية يا بيلي. لا نهاية للنوازل التي تحلُّ بهؤلاء الذين يُغضبون

العليّ القدير.

غير أن بيلي كان يهز رأسه، مرة أخرى في تعاطف. وقال: ليس الأمر هكذا. مع أن يوليسيس العظيم أغضب بوسيدون وهيليوس، لم يَظَلْ يهيم على وجهه بلا نهاية. متى أبحرت من حربك لكي ترجع إلى أمريكا؟ أجاب يوليسيس، متشككاً في أهمية السؤال: في الرابع عشر من نوفمبر، 1945.

أزاح الصبي يدَ يوليسيس جانباً برفق، وَقَلَبَ الصفحة وأشار إلى إحدى الفقرات.

-يخبرنا البروفيسور أبرناثي أن يوليسيس العظيم رجع إلى إيثاكا والتأم شمله مع زوجته وابنه بعد عشر سنوات طويلة.

رفع الصبي رأسه. وقال: -هذا يعني أنك قاربت على نهاية تيهك، وأن شملك مع أسرتك سوف يلتئم في أقل من سنتين من الزمن. هز يوليسيس رأسه.

-بيلي، أنا حتى لا أعرف مكانهما. ردّ الصبي: -لا بأس. لو كنت تعرف مكانهما، لما وجب عليك العثور عليهما.

ثم نظر الصبي في كتابه وأوماً برأسه في رضا كونه هكذا يجب أن تسير الأمور.

هل هذا ممكن؟ تساءل يوليسيس. صحيح أنه في ميدان المعركة كان قد انتهك تعاليم ربّه، يسوع المسيح، بكل طريقة ممكنة. انتهكها إلى درجة صار يصعب عليه معها أن يتخيل اجتياز عتبة كنيسة بضمير حيّ مرة أخرى في حياته. غير أن كل الرجال الذين حارب إلى جانبهم -وكذا كل الرجال الذين حاربهم- انتهكوا التعاليم نفسها، وخانوا العهود نفسها، وتجاهلوا الوصايا نفسها. لذا، كان يوليسيس قد تصالح بدرجة ما مع خطايا الميدان، معترفاً أنها خطايا جيل كامل. ما لم يتصالح معه يوليسيس، ما أثقل على ضميره، كان خيانتته لزوجته. فبينهما أيضاً كان عهدٌ، وعندما خان ذلك العهد، خانَه وحده.

حتى وهو يقف في تلك الطُّرقة فقيرة الإضاءة في شقتيها القديمة بزيّه العسكري الكامل، وهو يشعر لا كبطل بل كأحمق، فَهَمَّ أن عواقب ما فعله ينبغي أن تكون بلا رجعة. ذلك ما دفعه لأن يرجع إلى محطة «يونيون ستیشن» ويعيش حياة التشرُّد - حياة مكتوبٌ عليه أن يعيشها بلا رفيق أو هدف.

لكن لعلَّ الصبي محقٌّ...

لعلّه حين أعلى إحساسه بالعار فوق قدسيّة رباطهما مقامًا، حين صار مستعدًا تمامًا لأن ينذر نفسه لحياة الوحدة، يكون قد خان زوجته مرة ثانية. خان زوجته وابنه.

بينما يلوك تلك الأفكار، كان الصبي قد أغلق الكتاب وبدأ يلتقط الدولارات الفضية، يمسحها بإسورة كُمّه ويعيدها إلى علبتها. قال يوليسيس: -هيه، دعني أساعدك.

بدأ هو الآخر يلتقط العملات، يمسحها في قميصه، ويُسقطها في العلبة. لكن عندما هَمَّ الصبي بوضع آخر عملة في مكانها، رفع رأسه فجأة إلى ما فوق كتف يوليسيس وكأنه سمع شيئًا. سارع الصبي بوضع علبة الصفيح وكتابه الأحمر الكبير في مِخلاته، وشدَّ حزاميها، وأرجحها ليعلقها على ظهره.

سأل يوليسيس، وقد أجفل قليلًا بحركات الصبي: -ما الأمر؟ شرح له، وهو ينهض على قدميه: -القطار يبطئ. لا بُدَّ أنَّا وصلنا إلى المنحدر.

استغرق الأمر بضع لحظات من يوليسيس لكي يفهم ما يتحدث عنه الصبي.

قال، وهو يتبع الصبي إلى الباب: لا يا بيلي. ليس عليك أن تذهب. ينبغي أن تبقى معي.

-هل أنت واثق يا يوليسيس؟

-أنا واثق.

أوماً بيلي إيماءة قبول، لكن بينما يحدث في الهشير الذي يتراجع بسرعة، لاحظ يوليسيس أن همًّا جديدًا قد استولى عليه.

-ما الأمر يا ولدي؟

-هل تظن أن القس جون أصيب بأذى عندما قفز من القطار.

-ليس بأكثر مما يستحق.

رفع بيلي رأسه إلى يوليسيس.

-لكنه كان مُبَشِّرًا.

قال يوليسيس، وهو يغلق الباب: -الشرور في قلب ذاك الرجل أكثر من البُشور.

انتقل الاثنان إلى الطرف الآخر من العربة بنيتة معاودة الجلوس، لكن وهما يهتمان بذلك، سمع يوليسيس خشخشة وراءه وكأن شخصًا قد نزل السلم بحرص.

من دون انتظار سماع المزيد، استدار يوليسيس بذراعين مفرودتين، فأسقط بيلي على الأرض عن غير قصد.

عندما سمع يوليسيس الخشخشة، برق في ذهنه أن القس جون قد استطاع بطريقة ما الرجوع إلى القطار وعاد لكي يواجهه عازمًا على القصاص منه. لكنه لم يكن القس جون. كان شابٌ أبيض بكدمات في وجهه ونظرة ثابتة في عينيه. وفي يده اليمنى، كان يمسك بكيس معقود مثل اللصوص. ترك الكيس يسقط، وتقدم خطوة إلى الأمام، واتخذ وقفة القتال، وذراعه ممدودتان إلى الأمام.

قال الشاب: -لا أريد أن أتعارك معك.

وقال يوليسيس: -لا أحد يريد أن يتعارك معي.

وجد يوليسيس نفسه يتمنى لو أنه لم يغلق باب العربة. لو كان مفتوحًا، لأمكنه استغلاله في إنجاز عمله على وجه أفضل تمامًا. كان سيمسك بالشاب من ذراعيه ويرميه من القطار ببساطة. لكن والباب مغلق، سيكون عليه إما أن يصرع الشاب ويفقده وعيه، أو أن يثبتته في قبضته ويجعل بيلي

يفتح الباب. بيد أنه لم يرغب في أن يضع الصبي في متناول الشاب. لذا سيكون عليه انتظار اللحظة المناسبة. سيقف حائلاً بين بيلي والشاب، ويقترب قليلاً، ثم يضربه على الجنب المكدوم من وجهه، الذي سيكون حساساً بكل تأكيد.

غير أن يوليسيس سمع بيلي وهو يتحرك من ورائه.

-ابقَ مكانك يا بيلي.

قالها هو والشاب في اللحظة نفسها.

ثم نظر كل منهما إلى الآخر متحيراً لكن من دون استعداد لخفض ذراعيه.

سمع يوليسيس بيلي وهو يأخذ خطوة إلى الجنب وكأنما ليرى من حوله.

-هيه، إيميت.

بذراعين لا تزالان مرتفعتين وعين على يوليسيس، أخذ الشاب خطوة إلى اليسار.

-هل أنت بخير يا بيلي؟

-أنا بخير.

سأل يوليسيس: -هل تعرفه؟

قال بيلي: -إنه أخي. إيميت، هذا يوليسيس. قاتل في الحرب مثل يوليسيس العظيم والآن يجب أن يهيم على وجهه لعشر سنين إلى أن يلتئم شمله مع زوجته وابنه. لكن لا داعي للقلق. نحن لسنا أصدقاء بعد. نحن معارف فقط.

دوقة

-انظر إلى كل هذه البيوت. هل سبق وأن رأيت هذا العدد من البيوت؟
هكذا قال وولي مندهشًا.

-إنه عدد كبير من البيوت، أتفق معك.

في وقت سابق من ذلك اليوم، انعطف التاكسي الذي أركبه حول
الناصية في الوقت المناسب لأرى وولي يخرج من حديقة ما. على الجانب
الآخر من الشارع رأيت أنه ترك الستادبيكر -أمام صنوبر حريق وباب مقعد
الراكب الأمامي مفتوح والمحرك دائرًا. ورأيت كذلك الشرطي يقف وراء
السيارة ومعه دفتر مخالفات، يدون رقم السيارة.
قلت للسواق: -توقف.

لا أعرف ما الذي قاله وولي للضابط كتفسير، لكن عندما دفعت الأجرة
للسواق، كان الشرطي يضع دفتر مخالفاته في جيبه ويُخرج أصفاده.
اقتربت وأنا أرسم على وجهي، قدر المستطاع، ابتسامة واحد من أبناء
البلدات الصغيرة.

-ما المشكلة يا حضرة الشرطي؟

(يعجبهم أن تناديهم حضرة الشرطي).

-هل أنتما معًا؟

-على نحو ما. أنا أعمل لحساب والديه.

نظرت أنا والشرطي إلى وولي، الذي كان قد سرح ليحظى بنظرة أقرب
على صنوبر الحريق.

عندما أعطاني الشرطي موجزًا بمخالفات وولي، التي تضمنت كونه لا
يحمل، في ما يبدو، رخصة قيادة، هزرت رأسي.

-أنت تلقي موعظة على الجوقة يا حضرة الشرطي. لقد ظللت أخبرهم أنهم إذا أرادوا له أن يرجع إلى البيت، فالأفضل أن يستأجروا شخصًا لا يرفع عينيه عنه. لكن ماذا أعرف أنا؟ أنا مجرد خفير.

حدّج الشرطي وولي بنظرة أخرى.

-هل تقصد أنه يعاني من شيء ما؟

-دعنا نقول إن جهاز الاستقبال عنده مضبوط على موجة مختلفة عن موجتك وموجتي. لديه عادة أن يسرح بعيدًا، لذا عندما استيقظت أمّه صباح اليوم ولم تجد سيارتها -مرة أخرى- طلبت مني أن أبحث عنه. وكيف عرفت أين تجده؟

-لديه شيء تجاه أبراهام لينكون.

رمقني الشرطي بشيء من الارتياب. لذا، أثبت له. ناديت: مستر مارتن. لماذا جئت إلى الحديقة؟

فكر وولي للحظة، ثم ابتسم وقال: لأرى تمثال الرئيس لينكون. الآن كان الشرطي ينظر لي مترددًا. فمن ناحية كانت لديه قائمة المخالفات والقسم الذي أقسمه على أن يحافظ على القانون والنظام في ولاية إلينوي. لكن ماذا يفترض به أن يفعل؟ يوقف فتى مضطربًا تسلك من بيته لكي يقدم التحية والاحترام لأبراهام الأمين؟

حوّل الشرطي أنظاره منّي إلى وولي، ثم إليّ مجددًا. ثم شد كتفيه ورفع حزامه، كعادة رجال الشرطة. وقال: طيّب. لماذا لا تعيده بسلام إلى البيت. -هذا ما أنتويه يا حضرة الشرطي.

-لكن الشاب الذي لديه مشكلة في مؤجته لا يصلح للقيادة. ربما حان الوقت لكي تحفظ أسرته مفاتيح السيارة فوق رفّ أعلى. -سأخبرهم.

فور ابتعاد الشرطي ورجوعنا إلى الستادبيكر، أعطيت وولي كلمتين حول معنى الكل للواحد والواحد للكل.

-ماذا سيحدث إذا عرضت نفسك للتوقيف يا وولي؟ وانتهى اسمك

إلى سجلّ المحاضر؟ قبل أن تنتبه سيكونون قد وضعونا نحن الاثنين في حافلة عائدة إلى سالينا. ثم لن نصل أبدًا إلى المخيم، وبيلي لن يستطيع بناء بيته في كاليفورنيا.
-أنا آسف.

قالها وولي وعلى وجهه نظرة ندم حقيقي -وبحدقتين كبيرتين مثل الصحون الطائفة.

-كم قطرةً من دوائك تناولت هذا الصباح؟
-أربعًا؟

-كم زجاجةً تبقت معك؟
-واحدة؟

-واحدة! يا ربّي يا وولي. هذا الشيء ليس كوكا كولا. ومن يعرف متى ستأتينا الفرصة لكي نُحضّر لك المزيد. الأفضل أن تترك معي الزجاجة الأخيرة في الوقت الحالي.

بخجل، فتح وولي صندوق التابلوه وناولني الزجاجة الزرقاء الصغيرة. في المقابل، ناولته خريطة إنديانا التي كنت قد اشتريتها من السواق. عقد حاجبيه عندما رآها.

-أعرف. إنها ليست واحدة من خرائط فيليبس 66، لكنها أفضل ما استطعتُ الحصول عليه. بينما أقود أنا، أريدك أن تبين كيف نصل إلى 132 «طريق شجر الورد» في ساوث بيند.
-وماذا في 132 «طريق شجر الورد»؟
-صديق قديم.

بعد أن وصلنا إلى ساوث بيند في حوالي الواحدة والنصف، كنا الآن في منتصف تقسيم فرعي جديد جدًا من المنازل المتطابقة مشيدة على قطع متطابقة من الأراضي، يسكنها في ما يبدو أناس متطابقون. كادت تجعلني أشتاق إلى طُرُق نبراسكا.

قال وولي، بمسحةٍ من تهيب: تشبه المتاهة في كتاب بيلي. تلك التي صممها دايدالوس بإبداع جعل كل من يدخلها يعجز عن الخروج منها على قيد الحياة...

وشدّدت عليه: هذا سبب آخر لأن تُبقي عينيك على لافتات الشوارع.
-أوكيه، أوكيه. فهمتُ، فهمتُ.

بعد أن ألقى وولي نظرة سريعة على الخريطة، مال على الزجاج الأمامي لكي يولي انتباهًا أكثر قليلًا إلى حيث نذهب. وقال: يسارًا في «حارة زَنَبِ النمر». يمينًا في «جادة أماريليس»... انتظر، انتظر... ها هو!

انعطفُ في «طريق شجر الورد». كانت كل المَرَجَات الصغيرة مخضرةً ومجزوزة بأناقة، لكن حتى الآن كانت أشجار الورد مجرد طموح لا أكثر. ومن يعرف. ربما ستظل كذلك.

أبطأتُ ليمكن وولي من متابعة أرقام البيوت.

124-...126...128...130...132!

وإذ مررتُ بالبيت ولم أتوقف، نظر وولي من فوق كتفه. وقال: كان ذلك البيت.

انعطفُ حول الناصية في التقاطع التالي وأوقفتُ السيارة قبالة الرصيف. على الجانب الآخر من الشارع كان شيخٌ متقاعد سمين في قميص تحتيّ يسقي عُشْبَهُ بخرطوم. وبدا لي أنه يحتاج إلى رشاش خرطومه هو نفسه.

-أليس صديقك في 132؟

-نعم. لكنني أريد مفاجأته.

بعد أن تعلمتُ الدرس، عندما خرجت من السيارة أخذت معي المفاتيح ولم أتركها فوق واقية الشمس. قلت: لن أغيب أكثر من بضع دقائق. الزم مكانك.

-حاضر. حاضر. لكن يا دوقة...

-نعم يا وولي؟

-أعرف أنك تحاول إعادة الستادبيكر إلى إيميت بأسرع ما يمكن، لكن

هل تظننا نستطيع زيارة أختي سارة في «هاستينغز أون هدرسون» قبل أن نتجه إلى الأديرونداك؟

يحب الناس عادةً أن يطلبوا أشياء. فجأة، تجدهم يطلبون منك إشعال سيجارتهم أو إخبارهم بالوقت. يطلبون منك توصيلة أو قرضًا. يطلبون أن تعطيهم يدًا أو صدقة. بل وبعضهم سيطلب منك العفو حتى. لكن وولي مارتن نادرًا ما يطلب أي شيء على الإطلاق. لذا عندما كان يطلب شيئًا، تعرف أنه شيء مهم.

قلت: -وولي، إذا استطعت إخراجنا من هذه المتاهة أحياء، نستطيع أن نزور أي شخص تريد.

بعدها بعشر دقائق، كنت أقف في مطبخ وأمسك مِرْقَاق عجيين في يدي وأتساءل إن كان سَيُنْجِز المهمة. بالنظر إلى شكله ووزنه، بدا أفضل بكل تأكيد من اللوح مقاس اثنين في أربعة. لكنه بدا لي كأداة تُستخدم لخلق تأثير كوميدي -مثلما عندما تُمسكه ربة منزل تطارد زوجها التعس حول طاولة المطبخ.

أعدت مِرْقَاق العجين إلى دُرْجِه، وفتحت دُرْجًا آخر. هذا الدُرْج كان مملوءًا بخليط من الأدوات الأصغر حجمًا، مثل قَشَّارات الخضروات وملاعق قياس المقادير. الدُرْج التالي كان يضم الأدوات الأكبر حجمًا وأرق أثرًا مثل الملاعق المسطحة والخفَّاقات. غير أنني وجدت، مخبأة تحت مغرفة، مطرقة لحم. بحرص، حتى لا تُصلصل الأدوات الأخرى، سحبتها من الدُرْج فرأيت أن لها مقبضًا خشبيًا لطيفًا وسطح طَرَقٍ خشنًا، لكنها كانت تميل إلى الرقة، صُنعت لفرد قطعة من اللحم لا لدق جنب من ذبيحة.

على المنضدة بجوار الحوض كانت كل الأجهزة الحديثة المعتادة -فَتَّاحَة عُلْب، مَحْمَصَة خبز، خَلاط بثلاثة أزرار، كل منها صُنع على نحو مثالي إذا كان غرضك هو فتح أو تحميص أو خلط شخص ما. في الخَزَانات فوق المنضدة، وجدت طعامًا معلبًا يكفي لملجأ حماية من

القنابل. في الأمام والوسط كانت عشر صفائح على الأقل من «حساء كامبل». لكن كانت هناك أيضًا صفائح من يَخنة اللحم البقري، واليخنة الحارة، والفرانكفورتر والفاصولياء. الأمر الذي رجَّح أن الجهاز الوحيد الذي كان أكرلي يحتاج إليه بحق هو فتَّاحة العُلب.

لم يسعني إلا ملاحظة التشابه بين الطعام في خزانة أكرلي وقائمة الطعام في سالينا. كنا نعزو شيوع هذا النوع من المطابخ إلى منافعهِ المؤسسيَّة، لكنه ربما كان تعبيرًا عن ذوق المأمور الشخصي. للحظة، شعرتُ بغواية استخدام صفيحة الفرانكفورتر والفاصولياء من أجل إنفاذ العدالة الشرعيَّة. لكنني قلت إنك إذا ضربت شخصًا بصفيحة، قد تؤذي أصابعك بقدر ما تؤذي جمجمته.

أغلقت الخزانة، ووضعت يدي على شفتيَّ مثلما كانت سالي ستفعل. كانت ستعرف أين تبحث، هكذا فكرتُ. حاولت رؤية الموقف بعينها، فأخذت أعين المطبخ من زاوية إلى زاوية. وماذا وجدتُ هناك فوق الموقد غير مقلاة سوداء مثل عباءة باتمان؟ رفعتها، ووزنتها في يدي، معجبًا بتصميمها ومثانتها. باستدقاق متدرِّج وحواف مقوَّسة، كان المقبض يتناسب بشكل مثالي مع كفِّ يدك على نحو يسمح لك بتسديد قوَّة مقدارها مئتا رطل من دون أن تُفلت من قبضتك. وقاعُ المقلاة كان رقعةً مثالية واسعة للغاية ومسطَّحة للغاية حتَّى إنك تستطيع أن تُناول الشخص من هؤلاء واحدةً تُنسيه اسمه، وبعينين مغمضتين.

نعم، كانت المقلاة المصنوعة من الحديد الزهر مثالية في كلِّ منحى من المناحي، ولو لم يكن فيها شيء حديث أو مريح في الاستخدام. في الحقيقة، ربما كانت هذه المقلاة بالذات تبلغ من العمر مئة عام. ربما تكون جدَّة أكرلي الكبيرة قد استخدمتها أثناء سفرها في قافلة، ثم ظلت تُتوارث إلى أن قلَّت ضلوع لحم الخنزير لأربعة أجيال من رجال آل أكرلي. رفعتُ قبعتي تحيةً للرواد الأوائل الذين اتجهوا صوب الغرب، ورفعتُ المقلاة وحملتُها إلى غرفة المعيشة.

كانت غرفة صغيرة جميلة فيها تلفزيون حيثما ينبغي أن تكون المدفأة. الستائر، وكروسي، وأريكة، منجّدة بقماش متناغم عليه أزهار. أغلب الظن أن مسز أكرلي كانت ترتدي فستاناً مصنوعاً من القماش نفسه، لكي تجلس بهدوء على الأريكة، فلا يعرف زوجها بوجودها.

كان أكرلي لا يزال حيثما وجدته -مستلقياً على كرسي استرخاء ماركة «باركلونجر»، وغارقاً في النوم.

وكنت تعرف من الابتسامة على وجهه أنه يحب ذلك الكرسي. أثناء فترة ولايته في سالينا، كلما وُزِعَ أكرلي ضربات كرباجه، لا بُدَّ أنه كان يحلم باليوم الذي يستطيع فيه امتلاك كرسي استرخاء مثل هذا يمكن أن يغفو عليه في الثانية بعد الظهر. في الحقيقة، بعد كل تلك السنين من الترقّب، كان على الأرجح لا يزال يحلم بالنوم في كرسي ماركة «باركلونجر»، حتى وهو يفعل ذلك بالضبط.

- أن ننام، لعلنا نحلم⁽¹⁾.

هكذا اقتبستُ هامساً وأنا أرفع المقلاة فوق رأسه.

غير أن شيئاً ما على الطاولة الجانبية جذب عيني. كانت صورة حديثة لأكرلي يقف بين ولدين صغيرين، لكل منهما منقار أكرلي وجبينه. كان الولدان يرتديان لباس «الدوري الصغير»⁽²⁾، وأكرلي يعتمر طاقية من الطقم نفسه، ما يرجّح أنه جاء إلى مباراة لتشجيع حفيديه. بداهة، كانت ابتسامة كبيرة غليظة ترسم على وجهه، لكن الولدين كانا يبتسمان أيضاً، وكأنهما سعيدان لحضور جدّهما المباراة في المدرّجات. شعرتُ بدفقة من المشاعر الرقيقة تجاه الشيخ بطريقة جعلت يديّ تتعرقان. لكن إذا كان الكتاب المقدس يخبرنا أن الابن لا يحمل من إثم الأب، فمن المنطقي ألا يحمل الأب من براءة الابن.

(1) «أن ننام، لعلنا نحلم»: من مناجاة «أكون أو لا أكون» الشهيرة لهاملت. (م)

(2) الدوري الصغير: منظمة وطنية لفرق بيسبول الشباب المتنافسة. (م)

وهكذا ضربته.

عندما حدث التماس، انتفض جسده نفضة واحدة، وكأنه تلقى صدمة كهربائية. ثم غاص أكثر قليلاً في كرسیه واسودَّ بنطاله الكاكي من عند مَنبت الفخذين مع ارتخاء مئنته.

أومات برأسي للمقلاة إيماءة تقدير، وأنا أقول إن لدينا هنا شيئاً صمّم بحرص لغرض معيّن، لكنه كان مناسباً بشكل مثالي لتحقيق غرض آخر. كذلك فمن المنافع الإضافية لاستخدام المقلاة -على خلاف مطرقة اللحم، أو مَحَمَصَة الخبز، أو صفيحة الفرنكفورت والفاصولياء- أنها تطلق، عندما تُتَمَّ التماس، رنةً متناغمة. كان الأمر أشبه بقرع جرس كنيسة لدعوة المؤمنين للصلاة. في الحقيقة، كان الصوت مُرضياً جداً حتى إني شعرت بغواية أن أضربه ثانية.

غير أنني كنت قد قضيت من الوقت ما يكفي للقيام بحساباتي بكل حرص، وكنت شديد الثقة أن دَيْنَ أكرلي لي يُسَوَّى بضربة واحدة على أمّ الرأس. أما الضربة الثانية، فستضعني أنا في موقف المدين له. لذا أعدت المقلاة إلى مكانها فوق الموقد وانسللت من باب المطبخ، وأنا أفكر: انتهينا من الأول، ويتبقى لنا اثنان.

إيميت

وإذ أدرك أنه يبدد لا الثروة التي تركها له والده فقط، بل أيضًا ذخيرة الزمن الأعظم والأنفس، باع العربي الشاب ما تبقى من ممتلكاته القليلة، والتحق بسفينة تجارية، وأبحر في المجهول العظيم...
ها نحن من جديد، فكر إيميت.

عصر ذلك اليوم -بينما كان إيميت يضع الخبز ولحم الخنزير والجبن التي جلبها من عربة «البولمان»- سأل بيلي يوليسيس إن كان يريد سماع قصة أخرى عن شخص ركب البحار. وعندما قال يوليسيس إنه يريد، أخرج بيلي كتابه الأحمر الكبير، وجلس إلى جوار الرجل الأسود، وشرع يقرأ عن جيسون وبخارة الأرغو.

في تلك القصة، يعرف جيسون الشاب، الوريث الشرعي لملك ثيساليا، من عمه المغتصب، أن العرش سوف يصير له، يسترجعه إن استطاع الإبحار إلى مملكة كولخيس والرجوع بالصوف الذهبي.

في صحبة خمسين مغامرًا -من بينهم ثيسيوس وهركيوليس في السنوات التي سبقت شهرتهما- ينطلق جيسون صوب كولخيس والريح في ظهره. في الأيام التي لا تحصى بعد ذلك، ينتقل هو وفرقته من محنة إلى محنة، فيواجهون مخلوقًا جبّارًا من البرونز، ووحوش الهاربي المجنحة، والسبارتي -كتيبة من المحاربين ينشقون من الأرض مدججين بالسلاح عندما يُغرس فيها نابٌ تئين. بمساعدة العرافة ميديا، يتمكن جيسون وبخارة الأرغو في نهاية المطاف من التغلب على خصومهم، وتأمين الصوف، والرجوع سالمين إلى ثيساليا.

كان بيلي متحمسًا للغاية في سرد الحكاية ويوليسيس في سماعه لها،

حتى إن إيميت عندما ناولهما شطيرتين صنعهما لأجلهما، شرعا يأكلان من دون أن ينتبها تقريبًا.

وإذ جلس إيميت في الجانب الآخر من العربة يأكل شطيرته، وجد نفسه يفكر في كتاب بيلي.

لم يستطع إيميت قط أن يفهم لماذا اختار هذا المدعو «بروفيسور» أن يخلط غاليليو غاليلي، وليوناردو دافينشي، وتوماس ألفا إديسون -ثلاثة من أعظم العقول في عصر العلم- مع أمثال هيركيوليس، وثيسوس، وجيسون. لم يكن غاليليو، ودافينشي، وإديسون من أبطال الأساطير. كانوا رجالاً من لحم ودم امتلكوا قدرة نادرة على ملاحظة الظواهر الطبيعية من دون خرافة أو تحيز. كانوا رجالاً جدّ واجتهاد عكفوا بصبر ودقة على دراسة ما يحدث داخل العالم، ومن ثم تحويل المعرفة التي اكتسبوها في عزلتهم إلى اكتشافات عملية لخدمة الإنسان.

فأي خير يُرتجى من خلط حيوات أولئك الرجال مع قصص عن أبطال أسطوريين يركبون بحاراً خرافية لكي يحاربوا وحوشاً خيالية؟ بدا لإيميت أن أبرناثي، بإلقاءهم معاً في سلة واحدة، إنما يشجع صبيّاً على الإيمان بأن الاكتشافات العلمية العظيمة ليست حقيقة بالضبط وأن أبطال الأساطير ليسوا متخيّلين بالضبط. إنهم يسافرون كتفاً بكتف في عوالم المعروف والمجهول مستغلين ذكاءهم وشجاعتهم أفضل استغلال، نعم، لكن أيضاً مستغلين العرّافة والسحر وتدخل الآلهة من حين إلى آخر.

أليس التمييز بين الحقيقة والخيال، بين ما يراه المرء وما يريده، صعباً بما يكفي في مسيرة الحياة؟ ألم يكن التحدي المتمثل في تمييز هذا الفارق هو ذاته ما ترك أباهما، بعد عشرين سنة من السعي والكد، مفلساً ومعوزاً؟ والآن، مع اقتراب اليوم من نهايته، كان بيلي ويوليسيس قد حولاً انتباههما إلى سندباد، البطل الذي أبحر سبع مرات مختلفة في سبع مغامرات مختلفة.

- سأذهب للنوم.

هكذا أعلن إيميت.

وأجابه الاثنان: - طيّب.

ثم، كيلا يزعج أخاه، خفض بيلي صوته، وخفض يوليسيس رأسه، وبدا الاثنان أشبه بمتأمرين، لا غربيين.

عندما رقد إيميت، محاولاً ألا ينصت إلى الهمهمة التي تسرد ملحمة البحار العربي، كان يفهم جيداً أن دخول يوليسيس عربتهما كان ضربة حظ استثنائية؛ لكنه كان، في الوقت نفسه، أمراً مخزياً.

بعد أن أتم بيلي تعريفهما، أعاد، بطريقته الحماسية، سرد كل ما حدث منذ لحظة ظهور القس جون وحتى مغادرته المحمودة للقطار. وعندما أعرب إيميت عن امتنانه ليوليسيس، قال الغريب ألا شكر على واجب. غير أن يوليسيس، في أول فرصة واثته - عندما كان بيلي يُخرج الكتاب من حقيبة ظهره - أخذ إيميت جانباً ولقنه درساً مطوّلاً. كيف أمكنه أن يتصرف بهذه الحماقة ويترك شقيقه وحده هكذا؟ كونُ العربية لها أربعة جدران وسقف لا يعني أنها مكان آمن، ولا بأي حال. ولا تنخدع: لم يكن القس سيكتفي بلطم بيلي بظهر يده. بل كان عازماً على إلقائه من القطار.

وعندما عاد يوليسيس إلى بيلي وجلس إلى جانبه، مستعداً لسماع قصة جيسون، شعر إيميت بوخزة التبكيث تحرق خدّيه. شعر بحرارة الشُخط أيضاً، الشُخط أن هذا الرجل الذي لم يقابله إلا للتوّ يأخذ حريته في توبيخه مثلما يوبّخ الأب طفلاً. غير أن إيميت فهم، في الوقت نفسه، أن شعوره بالاستياء حيال معاملته كطفل أمرٌ طفولي في ذاته. تماماً مثلما عرف أنه أمرٌ طفولي أن يشعر بالغيظ كونَ بيلي ويوليسيس لم يتباطأ في التهام شطيرتيهما، أو يشعر بالغيرة تجاه تحالفهما المفاجئ.

في محاولة لتهدئة اضطرابات حالته المزاجية، حوّل إيميت انتباهه بعيداً عن حوادث اليوم تجاه التحديات المقبلة.

عندما جلسوا معاً جميعاً حول طاولة المطبخ في مورغن، كان دوق قد قال إنه ووولي، قبل الذهاب إلى الأديرونداك، سيتوقّفان في مانهاتن لرؤية والده.

من قصص دوقة كان واضحاً أن مستر هيويت نادراً ما يقيم في عنوان ثابت. لكن في آخر أيام تاونهاوس في سالينا، كان دوقة قد شجّع تاونهاوس على أن يبحث عنه في المدينة - بأن يتواصل مع إحدى وكالات الحجوزات التي تُشغّل والده. حتى عندما يكون الممثل القديم هارباً من الدائنين، مطلوباً من الشرطة، ويعيش تحت اسم مستعار، كذلك قال دوقة بغمزة من عينه، سترك دائماً كلمةً لدى الوكالات حول المكان الذي يمكن أن يجده فيه. وفي مدينة نيويورك، تقع مكاتب كل وكلاء الحجوزات الكبار لقدامى الممثلين في البناية نفسها في الطرف الجنوبي من ميدان تايمز سكوير.

المشكلة الوحيدة أن إيميت لم يستطع تذكر اسم البناية. كان متأكداً إلى حدٍّ بعيد أنها تبدأ بحرف S. وبينما يرقد في مكانه، حاول تحفيز ذاكرته بأن يجرب الحروف الهجائية، حرفاً بعد آخر، وأن ينطق بطريقة منهجية كل التوليفات الممكنة لأول ثلاثة أحرف من اسم البناية. سيبدأ بـ sa، فيقول لنفسه: sa, sab, sac, sad, saf, sag، وهكذا دواليك. ثم تأتي التوليفات المناسبة من se و sh.

ربما كان صوت همس بيلي، أو همهمته هو نفسه بالثلاثيات الهجائية. أو ربما كان الدفء، ورائحة العربة الخشبية بعد يومها الطويل في الشمس. أيّاً كان السبب، فعوضاً عن تذكر اسم البناية في الطرف الجنوبي من ميدان تايمز سكوير، وجد إيميت نفسه فجأة طفلاً في التاسعة في عليّة بيته والكوّة مفتوحة، يبني قلعةً بصناديق والديه القديمة - الصناديق التي سبق أن سافرت إلى باريس وفينيسيا وروما والتي لم تسافر إلى أي مكان من وقتها - ما جلب بدوره ذكرياتٍ عن أمّه وهي تتساءل أين ذهبَ وصوتها وهي تنادي عليه بينما تنتقل من غرفة إلى غرفة إلى غرفة.

ستة

—•—

دوقة

عندما طرقتُ باب الغرفة 42، سمعتُ أنينًا وحركة مجهدة على نوابض السرير وكأن خبطني أوقظه من نوم عميق. وحيث إنها كانت الظهيرة تقريبًا، كان ذلك متماشيًا مع جدول أنشطته. بعد لحظة، سمعته يضع قدميه الثقلتين بخمار السكر على الأرض. سمعته ينظر في أرجاء الغرفة وهو يحاول تحديد اتجاهاته، ينظر إلى جبس السقف المشقّق وورق الحائط المتقشّر بمسحة من الحيرة، وكأنه لا يستطيع استيعاب ما الذي يفعله في غرفة كهذه، ولا يستطيع أن يصدق، حتى بعد كل تلك السنين.

آه، نعم، كدتُ أسمعه يقول. بأدب شديد، طرقتُ ثانية. أنينٌ آخر - هذه المرة أنين جهد- ثم تحرّر نوابض السرير وهو ينهض على قدميه ويشرع في التحرك ببطء تجاه الباب. نادى بصوت مكتوم: -أنا قادم.

وبينما أنتظر، وجدت نفسي أشعر بفضول حقيقي تجاه المظهر الذي سيبدو عليه. لم تكن قد مرّت أكثر من سنتين، لكن في سنّه وبأسلوب حياته، يمكن لسنتين أن تسبّبا الكثير من الأضرار. لكن عندما انفرج الباب بصري، لم يكن الواقع أبي. -نعم؟

كان قاطن الغرفة 42 شيخًا سبعينيًا، لديه وقفة أرسقراطية ولكنة متناغمة معها. في زمن ما، لعلّه كان صاحب عِزبة، أو عمل لحساب صاحب عِزبة.

-هل أستطيع مساعدتك أيها الشاب؟

سألني، وأنا ألقى نظرة من فوق كتفه.

-كنت أبحث عن شخص كان يعيش هنا. والدي، في الحقيقة.

-أوه، فهمتُ...

سقط حاجباه المنكوشان قليلاً، وكأنه يشعر بالأسف لأنه كان سبباً لإحباط شخص غريب. ثم ارتفع حاجباه ثانية.

-ربما ترك عنواناً بالأسفل؟

-الأرجح أنه ترك فاتورة غير مسدّدة، لكنني سأسأل بأي حال. شكرًا.

أوما برأسه في تعاطف. لكن عندما استدرت لأذهب، ناداني من جديد.

-أيّها الشاب. هل تصادّف وأن كان والدك ممثلاً؟

-كان يدعو نفسه كذلك.

-إذا، انتظر لحظة. أظنه ترك شيئاً وراءه.

وإذ جَرَّجَر «الجنتل» العجوز قدميه باتجاه الكومود، جعلتُ أنا أعاين الغرفة، وقد انتابني فضول لمعرفة نقطة ضعفه. في فندق «صَن شاين»، كانت ثمة نقطة ضعف في كل غرفة، ولكل نقطة ضعف أداة من صنع الإنسان تشهد عليها. مثل زجاجة فارغة تدحرجت تحت السرير، أو دكة فاخرة من أوراق اللعب على طاولة الفراش، أو كيمونو وردي فاقع معلق على خطاف. دليلٌ ما على رغبة بالغة الشهوانيّة، بالغة الشراهة، تحتجب قُبالتها كل رغبات أخرى، وتنكّسف أمامها حتى الرغبات في إنشاء بيت، أو بناء أسرة، أو تحقيق قَدْر من الكرامة الإنسانية.

بالنظر إلى البطء الذي تحرّك به الشيخ كان لديّ متسع من الوقت كي أنظر، ولم تزد مساحة الغرفة على عشرة في عشرة، لكن إن كان ثمة دليل على نقطة ضعف كهذه، فقد خفي عن أنظاري.

قال: -ها نحنُ.

جَرَّجَر قدميه عائداً، وناولني ما انتشله من دُرَج الكومود السفلي. كان عُلبة جلدية سوداء مساحتها نحو اثنتي عشرة بوصة مربّعة وطولها ثلاث بوصات ولها مشبك نحاسي صغير -وكانها نسخة مكبّرة من تلك العُلب التي تحفّظ عقداً من اللؤلؤ مزدوج الخيوط. ولم يكن وجه الشبه ذلك من قبيل المصادقة، أعتقد. لأن أبي، في ذروة شهرته التي بلغت

الرُّكْب، عندما كان أحد أبطال فرقة شكسبيرية صغيرة تؤدي أمام صالة نصف ممتلئة، كانت لديه ستٌّ من هذه العُلب وكانت ممتلكاته الأثيرة. مع أن النقش الذهبي البارز على هذه العلبة كان متقشراً وباهتاً، كنت لا تزال تستطيع تمييز حرف O، أول حروف Othello (عطيل). فضضتُ المشبك، وفتحتُ الغطاء، بالداخل كانت أربع قطع مستكنة داخل تجاويف رقيقة مبطنة بالقטיפ: لِحية «سكسوكة»⁽¹⁾، قرط ذهبي، برطمان صغير من طلاء الوجه الأسود، وخنجر.

مثل العلبة، كان الخنجر قد صُنع بالطلب. المقبض الذهبي، الذي صُمم ليتناسب بصورة مثالية مع قبضة أبي، كان مزينا بثلاث جواهر كبيرة في صفٍّ واحد: واحدة من الياقوت، وواحدة من الزفير، وواحدة من الزمرد. أمّا النصل المصنوع من «الستانليس ستيل» فقد صُنع، وُصِّلَد، وُصِّل بيد مُعلِّم في بيتسبرغ، ما سمح لوالدي في الفصل الثالث أن يقطع شريحة من تفاحة وأن يغرس الخنجر بزاوية قائمة في سطح طاولة، حيث يبقى على نحو مشؤوم بينما يلوك هو شكوكه حول خيانة ديدمونة.

لكن بينما كان فولاذ النصل من المعدن الأصلي، كان المقبض من النحاس المطلي بالذهب والجواهر مقلدة من الزجاج. فإذا ضغطتَ على الزَّفير بإبهامك، انفتح مزلاجٌ لتجويف داخلي، حتى إذا طعن أبي نفسه في الحشا في نهاية الفصل الخامس، ارتدَّ النصل إلى داخل المقبض. وبينما تشهق السيدات في «اللوج»، كان يتسلَّى هو بالترنح ذهاباً وأياباً أمام أضواء الخشبة التحتية قبل أن يُسلم الروح. بعبارة أخرى، كان الخنجر محتالاً مثل صاحبه.

عندما كان الطَّقم المؤلَّف من ستِّ عُلب لا يزال كاملاً، كان كل منها يحمل نقشه البارز المصنوع من الذهب: عطيل، هاملت، هنري، لير، مكبث، و-بلا مزاح- روميو. وكانت لكل علبة تجاويفها المبطنة بالقטיפ

(1) سكسوكة: اللحية الشبيهة بلحية الماعز. (م)

التي تضم إكسسواراتها الدرامية الخاصة. لأجل مكبث كانت تشمل قنينة من الدم المزيف يُلطّخ بها يديه؛ ولأجل لير لحية رمادية طويلة؛ ولأجل روميو قارورة سمٍّ، وبرطمان صغيرة من أحمر الخدود لا يستطيع أن يخفي صروف الزمن عن وجه أبي أكثر مما كان التاج يخفي تشوّهات ريتشارد الثالث.

على مِرّ السنين، ظلت مجموعة عُلب أبي تتضاءل تدريجيًا. سُرقت واحدة، وأضيعت أخرى، وبيعت ثالثة. ضاع هاملت في لعبة بوكر في سينسيناتي؛ بعد أن خسره -للمفارقة- أمام زوجين من الملوك. لكن لم تكن صُدفة أن كان عطيل آخر الستة، إذ كان الأعزّ على قلب أبي. ليس ببساطة لأنه تلقى بعضًا من أفضل المراجعات على أدائه لشخصية «المغربي»، بل لأن برطمان طلاء الوجه الأسود كان قد أمّن له، في مناسبات عدّة، خروجًا في اللحظة المناسبة. إذ كان يتنكر في زيّ حاجب ووجه آل جولسون⁽¹⁾، ويحمل حقائبه إلى المصعد ويعبر البهو، ويمر مباشرة من أمام الدائنين، أو الأزواج الغاضبين، أو أيّ ممّن تصادف انتظاره بين أصص النخيل. لذلك فإن نسيانه لعطيل يعني أنه كان، لا بُدّ، في عجلة حقيقية من أمره... قلت، وأنا أغلق العلبة: نعم، هذه لأبي. إذا لم تمانع في السؤال، منذ متى وأنت في الغرفة.

-أوه، ليس من وقت طويل.

-ستساعدني مساعدة عظيمة إذا استطعت تذكر التاريخ بدقة أكبر.

-دعنا نرى. الأربعاء، الثلاثاء، الاثنين... منذ يوم الاثنين، أعتقد. نعم،

كان الاثنين.

بعبارة أخرى، كان أبي قد خَلَعَ في اليوم التالي لمغادرتنا سالاينا -بعد أن تلقى، من دون شك، مكالمة مُقلقة من مأمور قلق.

(1) آل جولسون: ممثل سينمائي ومسرحي شهير، اشتهر بشخصية الأمريكي ذي الأصول الإفريقية، حيث كان يطلي وجهه بالطلاء الأسود. (م)

-أتمنى أن تجده.

-أوكد لك أنني سأجده. على أي حال، آسف على إزعاجك.

أجاب «الجتل» العجوز: لا إزعاج على الإطلاق. كنت أقرأ فقط. آه، هكذا فكّرتُ، وأنا أرى زاوية كتاب تبرز من طيّات ملاءاته. كان يجب أن أعرف. هذا الرفيق العجوز المسكين يعاني من أخطر إدمان على الإطلاق.

أثناء رجوعي إلى السلم، لاحظت شريحة من ضوء على أرضية الطّريقة، ما يوحي بأن باب الغرفة 49 مُوارِبٌ.

بعد تردد، تجاوزتُ بئر السلم وواصلت السير في الممر. عندما وصلت إلى الغرفة، توقفت وأصغيت. وإذ لم أسمع أصواتًا بالداخل، دفعت الباب بمِفصل إصبعي. من الفُرجة، رأيت السرير خاليًا وغير مرتّب. وإذ خمنت أن شاغل الغرفة في الحَمّام على الطرف الآخر من الممر، فتحت الباب على وسعه.

عندما وصلنا أنا وأبي إلى فندق «صَن شاين» أول مرة عام 1948، كانت الغرفة 49 هي الأفضل في المكان. إذ لم تتمتع فقط بنافذتين تطلّان على خلفية البناية، حيث يسود الهدوء، بل كانت أيضًا في مركز السقف إضاءةً مثبتّةً مع مروحة -الرفاهية الوحيدة من نوعها في الفندق بأكمله. الآن كان المدلّى من السقف مصباحٌ عارٍ معلقٍ بسلك.

في الزاوية، كانت طاولة المكتب الخشبية الصغيرة لا تزال هناك. كانت رفاهيةً أخرى أضافت قيمة للغرفة في عيون المستأجرين، بالرغم من أن أحدًا لم يَكتب أيّ خطاب في فندق «صَن شاين» على مدار أكثر من ثلاثين عامًا. وكان كرسي المكتب هناك أيضًا، يبدو قديمًا ومعتدلًا مثل الجتلمان في غرفة الطابق نفسه.

لعلها أكثر غرفة حزينّة رأيتها في حياتي.

في البهو بالأسفل، اطمأنتُ أن وولي لا يزال ينتظر في أحد الكراسي

- بجوار النافذة. ثم اتجهت إلى مكتب الاستقبال، حيث رجل بدين بشارب رفيع يستمع إلى مباراة كرة في المذياع.
- هل عندكم أيُّ غرفة خالية؟
- لِّليلة أم بالساعة؟
- هكذا سأل بعد أن ألقى نظرة خبيرة على وولي.
- لطالما أدهشني كيف يستطيع رجل يعمل في مكان كهذا أن يتخيَّل أنه يعرف أيَّ شيء على الإطلاق. كان محظوظًا أنني لم أكن أحمل مقلاة.
- قلت: - غرفتان. لِّليلة.
- أربعة أوراق مقدَّمًا. واثنان فضَّة إذا أردتَ مناشف.
- سنأخذ المناشف.
- أخرجت مظروف إيميت من جيبِي، وقَلَّبت بإصبعي في رزمة الأوراق فئة العشرين. محا ذلك الابتسامة المتكلِّفة من على وجهه بأسرع مما كانت المقلاة لتفعل. وإذ عثرت على الفِكة التي أخذتها من باقي حساب «هوجو»، أخرجت ورقة بخمسة ووضعتها على الطاولة.
- قال، وقد اتخذ فجأة نبرة جندي في القوات المسلحة: لدينا غرفتان لطيفتان في الطابق الثالث. واسمي بيرني. إذا أردت أيَّ شيء وأنت هنا - خمر، نسوَّان، فطور - لا تتردد في سؤالي.
- لا أظننا سنحتاج إلى أيِّ من ذلك، لكن ربما تستطيع مساعدتي بطريقة أخرى.
- سحبت دولارين آخرين من المظروف.
- بالتأكيد.
- قالها وهو يلحق شفَّتيه.
- أبحث عن شخص كان يقيم هنا مؤخرًا.
- أيُّ شخص؟
- الشخص في الغرفة 42.
- تقصد هاري هيويت؟

-ليس غيره.

-لقد غادر في وقت مبكر من هذا الأسبوع.

-أعرف هذا. هل قال إلى أين سيذهب؟

جاهد بيرني لكي يفكر للحظة، وأعني جاهد، لكن من دون جدوى. بدأت أعيد الورقتين إلى مكانهما. قال: انتظر لحظة. انتظر لحظة. لا أعرف أين ذهب هاري. لكن شخصًا على علاقة وثيقة به كان يقيم هنا. إن كان أحد يعرف أين هاري الآن، فهو هذا الشخص.

-ما اسمه؟

-فيتزوليامز.

-فيتزي فيتزوليامز؟

-ذاك هو.

-بيرني، إذا أخبرني أين أجد فيتزي فيتزوليامز، سأعطيك ورقة بخمسة. وإذا أعرّني مدياعك هذه الليلة، سأجعلها ورقتين.

زمان، في الثلاثينيات، عندما تصاحَب أبي وباتريك «فيتزي» فيتزوليامز، كان فيتزي مؤديًا من الدرجة الثالثة في التمر الثانوية في مسرحيات إلفودفيل. كان متخصصًا في الإلقاء الشعري، وكان يُدفع عمومًا إلى الخشبة بين الفصول لكي يستبقي المتفرجين في مقاعدهم بنخبة مُنتقاة من المقاطع الشعرية من النوع البطولي أو الخلاعي. وأحيانًا من النوعين. غير أن فيتزي كان عاشقًا حقيقيًا للأدب، عشقه الأول شعرٌ والت ويتمان. وإذا أدرك في عام 1941 أن الذكرى الخامسة عشرة لوفاة الشاعر صارت قاب قوسين، قرر إطلاق لحيته وشراء قبعة لينة الحواف على أمل إقناع مديري المسارح بأن يتركوه يحتفي بالذكرى بإحياء كلمات الشاعر. الآن، كانت هناك لحى بمختلف الأشكال. كانت هناك لحية إيرول

فلين ولحية فو مانتشو⁽¹⁾، لحية سيمغوند فرويد ولحية طائفة الأُميش التي تصل إلى الصدر. لكن بالصدفة، نبتت لحية فيتزي بيضاء وصوفيّة مثل لحية ويتمان، لذلك، مع القبة اللينة على رأسه وعينه الزرقاوين اللبّيتين، كان «أغنية نفسه» قلبًا وقالبًا⁽²⁾. وعندما افتتح تشخيصه في مسرح فقير في بروكلين هايتس - حيث غنّى عن المهاجرين الذين يرثون على شواطئ البلاد بلا انقطاع، وعن المزارعين الذين يزرعون وعمّال المناجم الذين يُنجمون، وعن الميكانيكيّين الذين يكدحون في المصانع التي لا تُحصى - أعطى جمهورُ الطبقة العاملة فيتزي أوّل تحيّة حارة بالوقوف على الأقدام في حياته.

في غضون أسابيع، صار فيتزي مطلوبًا لدى كل مؤسسة تخطط للاحتفال بذكرى وفاة ويتمان، من واشنطن العاصمة إلى بورتلاند. كان يسافر عبر الممرّ الشمالي الشرقي في عربات الدرجة الأولى، يُلقى القصائد في قاعات جمعية كرانج للمزارعين، وصالات الحفلات، والمكتبات العامة، والجمعيات التاريخية، محققًا مكاسب في ستة شهور أكثر مما حقّقه ويتمان في حياته.

ثم في نوفمبر عام 1942، عندما رجع إلى مانهاتن من أجل عرض استعاديّ في جمعية نيويورك التاريخية، تصادف أن كانت سيدة تُدعى فلورينس سكينر وسط الحضور. كانت مسز سكينر سيدة مجتمع بارزة تتباهى بإقامة حفلات تتحاكى عنها البلدة. تلك السنة كانت تخطط لافتتاح موسم الكريسماس بعمل مبهر في الخميس الأول من ديسمبر. عندما رأت فيتزي، خطرت الفكرة في رأسها كصاعقة برق، أن ذلك الرجل، بلحيته البيضاء الكبيرة وعينه الزرقاوين الفاتحتين، سيكون سانتا كلوز مثاليًا.

(1) إيرول فلين: ممثل أمريكي، لحيته خفيفة أسفل الذقن. فو مانتشو: شخصية من إبداع الكاتب الإنكليزي ساكس رومر، تتميز بلحية طويلة مدببة أسفل الذقن. (م)
(2) أغنية نفسه: الإشارة إلى قصيدة «أغنية نفسي» Song of Myself الشهيرة لويتمان، من ديوان «أوراق العشب» Leaves of Grass. (م)

بطبيعة الحال، عندما ظهر فيتزي في حفلتها بعد بضعة أسابيع ومعه سلطانية مليئة بالجيلي ولَعَلَّعَ بقصيدة «الليلة التي تسبق الكريسماس»⁽¹⁾ طَفَحَ الجمهور بأفراح موسم الأعياد. كان الجانب الأيرلندي في فيتزي ميالا إلى جعله نهماً لدرهم من الخمر كلما اضطر للوقوف على قدميه، وهو سلوك له تبعاته في عالم المسرح. لكن الجانب الأيرلندي فيه جعلَ خدَّيه يحمرَّان أيضاً كلما عاقر الشراب، الأمر الذي تبيَّن أنه ميزة إضافية في حفلة «السواريه» التي أقامتها مسز سكينر لأنه وفَّرَ اللمعة المميزة لصاحبنا سانتا كلوز.

في اليوم التالي لحفلة مسز سكينر، ظل الهاتف على طاولة مكتب نِدْ مُوسلي -وكيل حجوزات فيتزي- يرنُّ من مشرق الشمس إلى مغربها. كان كل «فَانْ هاوِزن» و«فَانْ ماوِزن» و«فَانْ باوِزن» في البلدة يخطِّطون لحفلات بمناسبة الكريسماس، وقال كلُّ منهم إنه يجب أن يحصل على فيتزي. ربما كان مُوسلي وكيلاً من الدرجة الثالثة، لكنه كان يعرف الأوزة الذهبية عندما يكون راقداً عليها. ومع تَبَقَّى ثلاثة أسابيع فقط على ليلة الكريسماس، ظل يُسَعِّرُ فيتزي على سَلَمِ تصاعدي. كان السعر ثلاثمئة دولار للظهور في العاشر من ديسمبر وخمسين أخرى لكل يوم بعد ذلك. هكذا، إذا أردتَ أن يَنْزِلَ من مدخنتك عشيَّة الكريسماس، سوف يكلِّفك رزمةً بالتمام والكمال. لكن إذا أَلْقَيْتَ خمسينَ أخرى، سوف يُسمح للأطفال بشدِّ لحيته لكي يريحوا الشكوك التي تُنْغِصُ بِالْهَمِّ.

غنيٌّ عن القول، عندما يتعلَّق الأمر بالاحتفال بميلاد يسوع في هذه الدائرة، لم تكن النقود تمثل مُشْكِلة. وكان فيتزي كثيراً ما يُحجز لثلاث مشاركات في الليلة الواحدة. أُرْسِلَ والت ويتمان إلى غرفة الملابس، وجعلَ فيتزي يهتف «هُوه.. هُوه.. هُوه..»، طيلة الطريق إلى البنك.

(1) الليلة التي تسبق الكريسماس The Night Before Christmas: قصيدة شهيرة
لكلارك مور. (م)

ظلت منزلة فيتزي الرفيعة بوصفه سانتا أعالي المدينة ترتقي عامًا بعد عام، حتى إنه بنهاية الحرب -وعلى الرغم من أنه لم يعمل إلا في شهر ديسمبر- صار يعيش في شقة في الجادة الخامسة، ويرتدي بدلة من ثلاث قطع، ويحمل عصًا يعلوها رأس رنة فضي. وفوق ذلك، تَسَارَع النبض في عروق طبقة كاملة من الاشتراكيين الشباب عندما رأوا سانتا كلوز. لذا لم يتفاجأ فيتزي على وجه الخصوص عندما سألته فتاة ملفوفة القوام، ابنة أحد رجال الصناعة، بعد أدائه في حفلة بجادة «بارك أفينيو»، إن كان يسمح لها بأن تمرَّ عليه بعدها ببضع ليال.

عندما ظهرت في شقة فيتزي، كانت ترتدي فستانًا مثيرًا بقدر ما كان أنيقًا. لكنه اكتشف أنها ليست معنيّة بالغراميات. رفضت دعوته لتناول شراب، وشرحت له إنها عضوٌ في «جمعية غرينيتش فيلج التقديميّة»، وأنهم يرتّبون لحدث كبير في الأول من مايو. وبعد أن شاهدت أداء فيتزي، خطرَ لها أنه، بلحيته البيضاء الكبيرة، يمكن أن يكون الرجل المثالي لافتتاح الحفل بإلقاء بعض فقرات من أعمال كارل ماركس.

لا شك أن فيتزي قد افتتنَ بالفتاة، وطربت نفسه لملاطفتها، وأثر فيه التعهّد بالأجر الكبير. غير أنه كان أيضًا فنانًا قلبًا وقالبًا، وكان جاهزًا لقبول تحدّي إحياء الفيلسوف القديم.

عندما حلَّ الأول من مايو وكان فيتزي يقف في الكواليس، شعرَ بأنها ليلة كأي ليلة أخرى على الخشبة. على الأقل، إلى أن اختلس النظر من وراء الستار. إذ لم تكن القاعة مشغولة بالكامل فحسب، بل كانت ممتلئة برجال ونساء كادحين. هنا كان السبّاكون وعمّال اللحام وعمّال الشحن والتفريغ، الخيّاطات وخادמות البيوت، الذين كانوا قد منحوا فيتزي -قبل تلك السنوات الطويلة في تلك الصالة الرثة في بروكلين هايتس- أول تحية حارة بالوقوف على الأقدام. بشعور عميق بالامتنان ودفقة من المحبة الشعبويّة، خطا فيتزي عبر الفتحة في الستار، واتخذ مكانه على المنصة، وقَدَّم عرضَ حياته.

كان «المونولغ» الذي ألقاه مُستخلصًا مباشرة من «المانيفستو الشيوعي»، وهيجَ فيتزي أرواحَ ذلك الجمهور. حتى إنهم، لدى وصوله إلى خاتمته النارية، كانوا خليقين بأن يهتُّوا ناهضين على أقدامهم وينفجروا في عاصفة من التصفيق -لولا أن انفتحت فجأة كل أبواب المسرح بعنف لتُدخل كتيبة صغيرة من رجال الشرطة وهم يطلقون الصافرات ويقبضون على الهراوات بحجّة انتهاك معايير السلامة من الحرائق.

في الصباح التالي، ظهر المانشيت في صحيفة «ديلي نيوز»:

سائنا «بارك أفينيو» يعمل كمحرّض على الشيوعية

وكانت نهاية الحياة الراقية لفيتز وليامز.

بعد أن تعرّف فيتزي في طرفٍ لحيته ذاتها، تردّى على سلالم الحظ السعيد. الويسكي الأيرلندي، الذي كان من قبل يصبغ خدّيه الكريسماسيين بحُمرة البشاشة، عصفَ بأسباب الرّفاه في حياته بأن أفرغَ خزائنه وقطعَ صلاته بالملابس النظيفة والمجتمع الراقي. بحلول عام 1949، كان فيتزي يُلقَى قصائد فكاامية بذيئة في أنفاق القطارات وقبعته في يده ويعيش في الغرفة 43 في فندق «صَن شاين» -الغرفة المواجهة مباشرة لغرفتي أنا وأبي.

كنتُ أتطلع لرؤيته.

إيميت

عصرًا، عندما بدأ القطار يبطئ، رفع يوليسيس رأسه من الكوّة للحظات، ثم عاد ونزل السلم. قال: هنا نترجّل. بعد أن ساعد إيميت بيلي في تعليق حقيبة ظهره، تقدم خطوة باتجاه الباب الذي سبق ودخل منه هو وشقيقه، غير أن يوليسيس أشار إلى الجانب الآخر من العربة.

-من هنا.

كان إيميت قد تخيّل أنهم سينزلون في ساحة شحن هائلة -مثل الساحة في لويس، لكن أكبر- تقع في مكان ما على أطراف المدينة، حيث لا يحدُّ الأفق إلا خط السماء. تخيل أنهم سوف يضطرون إلى الانسلاخ من العربة بحذر لكي يشقوا طريقهم أمام عمّال السكك الحديدية وحراس الأمن. لكن عندما شدّ يوليسيس الباب جانبًا وفتحه، لم تظهر أيُّ علامة على ساحة شحن، ولا أيُّ علامة على قطارات أخرى أو أشخاص آخرين. عوضًا عن ذلك، ما ملأ فتحة الباب كان المدينة نفسها. ظهر أنهم على قطعة ضيقة من السكّة معلّقة بارتفاع ثلاثة طوابق فوق الشوارع، والمباني المكتيبة ترتفع من حولهم، ومبانٍ أعلى تلوح في البعيد.

-أين نحن؟

سأل إيميت بينما كان يوليسيس يقفز إلى الأرض.

-على «السكّة الغربية العالية». خط من خطوط الشحن.

رفع يوليسيس يداً لمساعدة بيلي على النزول، تاركًا إيميت يساعد نفسه.

-والمخيّم الذي ذكرته؟

-ليس بعيدًا.

شرح يوليسيس يسير في المسافة الضيقة بين القطار والدرابزين الجانبي على حافة السكة العالية. وحذرهما من دون أن يستدير: حذار من العوارض.

على كل الاحتفاء بأفق مدينة نيويورك في الشَّعر والأغاني، لم يلتفت إليه إيميت وهو يسير إلا بالكاد. في شبابه، لم يحلم قط بزيارة مانهاتن. لم يقرأ الكتب أو يشاهد الأفلام بعين حاسدة. لقد جاء إلى نيويورك لسبب واحد وسبب واحد فقط - استرجاع سيارته. الآن وقد صاروا هنا، يستطيع إيميت أن يركز انتباهه على العثور على دوقة من خلال العثور على والده. عندما استيقظ ذلك الصباح، كانت أول كلمة على شفثيه هي «ستاتلر»، وكأن عقله وأصل فرز توليفات الحروف الهجائية في نومه. هذا هو المكان الذي قال دوقة إنه يضمُّ وكالات الحجوزات: مبنى ستاتلر. وظنَّ إيميت أنه فور وصوله هو وبيلي إلى المدينة، سيتجهان مباشرة إلى تايمز سكوير للحصول على عنوان مستر هيويت.

لكن عندما شرح إيميت نواياه ليوليسيس، قطَّب يوليسيس جبينه. لفتَ إلى أنهم لن يصلوا إلى نيويورك حتى الساعة الخامسة، بمعنى أنه عندما يصل إلى تايمز سكوير، ستكون الوكالات قد أغلقت. وبدا من المنطقي أكثر لإيميت أن ينتظروا حتى الصباح. قال يوليسيس إنه سيأخذ إيميت وبيلي إلى مخيم حيث يستطيعان المبيت بأمان، وفي الصباح التالي سوف يعتني ببيلي بينما يذهب إيميت إلى أعالي المدينة.

كانت لدى يوليسيس طريقة في قول ما ينبغي عليك فعله وكأنه استنتاج مفروغ منه، وهي السَّمة التي سرعان ما بدأت تثير أعصاب إيميت. بيد أن إيميت لا يستطيع مجادلة المنطق. إذا وصلوا في الساعة الخامسة، سيكون الوقت قد تأخر على الذهاب للبحث عن المكتب. وعندما يذهب إيميت إلى تايمز سكوير في الصباح، سيكون عملياً أكثر بكثير إن استطاع الذهاب بمفرده.

على السكة العالية، أخذ يوليسيس يسير بخطى طويلة ثابتة العزم، وكأنه هو من لديه مهمة عاجلة في المدينة.

بينما يحاول إيميت اللحاق به، جعل ينظر ليري إلى أين يتجهون. سابقاً، بعد ظهر ذلك اليوم، كان القطار قد طرَحَ عنه ثُلثي عربات الشحن، لكن ظلت سبعون عربة بين عربتهم والقاطرة. وعندما تطلع إيميت إلى الأمام، لم يَرَ إلا الفجوة الضيقة نفسها بين عربات الشحن والدرابزين الجانبي وهي تتقهقر إلى الوراء.

سأل يوليسيس: كيف ننزل من هنا؟

-لن ننزل.

-هل تقول إن المخيم هنا على القضبان؟

-هذا ما أقوله.

-لكن أين؟

توقف يوليسيس واستدار إلى إيميت.

-هل قلتُ إنني سأخذكما إلى هناك؟

-نعم.

-فلماذا لا تجعلني أفعل ذلك؟

ترك يوليسيس نظره لتلك اللحظة على إيميت ليتأكد من أن فكرته قد وصلت، ثم نظر من فوق كتفه وسأل: أين شقيقك؟

استدار إيميت، وفزعَ عندما لم يجد بيلي. لقد انصرف انتباهه إلى أفكاره وإلى محاولة اللحاق بيوليسيس، حتى إنه لم ينتبه لأخيه. وإذا رأى يوليسيس التعبير المرتسم على وجه إيميت، ارتسم الارتياح على وجهه هو. همسَ يوليسيس بكلمة خشنة، ثم مرقَ بين إيميت والدرابزين وشرع يرجع من حيث جاءوا بينما جعل إيميت يحاول اللحاق به، والحُمرة تتصاعد في خديّه.

عثرا على بيلي بالضبط حيثما تركاه -بجوار عربتهم. ففي حين لم يترك منظر نيويورك أثراً في نفس إيميت، لا يمكن أن يقال الشيء ذاته عن بيلي. بعد أن ترَجَّلوا مباشرة، تقدم خطوتين باتجاه الدرابزين، وتسلق صندوقاً خشبياً قديماً، وجعل يتطلع إلى منظر المدينة، مفتوناً بحجمها وارتفاعها. -بيلي... ناداه إيميت.

رفع بيلى رأسه لأخيه، وقد بدا أنه لم ينتبه إلى انفصاله عن الجماعة بأكثر مما انتبه أخوه.

- أليست مثلما تخيلت بالضبط يا إيميت؟

- بيلى، يجب أن نواصل السير.

رفع بيلى رأسه إلى يوليسيس.

- أيها مبنى «إمباير ستيت» يا يوليسيس؟

- مبنى «إمباير ستيت»؟

قالها يوليسيس في نفاد صبر نشأ عن العادة أكثر من العجلة. لكن فور أن سمع صوت نفسه، رقق نبرته وأشار إلى الشمال.

- إنه المبنى الذي يعلوه البرج الصغير. لكن أخاك على حق. يجب أن نواصل السير. ويجب أن تبقى قريباً منا. إذا لم تستطع في أي لحظة أن تمد يدك وتلمس واحداً منا، فذلك يعني أنك لست قريباً بما يكفي. هل تفهم؟ أفهم.

- طيب إذاً. لتتحرك.

وإذا واصل الثلاثة المسير على الأرض غير المستوية، لاحظ إيميت أن القطار، للمرة الثالثة، تدرج إلى الأمام لبضع ثوان، ثم توقف. كان يتساءل لماذا يفعل ذلك، عندما أمسك بيلى بيده ورفع رأسه بابتسامة، وقال: تلك كانت الإجابة.

- إجابة ماذا يا بيلى؟

- مبنى «إمباير ستيت». إنه أعلى مبنى في العالم.

بعد أن تجاوزوا نصف العربات، لاحظ إيميت أن السكة العالية تنحرف إلى اليسار، على بُعد نحو خمسين ياردة إلى الأمام. بسبب خدعة في المنظور، بدا أن بناية من ثمانية طوابق تنهض من القضبان مباشرة بعد المنعطف. لكن لدى اقترابهم، أدرك إيميت أنه ليس خداعاً منظورياً، في نهاية المطاف. كان المبنى في الحقيقة ينهض مباشرة فوق القضبان - لأن القضبان كانت تخترقه فعلياً. وعلى الجدار فوق الفتحة كانت لافتة صفراء كبيرة كتب عليها:

ملكية خاصة

ممنوع الدخول

قبل وصولهم بخمس عشرة قدمًا، أشار لهما يوليسيس أن يتوقفا. من مكانهم، سمعوا أصوات نشاط قادمة من الأمام على الجانب الآخر من القطار: صوت أبواب عربات الشحن وهي تنزلق على مجاريها لتفتح، وصرير منصّات النقل المتحركة، وصيحات الرجال.

قال يوليسيس وقد خفضَ صوته: - تلك وجهتنا.

همس إيميت: - عبر المبنى؟

- إنه الطريق الوحيد للوصول إلى مقصدنا.

في هذه اللحظة، شرح يوليسيس، ثمة خمس عربات على رصيف الشحن والتفريغ. فور أن ينتهي الطاقم من تفريغها، سيتدحرج القطار إلى الأمام قليلًا ليستطيع الطاقم تفريغ العربات الخمس التالية. في تلك اللحظة سيتحركون. وما داموا يتحركون وراء العربة بنفس وتيرة القطار، لن يراهم أحد.

شعر إيميت أنها فكرة سيئة. أراد أن يعبر عن قلقه ليوليسيس ويستكشف إن كان ثمة مسار بديل، غير أن دفقةً من بخار تعالت من القضبان أمامهم، وبدأ القطار يتحرك.

قال يوليسيس: - هيا بنا.

قادهما إلى داخل المبنى، سيرًا في المساحة الضيقة بين العربة والجدار بنفس وتيرة القطار بالضبط. في منتصف الطريق، توقف القطار فجأة، وتوقفوا معه. صارت أصوات النشاط في المستودع أعلى واستطاع إيميت رؤية حركة العمال السريعة منعكسة في الظلال المترقصة بين العربات. رفع بيلي رأسه وكأنه سي طرح سؤالًا، غير أن إيميت رفع إصبعًا إلى شفتيه. في النهاية، لاحظ دفقة أخرى من البخار وبدأ القطار يتدحرج ثانية. بحرص على السير بنفس سرعة العربة، خرج الثلاثة على الجانب الآخر من المبنى من دون أن يتتبع إليهم أحد.

فور خروجهم، غدّ يوليسيس الخطى لكي يتعد بهم عن المستودع.

ومثلما فعلوا من قَبْل، ظلوا يسيرون في الفجوة الضيقة بين العربات والدرابزين الجانبي. لكن عندما تجاوزوا القاطرة في النهاية، انفتح عن يمينهم مشهد عظيم.

هذه المرة، كان يوليسيس هو من توقف، مستبقًا إحساس بيلي بالدهشة. قال وهو يشير إلى النهر: -نهر هُدسون.

بعد أن ترك لبيلي برهة كي يمتّع أنظاره بعابرات المحيطات، وزوارق القَطَر، والصنادل، تَوَاصَلَ يوليسيس مع إيميت بالأعين، ثم تابع المسير. وإذ فهمَ إيميت مقصده، أمسك بيد أخيه.

قال بيلي: -انظر إلى عدد السفن.

وقال إيميت: -هيا. تستطيع أن تنظر إليها ونحن نسير.

وإذ تبعهما بيلي، سمعه إيميت يعدُّ المراكب بصوت هامس.

بعد أن ساروا لبعض الوقت، وجدوا الطريق أمامهم مسدودًا بسياج سلكي مرتفع يَقْطَع السَّكَّةَ العالية من هذا الدرابزين إلى ذاك. خطا يوليسيس إلى منتصف القضبان، وأمسك بشطر من السياج كان قد قُطِع وشدَّه إلى الخلف ليتمكن إيميت وبيلي من المُرور عبره. على الجانب الآخر، استمرَّت القضبان تتراجع إلى الجنوب، لكنها صارت الآن مليئة بالحشائش والأعشاب.

سأل إيميت: ماذا حدث لهذا الخط؟

-لم يعودوا يستخدمونه.

-لماذا؟

قال يوليسيس بطريقة نافذة الصبر: الأشياء تُستخدم ثم لا تعود تُستخدم. بعدها ببضع دقائق، استطاع إيميت أخيرًا رؤية مقصدهم. على تحويلة متاخمة للقضبان المهجورة كان مخيَّم مرتجل تتناثر فيه خيام وسقائف. مع اقترابهم، رأى الدخان يتصاعد من نارَين منفصلتين وصورًا ظلَّية ممشوقة لرجال يتحركون.

قادهما يوليسيس إلى النار الأقرب، حيث جلس صعلوكان أبيضان على إحدى عوارض السكك الحديدية يأكلون من صحتَّين من صفيح

ورجلٌ أسود حليق الذقن يقلِّب محتويات قِدرٍ من الحديد الزهر. عندما رأى الأسود يوليسيس، ابتسم.

-انظروا من جاء!

قال يوليسيس: -هيه، سْتُو.

غير أن تعبيرات الطباخ المرحِّبة سرعان ما تحولت إلى الدهشة عندما خرج إيميت وبيلي من ورائه.

شرح يوليسيس: -إنهما معي.

سأل سْتُو: -يسافران معك؟

-ألم أقل ذلك حالاً؟

-أظنك قلت...

-هل لديك مكان بجوار كوخك.

-أظن ذلك.

-سأذهب لأرى. وفي هذه الأثناء، لماذا لا تعدّ لنا شيئاً نأكله.

-والولدان أيضاً؟

-والولدان أيضاً.

بدا لإيميت أن سْتُو همَّ بأن يعبر عن الدهشة مجدداً، ثم تراجع. ونظر الصعلوكان اللذان كانا قد توقفا عن الأكل باهتمام عندما فتح يوليسيس محفظة كانت في جيبه. استغرق إيميت لحظة لكي يدرك أن يوليسيس يريد أن يدفع حساب وجبته هو وشقيقه.

قال إيميت: -انتظر. دعنا ندفع لك يا يوليسيس.

أخرج إيميت ورقة الخمسة دولارات التي كان باركر قد دسّها في جيب قميصه، وتقدم بضع خطوات إلى الأمام ومدّها إلى سْتُو. وإذا فعل ذلك، أدرك أنها ليست ورقة بخمسة دولارات. بل ورقة بخمسين.

حدّق كل من سْتُو ويوليسيس في الورقة للحظة، ثم نظر سْتُو إلى يوليسيس، الذي نظر بدوره إلى إيميت.

قال بحزم: -ضع هذه في جيبك.

شعر إيميت بالحُمة تتصاعد إلى وجهه مجدداً، فأرجع النقود إلى

جيبه. وانتظره يوليسيس أن يفعل ذلك قبل أن يستدير إلى سْتُو ويدفع ثمن الوجبات الثلاث. ثم خاطب بيلي وإيميت معًا بطريقة المتعجرفة.
- سأذهب لأحصل لنا على قطعة من الأرض. أنتما الاثنان اجلسا وتناولوا شيئًا. سأرجع بعد دقيقة.

وبينما جعل إيميت يراقب يوليسيس وهو يمضي بعيدًا، وجد نفسه عازفًا عن الجلوس أو الأكل. غير أن بيلي كان يمسك بالفعل صحنًا من اليخنة الحارة وفي حجره رغيف من خبز الذرة، وكان سْتُو يجهّز وجبة أخرى.
قال بيلي: - إنه طيّب مثل الذي تعدّه سالي.

وإذ رأى إيميت أن الأدب يقتضي منه ذلك، تقبّل الصحن.
مع أول قضمة أدرك كم كان جائعًا. كانت قد مرّت ساعات منذ تناولوا آخر طعام من عربة البولمان. وكان بيلي محقًا. كانت اليخنة الحارة طيبة مثل التي تعدّها سالي. ربما أطيب. من الدُّخْنة، تستطيع أن تعرف أن سْتُو⁽¹⁾ استخدم قدرًا معتبرًا من لحم الخنزير المقدّد، وبدا اللحم البقري من نوعية جيدة على نحو يدعو للاستغراب. عندما عرض سْتُو أن يغرف لهما صحنًا آخر، لم يعترض إيميت.

بينما انتظر إيميت دوره ليتسلّم صحنه، جعل يتفحص بعين حريصة الصعلوكين الجالسين على الجانب الآخر من النار. بالنظر إلى ملابسهما البالية ووجهيهما غير الحليقين، كان من الصعب معرفة عمريهما، ولو أن إيميت ظنّهما أصغر مما يظهر عليهما.

الرجل الطويل الرفيع على اليسار لم يكن يولّي إيميت أو أخاه أيّ انتباه، عن عمدٍ تقريبًا. لكن الرجل على اليمين، الذي كان يبتسم في اتجاههما، لَوّح لهما فجأة.

ولَوّح له بيلي.

ناداهما من وراء النار: مرحبًا بكم أيّها المسافرين المجهدون. من أين

جيتُم؟

(1) سْتُو: الاسم نفسه، بالإنكليزية، يعني «يخنة». (م)

ورفع بيلى صوته يرد عليه: -نبراسكا.
ردّ الصعلوك: -نبراسكي. قضيتُ وقت طويل في نبراسكي. ما الذي
جا بكم إلى التفاحة الكبيرة؟

قال بيلى: -جئنا لنسترجع سيارة إيميت. لكي نذهب بها إلى كاليفورنيا.
لدى ذكر السيارة، رفع الصعلوك الطويل الذي كان يتجاهلهما رأسه
باهتمام مفاجئ.

وضع إيميت يداً على ركة أخيه، وقال: -نحن مجرد عابري سبيل.
قال الرجل المبتسم: -إذاً، فقد جيتم إلى المكان المناسب. ليس هناك
في العالم مكان أفضل من هنا لعابري السبيل.

قال الطويل: -إذاً، لماذا لا تتركه وتعبّر إلى سبيلك؟
استدار الرجل المبتسم إلى جاره عابساً، لكن قبل أن يتمكن من الرد،
نظر الطويل إلى بيلى: جيتم لتأخذوا سيارتكم، تقول؟

همّ إيميت بالتدخل، غير أنه وجد يولييس فجأة يقف على حافة النار،
ينظر من أعلى إلى صحن الرجل الطويل.
قال: -يبدو أنك انتهيت من عشاءك.

رفع الصعلوك رأسيهما إلى يولييس.
قال الطويل: -سأنتهي عندما أقول إنني انتهيت.
ثم رمى الصحن على الأرض.
-الآن انتهيت.

عندما نهض الطويل، غمز الرجل الباسم بعينه لبيلى ونهض بدوره.
جعل يولييس يراقب الاثنين وهما يتبعدان، ثم جلس على العارضة
الخشبية حيث كانا يجلسان وجعل يحدّق عبر النار في إيميت، بحدّة.
قال إيميت: -أعرف. أعرف.

وولي

لو كان الأمر بيد وولي، لما قضيا الليلة في مناهتن. لما مرّا بها من الأساس. كانا سيتوجهان مباشرة إلى بيت أخته في هاستنغز أون هُدسون، ومن هناك إلى الأديرونداك.

المشكلة مع مناهتن، من وجهة نظر وولي، المشكلة مع مناهتن أنها أزلّية على نحو فطيع. بأبراجها المصنوعة من الغرانيت وبكل الأميال من الأرصفة الممتدة على مرمى البصر. في كل يوم، يدق ملايين البشر بأرجلهم على أرصفة المشاة وأرصيات الأبهاء الرخامية من دون أن يتركوا فيها ولو نقرة. وما يزيد الطين بلة أن مناهتن كانت، قطعائياً، مملوءة بالآمال. كانت الآمال كثيرة للغاية، حتى إنهم شيدوا المباني بارتفاع ثمانين طابقاً ليوافروا مساحة تكفي لتكديسها بعضها فوق بعض.

بيد أن دوقه أراد رؤية والده، لذا أخذ طريق لينكون السريع إلى نفق لينكون، ونفق لينكون تحت نهر هُدسون، والآن ها هما. إذا كانا سيبيتان في مناهتن، فكر وولي وهو يعدّل وسادته وراء رأسه، كانت تلك، على الأقل، هي الطريقة الصحيحة. لأن دوقه، فور خروجهما من نفق لينكون، لم يعطف في اليسار المتجه إلى أعالي المدينة. عوضاً عن ذلك، أخذ يميناً وظل يقود طويلاً حتى وصلا إلى شارع باوري، ذلك الشارع الذي لم يذهب إليه وولي من قبل، لكي يزور والده في فندق صغير، لم يسمع وولي عنه من قبل. وبعدها، بينما كان وولي جالساً في البهو ينظر من النافذة إلى كل الحركة في الشارع، تصادف أن رأى رجلاً يمرّ ومعه كومة من الجرائد - رجل في معطف فضفاض وقبعة ليّنة الحواف.

صرخ وولي في النافذة: -رجل الطيور! أيّ صدفة استثنائية! قفز من كرسيه، وطرق على الزجاج. فقط ليكتشف عندما استدار الرجل

أنه ليس رجل الطيور، في نهاية المطاف. لكن إذ وجد الرجل مَنْ يَطرُق ليستدعيه، دخل البهو ومعه كومة الجرائد وتوجه رأسًا إلى كرسي وولي. إذا كان دوقه، مثلما يحب أن يقول، مصابًا بحساسية تجاه الكتب، فقد كان وولي مصابًا بعلّة شبيهة. كان مصابًا بحساسية تجاه الأخبار اليومية. في مدينة نيويورك، تحدث الأشياء طوال الوقت. أشياء يُنتظر منك ليس فقط أن تكون مُلمًا بها، بل أن يكون لك رأي فيها تستطيع صياغته فور أن يُطلب منك ذلك. في الحقيقة، كانت أشياء كثيرة جدًّا تحدث بوتيرة سريعة جدًّا، حتى إنهم لا يجدون سبيلًا لإدراجها جميعًا في صحيفة واحدة، ولا بأيّ حال. كانت لدى نيويورك الـ«تايمز»، بالطبع، الجريدة العمومية، لكن علاوة على ذلك كانت لديها «البوست»، و«الديلي نيوز»، و«الهيرالد تريبيون»، و«الجورنال أميرিকা»، و«الوورلد تيليغرام»، و«الميرور». وتلك فقط التي خطرت على بال وولي في لحظتها.

كل من تلك المؤسسات لديه كتّبة من الرجال يغطّون مختلف المجالات، ويستجوبون المصادر، ويطاردون تطورات القصص الصحافية، ويحرّرون نسخة تلو نسخة إلى ما بعد العشاء بوقت طويل. كلٌّ منها يدخل المطابع في منتصف الليل ويُدفع على عجل إلى شاحنات التوصيل في كل اتجاه متصوّر لكي تكون أخبار اليوم على عتبة بابك عندما تستيقظ مع بزوغ الفجر لكي تلحق بقطار الساعة 6:42.

مجرد التفكير في الأمر جعل قشعريرة تسري في عمود وولي الفقري. لذا، مع اقتراب صاحب المعطف الفضفاض ومعه كومة جرائده، كان وولي مستعدًّا لأن يصرفه إلى حال سبيله.

لكن مثلما تبين، لم يكن صاحب المعطف الفضفاض يبيع جرائد اليوم. كان يبيع جرائد الأمس. وأمس الأول. وأول أمس الأول. شرح قائلًا: ثلاثة سنتات لـ«تايمز» الأمس، أو سنتان لجريدة أول أمس، أو سنت واحد لأول أول أمس، أو نكلة للثلاثة.

طيّب، هذه نكّة مختلفة تمامًا، كذلك فكّر وولي. الأخبار القديمة بيوم، أو اثنين، أو ثلاثة لا تحمل إلحاحًا يقارن بأخبار اليوم. لقد فقدت جدّتها.

ولا تحتاج إلى إحراز تقدير A في فصل الرياضيات الخاص بمستر كِلينبِك لتعرف أن الحصول على ثلاث جرائد بِنِكلة صفقة رابحة. لكن، للأسف، لم يكن مع وولي أيُّ نقود.
أم كان معه...؟

للمرة الأولى منذ ارتدى بنطال مستر واطسن، وضع وولي يديه في جيبَي مستر واطسن. وهل تصدّق، هل تصدّق حقًّا أن بعض الأوراق النقدية المُكْرَمِشة خرجت من الجيب الأيمن؟
قال وولي، متحمسًا: - سأخذ الثلاثة.

عندما ناول الرجل الجرائد لوولي، ناوله وولي دولارًا، مضيفًا بكرم أنه يستطيع الاحتفاظ بالباقي. ومع أن الرجل بدا سعيدًا للغاية، كان وولي على قناعة تامة أن الصفقة مربحة له هو.

يكفي أن نقول، إنه عندما حلَّ الليل وكان دوقة يركض حول مانهاتن بحثًا عن والده، كان وولي راقدًا على سريره والوسادة وراء رأسه والمذياع شغال، وبعد أن تناول قطرتين إضافيتين من الدواء من الزجاجة الإضافية التي كان قد دسّها في حقيبة إيميت المدرسية، حوّل انتباهه للجريدة التي يرجع تاريخها إلى ثلاثة أيام مضت.

نموذج أوّلِي لغواصة ذرية يحاكي غَوْصَةً إلى أوروبا مضت القصة لتشرح كيف أكملت أول غواصة ذرية ما يكافئ رحلة عبر الأطلنطي - من دون أن تغادر مكانها في قلب صحراء أيداهو! المنطق بأكمله بدا لوولي عصيًا على التصديق، شأنه شأن تلك القصص التي تجدها في كتاب بيلي الأحمر الكبير.

ثم كان العنوان من الصفحة الأولى للجريدة التي يرجع تاريخها إلى يومين مضيا.

اختبار الدفاع المدني الساعة 10 صباح اليوم عادةً، كانت كلمتا دفاع واختبار من الكلمات التي تصيب وولي بالانزعاج وتدفعه عمومًا إلى تجاوز المَقَال برمّته. لكن في جريدة «تايمز» التي يعود تاريخها إلى يومين مضيا، مَضَى المقال يشرح أنه أثناء هذا الاختبار، سوف

يُسْقِطُ أسطولٌ من طائرات العدو المتخيَّلة قنابلَ ذرية متخيَّلة على أربع وخمسين مدينة، مسبِّبًا دمارًا متخيَّلًا في جميع أنحاء أمريكا. في مدينة نيويورك وحدها، سوف تَسْقُط ثلاث قنابل متخيَّلة مختلفة، سوف تنزل إحداها بصورة متخيَّلة على تقاطع الشارع السابع والخمسين مع الجادة الخامسة - أمام متجر مجوهرات «تيفانيز» مباشرة، من بين كل الأماكن. وكجزء من الاختبار، عندما تطلق صافرات الإنذار، يجب أن تُعلّق كل الأنشطة المعتادة في المدن الأربع والخمسين لمدة عشر دقائق.

قرأ وولي بصوت عالٍ: - كل الأنشطة المعتادة تُعلّق لعشر دقائق. هل تتخيَّل؟

بأنفاس متقطّعة بعض الشيء، تحوّل وولي إلى جريدة الأمس ليرى ما الذي حدث. وهناك على الصفحة الأولى - فوق الطيَّة، مثلما يقولون - كانت صورة فوتوغرافية لميدان تايمز سكوير وفيه شرطيّان ينظران على امتداد بروودواي ولا مخلوق آخر في المشهد. لا أحد يحدّق في نافذة بائع الدخان. لا أحد يخرج من مسرح كرايتيريون أو يدخل فندق أستور. لا أحد يضرب على آلة نقديّة أو يطلب رقمًا من هاتف. ولا شخص واحدًا يشير هرجًا، أو مَرَجًا، أو يستوقف تاكسيًا.



ياله من مشهد غريب وجميل، فكّر وولي. نيويورك صامتة، ساكنة، ومهجورة فعليًا؛ خاملة تمامًا، من دون طنين أملٍ واحدٍ للمرّة الأولى منذ تأسيسها.

دوقة

بعد أن سكنتُ وولي في غرفته ومعه بضع قطرات من الدواء ومذياع مضبوط على إعلان تجاري، مضيت في طريقي صوب خمّارة تسمى «المرساة» في الشارع الخامس والأربعين في حي هيلز كيتشن. بإضاءة معتمّة وزبائن لا مبالين، كانت مكاناً من النوع الذي أحبه والذي -مكان يستطيع الممثل السابق أن يجلس فيه إلى البار ويتأسّى على ما في العالم من مظالم من دون أن يقاطعه أحد.

وفقاً لبرني، اعتاد فيتزي ووالدي الالتقاء هنا كل ليلة حوالي الثامنة والشرب إلى أن تنتهي نقودهما. بطبيعة الحال، في الساعة 7:59 انفتح الباب ودخل فيتزي يجر جر قدميه، كممثل يدخل إلى الخشبة في لحظته. لو رأيت كيف تجاهله الجميع، لأدركت أنه زبون معتاد. إجمالاً، لم يكن الزمن قد ترك عليه آثاراً سيئة. كان شعره أخفّ بعض الشيء وأنفه أقل احمراراً بعض الشيء، لكنك كنت لا تزال ترى فيه شيئاً من سانتا كلوز تبع أيام زمان يختبئ تحت السطح، إذا ضيّقت عينيك بما يكفي.

تجاوزني، وانحشر في المساحة بين اثنين من كراسي البار، ونثر عليه عملات من فئة النّكلة، وطلب «طلّقة» ويسكي - في كأس طويلة. الطّلّقة تبدو تافهة جدّاً في الكأس الطويلة، ما جعلني أستغرب طلب فيتزي. لكن عندما رفع مشروبه عن البار، رأيتُ أصابعه ترتعش قليلاً. لا شك أنه تعلم بالطريقة الصعبة أن الطّلّقة حين تُقدّم في كأس الطّلّقة تكون أكثر عرضة للانسكاب.

أمّن فيتزي الويسكي في يده، وتراجع إلى طاولة في الزاوية حولها مقعدان. بدا واضحاً أنه مكانهما المعتاد هو وأبي. إذ فور أن استراح فيتزي في مكانه رفع كأسه إلى الكرسي الشاغر. لا بُد أنه آخر إنسان على وجه

الأرض، هكذا فُكِّرت، يمكن أن يرفع كأسًا لهاري هيويت. عندما بدأ يحرك الويسكي باتجاه شفتيه، انضمت إليه.
-هاللو يا فيتزي.

تجمد فيتزي للحظة يحدِّق من فوق الكأس. ثم، للمرة الأولى في حياته ربما، أعاد الكأس إلى الطاولة من دون أن يرتشف منها. وقال: هيه يا دوقة. لم أعرفك. لقد كبرت كثيرًا.

-إنه كل ذلك العمل اليدوي. يجب أن تجربه في وقت ما.
نكس فيتزي رأسه إلى شرابه، ثم رفعها إلى الساقبي وراء البار، ثم إلى الباب المؤدي إلى الشارع. عندما انتهى من الأماكن التي يمكن أن ينظر فيها، نظر إليّ.

-طيّب، أنا سعيد برؤيتك يا دوقة. ما الذي جاء بك إلى البلدة؟
-أوه، شيءٌ هنا وشيءٌ هناك. يجب أن أرى صديقًا فوق في هارلم غدًا، لكنني أيضًا أبحث عن أبي. أنا وهو لدينا عمل لم ينتهِ، إن جاز التعبير. لسوء الحظ، وجدته غادر فندق «صَن شاين» على عجل، حتى إنه نسي أن يترك لي كلمة عن مكانه. لكنني قلت إن كان أيُّ شخص يمكن أن يعرف مكان هاري في نيويورك، سيكون صديقُه القديم فيتزي.

كان فيتزي يهز رأسه قبل أن أنهى كلامي. قال: لا. لا أعرف مكان أبيك يا دوقة. لم أره منذ أسابيع.

ثم نظر إلى شرابه الذي لم يمسه وقد بدا مغتمًا.
قلت: -كم أنا قليل الذوق. دعني أدعوك إلى شراب.
-أوه، لا بأس. لا زال معي هذا.

-هذه الكأس الصغيرة؟ ليست من مقامِك.
نهضت، واتجهت إلى البار وطلبت من الساقبي زجاجة مما يشربه فيتزي، أيًّا كان. عندما عدت، سحبت السِّدادة وملأت كأسه إلى الحافة.
-هذا أفضل.

قلتها وهو ينظر إلى الويسكي من دون أن يتسم.
يا لها من مفارقة قاسية، فُكِّرتُ بيني وبين نفسي. أقصد، ها هو الشيء

الذي ظل فيتزي يحلم به نصف حياته. بل ويصلي من أجله. كأسٌ طويلة مملوءة لحافتها بالويسكي -وعلى حساب شخص آخر، ليس أقل. لكن الآن، وهي موضوعة أمامه، لم يكن متأكدًا أنه يريدُها. شجعتُه: -هيا. لا داعي للتقيد بالرسوميات.

بقدر من التردد، رفع الكأس وأمالها ناحيتي. لم تكن إيماءة حارة مثل تلك التي أعطاها الكرسي والدي الشاعر، لكنني أعربت عن امتناني بأي حال. هذه المرة، عندما وصلت الكأس إلى شفتيه، ارتشف جرعة معتبرة، وكأنه يعوّضُ الشراب الذي لم يتناوله من قبل. ثم، بعد أن وضع الكأس، نظر إليّ وانتظر. لأن هذا ما يفعله قدامى الممثلين: ينتظرون.

عندما يتعلق الأمر بالانتظار، تجد قدامى الممثلين وقد تمرّنوا عليه طويلاً. تمرّنوا عليه وهم ينتظرون الثّقلة الكبيرة، أو وهم ينتظرون أن تأتي نِمرتُهم. وعندما يتضح أن ذلك لن يحدث، يبدأون في انتظار أشياء أخرى. مثل انتظار موعد فتح الحانات، أو وصول شيك الإعانة. وقبل أن يمر وقت طويل، تجدهم ينتظرون لكي يروا كيف سيكون النوم في الخديقة، أو سَحَب آخر نَفْسَيْن من سيجارة مرميّة. ينتظرون أن يروا أيّ هوان جديد يمكن أن يعتادوا عليه وهم ينتظرون أن ينسأهم هؤلاء الذين كانوا يحبونهم كثيرًا. لكن فوق كل شيء، ينتظرون النهاية.

-أين هو يا فيتزي؟

هز فيتزي رأسه لنفسه أكثر ممّا لي.

-مثلما قلْتُ يا دوقه، لم أره منذ أسابيع. أقسم لك.

-عادةً، سأكون ميالًا لتصديق أيّ كلمة تخرج من بين شفتيك. خاصة

عندما تقسم عليها.

جعله ذلك يجفل.

-المسألة فقط أنني عندما جلست، لم يبدُ عليك أنك فوجئت برؤيتي.

الآن، ما تفسير ذلك؟

-لا أعرف يا دوقه. ربما فوجئتُ من الداخل؟

أطلقت ضحكة عالية.

-ربما. لكن تعرف ماذا أعتقد؟ أعتقد أنك لم تفاجأ لأن أبي أخبرك أنني قد أظهر في الجوار. لكن لكي يفعل ذلك، لا بُد أن يكون قد تكلم معك في الأيام القليلة الماضية. في الحقيقة، الأرجح أن ذلك حدث وأنتما جالسان هنا بالذات.

نقرت بإصبعي على الطاولة.

-وإذا كان أخبرك أنه سيظهر من البلدة، فلا بُد أنه أخبرك إلى أين سيذهب. في نهاية المطاف، أنتما مثل لصّين في كلّش واحد. لدى سماع كلمة لصّين، أجفل فيتزي ثانية. ثم بدأ وقد ازداد غمًا، إن كان من الممكن تخيل شيء كهذا. وقال هامسًا: أنا آسف.

-ماذا تقول؟

ملت إلى الأمام قليلًا، وكأني لا أسمعه جيدًا، ورفع هو رأسه بما بدا وأنها وخزة ندم حقيقية. وقال:

-أنا آسف جدًّا يا دوق. أنا آسف أنني قلت عنك هذه الأشياء في تلك الإفادة. آسف أنني وقعت عليها.

بالنسبة لرجل لا يتكلم كثيرًا، فجأة لم تعد تستطيع إيقافه.

-كنت قد ظللتُ أشرب طوال الليلة السابقة، تعرف. وأنا أرتبك جدًّا في حضرة الشرطة، خصوصًا عندما يطرحون عليّ الأسئلة. أسئلة عمّا يمكن أن أكون رأيته أو سمعته، رغم أن نظري وسمعي ما عادا مثلما كانا. ولا ذاكرتي أيضًا. ثم عندما بدأ رجال الشرطة يُبدون استياءهم، أخذني والدك جانبًا وحاول أن يساعد على إنعاش ذاكرتي...

بينما يستطرد فيتزي، أمسكت زجاجة الويسكي وأعطيتها نظرة. في منتصف الملصق كانت عُشبة برسيم كبيرة ثلاثية الأوراق. ابتسمت لدى رؤيتها. أقصد، أيّ حظ سبق وجلبته أيّ كأس من الويسكي لأيّ إنسان⁽¹⁾. بل وويسكي أيرلندي.

(1) «أي حظ ...»: عشبة البرسيم ثلاثية الأوراق هي رمز لأيرلندا، وهي أيضًا رمز للحظ الطيب. (م)

وأنا جالسٌ هناك أشعر بثقل الزجاجة في يدي، خطرَ لي فجأةً أنني أمام مثال جميل آخر على شيء صُنِعَ بحرص لغرض ما، لكنه يناسب غرضًا آخر بشكل مثالي. منذ مئات السنين، ظلت زجاجة الويسكي تُصمَّم بجسم كبير بما يكفي لإمساكه، وعنق ضيقٌ بما يكفي للصبِّ منه. لكن إذا قلبت الزجاجة، وأمسكتَ العنق، تصير فجأةً وكأنها صُمِّمَت لتضرب وغدًا على أمِّ رأسه. بطريقة ما، كانت زجاجة الويسكي تشبه قلم الرصاص المزوَّد بممحاة - حيث يقول أحد الطرفين شيئًا، ويمحوه الطرف الآخر.

لا بُد أن فيتزي قرأ أفكاري لأنه لزم الصمت فجأة. ومن التعبير المرتسم على وجهه، رأيت أن الخوف قد تملك منه. صار وجهه شاحبًا وازدادت الرعشة في أصابعه سوءًا بشكل ملحوظ. مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ لعلها أول مرة في حياتي أخيف شخصًا. بطريقة ما، لم أستطع أن أصدِّق. إذ لم تكن لدي أيُّ نية لإيذاء فيتزي. فما الفائدة؟ عندما يتعلق الأمر بإيذاء فيتزي، هو مَنْ يملك الامتياز الحصري لذلك.

لكن تحت الظروف القائمة، قدَّرتُ أن بمقدوري استغلال ارتياحه لصالحِي. لذا عندما سأل إن كان لنا أن نقول إن ما فات قد مات، وضعتُ الزجاجة على الطاولة بقدر من الاستعراض. وقلت متفكرًا: كنت سأفعل لو استطعت. كنت سأفعل لو استطعت أن أرجع الساعة إلى الوراء وأسمح لك بأن تصلح ما فعلت، يا باتريك فيتزويليام. لكن للأسف يا صديقي، ما فات لم يُمَت. ما فات لا يزال حيًّا. بل إن ما فات لا يزال حولنا. الحقيقة أن ما فات يجلس معنا هنا في هذه الغرفة.

حدجني بنظرة مكروبة حتى كدت أشعر بالأسف لأجله.
-أيًا كانت أسباب ما فعلت يا فيتزي، أظننا يجب أن نتفق على كونك مدينًا لي. إذا أخبرتني أين أبي، سنقول إننا متعادلان. لكن إذا لم تخبرني، سيكون عليَّ أن أستخدم خيالي للتفكير في طريقة أخرى نسوي بها حسابنا.

سالي

وجدتُ أبي في الركن الشمالي من المزرعة يصلح شطراً من السياج ومعه بوبي وميغيل، وحيولهم تقف خاملة بالقرب منهم، وبضعُ مئات من رؤوس الماشية ترعى في المروج وراءهم.

انحرفتُ عن الطريق، وأوقفت السيارة أمام المكان الذي يعملون فيه، وترجّلت من الكابينة وهم يحْمُونَ أعينهم بأيديهم من التراب. بوبي، المهرج بطبيعته، راح يسعل سعالًا استعراضيًا طويلًا، بينما والدي يهز رأسه.

قال: -سالي، إذا ظللتِ تقودين هذه الشاحنة على طرق وعرة على هذا النحو، ستتعطل وتتركك على الطريق.

-أعتقد أنني صرّيتُ أعرف جيداً ما تستطيع «بيتي» تحمّله وما لا تستطيع. -طيّب. إذا تعطل ناقل السرعة لا تطلبي مني استبداله. -لا تقلق من ذلك. لأنني إذا كنت أعرف ماذا أنتظر من شاحنتي، فأنا أعرف أفضل ماذا أنتظر منك.

لاذ بالصمت للحظة، وأظنه كان يحاول أن يقرر إن كان ينبغي عليه أن يصرف الفتيتين.

وكأنما يحاول الوصول إلى تفاهم مع نفسه، قال: طيّب. لقد جئت طائراً إلى هنا لسبب ما. أستطيع أن أرى ذلك بوضوح. يمكنك إخباري بالسبب.

فتحتُ باب الراكب الأمامي، وأخرجت لافتة «للبيع» من على المقعد، ورفعتها إلى أعلى كي يستطيع أن ينظر إليها جيداً. -وجدتُ هذه في القمامة.

أوماً برأسه.

-أنا من وضعها هناك.

-ومن أين جئت بها، إذا لم تمنع في السؤال؟

-من مزرعة واطسن.

-ولماذا تقتلع لافتة «للبيع» من مزرعة واطسن.

-لأنها لم تعد للبيع...

-وكيف عرفت ذلك؟

-لأنني اشتريتها.

قالها بطريقة مقتضبة وحاسمة، محاولاً إظهار أنه التزم الصبر بقدر المستطاع، وأنه لا يملك وقتاً لمثل هذا الكلام، وأنه والفتيان لديهم عمل ينجزونه، وأن الوقت قد حان لكي أرجع إلى شاحنتي وأتجه إلى البيت حيث، بالتأكيد، لا بُد أن أكون مشغولة بإعداد العشاء الآن. لكنه كان يتكلم إلى الشخص الخطأ إذا ظن أنه يعرف شيئاً عن الصبر لا أعرفه.

للحظات، ظللت واقفة في مكاني. من دون أن أتحرك خطوة واحدة، تطلعت إلى البعيد بطريقة متأملة، ثم حوّلت أنظاري من جديد إليه مباشرة. -السرعة التي اشتريت بها المزرعة... تجعل المرء يتساءل منذ متى وأنت كامنٌ تنتظر لأن تفعل ذلك.

ركل بوبي التراب من الأرض بطرف حذائه وحوّل ميغيل أنظاره إلى الماشية، بينما هرّش أبي مؤخرة رقبته. وقال بعد لحظة: يا أولاد، أظن أن لديكم عملاً تنجزونه.

-حاضر يا مستر رانسوم.

اعتلى كل منهم حصانه وانطلق به تجاه القطيع بالخطى المتمهلة المميّزة للرجال أثناء العمل. لم يستدرِ والدي لكي يراقبهما وهما يذهبان، لكنه انتظر تراجع أصوات حوافرهما قبل أن يتكلم مجدداً. وقال، مستخدماً نبرة «سأقولها مرة ولمرة واحدة فقط»: سالي، لم يكن هناك لا كموون ولا انتظار. تشارلي تعرّض في سداد الرهن العقاري، والبنك صادر العقار،

وعرضوه للبيع، وأنا اشتريته. هذا كل ما في الأمر. لم يتفاجأ أيُّ شخص في البنك، ولن يتفاجأ أيُّ شخص في المقاطعة، ولا يجب أن تتفاجئي أنت. لأن هذا ما يفعله أصحاب المزارع. عندما تسنح الفرصة ويكون الثمن مناسبًا، يضيف المزارع إلى أرضه، بالمتاخمة.

- بالمتاخمة!

قلتُها متعجبة. وردَّ هو: نعم، بالمتاخمة.

رحنا نحدِّق أحدهنا في الآخر.

-إذًا، طيلة تلك السنوات التي ظل فيها مستر واطسن يكافح مع مزرعته، كنتُ مشغولًا جدًّا لا تستطيع أن تمد له يد العون. لكن لحظةً أن سنحت الفرصة، صرتُ متحررًا من انشغالاتك. هل هذا هو الأمر؟ هذا ما يبدو لي بالضبط كمونًا وانتظارًا.

للمرة الأولى، رفعَ صوته: اللعنة يا سالي. ماذا كنتِ تنتظرين أن أفعل؟ أركب سيارتي وأذهب إلى مزرعته وأقود محراثه بنفسِي؟ أزرع بذوره وأحصد محاصيله؟ لا تستطيعي أن تعيشي حياة رجل آخر بدلًا منه. إذا امتلَكَ الرجل أيَّ ذرَّة من كبرياء، لن يرغب في ذلك. وتشارلي واطسن ربما لم يكن مزارعًا ماهرًا، لكنه كان صاحب كبرياء. أكثر من معظم الرجال. ألقيت نظرة أخرى متأمِّلة إلى البعيد.

-أمر مثير، مع ذلك، أليس كذلك، كيف أن البنك حين كان يستعد لعرض العقار في السوق، كنت تجلس أنت على دَرَج الشُّرفة، تخبر ابن المالك أن الوقت ربما قد حان لكي يلملم أغراضه ويغادر لكي يبدأ بداية جديدة في مكان آخر.

تفحَّصني للحظة.

-هل هذه هي المسألة؟ أنتِ وإيميت؟

-لا تحاول تغيير الموضوع.

هز رأسه ثانية، مثلما فعلَ لدى وصولي.

-لم يكن ليبقى أبدًا يا سالي. لم يكن ليبقى أكثر مما بقيت أمُّه. أنتِ

رأيتِ بنفسك. فور أن استطاع، ذهب ليحصل على وظيفة في البلدة. وماذا فعل بأول مدخرات جمعها؟ اشترى لنفسه سيارة. لا شاحنة ولا جرّارًا يا سالي. سيارة. ومع أنني لا أشك في كون إيميت شعر بحزن عميق على فقدان والده، أظنه شعر بالراحة لفقدان المزرعة.

-لا تحدثني عن إيميت واطسن كأنك تعرفه بهذا القدر. أنت لا تعرف أيّ شيء مما يدور في عقله.

-ربما. لكن بعد خمس وأربعين سنة في نبراسكا، أظني أستطيع التمييز بين القاعد والمغادر.

قلت: -صحيح؟ إذا خبرني، يا مستر رانسوم: من أيّ نوع أنا؟
كان يجب أن تري وجهه عندما قلت ذلك. للحظة ابيضّ تمامًا. ثم، بالسرعة نفسها، احمرّ.

-أعرف أنه ليس سهلًا على فتاة صغيرة أن تفقد أمها. إنه أمر صعب -صعب عليها أكثر مما هو صعب على الزوج الذي فقد زوجته. لأن الأب ليس مجهزًا لتربية فتاة صغيرة بالطريقة التي يجب أن تُربى بها. خصوصًا عندما تكون الفتاة عنيدة بطبعها.

كان يحدّثني بنظرة طويلة، تحسبًا لئلا يكون واضحًا تمامًا أنه يتحدث عني.

-لقد قضيتُ ليالي طويلة وأنا راکعٌ إلى جوار فراشي أصلي لروح أمك، أطلب منها أن ترشدني إلى الطريقة المثلى للتعامل مع عنادك. وطيلة تلك السنين، لم تجبني أمك -رحمها الله- ولو مرة. لذا كان عليّ أن أعتد على ذكرياتي حول طريقة اعتنائها بك. ومع أنك كنت في الثانية عشرة فحسب عندما تُوفيت، كنت عنيدة جدًا بالفعل. وعندما كنت أعبر عن قلقي تجاه ذلك، كانت أمك تطلب مني أن أتحدى بالصبر. كانت تقول: إد، ابنتنا الصغيرة قويّة الروح، وهذا سوف يكون في صالحها عندما تصبح امرأة. فقط علينا أن نعطيها بعض الوقت والمساحة.

ثم جاء دوره لكي ينظر إلى البعيد لبرهة.

- طيّب، لقد وثقتُ في نصيحة أمك وقتها وأنا أثق فيها الآن. ولهذا السبب أتساهل معك. أتساهل معك في سلوكياتك وعاداتك؛ أتساهل معك في مزاجك ولسانك. لكن يا سالي، وليساعدني الرب، أرى الآن أنني ربما تسببتُ لك بضرر بالغ. إذ إنني عندما أعطيتُك اللجام، سمحتُ لك بأن تصبحي فتاة عنيدة، فتاة اعتادت على أن تلوك غضبها وتقول كل ما يعنُّ لها. فتاة، على أغلب الظن، لا تصلح للحياة الزوجية.

أوه، لقد استمتعَ بإلقاء تلك الخطبة الصغيرة. واقفاً هناك وساقاه منفرجتان وقدماه مزروعتان بقوة في الأرض، جعلَ يتصرف وكأنه يستطيع أن يستمد قوّته من الأرض مباشرة لأنه يملكها.

ثم رقتُ قسماته ومنحني نظرة تعاطف زادت غضبي اشتعالاً. رميتُ اللافتة عند قدميه، واستدرت وصعدت إلى كابينة شاحنتي. وضعتها على الغيار الأول، ودهستُ دواسة البنزين، ثم قدت على الطريق بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، وأنا أطيح بكل حصاة، وأخذُ كل نقرة، حتى صار هيكَل السيارة يتقلقل والأبواب والنوافذ ترتج. انعطفتُ بقوة في مدخل المزرعة، ووجهت السيارة صوبَ الباب الأمامي، وتوقفت قبله بخمس أقدام لا أكثر.

فقط عندما انقشع التراب لاحظتُ أن رجلاً يعتمر قبعة يجلس في شرفتنا. وفقط عندما نهضَ وتقدم إلى الضوء رأيت أنه الشريف.

يوليسيس

بينما كان يوليسيس يراقب الأخوان واطسن وهما يتعدان عن نار المخيم لكي يتهيأ للنوم، جاء ستو ليجلس إلى جواره.

-سينطلقان غداً؟

قال يوليسيس: -لا. الولد الأكبر لديه أعمال ينجزها في أعالي البلدة.

يفترض أن يرجع بعد الظهر ويبيتان ليلتهما.

-طيب إذا، سأبقي فراشهما في مكانهما.

-هل يمكن أن تُبقي فراشي أنا أيضاً؟

استدار ستو بقدر من الحدة لينظر إلى يوليسيس.

-هل ستبقى ليلةً أخرى؟

نظر يوليسيس إلى ستو.

-هذا ما قلته للتو، أليس كذلك؟

-هذا ما قلته.

-هل لديك مشكلة مع ذلك؟

قال ستو: -لا. لا مشكلة لدي. فقط أتذكر أن شخصاً قال في لحظة ما

إنه لن يقضي ليلتين متتالين في مكان واحد أبداً.

قال يوليسيس: -طيب إذا، عندما يأتي الجمعة، سيكون قد قضاها.

أوما ستو برأسه.

بعد برهة، قال: -تركتُ بعض القهوة على النار. سأذهب لأتابعها.

وقال يوليسيس: -تبدو فكرة جيدة.

بعد أن راقب يوليسيس ستو وهو يرجع إلى نار المخيم، وجد نفسه

يعاين أضواء المدينة طيلة الطريق من حديقة باتاري بارك إلى جسر جورج واشنطن -أضواء لم تترك في نفسه أيّ هوّى ولا وعدّته بأيّ راحة. بيد أن بيلي كان قد حكى له عن الاتفاق المبرّم بينه وبين أخيه، ورأى يوليسيس أنه منطقيّ. سيبقى ليلتين في جزيرة مانهاتن. وعندما يأتي الغد، سيقضي هو والصبي الوقت كمعارف، لكي يتمكنّا من الافتراق في اليوم التالي كأصدقاء.

خمسة

—•—

وولي

عندما توقفا في مدخل بيت أخته، عرف وولي أنَّ لا أحد في المنزل. لطالما استطاع وولي تمييز المنزل الخالي بمجرد النظر إلى نوافذه. أحياناً عندما ينظر إلى النوافذ، كان يسمع كل حركة داخل البيت، مثل أصوات وقع الأقدام وهي تصعد أو تنزل السلالم أو عيدان الكرفس وهي تُقَطَّع في المطبخ. أحياناً، كان يسمع الصمت بين شخصين يجلسان وحيدين في غرفتين مختلفتين. وأحياناً، مثل الآن، من النوافذ التي تبادله النظر، يستطيع أن يعرف أنَّ لا أحد في المنزل.

عندما أطفأ وولي المحرك، صفر دوقه.

-قلت لي كم شخصاً يعيش هنا؟

أجاب وولي: فقط أختي وزوجها. ولو أن أختي حامل.

-حامل في ماذا؟ خمسة توائم.

خرج وولي ودوقه من الستادبيكر. سأل دوقه: هل نظرق الباب؟

-لا أحد في الداخل.

-هل ستستطيع الدخول؟

-إنهما يوصدان الباب الأمامي، لكنهما غالباً يتركان باب الكراج

الداخلي مفتوحاً.

تبّع وولي دوقه إلى أحد أبواب الكراج وراقبه وهو يشدّه، فيفتح وهو

يُقعقع.

في الداخل، كان أول موقفين شاغرين. الموقف الأول لا بُدَّ يخصُّ سيارة أخته، فكّر وولي، لأن بقعة الزيت على الخرسانة اتَّخَذَتْ شكل بالون كبير هائل -يشبه ذلك البالون في كتاب بيلي. أمّا بقعة الزيت في

الموقف الثاني، فبدت أشبه بواحدة من تلك الغيوم العاصفة الصغيرة التي تحوم فوق رؤوس الشخصيات في رسوم الصحف الهزلية عندما تكون في مزاج سيئ.

أطلق دوقة صافرة أخرى.

قال، وهو يشير إلى الموقف الرابع: ما هذه؟

-كاديلاك مكشوفة.

-سيارة زوج أختك؟

قال وولي، بنبرة اعتذارية بعض الشيء: لا، إنها سيارتي.

-سيارتك!

استدار دوقة إلى وولي وقد ارتسم اندهاش مُبالغ فيه على وجهه بطريقة جعلت وولي يبتسم. لم يكن دوقة يندهش كثيرًا، لذا يبتسم وولي دائمًا عندما يحدث ذلك. تبع وولي دوقة وهو يقطع الكراج ليحظى بنظرة أفضل. كيف حصلت عليها؟

-ورثتها، أعتقد. من أبي.

نظر دوقة إلى وولي نظرة تفهم رزينة. ثم سار بمحاذاة السيارة، وهو يمرريده على غطاء محركها الأسود الطويل وينظر بإعجاب إلى الإطارات المزدانة بحلقة بيضاء ملتفة حولها.

شعر وولي بارتياح عندما لم يواصل دوقة الدوران حول السيارة، ومن ثم لم ير الانبعاجات في الباب على الجانب الآخر، حيث كان وولي قد اصطدم بعمود إنارة.

بدا «دينيس» منزعجًا جدًّا، جدًّا عندما رجع وولي إلى البيت بتلك الانبعاجات. عرف وولي أن «دينيس» كان منزعجًا جدًّا، جدًّا لأن هذه هي الكلمات التي استخدمها لوصف انزعاجه بالضبط.

انظر ماذا فعلت، قالها لولي وهو يحملق غاضبًا في الأضرار.

دينيس، تدخّلت أخته، إنها ليست سيارتك. إنها سيارة وولي.

وهو ما كان ينبغي على وولي أن يقوله بنفسه: إنها ليست سيارتك، يا

«دينيس». إنها سيارتي. غير أن وولي لم يفكر في قول ذلك. على الأقل لم يفكر في قول ذلك إلا بعد أن قالت سارة بالفعل. تعرف سارة دائمًا كيف تقول الشيء الصحيح قبل أن يقوله وولي. عندما كان وولي يجد نفسه عالقًا وسط محادثة في مدرسة داخلية أو في حفلة في نيويورك، كان يفكر بينه وبين نفسه كم كانت المحادثة لتصير أسهل لو كانت سارة هناك لتقول الأشياء الصحيحة نيابة عنه.

لكن في ذلك المساء، عندما وصلَ بانبعاجات في الباب وقالت لـ«دينيس» إنها ليست سيارته، بل سيارة وولي، ازداد انزعاج «دينيس». هذا هو بيت القصيد بالضبط، إنها سيارته. (زوج أخت وولي يتكلم دائمًا عن الأشياء بالضبط. حتى عندما يكون منزعجًا جدًّا، جدًّا، يقول فكرته بالضبط، بالضبط). الشاب المحظوظ الذي يهديه والده شيئًا ثمينًا بهذا القدر، عليه أن يعامله باحترام. فإذا لم يعرف كيف يعامله باحترام، فهو لا يستحقه أصلًا.

أوه، يا دينيس، قالت سارة. إنها ليست لوحة من لوحات مانيه، بالله عليك. إنها آلة.

قال «دينيس»: الآلات هي أساس كل ما تملكه هذه العائلة. وقالت سارة: وكل ما لا تملكه.

ها نحن ذا من جديد، فكر وولي بابتسامة.

-هل تسمح لي؟

سأله دوقه، وهو يشير إلى السيارة.

-ماذا؟ أوه، نعم. طبعًا، طبعًا.

مد دوقه يده إلى مقبض باب السائق، وتردد، ثم أخذ خطوة إلى يمينه وفتح الباب الخلفي.

قال بإيماءة مسرحية: تفضل أولاً.

انزلق وولي إلى المقعد الخلفي وانزلق دوقه بعده. بعد أن أغلق دوقه

الباب، أطلق تهيدة استحسان. وقال: انسَ الستادبيكر. إيميت ينبغي أن يصل إلى هوليوود في هذه.

ولفت وولي: -بيلي وإيميت ذاهبان إلى سان فرانسيسكو.

-بكل الأحوال. ينبغي عليهما القيام بالرحلة إلى كاليفورنيا في هذه.

-إذا أحبَّ بيلي وإيميت القيام بالرحلة إلى كاليفورنيا في الكاديلاك، فأهلاً ومرحباً.
-بأمانة؟

أكد وولي: -لا شيء سيسعدني أكثر من ذلك. المشكلة الوحيدة أن هذه الكاديلاك أقدم بكثير من الـ«ستادبيكر»، لذا فالأرجح أنها لن توصلهما إلى كاليفورنيا بنفس السرعة.

قال دوق: -ربما. لكن في سيارة كهذه، ما قيمة الاستعجال؟

تبَيَّن أن باب الكراج الداخلي موصد، لذا رجع وولي ودوق إلى الخارج، وجلس وولي على الدَّرَج الأمامي بجوار أصص الزهور بينما أنزل دوق حقيبتيهما من صندوق السيارة.

قال دوق: -قد يستغرق الأمر بضع ساعات. هل أنت واثق أنك ستكون بخير.

وقال وولي: -بكل تأكيد. سأنتظر هنا وحسب إلى أن ترجع أختي. أنا واثق أنها لن تتأخر.

راقب وولي دوق وهو يدخل الستادبيكر ويرجع بظهره في المدخل وهو يلوّح له. فور أن صار وولي بمفرده، أخرج زجاجة الدواء الإضافية من الحقيبة المدرسية، وفك غطاء القطارة، وعصرَ بعض قطرات إضافية على طرف لسانه. ثم أخذ يستمتع بالحماسة التي يسطع بها نور الشمس. قال لنفسه: «لا شيء أكثر حماسة من نور الشمس. ولا أحد أكثر موثوقيّة من العشب».

مع كلمة موثوقيّة، فكر وولي فجأة في أخته سارة، التي كانت آيةً أخرى من آيات الموثوقيّة. وضعَ الزجاجة في جيبه، ثم نهض، ورفع، ونظرَ

-وبطبيعة الحال، وجد مفتاح شقة أخته ينتظر بصبر تحت إصيص الزرع. كل المفاتيح متشابهة، بالطبع، لكن وولي عرف أن هذا المفتاح هو مفتاح بيت أخته لأنه استدار في القفل.

فتح وولي الباب، وخطا إلى الداخل، ثم توقف. ونادى: هاللو؟ هاللو، هاللو؟

فقط لكي يتأكد، نادى وولي «هاللو» رابعة في الطُّرقة التي تقود إلى المطبخ، وأخرى وهو يصعد السلم. ثم انتظر ليرى إن كان أحدٌ سيجيب. أثناء انتظاره وإنصاته، تصادف أن نظرَ إلى الطاولة الصغيرة في أسفل السلم حيث يقبع هاتف. بلمعته، وملأسته، ولونه الأسود، بدا مثل ابن عمٍّ أصغر للكاديلاك. مع ذلك، كان فيه شيء واحد ليس لامعاً، ولا أملس، ولا أسود: قطعة ورق مستطيلة صغيرة في منتصف القرص دُوّن عليها رقم هاتف البيت بخط رقيق -لكي يستطيع الهاتف أن يعرف بالضبط أين هو، ففكر وولي.

عندما لم يردَّ أحد الـ«هاللو»، تقدم وولي إلى داخل الغرفة الكبيرة، المضاءة بنور الشمس، عن يساره. -هذه غرفة المعيشة.

قالها وكأنما يعطي لنفسه جولة سياحية. لم يتغير الكثير في الغرفة منذ رآها آخر مرة. كانت «ساعة الأجداد» التي ترجع إلى جدّه لا تزال بجوار النافذة غير مملوءة. والبيانو لا يزال في الزاوية غير معزوف. والكتب لا تزال فوق الرفوف غير مقروءة. الفارق الوحيد الآن هو تلك المروحة الشرقية العملاقة أمام المدفأة، وكأن المدفأة تشعر بالخجل من منظرها. تساءل وولي إن كانت تظل مكانها طوال الوقت، أم تنقلها أخته في الشتاء حتى يتمكن من إشعال النار. لكن إذا كانت تنقلها، فإلى أين؟ بدت رقيقة وخرقاء. ففكر وولي، ربما يمكن طيها مثل المروحة العادية ودسها في أحد الأدراج.

وإذا شعر وولي بالرضا عن الفكرة، أخذ لحظة لكي يملأ الساعة، ثم خرج من غرفة المعيشة وتابع جولته.

ثم قال: هذه غرفة الطعام، حيث تتناول طعامك في الأعياد والمناسبات... وهنا الباب الوحيد في البيت الذي ليس له مقبض ويتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف... وهذا المطبخ... وهذه الطريقة الخلفية... وهنا مكتب «دينيس»، الذي لا يفترض أن يدخله أحد.

وإذ مضى وولي في طريقه بين الغرف على هذا النحو، أتمّ دورة انتهت بعودته إلى مكانه أسفل السلم. وقال، وهو يصعد: وهذا بيت الدّرج. هذه الطريقة... هذه غرفة أختي و«دينيس». وهذا الحمام. وهنا...

توقّف وولي أمام باب موارب قليلاً. فتحه برفق، ودخل غرفة كانت مثلما توقّع وغير ما توقّع في آن.

إذ بينما لا يزال سريره هناك، كان قد نُقل إلى وسط الغرفة وصار مغطى بقطعة قماش كبيرة عظيمة. كان القماش، الأبيض العَكر، قد لُطّخ بِنثار مئات القطرات الزرقاء والرمادية -فصار أشبه بتلك اللوحات المعروضة في متحف الفن الحديث. وكان الدولاب، حيث عُلقَت السترات وقمصان البدلات الخاصة بولي، خاوياً تماماً. لم تُترك فيه ولا شَماعة واحدة، ولا عُلبَة كُرَات النفتالين التي كانت تختبئ عادةً في ظلال الرفّ العلوي.

ثلاثٌ من حوائط الغرفة الأربع كانت لا تزال بيضاء، غير أن إحداها -القريبة من المكان الذي وُضع فيه السلم- صارت الآن زرقاء. أزرق زاهٍ حميم، مثل أزرق سيارة إيميت.

لم يستطع وولي الاعتراض على كون دولابه خاوياً أو سريره مغطى لأن الغرفة كانت غرفته وليست غرفته في آن. عندما تزوّجت والدته مرة أخرى وانتقلت إلى بالم بيتش، تركته سارة يستخدم هذه الغرفة. تركته يستخدمها في إجازات عيد الشكر وعيد الفصح، وفي تلك الأسابيع التي تلي مغادرته إحدى المدارس الداخلية وتسبق تسجيله في المدرسة التالية. ومع أن سارة شجّعته على التفكير في الغرفة بوصفها غرفته، فلطالما عرف

أنها لم يُقصد لها أن تكون غرفة دائمة، على الأقل ليس له هو. لقد قُصد لها أن تكون غرفة دائمة لشخص آخر.

من انحناءات تضاريس الغطاء، عرفَ وولي أن ثمة صناديق كُدّست فوق السرير قبل أن يُغطى - ما أعطاه مظهر صندلٍ نهري صغير للغاية محمّل بالبضائع.

نظر وولي أولاً ليتأكد من جفاف القطرات المتناثرة على الغطاء، ثم رفعه وطواه إلى الخلف. على السرير كانت أربعة صناديق من الكرتون مكتوب عليها اسمه.

توقف وولي للحظة متعجباً من الخط. فمع أن اسمه مكتوب بحروف طولها بوصتان وبقلم أسود سميك، كنتَ لا تزال ترى أنه خطٌ أخته - الخط نفسه التي استخدم لكتابة الأرقام الصغيرة الدقيقة على المستطيل الصغير الدقيق في قرص الهاتف. أليس ذلك مثيراً للإعجاب، فكّر وولي، أن خط الشخص يظل نفسه، كَبُرَ أو صَغُرَ.

همّ وولي بفتح الصندوق الأقرب إليه، لكنه تردد. تذكر فجأة نظرية قط شرودنغر المزعجة، التي شرحها البروفيسور فريلي في فصل الفيزياء. في هذه النظرية، كان فيزيائيّ اسمه شرودنغر قد طرحَ أطروحة (تلك هي الكلمة التي استخدمها البروفيسور فريلي: أطروحة) افترض فيها أن ثمة قطاً ومعه سُمٌّ في صندوق في حالة التباس. لكن فور أن تفتح الصندوق، تجد القطَّ إمّا مُخَرَّجاً أو مسموماً. ما يعني أن الإنسان ينبغي ألا يغامر بفتح أي صندوق إلا بقدر من الحذر، حتى لو كان اسمه مكتوباً عليه. أو ربما، خصوصاً إذا كان اسمه مكتوباً عليه.

جمّد وولي أعصابه، وفتح الغطاء وأطلق تنهيدة راحة. في الداخل وجدَ كل ملابس التي كانت في أدراج الكومود والتي كانت له وليست له. في الصندوق الذي تحته، وجد وولي كل الأشياء التي كانت فوق الكومود. مثل صندوق السيجار القديم، وزجاجة كولونيا بعد الحلاقة التي أهدت له في الكريسماس ولم يستخدمها قط، وجائزة الوصيف التي حصل عليها

من نادي التنس والتي تصوّر ذلك الرجل الذهبي الصغير الذي سيظل يضرب ضربة الإرسال إلى أبد الدهر. وفي قاع الصندوق وجدَ القاموس الأزرق الداكن الذي خصّته به والدته عندما دفعوا به إلى المدرسة الداخلية للمرة الأولى.

أخرج وولي القاموس وتحسس ثقله المطمئن في يديه. لَكُمْ أَحَبَّ هذا القاموس - لأن غرضه أن يخبرك بالضبط معنى الكلمة. اختر كلمة، وانتقل إلى الصفحة المناسبة، وهناك تجد معنى الكلمة. فإذا لم تفهم كلمة ما في التعريف، تستطيع البحث عن تلك الكلمة لتجد معناها بالضبط.

عندما أعطته أمّه القاموس، كان جزءًا من مجموعة -محفوظًا في علبة إلى جانب مكَنَز مترادفات يماثله في الهيئة. وبقدر ما أَحَبَّ وولي القاموس، احتقرَ المَكَنَز. مجرد التفكير فيه كان يُعفِرتَه. لأن الغرض منه بدا مناقضًا للغرض من القاموس. عوضًا عن إخبارك بمعنى الكلمة بالضبط، يأخذ منك الكلمة ويعطيك عشرَ كلمات يمكن أن تستخدم في محلّها.

كيف يمكن للمرء أن ينقل فكرة لشخص آخر إذا كلّمَا أراد أن يقول شيئًا، يصير بوسعه الاختيار من بين عشر كلمات مختلفة مقابل كل كلمة في الجملة؟ عدد التنويعات المحتملة يُبلبل العقل. إلى حدّ أن وولي، بُعيدَ وصوله إلى سان بول، ذهب إلى مدرّس الحساب، مستر كيلنِيك، وسأله إذا كان مع المرء جملةٌ من عشر كلمات وكلّ كلمة يمكن أن تُستبدل بعشر كلمات أخرى، فما عدد الجُمَل المحتملة؟ من دون أن يتردد لحظة، ذهب مستر كيلنِيك إلى السبورة، ودوّن معادلة، وقام ببضعة حسابات سريعة لكي يُثبِت ثبوتًا قطعياً أن الإجابة على سؤال وولي هي عشرة مليارات. طيّب، عندما يُواجه المرء بكشِفٍ مثل ذاك، كيف يُفترض به أن يبدأ في كتابة جواب على سؤال في امتحان نهاية الفصل الدراسي حتى؟

مع ذلك، عندما غادر وولي سان بول وبدأ يحضر في سان مارك، حملَ معه المَكَنَز على النحو الواجب، ووضعَه على مكتبه، حيث ظل مرتاحًا في حُضنِ علبته، ينظر إليه هازئًا بما يحمله من عشرات آلاف الكلمات التي

يمكن استبدال الواحدة منها بأخرى. على مدار العام التالي، ظلَّ يستهزئ به، ويَغِيظُه، وَيَنْخُسه إلى أن أخرجه وولي من علبته، في نهاية المطاف، ذات مساء قُبِيلَ عطلة عيد الشكر، وحمَلَه إلى حقل كرة القدم، وصبَّ عليه بعض البنزين الذي عثر عليه في زورق مدرب الفريق، وأشعل النار في ذلك الخسيس.

عندما يفكر الآن بأثر رجعي، لعلَّ الأمر كان سيمر بسلالة لو كان وولي أحرق المَكْتَزَ في خط الخمسين ياردة. لكن لسبب لا يستطيع وولي تذكره، كان قد وضع الكتاب في المنطقة النهائية، وعندما ألقى عود الثقاب، سارع اللهب باقتفاء أثر البنزين الذي اندلق على العشب، وأحاطَ بصفيحة البنزين، وأطلق انفجارًا أشعلَ النار في المرمى.

تراجع وولي إلى خط العشرين ياردة، وأخذ يراقب، مصدومًا في البداية ثم مبهورًا، النار وهي تشقُّ طريقها أعلى عمود المرمى، ثم تتحرك بالتزامن على جانبي العارضة ثم تصعد إلى القائمين إلى أن صار المرمى كله مشتعلاً باللهب. فجأة، لم يعد يبدو كمرمى على الإطلاق. بدا كروح نارية ترفع ذراعيها إلى السماء في حالة انتشاء بالنصر. وكانت منظرًا جميلًا جدًا، جدًا.

عندما استدعوا وولي ليقف أمام لجنة الانضباط، همَّ وولي بأن يشرح أن كل ما أَراده هو تحرير نفسه من طغيان المَكْتَزَ كي يستطيع أن يؤدي على نحو أفضل في امتحاناته. لكن قبل أن تسنح له فرصة الكلام، قال عميد الطلاب، الذي كان يرأس لجنة الاستماع، إن وولي يقف هناك للإجابة عن النار التي أشعلها في ملعب كرة القدم. بعدها بلحظة، أشار مستر هارينغتون، ممثل هيئة التدريس، إليها باسم لهيب. ثم أشار إليها دَنكي دَنكل، رئيس مجلس الطلاب (الذي تصادف أن كان أيضًا كابتن فريق كرة القدم)، بوصفها حريق. وعرفَ وولي لحظتها أنهم سيأخذون صفَّ المَكْتَزَ، مَهْمَا قال.

بينما يعيد وولي القاموس إلي الصندوق، سمعَ صريرَ خطى مترددة في

الطُّرقة، وعندما استدار، وجدَ أخته تقف في مدخل الباب - وفي يديها مضرب بيسبول.

قالت سارة: -أنا آسفة بخصوص الغرفة.
كان وولي وأخته جالسين في المطبخ أمام الطاولة الصغيرة في الركن المواجه للحوض. كانت سارة قد اعتذرت على استقبال وولي بمضرب بيسبول بعد أن وجدت الباب الأمامي مفتوحًا على وسعه. والآن تعتذر على أنها سَلَبَتْهُ الغرفة التي كانت ولم تكن غرفته. سارة الوحيدة في أسرة وولي التي تقول إنها آسفة وتعني ذلك. المشكلة الوحيدة، مثلما بدا لـ وولي، أنها كثيرًا ما تتأسف من دون وجود أوهى سبب يدعوها للتأسف. مثل الآن. قال وولي: -لا، لا. لا تتأسفي لي. أمر رائع أن تخصصي الغرفة للطفل. -فكرنا أن نقل أغراضك إلى الغرفة المجاورة للسلم الخلفي. ستمتع بخصوصية أكبر كثيرًا هناك، ويصير من الأسهل عليك أن تدخل وتخرج كما تحب.

قال وولي مؤيدًا: -نعم. بجوار السلم الخلفي سيكونُ آخرَ جَمَال. أوماً وولي برأسه مرتين وعلى وجهه ابتسامة ثم نكس رأسه إلى الطاولة. بعد أن أعطت سارة وولي حضنًا في الطابق العلوي، كانت قد سألتَه إن كان جائعًا وعرضت عليه أن تعدَّ له شطيرة. وهذا ما كان أمامه الآن -شطيرة جبن مشوي مقطوعة إلى مثلثين، يشير أحدهما إلى أعلى ويشير الآخر إلى أسفل. وعرف وولي، وهو ينظر إلى المثلثين، أن أخته تنظر إليه. قالت بعد برهة: -وولي. ما الذي تفعله هنا؟

رفع وولي رأسه، ثم قال بابتسامة: -أوه، لا أعرف. أتسكع، أظن. أسافر هنا وهناك. كما ترين، حصلتُ أنا وصديقي دوقة على إذن بالغياب من سالينا وقررنا القيام برحلة قصيرة وزيارة بعض الأصدقاء والأقارب. -وولي...

أطلقت سارة تنهيدة رقيقة للغاية، لم يسمعها وولي إلا بالكاد.

-لقد تلقيتُ مكاملة من ماما يوم الاثنين -بعد أن تَلَقَّتْ مكاملة من المأمور. لذا، أعرف أنك لم تحصل على إذن بالغياب.
عاد وولي ينظر إلى شطيرته.

-لكنني هاتفت المأمور لأتكلّم معه بنفسي. وأخبرني أنك كنت فردًا نموذجيًا من أفراد المجتمع. وباعتبار أنه لم يتبقَّ أمامك إلا خمسة شهور من عقوبتك، قال إنك إذا رجعتَ على الفور من تلقاء نفسك، فسيبذل قصارى جهده لكي يحدّ من التدايعات. هل أتصل به يا وولي؟ هل أتصل به وأخبره أنك في طريق العودة؟

أدار وولي صحنه حتى صار مثلث الجبن المشوي الذي يشير إلى أعلى يشير الآن إلى أسفل، ومثلث الجبن المشوي الذي يشير إلى أسفل يشير الآن إلى أعلى. المأمور اتصل بماما التي اتصلت بسارة التي اتصلت بالمأمور، فكّر وولي. ثم افترّت شفتاه عن ابتسامة. وسألها: تتذكرين؟ تتذكرين عندما كنا نلعب لعبة «تليفون»؟ كلنا في الغرفة العظيمة في المخيم؟

للحظة، نظرت سارة إلى وولي وعلى وجهها تعبيرٌ بدا حزينًا مغتمًا. غير أن ذلك لم يستمر إلا لحظة. ثم افترّت شفتاها هي الأخرى عن ابتسامة. -أتذكر.

جالسًا في كرسيه، بدأ وولي يتذكر لكليهما، فمع أنه لم يكن ماهرًا في الحفظ، كان ماهرًا جدًّا في التذكر. قال: بوصفي الأصغر، كنتُ أبدأ دائمًا. أميل على أذنك وأخفي فمي وراء يدي كيلا يسمعي غيرك، وأهمس: القباطنة كانوا يلعبون الورق في المركب. ثم تستديرين إلى كيتلين وتهمسين لها، ثم تهمس كيتلين لبابا، ويهمس بابا لابنة عمي بينيلوبي، وابنة عمي بينيلوبي تهمس للعممة روئي، وهكذا -على طول الحلقة وصولًا إلى ماما. ثم تقول ماما: آل كمبتون يلعقون المرق في الموكب.

لدى تذكُر لَحْظَةِ أمهما المحتومة، انفجر الأخ وأخته في ضحك صاحب يشبه ضحكهما في تلك السنين البعيدة.

ثم لاذا بالصمت.

سأل وولي، وهو ينظر إلى شطيرته: -كيف حالها؟ كيف حال ماما؟
قالت سارة: -بخير. عندما اتَّصَلت، كانت في طريقها إلى إيطاليا.
-مع ريتشارد.

-إنه زوجها يا وولي.

وافقها وولي: -نعم، نعم. طبعًا، طبعًا، طبعًا... في السَّراء والضَّراء.
في المرض والصحة. وإلى أن يفرَّقهما الموت -لكن ليس بعدها بدقيقة
واحدة.

-وولي... لم تكن دقيقة واحدة.

-أعرف، أعرف.

-كانت أربع سنين بعد وفاة بابا. وبوجودك في المدرسة وزواجي أنا
وكيتلين، كانت بمفردها تمامًا.
قال ثانية: -أعرف.

-لست مضطرًا لأن تحب ريتشارد يا وولي، لكن لا يمكنك أن تستكثر
على أمك عزاءات الرفقة.

نظر وولي إلى أخته، وهو يفكر: لا تستطيع أن تستكثر على أمك عزاءات
الرفقة. وتساءل، لو كان قد همس بتلك الجملة إلى سارة، وهمست هي
بها إلى كيتلين، وهمست بها كيتلين إلى أبيه، وهكذا طوال الطريق حول
الحلقة، كيف كانت ستصل إلى أمه في النهاية؟

دوقة

مع الكاوبوي بجوار المحكمة وأكرلي العهد القديم، كانت تسوية الحسابات مباشرةً إلى حد كبير. كانت بطريقة واحد ناقص واحد، أو خمسة ناقص خمسة. لكن مع تاونهاوس، بدت الحِسبة أعقد بعض الشيء. لا شك أنني كنت مدينًا له على نكبة فيلم «هوندو». لست أنا من جعلها تُمطر تلك الليلة، وأنا واثق كل الثقة أنني لم أقصد استجداء توصيلة من شرطي، لكن ذلك لا يغير من حقيقة أنني لو كنت قد اجتهدت لمواصلة طريقي عبر حقول البطاطس، لاستطاع تاونهاوس تناول فشاره، ومشاهدة الفيلم، والانسلال عائداً إلى العنابر من دون أن يراه أحد.

يُحسب لتاونهاوس أنه لم يُثر صخبًا كبيرًا حول هذا الموضوع، حتى بعد أن أخرج أكرلي الكرباج. وعندما حاولت الاعتذار له، هز كتفيه ببساطة - مثل رجل صار ينتظر أن يتلقى الضرب من حين إلى آخر سواء استحقّه أم لا. مع ذلك، أعرف أنه لم يكن مبتهجًا بما آلت إليه الأمور، أكثر مما كنتُ سأصير مبتهجًا لو انعكس الموقف. وهكذا، مقابل تلقّيه الجلدات، عرفتُ أنني مدينٌ له بشيء ما.

ما جعل الحساب معقدًا كانت مسألة تومي لاودي. كان تومي لاودي، وهو ابن رجل من أو كلاهوما لم يتمتع بالحصافة لمغادرة الولاية زَمَان في الثلاثينيات، من النوع الذي يبدو لك وكأنه يرتدي «الأفرو» حتى وهو لا يرتديه.

عندما انضم تاونهاوس إلينا في المهجع رقم أربعة كزميل لإيميت في السرير المزدوج، لم يُسرّ تومي كثيرًا لذلك. قال إنه بوصفه شابًا من أو كلاهوما، يرى أن الزنوج يجب أن يُسكنوا في عنابرهم الخاصة ويأكلوا على طاولاتهم الخاصة برفقة أبناء جنسهم. إذا نظرت إلى صورة أسرة

تومي أمام مزرعتهم، قد تتساءل ما الذي كان «لاوديات» أو كلاهما يحاولون جاهدين حمايته من السود، لكن ذلك لم يخطر لتومي غالبًا. تلك الليلة الأولى، بينما يوضّب تاونهاوس الملابس التي استلمها لتوّه في خزانة أمتعته الشخصية، اتجه تومي إليه ليضع بعض الأمور في نصابها. شرح له إنه يستطيع أن يأتي ويذهب إلى سريره، لكنه غير مرحّب به في النصف الغربي من المهجع. وفي الحَمّام، الذي يحتوي على أربعة أحواض، ليس له أن يستخدم إلا الحوض الأبعد عن الباب. أما بخصوص النظر في عيون الآخرين، فالأفضل أن يُقصر ذلك على الحد الأدنى.

بدا تاونهاوس مثل شخص يمكن أن يعتني بشؤونه، لكن إيميت لم يكن يقبل بكلام من هذا النوع. قال لتومي إن النزيل نزيل، والحوض حوض، وبإمكان تاونهاوس أن يتحرك بحرية في العنابر مثل بقيتنا. لو كان تومي أطول ببوصتين، وأثقل بعشرين رطلاً، وأشجع بمرتين، لوجّه لكمة إلى إيميت. عوضاً عن ذلك، رجع إلى نصفه الغربي من المهجع لكي يُلوك تذرّه.

الحياة في مزارع التأهيل مصمّمة لكي تبدّل عقلك. يوقظونك في الفجر، يجعلونك تعمل حتى الغروب، يعطونك نصف ساعة لتأكل، ونصف ساعة لترتب أمورك، ثم تُطفأ الأنوار. مثل الخيول المغمّاة في سترال بارك، لا يُفترض بك أن ترى أيّ شيء أكثر مما أمامك بخطوتين. لكنك إن كنت صبيّاً نشأ وسط فنّانين جوّالين، أو بعبارة أخرى وسط محتالين تافهين ولصوص صغار، لن يفوتك ذلك من دون ملاحظة.

في هذه الحالة: لاحظتُ كيف يتودد تومي إلى بُو فينالي، الحارس القادم من ميكون، جورجيا، صاحب العقلية المماثلة؛ سمعتهما يطلقان السباب واللعنات ضد الأعراق الأدكن لوناً وكذا ضد الرجال البيض الذين يُحابون تلك الأعراق؛ وذات ليلة وراء المطبخ، رأيت بُو وهو يدسُّ عُلبتين زرقاوين ضيّقتين في يديّ تومي؛ وفي الثانية صباحاً، راقبتُ تومي وهو يسير على أطراف أصابعه وسط المهجع لكي يدسّهما داخل خزانة تاونهاوس.

لذا، لم أتفاجأ أثناء المراجعة الصباحية عندما أعلن أكرلي العهد القديم -بصحبة بُو وحارسين آخرين- أن شخصاً ما يسرق من غرفة المؤن؛ ولم أتفاجأ عندما تقدم مباشرة إلى تاونهاوس وأمره بإخراج أغراضه ووضعها على سريره الذي وضبه للتو؛ وبالتأكيد لم أتفاجأ عندما لم يخرج من خزانة تاونهاوس أي شيء بخلاف ملابسه.

من تفاجأ كان بُو وتومي -تفاجأ إلى حد أنهما تبادلا النظر، بكل سذاجة. بل إن بُو، في استعراض بديع لافتقاره إلى ضبط النفس، دفع تاونهاوس جانباً وقلب مرتبته لينظر تحتها.

قال المأمور، وقد بدا أنه ليس سعيداً بما آلت إليه الأمور: توقف عن ذلك.

وهنا، تدخلت أنا لأقول وأبين: حضرة المأمور أكرلي. إذا كانت غرفة المؤن قد تعرضت للاختلاس، وإذا كان شخصٌ أزعر قد طعن في شرفنا بزعم أن الجاني يسكن مهجعنا رقم أربعة، فإنني أرى ضرورة أن تفتش كل خزانة من خزاناتنا. إذ تلك هي الطريقة الوحيدة لاستعادة سمعتنا. قال بُو: -سنقرر ما نفعل.

وقال أكرلي: -أنا سأقرر ما نفعل. افتحها. بناءً على أوامر أكرلي، شرع الحراس في التحرك من سرير إلى سرير، يُفرغون كل خزانة. وانظر وعاین، ماذا وجدوا في قاع خزانة تومي لاودي غير علبة جديدة لم تُفتح من بسكويت أوريو؟ قال أكرلي لتومي، وهو يرفع الدليل الدامغ: -ماذا يمكن أن تقول عن هذه؟

الشاب الحكيم كان سيصرّ على موقفه ويعلن أنه لم ير العلبة الزرقاء الفاتحة من قبل. والشاب الماكر كان يمكن حتى أن يؤكد بثقة الأمين الزيه: لم أضع تلك الحلوى في خزانتي. لأنه، في نهاية المطاف، لم يضعها. لكن من دون لحظة تفكير واحدة، نظر تومي من المأمور إلى بُو وجعل يُفتف: لو كنت أنا من أخذ الأوريو، إذا فأين العلبة الأخرى! باركه الرب.

لاحقًا في تلك الليلة، بينما يتعرَّق تومي في سقيفة العقاب ويغمغم بُو أمام مرآته، تجمّع حولي كل الصبيّة في المهجع رقم أربعة يسألونني ما الذي حدث بحق الجحيم. وأخبرتهم. أخبرتهم كيف رأيتُ تومي يتودّد إلى بُو، والحوار المريب وراء المطبخ، ودسّ الدليل في أواخر الليل.

-لكن كيف انتقلتُ «الكوكيز» من خزانة تاونهاوس إلى خزانة تومي؟ هكذا، سألني بعض المغفلين المفيدين، وجاء السؤال في لحظته.

ردًا على ذلك، ألقيتُ نظرة على أظافري.

-دعونا نكتفي بالقول إنها لم تنتقل على أقدامها.

وانفجرَ جميع الصبيّة في الضحك.

ثم طرح وولي مارتن، الذي لا يجب أن تهوّن من شأنه أبدًا، السؤال السديد: إذا كان بُو أعطى تومي عُلبتين من «الكوكيز» وانتهت واحدةٌ منهما إلى خزانة تومي، إذا فماذا جرى للعبة الثانية.

على الجدار في منتصف العنابر كانت لوحةٌ خضراء كبيرة دُوّنت عليها بالطلاء كل القواعد واللوائح التي أرادوا لنا الالتزام بها. مددتُ يدي وراءها، وأخرجت اللعبة الزرقاء الضيقة في حركة مسرحية: فوالا!⁽¹⁾

ثم قضينا جميعًا وقتًا لطيفًا مرحًا، ونحن نمرّر «الكوكيز» بيننا ونضحك على تومي وهو يُتِفَف وعلى بُو وهو يَقلب المِرتبة.

لكن فور أن تراجع الضحك، هز تاونهاوس رأسه ولفّت إلى أنني أخذتُ مخاطرة غير محسوبة العواقب. وعلى ذلك، نظر الجميع إليّ بشيء من الفضول. لماذا فعلتُ هذا، هكذا صاروا يتساءلون فجأة. لماذا خاطرتُ بإغصاب تومي وبُو من أجل زميل في المهجع لا أكاد أعرفه؟ بل وزميل أسود.

في الصمت الذي أعقب ذلك، وضعتُ يداً على مقبض سيفي وجعلتُ أنظر من مُحيًا إلى مُحيًا. قلت: أخذتُ مخاطرة؟ ما من مخاطرةٍ أخذتُ في يومنا هذا، يا أصدقائي، بل فرصةٌ تجلّت. لقد جئنا من محلات بائسة لقضاء عقوباتنا البائسة على ارتكاب جرائم بائسة. لكننا إذ نتشاطر المحنة، تتجلّى أمامنا فرصةٌ -فرصةٌ نادرة وثمينة- لأن نقف على قلب رجل واحد.

(1) «فوالا» Voilà: ها هي، بالفرنسية. (م)

دعونا لا نُؤلِّي الأدبار أمام الظروف التي وضعتها ربّة الحظّ على أطراف أقدامنا. دعونا نرفعها راية خفاقة ونقتحم بها الثغرة، لكي نستطيع، بعد سنوات عديدة من يومنا هذا، عندما ننظر إلى الوراء، أن نقول، قد كتبت علينا أيام الشقاء فواجهناها بوسائل غير هيّابين، كتفاً بكتف. نحن القلائل، القلة السعيدة، نحن العصبة المتآخية⁽¹⁾.

أوه، كان يجب أن تراهم.

كانوا منتشين، كأن على رؤوسهم الطير، أقول لك، معلّقين بكل مقطع. وعندما ضربتهم بـ«العصبة المتآخية» تبع أيام زمان، أطلقوا عاصفة من الهتاف. لو كان أبي هناك، لشعر بالفخر، لو لم يكن غيوراً بطبعه. بعد تبادل الخطبات على الأكتاف ورجوع الضّبيّة إلى أسرّتهم والابتسامات على وجوههم والحلوى في بطونهم، اقترب مني تاونهاوس وقال: أنا مدينّ لك.

وكان محقّقاً. كان مدينّاً لي. حتى لو كنا عُصبة متآخية.

لكن بعد كل تلك الشهور، ظل السؤال: بكم كان مدينّاً لي؟ لو كان أكرلي قد عثر على تلك «الكوكيز» في خزانة تاونهاوس، لكان تاونهاوس هو من وقف يتعرّق في سقيفة غرفة المؤن بدلاً من تومي، ولأربع ليالٍ بدلاً من ليلتين. كان ذلك رصيّداً في حسابي حقّاً، غير أن هذا الرصيد لم يكن كافياً لتعويض ضربات الكرياج الثماني التي تلقّاها تاونهاوس على ظهره. هذا ما جعلتُ أقلّبه في عقلي عندما تركتُ وولي في بيت أخته في هاستنغز أون هَدسون، وما ظللتُ أقلّبه في عقلي طول الطريق إلى هارلم.

في إحدى المناسبات، أخبرني تاونهاوس أنه يعيش في شارع 126، وهو ما بدا لي عنواناً واضحاً. غير أنني قدت السيارة ذهاباً وإياباً في الشارع ستّ مرات قبل أن أعثر عليه.

(1) «العصبة المتآخية»: يستلهم دوقه خطبته من خطبة هنري الخامس الشهيرة في مسرحية شكسبير التي تحمل هذا الاسم، الفصل الرابع، المشهد الثالث (ترجمة محمد عوض محمد). (م)

كان جالساً أعلى الدَّرَج الخارجي لبيت واجهته من الحجر الرملي الأسمر، وصبياناه يتجمعون حوله. توقفت بالسيارة على الناحية الأخرى من الشارع، وبدأت أراقب من الزجاج الأمامي. على درجّة السلم التالية لتاونهاوس جلس فتى سمين ضخم بابتسامة على وجهه، ثم آخر ببشرة سمراء ووجه مغطى بالنَّمَش، وعلى الدرجة السفلية، صَبِيَّان في أوائل سنوات المراهقة. أظن أن جلستهم كانت مُرتَّبة مثل فصيلة عسكرية صغيرة، حيث النقيب في الأعلى، ثم مُلازمه الأول، ثم مُلازمه الثاني، ثم جندياً مشاة. لكن حتى لو انعكس الترتيب، وجلس تاونهاوس على الدرجة السفلى، سيظل يعلو بقامته عن بقيتهم جميعاً. كان ذلك يجعلك تتساءل ما الذي فعلوه بأنفسهم وهو في كنساس. الأرجح أنهم ظلوا يقرضون أظافرهم ويعُدُّون الأيام حتى موعد إطلاق سراحه. الآن، مع عودة تاونهاوس لتحمل المسؤولية، صار بإمكانهم أن يُظهروا لا مبالاة محسوبة، وأن يعلنوا لأيّ عابر سبيل أنهم لا ينشغلون بمستقبلهم أكثر من انشغالهم بالطقس.

عندما عبرت الشارع واقتربتُ، نهض المراهقان الصغيران وتقدّما خطوة ناحيتي، وكأنهما سيسألاني عن كلمة السر.

نظرتُ من فوق رأسيهما، وخاطبت تاونهاوس بابتسامة.

-إذاً، هذه إحدى عصابات الشوارع الخطيرة التي ظللتُ أسمع عنها.

عندما تعرّف تاونهاوس عليّ، بدا أنه تفاجأ، بقدر ما سبق وتفاجأ إيميت

تقريباً.

قال: -يا ربّنا!

سأل صاحب الوجه المنمّش: -تعرفِ صاحب الوجه ذاك؟

تجاهلناه أنا وتاونهاوس.

-ماذا تفعل هنا يا دوق؟

-جئت لأراك.

-لمماذا؟

-انزل وسأشرح لك.

قال أبو نَمَش: -تاونهاوس لا ينزل الدَّرَج لأيّ كان.

ردّ تاونهاوس: -اخرس يا موريس.

نظرتُ إلى موريس نظرة تعاطف. كل ما أُراده هو أن يكون جنديًا مخلصًا. ما لم يفهمه هو أنه عندما يقول شيئًا مثل تاونهاوس لا ينزل الدَّرَج لأيّ كان، لا يملك رجل مثل تاونهاوس خيارًا إلا أن يفعل ذلك بالضبط. لأنه بينما قد لا يقبل أن يأخذ تعليمات من أمثالي، فهو لا يأخذ تعليمات من أمثال مُلازمه الثاني أيضًا.

نهض تاونهاوس على قدميه وشقَّ الصَّبَّان له الطريق مثلما انشقَّ البحر الأحمر لموسى. عندما نزل إلى الرصيف، أخبرته عن مدى سعادتي برؤيته، لكنه اكتفى بهزة من رأسه.

-أنت متغيّب من دون إذن.

-بشكل أو بآخر. أنا ووولي في طريقنا إلى بيت عائلته في أعالي الولاية.

-وولي معك؟

-نعم. وأعرف أنه سيحب أن يراك. نحن ذاهبان إلى «السيرك» ليلة الغد

لحضور عرض الساعة السادسة. لماذا لا تأتي؟

-السيرك ليس من أماكني المفضلة يا دوقه، لكن انقل تحياتي على أيّ

حال.

-سأفعل.

بعد لحظة، قال تاونهاوس: -طيّب إذًا. ما هو الأمر المهم لهذه الدرجة

الذي جعلك تأتي إلى هارلم لرؤيتي.

هزرتُ كتفيّ وقلت بصوت ندمان: -إنها نكبة «هوندو».

نظر إليّ تاونهاوس وكأنه لا يعرف عمّ أتكلّم.

-هل تتذكر فيلم جون وين الذي ذهبنا لرؤيته تلك الليلة المطيرة هناك

في سالينا؟ أشعر بالأسف بسبب الضرب الذي تلقّيته بعدها.

عند سماع كلمة ضَرْب، تخلى صَبَّان تاونهاوس عن كل مظهر من

مظاهر اللامبالاة. كان ذلك أشبه بدفقةٍ من الكهرباء سَرَتْ صاعدة الدَّرَج.

لا بُد أن الرفيق الكبير كان معزولًا كهربائيًا تمامًا بما جعله لا يشعر بالقوة

الكاملة للشحنة لأنه اكتفى بأن راوح مكانه، لكن موريس نهض على قدميه.

وسأل الرفيق الكبيرُ بابتسامة: -ضربُ؟
رأيتُ أن تاونهاوس يريد أن يقول للرفيق الكبير أن يخرس بدوره، لكنه
ظل يثبّت عينه عليّ.
-ربما تلقيتُ ضرباً وربما لا يا دوقه. بأيّ حال، لا أرى أن ذلك يمكن
أن يهَمَّكَ في شيء.

-أنت سيّد نفسك يا تاونهاوس. وسأكون أول من يقول هذا. لكن دعنا
نواجه الحقيقة: لم تكن ستُضطر إلى تلقي الضرب الذي تلقّيته أو لم تتلقاه،
لو لم أستجِد أنا توصيلة من شرطي.
أرسل ذلك دفقةً أخرى من الكهرباء أعلى الدَرَج.

سحبَ تاونهاوس نفساً عميقاً وجعل يحدّق في الشارع بقدر من
الحسرة، وكأنه يتذكر أوقاتاً أبسط. لكنه لم يعارضني. لم يكن هناك ما
يعارضه. أنا مَنْ طَبَحَ اللازانيا وهو من نظّف المطبخ. الأمر بهذه السهولة.
سألني بعد لحظة: -وماذا الآن. لا تقل إنك جئت كل هذا الطريق لتعتذر.
ضحكتُ.

-لا، أنا لا أراهن كثيراً على الاعتذارات. دائماً ما تبدو متأخرة بيوم
وأقلّ بدولار. ما لديّ في ذهني شيء ملموس أكثر. مثل تصفية للحسابات.
-تصفية للحسابات؟
-بالضبط.

-وكيف يُفترض بهذا أن يتمّ؟
-لو كانت مسألة الفيلم فقط، كان يمكن أن نحسبها جِلْدَةً بِجِلْدَةٍ.
ثمانية ناقص ثمانية ونصير متساويين. المشكلة أنك لا تزال مدينًا لي بسبب
حادثة الأوريو.
-حادثة الأوريو؟

قالها الرفيق الكبير بابتسامة ازدادت اتساعاً. واستطردتُ أنا: ربما لا
تساوي الجِلْدَ من حيث القيمة، لكنها لا بد أن تُحْتَسَب. وهكذا، لم نعد
أمام موقف ثمانية ناقص ثمانية، ما لدينا الآن أشبه بموقف ثمانية ناقص
خمسة. لذا أظنك إذا وجّهت لي ثلاث ضربات، سيجعلنا ذلك متعادليْن.

كان كل الصَّبيَّان على الدَّرَج ينظرون إلَيَّ بدرجات متفاوتة من عدم التصديق. هكذا يكون تأثير المسلك الشريف على العامة.

قال تاونهاوس: - تريد شجارًا.

قلتُ، بتلوحة من يدي: - لا. ليس شجارًا. الشجار يقتضي أن أحاول ردَّ الضربات. ما سأفعله هو أن أقف هنا وأتركك تضربني، بلا منازعة.

- ستركني أضربك.

قلت مؤكِّدًا: - ثلاث مرات.

- ما هذا الهراء؟

قال موريس، وقد تحوَّل عدم تصديقه إلى نوع من العدائية. لكن الرفيق الكبير كان يرتعش بضحكة غير مسموعة. بعد لحظة، استدار له تاونهاوس.

- ماذا تفهم من ذلك يا أوتيس؟

مسح أوتيس الدموع عن عينيه، وهز رأسه.

- لا أعرف يا تي. من ناحية، يبدو جنونًا. لكن من ناحية أخرى، إذا جاء ولد أبيض كل تلك المسافة من كنساس لكي يطلب «عَلَقَة»، فأظنك ينبغي أن تعطيه ما يطلب.

وإذ بدأ أوتيس يضحك في صمت من جديد، اكتفى تاونهاوس بهز رأسه. كان غير ميَّال لأن يفعلها. عرفت ذلك. ولو كنا وحدنا، الأرجح أنه كان سيرسلني في حال سبيلي، غير راض. لكن موريس كان يحدِّق فيَّ الآن بنظرة سُخْط مُستعارة. وقال: إذا لم تضربه، سأضربه أنا.

ها هو يفعلها ثانية، فكُرتُ. بدا أن موريس لا يفهم سلسلة القيادة. وما زاد الطين بِلَّةً أنه عندما تطوَّع لضربي، فعل ذلك بتبجح يوحي بأن تباطؤ تاونهاوس ربما ينبع من عدم أهليَّته للمهمة.

استدار تاونهاوس إلى موريس ببطء شديد، وقال: موريس، مجرد كونك ابن عمي لا يعني أنني لست مستعدًا لأن أخْرِسَكَ.

تضرَّج وجه موريس لتلك العبارة حتى إن النمش اختفى تقريبًا. ثم صار هو من يحدِّق في الشارع متمنيًا لو كانت أيامًا أبسط.

جعلني ذلك أشعر بقدر من الأسف عليه، وأنا أشاهده يُهان بهذه الطريقة أمام بقيتنا. لكنني عرفت أنه عبّر تصرفه الطائش، رفع درجة حرارة تاونهاوس، وهو المطلوب.

مددت ذقني تجاه تاونهاوس، وأشرت إليها.

-فقط ناولني واحدة يا تي. ماذا ستخسر؟

عندما دعوته تي، كسّر تاونهاوس مثلما توقعت.

إظهار عدم الاحترام تجاه تاونهاوس كان آخر ما أردته، لكن التحدي أمامي كان أن أدفعه لأن يوجّه الضربة الأولى. فور أن يوجّه الأولى، عرفت أن الباقي سيصير سهلاً. لأنه حتى إذا لم يتشك من الجلد، فلا شك أنه لا يزال يحمل في صدره بعض الضغينة.

-هيا.

قلتها، ناوياً أن أدعوه «تي» مرة أخرى.

قبل أن تسنح لي الفرصة، فعلها. سقطت اللكمة مباشرة حيث يجب أن تسقط، لكنها لم تطح بي إلا بضع خطوات إلى الخلف، وكأنه لم يضع فيها كامل قوته. فقلت، مشجعاً: ها نحن. هذه جيدة. لكن هذه المرة، لماذا لا تعطيني واحدة من ضربات جو لويس تبّع أيام زمان؟⁽¹⁾

وهذا ما فعله. أقصد، لم أرها قادمة أصلاً. في لحظة كنت أقف هناك أحرضه وأستفزّه، وفي اللحظة التالية كنت راقداً على الرصيف أشعر بذلك الشذا الغريب الذي لا تشمّه إلا عندما تُقعقع جمجمتك.

استندت بيدي على الخرسانة، ورفعت نفسي عن الأرض، ونهضت على قدمي، وعدت إلى موقع الضرب -تماماً مثلما سبق وفعل إيميت. جعل المراهقان يقفزان أعلى وأسفل فعلياً، وهما يصرخان: -ناولهُ يا تاونهاوس.

وغمغم موريس: -هو الذي طلبها.

وقال أوتيس وهو لا يزال عاجزاً عن التصديق: -يا أمنا مريم!

(1) جو لويس: ملاكم أمريكي من أصول أفريقية، واحد من أعظم الملاكمين الأمريكيين عبر التاريخ. (م)

ومع أن الأربعة تكلموا في آن واحد، فقد سمعتُ كلاً منهم بوضوح وكأنه يتكلم بمفرده. لكن تاونهاوس لم يسمع. لم يسمع أيًا منهم على الإطلاق لأنه لم يكن في شارع 126. كان هناك في سالينا. هناك في اللحظة التي أقسم أنه لن يفكر فيها ثانية: يتلقى الضربات من أكرلي بينما نقف لنشاهد. كانت نار العدالة هي ما تستعر داخل تاونهاوس الآن. نار العدالة التي تشفي غليل الروح المجروحة وتسوّي الحساب. كانت الضربة الثالثة لكمّة صاعدة طرحتني مستويًا على الرصيف. وكانت قطعة من الجمال، أقول لك.

أخذ تاونهاوس خطوتين إلى الخلف، وهو يلهث قليلاً من الإجهاد، والعرق ينساب على جبينه. ثم أخذ خطوة أخرى إلى الخلف وكأنه يحتاج إلى ذلك، وكأنه يخشى لو كان أقرب من ذلك أن يضربني مجدداً ومجدداً، فلا يستطيع أن يوقف نفسه.

رفعت يدي ولوّحت بها كمن يُلقي المنشقة في الحلبة. ثم بحرص على أن آخذ كامل وقتي لكي لا يندفع الدم من رأسي، بدأت أنهض على قدمي. بصقت بعض الدم على الرصيف وقلت بابتسامة: -هذا هو الكلام! قال تاونهاوس: -متعادلان الآن؟

اتفقت معه، ومددت يدي إلى الأمام: -متعادلان الآن. حدّق فيها تاونهاوس للحظة. ثم أخذها في قبضته القوية ونظر إليّ عيناً في عين -وكاننا رئيسان لدولتين وقعا لتوّهما اتفاق سلام بعد أجيال من الشقاق.

عند تلك اللحظة، كانت قامتانا تعلوان فوق الصّبيان، وعرفوا ذلك. تبدّى ذلك من تعبيرات الاحترام المرتسمة على وجوه أوتيس والمراهقين، وتعبير الغم المرتسم على وجه موريس.

شعرت بالأسف لأجله. ليس رجلاً بما يكفي ليكون رجلاً، ولا طفلاً بما يكفي ليكون طفلاً، ليس أسود بما يكفي ليكون أسود، ولا أبيض بما يكفي ليكون أبيض، بدا أن موريسي لا يستطيع أن يجد مكانه في العالم. جعلني ذلك أريد أن أنكش شعره وأطمئنه أن كل شيء سيصير على ما يرام

يومًا ما. لكن الوقت كان قد حان لكي أمضي في طريقي.
تركت يد تاونهاوس، ورفعت يدي كأنما أرفع له القبعة. وقلت: أراك
في الجوار، يا صاحبي.
وقال تاونهاوس: - بالتأكيد.

كنت قد شعرت بشعور طيّب للغاية عندما سوّيت الحسابات مع
الكاوبوي وأكرلي، عالمًا أنني ألعب دورًا صغيرًا في موازنة كَفَتَيَّ العدالة.
غير أن تلك المشاعر لا تقارَن بالرضا الذي شعرت به بعد أن تركت
تاونهاوس يسوِّي حسابه معي.

لطالما قالت الأخت أغنيس إن الأفعال الطيبة يمكن أن تشكّل عاداتك.
وأظنها كانت محقة. لقد أعطيتُ مربى سالي للأولاد في سانت نيكولاس،
والآن وأنا أهمُّ بمغادرة دَرَج تاونهاوس، وجدت نفسي أستدير وأنادي:
هيه، يا موريس.

رفع رأسه وعلى وجهه نفس تعبير الغمِّ، لكن بمسحة من الشك أيضًا.
- هل ترى تلك الستادبيكر الزرقاء اللبنيّة هناك؟

- نعم؟

- إنها لك.

ثم رميتُ له المفاتيح.

لکم أحببتُ لو أرى النظرة على وجهه وهو يلتقطها. لكنني كنت قد
استدرت بعيدًا بالفعل وشرعت أتقدم بخطى سريعة في منتصف شارع
126 والشمسُ في ظهري، وأنا أفكر: هاريسون هيويت، ها أنا قادم.

إيميت

في الثامنة إلا ربع مساءً، كان إيميت جالسًا في حانة رثة على أطراف مانهاتن ومعه كوب من البيرة وعلى البار أمامه صورةً لهاريسون هيويت. تناول إيميت رشفة، وتمعّن في الصورة باهتمام. كانت صورة جانبية لرجل وسيم في الأربعين من عمره ينظر شاردًا إلى البعيد. لم يسبق لدوقة أن ذكرَ سنَّ والده بالضبط، غير أنك تشعر من حكاياته أن مسيرة مستر هيويت المهنية ترجع إلى أوائل العشرينيات. ثم، أوّلك تُخمّن الأخت أغنيس أنه كان في نحو الخمسين عندما أحضر دوقة إلى دار الأيتام عام 1944؟ هذا سيجعله الآن في الستين تقريبًا - يجعل هذه الصورة قديمة بعشرين سنة. ويعني أيضًا أن الصورة ربما التُقّطت قبل ولادة دوقة. ولأن الصورة قديمة جدًّا والممثل شابٌ جدًّا، لم يغفل إيميت عن الشبه العائلي. بحدّ تعبير دوقة، كان لوالده أنف، وذقن، ونهَم جون باريمور⁽¹⁾. فإذا لم يرث دوقة نهَم أبيه، فقد ورث بكل تأكيد أنفه وذقنه. كانت بشرة دوقة أفتح، لكن لعلّ ذلك جاء من والدته، أيّا كانت.

ورغم وسامة مستر هيويت، لم يستطع إيميت أن يمنع نفسه من تصوّره بقدر من النفور بوصفه الرجل الخمسيني الذي انطلق بسيارة مكشوفة وإلى جواره شابة حسنة بعد أن هجر لتوّه ابنه ذا الثمانية أعوام.

كانت الأخت أغنيس محقة عندما لاحظت أن إيميت غاضب من دوقة لأنه أخذ سيارته. وعرف إيميت أنها كانت محقة أيضًا عندما لاحظت أن ما يحتاج إليه دوقة أكثر من أيّ شيء آخر هو صديق يستطيع إنقاذه، عند

(1) نهم جون باري مور: الإشارة إلى إدمانه على الشراب. (م)

الضرورة، من نواياه الضالة. أمّا إن كان إيميت أهلاً لهذه المهمة فمسألة لم تتضح بعد. بأيّ حال، سيكون عليه أن يجد دوقه أولاً.

عندما استيقظ إيميت في السابعة صباحاً، كان سئو قد استيقظ وبدأ يومه.

عندما رأى إيميت، أشار إلى صندوق مقلوب حيث كان طُست، وإبريق ماء ساخن، وصابونة، وموسى، ومنشفة. خلع إيميت ملابسه حتى خصره، وحَمَم نصفه العلوي وحلق ذقنه. ثم بعد أن تناول فطوراً من لحم الخنزير والبيض -من ماله الخاص- وتلقّى تطمينات من يوليسيس أنه سيعتني ببيلي، سار وفقاً لتوجيهات سئو عبر فجوة في سياج ونزولا على سلم معدني محاط بقفص، قاده من السكة الحديدية نزولاً إلى شارع ثلاثة عشر. بُعيد الثامنة، كان يقف في زاوية الجادة العاشرة ينظر شرقاً، شاعراً أنه استبقّ اليوم وبدأه مبكراً.

بيد أن إيميت أساء تقدير كل ما سيحدث لاحقاً. أساء تقدير الزمن الذي سيستغرقه للسير إلى الجادة السابعة. وأساء تقدير صعوبة العثور على مدخل قطار الأنفاق، وتجاوزَه مرّتين. وأساء تقدير حالة الإرباك داخل المحطة -بشبكة من المعابر والسلالم، وبجمهورها الصاخب، ثابت العزم.

بعد أن وجد إيميت نفسه يدور مع تيّار المسافرين، عثر على كُشْك «الماركات»⁽¹⁾، حيث وجد خريطة لمنظومة الأنفاق، وحدّد خط الجادة السابعة وعرف أن ثمة خمس محطات إلى شارع اثنين وأربعين، كل خطوة في تلك العملية طرحت تحدياتها الخاصة، إحباطاتها الخاصة، ومهاناتها الخاصة.

عندما نزل إيميت السلم المؤدي إلى الرصيف، وجد قطاراً واقفاً

(1) «الماركات»، قطع معدنية كانت تستخدم بدلاً من التذاكر الورقية لدخول عربات المترو. (م)

يستقبل الركاب. سارع بالالتحاق بالحشد الذي يضغط نفسه إلى داخل العرببة. عندما أغلقت الأبواب ووجد إيميت نفسه محشورًا كنفًا بكتف بين البعض ووجهًا لوجه بين آخرين، خامره ذلك الشعور المربك: مزيج بين وعي طاغ ومخجل بالذات، وإحساس أن الجميع يتجاهلونه. بدا أن كل الركاب قد اختاروا نقطة واحدة يحدّقون فيها بدقة ولا مبالاة. هذا إيميت حذوهم، وصوّب أنظاره إلى إعلان لسجائر «لاكي سترايك» وبدأ يعدّ المحطات.

في أول محطتين، بدا لإيميت أن الناس يخرجون ويدخلون بأعداد متساوية. لكن في المحطة الثالثة، صار معظمهم يخرجون. وفي الرابعة، خرج عدد كبير جدًا حتى إن إيميت وجد نفسه في عرببة خالية تقريبًا. انحنى لينظر من الزجاج الضيق إلى الرصيف، فرأى بمسحة من انزعاج أن المحطة هي «وول ستريت». عندما كان قد عاين الخريطة في شارع أربعة عشر، لم يول انتباهًا كبيرًا لأسماء المحطات المتداخلة، إذ لم يرَ داعيًا لذلك، لكنه كان متأكدًا إلى حدّ بعيد أن وول ستريت ليست من بينها.

ثم أليست وول ستريت في جنوب مانهاتن...؟

سارع إيميت بالتوجّه إلى خريطة معلقة على جدار العرببة، وسار بإصبعه على طول خط الجادة السابعة. وإذ عثرَ على محطة «وول ستريت» تبين له أنه في استعجاله ركب قطارًا سريعًا متجهًا إلى الجنوب عوضًا عن القطار المحلي المتجه إلى الشمال. وعندما أدرك ذلك، كانت الأبواب قد انغلقت بالفعل. نظرة ثانية على الخريطة أخبرت إيميت أن القطار، بعد دقيقة أخرى، سيصير في مكان ما تحت نهر إيست ريفر في طريقه إلى بروكلين.

جلس على أحد المقاعد التي صارت شاغرة، وأغمض عينيه. مرة أخرى، كان ماضيًا في الاتجاه الخطأ بزواوية مئة وثمانين درجة، غير أنه هذه المرة لا يَلمُ إلا نفسه. في كل خطوة، كان ثمة شخص يمكنه أن يطلب منه المساعدة، شخص يمكن أن يسهّل عليه رحلته بأن يوجّهه إلى السلم الصحيح، الرصيف الصحيح، القطار الصحيح. لكنه رفض أن يسأل أي

إنسان. بخجل عابس، تذكر إيميت كيف اعتاد انتقاد أبيه على إحجامه عن طلب النصيحة من المزارعين الذين يفوقونه خبرة - وكان ذلك ينتقص من رجولته. حماقة الاعتماد على الذات، فكر إيميت⁽¹⁾.

حين كان إيميت يركب من بروكلين عائداً إلى مانهاتن، عزم على ألا يرتكب الخطأ نفسه مرتين. عندما وصل إلى محطة «تايمز سكوير»، سأل الرجل في كشك «الماركات» عن المخرج الذي يقوده إلى وسط المدينة؛ وعند ناصية شارع اثنين وأربعين، سأل الرجل في كشك الجرائد أين يجد مبنى ستاتلر؛ وعندما وصل إلى مبنى ستاتلر، سأل الرجل صاحب الزي الرسمي على مكتب الاستقبال أي وكالات في المبنى هي الأكبر.

عندما وصل إيميت إلى «وكالة ترايستار للمواهب» في الطابق الثالث عشر، وجد ثمانية أشخاص في غرفة الانتظار الصغيرة: أربعة رجال معهم كلاب، واثنتان معهما قطان، وامرأة معها قرودٌ مربوط في زمام، ورجلٌ في بدلة من ثلاث قطعٍ يعتمر قبعة مستديرة ويقف على كتفه طائر غريب. كان يتكلم مع موظفة الاستقبال وهي امرأة في منتصف العمر. عندما انتهى، اقترب إيميت من المكتب.

-نعم؟

سألته موظفة الاستقبال، وكأنها سئمت بالفعل مما سيقوله إيميت، أيًا كان.

-جئت لأرى مستر لمبيرج.

تناولت قلم رصاص من حاملته ورفعته فوق دفتر.

-الاسم؟

-إيميت واطسن.

-الحيوان؟

-معذرة؟

(1) حماقة الاعتماد على الذات: الإحالة إلى مقالة «الاعتماد على الذات» لإمرسون، سالفة الذكر. (م).

رفعت عينيها عن الدفتر وتحدثت بصبر مبالغ فيه: ما نوع الحيوان الذي معك؟

-ليس معي حيوان.

-إذا لم يكن معك حيوان في عرضك، فأنت في المكان الخطأ.
شرح إيميت: ليس لديّ عرض. أريد أن أتكلم مع مستر لمبيرج في موضوع آخر.

-في هذا المكتب كل شيء في وقته يا ولدي. تريد أن تتكلم مع مستر لمبيرج في موضوع آخر، سيكون عليك أن تأتي في يوم آخر.
-لن أخذ أكثر من دقيقة...
-لماذا لا تجلس يا ماك.

قالها رجل لكلب «بولدوغ» عند قدميه.
وألحَّ إيميت: قد لا أحتاج لرؤية مستر لمبيرج على الإطلاق، ربما يمكنك مساعدتي.

رفعت وظيفة الاستقبال رأسها إلى إيميت وقد ارتسم على وجهه ارتياحٌ جادٌ.

-أنا أبحث عن شخص ربما كان من عملاء مستر لمبيرج. فتان. فقط أحاول التوصل إلى عنوانه.

بينما كان إيميت يواصل شرحه، اكفهرَّ وجه موظفة الاستقبال.

-هل أبدولك كدليل هواتف؟

-لا يا سيدتي.

وإذ ضحك عدد من الفنانين وراء إيميت، شعرَ بالحُمرة تتصاعد في خديّه.

أعادت موظفة الاستقبال قلمها إلى حامله، ورفعت سماعة الهاتف وطلبت رقمًا.

وإذ تخيّل إيميت أنها ربما تُهاتف مستر لمبيرج، في نهاية المطاف، ظل واقفًا أمام المكتب. لكن عندما دارت المكالمة، بدأت موظفة الاستقبال تتكلم مع امرأة اسمها غلاديس عمّا حدث في عرض تلفزيوني في الليلة

السابقة. تجنب إيميت النظر في عيون الفنانين المنتظرين، واستدار عائداً إلى الطريقة- في اللحظة المناسبة ليرى باب المصعد المزدوج يَنغلق. لكن قبل أن ينغلق بالكامل، برز طرف مظلة من الفتحة. بعدها بلحظة، انفتح الباب من جديد ليكشف عن الرجل صاحب القبة المستديرة والطائر على كتفه.

قال إيميت: -أشكرك.

وقال الرجل: -لا شكرَ على واجب.

لم يبدُ لإيميت أنها ستمطر هذا الصباح، لذا خَمَّن أن المظلة جزءٌ من العرض على نحو ما. رفع إيميت رأسه عن المظلة، فأدرك أن الجنتلمان يحدثُ فيه منتظراً.

سأله: -البهو؟

-أوه، معذرة. لا.

تحسس إيميت جيوبه قليلاً، ثم أخرج القائمة التي أعطاها له موظف الاستعلامات في الأسفل.

-الطابق الخامس، من فضلك.

-آه.

ضغط الجنتلمان على الزر المطلوب. ثم مديده في جيبه وأخرج حبة فول سوداني، أعطاها للطائر على كتفه. وقف الطائر على مخلب واحد، وتناول الحبة بالمخلب الآخر، ثم زَعَقَ: شكراً يا مستر مورتون.

-على الرحب والسعة يا مستر وينسلو.

راح إيميت يراقب الطائر وهو يقشّر حبة الفول السوداني بسهولة مدهشة، ولاحظ مستر مورتون اهتمامه.

قال، مبتسماً: -ببغاء رمادي أفريقي. واحد من أذكى أصدقائنا ذوي الريش. مستر وينسلو هنا، على سبيل المثال، لديه قاموس مؤلف من مئة واثنين وستين كلمة.

وزَعَقَ الطائر: -مئة وثلاث وستون كلمة.

-فعلاً يا مستر وينسلو؟ وما هي الكلمة رقم مئة وثلاثة وستين.

-أسبكا⁽¹⁾.

سَعَلَ الجنتلمان في حرج.

-هذه ليست كلمة يا مستر وينسلو. هذه اختصار.

زعق الطائر: -اختصار. مئة وأربع وستون.

فقط عندما ابتسم الجنتلمان لإيميت بقدر من الحزن، أدرك أن هذا الحوار جزءٌ من العرض أيضًا.

عندما وصلوا إلى الطابق الخامس، توقف المصعد وانفتح الباب. بكلمة شكر، خرج إيميت وبدأ الباب ينغلق. لكن مرة أخرى دَسَّ مستر مورتون طرفَ المظلة في الفتحة. هذه المرة عندما انفتح الباب من جديد، خرج من المصعد، والتحق بإيميت في الطريقة.

-لا أريد أن أتطفل عليك أيها الشاب، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من سماع استفسارك هناك في مكتب مستر لمبيرج. هل هناك احتمال أن تكون متجهًا الآن إلى وكالة «مَكْغِلي وشركاه»؟ قال إيميت متفاجئًا: -صحيح.

-هل تسمح لي بأن أقدم نصيحة من صديق؟

-نصيحته وجيهة وثمرتها فيها.

عندما رَمَقَ مستر مورتون الطائر بنظرة خجول، أطلق إيميت ضحكة عالية. كانت أول مرة يضحك فيها عاليًا منذ وقت طويل جدًا.

-سأقدّر أيَّ نصيحة تعطيها لي يا مستر مورتون.

ابتسم الجنتلمان ووصَّوَبَ مظلته يشير بها إلى الطُّرقة، التي كانت تصطف بطولها أبوابٌ متطابقة.

-عندما تدخل مكتب مستر مَكْغِلي، لن تجد موظفة استقباله، مس كرافيتس، متعاونة أكثر ممَّا وجدتَ مسز بورك. السيدات اللاتي يُدِرْنَ المكاتب في هذه المبنى متحفَّظات بطبعهن، بل وربما عزوفات، لا عونَ

(1) أسبكا ASPCA: الأحرف الأولى من «الجمعية الأمريكية لمكافحة القسوة ضد

الحيوانات». (م)

يُرتجى منهم. قد يبدو لك ذلك لؤماً من جانبهن، لكن عليك أن تفهم أنهن من الصباح إلى المساء يجلسن محاصرات بفنانين من جميع المشارب يُلحّون طلباً لمقابلة. و«الكرافيتسات» و«البوركات»، في مبنى ستاتلر، هنّ الحائل الوحيد بين النظام والفوضى العارمة. لكن إذا كان ينبغي على هاتِه السيدات أن يتعاملن بقدر من الصرامة مع الفنانين، فينبغي عليهن أن يتعاملن بقدر أكبر من الصرامة مع مَنْ يأتون لطلب أسماء وعناوين... أنزل مستر مورتون طرف مظلته المدبب على الأرض واستند على مقبضها.

-في هذا المبنى، مقابل كل فنان يمثله وكيلٌ، هناك على الأقل خمسة دائنين يُطاردونه ويجدّون في ملاحقته. هناك أفراد ثائرون من الجمهور، وزوجات سابقات، ومطاعم نُصبَ عليها. وثمة شخصٌ واحد فقط تُظهر له حارسات البوابات هؤلاء أوهى قَدْر من الكياسة، وهو الرجل الذي يمسك بشريط محفظة -سواء جاء ليستأجر فناناً لأجل عرض في برودواي أو لأجل حفل بلوغ يهودي. لذا، إذا كنت ستدخل مكتب مستر مَكْغِلي، هلاً اقترحْ عليك أن تقدم نفسك كمنتج؟

بينما يفكر إيميت في هذه النصيحة، أخذ الجنتلمان يتفحصه خفيةً. -أرى من التعبير المرتسم على وجهك أن فكرة التلاعب في تقديم نفسك ليست من طبيعتك. لكن يجب أن تقوّي قلبك، أيها الشاب، فداخل جدران مبنى ستاتلر، مَنْ يتلاعب في تقديم نفسه بصورة جيّدة هو مَنْ يقدّم نفسه على أفضل نحو.

قال إيميت: -أشكرك.

أوماً مستر مورتون برأسه. لكنه عاد ورفع إصبعاً بفكرة أخرى. -هذا الفنان الذي تبحث عنه... هل تعرف تخصصه؟

-إنه ممثل.

-هممم.

-هل هناك مشكلة؟

أوماً مورتون إيماءة غامضة.

-إنه مظهرك. سنك وملابسك. دعنا فقط نقول إن صورتك تتعارض مع ما قد ينتظره المرء من منتج مسرحي.
تفحص مستر مورتون إيميت بقدر أكبر من الجراءة، ثم ابتسم.
-هل لي أن أقترح أن تقدم نفسك كابن واحد من أصحاب حلبات الروديو؟

-الرجل الذي أبحث عنه ممثل شكسبيري...
ضحك مستر مورتون وقال: -أفضل وأفضل.
وعندما بدأ يضحك ثانية، ضحك ببقاؤه معه.
عندما دخل إيميت مكتب «مكغلي وشركاه»، حرص على أن يفعل بالضبط ما نصحه به مستر مورتون في كل خطوة، ولم يخب أمله. عندما دخل غرفة الانتظار، المزدحمة بأمهات شابات وأولاد صُهب، استقبلته موظفة الاستقبال بتعبير التملل نفسه الذي استقبل به في «وكالة ترايستار للمواهب». لكن فور أن شرح أنه ابن مدير حلبة روديو يريد استئجار فنان، أشرق وجهها.

وقفت وسوّت ثورتها، ثم قادت إيميت إلى غرفة انتظار ثانية، أصغر حجمًا لكنها مؤنثة بكراس أفضل، وبرّاد مياه، وليس فيها أحد. بعدها بعشر دقائق، اصطحب إلى مكتب مستر مكغلي، حيث استقبل بحرارة المعارف القدامى وقُدّم له مشروب.

قال مستر مكغلي، وهو يستعيد مقعده وراء مكتبه: طيب. أليس تقول إنك تبحث عن رجل لحلبة الروديو تَبَعك.

كان إيميت قد شعر بقدر من التشكك عندما علّق مستر مورتون أن البحث عن ممثل شكسبيري من أجل عرض في حلبة روديو أفضل وأفضل. وعندما شرح الأمر لمستر مكغلي، فعَل ذلك بقدر من التردد. لكن فور أن انتهى من كلامه، صفّق مستر مكغلي يديه معًا في رضا.

-حيلة ظريفة، إذا سمحت لي أن أقول! ليس لدينا نقص في الفنانين الذين يشكون من قَوْلَتِهِمْ في هذا الدور أو قَوْلَتِهِمْ في ذلك الدور. لكنني أظن أقولها، الخطأ الحقيقي الذي يرتكبه المنتجون ليس قَوْلَبة ممثلهم؛

إنه قَوْلُبة جماهيرهم. هذه المجموعة لا تريد إلا هذا، سيقولون لك، بينما تلك المجموعة لا تريد إلا ذاك. في حين أن ما يتعطش إليه زبون المسرح المخلص، في الأغلب، هو قدرٌ أكبر قليلاً من الصخب، بينما يشتهي عاشق الروديو قدرًا أكبر قليلاً من اللباقة.

انفتح وجه مستر مَكْغِلي في ابتسامة واسعة. ثم، وقد تحول سريعًا إلى الجدِّية، وضع يداً على كومة من الملفات المكدسة على مكتبه.

-تأكد يا مستر واطسن، أن مشكلاتك صارت وراء ظهرك. إذ ليس عندي فقط جيش من الممثلين الشكسبيريين الرفيعين رهنَ تصرُّفي، بل إن أربعة منهم يستطيعون ركوب الخيل واثنين منهم يستطيعون إطلاق النار. -شكرًا يا مستر مَكْغِلي. لكني أبحث عن ممثل شكسبير معيَّن. مال مستر مَكْغِلي إلى الأمام متحمسًا.

-معيَّن من أيِّ ناحية؟ بريطاني؟ كلاسيكي؟ تراجيدي؟

-أنا أبحث عن مونولوجيست شاهده أبي يؤدي قبل بضع سنين ولم يَنسَه من وقتها. مونولوجيست اسمه هاريسون هيويت. ربَّتَ مستر مَكْغِلي على مكتبه ثلاث مرات، بهدوء. -هيويت؟

-هذا صحيح.

ربَّتَ مستر مَكْغِلي على مكتبه مرة أخيرة، ثم ضغطَ زرًّا في جهاز الإنتركوم على مكتبه.

-أليس؟ هاتِ لي ملفًّا... هاريسون هيويت.

بعدها ببضع دقائق دخلت أليس وناولت مستر مَكْغِلي ملفًّا لا يمكن أن يتسع لأكثر من ورقة واحدة. بعد أن فتحه مستر مَكْغِلي وألقى عليه نظرة سريعة، وضعه على مكتبه.

-هاريسون هيويت اختيارٌ ممتاز يا مستر واطسن. أستطيع أن أرى لماذا لم يَنسَه والدك من وقتها. وهو رجل يعشق التحديات الفنية، لذا أنا متأكد أنه سيقفز لاستغلال فرصة الأداء في ملهَاكم. لكن من باب الإيضاح، ينبغي أن ألفتَ إلى أننا نمثل مستر هيويت على أساس تَشَارِكِي...

وفقًا لتقدير مستر مورتون، كانت فرصة أن يقول مستر مكغلي ذلك بالضبط تزيد عن خمسين بالمئة.

شرح مستر مورتون: عندما يقول الوكيل إنه يمثل فنانًا ما على أساس تشاركي، هذا يعني أنه لا يمثل الفنان على الإطلاق. لكن لا داعي للقلق. الوكلاء في مبنى ستاتلر بينهم اتفاق عام أنهم من أجل الحصول على عصفور في اليد، سوف يدفعون بكل سرور عشرة في المئة للأجمة. وذلك يجعلهم يمتلكون جميعًا قوائم محدثة للفنانين الذين يعملون مع منافسيهم، لكي يستطيعوا، مقابل العمولة المناسبة، إرسال الطرف المعني إلى السلم، صعودًا أو هبوطًا.

في حالة إيميت، كانت الرحلة صعودًا إلى وكيل اسمه مستر كوهين في الطابق الحادي عشر. وإذا كان مستر مكغلي قد أجرى مكالمة هاتفية مقدمًا، استقبل إيميت على الباب واصطحب مباشرةً على وجه السرعة إلى غرفة انتظار داخلية أخرى. بعدها بعشر دقائق، اصطحب إلى مكتب مستر كوهين، حيث استقبل بحرارة وقُدِّم له مشروبٌ آخر. مجددًا، استقبلت فكرة استخدام ممثل شكسبيري في عرض روديو بحفاوة على عبقريتها. لكن هذه المرة، عندما ضُغَط زر الإنتركوم وجُلِب ملف إلى المكتب، كان سُمكُه نحو بوصتين -مكدَّسًا بقصاصات أخبار وإعلانات مسرحية مصفَّرة وكومة من صور فوتوغرافية لوجوه عَفَى عليها الزمن، أعطيت إحداها لإيميت.

فور أن طمأن مستر كوهين إيميت أن مستر هيويت (وهو صديق شخصي مقرب لويل روجرز)⁽¹⁾ سوف يتحمس كثيرًا لهذه الفرصة، سأل إيميت كيف يمكن الوصول إليه.

التزامًا بتعليمات مستر مورتون، شرح إيميت أنه سيغادر المدينة في الصباح التالي، ومن ثم يحتاج إلى طَرَقِ أيِّ تفاصيل في التَّوَّ واللحظة. هذا التصريح حوَّل المكتب إلى خلية نحل، حيث اتَّفَق على البنود وكُتِبَت العقود.

(1) ويل روجرز: كوميدي أمريكي كان أيضًا «كاوبوي». (م)

كان إيميت قد سأل مستر مورتون: -إذا جهزوا العقود حقًا، هل أوقعها؟
-وَقَعَ أَيَّ شَيْءٍ يضعونه أمامك يا ولدي! وتأكد من أن الوكيل يوقع
أيضًا. ثم صمّم على أن تأخذ نسختين طبق الأصل لأجل ملفّاتك. إذ إن
الوكيل فور أن يحصل على توقيعك، سيعطيك مفاتيح بيت أمّه.

عنوان هاريسون هيويت الذي أعطاه مستر كوهين لإيميت قادّه إلى
فندق رثّ في شارع رثّ في وسط مانهاتن. من الرجل المهذب الذي فتح
باب الغرفة 42، عرف إيميت، لخية أمّله، أن مستر هيويت لم يعد نزيلاً،
لكنه عرف أيضًا أن ابن مستر هيويت ظهر صباح اليوم السابق، ويبدو أنه
قضى الليلة في الفندق.

قال الجتلمان: -ربما لا يزال هنا.

في البهو، قال الموظف صاحب الشارب الرفيع كالقلم الرصاص،
طبعًا، طبعًا، يعرف ما يتحدث عنه إيميت. ابن هاري هيويت. ظهر ليسأل
عن مكان والده، ثم حجز غرفتين لليلة واحدة. لكنه لم يعد هناك. إذ غادر
هو وصديقه الحالم حوالي الظهر.

وأضاف الموظف: -ومعهما مدياعى اللعين.

-هل أخبرك إلى أين سيذهب؟

-ربما.

سأل إيميت: -ربما؟

أرجع الموظف ظهره في كرسيه.

-عندما ساعدتُ صديقك لكي يعثر على والده، أعطاني عشرة

دولارات...

وفقًا للموظف، سيستطيع إيميت العثور على والد دوقه بالتحدث إلى
صديق له يشرب في إحدى حانات «ويست سايد» كل ليلة بعد الثامنة.
ولما كان أمام إيميت وقت طويل، جعل يسير في برودواي إلى أن عثر على
مقهى ممتلئ ونظيف، وجيّد الإضاءة. جلس إلى المنضدة، وطلب الطبق
الخصوصي وقطعة فطير. أنتم وجبته بثلاثة فناجين من القهوة، وسيجارة
استجداها من النادلة -امرأة أيرلندية اسمها مورين، بدّت، برغم انشغالها
أكثر من مسز بورك بعشر مرات، أكثر لطفًا منها بعشر مرات.

المعلومات التي حصل عليها إيميت من موظف الفندق أرسلته عائداً إلى تايمز سكوير، الذي كان في تلك الساعة، قبيل الغروب، قد صار متوهجاً بلافتات ساطعة تُعلن عن سجاثر، وسيارات، وأجهزة منزلية، وفنادق، ومسارح. هذه المبالغة والبهرجة في حد ذاتها جعلت إيميت عازفاً عن شراء أي شيء ممّا تُعلن عنه تلك اللافتات.

رجع إيميت إلى كشك الجرائد عند ناصية شارع اثنين وأربعين، حيث وجد بائع الجرائد نفسه من اليوم السابق. هذه المرة أشار بائع الجرائد إلى الطرف الشمالي من الميدان، حيث لافتة عملاقة لويسكي «كانيديان كلاب» تسطع بارتفاع عشرة طوابق فوق الشارع.

-هل ترى تلك اللافتة؟ وراءها مباشرة، خذ يساراً في شارع خمسة وأربعين وواصل السير إلى أن تنتهي من مانهاتن.

على مدار اليوم، كان إيميت قد اعتاد على تجاهل الناس له. تجاهله الركاب في قطار الأنفاق، وتجاهله المشاة على الأرصفة، وتجاهله الفنانون في غرف الانتظار، وعزا ذلك إلى عدائية الحياة في المدينة. لذا تفاجأ بعض الشيء عندما اكتشف فور تجاوزه الجادة الثامنة، أن الناس لم يعودوا يتجاهلونه.

عند ناصية الجادة التاسعة، رصده شرطي دورية يقوم بجولته. وفي الجادة العاشرة اقترب منه شاب عرض أن يبيعه مخدرات وآخر عرض أن يبيعه شركته. وبينما يقترب من الجادة الحادية عشرة، أشار إليه شحاذ أسود عجوز، تجنّبه بأن أسرع خطاه، فقط لكي يصطدم رأساً بشحاذ أبيض عجوز بعد بضع خطوات.

بعد أن وجد تجاهل الناس له في الصباح بغيضاً إلى حدّ ما، كان على استعداد لأن يرحّب به الآن. شعر أنه فهم السبب الذي يجعل الناس في نيويورك يسرون بهذا الاستعجال والتصميم. كانت إشارة لإبعاد الصعاليك والمتسكعين وكل سافل وضع.

قبيل الوصول إلى النهر، عثر على «المرساة» -الحانة التي وصفها له موظف الفندق. بالنظر إلى اسمها وموقعها، تخيل إيميت أنها ستكون

مكانًا مخصصًا للبحارة وأعضاء السفن التجارية. لكن لو كانت كذلك يومًا، فلا بُد أن الارتباط قد انقطع منذ زمن بعيد. إذ لم يجد في الداخل رجلًا واحدًا يمكن أن تصفه بأنه جديرٌ بالبحر. في عيني إيميت، بدوا جميعًا لا يرتقون إلى أكثر من درجة واحدة فوق الشحاذين العجائز الذي راوغهم في الشارع.

وإذ عرف إيميت من مستر مورتون مدى تردد الوكلاء في الإفصاح عن العناوين، خشي أن يكون ساقى البار كتمًا بالقدر نفسه؛ أو ربما يطلب تعويضًا معتبرًا، مثل الموظف في فندق «صَن شاين». لكن عندما شرَح إيميت أنه يبحث عن رجل اسمه فيتزويليامز، قال ساقى البار إنه جاء إلى المكان الصحيح. وعلى ذلك، اتخذ إيميت مقعدًا أمام البار وطلب بيرة.

عندما انفتح باب «المرساة» بعد الثامنة بقليل ودخل رجل ستيني، أعطى ساقى البار الإيماءة لإيميت. من مقعده المرتفع، جعل إيميت يراقب الشيخ وهو يتحرك ببطء صوب منضدة البار، ويتناول كأسًا وزجاجة نصف فارغة من الويسكي، وينسحب إلى طاولة في الزاوية.

وبينما كان فيتزويليامز يصبُّ لنفسه شرابًا، تذكَّر إيميت القصص التي حكّاها له دوقة عن صعوده وانهيائه. لم يكن من السهل تخيّل أن هذا الرجل النحيف، ذا المظهر البائس، الذي يجزُّ قدميه جرًّا، كان يتقاضى يومًا أجرًا معتبرًا لكي يلعب دور سانتا كلوز. ترك إيميت بعض النقود على منضدة البار، واقترب من طاولة الفنان العجوز.

-معذرة. هل أنت مستر فيتزويليامز؟

عندما قال إيميت كلمة مستر، رفع فيتزويليامز رأسه بقدر من الاندهاش. ثم اعترف بعد لحظة: -نعم. أنا مستر فيتزويليامز.

جلس إيميت على المقعد الشاغر، وشرح أنه صديق لدوقة.

-فهمتُ أنه ربما جاء إلى هنا ليلة أمس ليتكلم معك.

أوما الفنان العجوز برأسه، وكأنه فهمَ الآن، وكأنه كان يجب أن يفهم. وقال، بنبرة قاربت الاعتراف: نعم. كان هنا. كان يحاول العثور على والده

لشأن صغير معلّق بينهما. لكن هاري كان قد ترك البلدة، ودوقة لم يعرف أين ذهب، لذا جاء لرؤية فيتزي.

منح فيتز وليامز إيميت ابتسامة فاترة.

-أنا صديق قديم للأسرة، تعرف.

رد إيميت الابتسامة، وسأل فيتز وليامز إن كان قد أخبر دوقة بالمكان الذي ذهب إليه مستر هيويت.

قال الفنان العجوز، هو يومئ برأسه أولاً، ثم يهزها: أخبرته. أخبرته إلى أين ذهب هاري. إلى فندق أوليمبيك في سيراكيوز. وإلى هناك سيذهب دوقة، هكذا أفترض. بعد أن يرى صديقه.

-أيّ صديق ذاك؟

-أوه، لم يقل دوقة. لكنه... في هارلم.

-هارلم؟

-نعم، أليس غريبًا.

-لا، هذا معقول جدًّا. شكرًا لك يا مستر فيتز وليامز. لقد ساعدتني كثيرًا.

عندما دفع إيميت كرسيه إلى الوراء، رفع فيتز وليامز رأسه مندهشًا.

-أنت لن تذهب، صحّ؟ بالتأكيد، كصديقين قديمين لآل هيويت، ينبغي أن نشرب شيئًا على شرفهما.

إيميت، بعد أن عرف ما جاء لمعرفته، وإذ كان متأكدًا أن يبلي قد صار قلقًا عليه، لم يرغب في البقاء في «المرساة». غير أن الفنان العجوز، الذي بدا في أول الأمر أنه لا يريد إزعاجًا، بدا فجأة أنه لا يريد البقاء وحيدًا. لذا طلب إيميت كأسًا أخرى من ساقى البار ورجع إلى الطاولة.

صبّ فيتز وليامز كأسًا لكل منهما، ورفع كأسه.

-في صحة هاري ودوقة.

وردّد إيميت: -في صحة هاري ودوقة.

عندما تناول كل منهما رشفة ووضع كأسه على الطاولة، ابتسم

فِيْتزُولِيَامز ابْتِسَامَة حَزِينَة بَعْض الشَّيْءِ، وَكَأَن مِشَاعِرَهُ ثَارَتْ لَذَكْرَى ذَات حَلَاوَة وَمِرَارَة.

-هل تعرف لماذا يسمونه كذلك؟ دوقه، أقصد.

-أظن أنه سُمِّي على اسم المقاطعة التي وُلِدَ فيها.

قال فيْتزُولِيَامز، بهزة من رأسه وابتسامته الفاترة: لا. ذلك ليس السبب. لقد وُلِدَ هنا في مانهاتن. أتذكر تلك الليلة.

قبل أن يستطرد فيْتزُولِيَامز، تناول رشفة أخرى، وكأنه بحاجة إلى ذلك. -أمه، ديلفين، كانت شابة باريسية جميلة ومغنية لأغاني الحب على طريقة بياف. في السنوات السابقة على ولادة دوقه، كانت تؤدي أغانيها في كل الملاهي الكبرى. في «إل موروكو» وفي «ستورك كلاب» وفي «رينبو روم». أنا متأكد أنها كانت ستصير مشهورة جدًا، على الأقل في نيويورك، لو لم تمرض إلى هذه الدرجة. كان السل، أظن. لكني لا أتذكر جيدًا. أليس ذلك فظيعة؟ امرأة جميلة مثلها، صديقة، تموت في ريعان شبابها، ولا أستطيع أن أتذكر من ماذا؟

هز فيْتزُولِيَامز رأسه يلوم نفسه، ورفع كأسه، لكنه عاد ووضعها من دون أن يرتشف منها، وكأنه استشعر أن ذلك سيكون إهانة لذكرها. باغتت قصة موت مسز هيويت إيميت قليلًا. إذ كان دوقه، في المرات القليلة التي ذكر فيها أمه، قد تحدث عنها وكأنها قد هجرتهما.

استطرد فيْتزُولِيَامز: -على أيِّ حال، غمرت ديلفين ولدها الصغير بالحب. عندما كانت تكسب مالًا، كانت تخبئه من هاري لتستطيع أن تشتري له ملابس جديدة. ثياب صغيرة لطيفة مثل هذه... ماذا تسميها... ليدر هوزن! ⁽¹⁾ كانت تلبسه أجمل ثيابه، وترك شعره ينمو إلى كتفيه. لكن عندما صارت طريحة الفراش وصارت تُرسله إلى الحانات ليعيد هاري إلى البيت، كان هاري... هز فيْتزُولِيَامز رأسه.

(1) ليدر هوزن: سروال جلدي قصير بحمالات. (م)

-طَيِّب، أنت تعرف هاري. بعد بضع كؤوس، يصعب أن تعرف متى ينتهي شكسبير ومتى يبدأ هاري. لذا عندما كان الصبي يدخل من الباب، كان هاري يقف على كرسيه الطويل، ويصطنع تحية مسرحية مُبالغ فيها، ويقول، السيدات والسادة، أقدم لكم، دوقة ألبا. والمرة التالية يقول دوقة كنت، أو دوقة تريبولي. وسرعان ما صار البعض ينادي الصبي باسم دوقة. ثم صرنا جميعًا نسميه دوقة. كلنا. إلى حدٍّ أن أحدًا لم يعد يتذكر اسمه الأصلي.

رفع فيتزوليامز كأسه ثانية، وتناول هذه المرة رشفة طويلة مُعتبرة. عندما أنزل الكأس، فرغ إيميت لرؤية أن الفنان القديم بدأ بالبكاء -تاركًا الدموع تسيل على خديهِ من دون أن يشغل نفسه بمسحها. أو ما فيتزوليامز إلى الزجاجة.

-هو من أعطاني تلك، تعرف. دوقة، أقصد. بالرغم من كل شيء. بالرغم من كل هذا، جاء إلى هنا ليلة أمس واشترى لي زجاجة جديدة من الويسكي المفضل لدي. بهذه البساطة. سحب فيتزوليامز نفسًا عميقًا.

-لقد أرسل لي عمل في معسكر في كنساس، تعرف. في سن السادسة عشرة.

قال إيميت: -نعم. لقد تقابلنا هناك. آه، فهمت. لكن في كل الوقت الذي قضيتماه معًا، هل أخبرك... هل أخبرك كيف انتهى به الأمر إلى هناك؟ قال إيميت: -لا، لم يخبرني قط.

سمح إيميت لنفسه بصبّ المزيد من ويسكي العجوز في كأسيهما، ثم انتظر.

يوليسيس

مع أن الصبي كان قد قرأ له القصة من البداية إلى النهاية، طلب منه يوليسيس أن يقرأها له ثانية.

بعد العاشرة بقليل -وإذ غربت الشمس، ولمّا يشرق القمر، وبدأ الآخرون يرجعون إلى خيامهم- أخرج بيلي كتابه وسأل يوليسيس إن كان يحب سماع قصة إسماعيل، البحار الشاب الذي انضم إلى قبطان بساق واحدة من أجل مطاردة حوت أبيض هائل. ومع أن يوليسيس لم يسمع قصة إسماعيل من قبل، لم يخامره شك بأنها قصة جيدة. كل قصص الصبي كانت جيدة. لكن عندما عرض بيلي أن يقرأ هذه المغامرة الجديدة، طلب منه يوليسيس، بمسحة من حرج، أن يقرأ قصة سَمِيَّة بدلاً منها.

لم يتردد الصبي. على ضوء نار ستو الخابي، انتقل إلى مؤخرة الكتاب وسلط شعاع مصباحه اليدوي على الصفحة -دائرة ضوء وسط دائرة ضوء وسط بحر من الظلام.

عندما بدأ بيلي بالقراءة، شعر يوليسيس لوهلة بالقلق من أن يلجأ الصبي، الذي قرأ القصة من قبل، إلى تلخيص فقرات أو القفز من فوقها، غير أن بيلي بدا مدركاً أن القصة التي تستحق القراءة، تستحق القراءة كلمة بكلمة. أجل، قرأ الصبي القصة بالضبط كما سبق وقرأها في العربية، لكن يوليسيس لم يسمعها بالطريقة نفسها. إذ هذه المرة، عرف ما سيحدث. عرف الآن كيف يتطلع إلى بعض الأجزاء ويخاف من البعض الآخر -يتطلع إلى تغلب يوليسيس على السيكلوب عن طريق إخفاء رجاله تحت فراء خرفان، ويخاف اللحظة التي يُطلق فيها البحارة الجشعون العنان لرياح أيولوس، فتجرف سفينة قبطانهم عن مسارها في اللحظة التي لاح فيها مسقط رأسه للعيون.

عندما انتهت القصة، وأغلق بيلي الكتاب وأطفأ مصباحه، وتناول يوليسيس مجرفة سَتُو ليدفن الجمر، سأله بيلي إن كان يريد أن يحكي له قصة. نظر إليه يوليسيس بابتسامة.

-ليس معي أيُّ كتب قصصية يا بيلي.
وردَّ بيلي: -لا يلزم أن تحكي قصة من كتاب. تستطيع أن تحكي قصة من عندك. مثل قصة من الحرب في ما وراء البحار. هل لديك أيُّ قصص من هذه؟

أدار يوليسيس المجرفة في يده.
هل لديه أيُّ قصص من الحرب؟ بالطبع لديه. أكثر مما أراد تذكُّره. فقصصه لم يرقَّها ضباب الزمن ولم تُلمَّعها استعارات الشعراء. بل ظلت قوية ونابضة. قوية ونابضة حتى إنه كلَّما صعدت منها واحدة إلى سطح عقله، دفنها يوليسيس من جديد -تماماً مثلما يدفن جمرات هذه النار. وإذا كان يوليسيس لا يتحمَّل مشاركة الذكريات مع نفسه، فبالتأكيد لن يشاركها مع صبي في الثامنة من عمره.

غير أن طلب بيلي كان مشروعاً. لقد فتح صفحات كتابه بكل كرم، وحكى قصصاً عن سندباد وجيسون وأخيل، وعن سميِّ يوليسيس مرَّتين. لذا، فقد كسب بالتأكيد حقَّ سماع قصة في المقابل. هكذا، وضع يوليسيس المجرفة جانباً، وألقى حَطْبَةً أخرى في النار واستعاد مقعده على عارضة السكة الحديد، وقال: عندي لك قصة. قصة عن مقابلي الخاصة مع خازن الرياح.

-أثناء ركوبك البحار الخمرية؟

قال يوليسيس: -لا. أثناء سيري على الأرض الجافة المتربة.
بدأت القصة على طريق ريفي في أيوا في صيف عام 1952. قبلها ببضعة أيام، ركب يوليسيس قطاراً في يوتا، معزماً السفر فوق جبال روكي وعبر سهول شيكاغو. لكن في منتصف الطريق إلى أيوا، دخلت عربة الشحن التي يسافر فيها تحويلةً جانبيةً لكي تنتظر قاطرة أخرى، لم يعرف أحد موعد وصولها. على مبعده أربعين ميلاً كان مَفَرَق «دي موان»،

كان يستطيع بسهولة اللحاق بقطار آخر متجه إلى الشرق، أو واحد متجه إلى الشمال تجاه البحيرات العظمى، أو جنوبًا إلى نيو أورليانز. على هذا الأساس، ترَجَّل يوليسيس وبدأ يشق طريقه على قدميه وسط الأرياف. كان قد سار قرابة عشرة أميال على طريق ترابي قديم عندما بدأ يستشعر أن ثمة خطبًا ما.

العلامة الأولى كانت الطيور. أو بالأحرى، غيابها. عندما تسافر جيئة وذهابًا عبر الريف، كذلك شرح يوليسيس، يظل الشيء الثابت الكبير الوحيد هو رفقة الطيور. في طريقك من ميامي إلى سياتل أو من بوسطن إلى سان دييغو، يتغير المشهد بصورة دائمة. لكن أينما ذهبت، تجد الطيور هناك. حمام أو صقور البازي أو نسور الكندور أو عصافير الكاردينال أو الجاي الأزرق أو الشحارير. فإذا كنت تعيش على الطريق، تستيقظ على تغريدها في الفجر، وتنام على زقزقاتها في الغروب. مع ذلك...

بينما كان يوليسيس يسير على الطريق الريفي، لم يلحظ طيورًا في مرمى البصر، لا تُحلّق فوق الحقول ولا رابضة على أسلاك الهاتف.

العلامة الثانية كانت قوافل العربات. فبينما مرّت بيوليسيس في الصباح، من حين لآخر، سيارة «بيك أب» أو «صالون» تتحرك بسرعة أربعين ميلاً في الساعة، فجأة رأى تشكيلة من خمس عشرة سيارة، منها ليموزين سوداء، تندفع باتجاهه. سيارات تنطلق بسرعة، حتى إنه اضطر إلى التنحي إلى جانب الطريق ليحمي نفسه من الحصى المتطاير من إطاراتها.

بعد أن رآها يوليسيس تندفع مرورًا به، استدار لينظر في الاتجاه التي جاءت منه. وعندها رأى السماء في الشرق تتحوّل من الأزرق إلى الأخضر. الأمر الذي لا يمكن أن يعني، في هذا الجزء من الريف، وكما يعرف بيلي جيدًا، إلا شيئًا واحدًا.

وراء يوليسيس لم يكن شيءٌ إلا حقول ذرة بطول الركبة على مد البصر، غير أنه رأى أمامه بنصف ميل بيتًا ريفيًا. وإذ بدأت السماء تزداد دكنة كل دقيقة، بدأ يوليسيس يركض.

مع اقتراب يوليسيس، رأى أن البيت الريفي قد جُهِّزَ للعاصفة، أغلقت أبوابه وأسدلت ستائره الخشبية. رأى صاحب البيت يؤمِّن الحظيرة، ثم يندفع إلى كوة ملجئه، حيث تنتظره زوجته وطفلاه. وعندما وصل المزارع إلى أسرته، رأى يوليسيس الصبي الصغير يشير باتجاهه. وإذ نظر الأربعة في اتجاهه، أبطأ يوليسيس ركضه لكي يسير ويداه إلى جانبه.

أمر المزارع زوجته وطفليه بالدخول إلى الملجأ - الزوجة أولاً لكي تستطيع مساعدة الطفلين، ثم الابنة، ثم الصبي الصغير، الذي استمر في النظر إلى يوليسيس مباشرة إلى أن اختفى عن الأنظار.

توقع يوليسيس أن يلحق الأب بأسرته نزولاً على السلم، غير أنه، بعد أن انحنى ليقول كلمة أخيرة، أغلق الكوة، واستدار ناحية يوليسيس وانتظر اقترابه. فكر يوليسيس: كوة الملجأ ليست مزودة بقفل، والمزارع يظن أنه إن كانت مواجهة ستحدث فالأفضل أن تحدث الآن، وهو لا يزال فوق الأرض. أو ربما شعر أن الرجل الذي يعترم رفض تقديم ملاذٍ لرجل آخر، عليه أن يفعل ذلك وجهًا لوجه.

كإشارة على الاحترام، توقف يوليسيس على بعد ست خطوات، قريباً بما يكفي لسماعه، لكن بعيداً بما لا يمثل خطراً. رجلاً، كل منهما يتفحص الآخر، بينما بدأت الريح تثير التراب حول أقدامهما.

قال يوليسيس بعد برهة: - أنا لست من هذه النواحي. أنا مجرد مسيحي متجه إلى دي موان لكي ألحق بقطار.

أوماً المزارع برأسه. أوماً بطريقة قالت إنه يصدق أن يوليسيس مسيحي وأنه في طريقه للحاق بقطار، غير أن أيّاً من ذلك لا يهم، في ظل الظروف الحالية.

قال ببساطة: - أنا لا أعرفك.

وافقه يوليسيس: - لا، لا تعرفني.

للحظة، فكر يوليسيس في تعريف نفسه للرجل - أن يخبره باسمه،

يخبره أنه نشأ في تينيسي وأنه من قدامى المحاربين، أنه كان لديه يومًا زوجة وطفل هو نفسه. لكن حتى إذا كانت تلك الأفكار قد مرّت بعقل يوليسيس، فقد عرف أن قولها لن يهّم أيضًا. وعرف ذلك من دون حقد. إذ لو كان الموقف معكوسًا، لو كان يوليسيس يهّم بالنزول إلى ملجأ، إلى مساحة تحت الأرض، خالية من النوافذ، حفرها بذراعيه لأجل سلامة أسرته، ولو ظهر أمامه فجأة رجل أبيض طوله ستُّ أقدام، لما رَحَّبَ به هو الآخر. بل كان سيرسله إلى حال سبيله.

في نهاية المطاف، ما الذي يجعل رجلًا في ريعان شبابه يقطع الريف على قدميه من دون شيء إلا حقيبة قماشية معلقة على كتفه؟ رجل مثل ذاك لا بُدَّ أنه اتخذ قرارات معينة. قرر أن يهجر أسرته، بلدته، كنيسته، سعيًا وراء شيء مختلف. سعيًا وراء حياة من دون عراقيل، من دون محاسبة، يعيشها بمفرده. طيّب، إذا كان ذلك ما قد عمل بجِدٍّ لكي يحصل عليه، إذا لماذا ينتظر، في لحظة مثل هذه، أن يُعامل على نحو مختلف؟
-أنا أفهم.

قالها يوليسيس، مع أن الرجل لم يبرر موقفه. نظر المزارع إلى يوليسيس للحظة، ثم استدار إلى يمينه، وأشار إلى برج أبيض رفيع ينتصب وسط دغل من الأشجار.
-الكنيسة التوحيدية على مبعدة أقل من ميل. فيها قبو. ولديك فرصة جيدة أن تصل إليه، إذا ركضتَ.
قال يوليسيس: -شكرًا لك.

وهما يقفان متواجهين، عرف يوليسيس أن المزارع محقٌّ. كانت أيُّ فرصة للوصول إلى الكنيسة في الوقت المناسب تعتمد على انطلاقه بأسرع ما يمكن. بيد أن يوليسيس لم يقبل أن ينطلق راكضًا أمام رجلٍ آخر، مهما كان سدادُ نصيحته. إنها مسألة كرامة.

بعد أن انتظر، بدا أن المزارع قد فهم، وبهزة من رأسه لم تُلَقِ على أحد باللوم، ولا عليه هو نفسه، فتح الكوة والتحق بأسرته.
بنظرة واحدة إلى البرج، عرف يوليسيس أن المسار الأقصر إلى

الكنيسة سيكون عبر الحقول مباشرة بدلاً من الطريق الرئيسي، لذا اتخذ ذلك المسار، راکضاً كما يطير الغراب. لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يدرك خطأه. فمع أن ارتفاع الذرة لم يتجاوز قدماً ونصفاً وصفوف المزارع كانت واسعة ومُعتنى بها جيداً، كانت الأرض نفسها رخوة وغير مستوية، ما جعلها تتطلب جهداً جهيداً. بالنظر إلى كل الحقول التي سبق وشق طريقه وسطها في إيطاليا، كان ينبغي أن يعرف ذلك. بيد أن أوان الرجوع إلى الطريق كان قد فات، لذا، صوّب عينيه على البرج، واندفع بأسرع ما في الإمكان.

عندما صار في نصف الطريق إلى الكنيسة، ظهرت الزوبعة في البعيد باتجاه الساعة الثانية، إصبع أسود داكن نازل من السماء -معكوس البرج في اللون والقصد.

الآن، مع كل خطوة، صار تقدّم يوليسيس يتباطأ. كان هناك الكثير من الحطام الذي يتطاير من الأرض حتى إنه اضطر إلى التقدم رافعاً إحدى يديه أمام وجهه لحماية عينيه. ثم صار يرفع كلتا يديه وهو يشيح بوجهه جانباً، بينما يتعثّر في طريقه إلى الأمام باتجاه البرجين: المعدول والمقلوب.

عبر الفتحات بين أصابعه وحجاب من التراب لا يني يثور، رأى يوليسيس الظلال المربّعة المتصاعدة من الأرض حوله، ظلّالا بدت منتظمة وفوضوية في آن. أنزل يديه للحظة، فأدرك أنه دخل مقبرة وصار يسمع رنين الجرس في البرج، وكأنه يُقرع بيدٍ غير منظورة. لا بُدّ أنه لا يبعد عن الكنيسة أكثر من خمسين ياردة.

غير أن الخمسين ياردة، في أغلب الظن، كانت أبعد من اللازم. إذ كانت الزوبعة تدور عكس اتجاه عقارب الساعة ورياحها تدفع يوليسيس بعيداً عن مقصده بدلاً من أن تدفعه في اتجاهه. وإذا بدأ وابل من الأمطار ينهمر فوق رأسه، استعدّ لدفعة أخيرة. أستطيع أن أفعلها، قال لنفسه. ثم انطلق راکضاً بكل قوته، وبدأ يقلّص المسافة بينه وبين الملاذ المبتغى -فقط لكي يتعثّر في قبرٍ واطى ويسقط على الأرض بالاستكانة المريرة لرجل صار مهجوراً.

- مهجورًا من مَنْ؟

كذلك سأله بيلي، وقد قبضَ على كتابه في حجره وفتح عينيه على وسعهما.

ابتسم يوليسيس: - لا أعرف يا بيلي. من الحظ، من القَدَر، فيما أعتقد. لكن قبل كل شيء من الرب. شرع الصبي يهز رأسه.

- أنت لا تقصد ذلك يا يوليسيس. لا تقصد أن الرب قد هجرك.

- لكن هذا ما أقصده بالضبط يا بيلي. إذا كنتُ قد تعلمتُ أيَّ شيء في الحرب، فهو أن نقطة الهجران الكامل - اللحظة التي تدرك فيها أن أحدًا لن يأتي لمساعدتك، ولا حتى خالِقك - هي اللحظة التي قد تكتشف فيها القوة اللازمة للاستمرار. الربُّ الرحيم لا يُنهضك على قدميك بتراتيل الملائكة ولا بجبريل ينفخ في نَفيره. إنه يُنهضك على قدميك بأن يجعلك تشعر بنفسك وحيدًا ومنسيًا. إذ فقط عندما ترى أنك قد تُركتَ بحق، تُدرك أن ما يحدث بعد ذلك إنما يتوقف على ما تفعله بيدك، وبإيديك وحدهما. راقدًا على أرض تلك المقبرة، شاعرًا بالهجران ومدرِّكًا لحقيقته، مد يوليسيس يده إلى أعلى وقبض على قمة أقرب شاهد قبر. وإذ رفع نفسه إلى أعلى، أدرك أن الحجر الذي يدفنه ليس متآكلًا ولا مهترئًا. بل وبدت فيه، حتى عبرَ دوامة التراب والحطام، اللمعة الرمادية الداكنة المميّزة لحجر غرسٍ لتوّه. نهض يوليسيس منتصبًا، فوجد نفسه ينظر من فوق الشاهد إلى داخل قبر حُفر حديثًا، في قَعْرِه كان الجزء العلوي الأسود اللامع من تابوت.

إذا، كانت قافلة السيارات عائدة من هنا، هكذا أدرك يوليسيس. لا بُد أنهم كانوا في منتصف الدَفْنة عندما تلقوا تحذيرًا باقتراب الإعصار. لا بُد أن القس تلا على عُجالة من الآيات ما يكفي لنذرِ روح المتوفي إلى جنة النعيم، ثم انطلق الجميع إلى سياراتهم.

من النظرة على النعش، لا بُد أنه لرجل على قدر من الثراء. إذ لم يكن صندوقًا من خشب الصنوبر. بل ماهوغني مصقول بمقابض من النحاس

المصمّت. وعلى غطاء النعش رأى لوحة من المعدن نفسه كُتِبَ عليها اسم المتوفي: نُواه بنجامين إلياس.

انسل يوليسيس إلى الفتحة الضيقة بين النعش وجدار القبر، وانحنى ليفضّ المشابك ويفتح غطاء النعش. بالداخل كان مستر إلياس راقداً في سلام، يرتدي بدلة من ثلاث قطع ويداه متصالبتان بأناقة على صدره. كان حذاءه أسود ولا ممّا مثل نعشه، تتلوى فوق صدريّته سلسلة ساعة رفيعة من الذهب. ومع أن طوله لم يزد على خمس أقدام وستّ بوصات، فلا بُد أن مستر إلياس كان يزن مئتي رطل -بعد أن ظل يأكل بطريقة تليق بمكانته.

ماذا كانت طبيعة نجاحات مستر إلياس الدنيويّة؟ أكان صاحب بنك أو مخزن أخشاب؟ أكان صاحب عزيمة وإصرار، أم كان جشعاً مخادعاً؟ أيّا كان، لم يُعَد. وكل ما شغلَ يوليسيس الآن هو أن هذا الرجل الذي لا يتجاوز طوله خمس أقدام وستّ بوصات كان يتمتع بصورة متضخمة عن ذاته جعلته يُدفن في نعش طوله ستّ أقدام.

انحنى يوليسيس، وقبض على إلياس من تلايبه، تماماً مثلما كان يفعل عندما يريد أن يرجّ شخصاً ما لكي يُعيد إليه رشده. سحبه يوليسيس إلى خارج النعش، ورفعَه إلى وضع الوقوف حتى صاراً وجهاً لوجه. رأى يوليسيس الآن أن الحانوتي قد وضع حُمْرَةً على خَدّي المتوفي وعطره بعطر الغاردينيا، مانحاً إيّاه مظهرًا مزعجاً شبيهاً بالعاهرات. ثنى يوليسيس ركبتيه لكي يدخل تحت ثقل الجثمان، ورفعَه لفوق، وأخرجه من مثواه، وألقى به على جانب القبر.

ألقى يوليسيس نظرة أخيرة على الإصبع الأسود الهائل الذي يتأرجح يساراً ويميناً وهو ينقض عليه، ثم رقدَ وسط طيّات الحرير الأبيض المبطن للتابوت الخاوي، ورفعَ يده، و...

القس جون

عندما يَنْزِلُ بنا انتقام الرب، لا ينهمرُ من السموات مثل رَشَاشٍ من الشُّهْب ذات الذبُول النارية. لا يضربنا كصاعقة برقٍ مصحوبة بهزيم رعد. لا يتجمع مثل موجة عاتية بعيدة في عرض البحر ويأتي ليتحطم على الشواطئ. عندما ينزل بنا انتقام الرب، يبدأ كَنَفَسٍ في الصحراء.

رقيةٌ وغير هَيَّابَة، تستدير تلك الزَّفرة الصغيرة ثلاث مرات فوق الأرض اليابسة، تُثير التراب في صمت وتُبْعِثُ رائحة المريميّة. بيدُ أن تلك الدَوَّامة الصغيرة، إذ تستديرُ ثلاث مرات أخرى، وثلاثُ مرات جديدة، تتضخَّم وتصير في حجم رجل، وتبدأ في التحرُّك. وإذ تمضي في حركة حلزونية فوق الأرض وهي تكتسب المزيد من السرعة والحجم، تتضخَّم لتصير بحجم عملاق أسطوري، تتأرجح وتَلْقُفُ كل ما يقع في طريقها إلى داخل لولبها - الرمل والحصى أولاً، الشجيرات والهوام، ثم كل صنائع الإنسان. إلى أن تعلو، بعد طول انتظار، بارتفاع مئة قدم وتتحرك بسرعة مئة ميل في الساعة، تدور وتدور، تلف وتتلوى، إلى أن تنقض على الخاطي بلا هوادة. هكذا اختُتِمَت أفكار القس جون وهو يخرج من الظلام ويرفع عِكَازَه المصنوع من فرع بلوط لكي يضرب به الزنجي المسمّى يولييسيس على أَمِّ رأسه.

تُركَ ليموت. كذا كان حال القس جون. بعد أن انقطعتْ أربطة ركبته اليمنى، وانكشط جلد خَدَّيه، وتورَّمت عينه اليمنى حتى انغلقت، ظل كامناً وسط الشجيرات والعليق يستعد ليصلي مترحمًا على نفسه. لكن في

لحظة مَيَّته نفسها، وجده الرب على جانب القضبان ونفخَ في أوصاله حياة جديدة. رفعه الرب من وسط الحصى والأجمّة، وحمله إلى حافة نبع جارٍ بارد المياه، حيث رُوي عطشُه، وغُسِلَت جراحُه، ووُضِعَ بين يديه فرعٌ من بلوطة قديمة ليستخدمه كعكاز.

في الساعات التي تَلَّتْ، لم يتساءل القس جون ولو مرة إلى أين يذهب، وكيف يصل إلى مقصده، أو لَأَيِّما هدف - إذ شعر بروح الرب تعمل بداخله، تجعله أداة لها. من ضفة النهر، قادته مجددًا عبر الغابات إلى تحويلة فيها عشر عربات شحن فارغة تُركت بلا حراسة. فور أن دخل بسلام، جلبت له قاطرة شَدَّت العربات وحملته باتجاه الشرق إلى مدينة نيويورك.

عندما ترَجَّل القس جون في ساحة السكك الحديدية الشاسعة المتمركزة بين محطة بنسلفانيا ونهر هدسون، حَمَتِ الروحُ من عيون حراس السكك الحديدية وقادته ليس إلى الشوارع المزدهمة لكن صعودًا إلى قضبان سكة عالية. معتمدًا بثقله على العكاز لكي يوفرَّ الجهد على ركبته، سار القس جون على السكة العالية، ملقيًا بظله على الطرقات بالأسفل. فور غروب الشمس، قادته الروح إلى الأمام - عبر مستودع خالٍ، عبر فتحة في سور، عبر العشب العالي والضواوي، عبر الظلمة نفسها، إلى أن رأى في البعيد نار مخيِّم متوهجة مثل نجم.

اقترب القس جون، ورأى أن الرب الرحيم بحكمته اللامتناهية قد أشعل النار ليس فقط ليرشده، لكن أيضًا لينير وجهيَّ الزنجي والصبي - من دون أن تُظهر لهما القس جون. في الظلال خارج دائرة النار، توقف القس جون وأصغى بينما ينهي الصبي قصةً ويسأل الزنجي أن يحكي قصةً من عنده.

آه، لكم ضحك جون عندما سمع يوليسيس يثرثر حول إعصاره المخيف. إذ لم تكن تلك الزوبعة الصغيرة لتقارَن بالدوامة التي لا تُني تتسع وتمثّل انتقام الرب. هل ظنَّ فعلاً أنه يستطيع أن يلقي بقسٍّ من قطار متحرك بلا خوف من القصاص؟ وأن أفعاله ستغافل عينيَّ القدوس ويد الدينونة.

الرَّبُّ بصيرٌ عَلِيمٌ، قالها القس جون من دون أن يتكلم. لقد شهد على آثامك، يا يوليسيس. لقد شهد على غرورك وجرمك. وقد جاء بي إلى هنا لكي أقيم قِصاصَه.

بتلك الضراوة نَفَخَتْ رُوحُ الرب في أوصال القس جون، عندما نزل بعضاه البلوطية على رأس الزنجي، حتى انقصمت العصا نصفين من قوة الضربة.

عندما ارتمى يوليسيس على الأرض وخطا القس جون يدخل دائرة الضوء، مد الصبي، المتواطئ مع الزنجي في كل خطوة، يديه إلى الأمام في الرعب الصامت لمن حلت عليه اللعنة.

-هل لي أن أنضم إليك بجوار نارك؟

كذلك سأل القس بضحكة حارة عالية.

وإذ كانت عصاه قد انقصمت، اضطر القس جون لأن يَعْرِجَ باتجاه الصبي؛ غير أن ذلك لم يُقلِّقه. إذ عرف أن الصبي لن يذهب إلى أي مكان ولن ينطق بأي شيء. عوضاً عن ذلك، سينسحب إلى داخل نفسه مثل حلزون يرتدّ إلى صَدَفَتِهِ. وبداهةً، عندما شدّه القس جون من ياقة قميصه، رآه قد أغمض عينيه بقوة وبدأ تعويذته.

قال القس: -لا يوجد إيميت هنا. لن يأتي أحد لمساعدتك يا وليام واطسن.

ثم، وياقة الصبي مشدودة في قبضته، رفع القس جون العصا المكسورة واستعدّ لتلقيه ذلك الدرس الذي قاطعه يوليسيس قبل يومين. استعدّ لتلقيه مضيفاً إليه الفوائد.

لكن لحظة أن رُفِعَت العصا واستعدّت للنزول، فتَحَّ الصبي عينيه.

وقال بتلذذ غامض: -أنا مهجورٌ بحق.

ثم ركل القس في ركبته المصابة.

بعواءٍ حيواني، أفلت القس جون قميص الصبي وأسقط عصاه. راح القس جون يقفز في مكانه ودموع الألم تسقط من عينه السليمة، واشتد

عزّمه على تلقين الصبي درسًا لا ينساه عمّا قريب. لكن حتى وهو يرمي يديه إلى الأمام، رأى عبر دموعه أن الصبي قد اختفى.
متلهفًا على استكمال ما بدّاه، أخذ القس جون ينظر حوله بشكل محموم بحثًا عن شيءٍ يحلّ محلّ عصاه المكسورة.

صرخ: -أها!

إذ هناك على الأرض، كانت مجرّفة. رفعها القس جون ودفع نصلها في الأرض، واستند على مقبضها، ثم شرع يتحرك ببطء تجاه الظلمة التي اختفى وسطها الصبي.

بعد بضع خطوات، استطاع بالكاد تبيّن صُورَ ظليّة لمخيم: كومة صغيرة من الحطب مغطاة بمشّمع، حوض غسيل مرتجّل، صف من ثلاث مراتب خاوية، وخيمة.

نادى بصوت خفيض: -وليام. أين أنت يا وليام؟

-ماذا يحدث هناك؟

تعالى صوت من داخل الخيمة.

كتم القس جون أنفاسه، وأخذ خطوة إلى الجانب وانتظر بينما خرج زنجيٌّ قصير متين. وإذا لم ير القس، تقدم بضع خطوات إلى الأمام ثم توقف.

سأل: -يوليسيس؟

عندما ضربته القس بالجزء المسطح من المجرفة، سقط على الأرض بأهّة قوية.

الآن، سمع القس جون من عن يساره أصواتًا أخرى. أصوات رجلين ربما سمعا الهرج.

قال لنفسه: -انس الصبي.

مستخدمًا المجرفة كعكاز، جعل يعرّج بأسرع ما أمكنه عائدًا إلى نار المخيم وشقّ طريقه إلى الموقع الذي كان الصبي يجلس فيه. هناك على الأرض رأى الكتاب والمصباح اليدوي. لكن أين تلك الجربنديّة اللعينة.

نظر القس جون إلى الوراق، إلى الطريق الذي جاء منه للتوّ. هل يمكن أن تكون بجوار المراتب؟ لا. حيثما كان الكتاب والمصباح اليدوي، لا بُد أن تكون الجَرَبندِيّة. انحنى القس جون بحرص، وأسقطَ المجرفة، والتقط المصباح، وأضاءه. بحَجَلَة، سلَّط الضوء على الجانب الخلفي من عارضة السكك الحديدية وجعل يوجهه من اليمين إلى اليسار.

ها هي!

جلس القس جون على إحدى العوارض الخشبية ومدد ساقه المصابة أمامه، ثم شدَّ الجَرَبندِيّة ووضعها في حِجره. حتى وهو يفعل ذلك سمع الموسيقى بداخلها.

بانفعال متزايد، فكَّ الحزامين وشرع يسحب الأغراض ويرميها جانبًا. قميصان. بنطال. منشفة صغيرة. في الأسفل، تحت كل شيء، وجد العلبة الصفيح. أخرجها من الحقيبة، وهزَّها هزَّة احتفالية.

غداً صباحاً، سيقوم بزيارة لليهود في شارع سبعة وأربعين. بعد الظهر، سيذهب إلى أحد المتاجر الكبيرة ليشتري طقمًا جديدًا من الملابس. وغداً ليلاً، سيذهب إلى فندق راقٍ، حيث يأخذ حمامًا ساخنًا، طويلاً، ويرسل في طلب محار، وزجاجة نبيذ، بل وربما امرأة ترافقه. لكن الآن، حان وقت المغادرة. أعاد المصباح اليدوي والعلبة إلى الجَرَبندِيّة، وأحكم ربط الحزامين، وعلَّقها على كتفه. وإذا صار القس جون جاهزاً أخيراً للمضي في طريقه، انحنى إلى يساره لكي يلتقط المجرفة، فقط ليجدها لم تُعد حيث كان قد...

يوليسيس

أولاً كانت ظلمةٌ بهيمةٌ. ثم رويدًا رويدًا، وعيٌّ بتلك الظلمة. وعيٌّ بأنها ليست ظلمة مكانية - باردة، شاسعة، وبعيدة. كانت ظلمةٌ قريبة ودافئة، ظلمة تُغطِّيهِ، تحتضنه مثل كفنٍ مخملي.

ثم جاءه ذاك الإدراك يزحف، من زوايا ذاكرته. إدراكٌ أنه لا يزال داخل نعش الرجل البدين. كان يشعر بنعومة حرير البطانة بطياته المتعددة على كتفيه، ومن وراء ذلك، صلابة صندوق الماهو غني.

أراد أن يرفع الغطاء، لكن كم مضى من الوقت؟ هل ذهب الإعصار؟ كتم أنفاسه، وراح يصغي. أصغى من وراء الحرير المطوي والماهو غني المصقول ولم يسمع شيئًا. لا صوت الريح تُصفر، ولا صوت الوابل ينهمر على غطاء النعش، ولا صوت جرس الكنيسة يتأرجح على خطافه وحيدًا. لكي يتأكد، قرر أن يفتح فُرجة صغيرة في النعش. أدار كفيهِ إلى أعلى، وضغطَ الغطاء، لكن الغطاء لم يتزحزح.

هل أنهكه الجوع والتعب؟ بالتأكيد لم يمر هذا الوقت الطويل. أم إنه مرّ؟ فجأة، خطر له ذلك الخاطر المرعب، أن شخصًا مرّ في أعقاب العاصفة، بينما هو فاقدٌ وعيه، ورأى القبر المفتوح، فتناول المجرفة وردمه بالتراب المكوّم بجانبه، منجزًا المهمة.

عليه أن يحاول مجددًا. بعد أن جعل يُدوّر كتفيه ويفتح قبضته ويغلقها ليعيد الدورة الدموية إلى أطرافه، سحب نفسًا، ووضع كفيه على السطح الداخلي للغطاء، ودفع بكل قوته، بينما قطراتُ العرق التي تشكّلت على جبينه تسيل إلى داخل عينيه. تدريجيًا، بدأ الغطاء يفتح، واندفع الهواء البارد إلى داخل النعش. شعر يوليسيس بقدر من الارتياح، فاستجمع قواه ودفع الغطاء إلى نهايته، متوقعًا أن يجد نفسه يحدّق في سماء العصر.

لكنه لم يكن العصر.

بل بدا كمنتصف الليل.

رفع إحدى يديه برفق في الهواء، فرأى جلده يعكس نورًا متذبذبًا. حاول أن يُنصت، فسمع النفير الغويط الطويل المميّز للسفن وضحكة نورس، وكأنه في مكان ما وسط البحر. لكن عندها، من مسافة قريبة، سمع صوتًا. صوت صبيّ يُعلن أنه مهجور. صوت بيلي واطسن.

وفجأة، عرف يوليسيس أين هو.

بعدها بلحظة واحدة، سمع رجلًا بالغًا يعوي من غضب أو ألم. ومع أن يوليسيس لم يكن قد فهم بعدُ ما الذي حدث له، عرف ما الذي يجب أن يفعله. انقلب على جنبه، ودفع نفسه بجهد بطيء هائل لكي يقف على ركبتيه. وإذا مسح العرق عن عينيه، اكتشف على ضوء النار أنه دم، لا عرق. لقد ضربه شخص على رأسه.

نهض يوليسيس على قدميه، وجعل ينظر حول النار بحثًا عن بيلي وعن الرجل الذي عوى، لكنه لم يجد أحدًا. أراد أن ينادي بيلي، لكنه لم يرغب في إعطاء إشارة للعدو المجهول أنه استعاد وعيه.

كان عليه أن يتبعد عن النار، أن يخرج من دائرة الضوء. تحت أستار الظلام، سيصير قادرًا على استعادة رشده وقوّته، والعثور على بيلي، ثم يبدأ مطاردة خصمه.

خطا من فوق إحدى عوارض السكة الحديدية، وتقدم خمس خطوات إلى داخل الظلام وظل كامنًا هناك. هاكّ النهر، هكذا فكّر، وهو يدور حول نفسه؛ وهاكّ مبنى «إمباير ستيت»؛ وهاكّ مخيمهم. وإذا نظر باتجاه خيمة ستو، ظن أنه رأى حركة. بهدوء، وبصوت لا يكاد يُسمع، تنهأ إلى صوت رجل ينادي بيلي، يناديه باسمه الأول. ربما كان صوت الرجل أوهى من أن يُسمع، لكنه لم يكن أوهى من أن يكشف صاحبه.

من دون أن يخرج من الظلام، بدأ يوليسيس يدور حول النار بحرص، وهدوء، وحتمية باتجاه المبشّر.

توقف يوليسيس عندما سمع سُو ينادي اسمه. بعدها بلحظة سمع رنة معدنية وَهْدَة جسدٍ يرتطم بالأرض. شعر يوليسيس برعشة غضب من نفسه لالتزامه هذا الحرص الزائد، فتأهَّب للاندفاع باتجاه المخيم عندما رأى صورة ظلية تخرج من الظلمة، وتتحرك بخطى غير متوازنة.

كان المبرِّر يستخدم مجرفة سُو كعكاز. وإذا أسقط المجرفة على الأرض، التقط مصباح الصبي اليدوي، وأضاءه، وبدأ يبحث عن شيء ما. أبقى يوليسيس عينه على المبرِّر، وزحف إلى حافة النار، ومدَّ يده وراء إحدى عوارض السكة الحديدية، وتناول المجرفة. عندما أطلق المبرِّر صيحة اكتشاف، تراجع يوليسيس إلى داخل الظلام وأخذ يراقبه وهو يتناول مخللة بيلي ثم يجلس ويضعها في حجره.

بصوت منفعل، بدأ المبرِّر يتكلم إلى نفسه حول الفنادق والمحار ورفقة النساء بينما يُخرج أغراض بيلي ويرميها على الأرض - إلى أن عثر على علبة الدولارات. في الوقت نفسه، بدأ يوليسيس يتقدَّم إلى أن صار وراء المبرِّر مباشرة. وعندما انحنى المبرِّر عن يساره، بعد أن علَّق المخلاة على كتفه. نزل يوليسيس بالمجرفة.

الآن، والمبرِّر مكوَّم عند قدميه، أخذ يوليسيس يلهث. بالنظر إلى إصابته، كان الجهد الذي بذله لإخضاع المبرِّر قد استنزف كل قواه الآنية. وإذا شعر يوليسيس بالقلق من أن يُغشى عليه، غرس المجرفة في الأرض واستند على مقبضها وهو ينظر إلى أسفل ليتأكد من أن المبرِّر لا يتحرك.

-هل مات؟

كان بيلي، يقف إلى جواره وينظر هو الآخر إلى المبرِّر.

قال يوليسيس: -لا.

المدَّهش أن الصبي بدا مرتاحًا لذلك.

سأل بيلي: -هل أنت بخير؟

قال يوليسيس: -نعم. وأنت؟

أوماً بيلي برأسه.

-فعلتُ مثلما قلتُ يا يوليسيس. عندما أخبرني القس جون أني بمفردي، تخيلت أني قد هُجرتُ من الجميع، بما في ذلك خالقي. ثم ركلته واختبأت وراء غطاء كومة الحطب.

ابتسم يوليسيس: -حسنًا فعلت يا بيلي.

-ماذا يجري بحق الجحيم.

رفع بيلي ويوليسيس رأسيهما ليجدا سئو واقفًا وراءهما وفي يده ساطور.

قال بيلي بقلق: -أنت أيضًا تنزف.

كان سئو قد ضُرب على جنب رأسه ومن ثم سال الدم من أذنه إلى كتف فأنلته الداخلية.

فجأة، شعر يوليسيس أنه أفضل حالًا، ذهنه أكثر صفاءً وخطاه أكثر ثقةً.

قال: -بيلي، لماذا لا تذهب وتجلب لنا طست الماء وبعض المناشف.

دسَّ سئو سكينه في حزامه، وجاء يقف بجوار يوليسيس ونظر إلى الأرض.

-من هذا؟

قال يوليسيس: -رجلٌ خبيث النية.

حوَّل سئو نظره إلى رأس يوليسيس.

-دعني ألقي نظرة على ذلك.

-لقد أصبتُ بما هو أسوأ.

-كلُّنا أصبنا بما هو أسوأ.

-سأكون بخير.

قال سئو وهو يهز رأسه: -أعرف، أعرف. أنت رجل كبير، كبير.

وصل بيلي ومعه الطست والمناشف. غسل الرجلان وجهيهما ثم نظَّفا جراحهما بحذر. عندما انتهيا، أجلس يوليسيس بيلي بجوار واحدة من عوارض السكة الحديد، وقال: بيلي، لقد شهدنا قدرًا كبيرًا من الإثارة الليلة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أوماً بيلي برأسه موافقاً.

-نعم، صحيح يا يوليسيس. إيميت لن يصدّق.

-طيّب، هذا بالضبط ما أردتُ مناقشته معك. أخوك يحاول العثور على سيارته وتوصيلك إلى كاليفورنيا قبل الرابع من يوليو، وعقله مشغول بأمور كثيرة. ربما الأفضل أن نحتفظ بما حدث هنا الليلة بيننا. على الأقل في الوقت الحالي.

كان بيلي يومئ برأسه. وقال: -نعم، ذلك أفضل. إيميت عقله مشغول بأمور كثيرة.

رَبّت يوليسيس على ركة بيلي وقال: -يومًا ما، سوف تخبره. سوف تخبره وتخبر أولادك أيضًا، تحكي لهم كيف تغلّبت على المبشّر، تمامًا مثل الأبطال في كتابك.

عندما رأى يوليسيس أن بيلي قد فهم، نهض ووجّه كلامه إلى ستُو.

-هل يمكن أن تعيد الصبي إلى خيمتك؟ ربما تعطيه شيئًا يأكله.

-طيّب. لكن ماذا ستفعل أنت؟

-سأعتني بأمر المبشّر.

بيلي، الذي كان ينصت من وراء ظهر يوليسيس، دار حوله وعلى وجهه نظرة قلق.

-ماذا يعني ذلك يا يوليسيس؟ ماذا تعني بقولك إنك ستعتني بأمر المبشّر؟

نظر يوليسيس وستُو إلى الصبي، ثم تبادلا النظرات، ثم عادا ينظران إلى الصبي مجددًا.

شرح يوليسيس: -لا نستطيع أن نتركه هنا. سيستعيد وعيه مثلما استعدتُ وعيي. والخسّة التي كانت في رأسه قبل أن أنزل عليه بضربتي، أيّا كانت، لن تذهب إلى أي مكان. بل ستزداد.

كان بيلي رافعًا رأسه إلى يوليسيس بجبين مقطّب.

استطرد يوليسيس: -لذلك، سأخذه إلى السّلم وأرميه...

-عند مركز الشرطة؟

-صحيح يا بيلي. سأرميه عند مركز الشرطة.

أوماً بيلي برأسه ليؤكد أن ذلك هو التصرف الصحيح. ثم استدار سَـتُو إلى يوليسيس.

-تعرفُ السلم النازل إلى غانزفورت؟

-أعرفه.

-شخصٌ ما لوى السياج إلى الخلف هناك. سيكون طريقاً أسهل، بالنظر إلى حمولتك.

شكرَ يوليسيس سَـتُو، وانتظر أن يللم بيلي أغراضه، وأن يُخمد سَـتُو النار، وأن يرجع الاثنان إلى خيمة سَـتُو قبل أن يحوّل انتباهه إلى المبشّر. حملة يوليسيس من تحت إبطيه، ورفع وثناه فوق كتفيه. لم يكن المبشّر أثقل مما توقّع يوليسيس، لكنه كان طويلاً هزياً، ما جعله حمولةً سمجة. أخذ يوليسيس يُزحزح الجسد إلى الأمام وإلى الخلف قليلاً، محاولاً موازنته، ثم شرع في التحرك بخطوات قصيرة ثابتة.

وصل يوليسيس إلى السلم. لو توقّف لكي يفكر، لعلّه كان سيدخرج المبشّر على الدّرج لكي يحافظ على قواه. لكنه كان يتحرك الآن، وكان ثقل المبشّر موزّعاً بالتساوي على كتفيه، وكان قلقاً أنه إن توقّف قد يفقد توازنه أو زخمه. وسيحتاج إلى كليهما. إذ بعد أن ينزل السلم، تبقى أمامه متناً ياردة كاملة إلى النهر.

دوقة

دخلت أخت وولي المطبخ مثل شبح. ظهرت في مدخل الباب برؤبها الأبيض الطويل وقطعت الغرفة غير المضاءة من دون صوت، وكأن قدميها لا تلمسان الأرض. لكن لو كانت شبحًا، فليست من النوع المروّع - ذلك النوع الذي يعوي وينوح ويرسل قشعريرة في عمودك الفقري. كانت من النوع البائس. من نوع الأشباح التي تتجول في طرقات بيت مهجور لأجيال، باحثة عن شيء ما أو شخص ما لا يستطيع غيرها تذكره. كانت طيفًا، أظنهم يسمونها هكذا.

نعم، هذا هو.

طيف.

من دون أن تضيء النور، ملأت الغلاية وأشعلت الموقد. من الخزانة أخرجت قديمًا وكيس شاي ووضعتهما على المنضدة. من جيب روبيها، أخرجت زجاجة بنية صغيرة ووضعتها بجوار القدح. ثم عادت إلى الحوض ووقفت هناك تنظر من النافذة.

كان يخامرني إحساس أنها ماهرة في النظر من النافذة - وكأنها تمرنت على ذلك طويلًا. لم تتلملج ولا جعلت تنقر بقدميها. في الحقيقة، كانت ماهرة في ذلك، ماهرة جدًا في الضياع في أفكارها، حتى إن المفاجأة بدت عليها عندما صفرّت الغلاية، وكأنها لا تتذكر أنها شغلتها في المقام الأول. ببطء، بتردد تقريبًا، تركت مكانها عند النافذة، وصبت الماء، وتناولت القدح في إحدى يديها والزجاجة البنية الصغيرة في الأخرى، واستدارت إلى الطاولة.

-لديكِ مشكلة في النوم؟

كذلك سألتها.

وإذ أخذت على حين غرة، لم تصرخ أو تسقط شايبها. فقط أظهرت تعبير المفاجأة الصغير نفسه الذي أظهرته عندما صفرّت الغلاية.

قالت، وهي تدسُّ الزجاجاة البنية الصغيرة ثانيةً في جيب روبها: لم أرك هناك.

لم تجب عن سؤالي حول مشكلة النوم، لكنها لم تكن بحاجة لذلك. كل شيء في الطريقة التي تحركت بها في الظلام -وهي تقطع الغرفة، وتملأ الإبريق، وتشعل الموقد- أوحى بأن ذاك جزء من روتين معتاد. ما كنتُ سافاجاً على الإطلاق لو علمتُ أنها تنزل إلى المطبخ بين يوم وآخر في الثانية صباحاً بينما زوجها نائم نومًا عميقًا، بلا حسٍّ ولا خَبرٍ.

سألت، وهي تشير إلى الموقد من خلفها، هل أريد بعض الشاي؟ فأشرتُ إلى الكأس أمامي.

-وجدتُ بعض الويسكي في غرفة المعيشة. لعلك لا تمانعين. ابتسمت برقة.

-بالطبع لا.

بعد أن جلست في مواجهتي، سلَّطت نظرتها على عيني اليسرى. كيف حالها.

-أفضل بكثير، أشكرك.

كنتُ قد تركتُ هارلم بمعنويات عالية حتى إني عندما رجعت إلى بيت أخت وولي، كنت نسيت تمامًا اللكمات التي تلقيتها. وعندما فتحت الباب وشهقت، شهقتُ أنا الآخر فعليًا.

لكن فور أن قام وولي بالتقديم وشرحْتُ السقطة التي سقطتُها في محطة القطار، جلبتُ علبة إسعافات أولية صغيرة لطيفة من خزانة الدواء تبعتها، وأجلستني إلى طاولة المطبخ، ونظفت الدم عن شفتي، وأعطتني كيسًا من البازلاء المجمدة أضعه على عيني. كنت سأفضل استخدام شريحة نيئة من اللحم مثل أبطال الملاكمة من الوزن الثقيل، لكن الشحاذ لا يتأمر.

سألت: -هل تريد قرص أسبرين آخر؟

-لا، سأكون بخير.

ظللتنا صامتتين لبرهة؛ أنا أتناول رشفة من ويسكي زوجها وهي تتناول رشفة من شايبها.

-أنت زميل وولي في السرير المزدوج...؟

-صحيح.

-إذا، أنت من كان والده يقف فوق الخشبة؟

قلت بابتسامة: -كان تحبها بقدر ما كان فوقها. لكن، نعم، ذلك هو أبي. بدأ حياته كممثل شكسبيري وانتهى بالمشاركة في عروض الفودفيل. ابتسمت لسماع كلمة فودفيل.

-لقد كتب لي وولي عن بعض المؤدّين الذين عمل معهم والدك. الفنانون المتخصصون في خدع الهروب، والسحرة... كان مفتونًا بهم. -أخوك يحب قصة قبل النوم الجيدة.

-نعم، صحيح، أليس كذلك؟

نظرت من فوق الطاولة وكأنها تريد أن تسألني شيئًا، لكنها حوّلت نظرتها إلى شايبا. شجّعته: -ماذا؟ -كان سؤالًا شخصيًا.

-وهذه أفضل الأسئلة.

تفحصتني لبرهة، تحاول أن تعرف إن كنت صادقًا أم لا. لا بُد أنها قررت أنني صادق.

-كيف انتهى بك الحال إلى سالينا يا دوق؟

-أوه، إنها قصة طويلة.

-لقد بدأتُ شايبا للتوّ...

هكذا، بعد أن صبيتُ لنفسي إصبعًا آخر من الويسكي⁽¹⁾، حكيتُ لها ملهاتي الصغيرة، وأنا أفكر: ربما تحب كل عائلة وولي قصة قبل النوم الجيدة.

كان ذلك في ربيع عام 1952، بعد بضعة أسابيع فقط من عيد ميلادي السادس عشر، كنا نعيش في الغرفة 42 في فندق «صَن شاين»؛ بابا على السرير وأنا على الأرض.

(1) إصبع الويسكي: المقدار الذي يماثل عرض إصبع في قاع الكأس. (م)

في ذلك الوقت، كان أبي بين هنا وهناك، مثلما يحب أن يقول، ما يعني أنه فصل من وظيفة، ولم يجد بعد الوظيفة التالية لكي يُفصل منها. كان يقضي أيامه مع صديقه القديم، فيتزي، الذي يعيش على الجانب الآخر من الممر. بُعيد الظهر، يخرجان لتمشيط مقاعد الحدائق، وعربات الفاكهة، وأكشاك الجرائد، وأي بقعة أخرى يُحتمل أن يكون شخص قد أسقط فيها نكلة ولم يهتم بالتقاطها. ثم ينزلان إلى الأنفاق ويغنيان أغاني عاطفية وكل منهما يمسك قبعته في يده. وإذ عرفا جمهورهما، كانا يغنيان «داني بوي» للأيرلنديين على خط الجادة الثالثة و«آفي ماريا» للإيطاليين في محطة «سبرينغ ستريت» ويجهشان بالبكاء وكأنهما يقصدان كل كلمة. بل وكانت لديهما نمرّة باليدية عن الحياة في الـ«شتيتله» يرفعان عقيرتهما بها عندما يقفان على رصيف محطة «كانال ستريت»⁽¹⁾. ثم في الأمسيات -بعد أن يعطيني قطعتي فضة ويرسلاني إلى السينما لمشاهدة فيلمين في برنامج واحد- يأخذان المال الذي كسباه بشق الأنفس ويغوصان في شارع إлизаيبث ويشربان حتى آخر سنت.

ولأنهما لا يستيقظان حتى الظهر، كنت أنهض في الصباح فأتجول في الفندق بحثًا عن شيء أكله أو شخص أتكلم معه. في تلك الساعة، تكون الخيارات محدودة للغاية، لكنني أجد حفنة ممن يستيقظون مبكرًا، وأفضلهم، من دون شك، مارسيلين موباسان.

زمان في العشرينيات، كان مارسيلين واحدًا من أشهر المهرّجين في أوروبا، يؤدي في صالات كاملة العدد في باريس وبرلين، يتلقّى تحيات حارة بالوقوف على الأقدام، وتصطف النساء في طوابير بانتظاره عند باب المسرح الخلفي. لم يكن مارسيلين مهرّجًا عاديًا. لا يطلي وجهه ويدور متأقلاً في حذاء ضخم وهو ينفخ في بوق. كان معدنه أصيلاً. شاعرٌ

(1) «داني بوي» Danny Boy: إحدى أشهر الأغنيات لدى الجالية الأيرلندية في ذلك الوقت. «آفي ماريا» Ave Maria: ومعناها «السلام عليك يا مريم»، أنشودة شهيرة في الكنائس الكاثوليكية. الـ«شتيتله» shtetl: هي البلدة الصغيرة أو القرية في أوروبا الشرقية. (م)

وراقص. رجلٌ يرصد العالم عن قرب ويشعر بالأشياء بعمق - مثل شابِلين وكيَتون.

في أحد أعظم عروضه لعبَ دورَ شَحَّاذٍ في شارعٍ مدينيٍّ صاخب. عندما تُرفع الستار، نراه هناك، يدور وسط حشد من أبناء المدينة. بانحناءة صغيرة، يحاول لفت انتباه رجلَين يتجادلان حول العناوين بجوار كشك جرائد؛ وبرَفعة من قبعته مرفوعة الحواف، يحاول أن يتكلّم مع مُربية مشغولة بطفل في رعايتها يعاني من مغص. وسواءً رفع القبعة أو انحنى، يستمر كل من يحاول الاشتباك معهم في شؤونهم وكأنه ليس موجودًا أصلاً. ثم عندما يهتّم مارسيلين بالاقتراب من فتاة خجولة بنظرات مغتمة، يصطدم به طالبٌ حسير البصر، فيسقط قبعته عن رأسه.

ينطلق مارسيلين لمطاردة قبعته. لكن كلّما همّ بالإمساك بها، ركلها أحد المشاة المشتتين لتتقافز في الاتجاه الآخر. بعد عدة محاولات لاستعادتها، يدرك مارسيلين لفرط استيائه أن شرطيًا بكرش مكوّر يوشك أن يدوس على القبعة غافلاً. وإذا لا يعود أمام مارسيلين خيار آخر، يرفع يداً في الهواء، ويفرقع بإصبعيه، فيتجمد الجميع في مكانهم. الجميع باستثناء مارسيلين. الآن يحدث السحر.

لبضع دقائق، يتراقص مارسيلين بانسيابية على الخشبة، يتزلج بين المشاة الثابتين في أماكنهم وعلى وجهه ابتسامة رقيقة، وكأنه لا يهتمّ بالعالم. ثم يأخذ وردة طويلة العود من بائع الزهور، ويقدمها بخجل إلى الفتاة المغتمة. يتدخل بنقطة أو نقطتين بين الرجلين اللذين كانا يتجادلان بجوار كشك الجرائد. يلوي وجهه بطريقة مضحكة للطفل في عربة الأطفال. يضحك ويعلق وينصح، كل ذلك من دون صوت.

لكن بينما يهتّم مارسيلين بأن يأخذ دورة أخرى بين الحشد، يسمع دقات جرس رقيقة. يتوقف في مركز الخشبة، ويدخل يده في صدريّته البالية ويُخرج ساعة جيب من الذهب، يبدو واضحًا أنها أثرٌ من زمن فات. يفتح الغطاء، فيرى الوقتَ ويدرك بنظرة أسيانة أن لعبته الصغيرة قد مضت بما يكفي. يعيد الساعة إلى مكانها، ويتناول بحرص قبعته مرفوعة الحواف

من تحت قدم الشرطي البدين - التي ظلت عالقة في الهواء طوال ذلك الوقت، مأثرةً بهلوانيةً في حد ذاتها. ينفض عنها التراب، ويضعها على رأسه، ويواجه الجمهور، ويفرقع بإصبعيه، فيعود الجميع إلى أنشطتهم. كان أداءٌ يستحق المشاهدة أكثر من مرة. لأنك في أول مرة ترين العرض، عندما يفرقع مارسيلين بإصبعيه في النهاية، سيبدو لك أن العالم قد عاد إلى ما كان عليه بالضبط. لكن في المرة الثانية أو الثالثة، قد تبدآن في إدراك أن العالم لم يعد كما كان بالضبط. فالفتاة الخجولة وهي تمضي في حال سبيلها، تبسم حين تكتشف الوردة طويلة العود في يديها. والرجلان اللذان كانا يتجادلان بجوار كشك الجرائد يتوقفان في وسط جدالهما، وقد صار كل منهما أقل اطمئنانًا لموقفه. والمربية التي كانت تحاول، بهذا الدأب، استرضاء عهدتها الباكية، تندesh حين تجده يُقرقر. إذا ذهبت لمشاهدة عرض مارسيلين أكثر من مرة، يمكنك ملاحظة كل ذلك في الثواني السابقة على إنزال الستار.

في خريف عام 1929، في ذروة شهرته في أوروبا، أغوي مارسيلين بالمجيء إلى نيويورك وقد وعدَ بعقدٍ من ستة أرقام لإقامة تستمر ستة شهور في مسرح الهيبودروم. بكل حماسة الفنان، وضَبَّ حقائبه استعدادًا لإقامة طويلة في أرض الأحرار. لكن مثلما تبيّن، لحظةً كان يركب الباخرة في بريمن، بدأت البورصة في وول ستريت غطسَها الحادة.

عندما وصل إلى أرصفة ويست سايد البحرية، كان متجوه الأمريكيون قد أفلسوا، وأغلق الهيبودروم، وألغى عقده. ووجد في انتظاره برقية في فندقه من صيارفته في باريس تخبره أنه هو الآخر فقد كل شيء في هذا الانهيار، ولم يبقَ له حتى ما يؤمّن له عودة سالمة إلى الديار. وعندما طرق أبواب منتجين آخرين، اكتشف، رغم شهرته في أوروبا، أن لا أحد في أمريكا يعرف من هو.

الآن لم تكن قبعة مارسيلين هي التي طاحت من فوق رأسه، بل عزّة نفسه. وكلما انحنى لالتقاطها، ركلها عابر سبيل بعيدًا عنه. وظل ينطلق سعيًا وراءها، من مكان بائس إلى آخر، إلى أن وجد نفسه في نهاية المطاف

يؤدي «البانتومايم» على نواصي الشوارع ويعيش في فندق «صَن شايِن» -في الممر نفسه، في الغرفة 49.

بداهةً، صار مارسيلين سكيرًا. لكن ليس على طريقة فيتزي ووالدي. لم يذهب إلى خَمَّارة ليعيش أمجاده مجددًا وبيتً شكَاواه القديمة. في الأمسيات، كان يشتري زجاجة نبيذ أحمر رخيص ويشربها بمفرده في غرفته والباب مغلق، يعيد ملء الكأس في حركة ناعمة مطوّلة، وكأن ذلك جزء من العرض.

لكن في الصباحات، كان يترك بابه مواربًا. وعندما أنقر عليه، يرحب بي برفعةٍ من قبعته التي لم يعد يمتلكها. أحيانًا، عندما يكون معه قليل من النقود، كان يرسلني لشراء الحليب، والقمح، والبيض، ويطبخ لنا فطائر كريب صغيرة باستخدام السطح السفلي لمكواة كهربائية. وبينما نأكل فطورنا جالسين على الأرض، عوضًا عن الكلام عن ماضيه، يسألني عن مستقبلي -عن الأماكن التي سوف أذهب إليها، والأشياء التي سوف أفعلها. كانت طريقة عظيمة لبدء اليوم.

ثم ذات صباح عندما مضيتُ في الممر، لم أرَ بابه مواربًا. وعندما نقرت على الباب، لم يجبني أحد. وضعت أذنًا على الخشب، فسمعت صريرًا واهيًا للغاية، وكأن شخصًا يتقلب على نوابض سريره. وإذ شعرت بقلق من أن يكون مريضًا، فتحت الباب قليلًا.

ناديت: -مستر مارسيلين.

عندما لم يرد، فتحت الباب على وسعه، فقط لأكتشف أن الفراش مرتّب، وكرسي المكتب مقلوب في منتصف الغرفة، ومارسيلين معلق من مروحة السقف.

الصرير، تفهمين، لم ينبعث من نوابض الفراش. بل من ثقل جسده وهو يدور ببطء ذهابًا وإيابًا.

عندما أيقظتُ والدي وجئت به إلى الغرفة، اكتفى بإيماءة من رأسه وكأنه ظل يتوقع ذلك طوال الوقت. ثم أرسلني إلى مكتب الاستقبال لأطلب منهم مهاتفة السلطات.

بعدها بنصف ساعة كان ثلاثة شرطيين في الغرفة -اثنان من شرطة الدورية ومحقق يأخذ إفادات مني ومن أبي ومن المستأجرين المجاورين الذين جعلوا يدشون رؤوسهم ليختلسوا النظر عبر الباب. سأل أحد المستأجرين: -هل تعرّض للسطو؟.

ردًا على ذلك، أشار أحد شرطتيّ الدورية إلى مكتب مارسيلين، حيث وُضعت محتويات جيوبه، بما فيها ورقة بخمسة دولارات وبعض الفكة. -إذا أين الساعة؟.

سأل المحقّق: -أي ساعة؟.

شرع الجميع يتكلمون في نفس الوقت -يشرحون أمر ساعة الجيب المصنوعة من الذهب التي كانت بالغة الأهمية في عرض المهرج القديم والتي لم يكن مستعدًا أبدًا للتخلي عنها، حتى وهو مفلس. بعد أن نظر المحقق إلى شرطتيّ الدورية، اللذين هزّأ رأسيهما، نظر إلى أبي. ثم نظر أبي إليّ.

قال، وهو يضع ذراعًا على كتفي: - الآن يا دوق، هذا موضوع مهم جدًّا. سأسألك سؤالًا، وأريدك أن تخبرني بالحقيقة. عندما عثرت على مستر مارسيلين، هل رأيت ساعته؟.

بصمت، هزّزت رأسي.

واقترح هو، يساعدني: -ربما عثرت عليها على الأرض. والتقطتها، كيلا تنكسر.

قلت، بهزة أخرى من رأسي: -لا. لم أر ساعته أبدًا.

ربّت أبي على كتفي بما يشبه التعاطف، ثم استدار إلى المحقق وهزّ كتفيه مثل شخص حاول قصارى جهده. قال المحقق: -فتشوهم!.

تخليي دهشتي عندما طلب مني شرطيّ الدورية أن أقبّل جيوبي وهناك، بين أغلفة العلّكة، كانت ساعة ذهبية معلّقة بسلسلة ذهبية طويلة. تخيلي دهشتي، أقول، لأنني كنت مندهشًا. مذهولًا. بل مصعوقًا. واستمر ذلك لثانيتين.

بعدها، بدا لي ما حدث واضحًا مثل ضوء النهار. لقد أرسلني والذي إلى مكتب الاستقبال لكي يستطيع تفتيش الجثة. وعندما ذُكرَت الساعة على لسان جارٍ متطفل، علق والذي ذراعه فوق كتفي وأعطاني خطبته الصغيرة لكي يستطيع أن يُزحلقها إلى جيبي قبل أن يتعرض للتفتيش. قال بنبرة إحباط واضح: -أوه يا دوقه.

في غضون الساعة، صرْتُ في مركز الشرطة. وكقاصر يرتكب أولى جرائمه، كانت لديَّ فرصة جيدة لإطلاق سراجي تحت رعاية والذي. لكن بالنظر إلى قيمة ساعة المهرج القديم، لم تُعتبر الجريمة سرقة بسيطة، بل سرقة كبرى. ومما زاد الطين بلة، وجود تقارير حول بضع سرقات أخرى في فندق «صَن شايِن»، وزعمُ فيتزي في إفادة تحت القسم أنه رأيَ أخرج من غرفة أو غرفتين بخلاف غرفتي. ثم، وكأن ذلك ليس كافيًا، اكتشف الناس في إدارة رعاية الأطفال -لصدمة أبي العنيفة- أنني لم أذهب إلى المدرسة منذ خمس سنين. وعندما وقفتُ أمام قاضي الأحداث، أجبر أبي على الاعتراف أنه كأرمل كادح ليس في موقف يؤهله لحمايتي من تأثيرات حي باوري الخبيثة. وعلى ذلك، فمن مصلحتي، كما اتفق الجميع، أن أوضع في برنامج إصلاح للأحداث إلى أن أبلغ الثامنة عشرة.

عندما نطق القاضي بالحكم، طلب منه والذي أن يسمح له بتقديم نصيحة لابنه المنفلة قبل ترحيله. أذن له القاضي، مفترضًا، على الأرجح، أن والذي سيأخذني جانبًا وينجز الأمر بسرعة. عوضًا عن ذلك، دسّ والذي إبهاميه تحت حمّالتيه، ونفخ صدره، وخاطب القاضي، وحاجب المحكمة، وجمهور «الترسو»، وكاتبة الاختزال. وبخاصة كاتبة الاختزال! قال لكل منهم ولهم جميعًا: -إننا إذ نفرق، يا ولدي، هاك بركتي. لكن في غيبي احمل معك تلك الوصايا القليلة: مع الناس لا تتكلّف، لكن لا تبدّل. أذنك أعرها لكل إنسان، أمّا صوتك فاقصره على القلّة. خذ الرأي من كل فرد، ولكن احتفظ بحكمك. وهذا اذكره فوق كل شيء: كن صادقًا مع نفسك، فإذا فعلتَ، تلا ذلك، كالليل يتلوّه النهار، أنك لن تكون كاذبًا

مع أحد.. وداعًا يا ولدي، وداعًا⁽¹⁾.

هكذا اختتم خطبته.

ثم وهم يقتادوني خارج الغرفة، ذرف دمعًا حقيقية، هذا الثعلب العجوز.

قالت سارة: -أمر فظيع.

ورأيتُ من وجهها أنها تقصد ذلك. كانت قسماتها توحى بالتعاطف، والشُّخط، والحمائية. وكنتُ تعرف أنه سواءً صارت سعيدة في حياتها أم لا، فلسوف تصبح سارة، حتمًا، أمًا رائعة.

قلت، أحاول أن ألطف من ضيقها: -لا بأس. سالاينا ليست سيئة إلى هذه الدرجة. كنتُ أحصل على ثلاث وجبات في اليوم ومَرَبَّة. ولو لم أذهب إلى هناك، لما قابلت أخاك.

عندما تبعْتُ سارة إلى الحوض لأغسل كأسِي الفارغة، شكرتني وابتسمت بطريقتها الكريمة. ثم تمنَّت لي ليلة طيبة واستدارت لتمضي في طريقها.

قلت: -يا أختُ سارة.

عندما استدارت، رفعت حاجبيها مستفسرة. ثم راقبتني بتلك الدهشة الخرساء وأنا أدخل يدي في جيب روبيها وأخرج الزجاجاة البنية الصغيرة. قلت: -ثقي بي. هذه لن تنفعك.

وعندما خرجت من المطبخ، دسستُ الزجاجاة في قاع رفِّ التوابل، وأنا أشعر بأنني قمتُ بعملِي الصالح الثاني لهذا اليوم.

(1) «إننا إذ نفترق، يا ولدي، هاكْ بركتي...»: خطبة هاري هيويت مستوحاة من الخطبة التي ألقاها بولونيوس على ابنه ليرتيس لدى فراقهما في مسرحية هاملت، الفصل الأول، المشهد الثالث (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا بقليل من التصرُّف). (م)

أربعة

—•—

وولي

يوم الجمعة في الواحدة والنصف، وقف وولي في مكانه المفضل على الإطلاق داخل المتجر. وكان لذلك معنى ومغزى! إذ يضم متجر «فاو شوارتز» للألعاب الكثير من الأماكن الرائعة الجديرة بالوقوف فيها. فلكي يصل إلى هذا المكان، مرَّ وسط مجموعة من الحيوانات المحشوة العملاقة -منها نمر ذو عينين فانتين، وزرافة بالحجم الطبيعي تكاد رأسها تلمس السقف. مرَّ وسط سباق للمركبات الآلية، حيث يتسابق صبيان سيارتي فيراري صغيرتين حول حلبة على شكل رقم 8. وفي أعلى السلم المتحرك، مرَّ وسط منطقة الألعاب السحرية حيث ساحرٌ يجعل ورقة الولد الديناري تختفي. لكن رغم كل تلك المغريات، ما كان لشيء في المتجر أن يُسعد وولي بقدر الصندوق الزجاجي الكبير الذي يضم أثاث بيت الدُمية. كان بطول عشرين قدمًا، يحوي ثمانية رفوف زجاجية، وبذلك كان أكبر حتى من خزانة الجوائز في صالة الألعاب الرياضية في سان جورج، وكان مملوءًا من القاعدة إلى القمة ومن هذا الجنب إلى ذاك بمستنسخات صغيرة مثالية. على الجانب الأيسر من الصندوق قسمٌ كاملٌ مخصَّص للأثاث من طراز تشيندال -بصُوان أدراج عالٍ طراز تشيندال ومكاتب طراز تشيندال وغرفٍ طعامٍ مجهزة باثني عشر كرسيًا تشيندال مصفوفة بانتظام حول مائدة تشيندال. كانت المائدة تشبه نظيرتها في غرفة الطعام في بيت أسرته ذي الواجهة المصنوعة من الحجر الرملي الأسمر في شارع ستة وثمانين. بداهةً، لم يأكلوا على التشيندال كل يوم. كانت مخصصة للمناسبات وأعياد الميلاد، حيث يجهَّزونها بأفضل طقم من الصيني ويشعلون كل الشموع في الشمعدان. على الأقل، إلى أن توفي والد وولي؛

وتزوجت والدته مرة أخرى، وانتقلت إلى بالم بيتش، وتبرعت بالمائدة للمتجر النسائي الخيري.

آه، لكم أثار ذلك جنون أخته كيتلين.

كيف أمكنك ذلك، هكذا قالت لأمهما (أو بالأحرى صرخت فيها) عندما جاء الحمالون لرفع المائدة. لقد كانت مائدة جدتنا الكبيرة! أوه يا كيتلين، ردت أمه. ماذا تفعلين بمائدة مثل تلك؟ قطعة قديمة الطراز عفى عليها الزمن تتسع لدسته من الناس. لم يعد أحد ينظم ولائم حتى. أليس صحيحًا يا وولي؟

في ذلك الوقت، لم يعرف وولي إن كان الناس ينظمون ولائم أم لا. وما زال لا يعرف. لذا لم يقل شيئًا. لكن أخته قالت شيئًا. بينما يرفع الحمالون المائدة التشيبندال ويخرجون بها من الباب.

قالت له: انظر إليها جيدًا جدًا يا وولي، لأنك لن ترى أبدًا مائدة مثلها مرة أخرى.

لذا نظر إليها جيدًا جدًا.

لكن تبين بعد ذلك أن كيتلين مخطئة. إذ رأى وولي طاولة مثلها مجددًا. رآها هنا في صندوق العرض الزجاجي في «فاو شوارتز».

كان الأثاث في صندوق العرض الزجاجي مرتبًا بحسب التسلسل الزمني. عندما تنتقل من اليسار إلى اليمين تستطيع أن تسافر طيلة الطريق من بلاط فرساي إلى غرفة معيشة في شقة معاصرة، بفونوغراف، وطاولة كوكتيل، وزوجين من كراسي «ميس فان دير روه»⁽¹⁾.

فهم وولي أن كلا من مستر تشيبندال ومستر «فان دير روه» حظي بتقدير هائل على تصميم كرسيه. مع ذلك، فقد بدا له أن صنّاع تلك المستنسخات الصغيرة المثالية يستحقون التقدير نفسه على الأقل، إن لم يكن أكبر.

(1) «ميس فان دير روه»: المقصود «لودفيج ميس فان دير روه»، أحد رواد تصميم الأثاث المنزلي الحديث. (م)

فصناعة كرسي تشيبندال أو «فان دير روه» بهذه الأبعاد الضئيلة أمرٌ أصعب بالتأكيد من صناعة كرسي يمكن الجلوس عليه.

غير أن الجزء المفضل من الصندوق الزجاجي لدى وولي كان في آخر الطرف الأيمن، حيث سلسلة من المطابخ. في الرف العلوي، عُرض ما يُطلق عليه «مطبخ البراري»، بطاولة خشبية بسيطة ومُخَصَّصة زبدة ومقلاة من الحديد الزهر وموقد من الحديد الزهر. بعده يأتي المطبخ الفيكتوري. تنظر إليه فتعرف أنه من تلك المطابخ المخصصة للطبخ، إذ لا يضم طاولة ولا كراسي للجلوس وتناول العشاء. عوضًا عن ذلك، تجد منضدة خشبية وسطى علقت فوقها ست قدور نحاسية مرتبة تنازليًا وفقًا لأحجامها. وأخيرًا، كان المطبخ المعاصر، بكل عجائب العصر الحديث. علاوة على الموقد الأبيض اللامع والبرّاد الأبيض اللامع، ترى طاولة لأربعة أفراد لها سطح من الفورمايكا وأربعة كراسي من الكروم لكل منها مقعدة من الفينيل الأحمر. ترى خلّاطًا ماركة «كيتشن إيد»، ومحمصة خبز لها ذراعٌ سوداء صغيرة وبها قطعتان صغيرتان من الخبز المحمص. وفي الخزانة فوق المنضدة، ترى علب حبوب الإفطار الصغيرة وصفائح الحساء المُنَمَّمة.

-عرفتُ أنني سأجذك هنا.

استدار وولي ليجد أخته واقفة إلى جواره.

سألها مندهشًا: -كيف عرفتِ؟

قالت سارة ضاحكة: -كيف عرفتُ!

وضحك وولي أيضًا. لأنه، بالطبع، بالطبع، عرف بالضبط كيف عرفت. عندما كانوا صغارًا، كانت الجدة وللكوت تأخذهم كل ديسمبر إلى «فاو شوارتز» ليختار كلٌّ منهم هدية الكريسماس بنفسه. في إحدى السنوات، وبينما تستعد العائلة لمغادرة المتجر، وقد زُرَّرت كل معافهم وامتلات كل أكياسهم الحمراء الكبيرة إلى حافتها، أدركوا أن وولي الصغير فقد على نحو ما وسط الهرج والمرج. أرسل أبناء العائلة إلى كل طابق، ينادون عليه، إلى أن وجدته سارة أخيرًا هنا.

-كم كان عمرنا وقتها؟

هزت رأسها.

-لا أعرف. كان ذلك في السنة التي سبقت وفاة جدتنا، لذا أظني كنت في الرابعة عشرة وأنت في السابعة.

هز وولي رأسه.

-كان ذلك صعبًا جدًا، أليس كذلك؟

-ما الذي كان صعبًا؟

-اختيار هدية كريسماس، من مكان كهذا!

لَوَّح وولي بذراعيه وكأنما ليحتضن كل الزرافات، وعربات الفيراري، وأطقم الألعاب السحرية في المبنى.

قالت: -نعم. كان الاختيار صعبًا جدًا. لكن خاصة بالنسبة لك.

أوما وولي برأسه، وقال: -ثم بعدها، بعد أن نختار هدايانا ونُرسل جدتنا الأكياس إلى البيت مع السائق، كانت تأخذنا إلى البلازا لتناول الشاي. هل تتذكرين؟
-أتذكر.

-كنا نجلس في تلك الغرفة الكبيرة المزدانة بأشجار النخيل. ويُحضرون لنا تلك الأبراج، حيث الجرجير الصغير والخيار وشطائر السلمون في الطوابق السفلية، وكعكات الليمون الصغيرة وإكلير الشوكولاتة في الأعلى. وتصرّ جدتنا على أن نأكل الشطائر قبل أن نأكل الكعك. عليك أن تتسلّق طريقك إلى الجنة.
ضحك وولي.

-نعم، صحيح. هكذا كانت جدتنا تقول.

عندما وصل وولي وسارة إلى الطابق الأرضي عبر السلم المتحرك، كان وولي يشرح فكرته الجديدة جدًا وهي أن صنّاع كرسي بيت الدمية يستحقون تقديرًا مثل مستر تشيبيندال ومستر «فان دير روه»، إن لم يكن أكبر. لكن وهما يقتربان من الباب الأمامي، سمعا شخصًا يصيح من ورائهما بالحاح.

-إذا سمحت! إذا سمحت يا سيدي!

عندما نظر وولي وأخته وراءهما ليريا مصدر الجلبة، اكتشفا أن رجلاً له مظهر إداري للغاية يلاحقهما وإحدى يديه مرفوعة في الهواء.

نادى الرجل وهو يشق طريقه بحزم في اتجاه وولي: - لحظة يا سيدي! استدأر وولي إلى شقيقته، عازماً على أن يرسم على وجهه تعبير اندهاش هزلي. لكنها ظلت تراقب الرجل وهو يقترب بمسحة يسيرة من الارتياع. يسيرة لكنها مُفجعة.

عندما وصل الرجل إليهما، توقف لالتقاط أنفاسه، ثم خاطب وولي: -أعتذر اعتذاراً حاراً على الصباح. لكنك نسيت دُبَّك.

انفتحت عينا وولي على وسعهما.

-الدُّب!

استدأر إلى أخته، التي نظرت نظرة حيرة وارتياع في آن.

قال بابتسامة: -لقد نسيت الدُّب.

عندها ظهرت فتاة كانت تمشي في أثر المدير، وهي تحمل دُبَّ باندا في مثل حجمها تقريباً.

قال وولي، وهو يأخذ الدُّب في ذراعيه: -شكراً لكما. ألف شكر.

وإذ عاد الموظفان إلى موقعيهما، استدأرت سارة إلى وولي.

-اشتريت باندا عملاقاً؟

-إنه للطفل!

-وولي!

قالتها بابتسامة وهزة من رأسها.

أوضح لها وولي: -فكرت في الدُّب الرمادي والدُّب القطبي، لكنهما

بدوا لي شرسين بعض الشيء.

من باب التوضيح، أراد وولي أن يرفع مخالفه ويكشّر عن أنيابه، لكن

ذراعيه كانتا مشغولتين بالباندا.

كانت ذراعاه مشغولتين بالباندا حتى إنه لم يستطع المرور من الباب

الدَّوَّار. لذا قفزَ الرجل في الزي الرسمي الأحمر الفاقع، الذي يقف دائماً لحراسة مدخل «فاو شوارتز»، لمساعدته.

قال بشهامة: -اسمح لي.

ثم فتح الباب غيرَ الدَّوَّار لكي يُخرج الأخ، والأخت، والدُّب إلى الشرفة الصغيرة التي تفصل المتجر عن الجادة الخامسة.

كان يوماً جميلاً، حيث تُلقي الشمس بأشعتها على كل مركبات الخيل وعربات الـ«هوت دوغ» المصطفة على طول حافة سنترال بارك. -تعالَ اجلس معي للحظة.

قالت سارة، بطريقة توحى بأن حوارًا جادًا في الطريق.

بقدرٍ من التردد، تبعَ وولي أخته إلى مقعد مستطيل وجلس، واضعًا الباندا بينهما. لكن سارة رفعت الباندا ووضعتَه إلى جانبها كيلا يفصل شيء بينهما.

قالت: -وولي، أريد أن أسألك شيئًا.

وإذ نظرت إليه، رأى وولي في وجهها تعبيرَ قلق، لكنه ممتزج أيضًا بتعبير تردّد، وكأنها فجأة لم تعد متأكدة أنها تريد أن تسأله ذلك الذي كانت تريد أن تسأله إيَّاه، أيًا كان.

مد وولي ذراعه ووضع يده على ساعدها.

-ليس عليك أن تسأليني شيئًا يا سارة. ليس عليك أن تسأليني أي شيء. وإذ نظر وولي إليها، رأى الشعور بالقلق يواصل الصراع مع الشعور بالتردّد. لذا بذل جهده لطمأننتها. قال: الأسئلة يمكن أن تكون مخادعة جدًّا، مثل المَفارق على الطرق. يمكن أن تقيمي حوارًا لطيفًا ثم يأتي شخص ويطرح سؤالًا، وفجأة تجددين نفسك في اتجاه جديد تمامًا. الأغلب، هذا الطريق الجديد سيقودك إلى أماكن لا بأس بها على الإطلاق، لكنك أحيانًا تريد فقط أن تواصل السير في اتجاهك الأول.

ران الصمت عليهما للحظة. ثم ضغط وولي على ذراع أخته وقد أثارتَه فكرة إضافية.

قال: -هل سبق أن لاحظتِ، هل سبق أن لاحظتِ كيف تبدأ الكثير من الأسئلة بحرف W؟

ثم راح يعدّها على أصابعه: Who (مَن)، What (ماذا)، Why (لماذا)، When (متى)، Where (أين)، Which (أيّ).

رأى أن القلق والتردّد قد انقشعا للحظة وهي تبتسم لتلك الحقيقة الصغيرة المبهرة. فاستطرد يقول: أليس أمرًا مثيرًا؟ أقصد، كيف حدث ذلك في ظنّك. قبل كل تلك القرون عندما كانوا يصوغون الكلمات لأول مرة، ماذا في الصوت W جعل صائغي الكلمات يستخدمونه لكل الأسئلة؟ بدلًا، مثلًا، من T أو P؟ الأمر يجعلك تشعرين بقدر من الأسف على الـ W، أليس كذلك؟ أقصد، إنه عبء كبير عليه. خاصة عندما نعرف أن الشخص عندما يسأل سؤالًا يبدأ بحرف W، لا يسأل، في الغالب، سؤالًا حقيقيًا. فقط يقول عبارة تقريرية مخفية. مثل، مثل ...

اتخذ وولي وضعيّة ونبرة أمّهما.

-متى ستكبر! ولماذا تفعل هذا! وماذا كنتَ تظن، بحقّ الرب! ضحكت سارة، وكانت رؤيتها وهي تضحك شيئًا جميلًا. لأنها كانت ضحوة عظيمة. كانت أفضل ضحوة عرفها وولي في حياته قطعائيًا. -طيّب يا وولي. لن أسألك سؤالًا.

الآن كانت هي من مدّ يداً ليُمسك ساعدًا. -بدلًا من ذلك، أريدك أن تعطيني وعدًا. أريدك أن تعدني أنك بعد زيارتك، سترجع.

أراد وولي أن ينظر إلى قدميه، بيد أنه شعر بأصابعها على ساعده. ورأى أن تعبير التردد قد اختفى من وجهها، بينما بقي تعبير القلق على حاله. قال: -أعدك، أعدك... أني سأرجع.

ثم ضغطت على ساعده مثلما سبق وضغطت على ساعدها، وبدأ أن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهلها، فأرجعت ظهرها إلى الورا على مقعدها، وفعل هو المثل. وبينما يجلسان هناك بجوار الباندا، وجدا نفسيهما ينظران إلى الجانب الآخر من الجادة الخامسة -إلى فندق البلازا مباشرة.

بابتسامة كبيرة، نهض وولي واستدار إلى أخته، ثم قال: -يجب أن نذهب لنشرب الشاي. من أجل الأيام الخوالي.

قالت وولي وهي تُرخي كتفيها: -وولي. الساعة الثانية. لا زلتُ أحتاج إلى استلام فستاني من متجر بيرغدورف، وتصفيف شعري، والعودة إلى الشقة لأستطيع تغيير ملابسي في الوقت المناسب لمقابلة دينيس في مطعم «لو بافيون».

-أوه، بلا، بلا، بلا.

فتحت سارة فمها لتقول شيئاً آخر، غير أن وولي تناول الباندا وراح يهزّه إلى الأمام والخلف أمام أخته.

كرر، بصوت دُبّ الباندا: -أوه، بلا، بلا، بلا.

وقالت سارة ضاحكة: -ظيّب. لأجل الأيام الخوالي، دعنا نشرب الشاي في البلازا.

دوقة

يوم الجمعة في الواحدة والنصف، كنت أقف أمام خزانة التُّحف في غرفة طعام أخت وولي أستمتع بمنظر أطقم الصيني المرتبة بأناقة. مثل آل واطسن، كانت لديها أطقم مائدة جديدة بالتوريث من جيل إلى جيل، بل ولعلها وُرثت بالفعل. لكن هنالم تكن ثمة أبراج متمائلة من فناجين القهوة، ولا طبقة رقيقة من الغبار. كان صيني الأخت سارة مرتبة في كُومات رأسية متراسة في انتظام تام، ولكل صحن دائرة صغيرة من اللباد تحمي سطحه من الصحن الذي يعلوه. على رف تحت الصيني كانت علبة سوداء طويلة تحتوي على فضيات الأسرة منظمة بالأناقة نفسها.

أوصدتُ القسم السفلي من خزانة التُّحف، وأعدت المفاتيح إلى حيث وجدتُها: في السلطانية المعروضة وسط الرف الأوسط. كان واضحاً أن سيدة الدار تمتلك حساً لطيفاً بالسَّيمترية، لم تجعله سهولة فك شفرته أقل جدارة بالشناء.

خرجتُ من غرفة الطعام وجعلت أتسكع في الطُّرقة، شاعراً بالرضا أنني زرتُ كل غرفة في الطابق الأرضي، ثم اتجهت إلى السلالم الخلفية.

على الفطور، كانت سارة قد أوضحت أنها ودينيس سيقضيان عطلة نهاية الأسبوع في شقتهما في المدينة لأن لديهما ترتيبات عشاء في الليلتين المتتاليتين. وعندما أضافت أن عليها الخروج لإنجاز بعض المهام قبل الظهيرة، واقترح وولي أن يرافقها، نظرت سارة إليّ. وسألتني: هل يناسبك ذلك؟ أن ينضم وولي إليّ في المدينة لبضع ساعات.

-لا أرى أيّ مانع.

وهكذا، سوّي الأمر. سيركب وولي السيارة مع سارة، وسأذهب أنا لاحقاً

في الكاديلاك لألقطه ونتجه معاً إلى «السيرك». عندما سألتُ وولي أين نلتقي، اقترح بدهاءً تمثال أبراهام لينكون في ميدان «يونيون سكوير». بُعيد الحادية عشرة، انطلقا متجهين إلى المدينة، وتركاني على راحتي في البيت. بادئ ذي بدء، دخلتُ غرفة المعيشة. صببت لنفسي إصبغاً من السكوتش، ووضعتُ سيناترا في الفونوغراف «الهاي فاي» واسترخيت على الأريكة رافعاً قدميَّ على مسندها. كانت أسطوانة لم أسمعها من قبل، لكن «أبو العيون الزرق» كان في أبهى حالاته، يغني تشكيلة من أغاني الحب الراقصة بصحبة أوركسترا كاملة، كان من بينها «أنا مفتون بك»، و«لا يستطيع أحد أن يسلبني ذاك»⁽¹⁾.

على غلاف الألبوم، كانت صورة لاثنين من أزواج العشاق يتزّهون في الشارع، بينما يستند سيناترا إلى عمود إنارة بمفرده. كان سيناترا يرتدي بدلة رمادية داكنة ويعتمر قبعة فيدورا مائلة على رأسه ويمسك سيجارةً بارتخاء بين إصبعين حتى بدا أنه قد يتركها تسقط. مجرد رؤية الصورة تجعلك ترغب في التدخين، واعتماد قبعة، والاستناد إلى عواميد الإنارة بمفردك أنت ووحدةك.

للحظة، تساءلتُ إن كان زوج أخت وولي هو من اشترى الأسطوانة. لكن التساؤل لم يدم إلا لحظة، إذ لا بُد أنها كانت سارة. وضعتُ إبرة الأسطوانة لمرة ثانية، وصببت لنفسي إصبغاً آخر من الويسكي وسرت أتسكع في الطرقة. وفقاً لولي، كان زوج أخته فلتة من فلتات وول ستريت، ولو أنك لن تعرف ذلك من مكتبه. لم يكن هناك شريط لأسعار التداول، ولا أيُّ شيء مما يستخدمونه هذه الأيام ليخبرهم ماذا يشترون وماذا يبيعون. لم تكن هناك دفاتر حسابات، ولا آلات حاسبة، ولا مساطر حاسبة. عوضاً عن ذلك، كانت ثمة دلائل وفيرة على الحياة الرياضية. على الرف المقابل للمكتب مباشرة -لكي يراها دينيس بسهولة- كانت

(1) الأغنيان هما: They Can't Take That Away from و I Get a Kick Out of You

سمكةٌ محشوةٌ معلّقة على عمود، تدير فمها بصورة أزلية تجاه الخطاف. وعلى الرفّ فوق السمكة، صورة حديثة لأربعة رجال انتهوا لتوهم من مباراة غولف. لحسن الحظ كانت ملوّنة، لذا كان بإمكانك ملاحظة كل الملابس التي لن ترغب أبدًا في ارتدائها. وإذا تفحصتُ وجوه لاعبي الغولف، اخترتُ اللاعب الذي بدا منفوخًا على وجه الخصوص وقدّرت أنه دينيس. إلى يسار الرفوف كانت صورةٌ أخرى معلّقة فوق خطّافين خاليين على شكل J بارزين من الحائط. هذه الصورة لفريق بيسبول جامعي بصحبة كأس ارتفاعها قدمان على العشب.

ما لم يكن موجودًا، هو صورة لأخت وولي. لا على الحائط، ولا على الرفوف، ولا على مكتب الفلّنة.

بعد أن شطفتُ كأس الويسكي في المطبخ، وجدتُ ما أظنّك ستسمّيه حجرة خزين. لكنها لم تشبه نظيرتها في سان نيكولاس، المكدّسة من الأرض للسقف بأكياس من القمح وصفائح من الطماطم. حجرتنا هذه كانت تضم حوضًا نحاسيًا صغيرًا ذا منضدة نحاسية، ومزهريات من كل لون ومقاس تتخيله، لكي تستطيع سارة أن تعرض على نحو مثالي كل باقة زهور لن يجلبها دينيس لها أبدًا. على الجانب المُشرق، حرص دينيس على تزويد حجرة الخزين بصوان مصمّم خصيصًا لتخزين بضع مئات من زجاجات النبيذ.

من المطبخ، واصلتُ طريقي إلى غرفة الطعام، حيث عاينت الصيني والفضيات، مثلما أوردت من قبل؛ توقفت في غرفة المعيشة لأعيد إغلاق زجاجة الويسكي بالسدادة وأطفئ الفونوغراف، ثم اتجهت إلى الطابق العلوي. فوّتُ الغرفة التي قضينا ليلتنا فيها أنا وولي، ودست رأسي في غرفة ضيوف أخرى، ثم في غرفة بدت مثل غرفة خيّاطة، قبل أن أصادف غرفة نوم لا تزال تُطلّى.

في وسط الغرفة، كان أحدهم قد سحب الغطاء الحامي عن الصناديق المكدّسة على الفراش، معرّضًا إياها لمخاطر الطلاء الأزرق الفاتح. لم يبدُ لي ذلك شيئًا يمكن أن تفعله أخت وولي، لذا أخذتُ زمام المبادرة

وأعدت الغطاء إلى مكانه. وماذا رأيتُ وأنا أميل على هيكل السرير إلا مضرب بيسبول ماركة «لوفيل سلاغر»؟

لا بُد أن هذا ما كان معلقًا على الخطافين L في مكتب دينيس، هكذا فكرت بيني وبين نفسي. الأرجح أن دينيس حقّق ضربة «هُوم رَن» طاحت وراء الحاجز قبل خمسة عشر عامًا، وعلق المضرب على الحائط ليدكره بتلك الحقيقة كلما لم يكن ينظر إلى سَمَكته. لكن لسبب غريب، كان شخص ما قد جلبه إلى هنا.

أمسكْتُ به ووزنته في يدي، ثم هززت رأسي غير مصدّق. لماذا لم أفكر في ذلك من قبل.

من ناحية الشكل والمبدأ، لم يختلف «لوفيل سلاغر» عن المضارب التي استخدمها أسلافنا لإخضاع القطط البرية والذئاب. مع ذلك، بدا مصقولًا وحديثًا على نحو ما مثل سيارة مازيراتي. هذا الاستدقاق الرقيق للذراع الذي يضمن توزيعاً مثاليًا للثقل... الشِّفَّة في القاعدة التي تستكنُّ في راحة اليد لزيادة قوة الضربة إلى أقصى الحدود من دون السماح للمضرب بالانزلاق من قبضتك... كان مضرب «لوفيل سلاغر»، المنحوت، والمُصنَّفَر، والمصقول بنفس الإخلاص الذي يُكرّس لصنع آلات الكمان والسفن، جميلًا ومثاليًا لغرضه في آن.

في الحقيقة، أتحدّاك أن تُسمّي نموذجًا مثاليًا على تسخير الشكل في خدمة الوظيفة أكثر من جو ديماجيو وهو يرجع بجذعه إلى الوراء، بعد أن سندَ برميل المضرب على كتفه، لكي يستقبل المقذوف المتجه ناحيته بسرعة تسعين ميلًا في الساعة ويُرسله عاليًا في الاتجاه العكسي ببطقة مُرضية.

نعم، هكذا فكرتُ في نفسي. انسَ لوحك مقاس اثنين في أربعة. انسَ مِقلاتك، وزجاجات الويسكي تَبَعك. عندما يتعلق الأمر بتنفيذ العدالة، لن تحتاج إلا لمضرب بيسبول أمريكي قديم طيّب.

مضيتُ في الطريقة وعلى شفّتي صافرة، واستخدمت طرف المضرب في دفع باب الجناح الرئيسي لأفتحه.

كانت غرفة جميلة، غير مزدحمة بالأغراض، لا تضم سريراً فقط، بل شيزلونج، وكرسيًا عالي الظهر مزودًا بمسند للأقدام، وقطعتي كومود متشابهين، واحدة له وواحدة لها. كان هناك أيضًا زوجان متطابقان من الدواليب، واحد له وواحد لها. في الدولاب الأيسر صف طويل من الفساتين. معظمها بَرَّاقَة وراقية مثل صاحبتهما، وإن دُسَّ في الزاوية بعض القطع الفاضحة التي كدَّتْ أشعر بالخجل لدى رؤيتها، والتي لا بُدَّ كانت تخجل من ارتدائها.

في الدولاب الثاني رفوفٌ عليها قمصان أكسفورد مطويةٌ بعناية وقضيبٌ طويل عُلقَت عليه مجموعة من البدلات ذات القطع الثلاث تتقدَّم من البرونزي إلى الرمادي إلى الأزرق إلى الأسود. على أحد الرفوف فوق البدلات، كان صفٌ من قبعات الفيدورا يتقدم بالترتيب نفسه.

الملابس تصنع الرجال، أو هكذا يقول المثل. غير أنك فور أن تنظر إلى صفٌ من قبعات الفيدورا تعرف أيُّ هُراءٍ ذاك. إجمع مجموعة من الرجال معًا من كل المراتب - من الجبَّار العظيم إلى التافه السفیه - واجعلهم يرمون قبعات الفيدورا تبَّعَهم في كومة، وسوف تقضي حياتك بأكملها تحاول أن تحدد أيَّ قبعة تخصُّ أيَّ رجل. لأن الرجال هم من يصنعون قبعات الفيدورا، وليس العكس. أقصد، ألن تفضل أن تضع على رأسك قبعة اعتمرها فرانك سيناترا عن قبعة اعتمرها الرقيب جو فرايداي؟ أتمنى ذلك.

إجمالاً، قدَّرتُ أن دينيس يمتلك نحو عشر قبعات فيدورا، وخمسة وعشرين بدلة، وأربعين قميصًا، للتبديل والتوفيق. لم أشغل نفسي بحساب كل التوليفات المحتملة للأطقم. إذ كان واضحًا جليًا للعين المجردة أن أحدًا لن يلاحظ إذا نُقِصَت واحدة.

إيميت

يوم الجمعة في الواحدة والنصف، كان إيميت يقترب من بيتٍ ذي واجهة من الحجر الرملي الأسمر في شارع 126.
-ها نحنُ من جديد.

كذلك قال الشاب ذي البشرة السمراء الذي يستند إلى الدرايزين في أعلى الدَّرَج الخارجِي.

عندما تحدّث الأسمر، رفع الشاب الضخم الجالس على الدرجة السفلى رأسه إلى إيميت وعلى وجهه خليط من الاندهاش والترحاب.

سأله: -هل جئت إلى هنا لكي تُضرب أنت الآخر؟

وإذ بدأ يهتز بضحكة صامتة، انفتح باب المبنى وخرج تاونهاوس.

قال بابتسامة: -طَيِّب، طَيِّب. قولوا لي إن هذا ليس مستر إيميت واطسن!

-هيه يا تاونهاوس.

توقف تاونهاوس لبرهة لكي يحدق في الأسمر، الذي كان يسد الطريق أمامه جزئيًا. عندما تزحزح جانبًا على مضض، نزل تاونهاوس الدَّرَج وأمسك بيد إيميت.

-سعيد برؤيتك.

-وأنا أيضًا سعيد برؤيتك.

-عرفت أنهم أطلقوا سراحك قبل بضعة أشهر.

-بسبب أبي.

أوما تاونهاوس وقد ارتسم تعاطف علي وجهه.

كان الأسمر يتابع حديثهما ووجهه متعكر.

سأل: -من هذا إذا؟

قال تاونهاوس من دون أن ينظر وراءه: -صديق.
-لا بُد أن سالينا تلك كانت مرتعًا للصدقات.
هذه المرة نظرَ تاونهاوس إلى الورااء.
-اخرس يا موريس.

للحظة، أخذ موريس يحدق في عيني تاونهاوس، ثم حوّل أنظاره إلى الشارع بطريقته المتعكّرة بينما هز الضحوك رأسه.
قال تاونهاوس لإيميت: -هيا نتمشى.

سارا معًا، ولم ينطق تاونهاوس بكلمة. عرفَ إيميت أنه ينتظر الابتعاد مسافةً عن الآخرين. لذا لم ينطق هو الآخر إلى أن انعطفا حول الناصية.
-لا يبدو أنك فوجئت برؤيتي.

-لم أفاجأ. دوقة كان هنا بالأمس.
أوماً إيميت برأسه.

-عندما سمعتُ أنه ذهب إلى هارلم، قلت إنه جاء لزيارتك. ماذا أراد؟
-أرادني أن أضربه.

توقف إيميت واستدار لتاونهاوس، فتوقف تاونهاوس واستدار هو الآخر. لبرهة، وقف الاثنان يتبادلان الأنظار من دون كلمة -شابّان من عريقين ونشأتين مختلفتين، لكن بتركيبة الدماغ نفسها.
-أرادك أن تضربه؟

رد تاونهاوس بصوت خفيض، وكأنه يقول سرًّا، ولو أن أحدًا لم يكن في مرمى السمع: هذا ما أراده يا إيميت. سيطرت عليه تلك الفكرة أنه مدينٌ لي بشيء ما -بسبب الجلد الذي تلقّيته من أكرلي- وإني إذا ناولته بضع لكلمات سنصير متعادلين.

-وماذا فعلتَ؟

-ضربته.

نظر إيميت إلى صديقة بقدر من التفاجؤ.

-لم يعطني فرصة. قال إنه جاء كل ذلك الطريق من أعالي المدينة لكي يسوي الحساب، وقال بوضوح إنه لن يغادر إلى أن يُسوّى. ثم عندما

ضربته، أصرَّ أن أضربه ثانيةً. مرَّتين. استقبل كل الضربات الثلاث في وجهه من دون أن يرفع قبضتيه حتى، أمام الدَّرَج الذي كنا نقف عنده قبل دقيقة، وأمام أعين الأولاد.

أشاح إيميت برأسه عن تاونهاوس وهو يفكر. لم يَفُته أنه قبل خمسة أيام كان قد تلقى ضربًا مشابهًا لتسوية حسابه الخاص. لم يكن إيميت مبالًا للخرافات. لا يتفائل بعشبة البرسيم رباعية الأوراق ولا يخاف من القطط السوداء. لكن فكرة أن يتلقى دوقة ثلاث لكلمات أمام جَمهرة من الشهود تركت في نفسه توجسًا غريبًا. بيد أن ذلك لم يغير ما يلزم إنجازه. عاد إيميت ينظر إلى تاونهاوس.

-هل قال أين يقيم؟

-لا.

-هل قال أين سيكون؟

توقف إيميت لبرهة، ثم هز رأسه.

-لم يقل. لكن اسمع يا إيميت، إذا كنت مصممًا على العثور على دوقة، ينبغي أن تعرف أنك لست الوحيد الذي يلاحقه.

-ماذا تقصد؟

-كان هنا شرطيان ليلة أمس.

-لأنه هرب هو ووولي؟

-ربما. لم يقولوا. لكن اهتمامهما كان منصبًا على دوقة أكثر من وولي بكل تأكيد. وراودني إحساس بأن الأمر لا يقتصر، ربما، على مطاردة ولدين قفزا من فوق السور.

-شكرًا لأنك أخبرني.

-بالتأكيد. لكن قبل أن تذهب، لدي شيء ستريد رؤيته.

قاد تاونهاوس إيميت لمسافة ثمانية نواص إلى شارع بدا هسبانيًا أكثر منه أسود -حيث دُكَّانة «بوديغا»⁽¹⁾ وثلاثة رجال يلعبون الدومينو على

(1) بوديغا: محل بقالة صغير، خاصة في الأحياء الهسبانية في نيويورك. (م)

الرصيف بينما تعزف في الراديو نَمرة لاتينية راقصة. في نهاية الشارع، توقف تاونهاوس أمام سمكري سيارات. استدار إليه إيميت.

-هل هذه ورشة السِّمكرة؟

-هي.

كانت الورشة مملوكة لرجل اسمه غونزاليس، انتقل إلى نيويورك من جنوب كاليفورنيا بعد الحرب، بصحبة زوجته وولديه -توأمين عُرفا في الحي باسم باكو وبيكو. منذ سن الثامنة عشرة، أخذهما غونزاليس للعمل في الورشة بعد المدرسة -ينظفان الأدوات، يكنسان الأرضيات، ويُخرجان القمامة- لكي يفهما كيف يكسب الإنسان الدولار بشرف. فهم باكو وبيكو ذلك جيداً. وعندما بلغا السابعة عشرة وكُلِّفا بمسؤولية إغلاق الورشة في نهاية الأسبوع، بدأ عملاً خاصاً بهما.

كانت معظم السيارات تدخل الورشة بسبب رَفَرٍ سائب أو انبعاث في الباب، لكن بخلاف ذلك، لا يعيها شيء. لذا في أيام السبت، بدأ الأخوان يؤجِّران السيارات في الورشة لصَيَّان الحي مقابل بضعة دولارات في الساعة. عندما كان تاونهاوس في السادسة عشرة، دعا فتاة اسمها كلاريس للخروج، كانت أجمل فتاة في الصف الحادي عشر. وعندما وافقت، اقترض تاونهاوس خمسة دولارات من أخيه واستأجر سيارة من التوأمين. كانت خطته أن يوضِّب بعض لوزام النزهة ويقود كلاريس إلى ضريح غرانت⁽¹⁾، حيث يوقفان السيارة تحت أشجار الدردار في بقعة مظلة على نهر هدسون. لكن لِحَظَّهُ، كانت السيارة الوحيدة المتاحة لدى التوأمين تلك الليلة بويك سكايلارك مكشوفة مطليَّة بالكروم. بدت السيارة رائعة إلى حدٍّ أنها كانت ستصير جريمة أن تجعل فتاة مثل كلاريس تجلس في المقعد الأمامي ويقضيان المساء في مراقبة الصنادل وهي تُدفع في النهر.

(1) غرانت: المقصود الجنرال يوليسيس غرانت، قائد جيش الاتحاد سالف الذكر، والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة، الذي ظنَّ يوليسيس أنه سُمي على اسمه.

عوضًا عن ذلك، أنزل تاونهاوس السقف، وأدار المذراع، وراح يقود السيارة بفتاته ذهابًا وإيابًا في شارع 125.

ذات ليلة، وهما في سالاينا، راقدان في سريريهما في الظلام، قال تاونهاوس: آه لو رأيتنا. أنا أرتدي بدلة أحد الفصح، الزرقاء مثل السيارة تقريبًا، وهي في فستان أصفر فاتح مكشوف جدًا من الخلف حتى إنك تستطيع رؤية نصف عمودها الفقري. تلك السكايلارك كانت تنطلق من سرعة صفر إلى سرعة ستين في أربع ثوانٍ فقط، لكنني قدتها بسرعة عشرين ميلًا في الساعة لكي نستطيع التلويح لكل من نعرفه، بل ولبعض ممّن لا نعرفهم. نسير هناك في شارع 125، نمُرُّ بكل أولئك المتأنقين الواقفين أمام فندق ثيريسا ومسرح الأبوللو ونادي شومان للجاز؛ وعندما نصل إلى بروودواي، أدور بالسيارة وأرجع الطريق من أوله. وكل مرة نأخذ تلك اللقّة، تنزلق كلاريس لتقترب مني أكثر قليلًا، إلى أن لم يعد بإمكانها الانزلاق أكثر.

في النهاية، كانت كلاريس هي من اقترحت أن يذهبا إلى ضريح غرانت لكي يقفا تحت أشجار الدردار، وهناك توقفًا، يستغلّان الظلال أفضل استغلال، عندما سطع مصباحا شرطين من رجال الدورية داخل السيارة. تبين أن صاحب السكايلارك واحد من أولئك المتأنقين أمام مسرح الأبوللو. وبالنظر إلى كل التلويح الذي ظل تاونهاوس وكلاريس يقومان به، لم يستغرق الأمر طويلًا من الشرطة قبل أن تعثر عليهما في المنتزه. بعد الفصل بين العاشقين الشائبين، قاد أحد الشرطين كلاريس إلى بيتها في السكايلارك بينما قاد الآخر تاونهاوس إلى مركز الشرطة في مؤخرة السيارة الأسود في أبيض.

كحدثٍ لم يسبق أن تورط في مشكلات من قبل، لعلهم كانوا سيطلقون سراح تاونهاوس بعد أن يعطوه كلمتين صارمتين لو كان قد سلم التوأمين. غير أن تاونهاوس لم يكن واثقًا. وعندما سأله الضباط كيف انتهى وراء عجلة قيادة سيارة لا يملكها، قال تاونهاوس إنه تسلل إلى مكتب مستر غونزاليس، وأنزل المفاتيح من الخطاف، وأخرج السيارة من مكانها عندما

لم يكن أحدٌ ينظر. لذا عوضًا عن الكلمتين الصارمتين، حصل تاونهاوس على اثني عشر شهرًا في سالاينا.
قال: -تعال.

عبرا الشارع، ومرًا بمكتب مستر غونزاليس الذي كان يتحدث في الهاتف، ودخلا منطقة الإصلاح. في الموقف الأول كانت سيارة شيفروليه مؤخرتها مطبّقة إلى الداخل، بينما في الثاني سيارة «بويك رودماستر» بغطاء محرّك منبعج، وكأن السيارتين تصادمتا في الحادث نفسه، واحدة من الأمام وواحدة من الخلف. في مكان ما بعيدًا عن الأنظار، سمعا مذياعًا يذيع نمرّة راقصة بدت في أذن إيميت مطابقة للنمرة التي سمعها عندما مرّا بلاعبيّ الدومينو، وإن عرف أنها ليست كذلك على الأرجح.

نادى تاونهاوس بصوت أعلى من الموسيقى: -باكو! بيكو!
خرج الأخوان من وراء الشيفروليه، يرتديان أفروكّين متسخين، ينظفان أيديهما في خرقتين.

إذا كان باكو وبيكو توأمين، ما كنتَ تخمّن ذلك من النظرة الأولى -إذ كان الأول طويلًا ورفيعًا منكوش الشعر، والثاني قصيرًا متينًا وحليقًا. فقط عندما انفرجت شفاههما عن ابتسامتين واسعتين وانكشفت أسنانهما البيضاء أظهر الشّبّه الأسري.

قال تاونهاوس: -هذا هو الصديق الذي حكيت لكما عنه.
استدار الأخوان إلى إيميت، ومنحاه نفس الابتسامة الواسعة بارزة الأسنان. ثم أشار باكو بيده تجاه الطرف البعيد من الكراج.
-إنها هناك.

تبّع إيميت وتاونهاوس الأخوين مرورًا بالرودماستر وحتى الموقف الأخير، حيث كانت سيارةٌ تحت غطاء. معًا، سحب الأخوان الغطاء ليكشفوا الستاديبكر السماوية الفاتحة.

قال إيميت متفاجئًا: -إنها سيارتي.
وقال تاونهاوس: -صحيح.
-كيف وصلت إلى هنا؟

-دوقة تركها.

-هل تعمل جيداً؟

قال باكو: -نوعاً ما.

هز إيميت رأسه. لم يفهم ماذا، ومتى، وكيف اختار دوقة أن يفعل ما فعله. لكن ما دامت السيارة قد عادت إلى حوزة إيميت وفي حالة جيدة، فلماذا يشغل نفسه بخيارات دوقة؟

قام إيميت بدورة سريعة، وأسعده اكتشاف أن السيارة لم تُصَب بانبعاجات أكثر من تلك التي كانت فيها عندما اشتراها. لكن عندما فتح الصندوق، لم يجد حقيبة العُدّة. والأهم من ذلك، عندما رفع قطعة اللباد التي تغطي الإطار الاحتياطي، لم يجد المظروف أيضاً.

سأل تاونهاوس: -كل شيء على ما يرام؟

قال إيميت وهو يغلق الصندوق بطاقة هادئة: - نعم.

سار إيميت باتجاه مقدمة السيارة، وألقى نظرة من نافذة السائق، ثم استدار إلى باكو.

-هل المفاتيح معك؟

لكن باكو استدار إلى تاونهاوس.

قال تاونهاوس: -إنها معنا. لكن هناك شيء آخر يجب أن تعرفه.

قبل أن يتمكن تاونهاوس من التوضيح، تعالت صرخة غضب من الجانب الآخر من الكراج.

-ما الذي يحدث هنا بحق اللعنة!

ظن إيميت أنه لا بُدّ من مستر غونزاليس، وقد انزعج أن ولديه تركا أعمالهما، لكن عندما استدار رأى الفتى المسمى مورييس يتقدم باتجاههم بخطوات سريعة.

-ما الذي يحدث هنا بحق اللعنة!

كررها مورييس، ولو ببطء أكثر، وهو يضغط على كل كلمة.

بعد أن غمغم تاونهاوس لإيميت أنه ابن عمه، انتظر تاونهاوس وصول

موريس إليهم قبل أن يتنازل بالرد: ما الذي يحدث بحق اللعنة في ماذا يا موريس؟

-أوتيس قال إنك ستسَلِّم المفاتيح، ولم أَسْتَطِع أن أصدق.

-طَيِّب، الآن تستطيع.

-لكن السيارة ملكي أنا.

-لا شيء فيها ملكك.

نظر موريس إلى تاونهاوس بتعبير المذهول.

-لقد كنتَ هناك بنفسك عندما أعطاني المخبول المفاتيح.

قال تاونهاوس: -موريس، لقد ظللتَ تثير جنوني طوال الأسبوع وقد اكتفيتُ من ذلك. لذا، لماذا لا تهتم بشؤونك قبل أن آتي أنا وأهتُمُ بها. أطبق موريس أسنانه، وحقق في تاونهاوس للحظة، ثم استدار ومضى في طريقه.

هز تاونهاوس رأسه. كاستخفاف أخير بابن عمه، رسم على وجهه تعبير من يحاول تذكر الشيء المهم الذي كان يقوله قبل أن يُقَاطِع على نحو لا لزوم له. حفَّزه باكو: -كنت ستخبره بأمر السيارة.

بإيماءة تذكر من رأسه، عاد تاونهاوس يستدير إلى إيميت.

-عندما أخبرتُ الشرطة ليلة أمس أنني لم أر دوقه، لا بُد أنهم لم يصدقوني. لأنهم عادوا صباح اليوم، وأخذوا يطرحون الأسئلة في طول الشارع وعرضه. من قبيل إن كان أحدُ رأى زوجين من الصَّبيَّة البيض يتسكعان أمام مدخل بيتي، أو يتحركان في الحي في سيارة ستادبيكر سماوية فاتحة...

أغمض إيميت عينيه.

قال تاونهاوس: -صحيح. أيًا كانت المشكلات التي ورَّط دوقه نفسه فيها، يبدو أنه كان في سيارتك عندما تورَّط فيها. وإذا كانت سيارتك متورَّطة، فسوف ينتهي رجال الشرطة إلى التفكير في أنك متورَّط أيضًا. هذا هو السبب الذي جعلني أخبئها هنا بدلًا من تركها في الشارع. لكن السبب الآخر هو أن الأخوين غونزاليس فنانون في الطلاء. صحَّ يا أولاد؟

أجاب بيكو، متكلمًا للمرة الأولى: -لوس بيكاشوس⁽¹⁾.
قال بيكو: -بعد أن تنتهي منها، حتى أمّها لن تعرفها.
ضحك الأخوان، لكنهما توقفا عندما لم ينضم إليهما لا إيميت ولا
تاونهاوس.

سأل إيميت: -كم ستحتاج من وقت؟
تبادل الأخوان النظرات، ثم هز باكو كتفيه.
-إذا بدأنا غدًا وقطعنا شوطًا جيدًا، يمكن أن تصير جاهزة بحلول...
صباح الاثنين؟

قال بيكو، وهو يهز رأسه موافقًا: -سي. إل لونيس⁽²⁾.
تأخيرًا آخر، فكر إيميت. لكن لما كان المظروف مفقودًا، لن يستطيع
مغادرة نيويورك قبل العثور على دوقه بأيّ حال. وتاونهاوس محق بشأن
السيارة. إذا كانت الشرطة تبحث بهمة عن ستاديبكر زرقاء فاتحة، فلا
معنى لقيادتها.

قال إيميت: -يوم الاثنين إذاً. وشكرا الكما.
خارج الكراج، عرض تاونهاوس أن يسير مع إيميت إلى محطة قطار
الأنفاق، لكن إيميت أراد أن يعرف شيئًا أولًا.
-عندما كنا أمام مدخل بيتك وسألتك عن مكان دوقه، ترددت -مثل
شخص يعرف شيئًا لا يريد أن يعترف بمعرفته. إذا كان دوقه قد أخبرك إلى
أين سيذهب، أريدك أن تخبرني.

أطلق تاونهاوس زفرة، وقال: -اسمع، أعرف أنك تحب دوقه يا إيميت.
وأنا أيضًا. إنه صديق مخلص بطريقته المجنونة الخاصة، وهو أحد أمتع
المتفوهين بالثرهات الذين سررت بمعرفتهم في حياتي. لكنه أيضًا يشبه
أولئك الذين ولدوا من دون قدرة على الرؤية المحيطية. يستطيع أن يرى
كل شيء يقع أمامه مباشرة، يراه بوضوح أكثر من معظم الناس، لكن لحظة

(1) لوس بيكاشوس: مثل «بيكاسو»، بالإسبانية. (م)

(2) سي. إل لونيس: «نعم، الاثنين»، بالإسبانية. (م)

أن ينزاح شيءٌ ما إلى اليسار أو إلى اليمين بوصّةٍ واحدة، لا يعود يدرك أنه هناك أصلاً. وهذا يمكن أن يوقعه في كل أنواع المشكلات. مشكلات له، ولكل من يقفون على مسافة بصقةٍ منه. كل ما أقوله يا إيميت، إنك الآن بعد أن وجدتَ سيارتك، ربما ينبغي عليك أن تترك دوقة لحاله.

قال إيميت: - لا شيءٌ سيجعلني أسعد من تركِ دوقة لحاله، لكن الأمر ليس بهذه البساطة. قبل أربعة أيام، ولحظةٍ كنا أنا وبيلي نستعد للتوجه إلى كاليفورنيا، انطلق هو وولي في الستادبيكر، وكانت تلك مشكلة في حد ذاتها. لكن أبي كان قد ترك لي قبل وفاته مظروفاً فيه ثلاثة آلاف دولار في صندوق السيارة. كان هناك عندما انطلقَ دوقة بها، والآن لم يعد هناك. قال تاونهاوس: - اللعنة.

أوماً إيميت برأسه.

- لا تُسئ فهمي. أنا سعيد باستعادة السيارة. لكنني أحتاج لتلك النقود. قال تاونهاوس، وهو يومئ برأسه مسلماً: - طيّب. لا أعرف أين يقيم دوقة. لكنه قبل أن يغادر أمس، حاول إقناعي بالذهاب معه هو وولي إلى «السيرك».

-السيرك؟

-بالضبط. في «رد هوك». في شارع كونوفر بجوار النهر مباشرة. دوقة قال إنه سيكون هناك الليلة لحضور عرض الساعة السادسة.

وإذ سار الاثنان من ورشة السمكرة إلى محطة قطار الأنفاق، اختار تاونهاوس الطريق الطويل الملتف لكي يفرّج إيميت على المعالم. لا معالم هارلم، لكن معالم محادثاتهما. الأماكن التي جاءت سيرتها في سياق حواراتهما في الأيام الخالية، التي ذُكرت وهما يعملان جنباً إلى جنب في الحقول أو يرقدان على سريرهما في الليل. مثل المبنى السكني في جادة لينوكس حيث ربّى جدّه حمّاماً على السطح، السطح الذي سُمح له ولشقيقه بالنوم فوقه في ليالي الصيف الحارة. والمدرسة الثانوية التي كان فيها تاونهاوس نجمَ دفاع في البيسبول. وفي شارع 125، حظي إيميت بلمحة عن ذلك الشطر الحيوي من الطريق الذي سار عليه تاونهاوس وكلاريس ذهاباً وإياباً في ليلة سَبَّتهما المشؤومة.

عندما غادر إيميت نبراسكا، لم يندم على شيء تقريبًا. لم يندم على مغادرة بيته أو ممتلكاته. لم يندم على مغادرة أحلام أبيه أو قبر أبيه. وعندما قطع تلك الأميال القليلة الأولى من طريق لينكون، استمرَّ الإحساس بأنه يضع مسافة بينه وبين مسقط رأسه، حتى وإن كان ماضيًا في الاتجاه الخطأ. لكن وهما يسيران عبر هارلم وتاونهاوس يشير إلى معالم شبابه، تمنَّى إيميت لو استطاع الرجوع إلى مورغن، ولو ليوم واحد، برفقة صديقه، لكي يشير له إلى معالم حياته، معالم القصص التي كان قد حكّاها له تزجية للوقت. مثل الطائرات التي بذل جهدًا كبيرًا في تجميعها والتي لا تزال معلقة فوق سرير بيلي؛ والبيت ذي الطابقين في شارع ماديسون، أول بيت ساعد في بنائه كمُستخدم لدى مستر شولتي؛ والأرض الواسعة، القاسية، التي ربما قهرت والده، لكنها لم تفقد جمالها قط في عينيه. ونعم، كان سيفرّج تاونهاوس على ساحة المعارض أيضًا، تمامًا مثلما فرّج تاونهاوس من دون خجل أو تردد على الشطر الصاخب من الطريق الذي قاده إلى سقوطه.

عندما وصلا إلى محطة الأنفاق، تبع تاونهاوس إيميت إلى الداخل وظل معه حتى وصلا إلى بوابات الدخول الدوّارة، قبل افتراقهما، وكأنها فكرة راودته للتوّ، سأل إيميت إن كان يريد أن يأتي معه تلك الليلة - عندما يذهب للبحث عن دوق.

ردّ إيميت: - لا بأس. لا أتخيل أنه سيسبب لي أي مشكلة.

واتفق معه تاونهاوس: - لا، صحيح. على الأقل ليس عن قصد.

بعد لحظة، هز تاونهاوس رأسه وابتسم.

-دوق تأتيه أفكار مجنونة في رأسه، لكنه كان محققًا في شيء واحد.

سأل إيميت: - وما هو؟

-لقد شعرتُ فعلاً بارتياح عندما ضربتُه.

سالي

عندما تحتاجين إلى مساعدة رجل، لن تجديه غالبًا. لقد ذهب للاعتناء بأمر أو آخر كان يمكن الاعتناء به ببساطة غداً بدلاً من اليوم؛ أمر تصادف وقوعه على بعد خمس خطوات خارج مرمى السمع. لكن عندما لا تريدينه في الجوار، لن تجدي سبيلاً لإبعاده.

مثل والدي في هذه اللحظة بالذات.

ها نحن يوم الجمعة في الثانية عشرة والنصف، وهو يقطع شريحة الدجاج المقلي كأنه جرّاح وحياة المريض تعتمد على كل حركة من السكين. وعندما نظّف صحنه في النهاية وتناول فنجانين من القهوة، للمرة الأولى منذ زمن بعيد، طلب فنجاناً ثالثاً. أحذره: سيكون عليّ تخمير دورق آخر.

يقول: عندي وقت.

لذا أرمي ثفل القهوة في القمامة، وأشطف الدورق، وأملأه من جديد، وأضعه على الموقد، وأنتظر إلى أن يغلي، وأنا أفكر كم هو أمر لطيف في هذا العالم الذي لا يرحم أن يكون لدى المرء وقت فراغ طويل هكذا، يقضيه كيفما أراد.

ظل أبي، منذ بدأت أتذكر، يذهب إلى البلدة بعد ظهر الجمعة كي ينجز مهامه. فور الانتهاء من تناول الغداء، يصعد إلى شاحنته وقد ارتسمت نظرة إصرار على وجهه وينطلق إلى متجر المعدات، ومتجر الأعلاف، والصيدلية. ثم قرابة الساعة -في وقت العشاء بالضبط- يتوقف في مدخل سيارات بيتنا ومعه أنبوب معجون أسنان، وعشر كيلات من الشوفان، وزرّادية جديدة.

كيف بحق الأرض والشجر، قد تتسائلين، يستطيع الرجل أن يحوّل مهامًا تستغرق عشرين دقيقة إلى سَفرة تطول خمس ساعات؟ طيّب، هذا سؤال سهل: عن طريق الثروة. طبعًا يثرثر مع مستر وورتل في متجر المعدات، ومع مستر هورتشو في متجر الأعلاف، ومع مستر دانزيغر في الصيدلية. لكن الثروة ليست مقصورة على أصحاب المحلات. إذ بعد ظهر الجمعة، يجتمع في كل من تلك المؤسسات حشد من منجزي المهام المحنّكين لكي يتنبأوا بالطقس، والحصاد، والانتخابات المحلية.

في تقديري، تُنفق ساعة كاملة في تبادل التكهّنات في كل من تلك المتاجر، لكن الواضح أن ثلاث ساعات لا تكفي. لأنه بعد التنبؤ بمُخرجات كل مجهولات اليوم التي لا سبيل لمعرفة، سيأوي مجلس الحكماء إلى حانة ماكفرتي، حيث يستطيعون تداول الآراء لساعتين أخريّين في رفقة زجاجات البيرة.

أبي مخلوق من مخلوقات العادة، لذا، مثلما أقول، ظل هذا يحدث منذ بدأت أتذكر. ثم فجأة منذ نحو ستة أشهر، عندما أنهى والذي غداه ودفع كرسيه إلى الخلف، عوضًا عن الاتجاه مباشرة إلى باب شاحنته، صعد إلى الطابق العلوي ليغير ملابسه ويرتدي قميصًا أبيض نظيفًا.

لم يلزمني وقت طويل لكي أتبين أن امرأة قد شقّت طريقها عليّ نحو ما إلى داخل روتين أبي. خاصة مع شغفها بالعطور، ومع كوني مكلفه بغسل ملابسه. لكن ظلت أسئلة: من هذه المرأة؟ وأين بحق الأرض قابلها؟

لم تكن من رعيّة الأبرشية، كنت متأكدة من ذلك. ففي صباحات الأحد عندما كنا نخرج في طابور من القدّاس إلى المرحلة الصغيرة أمام الكنيسة، لم تُعن أيّ امرأة -متزوجة أو غير متزوجة- بإعطائه تحية محسوبة أو نظرة مرتبكة. كذلك لم تكن إستر التي تُمسك الحسابات في متجر الأعلاف، لأنها لا تستطيع التعرف على زجاجة عطر حتى لو سقطت من السماء فوق رأسها. كان يمكن أن أظنها إحدى النساء اللاتي يزرن حانة ماكفرتي من حين إلى آخر، لكن فور أن بدأ أبي يغيّر قميصه، توقّف عن العودة إلى البيت برائحة بيرة في أنفاسه.

طَيِّب، إذا لم يكن قابلها في الكنيسة، ولا في المتاجر، ولا في البار، فلن أعرف أين قابلها. لذا لم يكن أمامي إلا أن أراقبه.

في الجمعة الأولى من مارس، صنعتُ قدرًا من اليخنة الحارة كيلا أشغل نفسي بطبخ العشاء. بعد أن قدمت الغداء لأبي، راقبته من طرف عيني وهو يخرج من الباب في قميصه الأبيض النظيف، ويصعد إلى شاحنته، ويخرج من المدخل. فور أن صار على مبعدة نصف ميل في الطريق، اختطفْتُ قبة عريضة الحواف من الخزانة، وقفزتُ في «بيتي»، وانطلقت أنا الأخرى.

كالمعتاد، توقف أولاً عند متجر المعدات، حيث أنجز شأنًا ما وقضى ساعة في صحبة رجال يشبهونه في التفكير. بعدها اتجه إلى متجر الأعلاف ثم إلى الصيدلية، حيث كان شأنٌ صغير آخر والكثير من قضاء الوقت. في كل من تلك الوقفات ظهر بضع نساء لكي ينجزن شأنًا صغيرًا خاصًا بهن، لكنه إن تحدث إلى أيٍّ منهن، فلم يتبادل معها أكثر من كلمتين.

لكن بعدها في الساعة الخامسة، عندما خرج من الصيدلية وصعد إلى شاحنته، لم يأخذ شارع جيفرسون في طريقه إلى ماكفري. بدلًا من ذلك، بعد أن تجاوز المكتبة، انعطف يمينًا في شارع السَّرو، ثم يسارًا في شارع آدمز، وتوقف بمحاذاة الرصيف المقابل لبيت أبيض صغير له ستائر خشبية زرقاء. بعد أن جلس لدقيقة، خرج من الشاحنة، وعبر الشارع، وطرق الباب الشبكي.

لم يضطر للانتظار أكثر من لحظة كي تُجاب طرquete. واقفةً هناك في إطار الباب كانت أليس طومسون.

في رأيي، لا يمكن أن تكون أليس تجاوزت الثامنة والعشرين من العمر. كانت أكبر من أختي بثلاث سنين دراسية وكانت تتبع الطائفة الميثودية، لذا لم يكن لديَّ سبب لمعرفتها جيدًا. غير أنني عرفت ما يعرفه الجميع: إنها تخرجت في جامعة ولاية كانساس، ثم تزوجت من رجل من توبيكا قُتل في كوريا. كأرملة من دون أطفال، رجعت أليس إلى مورغن في خريف عام 1953 والتحقت بوظيفة صرَّافة في «بنك الادخار والتسليف».

لا بُد أن الأمور حدثت هناك. لم يكن الذهاب إلى البنك جزءاً من روتين أبي يوم الجمعة، لكنه كان يمر به يوم الخميس كل أسبوعين لكي يسحب الأجور من أجل الأولاد. ولا بُد أن الأمر انتهى به في أحد الأسابيع عند شبّاكها وفتّنته نظرتها الحزينة. تخيّلته في الأسبوع التالي يختار مكانه بحرص في الطابور لكي ينتهي عند شبّاكها بدلاً من شبّاك إدفالور، ثم يبدل قصارى جهده لإقامة حوار صغير بينما تحاول عدّ النقديّة.

وأنا جالسة في «بيتي» أحدّق في البيت، ربما تظنّيني كنتُ مضطربة، أو غاضبة، أو ساخطة لأن أبي طرح ذكريات أمي لكي يتودد إلى امرأة في نصف عمره. طيّب، تخيلي كما تريد، لن يكلفك ذلك شيئاً، وسيكلفني أقل. لكن في وقت لاحق من تلك الليلة، بعد أن قدمتُ اليخنة الحارة، ونظفت المطبخ، وأطفأت الأنوار، ركعت إلى جوار سريرى، وشبّكت يديّ معاً، وصليت. قلت: يا ربي العزيز، من فضلك أنعم على أبي بالحكمة لكي يكون رؤوفاً، وبالحنان لكي يكون كريماً، وبالشجاعة لكي يطلب يد هذه المرأة لرباط الزواج المقدس - لكي يأتي شخصٌ آخر يطبخ وينظف له من باب التغيير.

كل ليلة على مدار الأسابيع الأربعة التالية، كنت أصلي هذه الصلاة. لكن بعدها، في الجمعة الأولى من أبريل، لم يرجع أبي إلى البيت في السابعة لتناول العشاء. لم يرجع إلى البيت وأنا أنظف المطبخ أو أدخل الفراش. ثم في منتصف الليل تقريباً سمعته يتوقف في المدخل. فتحتُ فرجة في الستائر، فرأيت شاحنته واقفة بزاوية خمسة وأربعين درجة ومصابيحها لا تزال مضاءة وهو يتمايل في مشيته إلى الباب. سمعته يتجاوز العشاء الذي تركته له ويصعد السلم متعثراً.

يقولون إن الرب يجيب كلّ دعاء. فقط، يجيبه بالفرض أحياناً. وأظنه قد أجاب دعائي بالفرض. لأنني في الصباح التالي، عندما أخذتُ قميصه من سلّة الغسيل، شممتُ رائحة ويسكي، لا عطر.

أخيراً، في الثانية إلا ربع وصل أبي إلى ثمالة قهوته ودفع كرسيه إلى الوراء.

-طيب، أظن من الأفضل أن أنطلق.
قالها، ولم أجادله.

فور أن صعد إلى شاحنته وخرج من المدخل، نظرتُ إلى الساعة فرأيت أن أمامي خمسًا وأربعين دقيقة فقط. لذا غسلتُ الأطباق، ورتبت المطبخ، وجهزت الطاولة. وعندها حلت الساعة الثانية. خلعت مريّتي، ومسحت جبیني وجلست على الدرجة السفلية من الدّرج، حيث يهب نسيم رقيق دائماً في العصريّات، وحيث أستطيع سماع الهاتف عندما يرُن في مكتب أبي.

وهناك ظللت جالسة للنصف الساعة التالية.

نهضتُ، وسويت ثُورتِي وعدت إلى المطبخ. جعلت أعاينه ويدي في خصري. كان يلمع من النظافة والنظام: الكراسي مُدرّجة في أماكنها؛ والمنضدة ممسوحة؛ والأطباق مصفوفة بانتظام في خزاناتها. لذا شرعت في صنع فطيرة دجاج مع الخضروات. عندما انتهيت من ذلك، نظفت المطبخ ثانية. ثم، حتى واليوم لم يكن سبتًا، أخرجت المكنسة الكهربائية من دولاّب التخزين وشرعت أكنس السجاجيد في غرفة المعيشة والصالة. هممتُ بأن أحمل المكنسة إلى الطابق العلوي لأنظف غرف النوم عندما خطر لي أن الصخب الذي تصنعه المكنسة قد يمنعني من سماع الهاتف من الطابق العلوي. لذا أعدت المكنسة إلى الدولاّب.

لبرهة، وقفتُ مكاني أحرق فيها، متكّومة على نفسها على أرضية الدولاّب، وأنا أتساءل أيّنا صُمّم لخدمة الآخر. ثم صفعتُ الباب، وذهبت إلى مكتب والدي، وجلست في كرسيه، وأخرجت سجلّ هاتفه، وبحثت عن رقم الأب كولمور.

إيميت

عندما خرجا من المحطة إلى شارع كارول، عرف إيميت أنه أخطأ
باصطحاب أخيه.

كانت غرائزه قد حذّرتَه من ذلك. لم يستطع تاونهاوس تذكّر عنوان
السيرك بالضبط، لذا سيكون عليه غالبًا أن يلف ويدور قبل أن يجده.
وعندما يدخل، سيتوجب عليه العثور على دوقه وسط الزحام. وعندما
يعثر على دوقه، يظل هناك الاحتمال، حتى إذا كان بعيدًا، ألا يسلمه دوقه
المظروف من دون كثير من اللغو والهراء. إجمالًا، كان من الحكمة لو
ترك بيلي في رعاية يوليسيس - في الأمان. لكن كيف تخبر صبيًا في الثامنة
من عمره أراد طيلة حياته أن يذهب إلى السيرك أنك ذاهب إلى هناك من
دونه؟ لذا في الساعة الخامسة، نزلا من السكة العالية على السلم الحديدي
واتجها إلى قطار الأنفاق معًا.

في البداية، استمدّ إيميت بعض العزاء من معرفته للمحطة الصحيحة،
والرصيف الصحيح، والقطار الصحيح، بعد أن قطعَ الرحلة إلى بروكلين
من قبل، وإن بالخطأ. لكن في اليوم السابق، عندما حوّل من القطار المتجه
إلى بروكلين إلى القطار المتجه إلى مانهاتن، لم يكن قد غادر المحطة.
لذا فقط عندما خرجا من محطة شارع كارول راود إيميت إحساس بمدى
خشونة هذا الجزء من بروكلين. وبينما يشقان طريقهما وسط حي غوانوس
إلى «رد هوك»، بدا أن الأمور لا تزداد إلا سوءًا. وسرعان ما هيمن على
المشهد صف طويل من مستودعات بلا نوافذ، يقطعها فندق رديء أو بار
من حين لآخر. لم يبدو حيًا يليق بسيرك، إلا إذا كانوا قد نصبوا خيمةً على
رصيف المرفأ. لكن مع ظهور النهر في المشهد، لم تبدُ أيُّ علامة على
خيمة، ولا رايات، ولا سرادقات.

همَّ إيميت بالاستدارة والعودة عندما أشار بيلي عبر الشارع إلى مبنى ليس فيه ما يميزه، به نافذة صغيرة ساطعة الإضاءة.
تبَيَّن أنه مقصورة تذاكر يحتلها رجل سبعيني.
سأله إيميت: هل هذا هو السيرك.
قال الشيخ: لقد بدأ العرض المبكر، لكن الرأس بدولارين على أي حال.

عندما أعطاه إيميت النقود، دفع الشيخ التذكرتين على المنضدة بلا مبالاة شخص ظل يدفع التذاكر على المنضدة طيلة حياته.
ارتاح إيميت عندما وجد البهو منسجماً مع توقعاته بصورة أفضل.
كانت الأرض مغطاة بسجادة حمراء داكنة والجدران مطليةً بصورٍ للاعبين أكروبات وفيلة وأسد فاغر فكَّيه. ورأى أيضاً ركناً للمرطبات يبيع الفشار والبيرة، وحاملاً عليه لوحة كبيرة تعلن عن الفعالية الرئيسية: الأختان سائر المذهلتان من سان أنتونيو، تكساس!!
وإذ أعطى إيميت التذكرتين للمرشدة في الزي الرسمي الأزرق، سأَلها أين يجلسان.

-في أيِّ مكان تحبان.
ثم بعد أن أعطت بيلي غَمْزة من عينها، فتحت الباب وقالت لهما أن يستمتعا بالعرض.

في الداخل بدا المكان أشبه بحلبة روديو صغيرة بأرضية ترابية محاطة بمتراس بيضاوي وعشرين صفّاً من مقاعد الملاعب. في تقدير إيميت، كانت القاعة ممتلئة لربعها فقط، لكن مع الإضاءة المسلطة على الحلبة البيضاء، لم يكن من السهل تبَيَّن وجوه الجمهور.

فور أن جلس الأخوان على أحد المقاعد، أَعْتَمَت الإضاءة ووسطَعَ كَشَاف يضيء مُديرَ الحلبة. وفقاً للتقاليد، كان يرتدي مثل مسؤول جياذ في البلاط الملكي، بحذاء فروسية جلدي، وسترة حمراء فاتحة، وقبعة عالية. فقط عندما بدأ يتكلم أدرك إيميت أنه، في الحقيقة، امرأة تضع شارباً مستعاراً.

أعلنت في مكبر الصوت الأحمر الكبير: والآن، بعد أن رجعت من الشرق حيث فتت مهرابا الهند ورقصت لملك سيام، يفخر «السيرك» بأن يقدم لكم، الفنانة الفريدة من نوعها، دليلة! فور أن فردت ذراعها، انطلق الكشف عبر الحلبة وصولاً إلى بوابة في المتراس خرجت منها امرأة بالغة الضخامة في ثورة قصيرة وردية واسعة تقود دراجة أطفال بثلاث عجلات.

وإذ انفجر الجمهور في الضحك والهتافات الداعرة، ظهرت فقمتان تعمران خوذتي شرطة قديمتي الطراز مربوطتين إلى رأسيهما وشرعتا في النباح. انطلقت دليلة، وهي تدور حول الحلبة البيضاوية بسرعة محمومة والفقمتان في أعقابها والحشد يحرضهما. فور أن نجحت الفقمتان في محاصرة دليلة وإجبارها على الخروج من البوابة، استدارتا لتحية الجمهور وجعلتا تحنيان رأسيهما وتصفقان بزعانفهما.

بعدها، دخلت الحلبة راعيتا بقر -واحدة ترتدي ثوباً جلدياً أبيض وتعتمر قبة بيضاء على ظهر حصان أبيض، والثانية أسود في أسود. -الأختان سائر المذهلتان.

كذلك صاحت مديرة الحلبة عبر مكبر الصوت وهما تهرولان حول الساحة وتلوحان بقبعتيهما ردًا على هتافات الجمهور.

بعد أن دارت الأختان دورة كاملة حول الحلبة، بدأتا تؤديان سلسلة من الحركات البهلوانية. قادت كل منهما حصانها بسرعة معتدلة، وجعلتا تتأرجحان من أحد جانبي السرج إلى الجانب الآخر في تزامن مثالي. ثم زادتا من السرعة، وقفزت الأخت في الزي الأسود من فوق حصانها إلى حصان شقيقتها، ثم رجعت من جديد.

رفع بيلى رأسه إلى أخيه في استغراب وهو يشير إلى الحلبة.
-هل رأيت ذلك؟

قال إيميت مبتسمًا: رأيته.

لكن عندما عاد بيلى يحول انتباهه إلى العرض، استدار إيميت إلى

الجمهور. تجهيزًا لنمرة الأختين، كانت أضواء الحلبة قد رُفَعَت، ما سهَّل على إيميت معاينة وجوه الحشد. بعد أن أكمل المعاينة الأولى من دون جدوى، نظر إلى يساره مباشرة وبدأ يستقصي المدرجات البيضاء بطريقة أكثر منهجية، ناظرًا من صفٍّ إلى صفٍّ ومن ممرٍّ إلى ممرٍّ. لم يستطع إيميت العثور على دوقة، صحيح، لكنه لاحظ بقدر من الاستغراب أن معظم الجمهور من الرجال.

-انظر!

صاح بيلي، وهو يشير إلى الأختين، اللتين وقفتا الآن على ظهر حصانيهما وهما تركضان جنبًا إلى جنب. قال إيميت: نعم. إنهما ماهرتان جدًّا.

قال بيلي: لا. لا أقصد الفارستين. هناك وسط الجمهور. إنه وولي. تتبَّع إيميت إصبع بيلي، ونظرَ من فوق الساحة، وهناك في الصفِّ الثامن كان وولي، جالسًا بمفرده. كان إيميت قد صبَّ كامل تركيزه على دوقة، فلم يخطر له أن يبحث عن وولي. -أحسن يا بيلي. هيا بنا.

سار إيميت وبيلي في الممر الأوسط الواسع، الذي دار بهما حول الحلبة، إلى حيث جلس وولي بكيس فشار في حجره وابتسامة على وجهه. -وولي!

صاح بيلي وهو يركض الخطوات الأخيرة.

لدى سماع صوته، رفع وولي رأسه.

-ميرابل ديكتو!⁽¹⁾ ها هما إيميت وبيلي واطسن يظهران من العَدَم. يا مَحاسِن الصُّدَف! أيُّ تحوُّل في مجرى الأحداث! تفضلا، تفضلا.

(1) ميرابل ديكتو mirabile dictu: باللاتينية، بمعنى «يا للعجب!» أو «يا لها من معجزة»، وهي من مفردات فرجيل، يتعلمها عادة الأطفال في المدرسة الإعدادية عندما يدرسون اللغة اللاتينية. (م)

ومع أن المساحة كانت تكفي الجميع، انزلق بيلي على المقعد لكي يفسح مساحة أكبر.

سأل بيلي وهو يُنزل حقيبة ظهره: أليس عرضًا عظيمًا؟
واتفق معه وولي: صحيح. قطعًا وبكل تأكيد.
-انظر!

قالها بيلي وهو يشير إلى منتصف الحلبة، حيث كان أربعة مهرّجين يقودون أربع سيارات صغيرة.

مرًّا إيميت من وراء أخيه، وجلس عن يمين وولي.
-أين دوقة؟
-ما هذا؟

سأل وولي، من دون أن يرفع عينيه عن الأختين اللتين كانتا الآن تقفزان من فوق السيارات وتبعثران المهرّجين.
مال إيميت عليه أكثر.

-أين دوقة يا وولي؟
رفع وولي رأسه وكأنه لا يمتلك أدنى فكرة. ثم تذكّر.
-إنه في الصالون، ذهب لرؤية بعض الأصدقاء في الصالون.
-وأين الصالون؟

أشار وولي إلى طرف المسرح البضاوي.
-فوق السلالم وعبر الباب الأزرق.
-سأذهب لإحضاره. في هذه الأثناء، هل يمكن أن تتبه لبيلي.
قال وولي: بالطبع.

ثبّت إيميت عينيه على عيني وولي للحظة لكي يشدّد على أهمية ما طلبه للتوّ. واستدار وولي إلى بيلي.

-إيميت سيذهب لإحضار دوقة يا بيلي. لذا سينتبه كلُّ منّا على الآخر.
أوكيه؟
-أوكيه يا وولي.

استدار وولي إلى إيميت.

-أرأيت؟

قال وولي بابتسامة: طيّب. فقط لا تذهبا إلى أي مكان.

أوما وولي تجاه الحلبة.

-ولماذا نفعل؟

قفز إيميت من وراء وولي، ومضى في الممر الأوسط ثم صعد الدَّرَجَات

المؤدية إلى أعلى.

لم يكن إيميت من هواة السيرك. لم يكن من هواة العروض السحرية

أو عروض الروديو. لم يحب حتى الذهاب إلى مباريات كرة القدم في

مدرسته الثانوية، التي كانت كل البلدة تقريبًا تحضرها. ببساطة، لم يقتنع

قَطُّ بفكرة الجلوس وسط جمهور لمشاهدة شخص ما يفعل شيئًا أكثر

إثارة مما تفعله أنتَ نفسك. لذا عندما بدأ يصعد الدَّرَجَ وسمع الفرقة

المزدوجة للمسدَّسات اللعبة وصياح الجمهور، لم يُزعج نفسه بالنظر إلى

الوراء. وعندما فَتَحَ الباب الأزرق أعلى الدَّرَج وانطلقت فرقتان أخريان

من المسدَّسات أعقبهما هتافات أعلى وأعلى، لم ينظر إلى الوراء أيضًا.

لو نظر إيميت إلى الوراء، كان سيرى الأختين سائرَ تنطلقان في اتجاهين

متعاكسين وقد سَحَبَت كل منهما مسدَّسها. وإذا التقتا، كان سيرى كلاً منهما

تصوّب وتُطلق على قبعة أختها فتطيح بها من فوق رأسها. وإذا التقتا ثانية،

كان سيرى كلاً منهما تُطلق على قميص أختها فتطيح به -كاشفةً عن بطنين

عاريتين وحمّالتي صدرٍ من الدانتيل، واحدة سوداء، وواحدة بيضاء. ولو

انتظر بضع دقائق أخرى قبل أن يجتاز الباب، كان سيرى الأختين سائرَ

تُطلقان طلقات متعاقبة سريعة من مسدَّسيهما إلى أن صارت كل منهما

تُبرطع على ظهر حصانها عاريةً مثل الليدي غوديفا⁽¹⁾.

(1) الليدي غوديفا: وفقًا للأسطورة التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر، سيدة

نبيلة امتطت الحصان عارية، وغطّت شعرها الطويل بعض أجزاء من جسمها

عندما ارتدَّ الباب العلوي منغلَقًا وراء إيميت، وجد نفسه في طرف ممر طويل ضيق على جانبيه ستة أبواب، جميعها مغلقة. وإذ سار إيميت بطول الممر، بدأت الهتافات المكتومة المنبعثة من الجمهور تتراجع وسمع مقطوعة من الموسيقى الكلاسيكية تُعزَف على بيانو. كانت الموسيقى تتبعث من وراء الباب في نهاية الممر -بابٌ مرسوم عليه شعار كبير لجرس يشبه ذلك الذي تستخدمه شركة الهواتف. عندما وضع يده على المقبض، تباطأت المقطوعة الكلاسيكية ثم تحوَّلت بسلاسة إلى موسيقى «راغتايم» من تلك التي تُعزَف في الحانات⁽¹⁾.

فتح إيميت الباب ووقف على عتبة صالون فاخر كبير. كانت الغرفة، المؤلفة من أربعة أركان جلوس منفصلة على الأقل، مؤثثة بأرائك وكراس منجدة بقماش كثيف داكن اللون. على الطاولات الجانبية وُضعت مصابيح لها مظلات مزودة بشُرَّابات، وعلى الجدران عُلقَت لوحات زيتية لسفن. وعلى أريكتين متواجهتين، استلقت امرأتان عاريتان إلا من غلاطين رقيقتين، واحدة صهباء والأخرى سمراء، كلاهما تدخن سجائر نفّاذة الرائحة. بينما في آخر الغرفة، بالقرب من مشرب مزدان بنقوش معقّدة، انحنت شقراء في لفاف حريري على بيانو، تنقر بأصابعها على الخشب انسجامًا مع الموسيقى.

كل تفصيلة في المشهد فاجأت إيميت: الأثاث المخملي، اللوحات الزيتية، النساء شبه العاريات. بيد أن أكثر ما فاجأه عازف البيانو؛ كان دوق، في قميص أبيض أنيق ومكوي، وعلى رأسه قبعة فيدورا مائلة إلى الوراء. عندما نظرت الشقراء الواقفة بجوار البيانو لترى من الذي دخل من الباب، تتبّع دوقه نظرتها. وإذ رأى إيميت، أجرى أصابعه مرّة على طول

وجابت شوارع كوفنتري (غرب إنكلترا حاليًا) من أجل الحصول على عفو من الضرائب الجائرة التي فرضها زوجها على سكان كوفنتري. (م)

(1) الراغتايم: شكل مبكر من موسيقى الجاز. (م)

لوحه المفاتيح، وضربَ نعمة أخيرة، وقفز على قدميه وعلى وجهه ابتسامة واسعة.

-إيميت!

نظرت النساء الثلاث إلى إيميت.

سألت الشقراء في صوت طفولي تقريبًا: هل تعرفه؟

-هذا هو الشاب الذي كنت أحدثكنَّ عنه.

أدارت النساء الثلاث أنظارهن مرة أخرى إلى إيميت.

-تقصد الشاب من داكوتا الشمالية؟

وصحَّحت السمراء: نبراسكا.

بكسل أشارت الصهباء بسيجارتها إلى إيميت وعلى وجهها تعبير تفهُّم

مفاجئ.

-الشاب الذي أعاركَ سيارته.

قال دوقة: بالضبط.

اجتاز دوقة الغرفة بخطى واسعة، وأمسك بإيميت من ذراعيه.

-لا أصدق أنك هنا. هذا الصباح بالذات كنت أنا ووولي نتحسر على

غيابك ونعدُّ الأيام إلى أن نراك مجددًا. لكن انتظر! أين آداب اللياقة؟

وضع دوقة ذراعًا على كتف إيميت، وقاده باتجاه النساء.

-دعني أقدمك إلى حوريَّاتي العرَّابات الثلاث. هنا على اليسار، لدينا

هيلين. ثاني امرأة في التاريخ تُطلق ألف سفينة⁽¹⁾.

-مفتونة لرؤيتك.

قالتها الصهباء لإيميت وهي تمد يدها.

مد إيميت يده يتناولها، فاتبه إلى أن غلالتها رقيقة هفهافة حتى إن

الدوائر حول حلمتيها بادية من تحتها. وإذ شعر بالحمرة تتصاعد إلى

خدَّيه، حوَّل أنظاره عنها.

(1) تُطلق ألف سفينة: الإشارة إلى «هيلين» من طروادة، التي قيل إنها «الوجه الذي

أطلق ألف سفينة»، والمقصود إلى الحرب. (م)

-بجوار البيانو، لدينا تشاريتي. لا أعتقد أنني مضطر لإخبارك كيف حصلت على اسمها⁽¹⁾. وهنا عن يميني برناديت.

شعر إيميت بالراحة عندما لم تُزعج برناديت، التي ترتدي مثل هيلين بالضبط، نفسها بمد يدها.

قالت بابتسامة: يا لجمال إبريم حزامك.

-سعيد برؤيتكن.

قالها إيميت للنساء بقدر من الارتباك.

استدار دوقه يواجهه بابتسامة واسعة، وقال: أمر بديع جدًا.

قال إيميت، من دون كثير حماسة: نعم. اسمع يا دوقه، إذا سمحت بكلمة. على انفراد.

-طبعًا.

قاد دوقه إيميت بعيدًا عن النساء، لكن عوضًا عن إعادته إلى الممر، حيث ينالان قدرًا من الخصوصية، أخذه إلى زاوية من الصالون على بعد نحو خمس عشرة قدمًا.

تفحص دوقه وجه إيميت للحظة، ثم قال: أنت غاضب. أرى ذلك.

لم يعرف إيميت من أين يبدأ. وجد نفسه يقول: دوقه. أنا لم أعرك سيارتي.

وأجاب دوقه، وهو يرفع يديه معًا في استسلام: أنت محق. أنت محق تمامًا. سيكون أكثر دقة لو قلت إنني استعرتها. لكن مثلما قلتُ لبيلي هناك في سان نيكولاس، كنا نستخدمها فقط لإنجاز تلك المهمة في أعالي الولاية. كنا سنعيدها إلى مورغن قبل أن تلاحظ.

-سواء أخذتها ليوم أو لسنة، فذلك لا يغير من حقيقة أنها سيارتي أنا وفيها نقودي.

نظر دوقه إلى إيميت وكأنه لم يفهمه لأول وهلة.

(1) تشاريتي Charity: الاسم يعني «إحسان» (م)

-آه، تقصد المظروف الذي كان في الصندوق. لا أريدك أن تقلق على ذلك يا إيميت.

-إذا فهو معك؟

-طبعًا. لكن ليس الآن. إنها مدينة كبيرة، في نهاية المطاف. لقد تركته في بيت أخت وولي، مع حقيبة العدة الخاصة بك، في الحفظ والصون.
-إذا هيا نسترجعهما. وفي الطريق، تستطيع أن تخبرني بأمر الشرطة.
-أيي شرطة؟

-رأيت تاونهاوس، ويقول إن الشرطة جاءت إلى الحي صباح اليوم، يسألون عن سيارتي.

قال دوقه، وقد بدت على وجهه أمارات استغراب حقيقي: لا أتخيل لماذا يفعلون ذلك. إلا إذا...

-إلا إذا ماذا؟

كان دوقه يومئ برأسه الآن.

-في الطريق إلى هنا، عندما لم أكن منتبهًا، أوقف وولي السيارة أمام صنبور حريق. ولم أدر بعد ذلك إلا وشرطي دورية يسألني عن رخصة القيادة التي لم تكن معه. ولأن وولي هو وولي، أقنعت الشرطي ألا يدوّن المخالفة. لكن ربما يكون قد سجّل أوصاف السيارة في النظام.
قال إيميت: عظيم.

أوما دوقه برأسه في وقار، ثم فرقع بإصبعيه فجأة.

-تعرف يا إيميت؟ لا يهم.

-والسبب؟

-بالأمس أتممت صفقة القرن. ربما ليست بجودة مقايضة مانهاتن بعقد من الخرز⁽¹⁾، لكنها تقترب من ذلك. مقابل سيارة ستادبيكر بسقف

(1) مقايضة مانهاتن بعقد من الخرز: الإشارة إلى قصة غير مثبتة تاريخيًا، تقول إن بيتر منيوت، حاكم «نيو نيدرلاند» اشترى جزيرة مانهاتن من سكانها الأصليين عام 1626، مقابل عقود من الخرز وحلي رخيصة قيمتها 24 دولارًا. (م)

ثابت مليئة بالجروح والخدوش، تحصّلتُ لك على سيارة كاديلاك مكشوفة موديل 1941 بحالة المصنع. لا يمكن أن تكون قَطَعْتَ أكثر من ألف ميل، وشهادة المنشأ لا غبار عليها.

-لا أريد الكاديلاك تَبَعَكَ يا دوق، بغضّ النظر عن طريقة حصولك عليها. تاونهاوس أعاد لي الستادبيكر. ستحتاج إلى طلاء جديد وسأتسلمها يوم الاثنين.

قال دوقه، وهو يرفع إصبعًا في الهواء: تعرف. هذا أفضل حتى. الآن ستكون لدينا الستادبيكر والكاديلاك. بعد أن نذهب إلى الأديرونذاك، نستطيع أن ننطلق في قافلة إلى كاليفورنيا. -أوووه! قافلة!

قالتا تشاريتي من على الجانب الآخر من الغرفة. قبل أن يتمكن إيميت من تبديد فكرة أيّ شخص عن قافلة إلى كاليفورنيا، انفتح بابٌ وراء البيانو ودخلت متاقلة المرأة التي كانت قد ركبت الدراجة ذات الثلاث عجلات، ولو إنها كانت الآن في روب حمّام قطني عملاق.

قالت بصوت أجش: طيّب، طيّب. من لدينا هنا. وقال دوقه: إنه إيميت. الشاب الذي حكيْتُ لك عنه. نظرت إلى إيميت وضيقت عينيها. -صاحب الوديعة؟

-لا. الشاب الذي استعرتُ منه السيارة. قالت، بمسحة إحباط: أنت محق. يشبه غاري كوبر فعلاً. قالت تشاريتي: لن أمانع لو حبسوني معه⁽¹⁾. ضحك الجميع باستثناء إيميت، وكانت المرأة الضخمة أعلاهم ضحكًا.

(1) غاري كوبر: ممثل أمريكي شهير. لن أمانع لو حبسوني معه: تلعب تشاريتي على اسم الفنان Cooper وعلى كلمة coop up التي تعني «يحبس». (م)

وإذ شعر إيميت بالْحُمْرة تتصاعد إلى خَدَّيه مجدِّداً، وضع دوقه يدًا على كتفه.

-إيميت واطسن، دعني أقدمك إلى أكثر رافعات الروح المعنوية خفَّة ورشاقَّة في مدينة نيويورك: «ما بل»⁽¹⁾.

ضحكت ما بل مجدِّداً.

-أنت أسوأ من أبيك حتى.

عندما ران الصمت على الجميع للحظة، أمسك إيميت بمرفق دوقه، وقال: تشرفتُ برؤيتكن جميعاً، لكن أنا ودوقه يجب أن نذهب.

قالت تشاريتي عابسة: ليس بهذه السرعة.

أوضح إيميت: يؤسفني أن لدينا مَنْ ينتظرنا.

ثم ضغط إصبعيه على البقعة اللئيَّة من مفصل دوقه.

قال دوقه وهو يحزر مرفقه: آوو. إذا كنت مستعجلاً هكذا، لماذا لم تقل؟ فقط اعطني دقيقة لأنكلم مع ما بل وتشاريتي. ثم يمكننا أن نذهب.

رَبَّتْ دوقه على ظهر إيميت، ثم ذهب لكي يتداول مع المرأتين.

قالت الصهباء: إذاً، أنتم متجهون إلى مدينة الأشرطة الملونة.

سأل إيميت: وما هذه؟

-دوقه يقول لنا إنكم ذاهبون جميعاً إلى هوليوود.

قبل أن يتمكن إيميت من استيعاب الخبر، استدار دوقه وصَفَّقَ بيديه.

-طَيِّب يا سيداتي، كان وقتاً ساحراً. لكن حان الموعد لكي ننطلق أنا

وإيميت في طريقنا.

قالت ما بل: إذا كان ولا بُد. لكن لا يمكن أن تغادرا قبل تناول مشروب.

نظر دوقه من إيميت إلى ما بل.

-لا أظن أن لدينا وقتاً، يا ما.

قالت: كلام فارغ. الجميع لديهم وقت لمشروب. علاوة على ذلك،

(1) ما بل /Ma belle/ : بالفرنسية، يعني «جميلتي». (م)

لا يمكن أن تنطلقا إلى كاليفورنيا قبل أن تسمحا لنا بأن نرفع نخبًا ونتمنى
لكما حظًا سعيدًا. هذا لا يليق. صحيح يا سيدات؟

واتفقت السيدات: صحيح، لنرفع نخبًا!

أعطى دوقة إيميت هزة تسليم من كتفيه، وتوجه إلى المَشْرَب، ورفع
السداة عن زجاجة شامبانيا كانت تنتظر وسط الثلج، وملاً ستَّ كؤوس،
ووزعها على الجميع.

قال إيميت هامسًا عندما وصل دوقة إليه: لا أريد أي شامبانيا.
-من الوقاحة ألا تشرب نخبًا رُفع في صحتك يا إيميت. كما أنه يجلب
سوء الحظ.

أغمض إيميت عينيه لحظة، ثم تناول الكأس.
قالت ما بل: أولاً، أود أن أشكر صديقنا دوقة على أنه أحضر لنا زجاجة
الفوار الرائعة هذه.

-مرحي! مرحي!

كذلك هتفت السيدات ودوقة ينحني عند كل نقطة من البوصلة.
واستطردت ما بل: من المؤسف دائماً أن نخسر رفقة الأصدقاء الأعزاء،
لكن ما يهون علينا هو أن خسارتنا مكسبٌ لهوليوود. وختامًا، أود أن أقدم
لكم بضعة أسطر من الشاعر الأيرلندي العظيم وليام باتلر بيتس: ها هي
تبلل الشفتين، ها هي في الحلق تسيل. استعدي يا معدتي، فإليك ينتهي
السبيل⁽¹⁾.

ثم أفرغت ما بل كأسها في جرعة واحدة.
وضحكت السيدات جميعًا وأفرغن كؤوسهن. وإذا لم يجد إيميت
خيارًا آخر، فعَل المثل.

قال دوقة بابتسامة: ها نحن. هل كان ذلك سيئًا جدًّا؟

(1) وليام باتلر بيتس: هذه، بالطبع، دعابة من «ما بل»، فالسطور ليست من تأليف
بيتس، بل مناجاة شائعة بين أطفال المدارس. (م)

استأذنت تشاريتي لتخرج من الغرفة، وبدأ دوقه ينتقل من امرأة إلى الأخرى لكي يتبادل كلمات وداع مسهبة.

تماشيًا مع روح اللحظة، بذل إيميت قصارى جهده للاحتفاظ بهدوئه، لكن صبره كاد ينفد. وما زاد الطين بلة أن الغرفة، التي تضم كل تلك الأجساد والوسائد والشرايات، صارت دافئة بشكل مفرط، والرائحة الحلوة المنبعثة من سجائر النساء منفرة.

قال: دوقه.

-طيب يا إيميت. أنا فقط أودّعهن الوداع الأخير. لماذا لا تنتظر في الممر وسألحق بك حالًا.

وضع إيميت كأسه، وتراجع بكل سرور إلى الممر كي ينتظر.

ومع أن الهواء الأبرد منح إيميت بعض الراحة فعلاً، فقد بدا الممر فجأة وكأنه أطول وأضيق من ذي قبل. وبَدَت الأبواب أكثر أيضًا. أبواب أكثر عن يساره وأبواب أكثر عن يمينه. ومع أنه كان ينظر إلى الأمام مباشرة، بدأ اصطفااف الأبواب يصيبه بالدوار، وكأن أحدهم يُميل محور المبنى على نحو قد يجعله يسقط بطول الممر ويخترق الباب في الطرف الآخر.

لا بُد أنها الشامانيا، فكر إيميت.

هز رأسه، ثم استدار وعاود النظر إلى الصالون ليرى دوقه الآن يجلس على حافة أريكة الصهباء، يعيد ملء كأسها.

قال هامسًا: يا ربي!

شرع إيميت يسير عائداً باتجاه الصالون، متأهبًا، إذا اقتضت الحاجة، لأن يجذب دوقه من قفاه. لكن قبل أن يتمكن من قطع خطوتين، ظهرت ما بل عند العتبة وبدأت تسير في اتجاهه. بالنظر إلى جرمها الكبير، كان الممر يتسع لها بالكاد، وبالتأكيد لم تكن المساحة تكفي لأن تتجاوز إيميت.

قالت، بتلويحة نافذة الصبر من يدها: هيا. أفسح الطريق.

وإذ اندفعت باتجاهه مثل برميل يتدحرج، أدرك إيميت، وهو يتراجع إلى الوراء، أن باب إحدى الغرف مفتوح، فدخل ليتركها تمر.

غير أنها فور أن وصلت إلى إيميت، وعوضًا عن مواصلة طريقها في الممر، توقفت ودفعته بيدٍ لحيمة. وإذ تعثر بظهره إلى داخل الغرفة، سحبَت الباب وأغلقتَه وسمع إيميت صوتًا لا تخطئه الأذن لمفتاح يدور في قفل. اندفع إيميت إلى الأمام، وقبضَ على المقبض وحاول فتح الباب. عندما لم يفتح، بدأ يدق عليه.

صرخ: افتحي الباب!

وبينما يكرر طلبه، برقت في رأسه ذكرى امرأة صرخت فيه بالكلمات نفسها من وراء باب مغلق في مكان آخر. ثم من ورائه، أتى صوت امرأة أخرى. صوت أرق وأكثر إغراءً.

-لماذا العجلة يا نبراسكا؟

استدار إيميت، فرأى المدعوة تشاريتي مستلقية على سرير فاخر، تُربت على الأغطية بيدٍ رقيقة. نظر إيميت حوله فأدرك أن الغرفة بلا نوافذ، فقط المزيد من لوحات السفن، منها لوحة كبيرة فوق كومود تصوّر مركبًا شراعيًا فارداً أشرعتَه ومائلًا وسط ريح عاتية. كانت الغلالة الحريرية التي ترتديها تشاريتي الآن منسدلةً على ظهر كرسي بمسندين، وكانت في قميص نوم شفاف بزر كشات عاجية.

قالت بصوت لم يعد يبدو طفوليًا: دوقة ظنّ أنك قد تكون متوترًا قليلًا. لكن لا يجب أن تتوتر. ليس في هذه الغرفة. ليس معي.

شرع إيميت يستدير ناحية الباب، لكنها قالت ليس من هذه الناحية، من هذه الناحية، لذا استدار.

قالت: تعال هنا وارقد بجانبني. لأنني أريد أن أسألك عن بعض الأشياء. أو أستطيع أن أخبرك ببعض الأشياء. أو ليس علينا أن نتكلم أصلاً.

شعر إيميت بنفسه يأخذ خطوة في اتجاهها، خطوة صعبة، وقدمه تنزل على ألواح الأرضية بوقع بطيء ثقيل. ثم وجد نفسه يقف عند حافة الفراش ذي الأغطية الحمراء الداكنة، وهي ممسكة بيده في يديها. نظر إلى أسفل، فرآها تمسك بها بكف مفتوح إلى أعلى، مثلما تفعل الغجريات. تساءل

إيميت للحظة، بمسحة من افتتاح، إن كانت ستخبره بحظه. عوضاً عن ذلك، وضعت يده على صدرها.

بطيئاً، سَحَبَهَا عن الحرير الناعم، البارد.

قال: يجب أن أخرج من هنا. يجب أن تساعدني على الخروج من هنا. أعطته تَبْوِيزَةً صغيرة، وكأنه جَرَحَ مشاعرها. وشعر هو بالسوء أنه جرح مشاعرها. شعر بسوء شديد حتى إنه فَكَّرَ أن يمد يده ليطمئننها. عوضاً عن ذلك، استدار مرة أخرى تجاه الباب. لكن هذه المرة عندما استدار، ظل يدور، ويدور، ويدور.

دوقة

كنت في روح معنوية عالية. ذاك عذري.
طوال اليوم، ظللت أنط من مفاجأة سارة إلى التالية. أولاً، تركتُ على راحتي في بيت أخت وولي وانتهى بي الأمر مع مجموعة من الملابس الراقية؛ قمت بزيارة لطيفة إلى ما بل والبنات؛ وعلى غير المتوقع، ظهر إيميت، ومنحني (بمساعدة تشاريتي) فرصة القيام بثالث عمل صالح في عدد مساوٍ من الأيام؛ والآن، ها أنا أجلس وراء عجلة سيارة كاديلاك موديل 1941 متجهًا إلى مانهاتن وقد أنزلتُ السقف. الخازوق الوحيد أن الأمر انتهى بنا أنا وولي مع بيلي في ذيلنا.

عندما ظهر إيميت في غرفة ما بل، لم يخطر لي ولو للحظة أنه أحضر أخاه معه، لذا فوجئت بعض الشيء عندما وجدته بجوار وولي. لا تفهمني خطأً، بيلي طفل لطيف بقدر ما يكون الأطفال. لكنه من ذلك النوع «العارف بكل شيء». وإذا كان «العارف بكل شيء» يثير الأعصاب، فما من عارفٍ بكل شيء يثير الأعصاب أكثر من «عارفٍ بكل شيء» صغير السن.

بعد أن التقينا، وفي أقل من ساعة، كان قد صحَّح لي ثلاث مرات. الأولى، ليوضح أن الأختين سائر لم تستخدم مسدسات حقيقية في تبادل إطلاق النار - وكأنني أنا من يحتاج إلى مقدمة في عناصر الصنعة المسرحية! بعدها، ليوضح أن الفقمة حيوان ثديي، وليست نوعًا من الأسماك، لأنها تمتلك دمًا حارًا وعمودًا فقريًا وكذا، وكذا، وكذا. ثم ونحن نقود فوق جسر بروكلين وخط الأفق يمتد أمامنا بكل بهائه، وحين سألتُ في نشوتي إن كان لأي شخص أن يفكر في مثال واحد في تاريخ البشرية على عبور نهرٍ نقل صاحبه من حالة إلى حالة أكثر من عبورنا نهرنا هذا. وبدلاً من أن

يتأمل صامتًا في شِعْرِيَّة اللحظة ومغزى الملاحظة، شعرَ الصبي -الجالس في المقعد الخلفي مثل مليونير صغير- بضرورة إبداء رأيه.
يقول: أستطيع التفكير في مثال.
وأقول أنا: كان سؤالًا بلاغيًا.
لكنه كان قد أثار فضول وولي.
- ما هو المثال يا بيلي.

- عبور جورج واشنطن لنهر ديلاوير. في ليلة الكريسماس عام 1776، عبرَ الجنرال واشنطن مياه النهر الباردة كالثلج لكي يتسلَّل ويكرُّ على الهسِّيَّان⁽¹⁾. وإذ باغتهم على غفلة منهم، دَحَرَت قواته العدو وأخذت ألف أسير. وقد خُلِّدَت المعركة في لوحة شهيرة رسمها إيمانويل لوتز. صاحب وولي: أظنني رأيت تلك اللوحة! ألا تُصوِّر واشنطن واقفًا في قوس قارب تجديف.

وعَلَّقْتُ أنا: لا أحد يقف في قوس قارب تجديف.
وقال بيلي: في لوحة إيمانويل لوتز، يقف واشنطن في قوس قارب تجديف. أستطيع أن أريك صورة، إذا أحببت. إنها في كتاب البروفيسور أبرناثي.

- طبعًا فيه.

- مثال جيد.

قالها وولي، الذي كان مستعدًا دائمًا لخطر من التاريخ.
وإذ كانت ليلة جمعة، عَلِقْنَا في زحامٍ مروري وانتهى بنا الأمر إلى التوقف فوق قمة الجسر -ما وفر لنا فرصة مثالية للاستمتاع بالمنظر في صمت.

قال بيلي: أعرف مثالًا آخر.

(1) الهسِّيَّان Hessians: فرقة من الجنود الألمان كانت ملحقة بالجيش الإنكليزي في الحرب الثورية الأمريكية. وقد أصبحت اللفظة تطلق على أي جنود ألمان حاربوا في صف الإنكليز. (م)

استدار وولي إلى المقعد الخلفي بابتسامة.

-أيُّ مثال يا بيلي؟

-عندما عبرَ قيصر نهر الروبيكون.

-وماذا حدث تلك المرة؟

كان بوسعك سماع الطفل وهو يعتدل في جلسته.

-عام 49 قبل الميلاد، عندما كان قيصر حاكمًا لبلاد الغال، استدعاه مجلس الشيوخ، الذي أقلقته طموحاته، إلى العاصمة، وأمره بترك قواته على ضفاف نهر الروبيكون. عوضًا عن ذلك، سَيرَ قيصر جنوده عابرًا بهم النهر إلى إيطاليا وقادهم رأسًا إلى روما، حيث ما لبث أن استولى على الحكم ودشَّنَ الحقبة الإمبراطورية. من هنا جاء تعبير «عبور الروبيكون». ويعني تجاوز نقطة اللاعودة.

قال وولي: مثال آخر جيد.

-ثم لدينا يوليسيس، الذي عبر نهر ستيكس...

قلت: أظننا فهمنا الفكرة.

لكن وولي لم يكن قد اكتفى، فسأله: ماذا عن موسى؟ ألم يعبر نهرًا؟

قال بيلي: عبَّرَ البحر الأحمر. كان ذلك عندما....

لا شك أن الصبي كان ينوي أن ينهال علينا بتفاصيل موسى ورحلته، لكنه، لأول مرة، قاطع نفسه.

قال، وهو يشير إلى البعيد: انظروا! مبنى إمباير ستيت.

حوَّلنا جميعًا انتباهنا إلى ناطحة السحاب المقصودة، وعندها تنزَّلت عليَّ الفكرة، مثل صاعقة برق صغيرة، صعقتني من قمة رأسي وأرسلت قشعريرة تردَّدت على طول جبلي الشوكي.

سألتُ، وأنا أختلس نظرة إلى بيلي في المرأة الأمامية: أليس مكتبه هناك؟

سأل وولي: مكتب مَنْ؟

-مكتب البروفيسور أبركرومبي.

-تقصد البروفيسور أبرناثي؟
-بالضبط. ماذا كانت العبارة يا بيلي؟ أكتب إليك اليوم من تقاطع شارع
أربعة وثلاثين مع الجادة الخامسة في جزيرة مانهاتن...
قال بيلي، وهو يفتح عينيه على وسعهما: نعم. هكذا كانت.
-إذا لماذا لا نزوره.
من زاوية عيني، رأيت أن وولي قد اضطرب لاقتراحي. لكن بيلي لم
يضطرب.

سأل: هل يمكن أن نزوره؟

-لا أرى مانعًا.

-دوقة....

قالها وولي.

لكنني تجاهلته.

-ماذا قال عنك في المقدمة يا بيلي؟ قارئ العزيز؟ أيُّ مؤلف ذاك الذي
لن يرغب في استقبال زيارة من أحد قرائه الأعداء؟ أقصد، لا بُد أن الكتاب
يبدلون ضعف الجهد الذي يبذله الممثلون، صحَّ؟ لكنهم لا يحصلون
على أيّ تحية حارّة بالوقوف على الأقدام، أو استدعاء من وراء الستار، أو
أشخاص ينتظرونهم عند باب المسرح الخلفي. علاوة على ذلك، إذا كان
البروفيسور أبرناثي لا يرغب في استقبال زيارات من قرائه، فلماذا وضع
عنوانه في الصفحة الأولى من كتابه؟

احتجَّ وولي: غالبًا لن يكون هناك في هذه الساعة.

واحتججتُ على احتجاجه: ربما يعمل إلى وقت متأخر.

وإذ بدأ المرور يتحرك قليلاً، ملتُ إلى الحارة اليمنى لكي آخذ مخرج
أعالي المدينة، وأنا أفكر أن البهو إذا لم يكن مفتوحًا، فستسلق المبنى مثل
كينغ كونغ.

بعد أن اتجهنا غربًا في شارع خمسة وثلاثين، أخذتُ يسارًا في الجادة

الخامسة وتوقفت مباشرة أمام مدخل المبنى. بعدها بثانية واحدة، وجدتُ أحد الحجَّاب فوق رأسي.

-ممنوع الوقوف هنا، يا فتى.

قلت، وأنا أدسُّ في يده ورقة بخمسة: لن نأخذ سوى دقيقة. في هذه الأثناء، ربما تستطيع أنت والرئيس لينكون أن تتعارفا قليلاً⁽¹⁾.

الآن، عوضاً عن إخباري بأن الوقوف ممنوع، كان يفتح باب وولي ويرشدنا إلى داخل المبنى وهو يرفع قبعته قليلاً.

ونحن ندخل البهو، بدت على وجه بيلي نظرة تلهّف وحماسة. لم يستطع أن يصدق أين نحن وما نوشك أن نفعله. في أكثر أعلامه جموحاً، لم يتخيل ذلك. أمّا وولي، على الجانب الآخر، فنظر إليّ بتكشيرة كانت بعيدة عن طبعه كل البعد.

قلت: ماذا؟

قبل أن يتمكن من الإجابة، كان بيلي يشد كمّي.

-كيف سنجده يا دوق؟

-أنت تعرف أين تجده يا بيلي.

-أنا أعرف؟

-لقد قرأت لي بنفسك.

انفتحت عينا بيلي على وسعهما.

-في الطابق الخامس والخمسين.

-بالضبط.

بابتسامة، أشرتُ إلى مجموعة المصاعد.

-هل سنأخذ المصعد؟

-مؤكد أننا لن نأخذ السلم.

ركبنا إحدى العربات السريعة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) تتعارفا قليلاً: الإشارة إلى صورة أبراهام لينكون على ورقة الخمسة دولارات. (م)

قال بيلي لعامل المصعد: لم يسبق لي ركوب مصعد من قبل.
وردَّ العامل: استمتع بالرحلة.

ثم شدَّ الذراع وأرسلنا ننطلق داخل أعماق المبنى.
عادةً، كان وولي سيُدنِّدُن بأنشودة صغيرة في رحلة مثل هذه، لكن تلك
الليلة، كانت الذندنة من نصيبي أنا. بيلي، أخذ يعدُّ الطوابق في صمت
ونحن نمرُّ بها. تعرفُ ذلك من حركة شفّتيه.

راح يهمس: واحد وخمسون، اثنان وخمسون، ثلاثة وخمسون، أربعة
 وخمسون.

في الطابق الخامس والخمسين، فتح العامل الباب وخرجنا. عندما
تقدمنا من مجموعة المصاعد إلى الممر، وجدنا صفوفًا من الأبواب تمتد
عن يسارنا ويميننا.

سأل بيلي: ماذا نفعل الآن.

أشرتُ إلى أقرب الأبواب.

-سنبداً من هناك ونمضي في طريقنا حول الطابق إلى أن نعرثر عليه.

سأل بيلي: في اتجاه عقارب الساعة؟

-في أي اتجاه تحب.

وهكذا، صرنا نتقدم من باب إلى باب -في اتجاه عقارب الساعة-
وأخذ بيلي يقرأ الأسماء المنقوشة على لوحات نحاسية صغيرة تماماً
مثلما كان يعدُّ الطوابق في المصعد منذ لحظات، الفارق أنه فعل ذلك
بصوت عالٍ هذه المرة. كنا أمام رتل من الكتّبة. فعلاوةً على المحامين
والمحاسبين، كان هناك سماسرة العقّارات، والتأمين، والأسهم. ليس من
الشركات الكبيرة، تفهّم. كانت تلك دكاكين يشغلها رجالٌ لم ينجحوا في
الالتحاق بالشركات الكبيرة. رجال يُركّبون نعالاً لأحذيتهم حين تتلف،
ويقرأون الصفحات الهزلية في الصحف وهم ينتظرون رنين الهاتف.

أولّ عشرين لافتة قرأها بيلي بقوة وابتهاج، وكأنّ كلاً منها تُهديه مفاجأة
صغيرة سارة. العشرون التالية قرأها بحماسة أقلّ بعض الشيء. بعدها،

بدأ إلقاؤه يتراخى. كنت تكاد تسمع إصبع الواقع وهو يضغط على تلك البقعة في الروح التي تنبثق منها حماسة الشباب. الليلة، سترك الواقع أثره بالتأكيد على بيلي واطسن. أثر سيبقى معه غالبًا لبقية حياته، تذكرة نافعة على تلك الحقيقة: بينما يُنسج أبطال الكتب القصصية من خيال، فمعظم الرجال الذين يكتبون عنهم منسوجون، بدورهم، من خيال.

عندما استدرنا حول الزاوية الرابعة، رأينا آخر امتداد من الأبواب يقود إلى النقطة التي بدأنا منها. صار بيلي يتحرك بخطى تزداد بطءًا، ويتكلم بصوت يزداد خفوتًا، إلى أن توقف، في النهاية، أمام الباب قبل الأخير، ولم ينطق بكلمة. لا بُدَّ أنه كان قد قرأ خمسين لوحة صغيرة، ومع أنني كنت أقف وراءه، أدركتُ من وقفته أنه قد اكتفى، ببساطة. مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ

بعد لحظة، رفع رأسه إلى وولي وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ لا بُدَّ كان يشي بالإحباط، إذ ارتسم على وجه وولي فجأة تعبيرٌ يشي بالتعاطف. ثم استدار بيلي لينظر إليّ. غير أن التعبير على وجهه لم يشِ بالإحباط. بل بذهولٍ واسع العينين.

استدار مرة أخرى إلى اللوحة النحاسية الصغيرة، ومدَّ إصبعًا وقرأ النقش بصوت عالٍ: مكتب البروفيسور أباكوس أبرناثي، ماجستير ودكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية.

وإذ استدرتُ إلى وولي وقد ارتسم الاستغراب على وجهي أنا الآخر، أدركتُ أن التعاطف على وجهه لم يكن موجهاً إلى بيلي؛ كان موجهاً إليّ أنا. إذ مجددًا أردتُ أن أسحب البساط، فسحبته من تحت قدمي. بعد أن قضيتُ بضعة أيام مع هذا الصبي، كان ينبغي أن أكون أكثر حصافةً. لكن مثلما قلتُ: اللوم يقع على الروح المعنوية العالية.

طيّب، عندما تتأمر الظروف لكي تفسد خُططك التي وضعتها بحرص، وتعرّضك لانتكاسة غير متوقّعة، فأفضل ما تفعله هو أن تنسب الفضل لنفسك بأسرع ما يمكنك.

-ماذا قلتُ لك، يا فتى.

منحني ببلي ابتسامة، لكنه سرعان ما حوّل أنظاره إلى مقبض الباب وقد علّت وجهه مسحة من توجُّس، وكأنه ليس واثقًا من امتلاك الجرأة على إدارته: صاح وولي: اسمح لي!

تقدم وولي خطوة، وأدار المقبض وفتح الباب. بالداخل، وجدنا أنفسنا في منطقة استقبال صغيرة فيها مكتب، وطاولة قهوة، وبضعة كراس. كانت الغرفة ستبدو معتمة لولا الضوء الخافت الذي يدخل من الشَّرَاعة المفتوحة فوق باب داخلي.

قلت، بتنهيذة مسموعة: أظنك كنت محقًا يا وولي. يبدو أن لا أحد هنا. لكن وولي رفع إصبعًا إلى شفثيه.

-ششش. هل سمعتما هذا؟

رفعنا جميعًا رؤوسنا عندما أشار وولي إلى الشَّرَاعة.

همس: ها هي من جديد.

وهمستُ أنا: ها هو ماذا؟

قال ببلي: خربشة قلم.

وقال وولي بابتسامة: خربشة قلم.

لحقنا أنا وببلي بوولي وهو يجتاز منطقة الاستقبال على أطراف أصابعه ويدير المقبض الثاني برفق. وراء هذا الباب كانت غرفة أكبر بكثير. غرفة مستطيلة طويلة مبطنّة من الأرض إلى السقف بالكتب ومؤنّة بنموذج لكرة أرضيّة فوق حامل، وأريكة، وكرسيين بظهر عالٍ، ومكتب خشبي كبير، ورائه جلس رجلٌ مسنٌ صغير يكتب في دفترٍ قديمٍ صغير على ضوء مصباح بمظلة خضراء. كان يرتدي بدلة مجعّدة من قماش الـ«سير ساكر»، وله شعر أبيض خفيف وتربُّض على قمة أنفه نظارة قراءة. بعبارة أخرى، بدا مظهره تمامًا مثل بروفيسور، حتى إنك تظن أن كل تلك الكتب على الرفوف جزءٌ من العرض.

عندما سمعَ الرجل المسنُّ صوت دخولنا رفع رأسه عن عمله من دون دهشة أو استياء.

-أي خدمة؟

كنا قد قطعنا بضع خطوات، ولكز وولي بيلي ليتقدم خطوة أخرى، وشجّعه: اسأله.

تنحني بيلي: هل حضرتك البروفيسور أباكوس أبرناثي؟
بعد أن رفع نظارة قراءته إلى أعلى رأسه، أمال الرجل المسنُّ مظلة مصباحه لكي يحظى بنظرة أفضل على ثلاثتنا. سلط أنظاره أكثر على بيلي، إذ فهم في لحظة واحدة أن الصبي هو سبب وجودنا هناك.

أجاب: أنا أباكوس أبرناثي. كيف أساعدكم؟

قد تظن أن الأشياء التي يعرفها بيلي لا تنتهي، لكن بدا واضحًا أنه لا يعرف كيف لأباكوس أبرناثي أن يساعدنا. لأنه عوضًا عن تقديم جواب، أدار رأسه إلى وولي وقد ارتسمت الحيرة على وجهه. لذا، تكلم وولي نيابة عنه.

-نعتذر لمقاطعتك يا بروفيسور، لكن هذا بيلي واطسن من مورغن، نبراسكا، وصل لتوه إلى مدينة نيويورك للمرة الأولى في حياته. إنه لا يزال في الثامنة من عمره لكنه قرأ «موجزك الوافي» للمغامرين أربعًا وعشرين مرة. بعد أن أنصت البروفيسور إلى وولي باهتمام، حوّل أنظاره مجددًا إلى بيلي.

-هل هذا صحيح أيها الشاب؟

قال بيلي: صحيح. ولو إنني قرأته خمسًا وعشرين مرة.

قال البروفيسور: طيّب، إذا كنتَ قرأتَ كتابي خمسًا وعشرين مرة وقطعت كل هذا الطريق من نبراسكا إلى نيويورك لكي تخبرني بذلك، فدعني على الأقل أدعوك للجلوس.

بيد مفتوحة، دعا بيلي للجلوس على أحد الكرسيين عاليي الظهر أمام مكتبه. أما أنا ووولي، فأشار لنا بالجلوس على الأريكة بجوار المكتبة.

دعني أقول الآن فورًا إنها كانت أريكة لطيفة للغاية. كانت منجّدة بجلد بني داكن، مثبتٌ بمسامير برشام نحاسية لامعة، وكبيرة مثل سيارة تقريبًا. لكن عندما يقبل ثلاثة أشخاص دخلوا غرفة دعوة شخص رابع للجلوس،

تعرف أنهم لن يغادروا عمّا قريب. إنها من طبائع البشر. فالناس، بعد أن يتكبّدوا عناء الجلوس والاسترخاء، سيَشْعُرُونَ بضرورة الثّرة في شتّى المواضيع لنصف ساعة على الأقل. بل وإذا نفدت المواضيع بعد عشرين دقيقة، شرعوا يختلقون أشياء، فقط من باب التهذيب. لذا عندما عرض علينا البروفيسور الجلوس، فتحتُ فمي وهممتُ أن ألفتِ إلى أن الوقت قد تأخر والسيارة أمام الرصيف. لكن قبل أن أنطق بكلمة واحدة، كان بيلى يصعد الكرسي عالي الظهر وولي يستقر في الأريكة.

قال البروفيسور -فور أن استكنَّ كل منا في مكانه وفات الأوان: الآن خبّرني يا بيلى، ما الذي جاء بك إلى نيويورك.

عندما يتعلق الأمر بالمحادثات، كانت طريقة تقليدية لفتح الحوار. سؤال سيسأله أي نيويوركيّ لأي زائر، متوقعاً ردّاً من جملة أو جملتين. من قبيل أنا هنا لرؤية عمّتي، أو معنا تذاكر لأحد العروض. غير أن هذا كان بيلى واطسن، لذا عوضاً عن جملة أو جملتين، حصل البروفيسور على السّفَر بأكمله⁽¹⁾.

بدأ بيلى من عام 1946، من الليلة الصيفية التي غادرت فيها أمهما وتركتهما. تكلم عن إيميت وقضائه فترة العقوبة في سالينا وعن والده وموته بالسرطان وعن خطة الأخوين لاقتفاء أثر حفنة من البطاقات البريدية لكي يتمكنّا من مقابلة أمّهما في عرض الألعاب النارية في سان فرانسيسكو في الرابع من يوليو. بل وشرح طيّشتنا أنا وولي وكيف استعرنا الستاديبكر، ما اضطره هو وإيميت إلى الحصول على توصيلة مجانية إلى نيويورك على متن قطار «صن ست» المتجه شرقاً.

قال البروفيسور، الذي لم يكن قد فوّت كلمة واحدة: طيّب، طيّب، طيّب. وتقول إنك سافرت إلى المدينة على متن قطار بضائع. قال بيلى: وهناك بدأتُ قراءة كتابك للمرة الخامسة والعشرين.

(1) السّفَر: يستخدم دوقة كلمة «ماجिला» magillah، وهي كلمة يديّة، مثلما اعتاد استخدام بعض مفردات تلك اللغة. (م)

-في عربة الشحن؟
-لم تكن هناك نوافذ، لكن كان معي مصباحي اليدوي وِارد مَخْلَفَات الجيش.

-يا للمصادفة السعيدة.
-عندما قررنا الذهاب إلى كاليفورنيا والبدء من جديد، اتفقنا أنا وإيميت على ألا نحمل معنا أكثر مما تتسع له حقيبة عدّة. لذا وضعتُ كل ما أحتاجه في حقيبة ظهري.

استرخى البروفيسور في كرسيه وعلى وجهه ابتسامة، ثم عاد وانحنى فجأة إلى الأمام.

-أنت بالطبع لا تحمل «الموجز الوافي» في حقيبة ظهرك الآن؟
قال بيلى: نعم. هذا هو المكان الذي أضعه فيه.
-إذًا، ربما أستطيع أن أكتب لك إهداءً عليه؟
صاح وولي: ذلك سيكون رائعًا.

بتشجيع البروفيسور، انزلق بيلى ينزل عن الكرسي عالي الظهر، وخلع حقيبة ظهره، وفك الحزامين، وأخرج الكتاب الأحمر الكبير.
قال البروفيسور بإشارة من يده: هاتِه هنا. هاتِه لي هنا.

عندما دار بيلى حول المكتب، تناول البروفيسور الكتابَ وأمسك به تحت ضوء مصباحه لكي يمتّع ناظره بتأكل صفحاته واهترائها.
اعترف لبيلى: قليلة للغاية هي الأشياء التي تسرُّ عين الكاتب أكثر من نسخة قُرئت جيدًا من أحد كتبه.

وضع البروفيسور الكتاب على مكتبه، وتناول قلمه، وفتح على صفحة العنوان.

-كان هدية، كما أرى.

قال بيلى: من مس مَثائيسِن. إنها أمانة مكتبة مورغن العامة.
وقال البروفيسور بمزيد من الرضا: هدية من أمانة مكتبة، لا أقلّ من ذلك.
بعد أن كتب البروفيسور سطرًا مطوّلة في كتاب بيلى، أضاف توقيعَه بحركة مسرحية كبيرة عظيمة - إذ في نيويورك، حتى الرجال المسنين الذين

يؤلفون الموجزات الوافية يؤدّون العروض للجمهور كلّهُ، حتى آخر صفٍّ في المسرح. قبل أن يعيد البروفيسور الكتاب، فرَّ صفحاته مرّة وكأنما ليطمئن أن كل شيء هناك. ثم نظر إلى بيلى، مظهرًا قدر من التفاجؤ: أرى أنك لم تملأ أيّ من صفحات الفصل أنت. فلماذا؟

وشرح بيلى: لأنني أردت أن أبدأ *in medias res*. ولست واثقًا بعد أين المنتصف.

بدا لي جوابًا غريبًا، لكن وجه البروفيسور تهلّل له.

قال: بيلى واطسن، بوصفي مؤرخًا مخضرمًا وحكّاء محترفاً، أظني أستطيع أن أقول بثقة إنك قد قطعت بالفعل شوطًا كافيًا في مغامراتك يجيز لك أن تبدأ كتابة فصلك الخاص! مع ذلك...

هنا، فتح البروفيسور أحد أدراج مكتبه وأخرج دفترًا أسود مماثلًا لذلك الذي كان يكتب فيه عندما وصلنا.

-في حال لم تكف الصفحات الثمانية في «موجزك الوافي» لتسجيل قصتك بكامل تفاصيلها -وأنا متأكد من ذلك تقريبًا- تستطيع أن تكمل في صفحات هذا الدفتر. وإذا نفذت منك صفحاته، أرسل لي كلمتين، وسأرسل لك واحدًا آخر بكل سرور.

ثم، بعد أن ناول البروفيسور الكتاب والدفتر لبيلى، صافحه وأعرب عن تشرّفه بمقابلته. وكان ينبغي لذلك أن يمثل ختامًا للمقابلة.

غير أن بيلى، بعد أن وضع الكتاب والدفتر في حقيبته، وشدّ الحزامين على ظهره بإحكام، واتخذ أولى خطواته تجاه المخرج، توقف فجأة، واستدار، وواجه البروفيسور بجبين مقطب -الأمر الذي يعني مع بيلى واطسن شيئًا واحدًا: المزيد من الأسئلة.

قلت، وأنا أضع يدي على كتف بيلى: أظننا أخذنا ما يكفي من وقت البروفيسور.

قال أبرناثي: لا بأس. ما الأمر يا بيلى.

نظر بيلى إلى الأرض للحظة، ثم رفع رأسه إلى البروفيسور.

-هل تعتقد أن الأبطال يرجعون؟

-تقصد مثل رجوع نابليون إلى باريس، ورجوع ماركو بولو إلى فينيسيا...؟

قال بيلي وهو يهز رأسه: لا. لا أقصد الرجوع إلى مكانٍ ما. أقصد الرجوع في الزمن.

لاذ البروفيسور بالصمت للحظة.

-لماذا تسأل يا بيلي؟

في هذه الجولة، حصلَ الموثَّقُ المسنُّ بكل تأكيد على أكثر مما ساومَ عليه. لأن بيلي، من دون أن يتخذ مقعدًا، انطلق في قصة أطول وأكثر جموحًا من القصة الأولى. شرح كيف، عندما كان في قطار «صن ست» المتجه إلى الشرق، وبعد أن ذهب إيميت للبحث عن طعام، حاول قسُّ كان قد دعا نفسه إلى داخل عربة بيلي أن يستولي على مجموعة الدولارات الفضية الخاصة ببيلي وهمَّ بإلقاء بيلي من القطار. وفي اللحظة الأخيرة، سقطَ رجلٌ أسود ضخم من الكوّة، وانتهى الأمر بأن كان القس هو من طار إلى الخارج.

لكن الواضح أن القس، والدولارات الفضية، والإنقاذ في اللحظة الأخيرة لم تكن هي بيت القصيد في القصة حتى. كان بيت القصيد أن الرجل الأسود، واسمه يوليسيس، قد ترك وراءه زوجة وابنًا عندما عبرَ الأطلنطي لكي يقاتل في الحرب وظل يهيم على وجهه في البلاد من وقتها في قطارات البضائع.

الآن، عندما يَغزل ولدًا في الثامنة من عمره حكاية كهذه -برجال سود يسقطون من الأسقف وقساوسة يطيحون من القطارات- قد تظنُّ أن ذلك سيختبرُ قدرة السامع على الصبر قبل إعلان عدم تصديقه للقصة بأكملها، خاصة لو كان بروفيسورًا. لكن ذلك لم يحدث مع أبرناثي، على الإطلاق. بينما كان بيلي يحكي قصته، رجع البروفيسور إلى مقعده بالحركة البطيئة، وحطَّ نفسه بحرص في كرسيه، ثم أرجع ظهره برفق إلى الورا، وكأنه لا يريد أن يصدر صوتًا أو حركة مفاجئة تقطع على الصبي قصته، أو تقطع عليه هو انتباهه للقصة.

قال بيلي: كان يظن أنه سُمِّي يوليسيس على اسم يوليسيس غرانت، لكنني شرحت له أنه لا بُدَّ سُمِّي على اسم يوليسيس العظيم. وأنه بعد أن هام على وجهه بالفعل على مدار أكثر من ثماني سنوات محروماً من زوجته وابنه، فسوف يلتئم شمله معهما بكل تأكيد فور أن تكتمل سنوات تيهه العَشر.

ثم اختتم بيلي كلامه بمسحة قلق: لكن إذا كان الأبطال لا يرجعون في الزمن، إذاً ربما ما كان عليّ أن أقول له ذلك.

عندما انتهى بيلي من الكلام، أغمض البروفيسور عينيه للحظة. لا كما يفعل إيميت عندما يحاول منع نفسه من الانفعال أمام استفزاز ما، لكن كما يفعل عاشقٌ للموسيقى فور سماع ختام الكونشرتو المفضل عنده. عندما فتح عينيه من جديد، حوّل نظره من بيلي إلى الكتب على طول الجدران ثم أعاده إلى بيلي.

قال لبيلي: ليس لدي شكُّ أن الأبطال يرجعون في الزمن. وأظنك كنت محقّقاً تماماً عندما أخبرته ما أخبرته. لكنني...

الآن، كان البروفيسور هو من نظر إلى بيلي بتردد، وكان بيلي هو من شجّعه على الاستمرار.

-كنت فقط أتساءل، إن كان هذا المدعو يوليسيس لا يزال هنا في نيويورك.

قال بيلي: نعم. لا يزال هنا في نيويورك. جلس البروفيسور للحظة، وكأنه يستجمع شجاعته لي طرح سؤالاً آخر على هذا الصبي ذي الثمانية أعوام. وأخيراً قال: أعرف أن الوقت متأخّر، وأنت وصديقك لديكم أماكن تذهبون إليها، وليس لديّ ما يخوّلني أن أطلب منكم هذا المعروف، لكن هل هناك أي فرصة أن يكون لديكم استعداد لتوصيلي إليه؟

وولي

في رحلة إلى اليونان مع أمه عام 1946، وهو يقف أمام البارثينون، حدث أن حظي وولي بأول فكرة عن «القائمة» - ذلك التعداد لكل الأماكن التي يُفترض بالمرء أن يراها. كانت أمه قد قالت، عندما وصلا إلى القمة المتربة المطلّة على أثينا، وهي تروّح عن نفسها بخريطتها: ها هو البارثينون بكامل جلاله. علاوة على البارثينون، مثلما سرعان ما عرف وولي، هناك بياتسا سان ماركو في فينيسيا والوفر في باريس ومتحف الأوفيزي في فلورنسا. هناك كنيسة سيسيتين وكنيسة نوتردام ودير ويستمنستر.

ظلّ المكان الذي جاءت منه هذه «القائمة» لغزًا بالنسبة لـ وولي. بدا له أنها نتاج جهد عدد من البَحّاث والمؤرخين المرموقين قبل ولادته بزمان بعيد. لم يشرح أحد لـ وولي لماذا ينبغي على المرء رؤية كل الأماكن الواردة في «القائمة»، بيد أن أهميّة ذلك لم تكن موضع شك على الإطلاق. إذ كان من يكبرونه سنًا يثنون عليه كلما رأى مكانًا منها، ويعبسون في وجهه إن أعرب عن عدم اهتمامه بواحدٍ منها، ويوبخونه بعبارات صريحة إذا تصادف وكان في جوار أحد هذه الأماكن ولم يزره.

يكفي أن نقول: عندما كان الأمر يتعلق برؤية بنود «القائمة»، كان وولي وولكوت مارتين دائمًا على أهبة الاستعداد! كلما سافر، حرص أشدّ الحرص على تدبير الكتب الإرشادية المناسبة وتأمين خدمات السائقين المناسبين لكي يوصلونه إلى المعالم المناسبة في الأوقات المناسبة. إلى الكولوسيوم، يا سنيور، وزُق عَجَلَك، كان يقول، فينطلق السائق وسط شوارع روما المتعرجة باستعجال رجال شرطة يلاحقون عصابة من اللصوص.

كلما وصل وولي إلى واحد من تلك الأماكن الواردة في «القائمة»، سيطرَ عليه شعورٌ ثلاثيُّ الوجوه. أولاً إحساسٌ بالمهابة. إذ ليست تلك أماكنٌ عادية من التي تقابلها في حياتك اليومية. بل أماكنٌ كبيرة ومليئة بالتفاصيل ومشيدة من مختلف الخامات المبهرة مثل الرخام والماهوغي واللازورد. وثانياً إحساسٌ بالامتنان تجاه أسلافه الذين كلّفوا أنفسهم مشقةً تورث قائمة البنود هذه من جيل إلى جيل. لكن ثالثاً، والأهم، إحساسٌ بالارتياح - ارتياح أنه بعد أن ألقى حقائقه في فندقه واندفع عبر المدينة في المقعد الخلفي لسيارة تاكسي، صار بمقدوره أخيراً أن يشطب بنداً آخر من «القائمة».

لكن بعد أن ظلَّ وولي يعتبر نفسه شطّابَ بُنودٍ دؤوباً منذ سن الثانية عشرة، راوده، في وقت سابق من تلك الأمسية وهو مع دوق في السيارة في طريقهما إلى السيرك، ما يشبه لحظة تجلٍّ. فإذ ظلت «القائمة» تنحدرُ بتماسكٍ وحِرصٍ عبر خمسة أجيال من آل وولكوت - وهم من سكان مانهاتن - فليسبَّ غريب لم تتضمَّن منظراً واحداً في مدينة نيويورك. ومع أن وولي سبق وقام بالزيارات الواجبة إلى قصر باكنغهام، ومسرح لا سكاللا، وبرج إيفل، فلم يسبق له أبداً، أبداً، ولا مرةً واحدة، أن عبرَ جسر بروكلين.

لم يكن وولي، الذي نشأ في «أَبَر إيست سايد»، بحاجة لعبور ذلك الجسر. فلأجل الوصول إلى الأديرونداك، أو لونغ آيلاند، أو أيٍّ من تلك المدارس الداخلية الوجيهة هناك في نيو إنغلاند، كنتَ تسافر عن طريق جسر كوينزبرو أو ترايبورو. لذا بعد أن قاد دوق بهم وسط برودواي، ودار حول سيتي هول، أدرك وولي، وقد خامره حسُّ نابضٌ بالإنارة، أنهم صاروا فجأةً قريبين من جسر بروكلين، عازمين على عبوره.

أيُّ جلال ذاك الذي يتبدَّى في معماره، هكذا فكر وولي. أيُّ إلهام تبعته في النفوس دُعائمه المشيدة على طراز الكاتدرائيات وكابلاته المحلقة عالياً في الهواء. أيُّ مفخرة من مفاخر الهندسة، خاصة وقد شُيِّد في سنة

ألف وثمانمئة وكذا وكذا، ومن وقتها ظلَّ يُعين سَوَادَ الناس على الانتقال من أحد جانبيّ النهر إلى الجانب الآخر، ذهابًا وإيابًا، كلَّ يوم. بالتأكيد، يستحقُّ جسر بروكلين مكانًا في «القائمة». بالتأكيد يستحقُّ، شأنه شأن برج إيفل الذي صُنِع من خامات مماثلة في زمن مماثل لكنه لم يأخذ أيَّ إنسان إلى أيِّ مكان.

لا بُد أن في الأمر غفلٌ أو سهوة ناجمة عن طول نظر⁽¹⁾، هكذا قرَّر وولي.

مثل أخته كيتلين واللوحات الزيتية.

عندما زارت أسرته اللوفر والأوفيزي، أعربت كيتلين عن عظيم إعجابها بكل تلك اللوحات المترصّة على الجدران في إطاراتها المذهّبة. في انتقالهم من قاعة إلى أخرى، كانت تأمر وولي بأن يصمت، وتشير بالحاح إلى بورترية أو منظر طبيعي ينبغي عليه الاستمتاع به في صمت. لكن الغريب أن بيتهم في شارع ستة وثمانين كان يمتلئ حدَّ الاختناق ببورتريات ومناظر طبيعية في إطارات مُذهّبة. وكذا بيت جدّتهم. مع ذلك، في كل سنين نشأته تلك، لم يسبق أن رأى أخته تتوقف ولو مرة واحدة أمام إحداها لكي تتأمل في عظمتها. لهذا السبب وصف وولي الأمر بأنه طول نظر. لأن كيتلين لم تلاحظ اللوحات الزيتية حتى وهي تحت أنفها مباشرة. لا بُد أن هذا هو السبب الذي جعل سكان مانهاتن الذين ورّثوا «القائمة» من جيل إلى جيل يُغفلون إدراج أيِّ من مناظر نيويورك الأمر الذي جعل وولي يتساءل: ترى ماذا نسوا أيضًا؟

وبعدها.

وبعدها!

بعدها بساعتين فقط، وهم يعبرون جسر بروكلين للمرة الثانية في ليلة واحدة، توقّف بيلي عن الكلام في منتصف عبارة لكي يشير إلى البعيد.

(1) غفلٌ أو سهوة: كالعادة يتلاعب وولي بالكلمات، والمقصود «سهوٌ أو غفلة». (م)

صاح: انظروا! مبنى إمباير ستيت.

طَيِّب، ذلك بالتأكيد ينتمي إلى «القائمة»، فكَرَّ وولي. إنه أعلى مبنى في العالم. بل إنه عالٍ لدرجة أن طائرة اصطدمت بقمّته ذات مرة. مع ذلك، حتى مع انتصابه في قلب مانهاتن، لم يسبق لولي أبداً، أبداً، أن وضع قدماً بداخله.

وعليه، عندما اقترح دوق أن يذهبوا إلى هناك لزيارة البروفيسور أبرناثي، لعلّك كنت ستنتظر من وولي أن يشعر بالإنارة نفسها التي شعر بها عندما أدرك أنهم سيعبرون جسر بروكلين. لكن ما شعر به حقّاً كان وخزةً من قلق - ليس من فكرة ركوب مصعد صغير ضيّق صعوداً إلى الستراتوسفير⁽¹⁾، بل من نبرة صوت دوق. لأن وولي سمع تلك النبرة من قبل. سمعها من ثلاثة نُظَّار مدارس ومن كاهنين أسقفيتين ومن زوج أخت اسمه «دينيس». كانت نبرة يستخدمها الناس عندما يهْمُّون بإرجاعك إلى جادة الصواب.

الآن ووقتها، بدا لولي أن السماء كثيراً ما تُنعم عليك بفكرة وأنت تمضي في حياتك اليومية. قلّ مثلاً إنك في منتصف أغسطس، في قارب تجديف، تتهادى وسط البحيرة واليعاسيب تكشّطُ سطح الماء في طيرانها، وفجأةً تخطر لك الفكرة. لماذا لا تستمر إجازة الصيف إلى الحادي والعشرين من سبتمبر؟ في نهاية المطاف لا ينتهي الصيف فعليّاً في نهاية الأسبوع التالي لعيد العمّال⁽²⁾. بل يستمر حتى الاعتدال الخريفي - تماماً مثلما يستمر الربيع حتى الانقلاب الصيفي. وانظر كيف يشعر الجميع بخلوّ البال أثناء إجازة الصيف. لا الأطفال فقط، بل والكبار أيضاً، الذين يستمتعون أيّما استمتاع بلعب مباراة تنس في العاشرة، والسباحة في الظهيرة، وتناول كأس من الجَنِّ والتونيك في السادسة بالتمام والكمال.

(1) الستراتوسفير: الطبقة الثانية من الغلاف الجوي. (م)

(2) عيد العمال: يُحتفل به في أمريكا في الاثنين الأول من شهر سبتمبر، وهو الأسبوع

الذي تنتهي فيه إجازة الصيف في المدارس. (م)

لذا فمن المنطقي أن يتفق الجميع على ترك إجازة الصيف تستمر حتى الاعتدال الخريفي، وسيكون العالم مكانًا أسعد.

طبيب، عندما تخطر لك فكرة كهذه، عليك أن تلتزم الحرص الشديد وأنت تختار الشخص الذي تشاركها معه. لأن ثمة أشخاصًا بعينهم -مثل ناظر مدرستك أو كاهنك أو زوج أختك «دينيس»- لو أخذوا خبرًا عن فكرتك، سيشعرون على الأرجح أن واجبهم الأخلاقي يقتضي إجلاسك أمامهم وإعادتك إلى جادة الصواب. وبعد أن يثيروا لك بالجلوس على الكرسي الكبير أمام مكاتبتهم، لن يكتفوا بشرح الأسباب التي تجعل فكرتك مضللة، بل سيشرحون لك كم ستصير شخصًا أفضل بكل تأكيد فور أن تعترف لنفسك بهذه الحقيقة. وتلك كانت النبذة التي استخدمها دوق -النبذة التي تسبق تبديد وهم ما.

لك أن تتخيل مدى الرضا، بل والطرب، الذي شعر به وولي عندما، بعد ركوب المصعد طوال الطريق إلى الطابق الخامس والخمسين، والسير بتأقل في كل الطرقات، وتضييق الأعين أمام كل لوحة صغيرة، وإذ لم تتبقَ لهم إلا لوحتان، صادفوا اللوحة المكتوب عليها: البروفيسور أباكوس أبرناثي، ABC, PHD, LMNOP⁽¹⁾.

مسيكين دوق، فكر وولي بابتسامة تعاطف. ربما هو الذي سيتعلم درسًا الليلة.

فور دخولهم محراب البروفيسور، رآه وولي رجلًا حساسًا، رجلًا أنيسًا. وبرغم الكرسي عالي الظهر أمام طاولة المكتب الكبيرة المصنوعة من البلوط، عرف وولي أنه ليس من النوع الذي سيرغب في إجلاسك أمامه وإعادتك إلى جادة الصواب. وفوق ذلك، لم يكن من النوع الذي سيستعجلك لأن الوقت من مال، أو من ذهب، أو كالسيف، أو ما إلى ذلك.

(1) ABC, PHD, LMNOP: يسخر وولي هنا من اختصارات الألقاب العلمية. والألقاب المكتوبة على اللوحة كانت MLA, PhD. (م)

عندما يُطرح عليك سؤال -حتى إن بدا في الظاهر بسيطاً ومباشراً نسبياً- قد تضطر إلى الرجوع قليلاً في الزمن لتُقدِّم كل التفاصيل الصغيرة التي قد يحتاج إليها شخصٌ ما لكي يفهم جوابك. مع ذلك، تجد الكثير من المستجوبين الذين يبدأون في ليّ وجوههم فور أن تُشرع في تقديم تلك التفاصيل الجوهرية. تجدهم يتململون في مقاعدهم، ثم يستعجلونك بأن يضغطوا عليك لكي تقفز من النقطة (أ) إلى النقطة (ي) مفوِّتاً كل ما بينهما من حروف. لكن ليس البروفيسور أبرناثي. عندما سأل لبيلي سؤالاً بسيطاً على نحو خادع ورجع لبيلي طوال الطريق إلى المهد لكي يعطيه جواباً متكاملًا، استرخى البروفيسور في كرسيه ينصت بانتباه الملك سليمان.

لذلك، عندما نهض وولي وبيلي ودوقة أخيراً ليستأذنوا في المغادرة، وبعد أن كانوا قد زاروا اثنين من معالم المدينة ذات الشهرة العالمية في ليلة واحدة (اشطُب! اشطُب!)، وتأكدوا أن البروفيسور أباكوس أبرناثي موجودًا وجودًا لا يتطرَّق إليه الشك، قد تظن أن تلك الليلة ما كان يمكن أن تصير أفضل.

لكنك ستكون مخطئًا.

بعدها بثلاثين دقيقة، كانوا جميعًا في الكاديلاك -ومعهم البروفيسور- يمشون في الجادة التاسعة إلى سكة «ويست سايد» العالية، مكان آخر لم يسمع عنه وولي من قبل.

قال لبيلي: خذ اليمين التالي.

فعلَ دوقة كما أمر، وأخذ يمينًا في شارع معبَّد بالحجارة صُفِّت على جانبيه شاحنات ومنشآت لتعبئة اللحوم. عرف وولي أنها منشآت لتعبئة اللحوم لأنه رأى على أحد أرصفة التحميل رجلين يرتدي كل منهما معطفًا أبيض طويلًا يحملان أجناب لحم بقري من شاحنة، ورأى فوق رصيف آخر لافتة نيون كبيرة على شكل عِجَل.

بعدها بقليل، قال لبيلي لدوقة أن يأخذ يمينًا آخر ثم يسارًا، ثم أشار إلى قفص من السِّلْك يصعد من الشارع.

قال: هناك.

عندما توقف دوقه، لم يُطفئ المحرك. في هذا الامتداد الصغير، لم يكن هناك المزيد من منشآت تعبئة اللحوم ولا المزيد من لافتات النيون. عوضاً عن ذلك، كانت أرضٌ فضاء توقفت فيها سيارة من دون إطاراتها. وفي نهاية المربع السكني، ظهرت صورة ظلّية وحيدة لشخص قصير ممتلئ، مرّ تحت مصباح شارع، ثم اختفى وسط الظلال.

سأل دوقه: متأكد أن هذا هو المكان؟

قال بيلي وهو يسارع إلى تعليق حقيبته على ظهره: متأكد أن هذا هو المكان.

وعلى الفور، صار خارج السيارة، يسير باتجاه القفص.

استدار وولي إلى البروفيسور أبرناثي لكي يرفع حاجبيه في دهشة، لكن البروفيسور أبرناثي كان في طريقه بالفعل للحاق ببيلي. وعلى ذلك، قفز بيلي من السيارة ليلحق بالبروفيسور، تاركاً دوقه يلحق به.

داخل القفص كان سلّم حديدي يختفي فوق الرؤوس. الآن كان البروفيسور هو من نظرَ إلى وولي بحاجبين مرفوعين، ولو في إثارة لا في دهشة.

مدّ بيلي يده إلى الأمام، وأمسك بجزء من السياج وشرع يشدّه إلى الوراء.

قال وولي: اسمح لي، اسمح لي.

أدخل وولي أصابعه عبر الشبكة، وشدّ لكي يتمكن الجميع من الانسلاخ إلى الداخل. ثم صعدوا السلم، الذي ظل يدور بهم ويدور، وأقدامهم الثماني تُجلجل على أسطح الدَّرَج المعدني القديم. عندما وصلوا إلى القمة، شدّ وولي جزءاً آخر من السياج ليتمكن الجميع من الانسلاخ إلى الخارج.

أوه، أيّ عَجَبٍ شعر به وولي عندما خرجوا من القفص إلى الهواء الطلق. إلى الجنوب، لاحت أبراج وول ستريت، بينما إلى الشمال، لاحت

أبراج حي ميدتاون. وإذا نظرتَ بحرص شديد بين الجنوب والجنوب الغربي، أمكنك بالكاد تبيُّن تمثال الحرية -مَعْلَم آخر من معالم نيويورك- ينتمي بكل تأكيد إلى «القائمة» لم يسبق لوولي زيارته أبداً.
-لم أزره بعد!

قالها وولي في تحدٍّ، لا لأحد، إنما لنفسه.
لكن ما بدا مذهلاً في السكة الحديدية العالية ليس منظر وول ستريت أو ميدتاون أو حتى شمس الصيف الكبيرة العظيمة الغاربة فوق نهر هدسون. ما كان مذهلاً هو الحياة النباتية.

عندما كانوا في مكتب البروفيسور أبرناثي، شرح لهم بيلي أنهم ذاهبون إلى جزء من السكة الحديدية العالية خرج من الخدمة قبل ثلاث سنوات. بيدَ أنه بدا لوولي وكأنه هُجِرَ منذ عقود. في كل مكان حولهم كانت زهورٌ برّية وشجيرات، وقد نمت الحشائش بين روافد القضبان إلى ارتفاع رُكَبهم تقريباً.

في ثلاث سنوات فقط، فكّر وولي. إنه أقل من الوقت الذي يقضيه المرء في مدرسة داخلية، أو لأجل الحصول على درجة جامعية. وقت أقل من الفترة الرئاسية الواحدة، أو الفاصل الزمني بين الألعاب الأولمبية. قبلها بيومين فقط، لاحظ وولي كم ظَلَّتْ مانهاتن أزلّية على نحو فظيع، بالرغم من ملايين الناس الذين يسرون على طرقاتها كل يوم. لكن يبدو أن ما سوف يودي بالمدينة إلى نهايتها ليس سير الملايين. بل غيابهم. إذ هنا لمحةٌ من نيويورك حين تُترك لحالها. هنا رقعةٌ من المدينة أدار لها الناس ظهورهم للحظة واحدة فانثَبَّت الشجيرات وفروع اللباب والحشائش من وسط الحصى. فإذا كانت قد صارت على هذا النحو بعد بضع سنوات من الإهمال لا أكثر، فكّر وولي، فتخيّل كيف سيصير الحال بعد بضعة عقود.
وإذ رفع وولي رأسه عن الحياة النباتية لكي يشارك ملاحظته مع أصدقائه، انتبه إلى أنهم تقدّموا من دونه، شاقّين طريقهم باتجاه نار مخيم تلوح في البعيد.

زَعَقَ فِيهِمْ: انتظروا. انتظروا!

عندما عاود وولي الالتحاق بجماعته، وجد بيلي يقدم البروفيسور إلى رجل أسود طویل، ذلك المسمّى يوليسيس. ومع أن الرجلين لم يلتقيا من قبل، كان كل منهما قد سمع عن الآخر من بيلي، وعندما تصافحا، خطرَ لولي أنهما فعلا ذلك بإجلال، بإجلال كبير وجدير بالحسد. -تفضلوا.

قالها يوليسيس، وهو يشير إلى عوارض السكة الحديدية حول النار تماما مثلما سبق وأشار البروفيسور إلى الأريكة والكرسي في مكتبه. بعد اتخاذ مقاعدهم، ران الصمت على الجميع لبرهة بينما النار تُطْفِئُ وتُتَرَّ الشَّرر، وبدا لولي أنه وييلي ودوقة محاربون صغارٌ مُنحوا امتيازَ شهادة لقاء بين زعيمين قَبْلَئِينَ. لكن في النهاية، كان بيلي هو من تكلم أولاً، مشجعا يوليسيس على سرد حكايته.

بعد أن أوما يوليسيس برأسه لبيلي، حوّل أنظاره إلى البروفيسور واستهلَّ حكايته. أولاً، شرح كيف التقى هو وامرأة تدعى مِيسِي، وكلاهما وحيدٌ في العالم، في صالة رقص في سان لويس، ووقعا في الحب، وارتبطا برباط الزواج المقدس. شرح كيف أَبَقَتْهُ مِيسِي، عندما بدأت الحرب، قريبا منها بينما التحق جيرانه اللائقون جسمائيا بالمعمعة، وكيف أَحْكَمَتْ قبضتها فور أن ظهرت عليها بشارة الطفل. شرح كيف التحق بالجندية، بالرغم من تحذيراتها، وحارب في أوروبا، ثم رجع بعد سنوات ليجدها -تصديقا لعهد- اختفت هي والصبي من دون أثر. وأخيرا، وصف كيف رجع إلى محطة «يونيون ستیشن» ذلك اليوم، وركب أول قطار إلى أيِّ مكان، وظل يركب السكة الحديد من وقتها. وكانت واحدة من أكثر القصص التي سمعها وولي في حياته حزنا.

لبرهة، ران الصمت على الجميع. حتى دوقة، الذي لطالما انتظر أن ينهي الشخص قصته ليُلحِقها هو بقصة من عنده، التزم الصمت، وقد استشعر، ربما، مثلما استشعر وولي، أن شيئا عظيم العاقبة يتكشف أمام عيونهم مباشرة.

بعد بضع دقائق، وكأنما احتاج إلى برهة الصمت تلك ليستجمع شتات نفسه، أكمل يوليسيس: من رأيي، يا بروفيسور، أن كل شيء ثمين في الحياة يجب أن يُكسب عن استحقاق. ينبغي أن يُكسب عن استحقاق. لأن مَنْ يُمنَح شيئاً ثميناً من دون أن يكسبه بجهد سيبدده حتماً. أعتقد أن الإنسان ينبغي أن يكسب الاحترام. ينبغي أن يكسب الثقة. ينبغي أن يكسب حبَّ امرأة، وحقَّ أن يدعو نفسه رجلاً. وينبغي أيضاً أن يكسب الحقَّ في الأمل. ذات مرة كان لديّ نبعٌ فيّاضٌ من الأمل - نبع لم أكسبه بجهدٍ. ولأنني لم أعرف قيمته، بددته يوم تركتُ زوجتي وطفلي. لذا على مرّ تلك السنوات الثماني والنصف، تعلّمتُ أن أعيش من دون أمل، تماماً مثلما لا بُدَّ عاش قاييل فورَ أن دخل أرض نود⁽¹⁾.

أن تعيش من دون أمل، قال وولي لنفسه وهو يومئ برأسه ويمسح الدموع عن عينيه. أن تعيش في أرض نود من دون أمل. قال يوليسيس: ذلك إلى أن قابلتُ هذا الصبي. من دون أن يرفع نظره عن البروفيسور، وضع يوليسيس يداً على كتف بيلي.

-عندما قال بيلي إنني، كحامل لاسم يوليسيس، قد أكون منذوراً للرؤية زوجتي وطفلي من جديد، شعرتُ بجيشان في داخلي. وعندما قرأ لي من كتابك، شعرتُ به أقوى. أقوى بكثير، حتى إنني تجرأت وقلت لنفسِي، لعلي، بعد كل تلك السنين من السفر بمفردي في طول البلاد وعرضها، كسبتُ أخيراً الحق في الأمل من جديد.

وإذ قال يوليسيس هذا، اعتدل وولي في جلسته. في وقت سابق من ذلك اليوم، كان قد حاول أن يشرح لأخته سارة كيف يمكن للعبارة التقريرية المتخفية في هيئة سؤال أن تكون شيئاً قبيحاً. لكن إلى جوار

(1) أرض نود، أو أرض المنفى: الأرض التي نُفي إليها قاييل بعدما قتل أخاه هاييل، وفقاً لسفر التكوين. (م)

نار المخيم، عندما قال يوليسيس للبروفيسور أبرناثي، لعلِّي كسبتُ أخيراً الحق في الأمل من جديد، فهمّ وولي أنه الآن أمام سؤال متخفّ في هيئة عبارة تقريرية. ووجده شيئاً جميلاً.

كذلك بدا أن البروفيسور أبرناثي يفهم هذا. إذ بعد برهة من الصمت، قدّم إجابة. وبينما تحدّث البروفيسور، جعلَ يوليسيس يُنصت بنفس الاهتمام الذي أبداه له البروفيسور وهو يسرد حكايته.

- حياتي كانت، على حالتها هذه، يا مستر يوليسيس، نقيضاً لحياتك في الكثير من المناحي. لم يسبق لي قط أن ذهبتُ إلى حرب. لم أسافر في طول البلاد وعرضها. بل إني، على مدار معظم السنين الثلاثين الأخيرة، ظللت في جزيرة مانهاتن. وعلى مدار معظم السنين العشر الأخيرة، ظللت هناك. استدار البروفيسور، وأشار إلى مبنى إمباير ستيت.

- هناك جلستُ في غرفة، محاطاً بالكتب من كل جانب، منعزلاً عن أصوات الجنادب والنوارس بقدر انعزالي عن ربوع العنف والحنان. إذا كنت محقّقاً، وأظنك محقّق - أن الشيء الثمين ينبغي أن يُكسب وإلا سيُبدّد حتمًا - إذا فأنا، بكل تأكيد من المبدّدين. شخصٌ عاش حياته بضمير الغائب وفي زمن الماضي. لذا دعني أستهل كلامي باعتراف أن كل ما أقوله لك، أقوله بأكبر قدر من التواضع.

أحنى البروفيسور رأسه ليوليسيس في حركة مراسميّة. - لكن بعد أن اعترفتُ بأنني عشتُ حياتي عبر الكتب، أستطيع أن أقول إني، على الأقل، فعلت ذلك بإخلاص. ما يعني، يا مستر يوليسيس، أنني قرأت كمّاً كبيراً. قرأت آلاف الكتب، والكثير منها أكثر من مرة. قرأت تواريخ وروايات، مصنّفات علميّة ودواوين شعر. ومن كل تلك الصفحات تلو الصفحات، كان ممّا تعلمتُ أن الخبرة البشرية تنطوي على تنوع يكفي كل شخص في مدينة بحجم نيويورك لأن يطمئن إلى تفرد خبرته. وهذا شيء رائع. لأنه لكي نصبو إلى شيء ما، لكي نقع في الحب، لكي نتعثر مثلما نفعل ثم نهض ونواصل، يجب أن نؤمن على مستوى ما أن ما نمر به لم يَعْشه أحدٌ من قبل مثلما عشناه.

حوّل البروفيسور أنظاره عن يوليسيس لكي ينظر في عيون كل المتحلّقين في الدائرة، بمن فيهم وولي. لكنه عاد وصوّب نظره على يوليسيس، ورفع إصبعًا في الهواء، مستطرّدًا: مع ذلك، بعد أن لَفْتُ إلى أن ما لدينا من تنوّعات في الخبرة البشرية يكفي للحفاظ على إحساسنا بالفردانية في مَحَلّة شاسعة مثل مدينة نيويورك، أعود وأؤكد على اعتقادي الراسخ أن ما لدينا من تنوّعات لا يزيد على ذلك. إذ لو استطعنا تجميع كل القصص الشخصية التي عِشَتْ في مدن وبلدات مختلفة حول العالم وعبر الزمن، لا يساورني أدنى شك أننا سنكتشف أن العالم زاخرٌ بالأقران. رجال كانت حياتهم -بالرغم من اختلاف طفيف هنا وهناك- تُشبه بالضبط حياتنا في كل وجه من الوجوه. رجالٌ أَحَبُّوا مثلما نحب، وبكوا مثلما نبكي، وأنجزوا ما ننجزه وأخفقوا مثلما نخفق، رجالٌ جادلوا وعَقَلُوا وضحكوا مثلنا تمامًا. نظر البروفيسور حوله مجددًا.

-مستحيل، تقولون؟

ولو أن أحداً لم ينطق بكلمة.

-من المبادئ الأساسية للانهاية أنها لا تقتصر، بالتعريف، على واحدٍ فقط من كل شيء، بل تتسع لَصُنُوهِ الثاني، وكذا صُنُوهِ الثالث. الحقيقة أن تخيّل وجودِ نُسخٍ إضافية من ذواتنا مبعثرة عبر التاريخ البشري أمرٌ أقلّ غرائبية بكثير من تخيّل عدم وجودها.

عاد البروفيسور يحوّل نظره إلى يوليسيس.

-لذلك، هل أعتقد أن حياتك قد تكون صدّي لحياة يوليسيس العظيم، وأن الثّام شَمَلِك بعد عشر سنين مع زوجتك وابنك أمرًا ممكنًا؟ أنا متأكد من هذا. كان يوليسيس قد أنصت إلى ما قاله البروفيسور بأكبر قدر من الجدية. الآن، نهض، ونهضَ البروفيسور، وتصافحا بحرارة، وقد بدا على كلّ منهما أنه وجد عزاءً غير متوقّع من الآخر. لكن عندما ترك الرجلان يديهما تسقطان واستدار يوليسيس، أمسكه البروفيسور من ذراعه واستوقفه.

-لكن ثمة شيئاً عليك أن تعرفه، يا مستر يوليسيس. شيء لم أضعه في كتاب بيلى. في وسط أسفاره، عندما زار يوليسيس العظيم العالم السفلي وقابل روح تايريسياس، أخبره العراف العجوز أنه قد كُتِبَ عليه التيه وسط البحار إلى أن يسترضي الآلهة بفعل من أفعال العرفان.

لو كان وولي في مكان يوليسيس لشعر بهزيمة ثقيلة لدى سماع هذا الخبر الإضافي. بيد أن ذلك لم يبدُ على يوليسيس. عوضاً عن ذلك، أوماً برأسه للبروفيسور، وكأن هذا ما ينبغي أن يكون.

-أيّ فعل عرفان؟

-ما يقوله تايريسياس ليوليسيس هو أنه يجب أن يأخذ مجدافاً ويحمله إلى أعماق الريف إلى أن يبلغ أرضاً لا تعرف شيئاً عن البحر حتى إنّ عابر السبيل سوف يستوقفه ليسأله: ما ذاك الذي تحمله على كتفك؟ في تلك البقعة، كان على يوليسيس العظيم أن يغرس مجدافه في الأرض على شرف بوسيدون، ومن بعدها يصير حرّاً.

قال يوليسيس: مجداف...

وردّ البروفيسور متحمساً: نعم، في حالة يوليسيس العظيم، مجداف. لكن في حالتك، سيكون شيئاً مختلفاً. شيء وثيق الصلة بقصتك أنت. بسنوات تجوالك أنت. شيء... بدأ البروفيسور ينظر حوله.

-شيء مثل ذاك!

انحنى يوليسيس، والتقط قطعة الحديد الثقيلة التي أشار إليها البروفيسور، وقال: وتَدُّ تأريض؟

قال البروفيسور: نعم. وتَدُّ تأريض. يمكنك أن تحمل ذلك إلى مكان لا يعرف فيه الناس أيّ شيء عن السكك الحديدية، حتى يسألك عابر السبيل ما هذا، وفي تلك البقعة، ينبغي عليك أن تدقّه في الأرض.

عندما صار وولي وبيلى ودوقة مستعدين للمغادرة، قرر البروفيسور

أبرناثي البقاء لكي يتحدث مع يوليسيس أكثر. ثم، بعد بضع دقائق من ركوب ثلاثتهم في الكاديلاك، استسلم بيلى ودوقة للنوم. لذا، بينما يقود وولي على طريق «ويست سايد» السريع باتجاه منزل أخته، حظى بلحظة مع النفس.

لو التزم وولي جادة الصراحة، لقال إنه يفضل، في أغلب الأوقات، ألا يحظى بلحظة مع النفس. فاللحظات مع الآخرين تمتلئ عمومًا بالضحكات والمفاجآت مقارنة باللحظات مع النفس. واللحظات مع النفس تدور عمومًا كدوامة في أعماق المرء صوب فكرة لا يريد أن تخامره في المقام الأول. لكن في هذه المناسبة، في هذه المناسبة التي وجد وولي نفسه فيها يحظى بلحظة مع النفس، استقبل الأمر بالترحاب.

وفرت له تلك الفرصة استعراض ما مرَّ به في يومه ذاك. لقد بدأ في «فاو شوارتز»، عندما كان واقفًا في مكانه المفضل وظهرت أخته فجأة. ثم عبر معها الشارع إلى البلازا لأجل الأيام الخوالي، حيث شربا الشاي مع الباندا وأعادا سرد بعض من قصص زمان العظيمة. لدى افتراقه عن أخته، وإذ وجدّه يومًا جميلًا، سار وولي على قدميه طويلًا إلى ميدان «يونيون سكوير» لكي يقدم التحية لأبراهام لينكون. ثم انطلق إلى السيرك، وفوق جسر بروكلين، وصعودًا في مبنى إمباير ستيت حيث أنعم البروفيسور أبرناثي على بيلى بدفتر مليء بالصفحات البيضاء لكي يُسطر فيها مغامراته. بعدها أخذهم بيلى جميعًا إلى سكة عالية تطاولت فيها الأعشاب، حيث جلسوا حول نار مخيم ينصتون إلى الحوار الاستثنائي بين يوليسيس والبروفيسور. لكن بعد ذلك، بعد كل كل ذلك، عندما حان وقت المغادرة أخيرًا، وبعد أن صافح يوليسيس بيلى وشكره على صداقته، وبعد أن تمنى بيلى ليوليسيس التوفيق في مسعاه للعثور على أسرته، خلع بيلى قلادة من حول عنقه، وقال ليوليسيس: هذه ميدالية القديس كريستوفر، راعي المسافرين. أهدتها لي الأخت أغنس قبل رحلتنا إلى نيويورك، لكني أظن أنه ينبغي أن تأخذها الآن.

عندها، ولكي يستطيع تعليق الميدالية حول عنقه، ركع يوليسيس أمام بيلي، تمامًا مثلما ركع أعضاء المائدة المستديرة أمام الملك آرثر لكي ينصّبهم فرسانًا.

قال وولي، لا لأحدٍ إلا لنفسه، وهو يمسح دمعة عن زاوية عينه: عندما تضع كل ذلك، عندما تضع كل ذلك معًا على هذا النحو، حيث البداية في البداية، والوسط في الوسط، والنهاية في النهاية، لا شك أن ذلك اليوم كان يومًا من النوع الفريد من نوعه.

ثلاثة

—•—

وولي

كُزبرة! قال وولي لنفسه بحماسة.

إذ بينما كان دوقة يوضح ليلي كيف يقلّب الصلصة كما ينبغي، شرع وولي في ترتيب رفّ التوابل هجائياً. ولم يستغرق وقتاً طويلاً ليكتشف عدد التوابل التي تبدأ بالحرف C. في الرفّ بأكمله صنف واحد يبدأ بالحرف A: ألا وهو Allspice (بُهار)، أيّا كان معناه. وتلا البهارَ صنفان فقط يبدأان بالحرف B: ألا وهما Basil (ريحان) و Bay Leaves (ورق لاورا). لكن فور أن انتقل وولي إلى التوابل التي تبدأ بالحرف C، بدا أنها لا تنتهي! حتى الآن كان لديه Cardamom (حبّ هال)، و Cayenne (فلفل حار)، و Chili Powder (شطّة)، و Chives (ثوم مُعَمَّر)، و Cinnamon (قرفة)، و Cloves (قرنفل)، و Cumin (كُمُون)، والآن، و Coriander (كُزبرة).

أمر يدعو للعجب بكل تأكيد.

ربما، فكر وولي، ربما يشبه مسألة حرف W في بداية أدوات الاستفهام. عند لحظة معينة في العصور الغابرة، لا بدّ أن الحرف C بدا مناسباً على وجه الخصوص لتسمية التوابل.

أو ربما حدث ذلك في مكان ما في العصور الغابرة. مكان كان فيه لحرف C سلطانٌ أكبر على الحروف الهجائية. فجأة، هُيئَ لـ وولي أنه يتذكر معلومة من أحد فصول مادة التاريخ تقول إنه في سالف العصر والأوان، كان هناك شيء يسمى «طريق التوابل» -درب طويل وعسير يسافر عليه التجّار لكي يجلبوا توابل الشرق إلى مطابخ الغرب. بل وتذكّر خريطة ذات سهم يتعرّج عبر صحراء غوبي وفوق جبال الهيمالايا إلى أن يهبط بأمان في فينيسيا، أو نحو ذلك.

بدا منطقياً لوولي أن تكون التوابل التي تبدأ بالحرف C قد نشأت على

الجانب الآخر من الكرة الأرضية، إذ إنه لم يعرف حتى مذاق نصفها. كان يعرف القرفة، بالطبع. بل إنها من نكهاته المفضلة. إذ لا تُستخدم فقط في صناعة فطيرة التفاح واليقطين، بل تُعدُّ أيضًا شرطًا لا غنى عنه لكعك القرفة⁽¹⁾. لكن حبّ الهال، والكمّون، والكزبرة؟ بدت تلك الكلمات الغامضة لولي ذات جرس شرقي مميز.

-أها!

قالها وولي عندما اكتشف زجاجة الكاري Curry المختبئة خلف الروزماري في الصف قبل الأخير من الرفّ.

إذ إن الكاري كان قطعًا وبالتأكيد نكهةً من الشرق.

أفسح وولي مكانًا، ودسّ الكاري بجانب الكمّون. ثم حوّل انتباهه إلى الصف الأخير، وهو يمر بأصابعه على ملصقات المردقوش، والمريمية، وال...

-ماذا تفعل هذه الزجاجة هنا بحق الأرض؟

كذلك تساءل وولي بينه وبين نفسه.

لكن قبل أن يتمكن من الإجابة على سؤاله، كان دوقة يسأل سؤالًا آخر.

-أين ذهب؟

رفع وولي رأسه عن رفّ التوابل، فاكتشف دوقة في مدخل الباب ويدها في خاصرته من دون أثر لبيلي.

-ما إن أدير له ظهري حتى يتخلى عن موقعه.

كان ذلك صحيحًا، فكّر وولي. لقد غادر بيلي المطبخ رغم كونه مسؤولًا عن تقليب الصلصة.

سأل دوقة: لم يرجع إلى الساعة اللعينة، أليس كذلك؟

-دعني أتحقّق.

بهدوء، مضى وولي في الطُّرقة واختلس النظر إلى غرفة المعيشة، حيث كان بيلي، في الحقيقة، قد رجع إلى ساعة الأجداد.

(1) شرطًا لا غنى عنه: باللاتينية في الأصل (sine qua non). (م)

في وقت سابق من ذلك الصباح، عندما سأَل بيلي متى سيصل إيميت، أجابه دوقه بقدر كبير من الثقة أنه سيكون موجودًا في وقت العشاء -الذي تَقَرَّر أن يُقدَّم الساعة الثامنة بالتمام والكمال. عادةً، كان ذلك سيدفع بيلي إلى إلقاء نظرة بين حين وآخر على ساعته واردة مخلفات الجيش، بيدَ أن إيميت كسرَ الساعة في قطار البضائع. لذا لم يكن أمامه فعليًا إلا أن يقوم بزيارة بين حين وآخر إلى غرفة المعيشة، حيث كانت عقارب ساعة الأجداد تشير الآن، على نحو لا لَبَسَ فيه، إلى 7:42.

رجع وولي إلى المطبخ على أطراف أصابعه لكي يشرح الأمر لدوقه عندما رنَّ الهاتف.

-الهاتف! لعلَّه إيميت.

هكذا صاح وولي لنفسه، وأخذ وولي التفافة سريعة ليدخل مكتب زوج أخته، ودار حول المكتب ورفع السماعه في الرنَّة الثالثة.

-ألو، ألو.

قالها بابتسامة.

للحظة قوبِلت تحية وولي الودودة بالصمت. ثم طُرِح سؤالٌ بصوت لا يمكن أن يوصَف إلا بأنه حادّ.

-مَن هذا؟ أهو أنت يا والاس؟

أرادت المرأة على الجانب الآخر من الخط أن تعرف.

وضع وولي السماعه.

للحظة ظل يحرق في الهاتف. ثم نَتَشَّ السماعه من حاملها، وأسقطها على المكتب.

أكثر ما أحبَّه وولي في لعبة «تليفون» أن العبارة التي تخرج من آخر المكالمه تخرج أحيانًا شديدة الاختلاف عن العبارة التي دخلت في أوَّلها. تخرج أحيانًا أكثر غموضًا، أو إدهاشًا، أو ظُرفًا. لكن عندما يتحدث شخص مثل أخته كيتلين في «تليفون» حقيقي، لا تخرج العبارة أكثر غموضًا أو إدهاشًا أو ظُرفًا ولو قليلًا. بل تخرج حادَّة مثلما دخلت في البداية.

على سطح المكتب، بدأت السماعه تطنُّ مثل بعوضة في غرفة نوم عند

منتصف الليل. أراح وولي التليفون بيده إلى داخل أحد الأدراج وأغلقه بقدر الإمكان بالنظر إلى السلك البارز منه.

-مَن المتَّصل؟

سأل دوقة، عندما رجع وولي إلى المطبخ.

-النمرة غَلَطَ.

بيلي، الذي لا بُدَّ تمنَّى لو كان إيميت هو المتصل، استدار إلى دوقة وقد ارتسمت على وجهه نظرة قلق، وقال: إنها الثامنة تقريبًا.

-فعلًا؟

قالها دوقة، بطريقة توحى بأن لا فرق بين ساعة وأخرى.

قال وولي، على أمل تغيير الموضوع: كيف حال الصلصة؟ مدَّ دوقة ملعقة التقلب لبيلي.

-لماذا لا تجربُها؟

بعد لحظة، أخذ بيلي الملعقة وغمسها في القدر.

حذَّره وولي: تبدو ساخنة جدًّا.

أوماً بيلي برأسه ونفخَ بحرص. عندما وضع الملعقة في فمه، مال وولي ودوقة إلى الأمام معًا، متلهَّفين على سماع الحكم. لكن ما سمعاه عوضًا عن ذلك كان «دينغ دونغ»، من جرس الباب.

تبادل الثلاثة النظرات. ثم اندفع بيلي ودوقة مثل طَلقة، الأول في الطَّرقة والآخر عبر باب غرفة الطعام.

ابتسم وولي للحظة لدى رؤية ذلك. غير أن فكرة مقلقة خطرت له بعدها. ماذا لو كان ذلك مثالًا آخر على قِطْ شرودنغر؟ ماذا لو كان قرعُ الجرس يستهل حقيقتين احتماليتين مختلفتين؛ مثلًا إذا فتح بيلي الباب سيكون إيميت هو الواقف على الدَّرَج الخارجي، بينما إذا فتحه دوقة، سيكون بائعًا متجولًا يتنقَّل من باب إلى باب؟ في حالة اللا يقين العلمي والقلق المتزايد تلك، اندفع وولي في الطَّرقة.

دوقة

عندما كان الأولاد الجدد يصلون إلى سان نيكولاس، كانت الأخت أغنيس تكلفهم بالعمل.

كانت تقول: إذا طلبَ منّا تكريس أنفسنا لما هو أماننا، تقلُّ احتمالية أن نتضرر على ما ليس أماننا. لذا عندما يظهرون على العتبة وقد ارتسم على وجوههم شيءٌ من الصدمة، شيءٌ من الخجل، ويكونون عمومًا على حافة البكاء، كانت ترسلهم إلى غرفة الطعام لكي يضعوا الفضيات من أجل الغداء. وفور أن ينتهي إعداد الطاولة، ترسلهم إلى الكنيسة ليضعوا كتب التراتيل على المقاعد. وفور أن تصير كتب التراتيل في أماكنها، نجد مناشفَ تحتاج إلى جَمْع، وملاءاتٍ تحتاج إلى طَيٍّ، وأوراق شجر تحتاج إلى كنس - إلى ألا يعود الأولاد الجدد جدًّا.

وهذا ما فعلته مع الصبي.

لماذا؟ لأن الفطور لم يكن قد انتهى بعدُ حتّى، عندما وجدته يسأل متى يصل أخوه.

شخصيًا، لم أتوقع ظهور إيميت قبل الظهيرة. فلأنني أعرف تشاريتي، قدّرتُ أن يديه ستظلان مشغولتين حتى الثانية صباحًا. وبافتراض أنه سينام حتى الحادية عشرة ثم يتلصق قليلًا تحت الأغطية، فقد يصل إلى هاستينغز أون هُدسون بحلول الثانية بعد الظهر على الأقل. ولأكون في مَأْمَن، أخبرتُ بيلي أنه سيكون هنا وقت العشاء.

-ومتى يحين وقت العشاء؟

-الساعة الثامنة.

سأل وولي: بالتمام والكمال؟

وأكدت: بالتمام والكمال.
أوما بيلي برأسه، واستأذن بأدب لكي يزور الساعة في غرفة المعيشة،
ورجع حاملاً خبرَ أنها 10:02.

كانت النتيجة الضمنية واضحة بما يكفي. هناك 589 دقيقة بين الآن
ووصول شقيقه الموعود، وكان بيلي ينوي عدَّ كلَّ واحدة منها. فور أن بدأ
وولي يغسل أطباق الفطور، سألتُ بيلي أن يمدَّ يده معي.
أولاً، أخذته إلى خزانة البياضات، حيث أخرجنا مفرشاً فاخراً وفرشناه
على مائدة غرفة الطعام، حريصين على أن ينسدلَ من فوق الأطراف
بالتساوي. أمام الأماكن الأربعة المخصصة لجلوسنا، وضعنا مناديلَ من
الكتان، كل منها مزينٌ بتطريزٍ مختلف من الزهور. وعندما حوّلنا انتباهنا
إلى خزانة التحف ولفَت بيلي إلى أنها موصّدة، لفَتُ إلى أن المفاتيح نادراً
ما تبتعد عن ثقبِها، ومددتُ يدي إلى داخل السلطانية.
-فوالا!

وإذ انفتح باب خزانة التحف، خرجت صحون الصيني الفاخرة لأجل
المقَبَّلات، والطبق الرئيسي، والتحلية. وخرج الكريستال لأجل الماء
والنبيد. وخرج شمعدانان والحقيبة السوداء المسطّحة التي تحفظ فضيات
الأسرة.

بعد أن علّمتُ بيلي كيف يرتب أدوات المائدة، ظننتني سأضطر إلى
تقجيل العمل وراءه فور أن ينتهي منه. لكن تبَيَّن أن بيلي، عندما يتعلق الأمر
بتجهيز الموائد، موهوبٌ بالفطرة. بدا كأنه وضع كل شوكة، وسكينة،
ومعلقة مستخدماً مسطّره وبوصلته.

وإذ رجعنا خطوتين لنستمتع بصنِعة أيدينا، سألني إن كنا سنتناول عشاءً
خصوصيّاً الليلة.
-بالضبط.

-وما الذي يجعله عشاءً خصوصيّاً يا دوق؟

-لأنه لَمْ شملِ يا بيلي. لَمْ شملِ للفرسان الأربعة.

افترَّ وجه الصبي عن ابتسامة عريضة لتلك الدعابة، لكن جبينه سرعان ما انعقد. مع بيلي واطسن لا يمتد الفاصل بين الابتسامة والتكشيرة لأكثر من لحظة.

-إذا كان عشاءً خصوصيًا، فماذا سنأكل؟

-سؤال ممتاز. بناءً على طلب وولي مارتن، سنتناول شيئًا صغيرًا اسمه فيتوتشيني ميو أموري. وهذا، يا صديقي، طبق خصوصي بمعنى الكلمة. بعد أن جعلتُ بيلي يدوّن قائمة تسوّق لكل المكونات التي سنحتاج إليها، انطلقنا إلى جادة آرثر، ونحن نفود بسرعة ثلاثمئة سؤال في الساعة. -ما هي جادة آرثر يا دوقة؟

-هي السكة الرئيسية في القسم الإيطالي من برونكس يا بيلي.

-وما هو القسم الإيطالي؟

-إنه المكان الذي يعيش فيه الطليان.

-ولماذا يعيش كل الطليان في مكان واحد؟

-لكي يستطيع كل منهم التدخل في شؤون الآخر.

ما هي التراتوريا يا دوقة؟ ما هو البايسانو؟ ما هو الخرشوف والبانشيتا والتيراميسو؟⁽¹⁾

عندما رجعنا بعد بضع ساعات، كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا على الطبخ، لذا، وإذ سبقَ وتأكدتُ أن رياضيات بيلي على أعلى مستوى، أخذته إلى داخل مكتب زوج أخت وولي لإنجاز بعض الحسابات. أجلسته إلى المكتب ومعه دفتر وقلم رصاص، ورقدتُ على السجادة وأخذت أعدّد النفقات التي كنا أنا ووولي قد راكمنّاها منذ غادرنا سان نيكولاس. صفائح البنزين الستُّ؛ الغرفة والوجبات في فندقيّ «هوارد

(1) التراتوريا: نوع من المطاعم الإيطالية الصغيرة. البايسانو: الأمريكي ذو الأصول الإيطالية. البانشيتا: لحم خنزير مقدّد على الطريقة الإيطالية. التيراميسو: من الحلويات الإيطالية الشهيرة. (م)

جونسونز؛ الإقامة والمناشف في فندق «صَن شاين»؛ والوجبتان في المطعم في الجادة الثانية. ولكي أكون في الجانب الآمن، جعلته يضيف عشرين أخرى للمصروفات المستقبلية، ثم يجمع القائمة كلها تحت عنوان «مصروفات تشغيل». فور أن نستعيد وديعة وولي من الأديرونداك، سنعوّض تلك التكاليف لإيميت قبل تقسيم أيّ دولار.

في عمود منفصل تحت عنوان «مصروفات شخصية»، جعلتُ بيلي يُدرج مكالمة المسافات الطويلة لساينا؛ ثم عشر دولارات لبيري في فندق «صَن شاين»؛ وزجاجة الويسكي لفيتزي؛ والشامبانيا والرفقة عند ما بل، وإكراميّة الحاجب في مبنى إمباير ستيت. وحيث إن أياً من تلك النفقات لم تكن ضرورية لمسعانا المشترك، قدّرتُ أنها ينبغي أن تُدفع من طرفي. في اللحظة الأخيرة، تذكرتُ المصروفات في جادة آرثر. قد تقول إنها تنتمي لفئة «مصروفات التشغيل»، حيث إننا سنأكلها جميعاً معاً. لكن في نوبة كرم، قلتُ لبيلي أن يضعها تحت العمود الخاص بي. الليلة سيكون العشاء على حسابي.

فور أن سجّل بيلي كل الأرقام وراجع مجموع المبالغ، شجّعته على أن يُخرج ورقة جديدة ويُسطر المجموعَيْن. لدى اقتراح كهذا، سيرغب معظم الصبية في معرفة لماذا بعد أن أنجزوا المهمة مرّة، يُضطرون إلى إنجازها مرة أخرى. لكن ليس بيلي. بتفضيله الغريزي لكل ما هو مرتّب وأنيق، أخرج ورقة جديدة وبدأ ينسخ عمله بالدقة نفسها التي وضع بها الشوكات والسكاكين على المائدة.

عندما انتهى بيلي، أوماً برأسه ثلاث مرات، معطيّاً المجموع ختم الجودة. لكنه سرعان ما عاد وقطب جبينه.

-ألا ينبغي أن يكون لها عنوان يا دوق؟

-فيم تفكر؟

فكر بيلي في الأمر لحظة قبل أن يعضّ على طرف القلم الرصاص. ثم بعد كتابته بحروف كبيرة، قرأ: الطيشة.

الآن، ما رأيك في ذلك؟

عندما انتهى تقرير المصروفات، كانت الساعة تجاوزت السادسة -الوقت المناسب للشروع في الطبخ. بعد أن وضعنا المكوّنات، علّمتُ ببلي كل شيء كان لُو، شيف «ليونيللوز»، علّمني إيّاه. أولاً، كيف تصنع صلصة طماطم أساسية من طماطم معلّبة وسوفريتو (ما هي سوفريتو يا دوقة؟). فور أن صار ذلك على الموقد، بيّنتُ له كيف يقطع البيكون كما ينبغي وكيف يشرّح البصل كما ينبغي. أخرجتُ «كسرولة»، وبيّنتُ له كيف يقلبها على طريقة «السوتيه» كما ينبغي، بعد أن يضع معها ورق اللاورا. كيف يسويّها على نار هادئة في النبيذ الأبيض مع الأوريغانو ورقائق الفلفل الحار. وأخيراً، كيف يقلّبها في كوب واحد من صلصة الطماطم، بلا ملعقة واحدة زائدة.

شرحتُ له: المهم الآن، أن تُبقي عينيك عليها يا ببلي. يجب أن أذهب إلى الحَمّام، لذا أريدك أن تقف هنا حيث أنت وتُعطيها تَقْلِيلِيّة من حين لآخر. اتفقنا؟
-اتفقنا يا دوقة.

ناولتُ ببلي الملعقة، واستأذنتُ منه واتجهتُ إلى مكتب دينيس. عندما قلت إنني لم أظن أن إيميت سيصل قبل الساعة الثانية، ظننتُ بكل تأكيد أنه سيصل قبل الساعة السادسة. بعد أن أغلقت الباب بهدوء، اتصلت بما بل. استغرق الأمر عشرين رنةً قبل أن تجيب، لكن بعد أن أسمعَتنِي كلمتين عن آداب اللياقة والاتصال بشخص وهو في منتصف حَمّامه، أحاطتني علماً بكل ما حدث.
-آه أوه.

قلتها وأنا أضع السماعة. بعد أن أنجزتُ حساباً مع ببلي، وجدتُ نفسي أقوم بحساب آخر وحدي: لقد كان إيميت مغتاضاً بعض الشيء بشأن الستادبيكر، لذا أردت تعويضه بإهدائه ليلة مع تشاريتي؛ لكن الواضح أن الأمور لم تَسِر كما

خططت. كيف كان لي أن أعرف أن دواء وولي بهذه القوة؟ وما زاد الطين
بلة: نسيت أن أترك عنواناً. صحيح، فكرت في نفسي، ثمة احتمال كبير أن
أجد إيميت، لدى وصوله، في مزاج سيئ. هذا بافتراض أنه سيتمكن من
العثور علينا...

رجعت إلى المطبخ، فرأيت وولي يحدق في رفّ التوابل ولا أحد يتابع
الصلصة. هنا بدأت الأمور تتسارع.

أولاً، ذهب وولي للاستطلاع.

ثم رنّ التلفون وظهر بيلي من جديد.

ثم رجع وولي وهو يقول النمرة غلط، وأعلن بيلي أنها الثامنة تقريباً،
ودقّ جرس الباب.

أرجوك، أوه أرجوك، أوه أرجوك، قلتُ لنفسي وأنا أندفع في الطُّرقة.
وإذ كان الفزع في قلبي وبيلي في ذيلي، فتحتُ الباب -وهناك كان إيميت
في طقم ملابس جديد، يبدو منهكاً بعض الشيء.

قبل أن تسنح الفرصة لأيّ شخص بالكلام، بدأت الساعة في غرفة
المعيشة تدقّ ثمانى دقائق.

استدرتُ إلى بيلي، ومددت ذراعيّ إلى الأمام وقلت: ماذا قلت لك،
يا فتى؟

إيميت

في بداية السنة الدراسية قبل الأخيرة لإيميت، عرض مدرّس الرياضيات، مستر نيكرسون، «مفارقة زينون». في بلاد اليونان القديمة، دفع فيلسوف اسمه زينون بأن الانتقال من النقطة (أ) إلى النقطة (ب)، يوجب على المرء قطع نصف الطريق أولاً. لكن لكي يصل من نقطة منتصف الطريق إلى النقطة (ب)، سيصير عليه أن يقطع نصف تلك المسافة، ثم النصف من جديد، وهكذا. وعندما تُراكم كل أنصاف الأنصاف التي سيتوجب على المرء قطعها من نقطة إلى أخرى، فإن الاستنتاج الوحيد الذي يُستخلص من ذلك أن الأمر مستحيل.

قال مستر نيكرسون ذلك كمثال واضح على «الاستدلال المتناقض». فكر إيميت وقتها أنه مثال واضح على أن الذهاب إلى المدرسة يمكن أن يكون مهبطاً للوقت.

تخيّل، فكر إيميت، كلّ الطاقة العقلية التي بُذلت ليس فقط لصياغة هذه المفارقة، بل لنقلها عبر العصور، وترجمتها من لغة إلى لغة لكي يتمكن مدرّس من خربشتها على سبورة في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1952 -بعد أن كسر تشاك بيغر حاجز الصوت فوق صحراء موهافي بخمس سنوات.

لا بُد أن مستر نيكرسون لاحظ التعبير على وجه إيميت في آخر القاعة، لأنه، عندما دقّ الجرس، طلب من إيميت البقاء.

-فقط أريد أن أطمئن أنك تابعت النقاش هذا الصباح.

قال إيميت: تابعت.

-وما رأيك؟

نظر إيميت من النافذة للحظة، غير واثق إن كان يجدر به أن يشارك وجهة نظره.

شجعه مستر نيكرسون: هيا. أريد أن أسمع رأيك.
طيب إذًا، فكر إيميت.

-تبدو لي طريقة طويلة ومعقدة لإثبات شيء يستطيع أن ينقضه أخي ابن الست سنوات في غضون ثوانٍ مستخدمًا قدميه.

لكن بينما يقول إيميت هذا، لم يبدُ على مستر نيكرسون أيُّ قدر من الإحباط. عوضًا عن ذلك، جعل يومئ برأسه بحماسة، وكأن إيميت على وشك تحقيق اكتشاف لا يقل أهمية عن اكتشاف زينون.

-ما تقوله يا إيميت، بحسب فهمي، إن زينون تتبّع برهانه من أجل الجدل لا من أجل قيمته العملية. ولست وحدك في إبداء تلك الملاحظة. الحقيقة، لدينا كلمة لهذه الممارسة، وهي قديمة قدم زينون تقريبًا: سفسطائية. من الكلمة اليونانية سوفيستس -مدرّسو الفلسفة والبلاغة الذين كانوا يدربون طلابهم على مهارات إقامة حجج قد تكون بارعة أو مقنعة لكنها لا تركز بالضرورة على أساس في الواقع.

بل إن مستر نيكرسون كتب الكلمة على السبورة تحت رسمه التوضيحي للرحلة المُنصّفة على نحوٍ لا نهائي من (أ) إلى (ب).

أليس ذلك مثاليًا؟ فكر إيميت. علاوة على نقل دروس زينون، جعل العلماء ينقلون كلمة متخصصة، الغرض الوحيد منها تعريف ممارسة تدريس اللامعنى بوصفه معنى.

على الأقل هذا ما فكر فيه إيميت هناك، وهو يقف في فصل مستر نيكرسون. لكنه الآن، وهو يمشي في شارع متعرّج تصطف على جانبيه الأشجار في بلدة هاستنغز أون هدرسون، فكر أن زينون لم يكن مجنونًا إلى هذا الحدّ في نهاية المطاف.

ذلك الصباح، كان إيميت قد رجع إلى وعيه وهو يشعر وكأنه يطفو

- مثل شخص يحمله الماء في نهر عريض في يوم صيفي دافئ. عندما فتح عينيه، وجد نفسه تحت أغطية سرير غير مألوف. على الطاولة الجانبية رأى مصباحاً له مظلة حمراء صُبغت الغرفة بلون وردي. لكن لا الفراش ولا ضوء المصباح كانا ناعمين بما يكفي لتلطيف الصداع الذي تملك من رأسه.

أطلق إيميت آهة، وبذل جهداً لكي ينهض، لكن من الجانب الآخر من الغرفة تناهت طقات قدمين حافيتين، ثم ضغطت يدٌ برفق على صدره. -لا تتحرك ولا تُتعب نفسك بالكلام.

مع أنها ترتدي الآن بلوزة بيضاء بسيطة وشعرها مشدود إلى الخلف، تعرّف إيميت في مُمرّضته على المرأة الشابة في قميص النوم الشفاف التي كانت راقدة، في الليلة السابقة، حيث يرقد الآن.

استدارت تشاريتي تجاه الممر ونادت، لقد استيقظ، وبعدها بلحظة كانت ما بل، وقد ارتدت فستاناً بيئياً عملاقاً مزيناً بالزهور، تقف في مدخل الباب.

قالت: استيقظ إذا!

رفع إيميت نفسه مجدّداً، هذه المرة بمزيد من النجاح، لكنه إذ فعل ذلك انزلقت الأغطية عن صدره وأدرك أنه عارٍ، فأجفل. قال: ملابسي.

قالت ما بل: هل تظن أنني كنت سأسمح لهن بوضعك في أحد أسرّتي وأنت ترتدي تلك الأسمال القذرة؟ -أين هي...؟

-تنتظرك هناك على الكومود. الآن، لماذا لا تخرج من الفراش وتأتي لتأكل لقمة.

استدارت ما بل إلى تشاريتي.

-هيا يا حلوة. لقد انتهيت من قيام الليل...

عندما أغلقت المرأتان الباب، دفع إيميت الأغطية ونهض بحرص،

ووقف على قدميه بصعوبة. اتجه إلى الكومود ففوجئ بملابسه وقد غُسلت وطويت في كومة أنيقة، وحزامه ملفوف فوقها. وبينما يزرّر قميصه، وجد نفسه يحرق في اللوحة التي لاحظها الليلة السابقة. فقط، صار بإمكانه أن يرى الآن أن الصاري مائل ليس لأن السفينة تميل وسط ربح عاتية، لكن لأنها تتحطم على الصخور وبعض البحارة يتدلون من حبال الأشرعة، بينما يتدافع آخرون داخل زورق نجاة، وتبرز رأس أحدهم في الزبد الأبيض العالي في أثر مخر السفينة وقد أوشك إمّا أن ينقلب على الصخور أو يُكتسح إلى البحر.

مثلما يقول دوقه بلا كلل: بالضبط.

عندما خرج إيميت من غرفة النوم، حرص على الانعطاف يسارًا من دون أن ينظر إلى تعاقب الأبواب المسبّب للدوار. في الصالون، وجد ما بل في كرسي عالي الظهر وتشاريتي تقف إلى جوارها. على طاولة القهوة كانت كعكة فطور وقهوة.

ارتمت إيميت على الأريكة، ومسح عينيه بيديه.

أشارت ما بل إلى كيس مطاطي وردي اللون على صينية بجوار إبريق القهوة.

-لدينا كمّادة ثلج، إذا كنت من محبيها.

-لا، أشكرك.

أومات ما بل برأسها.

-عن نفسي، لم أفهم قط لماذا تستهوي كمّادة الثلج بعض الناس. بعد ليلة كبيرة، لن أرغب في كيس من الثلج في أي مكان بقربي.

ليلة كبيرة، فكر إيميت بهزة من رأسه.

-ما الذي حدث؟

-أعطوك «ميكي»⁽¹⁾.

(1) ميكي، أو ميكي فين Mickey Finn: مشروب كحولي وُضع فيه عقار مخدر بقصد تخدير شخص من دون علمه. (م)

قالتها تشاريتي بابتسامة شقاوة.

وعبست ما بل: لم يكن ميكى، يا تشاريتي. وليس هناك أعطوك. كان ذلك دوقه يتصرف كدوقه.

قال إيميت: دوقه؟

أومأت ما بل إلى تشاريتي: أراد أن يعطيك هدية صغيرة. على شرف إنهاء فترتك في مزرعة العمل تلك. لكنه خاف أن تصيبك «الخضة» -كونك مسيحيًا وبتولاً.

قالت تشاريتي تدعّمه: لا شيء يعيب المرء في كونه مسيحيًا أو بتولاً. وقالت ما بل: طيّب، لست متأكدة من ذلك. على أي حال، لكي نضعك في المزاج السليم، كان يفترض بي أن أقترح نخبًا وأن يذهب دوقه لكي يضع شيئًا صغيرًا في شرابك يساعدك على الاسترخاء. لكن الشيء الصغير لا بُد كان أقوى مما ظنّه، لأننا فور أن خرجنا إلى غرفة تشاريتي، درت حول نفسك مرتين وانطفأت الأنوار. أليس ذلك صحيحًا يا حلوة؟

قالت بغمزة: من حسن الحظ أنك سقطت في حجري. بدا أن كليهما يجدان هذا تطورًا مسليًا في مسار الأحداث. وجعل ذلك إيميت يضغط أسنانه بقوة.

قالت ما بل: أوه، لا تغضب منا كثيرًا الآن.

-إذا كنت غاضبًا، فليس منكم.

-طيّب، لا تغضب من دوقه أيضًا.

قالت تشاريتي: لم يقصد أن يضرك. فقط أرادك أن تقضي وقتًا لطيفًا.

وقالت ما بل: هذه حقيقة. وعلى حسابه.

لم يكلف إيميت نفسه عناء توضيح أن الوقت اللطيف المقصود، مثله مثل الشامبانيا ليلة أمس، قد دُفِع من ماله الخاص.

قالت تشاريتي: حتى عندما كان صبيًا صغيرًا، كان دوقه يحرص دائمًا على أن يقضي الجميع وقتًا لطيفًا.

واستطردت ما بل: على أيّ حال، يُفترض أن نخبرك أن دوقه، وأخاك،
وذلك الصديق الآخر.

-وولي.

قالت تشاريتي.

وقالت ما بل: صحيح. وولي. سيكونون جميعًا بانتظارك في بيت أخته.
لكن أولاً عليك أن تأكل شيئاً.

مسح إيميت عينيه بيده ثانية، وقال: لست متأكدًا أنني جائع.
قطبت ما بل جبينها.

انحنت تشاريتي إلى الأمام، وتكلّمت بصوت هامس: ما بل لا تقدم
الفطور عادة.

-أنت محقّة تمامًا. لا أقدم الفطور عادة.

قبل إيميت فنجانًا من القهوة وشريحة من كعكة القهوة من باب
التهذيب، وذكره ذلك بأن اللياقة غالبًا ما تعود على صاحبها بالنفع. إذ تبين
أن القهوة والكعكة هما ما يحتاج إليه بالضبط. حتى إنه قبل على الفور
واحدة أخرى من هذه ومن تلك.

وبينما يأكل، سأل كيف تعرّفت السيدات على دوقه في صباه.

قالت تشاريتي: والده كان يعمل هنا.

-ظننته كان ممثلًا.

قالت ما بل: كان ممثلًا فعلاً. وعندما لا يجد أيّ عمل على الخشبة،
كان يمثل دور النادل أو «المتز دوتيل». لكن لبضعة شهور بعد الحرب،
مثل دور مدير حلبتنا. هاري كان يستطيع أن يمثل أيّ شيء، أعتقد. لكن
معظم الوقت كان يمثل دورَ أعدى أعدائه.

-بأيّ طريقة؟

-هاري شخصية ساحرة لديها ضعف تجاه الخمرة. لذا بينما كان
يستطيع التأثير في الناس بكلامه ليحصل على وظيفة في غضون دقائق،
كان يستطيع أن يشرب إلى أن يُطرد منها بالسرعة نفسها.

سأل إيميت، مصدومًا بعض الشيء: كان يُحضِر دوقة إلى هنا؟
أجابت ما بل: صحيح. في ذلك الوقت، كان في الحادية عشرة من عمره
ربما. وبينما يعمل والده بالأسفل، كان يعمل هو معنا هنا في الصالون.
يأخذ القبعات ويصبُّ المشروبات للزبائن. وكان يكسب جيدًا أيضًا. ولو
أن والده لم يتركه يحتفظ بما يكسب.

نظر إيميت في أرجاء الغرفة، يحاول تخيُّل دوقة في سن الحادية عشرة
يأخذ القبعات ويصبُّ المشروبات في بيت سيئ السمعة.

قالت ما بل، وهي تتبَّع نظراته: لم يكن مثلما هو الآن. في ذلك الوقت
كان «السيرك» يمتلئ في ليالي السبت حتى لا يعود فيه مكان إلا للوقوف،
وكان لدينا عشر فتيات يعملن هنا بالأعلى. وزبائننا لم يكونوا من الأولاد
العاملين في القاعدة البحرية فقط. كان لدينا ناس من المجتمع.
قالت تشاريتي: حتى العمدة كان يأتي.

-وماذا حدث؟

هزّت ما بل كتفيها: الزمن تغير. والحي تغير. والأذواق تغيرت.

ثم جالت بأنظارها في الغرفة بقدر من الحنين.

-ظننتُ أن الحرب هي ما ستجعلنا نُفلس؛ لكن في نهاية المطاف،

كانت الضواحي هي السبب.

قُبيل الظهيرة، كان إيميت جاهزًا ليستأذن في المغادرة. وإذ تلقى قبلة
على الخد من تشاريتي ومصافحة باليد من ما بل، شكرهما على الملابس
النظيفة، وعلى الفطور، وعلى طيبتهما.

-إذا أعطيتني العنوان، سأنتقل في طريقي.

نظرت ما بل إلى إيميت.

-أيُّ عنوان؟

-عنوان أخت وولي.

-ومن أين لي أن أعرف؟

-ألم يتركه دوقة معك؟

-لم يتركه معي. ماذا عنكِ يا حلوة؟
عندما هزّت تشاريتي رأسها، أغمضت عينيها.
اقتَرَحَت تشاريتي متلهللة: لماذا لا نراجع دليل الهواتف؟
نظر كل من تشاريتي وما بل إلى إيميت.
-لا أعرف لقبها بعد الزواج.
-طيّب، أظن أنك تعيس الحظ جدًا.
-ما بل!

نهرتها تشاريتي.
-طيّب، طيّب. دعني أفكر.
نظرت ما بل بعيدًا للحظة.
-صديقك هذا - وولي. ما قصّته؟
-إنه من نيويورك...
-هكذا فهمنا. لكن في أيّ مجال؟
نظر إيميت إليها من دون أن يفهم.
-أيّ حي؟ بروكلين؟ كوينز؟ مانهاتن؟
-مانهاتن.

-هذه بداية. هل تعرف في أيّ مدرسة دَرَسَ؟
-دَرَسَ في مدرسة داخلية. سان جورج... سان بول... سان مارك...
قالت تشاريتي: إنه كاثوليكي.
قلّبت ما بل عينيها.

-هذه ليست مدارس كاثوليكية يا حلوة. هذه مدارس للـ«واسب»⁽¹⁾.
وهي مدارس مفتخرة. وحيث إنني عرفت الكثير والكثير من خريجيها،
أراهنك أن صديقك وولي من «أبر إيست سايد». لكن أيّ مدرسة ذهب
إليها: سان جورج، أم سان بول، أم سان مارك؟

(1) واسب WASP: اختصار لـ«البروتوستانت الأنغلو ساكسون البيض» (م)

-كلُّها.

-كلُّها؟

عندما شرح إيميت أن وولي طُرد من مدرستين، هزَّت ما بل رأسها ضاحكة.

أخيراً قالت: هُوَ، يا ولد. إذا طُردت من إحدى تلك المدارس، فيجب أن تكون من أسرة عريقة لكي يسمحوا لك بدخول أخرى. لكن أن تُطرد من مدرستين وتذهب إلى ثالثة؟ يجب أن تكون قد وصلت إلى أمريكا على ماي فلاور نفسها! ⁽¹⁾ إذا ما هو اسم شخصية وولي الحقيقية؟
-والاس وولكوت مارتِن.

-بالطبع! تشاريتي، لماذا لا تذهبين إلى مكتبي وتُحضرين الكتاب الأسود في دُرج المكتب.

عندما رجعت تشاريتي من الغرفة وراء البيانو، انتظر إيميت أن تحمل كتابَ عناوين صغيراً. عوضاً عن ذلك، كانت تحمل مجلداً أسود كبيراً عنوانه مكتوب بالأحمر الداكن.

شرحت ما بل: «السجل الاجتماعي». هنا تجد قائمة بالجميع.

سأل إيميت: الجميع؟

-ليس جميعي أنا. عندما يتعلق الأمر بـ«السجل الاجتماعي»، فقد كنتُ فوقه، وتحتَه، ووراءَه، وأمامَه، لكنني لم أكن فيه أبداً. لأنه صُمِّم لحصر الجميع الآخرين. هاك. أفسح مكاناً يا غاري كوبر.

عندما ارتمت ما بل على الأريكة بجوار إيميت، شعر بالوسائد تغوص بضع بوصات إلى أسفل. ألقى إيميت نظرة على الكتاب، فلم يستطع منع نفسه من ملاحظة أنه طبعة عام 1951.

قال: إنه قديم.

(1) ماي فلاور Mayflower: إحدى السفن التي استخدمها المهاجرون الأوائل للإبحار إلى أمريكا في القرن السابع عشر. (م)

أعطته ما بل تكشيرة.

-هل تظن أن الحصول على واحد من هذه أمر سهل؟
قالت تشاريتي: إنه لا يعرف.

-لا، أعتقد ذلك. اسمع، إذا كنت تبحث عن صديق بولندي أو إيطالي رسا أجداده على جزيرة إيليس⁽¹⁾، فأولاً، لن تجد كتاباً تبحث فيه. لكن حتى لو كان هناك كتاب، ستظل المشكلة أن أمثال هؤلاء يغيرون أسماءهم وعناوينهم مثلما يغيرون ملابسهم. لهذا السبب جاءوا إلى أمريكا في المقام الأول. للخروج من الخندق الذي وضعهم فيه أسلافهم.

بتبجيل، وضعت ما بل يدها على الكتاب في حجرها.

-لكن عند هؤلاء الناس، لا شيء يتغير. لا الأسماء. ولا العناوين. ولا أي شيء لعين. وهذا هو المغزى وراء كونهم من هم.

استغرق الأمر من ما بل خمس دقائق لكي تعثر على ما تبحث عنه. كشاب يافع، لم يكن لدى وولي مدخل خاص به في السجل، لكنه كان مذكوراً بوصفه واحداً من ثلاثة أبناء لمسر ريتشارد كوب، المولودة باسم وولكوت؛ أرملة توماس مارتين؛ عضو نادي «كولوني كلاب» و«بنات الثورة الأمريكية»⁽²⁾؛ من مناهاتن سابقاً، وتعيش حالياً في بالم بيتش. ابتناها، كيتلين وسارة، تزوجتا واسماهما مذكوران تحت مدخلي زوجيهما: مستر ومسر لويس ويلكوكس من موريسيتاون، نيو جيرسي، ومستر ومسر دينيس ويتني من هاستنغز أون هدسون، نيويورك.

لم يكن دوقة قد قال أي أخت يقيمون معها.
قالت ما بل: في كلتا الحالتين، عليك أن ترجع إلى مناهاتن لتلحق

(1) جزيرة إيليس Illis Island: نقطة الدخول الرئيسية للمهاجرين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين. (م)

(2) كولوني كلاب Colony Club: أول نادي اجتماعي مخصص للنساء في مدينة نيويورك. بنات الثورة الأمريكية DAR: جمعية مخصصة للنساء اللاتي يستطعن تتبع أصولهن إلى زمن الثورة. (م).

بالقطار. لو كنتُ مكانك، لبدأت بسارة، إذ إن المسافة إلى هاستنغز أون هَدسون أقصر مع مِزية مضافة كونها ليست في نيو جيرسي.

عندما غادر إيميت ما بل، كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بالفعل. توفيرًا للوقت، استوقفَ سيارةَ أجرة، لكن عندما أمر السائق بأن يأخذه إلى محطة القطار في مانهاتن، سأله السائق أيُّ واحدة.

-هناك أكثر من محطة قطار في مانهاتن؟

-هناك اثنتان: محطة بنسلفانيا ومحطة غراند سنترال. أيُّهما تريد؟

-أيُّهما أكبر؟

-كل واحدة أكبر من الأخرى.

لم يسبق لإيميت أن سمع بغراند سنترال، لكنه تذكر الشحاذ في لويس وهو يقول إن سكك حديد بنسلفانيا هي الأكبر في البلاد. قال: محطة بنسلفانيا.

عندما وصل إيميت، قدَّر أنه اختار جيدًا لأن واجهة المحطة كانت مزودة بأعمدة شاهقة من الرخام تحلّق فوق الجادة بارتفاع أربعة طوابق، أمّا الداخل فكان مساحة شاسعة مسقوفة بسقف زجاجي شاهق تتحرك فيها جحافل من المسافرين في كل اتجاه. لكن عندما وجد إيميت كشك الاستعلامات، عرفَ أنه ما من قطارات إلى هاستنغز أون هَدسون تتحرك من بنسلفانيا. بل تسير تلك على «خط نهر هَدسون» الممتد من محطة غراند سنترال. لذا عوضًا عن الذهاب إلى بيت سارة، ركبَ إيميت قطار الساعة 1:55 إلى موريساون، نيو جيرسي.

عندما وصل إلى العنوان الذي أعطته له ما بل، سأل السائق أن ينتظره وذهبَ ليترك الباب. المرأة التي فتحت له قالت نعم، هي كيتلين ويلكوكس، بطريقة ودودة إلى حدٍّ ما. لكن فور أن سأل إيميت إن كان أخوها، وولي، عندها، بدأ يعترئها الغضب.

-فجأة، يريد الجميع معرفة إن كان أخي هنا. لكن ما السبب؟ لماذا كل هذا؟ هل أنت متواطئ مع تلك الفتاة؟ ماذا تخططان؟ من أنتما؟ وبينما كان إيميت يهرول عائداً إلى سيارة الأجرة، سمع صراخاً من الباب الأمامي، يطالب مرة أخرى بمعرفة مَنْ هو.

لذا كانت العودة إلى محطة موريسٲاون، حيث أخذ إيميت قطار الساعة 4:20 إلى محطة بنسلفانيا، ثم سيارة أجرة إلى غراند سنٲرال، التي كانت لها، كما تبين، أعمدتها الرخامية الخاصة، وسقفها الشاهق الخاص، وجحافلها الخاصة من المسافرين. هناك، انتظر نصف ساعة ليركب قطار الساعة 6:15 إلى هاستنغز أون هـدسون.

عندما وصل إيميت بُعيد الساعة 7:00، استقل رابع تاكسي لهذا اليوم، لكن بعد ركوبه بعشر دقائق، رأى العداد يتقدّم نكلةً إلى 1,95 دولار، وخطر له أنه ربما لا يحمل نقوداً تكفي الأجرة. وإذ فتح محفظته، تأكد أن القطارات والتاكسيات المختلفة لم تترك معه أكثر من دولارين. سأل السائق: هل يمكن أن تتوقف؟

بنظرة متسائلة في المرأة، توقف السائق على جانب طريق محفوف بالأشجار. رفع إيميت محفظته، وشرح أنه لم يتبقَّ معه إلا ما يُظهره العداد. -إذا كانت نقودك انتهت، إذاً فرحلتك معي انتهت.

أوماً إيميت برأسه في تفهّم، وناول السائق الدولارين، وشكره على التوصيلة، وخرج. لحسن الحظ، قبل أن يمضي في طريقه، تكرّم السائق بفتح نافذة مقعد الراكب الأمامي وإعطائه الاتجاهات: بعد ميلين تقريباً خذ يميناً في شارع فوريسٲ؛ ثم بعد ميل آخر خذ يساراً في طريق سٲيبلٲشيز. عندما تحرّك السائق، بدأ إيميت يسير، ورأسه مشغولٌ بأفة الرحلات المنصّفة إلى ما لا نهاية.

أمريكا عرضها ثلاثة آلاف ميل، فكّر في نفسه. قبلها بخمسة أيام، انطلق هو وبيلي عازمين على قطع ألف وخمسمئة ميل إلى كاليفورنيا. عوضاً عن ذلك، سافرا ألفاً وخمسمئة ميل شرقاً إلى نيويورك. بعد أن وصلا،

قطع إيميت المدينة جيئة وذهابًا من تايمز سكوير إلى مانهاتن السفلى وبالعكس. إلى بروكلين وهارلم. وعندما، بعد طول انتظار، بدت وجهته قريبة المنال، ركب إيميت ثلاثة قطارات، وأربعة تاكسيات، ثم ها هو الآن يسير على قدميه.

تخيّل كيف كان مستر نيكرسون سيرسم مخططًا لرحلته: حيث سان فرانسيسكو على الجانب الأيسر من السُّبُورة، وتقدّم إيميت المتعرج على اليمين، وكل شوطٍ من رحلته يصير أقصر من سابقه. فقط، لم تكن المفارقة التي عليه أن يتصدى لها إحدى مفارقات زينون، كانت المفارقة سريعة الكلام، رافعة الكلفة، قالب الخطط، المعروفة باسم دوقة.

لكن بقدر ما كان ذلك مستفزًا، أدرك إيميت أن اضطرابه إلى قضاء ساعات العصر وهو يتنقل في حركة مكوكية ذهابًا وإيابًا ربما كان في صالحه. لأنه لدى خروجه من عند ما بل في الظهيرة وهو يتميّز غيظًا، لو كان رأى دوقة أمامه، لجعل يدقه حتى زرعه في الأرض.

عوضًا عن ذلك، كانت ركوبات القطار وركوبات التاكسي والمشى لثلاثة أميال قد منحتة الوقت ليس فقط لإعادة التفكير في أسباب الغضب -الستادبيكر، المظروف، المخدّر- لكن في أسباب الحُلم أيضًا. مثل الوعود التي قطعها ليلي وللأخت أغنس. وكلام ما بل وتشاريتي في حق دوقة. لكن فوق كل شيء، ما جعل إيميت يترث ودعاه إلى قَدْر من ضبط النفس، كانت القصة التي حكاها له فيتزي فيتزوليامز على كأسَي الويسكي في تلك الحانة الرثة.

إذ ظلّ إيميت، لما يقرب من عقد من الزمن، يلوك على مهل نوعًا من الإدانة تجاه حماقات والده -الالتزام العنيد تجاه حُلم زراعي، الإحجام عن طلب المساعدة، والمثالية الحاملة التي أعانته على التحمّل، حتى وهي تُكلّفه مزرعته وزوجته. لكن رغم كل نقائص تشارلي واطسن، لم يقترب قط من خيانة إيميت بالطريقة التي خان بها هاري هيويت ابنه دوقة. ولأجل ماذا؟

حلية رخيصة.

زينة تافهة انترعت من جثة مهرّج.

لم تُفَتِّ إيميت المفارقة المنطوية في قصة الفنان العجوز ولو للحظة. بل أعلنت عن نفسها بصورة صارخة وواضحة - معاتبَةً لَوَامَةً. إذ من بين كل الأولاد الذين عرفهم إيميت في سالينا، كان سيصنّف دوقه ضمن الأكثر نزوعًا للّي القواعد أو الحقائق لخدمة مصالحه. بيد أن دوقه هو مَنْ كان بريئًا في نهاية المطاف. هو مَنْ أرسل إلى سالينا من دون ارتكاب أيّ جُرم على الإطلاق. في حين سرق كل من تاونهاوس ووولي سيارة. وأنهى هو، إيميت واطسن، حياةَ إنسان آخر.

فأيّ حقّ لديه لكي يطالب دوقه بالتكفير عن خطاياها؟ أيّ حقّ لديه لكي يطالب أيّ شخص بذلك؟

بعد ثوانٍ من قرع جرس بيت آل ويتني، سمع إيميت صوت ركض بالداخل. ثم انفتح الباب على وسعه.

عند مستوى ماء، لا بُد أن إيميت توقّع أن يُظهر دوقه ندمه، لأنه شعر بطعنة غيظ حادة عندما وجده واقفًا هناك يتسمم، يبدو مظفرًا تقريبًا وهو يستدير إلى بيلي ويمد ذراعيه - تمامًا مثلما فعل في مدخل باب حظيرة آل واطسن - ليقول: ماذا قلتُ لك يا فتى؟

بابتسامة كبيرة، دار بيلي حول دوقه لكي يعانق إيميت. ثم بدأ يتدفق كالسيل.

-لن تصدق ما حدث يا إيميت! بعد أن غادرنا السيرك -بينما كنت أنت مع أصدقائك- قاد بنا دوقه إلى مبنى إمباير ستيت لكي نبحث عن مكتب الدكتور أبرناثي. ركبنا المصعد السريع إلى الطابق الخامس والخمسين، ولم نجد مكتبه فحسب، بل وجدنا البروفيسور أبرناثي! وأعطاني واحدًا من دفاتره تحسبًا لئلا تكفيني الصفحات البيضاء. وعندما أخبرته بأمر يوليسيس...

-انتظر!

قالها إيميت وهو يتسم بالرغم من نفسه، ثم تابع: أريد أن أسمع كل شيء عن ذلك يا بيلي. لكن أولاً، يجب أن أتكلم مع دوقة على انفراد لدقيقة. أوكيه؟

-أوكيه يا إيميت.

قالها بيلي، وقد بدا غير واثق بعض الشيء من الفكرة.

وقال وولي لبيلي: لماذا لا تأتي معي. أريد أن أريك شيئاً بأي حال! ظل إيميت يراقب بيلي وولي وهما يصعدان إلى الطابق العلوي. فقط عندما اختفيا في الطريقة استدار لمواجهة دوقة.

رأى إيميت أن دوقة لديه ما يقوله. بدت عليه كل الأمارات الفاضحة: وقوفه على كعبيه، استعداد يديه للإشارة، تعبير اللهفة والجدية. لكنه لم يكن يستعد للكلام ببساطة. كان سيندفع بقلبه وروحه في تبرير آخر. لذا، قبل أن ينطق بكلمة، شدّه إيميت من ياقته وأرجع قبضته إلى الوراء.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وولي

صحيح أنه وفقًا لخبرات وولي، عندما يطلب شخصُ التحدث على انفراد مع شخص آخر، يصعب عليك أن تعرف ماذا تفعل بنفسك. لكن عندما طلب إيميت أن يتحدث مع دوقة، عرفَ وولي بالضبط ماذا يفعل. في الحقيقة، كان يفكر في الأمر منذ الساعة 7:42.

قال لبيلي: لماذا لا تأتي معي. أريد أن أريك شيئًا بأي حال! قاد وولي ببلي إلى الطابق العلوي، واصطحبه إلى الغرفة التي كانت ولم تكن غرفته.

قال: ادخل، ادخل.

عندما خطا ببلي إلى الداخل، أغلق وولي الباب -تاركًا إيَّاه مواربًا بضع بوصات كيلا يسمعان ما يريد إيميت قوله لدوقة، لكن لكي يسمعا عندما يصير إيميت جاهزًا لاستدعائهما ثانيةً.

-غرفة مَنْ هذه؟

سأل ببلي بابتسامة.

-في يوم من الأيام كانت غرفتي. لكنني تنازلتُ عنها لكي يستطيع الطفل أن يكون قريبًا من أختي.

-وأخذتَ الغرفة بجوار السلم الخلفي.

قال وولي: وهو الأمر المنطقي أكثر، بالنظر إلى كل مرَّات دخولي وخروجي.

قال ببلي: أحب الأزرق. يشبه لون سيارة إيميت.

-هذا بالضبط ما فكرت فيه.

بعد أن متَّعا أنظارهما باللون الأزرق، حوَّل وولي انتباهه إلى الكومة

المغطاة في منتصف الغرفة. رفع الغطاء، وحدّد الصندوق الذي كان يبحث عنه، وفتح أعلاه، نحى كأس التنس، وأخرج غلبة السيجار.
قال: ها نحن ذا.

ثم لما كان السرير مغطى بأغراض وولي، جلس هو ويولي على الأرض.
سأل بيلي: هل هذه مجموعة؟

قال وولي: هي كذلك. ولو أنها ليست مثل دولاراتك الفضية، ولا مثل أغطية الزجاجات هناك في نبراسكا. لأنها ليست مجموعة من نسخ مختلفة من الشيء نفسه. إنها مجموعة من النسخة نفسها من أشياء مختلفة.
فتح وولي الغطاء، وأمال العلبة تجاه وولي.

-هل ترى؟ تلك هي الأشياء التي نادر: ما يستخدمها الواحد، لكن ينبغي على الواحد أن يحفظها بسلام لكي يعرف الواحد بالضبط أين يجدها عندما تظهر الحاجة لها فجأة. مثلاً، هنا أحفظ أزرار الزينة ودبابيس الأكمام الخاصة بقمصان أبي تحسباً لأن أضطر فجأة إلى ارتداء بدلة توكسيدو. وهذه بعض الفرنكات الفرنسية، تحسباً لأن يتصادف وأن أذهب إلى فرنسا. وذلك أكبر حجر زجاج بحر عثرت عليه في حياتي. لكن هنا...
أزاح وولي محفظة أبيه القديمة جائباً برفق، وأخرج ساعة يد من قاع العلبة وناولها لبيلي.

قال بيلي في دهشة: القرص أسود!

أوما وولي برأسه.

-والأرقام بيضاء. عكس ما تتوقع. إنها تسمى ساعة الضباط. صنعوها بهذه الطريقة حتى يستطيع الضابط أن يعرف الوقت في ميدان المعركة، من دون أن يتمكن قناصة العدو من التصويب على بياض القرص.

-هل كانت ساعة والدك؟

أجاب وولي مع هزة من رأسه: لا. كانت ساعة جدي. كان يرتديها في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى. لكنه أعطاها بعد ذلك لخاله والاس.

ثم أعطاهما لي خالي والاس كهدية كريسماس عندما كنتُ أصغر منك. إنه الـ«والاس» الذي سُمِّيت على اسمه.

-اسمك والاس، يا وولي؟

-أوه نعم. إلى حدٍّ كبير.

-ألهذا ينادونك وولي؟ لكي لا يخلط الناس بينك وبين خالك عندما

تكونان معًا؟

قال وولي: لا. الخال والاس مات منذ سنوات. في الحرب، مثل والدي. فقط، لم تكن حربًا عالمية. كانت الحرب الأهلية الإسبانية.

-ولماذا حارب خالك في الحرب الأهلية الإسبانية؟

سارع وولي بمسح دمعة، وهز رأسه.

-لست متأكدًا يا بيلي. أختي تقول إنه فعل أشياء كثيرة كانت متوقَّعة

منه، وأراد أن يفعل شيئًا واحدًا لم يتوقعه أي شخص على الإطلاق.

نظر كلاهما إلى الساعة، التي كان بيلي يمسكها بيده في رفق.

قال وولي: هل ترى، فيها عقرب ثوانٍ أيضًا. فقط، بدلًا من أن يكون

عقربَ ثوانٍ كبير يدور حول القرص الكبير مثل الذي في ساعتك، هاك

عقرب ثوانٍ صغير ضئيل يدور حول قرصه الخاص الصغير. الثواني مهمة

جدًّا لمجاراة الأحداث في الحرب، هكذا أظنُّ.

قال بيلي: نعم. أظن ذلك أنا أيضًا.

ثم مد بيلي الساعة لكي يرجعها إليه.

قال وولي: لا، لا. إنها لك. أخرجتها من العلبة لأنني أريدك أن تأخذها.

هز بيلي رأسه وقال إن ساعة كهذه أثمن من أن يُفَرِّط فيها المرء.

عارضه وولي بحماسة: لكنها ليست كذلك. ليست ساعة أثمن من أن

يُفَرِّط فيها المرء. إنها ساعة أثمن من أن يحتفظ بها. لقد ورَّثها جدي إلى

خالي، الذي ورَّثني إياها. الآن أنا أورَّثها لك. ويومًا ما -بعد سنوات بعيدة

من الآن- تستطيع أن تورَّثها لشخص آخر.

ربما لم يعبِّر وولي عن حجته على نحو مثالي، غير أن بيلي فهمه في

ما يبدو. وهكذا، طلبَ منه وولي أن يُدير عجلتها لكي يملأها. لكن أولاً، شرحَ النادرةَ الوحيدةَ في الساعة - إنه ينبغي أن يديرها يومياً أربع عشرة مرة بالضبط.

قال وولي: إذا أدّرتها اثنتي عشرة مرة فقط، بنهاية اليوم ستبتاطأ خمس دقائق. بينما، إذا أدّرتها ستّ عشرة مرة، ستسارع خمس دقائق. لكن إذا أدّرتها أربع عشرة مرة بالضبط، ستظلّ تحسب الوقت بالضبط. بعد أن استوعب ببلي ذلك، أدار عجلة الساعة أربع عشرة مرة بالضبط وهو يعدُّ هامساً بينه وبين نفسه.

ما لم يذكره وولي لببلي؛ أنه كان أحياناً - مثلما عندما وصل إلى سان بول لأول مرة - يدير العجلة ستّ عشرة مرة لسته أيام متتالية، عمداً⁽¹⁾، لكي يستطيع أن يسبق الجميع بنصف ساعة. بينما في أوقات أخرى، كان يديرها اثنتي عشرة مرة لسته أيام متتالية لكي يستطيع أن يتأخر نصف ساعة. في كلتا الحالتين - سواء أدارها ستّ عشرة مرة أو أدارها اثنتي عشرة مرة - كان ذلك يشبه ما فعلته أليس عندما عبرت من المرأة، أو الأخوة بيفنسي عندما عبروا من دولا ب الملايس، فقط لكي يجدوا أنفسهم في عالم هو عالمهم وليس عالمهم في الوقت نفسه.

قال وولي: هيا، ضَعُها.

-تقصّد أني يمكن أن أرّديها الآن؟

قال وولي: طبعاً. طبعاً، طبعاً. هذا هو المغزى أصلاً. وهكذا، من دون أيّ مساعدة، لَقَّها ببلي حول معصمه.

قال وولي: ألا تبدو جميلة؟

بعد أن قال ذلك، كان وولي سيكرر نفسه تأكيداً، لولا أن تعالى من الطابق السفلي فجأة صوتٌ يشبه جدّاً طلقة رصاص. تبادل وولي وببلي النظرات، ثم فزعا على أقدامها واندفعا خارجين من الباب.

(1) عمداً: من كلمات وولي الخاصة، والمقصود «عمداً». (م)

دوقة

كان إيميت في مزاج سيئ بكل تأكيد. حاول إخفاء ذلك لأنه من هذا النوع من الرجال. لكنني عرفت بأي حال. خاصة عندما قاطع بييلي في منتصف قصته، قائلاً إنه يريد أن يتكلم معي على انفراد. اللعنة، لو كنت مكانه، لرغبتُ في أن أتكلم معي أنا أيضًا.

مقولة أخرى من مقولات الأخت أغنس المفضلة كانت: الحكيم هو مَنْ يُبلِّغ عن نفسه. كانت فكرتها، بالطبع، أنك إذا ارتكبت خطأ - سواء وراء سقيفة الصيانة أو في جناح الليل - فسوف تعرف هي. بعد تجميع الخيوط، ستستخلص ما فعلته وهي مستريحة في كرسيها ذي الذراعين مثل شرلوك هولمز. أو تلاحظه من سلوكك. أو تسمعه مباشرة من فم الرب. أيًا كان المصدر، ستعرف بأمر تجاوزاتك، وذلك أمرٌ لا يتطرق إليه الشك. لذا، من أجل توفير الوقت، فمن الأفضل أن تُبلِّغ عن نفسك. أن تعترف أنك تجاوزت، وتعرب عن ندمك، وتتعهد بإصلاح خطأك - والتوقيت النموذجي: قبل أن تسنح الفرصة لأي شخص آخر بالكلام. لذا، فور أن صرنا أنا وإيميت بمفردنا، كنت مستعدًا.

لكن تبين أن إيميت لديه فكرة أخرى. فكرة أفضل حتى. لأنه، قبل أن أستطيع إخراج كلمة واحدة من فمي، شدني من ياقتي لكي يناولني واحدة. أغمضتُ عيني وانتظرت عقابي. لكن شيئًا لم يحدث.

اختلفتُ نظرة من عيني اليمنى، فرأيتُه يضغطُ أسنانه، مجاهدًا غرائزه. قلت له: هيا. ستشعر بارتياح. وسأشعر أنا بارتياح. لكن حتى وأنا أحاول تشجيعه، شعرتُ بارتخاء في قبضته. ثم دفعني

إلى الوراء لقدم أو قدمين. وهكذا، انتهى بي الأمر مبدئياً اعتذارى، في نهاية المطاف.

قلت: أنا متأسف جداً.

ثم، من دون أن آخذ نفساً، بدأت أعدّد زلاتي على أصابعي.
-استعرتُ الستادبيكر من دون استئذان؛ تركتك عالقاً في لويس؛ أسأت تقدير اهتمامك بالكاديلاك؛ وفوق كل ذلك، أفسدت ليلتك عند ما بل.
ماذا أقول؟ لقد أظهرت سوء تقدير. لكنني سأعوضك عن ذلك.

رفع إيميت يديه عاليًا في الهواء.

-لا أريدك أن تعوضني عن أي شيء يا دوق. أنا أقبل اعتذارك. فقط لا أريد أن أتكلم عن الأمر أكثر من ذلك.

قلت: طيب. أنا أقدر استعدادك لإغلاق هذا الفصل. لكن أولاً وقبل كل شيء...

أخرجتُ المظروف من جيبي الخلفي، وأرجعته له بمسحة طقوسية. بدت عليه الراحة عندما أمسكه بيده. ربما أطلق تنهيدة. لكنني عرفت، في الوقت نفسه، أنه يزن محتوياته.

اعترفتُ له: ليس المبلغ كله. لكن لدي شيء آخر لك.
من جيب آخر، أخرجت البيان المحاسبي.

بدا إيميت متحيراً قليلاً عندما أخذ الورقة في يده، لكن حيرته ازدادت فور أن ألقى نظرة عليها.
-هل هذا خط بيلي؟

-خطه بالتأكيد. أقول لك يا إيميت، هذا الصبي موهوب في الأرقام. خطوط لأقف إلى جوار إيميت وأشرتُ بشكل عمومي إلى الأعمدة.
-كل شيء هنا. المصروفات الضرورية مثل البنزين والفنادق، التي ستعوّض لك من أصل المبلغ. ثم هناك المزيد من المصروفات التقديرية، التي ستعوّض من طرفي -فور أن نصل إلى الأديرونذاك.
رفع إيميت رأسه عن الورقة بشيء من عدم التصديق.

-دوقة، كم مرة يجب أن أقول لك إنني لن أذهب إلى الأديرونداك. فور أن تصير الستاديبكر جاهزة، ستتجه أنا وبيلي إلى كاليفورنيا. قلت: فهمتُ. لأن بيلي يريد أن يكون هناك قبل الرابع من يوليو، فمن المنطقي أن تسرعا. لكنك قلت إن السيارة لن تكون جاهزة حتى يوم الاثنين، صحيح؟ ولا بُد أنك تتصور من الجوع. لذا الليلة، دعنا نتناول وجبة لطيفة، نحن الأربعة فقط. ثم غداً، سنأخذ أنا ووولي الكاديلاك إلى المخيم ونلتقط الغلة. ينبغي أن نأخذ وقفة سريعة في سيراكيز لرؤية أبي، لكن بعدها سننطلق على الطريق السريع. لن نتأخر عنكما إلا بضعة أيام. -دوقة...

قالها إيميت، بهزة كئيبة من رأسه. بل وبدا كسيراً بعض الشيء، الأمر الذي لا يتناسب مع شخصيته كشاب قوي الشكيمة. الواضح أن شيئاً في الخطة لم يبدُ صائباً في رأيه. أو ربما حدثت تعقيدات جديدة لم أعرف بأمرها. قبل أن تسنح لي فرصة السؤال، سمعنا انفجاراً صغيراً يأتي من الشارع. استدار إيميت ببطء، وحدّق في الباب الأمامي للحظة. ثم أغمض عينيه.

سالي

إذا أنعم الله عليّ بطفلة ذات يوم، فإن تنشئتها تنشئة أسقفية لن يكون أفضل لي من تنشئتها تنشئة كاثوليكية. لعل الأسقفيين بروتستانت بالتعريف، لكنك لن تعرف ذلك من قُدَّاساتهم -مع كل الأردية الكهنوتية والترانيم الإنكليزية. أظنهم يحبون تسميتها «الكنيسة العالية». وأنا أسميها عالية وجبارة.

غير أن ثمة شيئاً تستطيعين أن تعوّلي عليه في الكنيسة الأسقفية، ألا وهو حفاظهم على السجلات. فهم دؤوبون في ذلك شأنهم شأن المورمون. لذا، عندما لم يتّصل إيميت كما وعد يوم الجمعة الساعة 2:30، لم يترك لي خياراً إلا مهاتفة الأب كولمور هناك في كنيسة سان لوك. فور أن صار معي على الخط، شرحتُ أنني أحاول العثور على واحد من رعايا الكنيسة الأسقفية في مانهاتن، وسألته إن كانت لديه فكرة كيف أفعل ذلك. من دون لحظة تفكير، أخبرني أن أتصل بالعميد⁽¹⁾ هاملتون سبيرز في سان بارثولوميو. بل وأعطاني الرقم.

لا بُد أن سان بارثولوميو هذه كنيسة من نوع ما، لأنني عندما اتصلتُ، بدلاً من أن يرد الأب سبيرز، ردّت موظفة استقبال طلبت مني الانتظار (مع أنها كانت مكالمات مسافات طويلة)؛ ثم أوصلتني بعميد مساعد، أراد، بدوره، معرفة لماذا أريد التحدث مع العميد المبجل. شرحتُ له أنني قريبة بعيدة لأسرة من أبناء أبرشيته، وأن أبي توفي في الليل، وأني أريد أن أخبر أولاد عمومتي في نيويورك بوفاته، لكنني لم أستطع العثور على دفتر عناوين أبي في أيّ مكان.

(1) العميد Rector: منصب كنسي في الكنيسة الأسقفية. (م)

الآن، بالمعنى الدقيق، لم يكن ادعائي ذاك صادقًا. لكن بينما يستهجن الدين المسيحي عمومًا تناول المشروبات الروحية، فإن رشفةً من النبيذ الأحمر ليست مباحة فحسب، بل وتلعب دورًا جوهريًا في القربان المقدس. وأظن أنه بينما تستهجن الكنيسة عمومًا المراوغات، فإن كذبةً بيضاء صغيرة يمكن أن تكون مسيحية شأنها شأن رشفةً من نبيذ الأحد، إذا أدّيت في خدمة الرب.

ماذا كان اسم العائلة؟ أراد المساعد أن يعرف.

عندما أجبته بأنها عائلة وولي مارتين، طلب مني الانتظار مرة أخرى. بعد بضع نكالات، كان الأب سبيرز على الخط. أولاً أراد أن يُعرب عن عميق تعاطفه مع فقدي، وعن آمانياته لأبي أن يرقد في سلام. واستطرد ليشرح أن عائلة وولي، آل وولكوت، أعضاء في أبرشية سان بارثولوميو منذ تأسيسها في عام 1854، وأنه قد زوّج شخصيًا أربعة منهم وعمّد عشرة. ولا شك أنه دفن عددًا أكثر بكثير.

في غضون دقائق، صارت معي أرقام هواتف وعناوين والدة وولي، التي كانت في فلوريدا، والأختين، اللتين كانتا متزوجتين وتعيشان في منطقة نيويورك. جرّبت المدعوة كيتلين أولاً.

ربما كان آل وولكوت أعضاء في أبرشية سان بارثولوميو منذ تأسيسها في عام 1854، لكن بدالي أن كيتلين وولكوت ويلوكس قد أولّت، ولا بُد، انتباهًا أكبر لدروسها. إذ عندما قلتُ إنني أحاول العثور على شقيقها، بدا عليها الحذر. وعندما قلتُ إنني سمعتُ أنه قد يكون مقيمًا معها، صارت عدوانيةً صراحةً.

قالت: أخي في كنساس. لماذا سيكون هنا؟ مَنْ قال لك إنه هنا؟ مَنْ الذي يتكلم؟

وما إلى ذلك.

بعدها اتصلتُ بسارة. هذه المرة رنّ التليفون ورنّ ورنّ.

عندما وضعتُ السماعَةَ أخيرًا، جلستُ مكاني للحظة، أدق بأصابعي على طاولة مكتب أبي.
في مكتب أبي.
تحت سقف أبي.

ذهبتُ إلى المطبخ، وأخذتُ حقيبة يدي، وعددتُ خمسة دولارات، وتركتُها بجوار الهاتف لكي تغطي تكلفة مكالمات المسافات الطويلة. بعدها ذهبتُ إلى غرفتي، وأخرجتُ حقبتي من مؤخرة دولابي، وشرعتُ أوَضُب أغراضي.



استغرقتُ الرحلة من مورغن إلى نيويورك عشرين ساعة امتدَّت على مدار يوم ونصف.

قد تبدو للبعض رحلة قيادة شاقَّة جسيمة. لكنني لم أصدق أنني سأقضي عشرين ساعة من الزمن لكي أفكر في حياتي بأكملها من دون أن يقاطعني أحد. وما وجدتُ نفسي أفكر فيه، بدهاءةً أعتقد، كان رغبتنا الدائمة في التحرك.

ترجَّح جميع الأدلة أن الرغبة في الحركة قديمة قدم الجنس البشري. خُذي مثلًا الناس في العهد القديم. كانوا دائمًا في حالة حركة. أولاً، آدم وحواء يتحرَّكان ليخرجا من جنة عدن. ثم يُحكم على قابيل أن يهيم على وجهه فلا يعرف طعم الراحة، وينجرف نوح فوق مياه الفيضان، ويقود موسى بني إسرائيل خروجًا من مصر تجاه الأرض الموعودة. بعضُ تلك الشخصيات خرج عن رضوان الرب والبعض الآخر ظلَّ في رضوانه، لكنهم جميعًا كانوا في حالة حركة. أمَّا في العهد الجديد، فلدينا ربُّنا يسوع المسيح الذي كان مشاءً، مثلما يدعونه -شخصًا ينتقل دائمًا من مكان إلى مكان، سواءً على قدميه، أو على ظهر حمار، أو على أجنحة الملائكة.

بيد أن الأدلة على الرغبة في الحركة لا تقتصر على صفحات الكتاب الكريم. إذ يستطيع أيُّ طفل في العاشرة من عمره أن يخبرك أن النهوض

على القدمين والتحرك هو الموضوع رقم واحد في سجلّ مساعي الإنسان. خذي مثلاً الكتاب الأحمر الكبير الذي يحمله بيلي معه أينما ذهب. إنه مؤلّف من ستّ وعشرين قصة ظلت تُتداول عبر العصور وكلّ منها تقريباً عن رجل ما يذهب إلى مكان ما. نابليون ينطلق إلى فتوحاته، أو الملك آرثر بحثاً عن الكأس المقدسة. بعض الرجال في الكتاب شخصيات من التاريخ والبعض من نسج الخيال، لكن سواء كان حقيقياً أم متخيلاً، يمضي كلّ منهم في طريقه إلى مكان مختلف عن المكان الذي بدأ منه.

لذا، إذا كانت الرغبة في الحركة قديمة قِدَم الجنس البشري وكلّ طفل يستطيع إخبارك بذلك، فماذا يحدث لرجل مثل أبي؟ أيّ مفتاح كهربائي نُقر في طرقة عقله فصار يأخذ الهبة الإلهية المتمثلة في الرغبة في الحركة ويحوّلها إلى رغبة في ملازمة المكان.

ليس ذلك نتيجة لفقدان الهمة. إذ لا يأتي التحوّل عندما يتقدم الرجال مثل أبي في العمر وتوهن أجسادهم. بل يأتي وهم بصحة، وعافية، وفي ذروة حيويتهم. إذا سألتهم عن سبب التغيير، ألبسوه عباءة الفضيلة. سيقولون لك إن الحلم الأمريكي هو الاستقرار، وتكوين أسرة، وكسب حياة شريفة. سيتحدّثون بفخر عن روابطهم الاجتماعية من خلال الكنيسة والروتاري وغرفة التجارة، وكلّ طريقة أخرى من طرق ملازمة المكان.

لكن ربما، هكذا فكرتُ وأنا أقود السيارة فوق نهر هُدسون، ربما فقط، لا تنبع الرغبة في ملازمة المكان من فضائل الرجل، إنّما من رذائله. أولست الشراهة، والتراخي، والجشع جميعها متعلّقة بملازمة المكان، في نهاية المطاف؟ ألا تقتضي الغوص في كرسي حيث يمكن للمرء أن يأكل أكثر، ويتبطل أكثر، ويطلب أكثر؟ كذلك فالتراخي والحسد متعلّقان بملازمة المكان أيضاً. إذ مثلما يتأسس الفخر على الأشياء التي يشيّد بها المرء من حوله، يتأسس الحسد على الأشياء التي يشيّد بها جاره على الجانب المقابل من الشارع. بيت الرجل قد يكون قلعته، لكنّ الخندق، يبدو لي، مفيدٌ في منع الناس من الخروج بقدر فائدته في منعهم من الدخول.

أنا أو من أن الربَّ الرحيم كلَّفَ كلاً منا برسالة -رسالة متسامحة مع نقاط ضعفنا، مفصَّلة على نقاط قوتنا، ومصمَّمة وليس فيَّ الذهن غيرنا. لكن ربما لا يأتي الربُّ ليُطرق بابنا ويقدمها لنا جميعاً مغطاة بالزينة مثل قطعة من الكعك. ربما، ربما فقط، كان ما يطلبه منَّا، ما ينتظره منَّا، ما يتمناه لنا، هو أن نخرج إلى العالم -مثل ابنه الوحيد- ونبحث عنها بأنفسنا. وأنا أترجَّل من «بيتي»، جاء إيميت وولي وبيلي يتدقَّقون جميعاً من المنزل. بيلي وولي ارتسمت على وجهيهما ابتسامتان كبيرتان، بينما أخذ إيميت، كالعادة، يتصرف وكأن الابتسامات مَورِدٌ ثمينٌ لا يريد تبديده. أراد وولي، الذي تلقَّى تنشئة سليمة كما هو واضح، أن يعرف إن كانت معي أيُّ حقائب.

أجبتُه من دون أن أنظر إلى إيميت: كم هو لطيف منك أن تسأل. حقيقتي في مؤخرة الشاحنة. وبيا بيلي، هناك سلَّة في المقعد الخلفي، إذا أردت أن تتكرم عليَّ، لكن لا تختلس النظر. قال بيلي: سنُحضر كل شيء. وبينما شرع بيلي وولي في حمل أغراضي إلى الداخل، هز إيميت رأسه.

-سالي.

قالها بانزعاج واضح.

-نعم، يا مستر واطسن.

-ماذا تفعلين هنا؟

-ماذا أفعل هنا؟ طيِّب، دعني أرى. لم يكن لدي الكثير من الشؤون الملحة على وجه الخصوص في جدول أعمالي. ولطالما أردتُ رؤية المدينة الكبيرة. ثم هناك مسألة الجلوس في مكاني بعد ظهر أمس وانتظار رنين الهاتف.

أفرغَ ذلك نفَختَه، فقال: أنا آسف. الحقيقة أنني نسيت تماماً الاتصال بك. منذ غادرتُ مورغن، وأنا أخرج من ورطة لأقع في أخرى.

قلت: كلنا لدينا بلاوينا.

-صحيح. لن أزعجك بالأعذار. كان ينبغي أن أهاتفك. لكن عندما لم أفعل، أكان ضروريًا حقًا أن تقودي كل تلك المسافة إلى هنا.
-ربما لا. كان يمكنني أن أشبك إصبعي وأتمنى أن تكون أنت وبيلي بخير. لكنني قدّرتُ أنك ستريد معرفة السبب الذي جعل الشّريف يأتي لرؤيتي.

-الشّريف؟

قبل أن أتمكن من الشرح، أحاط بيلى خصري بذراعه وأخذ يتطلع إلى إيमित.

-سالي جلبت المزيد من الكوكيز والفاكهة المحفوظة.

قلت: ظننتني قلت لك ألا تختلس النظر.

ثم نكشتُ شعره، الذي بدا واضحًا أنه لم يُغسل منذ رأيتَه آخر مرة.

-أعرف أنك قلتِ ذلك يا سالي. لكنك لم تقصديه. صحّ؟

-لا، لم أقصده.

سأل وولي: هل أحضرتِ فراولة محفوظة؟

-نعم. وتوتٌ أيضًا. بالحديث عن الفاكهة المحفوظة، أين دوقة؟

رفع الجميع رؤوسهم في قدر من الدهشة، وكأنهم لم يلاحظوا غياب دوقة إلا الآن. لكن في اللحظة نفسها خرج من الباب الأمامي يرتدي قميصًا وربطة عنق تحت مريلة بيضاء نظيفة، ويقول: العشاء جاهز.

وولي

أوه، يا لها من ليلة!

بادئ ذي بدء، مع دَقَّة الساعة الثامنة فتحَ دوقه الباب الأمامي ليكتشف إيميت على عتبة الباب، وهو سبَّب للاحتفال في حدِّ ذاته. ولم تمرَّ خمس عشرة دقيقة بعدها -فور أن كان وولي قد أهدى ساعة خاله لبيلي- إلا وتعالى انفجار صغير، ثم مَن ذا الذي ظهر أمام أعينهم المتعجِّبة، إلا سالي رانسوم، وقد قطعَت كل ذلك الطريق من نبراسكا. وقبل أن تسنح لهم فرصة للاحتفال بذلك، كان دوقه يقف في الباب معلناً أن العشاء جاهز.

قال، وهم يرجعون جميعاً إلى الداخل: من هذا الطريق.

لكن عوضاً عن الاتجاه إلى المطبخ، قادهم دوقه إلى غرفة الطعام، حيث جُهِّزَت المائدة بالصيني والكريستال والشمعدانين، رغم أنه لم يكن لا عيد ميلاد ولا حفل كريسماس.

-يا ربِّي! أوه يا ربِّي!

قالتها سالي عندما دخلت من الباب.

وقال دوقه، هو يسحب لها كرسيها: مِس رانسوم، لماذا لا تجلسين

هنا؟

ثم أجلس دوقه ببيلي إلى جوار سالي، ووولي على الجانب المقابل من المائدة، وإيميت على رأسها. واحتفظ دوقه بالطرف الآخر من المائدة لنفسه، ذلك الطرف الأقرب لباب المطبخ، الذي ما لبث أن اختفى عبره. لكن حتى قبل أن يتوقف الباب عن التأرجح، عادَ ومعه منديل على ذراعه وزجاجة نبيذ في يده.

قال: لا سبيل للاستمتاع بعشاء إيطالي جيد من دون قليلٍ من الفينو روڤو^(١).

أخذ دوقة دورة حول المائدة، وهو يصبّ كأسًا لكل شخص، حتى بيلى. ثم بعد أن وضع الزجاج، خرج من باب المطبخ وعاد من جديد، هذه المرة حاملًا أربعة صحون في الوقت نفسه؛ واحدًا في كل يد، وآخر يتوازن على ثنية كل ذراع - ذلك الموقف، فكّر وولي، هو الذي صُمِّمَتْ له الأبواب المتأرجحة في المقام الأول.

بعد أن طاف على المائدة ليقدم طبقًا لكل واحد، اختفى دوقة وعاود الظهور لكي يقدم طبقًا لنفسه. فقط هذه المرة عندما خرج من الباب، كانت المريلة قد اختفت وصار يرتدي صدرية كل أزوارها مزرّة.

عندما استعاد دوقة مقعده، كانت سالي وإيميت يحدقان في صحنيهما. قالت سالي: ما هذا بحق الجحيم!

قال بيلى: خرشوف محشي.

اعترف دوقة: لم أعدّه بنفسى. أنا وبيلى اشتريناه اليوم من جادة آرثر.

قال بيلى: هذه هي السكة الرئيسية في القسم الإيطالي من برونكس.

نظر إيميت وسالي من دوقة إلى بيلى، ثم إلى صحنيهما من جديد، وهما لا يزالان في حيرة شديدة.

شرح وولي: اكشطوا اللحم عن الأوراق بأسنانكم السفلية.

قالت سالي: نفعل ماذا؟

-هكذا!

لكي يوضّح لهم، انتزع وولي إحدى الأوراق، وكشطها بأسنانه السفلية، ثم أسقطها في صحنه.

في غضون دقائق، كان الجميع يستمتعون بوقت عظيم وهم ينتزعون

(١) فينوروسو vino rosso: (بالإيطالية) نبيذ أحمر. (م)

اللحم من الأوراق، ويرتشفون النبيذ، ويناقشون بالإعجاب اللائق أول شخص في تاريخ البشرية وأتته الجرأة على أكل ثمرة خرشوف. وعندما انتهى الجميع من المقبلات، سَوّت سالي المنديل في حجرها وسألت ماذا سيقدم لهم بعد ذلك.

قال بيلي: فيتوتشيني ميو أموري.

نظر إيميت وسالي إلى دوقة من أجل مزيد من الإيضاح، لكن لما كان يرفع الأطباق، طلب من وولي أن ينال هذا الشرف.

على ذلك، أخبرهم وولي بالقصة كلها. حكى لهم عن «ليونيللوز» -المطعم الذي لا تؤخذ فيه حجوزات ولا تُقدّم فيه قوائم طعام. حكى لهم عن صندوق الموسيقى ورجال العصابات ومارلين مونرو. حكى لهم عن ليونيللو نفسه، الذي ينتقل من طاولة إلى طاولة ليحيي زبائنه ويُرسل لهم المشروبات. وأخيراً، حكى لهم كيف أن النادل عندما يأتي إلى طاولتك، لا يأتي على ذكر الفيتوتشيني ميو أموري أصلاً، لأنك إذا لم تكن تعرفه، فلا تستحق أن تأكله.

قال بيلي: أنا ساعدتُ في صنعه. دوقة أراني كيف أشرح البصل كما ينبغي.

حدّقت سالي في بيلي بقدرٍ من الدهشة.

-كما ينبغي؟

قال بيلي: نعم، كما ينبغي.

-وكيف ذلك، إذا سمحت لي بالسؤال؟

قبل أن يتمكن بيلي من الشرح، انفتح الباب المتأرجح وظهر دوقة ومعه كل الصحون الخمسة.

عندما كان وولي يَصِف «ليونيللوز»، لاحظ أن إيميت وسالي متشكّكين بعض الشيء، ولم يَسعه لومهما. إذ عندما يتعلق الأمر بحكي القصص،

كان دوقة فيه شيء من «بول بونيان»⁽¹⁾، الذي دائماً ما يحكي عن ثلوج بعمق عشر أقدام، وأنهار واسعة كالبحار. لكن بعد أول لقمة، نحى كل من على الطاولة شكوكهم جانباً.

قالت سالي: أليس شهياً؟

- لا بد أن أرفع نخبكم.

قالها إيميت، ثم رفع كأسه، وأضاف: إلى الشيفات!

وعلى ذلك ردّ وولي: مرحى! مرحى!

وقالوا جميعاً مرحى مرحى.

كان العشاء شهياً لدرجة أن كلاً منهم طلبَ صحنًا آخر، وصبَّ دوقة المزيد من النبيذ، وبدأت عينا إيميت تلمعان بينما أخذ خدًا سالي يتوردان، وراحت قطرات الشمع تسيل على أذرع الشمعدانين في منظر يسرُّ العيون. ثم بدأ الجميع يسألون الجميع أن يحكوا لهم شيئاً. أولاً، سأل إيميت يبلي أن يحكي له عن زيارتهم لمبنى إمبار ستيت. ثم سألت سالي إيميت أن يحكي لها عن الرحلة على متن قطار البضائع. ثم سأل وولي دوقة أن يحكي له عن الخدع السحرية التي رآها على الخشبة. وأخيراً، سأل يبلي دوقة إن كان هو نفسه يعرف أيَّ خدع سحرية.

- على مدار السنوات، أظنني تعلّمتُ بعضاً منها.

- هل تؤدّي واحدة لأجلنا؟

تناول دوقة رشفة من النبيذ، وفكّر لبرهة، ثم قال: لِمَ لا؟

دفع دوقة صحنه إلى الوراء، وتناول فتّاحة الزجاجات من جيب صدريّته، وأخرج السّداة، ووضعها على الطاولة. ثم رفع زجاجة النبيذ، وصبَّ ثمالتها، ودسَّ السّداة مجدداً من حيث أخرجها - لا في عنق الزجاجاة ببساطة حيث تستكنُّ عادة، لكن طوال الطريق عبر العنق إلى أن سقطت حيث كانت الثمالة.

(1) بول بونيان: شخصية أسطورية شهيرة من الفولكلور الأمريكي، وهو حطّاب عملاق تدور مآثره حول أعمال أسطورية مبالغ فيها. (م)

قال: مثلما ترون، وضعتُ السَّداة داخل الزجاجاة.

ثم مرَّ الزجاجاة من واحد إلى آخر ليتأكد الجميع واحدًا بعد آخر أن الزجاجاة مصنوعة من زجاج صلب وأن السَّداة بالداخل فعلاً. بل وقلَّب وولي الزجاجاة رأسًا على عقب وهزَّها ليثبت ما عرفه الجميع من حيث المبدأ: إنه إذا كان من الصعب دفع السَّداة طيلة الطريق إلى داخل الزجاجاة، فمن المستحيل إخراجها بالهزِّ.

بعد أن أكملت الزجاجاة دورتها، شمَّر دوقة كُميَّه، ورفع يديه ليبين أنهما خاويتان، ثم سأل بيلى أن يتفضل ويعطينا عدًّا تنازليًّا.

نظر وولي بعين القبول عندما لم يكتفِ بيلى بقبول المهمة، بل استخدم عقرب الثواني الصغير في قرص ساعته الجديدة لينجزها بدقة.

عشرة، قالها عندما رفع دوقة الزجاجاة وأنزلها في حجره بعيدًا عن الأنظار. تسعة... ثمانية...، قال، بينما دوقة يسحب أنفاسه ويخرجها. سبعة... ستة... خمسة...، بينما بدأ دوقة يدير كتفيه إلى الخلف والأمام. أربعة... ثلاثة... اثنان، بينما سقط جفناه كثيرًا حتى بدا وكأنه أغمض عينيه بالكلية.

كم هو طول الثواني العشر؟ فكَّر وولي أثناء عدِّ بيلى التنازلي. إنها طويلة بما يكفي لتأكيد هزيمة ملاكم من الوزن الثقيل في نزالٍ طويلة بما يكفي لإعلان وصول عام جديد آخر. لكنها لا تبدو طويلة بما يكفي، ولا بأي حال، لإخراج سداة من قاع زجاجاة. مع ذلك، مع ذلك، في اللحظة التي قال فيها بيلى واحد، ضرب دوقة الزجاجاة الفارغة على الطاولة بإحدى يديه، وبالأخرى وضع السداة إلى جوارها مباشرة.

بشهقة، نظرت سالي إلى بيلى وإيميت ووولي. ونظر بيلى إلى وولي وسالي وإيميت. ونظر إيميت إلى بيلى ووولي وسالي. بعبارة أخرى نظر الجميع إلى الجميع. باستثناء دوقة، الذي ظل ينظر أمامه وعلى وجهه ابتسامة مستغلقة من ابتسامات أبي الهول.

ثم شرع الجميع يتكلمون في وقت واحد. كان بيلي يُعلن أنه سحر. وكانت سالي تقول، لم يسبق لي أبدًا! ووولي كان يقول، رائع، رائع، رائع. وإيميت، أراد أن يرى الزجاجة.

وهكذا مرّ دوق الزجاجة من شخص إلى آخر لكي يتمكن الجميع من التأكد أنها فارغة. ثم اقترح إيميت، متشككًا بعض الشيء، أنه لا بُد كانت هناك زجاجتان وسدادتان، وأن دوقه أجرى التبديل في حجره. وعلى ذلك، نظر الجميع تحت الطاولة واستدار دوقه حول نفسه وذراعا ممدودتان، بيد أن أحدًا لم يجد زجاجة ثانية.

الآن، شرع الجميع يتكلمون مجددًا، يسألون دوقه أن يريهم كيف فعلها. وردّ دوقه أن الساحر لا يكشف أسرارهِ أبدًا. لكن بعد قدرٍ من التوسل والإلحاح كما ينبغي، وافق أن يفعل ذلك.

شرح بعد أن أعاد السّدادة إلى قاع الزجاجة: ما تفعله، هو أنك تأخذ منديلك، وتدسّ الزاوية المطوية داخل عنق الزجاجة على هذا النحو، وتظل تهز الزجاجة برفق إلى أن تدخل السّدادة في مَجرى الطيّة، ثم تسحب المنديل برفق.

وكما هو متوقع، عندما سحب دوقه برفق، التفت زاوية المنديل حول السّدادة، فجذبها عبر العنق، وحرّرها من الزجاجة بفرقة مُرضية. -دعني أحاول.

قالها بيل وسالي في نفس الوقت.

واقترح وولي: دعنا جميعًا نحاول.

فزّ وولي من مقعده، واندفع مرورًا بالمطبخ إلى حجرة المؤن حيث كان «دينيس» يخزّن نبيذه. سحب ثلاث زجاجات من الفينو روسو، وعاد بها إلى المطبخ، حيث فتحها دوقه لكي يتمكن وولي من صبّ محتوياتها في البلاعة.

هناك في غرفة الطعام، شرع كلٌّ من بيلي، وإيميت، وسالي، ووولي

يدفع السدادات لإدخالها في زجاجاتها ويطوي المنديل، بينما كان دوقه يطوف حول المائدة وهو يعطي تعليمات مفيدة.

-اطويها أكثر قليلاً عند الزاوية هكذا... هزّ الزجاجاة بحرص أكبر هكذا... اتركها تدخل أعمق قليلاً في المجرى. الآن اسحب، لكن برفق.

بوب، بوب، بوب، خرجت سدادات سالي وإيميت وبيلي.
ثم نظر الجميع إلى وولي، وهو موقفٌ يجعل وولي عادةً يرغب في النهوض ومغادرة الغرفة. لكن ليس بعد أن تناول الخرشوف والفيتوتشيني ميو أموري مع أربعة من أقرب أصدقائه. ليس الليلة!
قال: -انتظروا! انتظروا! أمسكُ بها، أمسكُ بها.

عضّ وولي على طرف لسانه، وجعل يدورّ السدادة ويلاطفها، ثم برفق شديد جداً، شديد جداً، بدأ يشدّ. وهو يشدّ، كتمّ الجميع حول المائدة أنفاسهم، حتى دوقه، إلى اللحظة التي أصدرت فيها سدادة وولي البوب ثم انفجر الجميع في جولة عظيمة من الهاتف!

وفي تلك اللحظة تأرجح الباب المتأرجح ودخل «دينيس».

قال وولي: يا ربّي!

-ماذا بحق الربّ يحدث هنا؟

سأل «دينيس» مستخدماً كلمة What، واحدة من أدوات الاستفهام التي تبدأ بالحرف W، من دون أن ينتظر جواباً.

ثم تأرجح الباب المتأرجح ثانية وهناك كانت سارة وعلى وجهها تعبير قلقٍ استباقيّ.

تقدم «دينيس» سريعاً إلى الأمام، ورفع الزجاجاة أمام وولي ونظرَ حول المائدة.

-شاتو مارغو 1928! هل شربتم أربع زجاجات من شاتو مارغو 1928؟

قال بيلي: شربنا زجاجة واحدة فقط.

قال وولي: هذا صحيح. الزجاجات الثلاث الأخرى سكبناها في البلاعة.

لكن فور أن قال وولي ذلك، أدرك أنه ما كان ينبغي أن يقوله. لأن وجه «دينيس» احمرَّ فجأة فصار بلون الشاتو مارغو تَبَعَه.

-سكبتموها أين؟

سارة، التي ظلت تقف صامته وراء زوجها تفتح الباب بيدها، دخلت الآن إلى الغرفة. الآن ستقول ما ينبغي أن يُقال، فكّر وولي، ستقول الشيء الذي سوف يتمنى لاحقًا لو كان يمتلك حضورَ الذهن ليقوله بنفسه. بيدَ أنها عندما التفت حول «دينيس» وسنحت لها فرصة استيعاب المشهد بكامل تفاصيله، رفعت المنديل المجاور لصحن وولي، الذي كان، مثل بقية المناديل على المائدة، ملوثًا بلطخات حمراء كبيرة من النبيذ.

-أوه، يا وولي!

قالتها برقة شديدة. رقة تحطم القلوب.

ران الصمت على الجميع الآن. ولبرهة، لم يبدُ أن أحدًا يعرف أين ينظر. لأنهم لم يرغبوا في النظر إلى بعضهم البعض، ولا إلى الزجافات، ولا إلى المناديل. لكن عندما وضع «دينيس» زجاجة الشاتو مارغو على الطاولة، بدا وكأن تعويذة قد أبطلت، ونظر الجميع مباشرة إلى وولي، وبخاصة «دينيس».

قال: والاس مارتن، هل يمكن أن أتكلم معك على انفراد؟

عندما تبع وولي زوج أخته إلى المكتب، عرف أن موقفًا سيئًا قد ازداد سوءًا للتو. فبرغم أن «دينيس» سبق وأن قال صراحة إنه لا يحب أن يدخل أحد مكتبه في غيابه، كان التليفون، هنا، محشورًا في دُرج المكتب والسلك بارزًا للخارج.

-اجلس.

قالها «دينيس» وهو يخطط التليفون في موقعه على سطح المكتب.

ثم نظرَ إلى وولي لمدة دقيقة كاملة طويلة، وهو ما بدا أن الناس الذين يجلسون وراء المكاتب يفعلونه غالبًا. فبعد أن يُصروا على الكلام معك

من دون تأخير، يجلسون لدقيقة كاملة طويلة لا ينطقون بكلمة. لكن حتى الدقيقة الكاملة الطويلة تنتهي.

-أظنك تتساءل لماذا رجعنا أنا وأختك؟

في الحقيقة، لم يفكر وولي في التساؤل عن ذلك مطلقاً. لكن الآن، بعد أن أتى «دينيس» على ذكر الأمر، بدا جديراً بالتساؤل حقاً، إذ كان يُفترض أنهما سيقضيان الليلة في المدينة.

طيب، تبين أن كيتلين، بعد ظهر يوم الجمعة، تلقت مكالمة هاتفية من امرأة شابة تسأل إن كان وولي في بيتها. ثم في وقت لاحق من اليوم نفسه، ظهر شابٌ على عتبة باب كيتلين بالسؤال نفسه. لم تفهم كيتلين لماذا يسأل الناس إن كان وولي هناك، هو الذي يُفترض أنه في سالينا، يكمل عقوبته. بداهةً، اعتراها القلق، لذا قرّرت أن تهاتف أختها. لكن عندما طلبت بيت سارة وأجاب وولي على الهاتف، لم يُغلق الخط في وجهها فقط، بل الواضح أنه رفع سماعة الهاتف، لأن كيتلين ظلت تعاود الاتصال، فلا تحصل إلا على إشارة بأن الخط مشغول. هذا التطور في مسار الأحداث لم يترك لكيتلين خياراً إلا البحث عن سارة و«دينيس» -حتى وهما يتعشيان عند آل ويلسون.

في صباه، لطالما نظر وولي لعلامات الترقيم بوصفها غريباً -قوة عدائية مكرّسة لهزيمته، سواءً عبر التجسس، أو عن طريق الإغارة على شواطئه بقوة كاسحة. في الصف السابع، عندما اعترف بذلك لمس بيني الطيبة والصبورة، شرحت لولي أنه فهم الأمر بالمقلوب. قالت إن علامات الترقيم حليفٌ له، لا عدوّاً. كل تلك العلامات الصغيرة -النقطة، والفاصلة، والنقطة المزدوجة - موجودة لمساعدته على التأكد من أن الآخرين يفهمون ما يحاول قوله. لكن الواضح أن «دينيس» كان واثقاً أن ما يقوله سيُفهم، حتى إنه لم يستخدم أيّ علامات ترقيم على الإطلاق.

-بعد اعتذارنا لمضيفينا والقيادة طول الطريق إلى بيتنا في هاستنغز ماذا

نجد إلا شاحنة بيك آب تسد المدخل وفوضى في المطبخ وغرباء في غرفة الطعام يشربون نبيذنا ويلطخون بياضات المائدة يا ربّي بياضات المائدة التي أعطتها جدتك لأختك صارت الآن ملطخة لا يمكن إعادتها إلى حالتها لأنك تعاملت معها مثلما تتعامل مع كل شيء آخر ومثلما تتعامل مع كل شخص آخر بعبارة أخرى من دون أدنى قدر من الاحترام.

تفحص «دينيس» وولي لبرهة، وكأنه يحاول بحق أن يفهمه، يحاول أن يقيم الرجل الجالس أمامه.

-في سن الخامسة عشرة تُرسلك أسرتك إلى واحدة من أرقى المدارس في البلاد وتجعلهم يطردونك لسبب لا أستطيع حتى تذكره ثم ينقلونك إلى سان مارك حيث تجعلهم يلفظونك مرة أخرى لأنك أحرقت مرمى من بين كل الأشياء وعندما لا تعود أي مدرسة مرموقة مستعدة لأن تُلقي عليك نظرة ثانية تُقنع أمك سان جورج بقبولك عن طريق استحضار ذكرى خالك والاس الذي لم يتفوق هناك عندما كان طالباً فحسب بل خدم في مجلس أمنائها في نهاية المطاف وعندما تُفصل من هناك وتجد نفسك ليس أمام لجنة انضباط لكن أمام قاضٍ ماذا تفعل أسرتك غير أن تكذب بخصوص سنك لكي لا تحاكم كبالغ وتستأجر محامياً من مؤسسة سوليفان وكرومويل نفسها ليُقنع القاضي بإرسالك إلى إصلاحية خاصة في كنساس حيث تستطيع زراعة خضروات لمدة سنة لكن الواضح أنك لا تمتلك حتى الشجاعة لمواجهة هذه المحنة إلى النهاية.

توقف «دينيس» وقفةً جسدية.

وكان وولي يعرف جيداً أن الوقفات الجسدية جزء لا يتجزأ من الكلام مع شخص ما على انفراد. إشارة لكل من المتحدث والمستمع على أن ما سيأتي بعد ذلك بالغ الأهمية.

-فهمت من سارة أنك إذا رجعت إلى سالاينا سيتركونك تكمل مدة عقوبتك في غضون أشهر لكي تستطيع التقدم إلى كلية ومواصلة حياتك

لكن الشيء الوحيد الذي صار واضحًا بما يكفي يا والاس هو أنك لا تقدّر بعد قيمة التعليم وأفضل طريقة لأن تقدّر الشخص قيمة التعليم أن يقضي بضع سنوات في وظيفة لا تتطلب تعليمًا لذا ومن هذا المنطلق غدًا سأتواصل مع صديق لي في البورصة يبحث دائمًا عن بضع شبّان لكي يعملوا كسعاة وربما يحقق معك قدرًا أكبر قليلًا من النجاح مقارنة بما حققناه في تعليمك معنى أن تكسب عيشك.

وعلى الفور، عرفَ وولي على وجه اليقين ما كان ينبغي أن يعرفه الليلة السابقة -عندما وقفَ بتلك الروح المعنوية العالية بين الزهور البرية والحشائش المستطيلة إلى الركبة- أنه لن يزور تمثال الحرية أبدًا.

إيميت

عندما أنهى مستر ويتني كلامه لولوي، صعدَ إلى غرفته في الطابق العلوي، ولحقت به زوجته بعدها ببضع دقائق. قال وولوي إنه يريد مراجعة تقدّم النجوم، وخرج من الباب الأمامي، ولحق به دوقه بعد بضع دقائق، حيث أراد أن يتأكد أنه بخير. وصعدت سالي إلى الطابق العلوي لكي تضع بيلي في فراشه، ما ترك إيميت وحده في المطبخ مع الفوضى. وكان ذلك من دواعي سرور إيميت.

عندما دخل مستر ويتني من باب غرفة الطعام، كانت مشاعر إيميت قد تحوّلت في لحظة من المرح إلى العار. فيم كانوا يفكرون، هم الخمسة؟ يُعربدون في بيت رجل آخر، ويشربون نبيذه ويلطّخون بياضات زوجته سعيًا وراء لعبة طفولية. إضافة إلى وخزة الحرج تلك، جاءت ذكرى مفاجئة لـ «باركر وبيكر» في عربة البولمان وطعامهما ملقّى في كل مكان وزجاجة الجن نصف الفارغة مقلوبة على جنبها. لَكم سارع إيميت بالحكم على هذين الرجلين؛ بإدانتهم على السلوك المدلّل والمعرّب الذي يتعاملان به مع ما حولهما.

لذا، لم يستكثر إيميت على مستر ويتني غضبه. كان لديه كل الحق في أن يغضب. أن يشعر بالإهانة. أن يثور. كانت المفاجأة بالنسبة لإيميت في ردة فعل مسز ويتني، في طريقة تعاملها الحنون، وهي تقول لهم بطريقتها الرقيقة عندما غادر وولوي ومستر ويتني الغرفة، ألاّ يشغلوا بالهم، وإنها مجرد مناديل قليلة وبضع زجاجات من النبيذ، مصرّة - من دون أي إشارة على الاستياء - أن يتركوا كلّ شيء لمدبرة المنزل، ثم أخبرتهم بالغرف

التي سينامون فيها وفي أي خزانات يجدون بطاطين ووسائد ومناشف إضافية. حنونٌ، كانت الكلمة. حنانٌ ضاعف من إحساس إيميت بالعار. لهذا السبب سرَّ حين وجد نفسه بمفرده، سرَّ أن وجد الفرصة لكي ينظف مائدة غرفة الطعام ويبدأ في غسل الأطباق كفعلٍ صغير من أفعال التكفير.

كان إيميت قد انتهى من غسل الصحون لتوّه وبدأ ينتقل إلى الكؤوس عندما رجعت سالي. قالت: لقد نام. -أشكرك.

من دون كلمة أخرى، تناولت سالي منشفة أطباق وبدأت تجفف الصحون بينما هو يغسل الكريستال؛ ثم جففت الكريستال بينما يغسل القدور. وكان من دواعي الراحة أن يقوم بهذا العمل، أن يقوم بهذا العمل في رفقة سالي من دون أن يشعر أيُّ منهما بالحاجة إلى الكلام. عرف إيميت أن سالي تشعر بعار مماثل، وكان ذلك من دواعي الراحة أيضًا. ليس فقط لمعرفة أن شخصًا آخر يشعر بوخزة مماثلة من الندم. بل لمعرفة أن إحساس المرء بالصواب والخطأ مشترك بينه وبين شخص آخر، وهذا أكثر صدقًا.

اشنان

—•—

دوقة

في عروض الفودفيل، كان التجهيز هو كل شيء. ينطبق ذلك على الكوميديانات بقدر ما ينطبق على البهلوانات والسحرة. يدخل المتفرجون المسرح ولكل منهم تفضيلاته الخاصة، انحيازاته الخاصة، وتوقعاته الخاصة. لذا، وعلى غفلة من المتفرجين، يحتاج المؤدي إلى إزالة كل هذا واستبداله بمجموعة جديدة من التوقعات به - توقعات يقف هو فيها في موقف أفضل يمكنه من استبقائها، والتلاعب بها، و، في نهاية المطاف، تلييتها.

خذ مثلاً «ماندريك الرائع». لم يكن ماني ممن يُطلق عليهم «ساحر عظيم». في النصف الأول من عرضه، كان يُخرج باقة أزهار من كُمّه، أو شرائط ملونة من أذنيه، أو نِكَلَة من العدم - تلك الخدع التي تراها في حفل عيد ميلاد لطفل في العاشرة من عمره. لكن مثل كزانتراكس، ما افتقر إليه ماني في مقدمة العرض، كان يعوّضه في الخاتمة.

أحد الفروق بين ماندرليك ومعظم أقرانه أنه، عوضاً عن إحضار شقراء طويلة الساقين لتقف بجانبه، كانت لديه ببغاءة من فصيلة كوكاتو اسمها لوسيندا. قبلها بأعوام طويلة أثناء رحلته إلى الأمازون - هكذا يشرح ماني للجمهور - عثرَ على فَرْخَة صغيرة سقطت من عَشْها على أرض الغابة. بعدما مرَّضها ورعاها إلى أن استعادت عافيتها، ربَّأها حتى البلوغ ولم يفترقا من وقتها. على مدار العرض، تظل لوسيندا رابضة على حاملها المذهَّب وتساعده بأن تحمل له سلسلة مفاتيح في مخالبها أو بأن تدق ثلاث مرات على دَكَّة من أوراق اللعب بمنقارها.

لكن عندما يقترب العرض من نهايته، كان ماني يعلن أنه سيجرب خدعة

لم يسبق له أداؤها من قبل. يأتي مساعد من الكواليس دافعاً قاعدة مرتفعة وُضع عليها صندوق أسود من «المينا» مرسوم عليه تين أحمر كبير. يقول ماني إنه، في إحدى رحلاته الأخيرة إلى الشرق، عثر على هذا الصندوق في سوق للأغراض المستعملة. فور أن رآه، تعرّف عليه: صندوق ماندرين. لم يعرف ماني إلا القليل من الصينية، غير أن الشيخ الذي باعه تلك التحفة لم يؤكد شكوكه فحسب، بل مضى ليعلم ماني الكلمات السحرية التي تجعله يعمل.

الليلة، يعلن ماني، للمرة الأولى في أي مكان في الأمريكتين، سأستخدم صندوق الماندرين لأجعل بيغاتي الغالية تختفي وتعاود الظهور أمام عيونكم.

برفق، يضع ماني لوسيندا في الصندوق ويغلق الباب. يُغمض عينيه، وينطق بتعويدة بلغة صينية من اختراعه، وهو يدق على الصندوق بعصاه. عندما يعاود فتح الباب، يكون الطائر قد اختفى.

بعد أن ينحني تحية لجولة من التصفيق، كان ماني يطالب الجمهور بالصمت، ويشرح أن التعويذة التي تجعل الطائر يعاود الظهور أعقد بكثير من تلك التي جعلته يختفي. يأخذ نفساً عميقاً، ويضاعف خزعبلاته الشرقية، بعد أن اختار لها النغمة المناسبة. ثم يفتح عينيه، ويشير بعصاه. من العدم، في ما يبدو، تنفجر كرة نار وتحيط بالصندوق، فتجعل الجمهور يشهق وماني يتراجع خطوتين إلى الوراء. لكن فور أن ينقشع الدخان، نجد صندوق الماندرين كما هو من دون خدش. يتقدم ماني إلى الأمام، بحذر، ويفتح باب الصندوق... يمد يديه إلى الداخل... ويسحب صينية فوقها طائر مشوي مثالي محاط بكامل مشتملاته.

للحظة، يسيطر صمت ذاهل على الساحر والجمهور. ثم يرفع ماني أنظاره عن الصينية، ويتطلع إلى المسرح ويقول: أوبس. وأي عاصفة من الضحك كان يفجرها هذا وسط الحضور. لذا، هاك ما حدث يوم الأحد، العشرين من يونيو...

استيقظنا مع بزوغ الفجر، وشرعنا بالبحاح من وولي في توضيب حقائبنا، ونزلنا السلم الخلفي على أطراف أصابعنا، وانسللنا من الباب من دون أن نصدر صوتاً.

بعد أن وضعتُ ناقل حركة الكاديلاك على وضع الحياد وتركتها تتدحرج خارجة من المدخل، أدركتُ المحرك، ووضعتها على الغيار الأول، وبعدها بنصف ساعة كنا نظير على طريق «تاكونيك ستيت باركواي» السريع المحفوف بالأشجار مثل علي بابا على بساطه السحري.

بدا وكأن كل السيارات على الطريق تتجه في الاتجاه العكسي، لذا قضينا وقتاً جميلاً، ونحن نخترق لاغرانجيل بحلول الساعة وألباني بحلول الثامنة.

بعد أن تلقى وولي الكلمتين القاسيتين من زوج أخته، ظل يتلوّى ويتقلّب في فراشه معظم الليلة واستيقظ وقد بدا عليه إحباط لم أره من قبل، لذا عندما رأيت برجاً أزرق مستدقاً في الأفق، شغلتُ إشارة الوقوف. العودة إلى المقصورة البرتقالية الزاهية رفعَ معنوياته كما بدا لي. فمع أنه لم يهتم بمفرش الصحن أمامه بالقدر نفسه، فقد أكل نصفَ البانكيك تبّعَه تقريباً وكلّ اللحم المقدّد تبّعِي.

لم يمر وقت طويل على تجاوزنا لبحيرة جورج، إلا وجعلني وولي أنعطف خارجاً عن الطريق السريع وبدأنا نتلوّى في طريقنا وسط المراعي البرية الشاسعة التي تشكّل تسعين بالمئة من كتلة اليابسة في ولاية نيويورك من دون أن تُسهم في تشكيل سُمعتها. مع ابتعاد البلدات عن الطريق واقتراب الأشجار منه، بدا أن وولي قد عاد لطبيعته تقريباً، وأخذ يدندن مع الإعلانات حتى والمذياع مطفأ. ولا بُد أنها كانت الحادية عشرة عندما اعتدل في جلسته على حافة مقعده وأشار إلى فُرجة وسط الأشجار.

-خذ اليمين التالي.

استدرنا في طريق ترابي، وأخذنا نتلوّى عبر غابة من أطول الأشجار التي رأيتها في حياتي.

بصراحة شديدة، عندما أخبرني وولي لأول مرة عن المئة وخمسين ألفاً المخبأة في خزانة في مخيم العائلة، ساورني الشكوك. لم أستطع تصوّر كل تلك النقود منزوية في كوخ مشيّد من جذوع الأشجار وسط الغابة. لكن عندما خرجنا من بين الأشجار، ظهر أمامنا بيتٌ أشبه باستراحة صيد فاخرة مملوكة لعائلة روكفيلر⁽¹⁾.

عندما رآه وولي، أطلق تنهيدة ارتياح أكبر حتى من تلك التي أطلقتها أنا، وكأنه كان هو الآخر فريسة لشكوكه الخاصة. وكأنه خشي أن يكون المكان بأسره من نسج خياله.

قلت: مرحباً بك في ديارك.

ومنحني أول ابتسامة في اليوم.

عندما خرجنا من السيارة، تبعْتُ وولي إلى مقدمة البيت وعبر المرجة إلى حيث مساحة عملاقة من المياه تتلأأ في الشمس.

قال وولي: البحيرة.

وإذ كانت الأشجار تصل إلى خط الساحل، لم يظهر أيّ مَسْكَن آخر في الأفق.

سألته: كم بيتاً يطلُّ على هذه البحيرة؟

ردّ بسؤال من طرفه: واحدٌ...؟

قلت: صحّ.

ثم شرع يعطيني فكرة عن الأرض.

-المرسى.

قالها وهو يشير إلى المرسى.

-وبيت القوارب. وسارية العلم.

قالها وهو يشير إلى بيت القوارب ثم سارية العلم.

ثم لفتَ بتنهيدة ارتياح أخرى: الخفير لم يأت بعد.

(1) عائلة روكفيلر: واحدة من أغنى العائلات الأمريكية. (م)

- وكيف عرفت؟

- لأن الطوف ليس في البحيرة وقوارب التجديف ليست في المرسى. استدرنا، وأخذنا لحظة للاستمتاع بمنظر البيت، الذي كان يطل من علٍ على الماء وكأنه ظلٌّ هناك منذ بداية أمريكا. ولعله كذلك بالفعل.

اقترح وولي: ربما ينبغي علينا أن نحضر أغراضنا...؟

- اسمح لي!

فرعْتُ إلى المهمة مثل ساع في فندق الريتز، وتقافزت إلى السيارة وفتحت صندوقها. أزعجتُ مضرب «لوفيل سلاغر» جانبًا، وتناولت حقيبتينا المدرستين، ثم تبعْتُ وولي إلى الطرف الضيق من البيت، حيث صفَّان من الأحجار المطلية بالأبيض يقودان إلى الباب.

في أعلى الدَّرَج الأمامي كانت أربعة أصص أزهار مقلوبة. لا شكَّ، عندما يكون الطوف في البحيرة وقوارب التجديف في المرسى، أنها تكون مزروعة بأيِّ نوع من الزهور يجده «الواسب» زخرفيًا من دون أن يكون مبهرجًا.

بعد أن نظر وولي تحت ثلاثة أصص، أخذ مفتاحًا وفتح الباب. ثم بحضور ذهنٍ مجافٍ لطبيعته بكل تأكيد، أعاد المفتاح إلى مكانه قبل أن يسمح لنا بالدخول.

أولاً، دخل غرفة صغيرة حيث عيون الأرفف، والخطاطيف، والسلال تحمّل في انتظام شديد كلَّ شيء تحتاج إليه لقضاء نزهة في الخلاء الفسيح: معاطف وقبعات، قصب صيد وبكرات، أقواس وسهام. أمام خزانة زجاجية تعرض أربع بنادق، كُوِّمت عدة كراسي كبيرة بيضاء اللون فوق بعضها البعض، وقد أدخلت من مواقعها الخلابة على مرجة العشب. قال وولي: غرفة الأوحال.

وكان الأوحال وجدت طريقها قَط إلى نعال أحذية أيِّ فرد من آل وولكوت.

فوق خزانة البنادق عُلِّقت لافتة خضراء كبيرة تشبه تلك التي كانت في

العنابر في سالينا، وقد كُتبت عليها بالطلاء قواعدُها ولوائِحها الخاصة. أمَّا بقية الحائط، فكان في معظمه ألواحًا حمراء داكنة - تعلو إلى السقف - على شكل شارات الرُتَب العسكرية عليها قوائم أسماء طُليت بالأبيض. شرح وولي: الفائزون.

-بماذا؟

-بالمسابقات التي اعتدنا تنظيمها في الرابع من يوليو.

أخذ وولي يشير من اسم إلى آخر.

-الرماية بالبندقية، الرماية بالقوس، سباق السباحة، سباق الزوارق، سباق العشرين ياردة.

بينما أهدق في الألواح، لا بُد أن وولي ظنّني أبحث عن اسمه لأنه تطوع وأخبرني أنه ليس موجودًا.

اعترف قائلًا: لست ماهرًا جدًّا في الفوز.

وطمأنته: الفوز مسألة يبالغون في تقديرها.

بعد خروجنا من غرفة الأوحال، قادني في الطُّرقة، وهو يسمّي الغرف التي نمر بها.

-غرفة الشاي... غرفة البلياردو... مقصورة الألعاب.

في النهاية، كانت الطُّرقة تفتح على منطقة معيشة فسيحة.

قال وولي: نسمي هذه الغرفة: العظيمة.

ولم يكن ذلك على سبيل المزاح. مثل بهو فندق كبير، كانت تضمُّ ستة أركان مختلفة للجلوس بأرائك وكراس ذات ظهور مجنّحة وأباجورات رأسية. وكانت هناك أيضًا طاولة للعب ألورق مكسوّة بالجوخ، ومدفأة بدا وكأنها مجلوبة من قلعة. كان كل شيء في مكانه السليم، باستثناء الكراسي الهزّازة الخضراء الداكنة المكوّمة بجوار الباب الخارجي.

وإذ رآها وولي، بدا عليه الإحباط.

-ما الأمر؟

-هذه تنتمي إلى الشرفة في الحقيقة.

-خيرُ البرِّ عاجله.

وضعنا حقيبتينا ورميتُ قبعتي الفيدورا على أحد الكراسي، ثم رحت أساعد وولي في نقل الكراسي الهزّازة إلى الشرفة، حريصين على ترتيبها، وفقًا لتعليماته، على مسافات متساوية. فور أن صارت جميعًا في مكانها، سألني وولي إن كنتُ أريد رؤية بقية البيت.

-قطعائيًا!

كذلك قلت، فارتسمت على وجهه ابتسامة أكبر حتى من سابقتها. واستطردتُ: أريد أن أراه كلّهُ، يا وولي. لكن لا ينبغي أن ننسى سبب وجودنا هنا...

بعد أن حدّثني وولي بنظرة فضول لبرهة، رفع إصبعه في الهواء، وكأنما انتبه فجأة. ثم قادني في الطرقة إلى الجانب الآخر من الغرفة العظيمة وفتح بابًا.

قال: مكتب جدي الكبير.

ونحن نسير في طرقات البيت، بدا لي أمرًا مضحكًا أنني شككتُ للحظة في إمكانية أن تكون النقود مخبأة هنا. بالنظر إلى حجم الغرف ونوعية الأثاث، كان يمكن أن تجد هناك خمسين ألف دولار محشورة تحت مرتبة في غرفة الخادمة وخمسين ألفًا أخرى ضائعة وسط وسائد الأرائك. لكن إذا كان جلال البيت قد عزّز ثقتي، فذلك لا يقارن بمكتب الجد الكبير. هنا كانت غرفة رجل يعرف ليس فقط كيف يكسب المال، لكن كيف يحتفظ به. وهما أمران، في نهاية المطاف، مختلفان كل الاختلاف.

بطريقة ما، كانت تشبه نسخة مصغرة من الغرفة العظيمة، بنفس الكراسي الخشبية، والسجاجيد الحمراء، ومدفأة أخرى. لكنها ضمت أيضًا طاولة مكتب كبيرة عظيمة، وخزانات كتب، وسلّمًا صغيرًا من ذلك الذي يستخدمه عشاق الكتب للوصول إلى المجلدات في الرفوف العليا. على إحدى الحوائط علّقت لوحة لحفنة من الرفاق الاستعماريين في بناطيل ضيقة وبواريك بيضاء يتجمعون حول طاولة مكتب. لكن فوق

المدفأة عُلّق بورترية لرجل في أواخر الخمسينيات له بشرة فاتحة ووجه وسيم حاسم النظرات.

سألته: جدك الكبير؟

قال وولي: لا. هذا جدي.

بطريقة ما، ارتحُتُ لسماع ذلك. إذ لم يبدو لي سلوكا «وولكوتيًا» تمامًا أن يعلّق الشخص بورترية لنفسه فوق المدفأة في غرفة مكتبه.

-لقد رُسِمَ عندما تسَلَّم جدي مسؤولية شركة الورق من جدي الكبير. وعندما توفي بعدها بقليل، نقلَ جدي الأكبر الصورة إلى هنا.

نظرتُ من وولي إلى البورترية فأمكنني رؤية الشبه العائلي. باستثناء النظرات الحاسمة بالطبع.

سألته: ماذا حدث لشركة الورق؟

-الخال والاس تولى المسؤولية عندما توفي جدي. كان وقتها لا يزال في الخامسة والعشرين وظل يديرها إلى أن شارف الثلاثين، لكنه مات هو الآخر.

لم أكلّف نفسي عناء الإشارة إلى أن رئاسة شركة وولكوت للورق وظيفة يجدر تجتّبها. إذ أظنُّ أن وولي عرف ذلك.

استدار وولي، وتقدّم إلى لوحة الاستعماريين ورفع يداً.

-العرض الإيضاحي لإعلان الاستقلال.

-أنت تمزح.

قال وولي: أوه، نعم. هاكْ جون آدامز، وتوماس جيفرسون، وبن فرانكلين وجون هانوك. كلهم هناك.

سألت بابتسامة خبيثة واسعة: وأيهم وولكوت؟

لكن وولي أخذ خطوة أخرى إلى الأمام، وأشار إلى رأس صغيرة في خلفية الحشد.

قال: أوليفر. هو أيضًا وقَّع «وثائق الكونغدرالية»⁽¹⁾ وكان حاكم كونيتيكت.

(1) وثائق الكونغدرالية: اتفاقيات بين الولايات الثلاث عشرة المؤسسة للولايات المتحدة، كانت بمثابة دستور أولي لها. (م)

وإن كان ذلك قبل سبعة أجيال.

بقينا كلانا نومئ برأسينا لبضع ثوان، لكي نعطي أولي تبع أيام زمان احترامه المستحق. ثم رفع وولي يديه، وفتح اللوحة كما لو كانت باب خزانة، ثم، انظر وعائِن، ها هي خَزَنَةُ الجد الكبير، تبدو وكأنها صُنعت من معدن سفينة حربية. بمقبض مطلي بالنيكل وأربعة أقراص دوَّارة صغيرة، لا بُد أن مساحتها قدم ونصف مربعًا. فإذا كانت أيضًا بعمق قدم ونصف ستستوعب لمدَّخرات حياة سبعين جيلًا من آل هيويت. لولا جلال اللحظة، لصَفَرْتُ.

من منظور الجد الأكبر، كانت محتويات الخزانة على الأرجح تعبيرًا عن الماضي. في هذا البيت القديم الكبير، وراء هذه اللوحة القديمة الجليلة، كانت وثائقٌ وُقِّعَت قبل عقود، ومجوهرات وُرِّثَت من جيل إلى جيل، ومبالغ نقدية رُوِّكمت عبر عدة حيوات. لكن في غضون لحظات قليلة، سينتقل بعضٌ من محتويات الخزانة إلى ممثل عن المستقبل. مستقبل إيميت. مستقبل وولي. مستقبلي.

قال وولي: ها هي.

وافقته: ها هي.

ثم أطلقنا تنهيدة معًا.

سألته، وأنا أشير إلى الأقراص الدوَّارة: هل تحب أن...؟

—ماذا؟ أوه، لا. تفضِّل أنت.

قلت، وأنا أحاول مقاومة غواية فَرَكِ يَدَيَّ معًا: طيِّب. فقط اعطني

الأرقام، وسأنال أنا هذا الشرف.

بعد لحظة صمت، نظر إليَّ وولي وعلى وجهه تعبير مفاجأةٍ حقيقي.

سألني: الأرقام؟

ثم ضحكْتُ. ضحكْتُ إلى أن أوجعتني كليتي وسالت الدموع من

عيني.

مثلما قلت: في الفودفيل، التجهيز هو كل شيء.

إيميت

-لقد قمت بعمل رائع، لا أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر.
كذلك قالت مسز ويتني.

ورد إيميت: ذلك يسعدني.

كانا يقفان على عتبة غرفة الطفل ينظران إلى الحوائط، التي انتهى
إيميت لتوّه من طلائها.

-لا بُد أنك جائع بعد كل ذلك العمل. لماذا لا تنزل معي وأعد لك
شطيرة.

-شكرًا جزيلاً يا مسز ويتني. فقط دعيني أنظف المكان.

قالت: بالطبع. لكن من فضلك. نادني سارة.

ذلك الصباح، نزل إيميت إلى الطابق السفلي ليجد أن دوقه وولي
غادرا. بعد أن استيقظا في ساعة مبكرة، انطلقا بالكاديلاك، ولم يتركا
وراءهما إلا رسالة قصيرة. وكان مستر ويتني قد غادر هو الآخر، عائداً إلى
شقتهما في المدينة من دون أن يتناول فطوره. ومسز ويتني، كانت تقف في
المطبخ ترتدي أفرولاً، وشعرها مشدود إلى الوراء في منديل.

شرحت بنظرة حرج: وعدت أنني سأنهاي طلاء غرفة الطفل أخيراً.

لم تكن بحاجة إلى كثير إقناع كي تترك إيميت يتولى المهمة.

بموافقة مسز ويتني، نقل إيميت صناديق أغراض وولي إلى الكراج،
وكدّسها في البقعة التي كانت تشغلها الكاديلاك. ببعض الأدوات التي
وجدها في القبو، فكك السرير وسفّ أجزاءه وراء الصناديق. عندما
صارت الغرفة خالية، غطّى «الكرانش» بشرط لاصق، ووضع الغطاء
القماشى على الأرض، وقلب الطلاء، وبدأ العمل.

عندما يكون المسرح مجهّزًا جيدًا للمهمة - حيث الغرفة خالية والكرانيش مغطاة بشريط لاصق والأرض محميّة - يصير الطلاء عملاً باعثًا على السكينة. فيه إيقاع يَسمح لأفكارك بأن تهدأ، أو تَسكن بالكلية. في نهاية المطاف، لا تعود واعيًا إلا بحركة الفرشاة تمسح الحائط ذهابًا وإيابًا، تُحوّل بَطَانتَه البيضاء إلى درجته الجديدة من الأزرق.

عندما رأت سالي ما يفعله إيميت، أومأت برأسها في استحسان.
-هل تريد يدًا معك؟

-عندي يدان.

-لقد سكبتَ بعض الطلاء على الغطاء هناك بجوار النافذة.
-نعم.

قالت: طيّب. فقط لكي تعرف.

ثم جعلت سالي تنظر في الطريقة يمينًا ويسارًا بما يشبه التكشيرة، وكأنها محبّطة لعدم وجود غرفة أخرى تحتاج إلى طلاء. لم تكن معتادة على التبطل، خاصة عندما تكون ضيفًا متطفلاً على بيت امرأة أخرى.

قالت: ربما أخذ بيلى إلى البلدة. نذهب إلى فوّارة صودا نتناول فيها غداءنا.

وافقها إيميت، وهو يضع الفرشاة على حافة الصفيحة: تبدو فكرة جيدة. دعيني أعطيك بعض النقود.

-أظنني أستطيع تحمّل تكلفة شراء همبرغر لأخيكَ. علاوة على ذلك، فأخراً تحتاج إليه مسز ويتني هو أن تقطّر الطلاء وأنت تسير في أرجاء بيتها.

عندما نزلت مسز ويتني إلى الطابق السفلي لتعدّ بعض الشطائر، أنزل إيميت كل خامات العمل إلى أسفل السلم الخلفي (وقد تفقّد حذاءه مرتين ليتأكد من عدم وجود طلاء على نعليه). في الكراج، نظّف الفرشات، وصينية الطلاء، ويديه بالتربّتين. ثم التحق بمسز ويتني في المطبخ حيث كانت شطيرة من لحم الخنزير وكوب من الحليب بانتظاره على الطاولة.

جلس إيميت، واتخذت مسز ويتني المقعد المقابل له ومعها فنجانٌ من الشاي، لكن بلا طعام.

قالت: يجب أن أذهب إلى المدينة لألحق بزوجي، لكنني فهِمت من أخيك أن سيارتك في الورشة ولن تكون جاهزة قبل الغد.
قال إيميت: هذا صحيح.

-في هذه الحالة، لماذا لا تبيتون ثلاثكم هنا الليلة. تستطيعون خدمة أنفسكم بأي شيء في البراد للعشاء، وفي الصباح تستطيعون إحصاء الأبواب وراءكم عندما تغادرون.
-هذا كرمٌ شديد منك.

شكَّ إيميت أن مستر ويتني كان سيرحب بترتيب كهذا. بل الأرجح أنه أبلغ زوجته أنه يريدهم جميعًا خارج البيت فور أن يستيقظوا. وشعر إيميت بشكوكه تتأكد عندما أضافت مسز ويتني، كفكرة جاءتها للتو، أنه في حال رنَّ جرس الهاتف، عليهم ألا يجيبوا.

أثناء تناول طعامه، لاحظ إيميت ورقة مطوية قائمة بين رشاشتي الملح والفلفل وسط الطاولة. وإذ تَبَعَت مسز ويتني نظرتها، اعترفت أنها رسالة من وولي.

عندما نزل إيميت أول مرة في الصباح وأخبرته مسز ويتني بأن وولي قد غادر، بدا عليها الارتياح لمغادرته، لكنه ارتياح مشوب بقدر من القلق. الآن، وهي تنظر إلى الرسالة، رجعت المشاعر نفسها إلى وجهها.

سألت: تريد أن تقرأها؟

-لا يصحّ.

-لا بأس. أنا متأكدة أن وولي لن يمانع.

كانت غريزة إيميت تدفعه عادةً إلى الاحتجاج مرة ثانية، لكنه استشعر أن مسز ويتني تريده أن يقرأ الرسالة. وضع شطيرته، وتناولها من مكانها بين الرشاشتين.

كانت الرسالة، المكتوبة بخط يد وولي والموجهة إلى أختي، تقول إن

وولي آسف على إثارة الفوضى. آسف على المناديل والنبذ. آسف على الهاتف في دُرج المكتب. آسف على مغادرته هكذا في الصباح من دون أي وداع لائق. لكن عليها ألا تقلق. ولا لدقيقة واحدة. ولا للحظة واحدة. ولا لرمشة عين. كل شيء سيكون على ما يرام.

بالشفرة، ذيل رسالته بحاشية: آل كمبتون يلحقون المرق في الموكب.
-صحيح؟

كذلك سألت مسز ويتني عندما وضع إيميت الرسالة على الطاولة.
-معذرة؟

-صحيح أن كل شيء سيكون على ما يرام؟
أجاب إيميت: نعم. أنا متأكد من ذلك.

أومات مسز ويتني برأسها، لكن إيميت لم يرَ في إيماءتها تعبيرًا عن الاتفاق مع رده بقدر ما رأى فيه امتنانًا لتطمينها. للحظة، جعلت تنظر في شاها، الذي لا بُد صار فاترًا.

قالت: أخي لم يكن يورط نفسه في المتاعب طوال الوقت. كان وولي، بالطبع، لكن أموره تغيرت أثناء الحرب. بطريقة ما، عندما قَبِلَ والدنا انتدابه في البحرية، كان وولي هو من انتهى به الأمر وسط الأمواج. ابتسمت ابتسامة حزينة بعض الشيء على دعابتها. ثم سألت إن كان إيميت يعرف لماذا أرسل أخوها إلى سالاينا.

-أخبرنا أنه أخذ سيارة شخص آخر ذات مرة.

قالت، بما يشبه الضحكة: نعم. هذا ما حدث. تقريبًا.

حدث ذلك عندما كان وولي في سان جورج، ثالث مدرسة داخلية يلتحق بها في العدد نفسه من السنين.

أوضحت مسز ويتني: ذات يوم بين الحصص، قرّر أن يذهب إلى المدينة ليتمشى بحثًا عن قُمع آيس كريم، من بين كل الأشياء. عندما وصل إلى المركز التجاري الصغير الذي يبعد بضعة أميال عن المدرسة، رأى سيارة إطفاء واقفة بمحاذاة الرصيف. وعندما نظر حوله ولم يجد أي

إشارة على رجال الإطفاء، ظنّ -بطريقة لا تحدث إلا مع أخي- أنهم لا بُدّ قد نسوها. نسوها مثل -أوه، لا أعرف حتى- مثل مظلة معلقة على ظهر كرسي، أو كتاب على مقعد حافلة.

بابتسامة حنان، هزّت رأسها، ثم أكملت: أخذته الحماسة لإعادة سيارة الإطفاء إلى أصحابها الشرعيين، فتسلق ليجلس وراء عجلة القيادة ودار يبحث عن مركز الإطفاء. جعل يقود في أرجاء البلدة وعلى رأسه قبعة رجل إطفاء -مثلما وردَ لاحقًا في التقرير- يُزمرّ بالنفير لكل طفل يمر به. بعد أن دار، يعلم الله كم من الوقت، وجد مركز الإطفاء، فأوقف العربّة وسار على قدميه عائداً إلى المدرسة.

بدأت نظرة الحنان المرتسمة على وجه مسز ويتني تخبو الآن بينما يقفز عقلها إلى كل ما تلا ذلك.

-كما تبين لاحقاً، كانت سيارة الإطفاء في موقف سيارات المركز التجاري لأن عددًا من رجال الإطفاء كانوا في متجر البقالة. وبينما يتجول وولي بالسيارة في الشوارع، وردّت مكالمة عن اسطبل يحترق. عندما وصلت سيارة إطفاء أخرى من بلدة مجاورة، كان الاسطبل قد احترق وسوّي بالأرض. لحسن الحظ، لم يُصَب أحد. غير أن عامل الاسطبل الشاب الذي كان بمفرده في مناوبته لم يستطع إخراج كل الخيول من المبنى، ونفقت أربعةٌ منها في الحريق. تتبعت الشرطة وولي إلى المدرسة وكان ذلك هو الأمر.

بعد لحظة، أشارت مسز ويتني إلى صحن إيميت لتسأله إن كان انتهى. عندما قال إنه انتهى، رفعت الصحن مع فنجانها إلى الحوض.

كانت تحاول ألا تتخيل الأمر، هكذا فكّر إيميت. تحاول ألا تتخيل هذه الخيول الأربعة محاصرة في حجيراتهما، تُحمّج وترفع قوائمها الخلفية والنيران تقترب منها. تحاول ألا تتخيل اللامتخيل.

ومع أنها كانت تولي ظهرها لإيميت الآن، عرفَ من حركة ذراعها أنها

تمسح دموعًا. وإذ قرّر أن يتركها في سلام، أرجع رسالة وولي إلى موضعها ودفع كرسيه بهدوء إلى الخلف.

-هل تعرف ما الذي أجده غريبًا جدًّا؟

سألته مسز ويتني، وهي لا تزال تقف أمام الحوض وظهرها له.

عندما لم يرد، استدارت، وعلى وجهها ابتسامة حزينة.

-ونحن صغار، ينفقون وقتًا طويلاً على تعليمنا أهمية السيطرة على رذائلنا. غضبنا، حسدنا، كبرياؤنا. غير أنني عندما أنظر حولي، أرى الكثيرين ممّن حولي وقد تعثّرت حيواتهم بفعل إحدى الفضائل، لا إحدى الرذائل. إذا أخذت صفةً من تلك التي تُعدُّ ميزة في ظاهرها -صفة يشي عليها القساوسة والشعراء، صفة نُعجّب بها في أصدقائنا ونتمنى تعزيزها في أطفالنا- وأعطيها بوفرة لروح مسكينة، ستقف بكل تأكيد تقريبًا عقبةً أمام سعادتها. تمامًا مثلما تجد شخصًا يضُرُّه ذكاؤه البالغ، فثمة أشخاص يضُرُّهم صبرهم البالغ، أو يضُرُّهم جدُّهم البالغ.

بعد أن هزت مسز ويتني رأسها، نظرت إلى السقف. وعندما عادت وأنزلت رأسها، رأى إيميت دمةً أخرى تسيل على خدها.

-هؤلاء الواصلون أكثر من اللازم... أو الحذرون أكثر من اللازم... أو الطيّبون أكثر من اللازم...

أدرك إيميت أن مسز ويتني تحاول مشاركته محاولاتها للفهم، للشرح، لاستخلاص معنى ما من سقوط أخيها صاحب القلب الكبير. وفي الوقت نفسه، قدّر أن قائمة مسز ويتني تُخفي في طيّاتها اعتذارًا عن زوجها، الذي كان إمّا ذكيًا أكثر من اللازم، أو واثقًا أكثر من اللازم، أو مُجدّدًا أكثر من اللازم على نحو يضُرُّه هو. وربما كان الثلاثة جميعًا. بيدَ أنه وجد نفسه يتساءل: أي فضيلة كانت لدى مسز ويتني بقدر أكبر من اللازم؟ الإجابة، كما أخبرته غريزته، ولو أنه تردّد بعض الشيء في الاعتراف، أنها على الأرجح فضيلة المغفرة.

وولي

وكان هذا هو الكرسي الهزاز المفضل لديّ، كذلك قال وولي للا أحد. كان يقف في الشرفة، بعد أن ذهب دوقه إلى المتجر العمومي. أعطى الكرسي دفعة، وأنصت إلى صريره على قاعدتي اهتزازه وهو يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، ملاحظًا كيف يقترب كل صرير أكثر فأكثر بينما تصير الحركة إلى الأمام وإلى الخلف أصغر فأصغر، إلى أن توقفت بالكلية.

دفع وولي الكرسي ثانية، وتطلّع إلى البحيرة. في الوقت الحالي، كانت ساكنة للغاية حتى إنك ترى كل سحابة في السماء منعكسة على صفحتها. لكن بعد ساعة أو نحو ذلك، حوالي الساعة الخامسة، سيبدأ نسيم العصر في الاشتداد وتتعرّج صفحة الماء وتتشوّش كل الانعكاسات. ثم ستبدأ ستائر النوافذ في الخفقان.

أحيانًا، فكّر وولي، أحيانًا في نهاية الصيف عندما تسرح الأعاصير فوق الأطلنطي، يشتدّ نسيم العصر كثيرًا إلى حدّ أن أبواب غرف النوم تنصفق جميعًا والكراسي الهزازة تتأرجح من تلقاء نفسها.

بعد أن أعطى وولي دفعة أخيرة لكرسيه، عاد إلى الغرفة العظيمة عبر الباب المزدوج.

قال: هذه هي الغرفة العظيمة، حيث كنا نلعب البارثيسي⁽¹⁾ ونُكَمِّل صور «البازل» في العصريّات المطيرة... وهذه هي الطريقة... وهذا هو المطبخ، حيث كانت دوروثي تعدّ لنا الدجاج المقلي وكعكات «مافن» التوت الأزرق التي اشتهرت بها. وتلك هي الطاولة حيث كنا نأكل ونحن أصغر سنًا من أن نأكل في غرفة الطعام.

(1) البارثيسي، أو البارثي: إحدى ألعاب اللوحات. (م)

أخرج وولي من جيبه الرسالة التي كتبها وهو جالسٌ إلى مكتب جدّه الكبير، ودسّها بأناقة بين رشاشتي الملح والفلفل، ثم غادر المطبخ من الباب الوحيد في المنزل الذي يتأرجح إلى الأمام والخلف.

قال، وهو يشير إلى المائدة الطويلة التي كان يجتمع حولها هو وأبناء عمومته وعماته وأعمامه: وهنا غرفة الطعام. فور أن تصير كبيرًا بما يكفي لأن تأكل هنا، تستطيع الجلوس في أي مقعد تريد إلا المقعد على رأس المائدة، لأن هذا هو المكان الذي يجلس فيه جدي الكبير. وهناك رأس الأيل.

خرج وولي من غرفة الطعام، وعاد دخول الغرفة العظيمة، حيث، بعد أن متّع أنظاره بها من ركن إلى ركن، التقط حقيبة إيميت المدرسيّة وشرع يصعد السلم، وهو يعدّ: اثنان، أربعة، ستة، ثمانية، شجّع وغنّ الأغنية. في أعلى السلم، امتدّت الطُرقَة في الاتجاهين، شرقًا وغربًا، واصطفّت أبواب غرف النوم على الجانبين.

بينما تُرك الحائط الجنوبي خاليًا، كنت ترى على الحائط الشمالي صورًا فوتوغرافية أينما نظرت. وفقًا لأسطورة عائلية، كانت جدة وولي أول من علّق صورة فوتوغرافية في الطُرقَة العلوية -صورة لأولادها الأربعة الصغار، وضعتها فوق الطاولة الجانبية المواجهة للسلم. بعدها مباشرة، علّقت صورة ثانية وثالثة إلى يمين ويسار الصورة الأولى. ثم علّقت رابعة وخامسة فوقها وتحتها. على مرّ السنين، أضيفت صورٌ فوتوغرافية إلى اليسار واليمين، أعلى وأسفل، إلى أن صارت تشعّ في كل اتجاه.

وضع وولي الحقيبة المدرسيّة على الأرض، وتقدّم من أول صورة، ثم بدأ يعاين كل الصور الأخرى بالترتيب الذي علّقت به. هذه صورة للخال والاس وهو صبي صغير في بدلة بخار صغيرة. وهذه صورة للجد على رصيف المرسى وقد وضع وشمًا لمركب شراعي على ذراعه، يستعد لجولة سباحته المقررة في الثانية عشرة. وهذه صورة أبيه وهو يرفع شريطه الأزرق بعد فوزه في مسابقة الرماية بالبندقية يوم الرابع من يوليو عام 1941.

- كان دائماً يفوز في مسابقة الرماية بالبندقية.

قالها وولي، وهو يمسح دمعة عن خدّه بكف يده.

وهذه، على بُعد خطوة واحدة من الطاولة الجانبية، صورة لـ وولي مع أمه وأبيه في الزورق.

لقد التُقطت هذه الصورة -أوه، لم يعرف وولي على وجه اليقين- عندما كان في السابعة من عمره تقريبًا. بالتأكيد قبل بيرل هاربر وحاملة الطائرات. قبل ريتشارد و«دينيس». قبل سان بول وسان مارك وسان جورج. قبل، وقبل، وقبل.

الطريف في الصورة، فكّر وولي، الطريف في الصورة أنها برغم كونها تعرف كل ما حدث إلى لحظة التقاطها، لا تعرف قطعاً أي شيء عمّا سيحدث بعد ذلك. مع ذلك، فور أن تؤطر الصورة وتعلق على حائط، تتفحصها فتري كل الأشياء التي كانت على وشك الحدوث. كل الأشياء «اللا». الأشياء التي كانت لا متوقّعة. ولا مقصودة. ولا رجوع فيها. مسح وولي دمعة أخرى عن خدّه، وأنزل الصورة عن الحائط وتناول الحقيبة المدرسيّة.

مثل الكرسي المميز على مائدة غرفة الطعام، كانت ثمة غرفة في الطرقة لا يُسمح لك بالنوم فيها لأنها غرفة الجد الكبير. كان الجميع بخلاف الجد الكبير ينامون في مختلف الغرف في مختلف الأوقات بحسب سنّهم، أو ما إذا كانوا متزوجين، أو توقيت وصولهم في موسم الصيف. على مرّ السنين، نام وولي في عدد من تلك الغرف. لكن لأطول فترة، أو ما بدت أنها أطول فترة، كان هو وابن عمه فريدي ينامان في الغرفة قبل الأخيرة على اليسار. لذا، إلى هذه الغرفة اتجه وولي.

دخل وولي، ووضع الحقيبة المدرسيّة على الأرض وأسند صورته الفوتوغرافية مع والديه على الكومود وراء الدُورق والأكواب. بعد أن نظر إلى الدُورق للحظة، حمّله وسار به في الطرقة إلى الحمّام، وملاه بالماء، وأعادته ثانية. صبّ الماء في أحد الأكواب، ورفعَه ونقله إلى طاولة

الفراش. ثم بعد أن فتح نافذةً، لكي يجد النسيم طريقه إلى داخل الغرفة بعد الساعة الخامسة، شرع يفرغ حقيبتيه.

أولاً، أخرج المذياع ووضعه على الكومود بجوار الدورق. ثم أخرج قاموسه ووضعه بجانب المذياع. ثم أخرج علبة السيجار، التي احتفظ فيها بمجموعته من النسخة نفسها من أشياء مختلفة، ووضعتها بجوار القاموس. ثم أخرج زجاجة دوائه الإضافية وزجاجة بنية صغيرة كان قد وجدها بانتظاره في رفّ التوابل ووضعهما على طاولة الفرّاش بجوار كوب الماء. وبينما يخلع وولي حذاءه، سمع صوت سيارة تتوقف في مدخل البيت -دوقة يرجع من المتجر العمومي. تحرك وولي إلى الباب، وأخذ يُنصت إلى الباب الشبكي في غرفة الأوحال وهو يفتح وينغلق. ثم إلى الخطوات التي تقطع الغرفة العظيمة. ثم إلى أثاث يُحرّك في غرفة المكتب. وأخيراً، إلى صوت صليل.

لم يكن صليلاً لطيف الجرس، مثل ذلك الذي تصدره عربات الترامواي في سان فرانسيسكو، فكّر وولي. كان صليلاً مفحّخاً مثل الصادر عن حدّاد يدق على حدوة حصان حمراء من فرط السخونة، فوق سندان.

أوربما ليست حدوة حصان... فكّر وولي بغصّة في الحلق. كان أشبه بصوت حدّاد يدق على شيء آخر. شيء يشبه، شيء يشبه، شيء يشبه سيفاً. نعم، هذا هو. بدا صوت الصليل مثل حدّاد من قديم الزمان يطرق نصل «الإكسكاليبّر».⁽¹⁾

بتلك الصورة الأجمل في ذهنه، أغلق وولي الباب، وشغل المذياع، وذهب ليرقد على السرير الأيسر.

في قصة «ذات الصفائر الذهبية والديبة الثلاثة»، تُضطر ذات الصفائر الذهبية إلى صعود ثلاثة أسرّة مختلفة قبل أن تجد السرير المناسب لها. بيد أن وولي لم يكن بحاجة إلى صعود ثلاثة أسرّة مختلفة لأنه كان يعرف بالفعل أن السرير الأيسر هو المناسب له. ففي صباحه، لم يكن ذلك السرير

(1) الإكسكاليبّر Excalibur: سيف الملك آرثر الأسطوري. (م)

صلبًا أكثر من اللازم ولا لِينًا أكثر من اللازم، لا طويلاً أكثر من اللازم ولا قصيرًا أكثر من اللازم.

عدّل وولي الوسادتين على رأس السرير، وأتى على الزجاجاة الإضافية من دوائه ثم استرخى. وإذ نظرَ إلى السقف، رجعت أفكاره إلى لعبة «البازل» التي كانوا يعكفون عليها في الأيام المطيرة.

أما كان سيصير رائعًا، فكّر وولي، لو كانت حياة كل إنسان تشبه لعبة «بازل»؟ إذا لَمَا مثَلَت حياة أي شخص إزعاجًا لأي شخص آخر. بل لاستكُنَّت كلُّ حياةٍ في مكانها المخصَّص لها، الأمر الذي يجعل الصورة المعقَّدة بأسرها تكتمل.

بينما دوّر وولي تلك الفكرة الرائعة في رأسه، وصل إعلانٌ تجاري إلى نهايته، وتلاه أحد برامج «مَن الجاني». نزل وولي من السرير، وضبط صوت المذياع على درجتين ونصف.

ما ينبغي فهمه بشأن الاستماع إلى برنامج «مَن الجاني» في المذياع، مثلما عرف وولي جيدًا، أن الأجزاء المصمَّمة لإصابتك بالتوتر -مثل همسات المجرمين، أو خشخشة أوراق الشجر، أو صرير درجات السلم- تكون هادئة نسبيًا. بينما الأجزاء المصمَّمة لإراحة بالك -مثل التجلي المفاجئ للبطل، أو صرير عجلات سيارته، أو دويّ رصاصة من مسدسه- تكون عالية نسبيًا. لذا إذا خفضت الصوت إلى درجتين ونصف، لن تسمع الأجزاء المصمَّمة لإصابتك بالتوتر إلا بالكاد، لكنك ستظل تسمع كل الأجزاء المصمَّمة لإراحة بالك.

رجع وولي إلى السرير، وسكَب كل الحبوب الوردية الصغيرة من الزجاجاة البنية الصغيرة على الطاولة. بطرف إصبعه، جعل يدفعها في كف يده، وهو يقول: واحد بطاطا، اثنين بطاطا، ثلاثة بطاطا، أربعة. خمسة بطاطا، ستة بطاطا، سبعة في المزرعة⁽¹⁾. ثم ابتلعها جميعًا بجرعة كبير من الماء، واسترخى من جديد.

(1) واحد بطاطا...: أغنية من إحدى ألعاب الأطفال (بتصرّف في الترجمة). (م)

بعد أن عُدّلت الوسادتان كما ينبغي، وخُفّضَ الصوت كما ينبغي،
وابْتُلعت الحَبَّات الوردية الصغيرة كما ينبغي، قد تظن أن وولي لن يعرف
فيمَ يفكر، لأن وولي هو وولي، ودماغه دماغ وولي.
بيد أن وولي عرف بالضبط فيمَ يفكر. عرف أنه سوف يفكر فيه تقريبًا
منذ لحظة حدوثه.

قال لنفسه بابتسامة: سأبدأ من أمام خزانة العرض في «فاو شوارتز».
وستأتي أختي، ونشرب الشاي في البلازا مع الباندا. وبعد أن يقابلني دوقه
عند تمثال أبراهام لينكون، سنذهب أنا وهو لحضور السيرك، حيث سيظهر
بيلي وإيميت فجأة. ثم سنعبّر جميعًا جسر بروكلين ونصعد مبنى إمباير
ستيت، حيث سنقابل البروفيسور أبرناثي. ثم ننتقل إلى قضبان السكك
الحديدية المليئة بالحشائش حيث سنجلس بجوار النار ونستمع إلى قصة
الاثنين يوليسيس والعرفاء القديم الذي شرح لهما كيف يمكنهما العثور
على الطريق إلى الديار - كيف يمكنهما العثور على الطريق إلى الديار، بعد
عشر سنين طويلة.

لكن لا يجب على المرء أن يتعجّل، فكّر وولي، بينما خففت ستائر
النافذة، وبدأ العشب ينبثق من الفتحات بين ألواح الأرضية، وتسلق
اللبلاب قوائم الكومود. فالיום من النوع الفريد من نوعه يستحق أن يُعاش
من جديد بأبطأ إيقاع ممكن، حيث تُتذكّر كل لحظة، وكل التواء، وكل
انعطاف للحوادث بأدق التفاصيل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أباكوس

قبل سنوات عديدة، توصل أباكوس إلى نتيجة مفادها أن أعظم القصص البطولية تتخذ شكل ماسة مقلوبة على جنبها. تبدأ حياة البطل عند نقطة لطيفة، ثم تتمدد إلى الخارج عبر سُنَى الشباب حيث يشرع في توطيد نقاط قوّته ومواطن قصوره، صداقاته وعداواته. وإذ يواصل المضي قدمًا في العالم، يُلاحق مآثره مصحوبًا برفقة عظيمة، ويُراكم أوجه الشرف والسؤدد، والحكايات والنوادِر. لكن عند لحظة ما - لحظة لا يَرُدُّ ذكرها في سيرته - يبدأ انكسار الشعاعين اللذين يُرسّمان الحدود الخارجية لعالمه المتمدد، عالم الرفاق الأشداء والمغامرين الأكفاء، فيتخذان مسار التلاقي. هكذا، تبدأ الأراضي التي يقطعها بطلنا، والشخصيات التي يقابلها، والإحساس بالهدف الذي لطالما دفعه قدمًا، تضيق جميعًا - تضيق باتجاه تلك النقطة الثابتة المحتومة التي تُعَيِّن قَدْرَه المكتوب. خُذ مثلًا حكاية أخيل.

راجيةً أن تجعل ابنها منيعًا لا يُقهر، ترفع ثيتس حورية البحر مولودها من كعبه وتغطّسه في نهر ستيكس. من تلك اللحظة الزمنية المحددة ومن قرصة إصبعيها تبدأ قصة أخيل. يشبُّ صبيًا فارغًا متينًا، ويتعلم التاريخ، والأدب، والفلسفة على يد القنطور تشيرون. وفي ميادين الرياضة، يكتسب القوة والرشاقة. ومع رفيقه باتروكلوس، يقيم أمّتن الروابط. في شبابه، يرتحل أخيل في أرجاء العالم، مغامرًا جريئًا. ينتقل من مأثرة إلى مأثرة، مُخضّعًا خصوصًا من كل الصنوف، ومشيدًا سُمعةً تسبقه لدى القاصي والداني. ثم، في ذروة شهرته وقمة شوكته، يُبحر أخيل إلى طروادة لكي يلتحق بأمثال أغاممنون، ومينلاوس، ويوليسيس، وأياكس في أعظم المعارك التي خاضها الرجال قاطبة.

لكن عند نقطة في هذا المفترق، عند نقطة في منتصف بحر إيجه، ومن دون أن يدرك أخيل، ينكسر شعاعا حياته الممتدان إلى الخارج، ويبدأن مسارهما العنيد إلى الداخل.

لعشر سنين طويلة، سوف يبقى أخيل في ميادين طروادة. وعلى مدار ذلك العقد، سوف تضيق منطقة الصراع أكثر بينما تقترب خطوط المعارك أكثر من أسوار المدينة المحاصرة. جحافل الجنود الإغريق والطرواديين التي كانت بلا عدد سوف تقل، متضائلة مع كل قتيل إضافي. وفي السنة العاشرة، عندما يذبح هكتور، أمير طروادة، باتروكلوس الحبيب، سوف يضيق عالم أخيل أكثر.

منذ تلك اللحظة، يتقلص العدو وكل كتابه في ذهن أخيل إلى ذلك الشخص الواحد المسؤول عن موت صديقه. تتقلص ميادين القتال الفسيحة إلى الأقدام المربعة القليلة التي سوف تفصل بينه وبين هكتور حين يقفان متواجهين. أما الإحساس بالهدف، الذي اشتمل يومًا على الواجب، والشرف، والمجد، فهذا هو يتقلص الآن إلى رغبة متأججة في الانتقام.

لذلك، ليست مفاجأة ألا تمر سوى أيام معدودة عقب نجاح أخيل في قتل هكتور، إلا ويشقُّ سهمٌ مسمومٌ الهواء ليخترق النقطة الوحيدة غير المحصنة في جسد أخيل - كعب قدمه الذي أمسكته أمه منه عندما غطسته في نهر ستيكس. وفي اللحظة نفسها، تخدم كل ذكرياته وأحلامه، كل أحاسيسه ومشاعره، كل فضائله ورذائله، مثل لهب شمعة أطفالاً إبهامٌ وسبابة.

أجل، لقد فهم أباكوس منذ زمن طويل أن القصص البطولية العظيمة تشبه ماسةً مقلوبة على جنبها. بيد أن ما استولى على أفكاره مؤخرًا كان إدراك أن الامتثال لذلك الشكل الهندسي لا يقتصر على حيوات المشاهير. فحيوات عمال المناجم وعمال الشحن والتفريغ تمثل له بدورها. حيوات النادلّات ومربيّات الأطفال تمثل له. حيوات التابعين والمغمورين، العابثين والمنسيين.

كل الحيوانات.

حياته.

حياته هي الأخرى بدأت عند نقطة ما - في الخامس من مايو عام 1890، عندما وُلد صبيُّ اسمه سام في غرفة نوم في كوخ مطليٍّ صغير على جزيرة «مارثاز فينيارد»، السليل الوحيد لمحقق تأمين وحيّاطة.

مثل أي طفل، قضى سام سنواته الأولى في كنف أسرته الدافئ. لكن ذات يوم، عندما كان سام في السابعة من عمره، وفي أعقاب إعصار، اصططحبه والده إلى حطام سفينة كانت بحاجة إلى تقييم لحساب المؤمّنين. بعد أن قُطعت السفينة كل ذلك الطريق من «بورت أو برنس»، جنحت وارتطمت بالقاع في محَاضة قُبالة «ويست شوب»⁽¹⁾، وهناك بقيت، هيكُلها مخروق، وأشرعتها ممزقة بالية، وشحنتها من الروم تنجرف إلى الشاطئ مع الأمواج.

من تلك اللحظة، بدأت أسوار حياة سام تتفرع إلى الخارج. بعد كل عاصفة، أصبح يصرُّ على مرافقة أبيه لكي يرى الحطام: المراكب الشراعية، الفرقاطات، واليخوت. وسواءً تحطّمت على الصخور أو أغرقتها أمواج متلاطمة، لم يرَ سام ببساطة سفينة منكوبة. بل رأى العالم الذي جسّدته تلك السفينة. رأى موانئ أمستردام، ويونس آيرس، وسنغافورة. رأى التوابل والمنسوجات والمصنوعات الخزفية. رأى البحارة الذين انحدروا من كل بلد بحري حول العالم.

افتتأَن سام بحطام السفن قاده إلى قصص البحر الخيالية، مثل قصص سندباد وجيسون. وقادته القصص الخيالية إلى تواريخ المستكشفين العظام، وصارت نظره للعالم تتسع مع قراءة كل صفحة إضافية. في

(1) بورت أو برنس Port-au-Prince: عاصمة هايتي. ويست شوب West Chop: منطقة سكنية على الطرف الشمالي من جزيرة مارثاز فينيارد، في ولاية ماساتشوستس. (م)

نهاية المطاف، أوصله حُبُّه للتاريخ والأساطير إلى قاعات جامعة هارفرد المكسوة باللبلاب، ثم إلى نيويورك، حيث -بعد أن عمَّد نفسه من جديد باسم أباكوس وأعلن نفسه كاتبًا- قابل موسيقيين، ومعماريين، ورسامين، ورجال مال، مثلما قابل أيضًا مجرمين ومنبذين. وأخيرًا، قابل بولي، أعجوبة الأعاجيب التي جلبت له الفرح، والرفقة، وابنة، وابناً. لكم كانت تلك السنوات الأولى في مناهاتن استثنائية! عاش فيها أباكوس بنفسه الرحابة الجبارة، الطاغية، شديدة التنوع، التي اسمها «الحياة».

أوبالأحرى، «النصف الأول من الحياة».

متى بدأ التغيير؟ متى انكسرت حدود عالمه الخارجية على نفسها وبدأت تتحرك بعناد تجاه نقطة التقائها النهائية. لم يعرف أباكوس.

بعد أن شبَّ ابنه وابنته وغادرا البيت، ربما؟ بالتأكيد قبل وفاة بولي. نعم، أغلب الظن عند نقطة ما أثناء تلك السنوات التي بدأ فيها عمرها ينقضي، من دون أن يعرف، بينما مضى هو، الذي كان في ربيع العمر مثلما يقولون، في شؤون حياته هاشًا غير مُبال.

التغير المفاجئ للمسار هو أقصى ما في الأمر. مع ذلك، فلا سبيل لتجنبه تقريبًا. فلحظة يبدأ التحوُّل، يكون الشعاعان المحددان لحياتك متباعدين جدًا، حتى إنك لا تستطيع تمييز التغيُّر في مساره. وفي هذه السنوات الأولى، عندما يبدأ الشعاعان في الانكسار إلى الداخل، يظل العالم منفتحًا للغاية في عينيك، ولا تجد سببًا يدعوك للاشتباه في تقلصه.

لكن يومًا ما، يومًا ما بعد سنوات من بدء التلاقي، تحسُّ بالمسار الداخلي لأسوار حياتك، بل وتشعر في رؤية النقطة النهائية في الأفق، وترى الأرض التي لا تزال تمتد فسيحة أمامك تبدأ في التضائل بوتيرة متسارعة.

في تلك السنوات الذهبية عندما كان في أواخر العشرينيات، بُعيد

وصوله إلى نيويورك، عقدَ أباكوس ثلاث صداقات عظيمة. رجلاً وامرأة، كانوا أكثر الرفاق جسارة، زملاء مغامرات العقل والروح. لكن في السنين الخمس الأخيرة وحدها، أصيب الأول بالعمى، والثاني بالنفخ الرئوي، والثالثة بالخرف. لعلك تسارع بالتأمل في مدى اختلاف أقدارهم: فقدان البصر، والقدرة على التنفس، والإدراك. بيد أن العاهات الثلاث، في واقع الأمر، ليست إلا ثلاثة وجوه من العقوبة نفسها: تقلُّص الحياة باتجاه طرف الماسة البعيد. خطوة بعد خطوة، جعلت ملاعب كل من هؤلاء الأصدقاء تتقلص من العالم بأسره، إلى بلده، إلى مقاطعته، إلى بيته، وأخيراً إلى غرفة واحدة يُحكَم عليه بقضاء بقية أيامه فيها؛ كفيفاً، أو لاهثاً، أو ناسياً.

ومع أن أباكوس لم يعاني بعدُ من عاهات تُذكر، كان عالمه هو الآخر يتضاءل. هو الآخر راقب الحدود الخارجية لحياته وهي تضيقُ، من العالم بأسره، إلى جزيرة مانهاتن، إلى ذلك المكتب المبطّن بالكتب حيث ظل ينتظر بخضوع انغلاق الإبهام على السبابة. ثم يأتي هذا... هذا!

هذا التحول الاستثنائي في الأحداث.

ولدٌ صغير من نبراسكا يظهر على عتبة بابه بمظهر رقيق وحكاية خيالية. حكاية ليست من مُصنَّف مغلف بالجلد، انتبه. ليست من قصيدة ملحمية كُتبت بلغة لم يعد أحد يتحدث بها. ليست من أرشيف أو دارٍ للكتب. لكن من الحياة نفسها.

لَكُمْ يسهل أن ننسى -نحن العاملين في صناعة الحكي- أن الحياة هي مرادنا. أمٌ اختفت، أبٌ أخفق، أخٌ ثابت الجنان. رحلة من البراري إلى المدينة في عربة شحن مع متشرّد اسمه بوليسييس. ومن ثم إلى سكة حديدية معلقة فوق المدينة، مثل الفالهاالا المعلق وسط السحاب⁽¹⁾. وهناك جلس

(1) الفالهاالا: في الأساطير الاسكندنافية: القصر الذي يذهب إليه الشهداء الذين يُقتلون في المعارك. (م)

الولد، ويوليسيس، وهو، بجوار نار المخيم، مثلما كان الرجال يجلسون
في غابر الأيام، وبدأت...

-حان الوقت.

قالها يوليسيس.

وقال أباكوس: ماذا؟ الوقت؟

-إذا ما زلتَ تريد أن تأتي.

قال: أنا قادم! ها أنا ذا!

نهض أباكوس على قدميه وسط حِرش يبعد عشرين ميلاً غرب كنساس
سيّتي، وشقَّ طريقه وسط الهشير في الظلام، ممزقاً جيب سترته. وبأنفاس
لاهثة، تبع يوليسيس مروّراً بفرجة وسط الأشجار، وصعوداً إلى السكة
العالية، ودخولاً إلى عربة الشحن المقدّر أن تأخذهما لا يعرفان إلى أين.

بيلي

كان إيميت نائماً. عرف بيلي أن إيميت كان نائماً لأنه كان يشخّر. لم يكن إيميت يشخّر بصوت عالٍ مثلما كان أبوهما يشخّر، لكنه كان يشخّر بما يكفي لأن تعرف أنه نائم.

بهدوء، انسلَّ بيلي خارجاً من تحت الأغطية ونزل على السجادة. مَدَّ يده تحت السرير، ووجد حقيبة ظهره، فتح غطاءها العلوي، وأخرج المصباح اليدوي وارد مخلفات الجيش تَبَعَه. وبحرص على أن يسلط الشعاع على السجادة - كيلا يوقظ أخاه- أضاء المصباح. ثم أخرج «الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من الرحالة البواسل» للبروفيسور أبرناثي، وفتحه على الفصل الخامس والعشرين، وتناول قلمه الرصاص.

لو كان بيلي سيبدأ من لحظة البداية، لرجع إلى يوم الثاني عشر من ديسمبر عام 1935، يوم ولادة إيميت. كان ذلك بعد سنتين من زواج أبيهما وأمهما في بوسطن وانتقالهما إلى نبراسكا. كان أثناء الكساد، وكان فرانكلين روزفلت هو الرئيس، وكان عمر سالي عامًا واحدًا تقريبًا.

لكن بيلي لم يكن سيبدأ من نقطة البداية. كان سيبدأ من medias res. الجزء الصعب، مثلما شرح لإيميت في محطة القطار في لويس، كان يكمن في معرفة أين المنتصف.

إحدى الأفكار التي خطرت لبيلي هي أن يبدأ من الرابع من يوليو عام 1946، عندما ذهب هو وإيميت وأمهما وأبوهما إلى سيوارد لمشاهدة عرض الألعاب النارية.

بيلي كان رضيعًا وقتها، لذا لا يتذكر كيف كانت الرحلة إلى سيوارد. لكن إيميت كان قد أخبره، عصر يومٍ ما، بكل شيء عنها. أخبره بحبِّ

أُمهما للألعاب النارية، والحقيبة الخوص في العليّة، والمفرش ذي المربّعات الذي يفرشونه على العشب في وسط حديقة «بلوم كريك بارك». لذا كان بوسع بيلي استخدام ما أخبره به إيميت لكي يصف اليوم كما كان بالضبط...

لكنه كان يمتلك أيضًا الصورة الفوتوغرافية.

مد بيلي يده إلى داخل حقيبة ظهره، وأخرج مظروفًا من أبعد جيب داخلي. فتح غطاءه، وأسقط منه الصورة الفوتوغرافية وأمسكها بالقرب من شعاع المصباح اليدوي. كانت صورة لإيميت، وبيلي الرضيع في السلة، وأُمهما، والحقيبة الخوص، كلهم في صف واحد على المفرش ذي المربّعات. لا بُد أن والدهما هو من التقط الصورة لأنه لم يظهر فيها. كانوا كلهم يتسمون في الصورة، ومع أن والد بيلي لم يظهر في الصورة، عرف بيلي أنه لا بُد أن يتسم أيضًا.

كان بيلي قد عثر على الصورة مع البطاقات البريدية التي أرسلتها أُمهما من طريق لينكون السريع في اللعبة المعدنية المدسوسة في الدُّرج السفلي من كومود والدهما.

لكن عندما وضع بيلي البطاقات البريدية في المظروف الأصفر لكي يعرضها على إيميت عندما يرجع من سالاينا، وضع الصورة من سيوارد في مظروف آخر. وضعها في مظروف آخر لأنه عرف أن ذكريات الرحلة إلى سيوارد تجعل أخاه غاضبًا. عرف بيلي ذلك لأن أخاه صار غاضبًا وهو يخبره بأمر الرحلة إلى سيوارد. ولم يحك عنها لبيلي ثانية قط.

احتفظ بيلي بالصورة لأنه عرف أن إيميت لن يظل غاضبًا من أُمهما دائمًا. فور أن يعثرا عليها في سان فرانسيسكو، وتسنع لها فرصة إخبارهما بكل الأشياء التي كانت تفكر فيها في سنوات فراقهما، لن يعود إيميت غاضبًا. عندها سوف يعطيه بيلي الصورة، وسوف يكون سعيدًا لأن بيلي احتفظ بها لأجله.

غير أن بدء القصة من تلك النقطة أمرٌ بلا معنى، هكذا فُكّر بيلي، وهو

يعيد الصورة إلى مظهرها. لأن أمهما لم تكن قد غادرت بعد في يوم الرابع من يوليو. لذا كانت تلك الليلة أقرب لبداية القصة ممّا إلى منتصفها. فكرة أخرى خطرت لبيلي: أن يبدأ من الليلة التي ضربَ فيها إيميت جيمي سنايدر.

لم يكن بيلي بحاجة إلى صورة فوتوغرافية لكي يتذكر تلك الليلة لأنه كان هناك مع إيميت وكان كبيرًا بما يكفي لأن يتذكر بنفسه. كان يوم السبت، 4 أكتوبر عام 1952، آخر ليلة في المعرض. والدهما، الذي كان قد ذهب معهما إلى المعرض الليلة السابقة، قرر قضاء ليلة السبت في البيت. لذا ذهب إيميت وبيلي معًا في الستادبيكر.

في بعض السنوات، تبدو درجة الحرارة في المعرض وكأنها بداية الخريف. لكن تلك السنة، بدت وكأنها نهاية الصيف. تذكّر بيلي ذلك لأن نوافذ السيارة كانت مفتوحة وهما في الطريق إلى المعرض، وعندما وصلا، قررا أن يتركا سترتيهما في السيارة.

كانا قد خرجا في الخامسة ليتناولوا شيئًا من الطعام، ويركبا بعض الألعاب، ويتبقّى لهما وقتٌ للحاق بالمقاعد الأمامية في مسابقة العزف. أحبّ إيميت وبيلي مسابقة العزف، خاصة عندما يجلسان في الصفوف الأمامية. لكن تلك الليلة على وجه الخصوص، ومع أن الوقت كان طويلًا أمامهما، لم يتمكنّا من مشاهدة العازفين.

بدأ جيمي سنايدر يقول تلك الأشياء اللئيمة وهما يسيران من الخيول الموسيقية الدوّارة إلى المسرح. في البداية، لم يبدُ إيميت مكترثًا لما يقوله جيمي. ثم بدأ يغضب، وحاول بيلي أن يشدّه بعيدًا، لكن إيميت لم يذهب معه. وعندما حاول جيمي أن يقول شيئًا لثيماً آخر عن والدهما، لكمه إيميت في أنفه.

بعد أن سقط جيمي على الأرض وارتطمت رأسه، لا بُدَّ أن بيلي أغمضَ عينيه، لأنه لم يتذكر كيف بدت الدقائق التالية. فقط يتذكر صوتهما: أصدقاء جيمي يشهقون، ثم يصيحون طلبًا للنجدة، ثم يصرخون في إيميت بينما

يتدافع الناس حولهم. ثم إيميت، الذي لم يترك يد بيلي ولو مرة، يحاول أن يشرح ما حدث لشخص بعد آخر، إلى أن وصلت سيارة الإسعاف. وطوال ذلك الوقت، كان أرغن لعبة الخيول الموسيقية الدوّارة يعزف موسيقاه والرامة في حلقة الرماية يطلقون الرصاص: بوب، بوب، بوب. غير أن بدء القصة من تلك النقطة أمرٌ بلا معنى أيضًا، هكذا فكّر بيلي. لأن ليلة المعرض كانت قبل أن يُرسل إيميت إلى سالينا ويتعلم درسه. لذا تنتمي هي الأخرى إلى البداية.

لكي نكون في *medias res*، فكّر بيلي، ينبغي أن يكون عدد الأشياء المهمة التي حدثت مساويًا لعدد الأشياء المهمة التي لم تحدث بعد. بالنسبة لإيميت، يعني ذلك أنه ينبغي أن يكون قد ذهب بالفعل لمشاهدة الألعاب النارية في سيوارد؛ وينبغي أن تكون أمهما قد اتخذت بالفعل طريق لينكون السريع إلى سان فرانسيسكو؛ وينبغي أن يكون إيميت قد توقف بالفعل عن العمل في المزرعة وذهب ليصبح نجارًا؛ وينبغي أن يكون قد اشترى بالفعل الستادبيكر بمدخراته؛ وينبغي أن يكون غضبه قد ثار بالفعل في المعرض ولكمّ جيمي سنايدر في أنفه وأرسل إلى سالينا وتعلم درسه.

لكن وصول دوق وولي إلى نبراسكا، ثم الرحلة إلى نيويورك، والبحث عن الستادبيكر، والتثام الشمل مع سالي، والرحلة التي يستعدان لقطعها من ميدان تايمز سكوير إلى «قصر جوقة الشرف» لكي يعثرا على أمهما في الرابع من يوليو، كل تلك الأشياء ينبغي ألا تكون قد حدثت بعد. لهذا السبب قرر بيلي، وهو ينحني على الفصل الخامس والعشرين والقلم الرصاص في يده، أن النقطة المثالية لبدء قصة مغامرات إيميت هي لحظة كان يرجع من سالينا إلى البيت في المقعد الأمامي لسيارة المأمور.

واحد

— • —

إيميت

في التاسعة صباحًا، كان إيميت يسير بمفرده من محطة القطار في شارع 125 إلى الشطر الغربي من حي هارلم.

قبلها بساعتين، نزلت سالي إلى الطابق السفلي حيث مطبخ آل ويتني قائلة إن بيلي أخلد إلى النوم.

قال إيميت: لا بُدَّ أنه مرهق.

وردّت سالي: لا شكَّ في ذلك.

للحظة، ظنَّ إيميت أن ملاحظة سالي موجّهة إليه -نخسةٌ تلومه بها على تعريض بيلي لكل تلك المحن على مرّ الأيام الماضية. لكن بعد أن نظرَ إلى وجهها، رأى أنها كانت تردّد فكرته وحسب. بيلي كان منهكًا. لذا قرر الاثنان أن يتركاها ينام.

قالت سالي: علاوة على ذلك. أحتاج إلى بعض الوقت لغسيل البياضات وترتيب بقية الأسرة.

في هذه الأثناء، سيأخذ إيميت القطار إلى هارلم لكي يستعيد الستادبيكر. ومع إصرار بيلي على بدء الرحلة من تايمز سكوير، اقترح إيميت أن يلتقوا ثلاثتهم الساعة 10:30.

قالت سالي: طيّب. لكن كيف سنلتقي؟

-من يصل إلى هناك أولاً ينتظر تحت لوحة إعلانات «النادي الكندي».
-وأين هي؟

قال إيميت: صدقيني. لن تجدي أي صعوبة في العثور عليها. عندما وصل إيميت إلى ورشة السّمكرة، وجد تاونهاوس ينتظره في الشارع.

قال بعد أن تصافحا: سيارتك جاهزة. هل استعدت مظروفك؟

-نعم.

-طيب. الآن تستطيع أنت وبيلي التوجه إلى كاليفورنيا. وعلى وجه السرعة...

نظر إيميت إلى صديقه.

استطرد تاونهاوس: الشرطة عادت ليلة أمس. ليس رجال الدورية، بل اثنان من المحققين. سألاني نفس الأسئلة عن دوقه، لكنهما هذه المرة سألا عنك أنت أيضًا. وأمراني صراحة أن أبلغهما إذا سمعت عنك أو عن دوقه، وإلا أوقع نفسي في ورطة كبيرة. لأن سيارة مطابقة لأوصاف الستادبيكر تَبَعَكَ شوهدت بالقرب من بيت أكرلي العهد القديم - في عصر نفس اليوم الذي أرسله فيه أحدهم إلى المستشفى.

-المستشفى؟

أوما تاونهاوس برأسه.

-يبدو أن شخصًا أو أشخاصًا مجهولين دخلوا بيت أكرلي في إنديانا وضربوه على رأسه بأداة غير حادة. يظنون أنه سيتعافى، لكنه لم يستعد وعيه بعد. في هذه الأثناء، قام هؤلاء الأولاد في الزيّ الأزرق بزيارة إلى والد دوقه في أحد الفنادق الرخيصة في وسط البلد. لم يكن هناك، لكن دوقه كان قد ذهب إلى هناك بصحبة شاب أبيض آخر وسيارة زرقاء فاتحة. وضع إيميت يده على فمه.

-ياربي!

-بالضبط. اسمع، في ما يتعلق بي أنا، فقد نال أكرلي ابن العاهرة ذاك ما يستحقه. لكن في الوقت الراهن، سيصير عليك أن تضع مسافة بينك وبين نيويورك. وبينما تفعل ذلك، ضَع مسافة بينك وبين دوقه أيضًا. هيا. التوأمان بالداخل.

تقدم تاونهاوس، وأخذ إيميت وسط السيارات الواقفة للإصلاح إلى حيث كان الأخوان غونزاليس وذلك المسمى أوتيس في الانتظار. وجدا

السيارة عادت تحت الغطاء، وباكو وبيكو يتسلمان ابتسامتين بيضاوين عريضتين - اثنان من الصنایعیّة متلهفين على كشف صنيعة أيديهما. سأل تاونهاوس: كل شيء تمام؟ قال باكو: كل شيء تمام. -إِذَا، هيا بنا.

عندما سحب الأخوان الغطاء، ران الصمت على تاونهاوس، وإيميت، وأوتيس للحظة. ثم شرع أوتيس يرتج من الضحك. -أصفر؟

سأل إيميت غير مصدّق. نظر الأخوان إلى إيميت، ثم تبادلوا الأنظار، ثم نظرا إلى إيميت مجدداً. سأل باكو، بنبرة دفاعية: وما عيبُ الأصفر؟ قال أوتيس بضحكة أخرى: إنه لون الجبناء. بدأ بيكو يتحدث بسرعة إلى أخيه بالإسبانية. عندما انتهى، استدار باكو إلى الآخرين.

-يقول إنه ليس أصفر الجبناء. إنه أصفر الدُّبُور. لكنها لا تبدو فقط مثل دُّبُور، إنها تلسع مثل دُّبُور أيضاً. بدأ باكو يشير إلى السيارة، مثل بائع يسلّط الضوء على مزايا موديل جديد.

-علاوة على الدهان، أصلحنا الانبعاجات، ولمّعنا الكروم، وغيرنا زيت «الفيتيس». لكننا أضفنا أيضاً بعض القدرة الحصانية تحت «الكبُوت»⁽¹⁾. قال أوتيس: طيّب، على الأقل لن يستطيع رجال الشرطة التعرف عليها الآن.

وقال باكو: وإذا تعرفوا عليها، لن يستطيعوا اللحاق بك. ضحك الأخوان غونزاليس برضاً مشترك.

(1) الفيتيس: ناقل السرعة. الكبُوت: غطاء المحرك. (م)

شعر إيميت بندم على ردة فعله الأولى، فأسهب في إعرابه عن الامتنان، خاصة بالنظر إلى السرعة التي أنجز بها الأخوان عملهما. لكن عندما أخرج مظروف النقدية من جيبه الخلفي، هز كلاهما رأسه.

قال باكو: هذه على حساب تاونهاوس. نحن مدينان له بواحدة. بينما اصطحب إيميت تاونهاوس بالسيارة لكي يعيده إلى شارع 126، كان الاثنان يضحكان على الأخوين غونزاليس، وعلى سيارة إيميت، وعلى لِسْعَتِها الجديدة. عندما توقفا أمام البيت ذي الواجهة المصنوعة من الحجر الرملي الأسمر، كانا صامتين، لكن أيًا منهما لم يمدّ يده إلى مقبض الباب. -لماذا كاليفورنيا؟

كذلك سأل تاونهاوس بعد برهة. للمرة الأولى وصفَ إيميت، بصوت عالٍ، خطته لاستغلال مال أبيه -أن يشتري بيتًا متهدمًا، ويصلحه، ويبيعه لكي يشتري بيتين آخرين؛ وهو ما يقتضي العيش في ولاية تضم عددًا كبيرًا ومتزايدًا من السكان. قال تاونهاوس بابتسامة: هذه خطة تليق بإيميت واطسن فعلاً. سأله إيميت: ماذا عنك؟ ماذا ستفعل الآن؟ -لا أعرف.

نظر تاونهاوس من نافذته إلى دَرَج بيته الخارجي. -أمي تريدني أن أرجع إلى المدرسة. لديها أحلام خيالية عني، أن أحصل على منحة دراسية وألعب الكرة في الجامعة، وهي أشياء لن تحدث. وأبوي، يريدني أن أشتغل في مكتب البريد. -هو يحب وظيفته، صحيح؟

-أوه، لا يحبها يا إيميت. إنه يعشقها. هز تاونهاوس رأسه بابتسامة مكبوتة.

-عندما تكون ساعي بريد، يعطونك مسارًا، تعرف؟ الشوارع التي عليك أن تَعْتَل فيها حقيبتك ذهابًا وإيابًا كل يوم -مثل بغل على سكة ترابية. لكن يبدو أن أبي لا يرى في ذلك عملاً بالمعنى الحقيقي. لأنه يَعْرِف الجميع

على مساره والجميع يعرفونه. السيدات العجائز، والأولاد، والحلاقون، والبقالون.

هز تاونهاوس رأسه مجددًا.

- ذات ليلة قبل نحو ست سنوات، رجع إلى البيت وقد بدا محبطًا جدًا. مثلما لم نره من قبل. عندما سألته ماما ما الخطب، انفجر في البكاء. ظننا أن شخصًا مات، أو شيئًا من هذا القبيل. لكن تبين أن المسؤولين غيروا مساره الذي ظل يلتزم به لمدة خمسة عشر عامًا. نقلوه إلى مكان آخر يبعد ستة شوارع إلى الجنوب وأربعة شوارع إلى الشرق، وكاد ذلك يكسر قلبه. سأل إيميت: وماذا حدث؟

- استيقظ في الصباح، وخرج مجهدًا من الباب، وبنهاية العام، كان قد وقع في عشق ذلك المسار أيضًا.

ضحك الصديقان معًا. ثم رفع تانهاوس إصبعًا في الهواء.

- لكنه لم ينسَ المسار الأول أبدًا. كل سنة في «عيد الشهداء»، عندما يحصل على إجازة، يسير في المسار القديم. يلقي التحية على كل مَنْ يعرفونه، وعلى نصف مَنْ لا يعرفونه. على حدّ تعبيره، إذا حصلتَ على وظيفة بوسطجي، إذا فحكومة الولايات المتحدة تدفع لك راتبًا لكي تكون صدقات.

- عندما تنظر إليها بتلك الطريقة، لا تبدو وظيفة سيئة جدًا.

واتفق معه تاونهاوس: ربما. ربما. لكن بقدر ما أحبُّ والدي، لا أتخيل نفسي أعيش على هذا النحو. أسير في الشوارع نفسها يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، عامًا بعد عام.

• - طيّب. إذا ليس الكلية ولا مكتب البريد، ماذا؟

- أفكر في الجيش.

سأل إيميت متفاجئًا: الجيش؟

- نعم، الجيش.

قالها تاونهاوس، وكأنه يحاول أن يجرب وقع الكلمة بصوت عالٍ، ثم

تابع: لم لا؟ لا توجد حروب الآن. والمرتب جيّد جدًا وكله للادخار. وإذا كنتَ محظوظًا، قد يرسلونك إلى ما وراء البحار وترى شيئًا من العالم. لفتَ إيميت: سترجع إلى العنابر.

ردّ تاونهاوس: لم تكن لديّ مشكلة كبيرة مع ذلك.

-الوقوف في الطوابير... الالتزام بالأوامر... ارتداء زيّ موحد...

-هذه هي المشكلة تحديدًا يا إيميت. كرجل أسود، سواءً انتهى بك الأمر وأنت تحمل حقيبة بريد، أو تُشغَل مصعّدًا، أو تملأ السيارات بالبنزين، أو تقضي عقوبة، سترتدي زيًّا موحدًا. لذا قد تختار الزيّ الذي يناسبك. وأظنني إذا ظللتُ أسير بجوار الحائط، وأجتهِد في مهامِي، ربما أترقّى. أصبح ضابطًا. وأكسب لنفسِي حق الوجود على الطرفِ الأفضل من التحية العسكرية.

قال إيميت: أستطيع أن أرى ذلك.

وقال تاونهاوس: تعرف؟ وأنا أيضًا.

عندما ترَجَّل تاونهاوس من السيارة أخيرًا، ترَجَّل إيميت بدوره. دار حول المقدّمة، والتقاءه على الرصيف، حيث تصافحا في مودّة صامتة من تلك التي تجمع أبناء العائلة الواحدة.

الأسبوع الماضي، عندما أخرج بيّلي بطاقاته البريدية وشرح لإيميت كيف سيعثران على والدتهما عن طريق حضور واحدٍ من أكبر احتفالات الرابع من يوليو في ولاية كاليفورنيا، اعتبر إيميت فكرة شقيقه حالمة وخيالية في أفضل الأحوال. مع ذلك، ورغم كون إيميت وتاونهاوس شائِئين يهْمَان بالسير في طريقين مختلفين من دون ضمانات حقيقية بخصوص المكان الذي سينتهيان إليه، فعندما قال تاونهاوس لدى فراقهما، سوف نتقابل يا إيميت، لم تُساور إيميت أيُّ شكوك أن ذلك سوف يحدث.

-ما هذه باسم الرب؟

قالت سالي.

وقال إيميت: إنها سيارتي؟
-الشَّبه بينها وبين سيارتك مثل الشَّبه بين تلك اللافتات الإعلانية وبين سيارتك.

كانا يقفان في الطرف الشمالي من تايمز سكوير، حيث أوقف إيميت الستاديبكر وراء «بَيْتِي» مباشرة.

كان لدى سالي سبب وجيه لمقارنة سيارته باللافتات من حولهما لأنها بَدَتْ مُلْفِتَةً للأنظار مثلها. مُلْفِتَةً إلى حد أنها بدأت تجذب حشدًا صغيرًا من المارة. وإذ عزفَ إيميت عن النظر في عيونهم، لم يعرف إن كانوا قد توقفوا ليضحكوا عليها أم ليمتُّعوا أنظارهم بها.
-إنها صفراء! مثل صَفَار الذرة.

كذلك صاح بيلى لدى عودته من كشك جرائد قريب.

وقال إيميت: الحقيقة أنها في صَفَار الدُّبُور.

قالت سالي: إذا كان ذلك رأيك.

أراد إيميت تغيير الموضوع، فأشار إلى الكيس في يد بيلى.

-ماذا لديك هناك؟

وإذ رجعت سالي إلى شاحتها، أخرج بيلى بحرص ما اشتراه من الكيس، وأعطاه لإيميت. كان بطاقة بريدية لتايمز سكوير. وفي أعلى الصورة، بارزة من وراء المباني، كانت رقعة صغيرة من السماء؛ ومثلما في البطاقات الأخرى في مجموعة بيلى، كانت زرقاء صافية.
وقف بيلى بجوار إيميت، وأشار من البطاقة البريدية إلى المعالم أمامهما.

-هل ترى؟ هنا مسرح كرايتيريون. ومتجر بوند للملابس. ولافتة سجاثر «كاميل». ولافتة «النادي الكندي» أيضًا.
نظر بيلى حوله في تقدير.

-الرجل في كشك السجاثر يقول إن اللافتات تُضاء في الليل. كل واحدة منها. هل تتخيل؟

-منظرٌ رائع.

انفتحت عينا بيلي على وسعهما.

-هل جئت إلى هنا واللافتات مضاءة؟

اعترف إيميت: لوقت قصير.

-هيه، يا صاحبي. لماذا لا تأخذنا في لفّة؟

هكذا صاح بخار يضع ذراعه على كتف سمرء.

تجاهله إيميت، وجلس على ركبته لكي يتحدث مع شقيقه عن قرب.

-أعرف أنه أمر مثير أن نكون في تايمز سكوير، يا بيلي. لكن أماننا

طريق طويل.

-ولا زلنا في البداية.

-صحيح. لذا لماذا لا تلقى نظرة أخيرة حولك، ونودّع سالي، ثم ننطلق

على الطريق.

-أوكيه يا إيميت. أعتقد أنها فكرة جيدة. سألقي نظرة أخيرة حولي ثم

ننطلق على الطريق. لكننا لسنا مضطرين لأن نودّع سالي.

-لماذا؟

-بسبب «بيتي».

-ما مشكلة «بيتي»؟

قالت سالي: حالتها ميؤوس منها.

رفع إيميت عينيه ليجد سالي تقف بجوار الباب الأمامي لسيارته بحقيبة

سفرها في إحدى يديها وسلّتها في اليد الأخرى.

وفسّر له بيلي: سخّنت مرتين أثناء رحلة سالي وهي قادمة من مورغن.

وكانت هناك سحابة كبيرة من البخار وأصوات صلصلة عندما وصلنا إلى

تايمز سكوير. ثم تعطلت تمامًا.

قالت سالي: أظنني طلبتُ منها أكثر مما تستطيع إعطاءه. لكنها أوصلتنا

إلى حيث أردنا. فليباركها الرب.

عندما وقف إيميت يفكر، نظرت سالي منه إلى الستادبيكر. بعد برهة،
تقدم إلى الأمام لكي يفتح لها الباب الخلفي.
قال بيلي: ينبغي أن نجلس جميعًا في الأمام.
وقال إيميت: قد تكون المساحة ضيقة بعض الشيء.
وقالت سالي: قد تكون.

ثم وضعت حقيبة سفرها والسلّة على المقعد الخلفي، وأغلقت الباب،
وفتحت الباب الأمامي.

قالت: لماذا لا تدخل أولاً، يا بيلي؟
صعد بيلي بحقيبة ظهره، وصعدت سالي من بعده. ثم نظرت إلى الأمام
عبر الزجاج الأمامي ويداها في حجرها.
عندما أغلق إيميت الباب قالت: شكرًا جزيلاً.
عندما صار إيميت في مقعد السائق، كان بيلي قد فردَ خريطة. رفع
رأسه عنها، وأشار عبر النافذة.

-الضابط وليامز -ثاني شرطي أتحدث إليه- قال إن طريق لينكون
السريع يبدأ رسميًا من ناصية شارع اثنين وأربعين مع برودواي. من هناك،
تستطيع أن تأخذ يمينًا وتتجه إلى النهر. قال إنك، عند افتتاح طريق لينكون
السريع لأول مرة، كان يتوجب عليك أن تركب عبّارة لتقطع نهر هُدسون.
لكن الآن تستطيع أن تأخذ نفق لينكون.

أشار إيميت إلى الخريطة، وشرح لسالي أن طريق لينكون السريع هو
أول طريق عابر للقارة في أمريكا.

قالت: لست مضطرًا للإخباري. أعرف كل شيء عنه.

وأكد بيلي: صحيح. سالي تعرف كل شيء عنه.

وضع إيميت السيارة على الغيار الأول.

أثناء دخولهم نفق لينكون، شرح بيلي لسالي، التي بدا عليها القلق،
أنهم سينزلون تحت نهر هُدسون - وهو نهر شديد العمق حتى إنه رأى
أسطولا صغيرًا من السفن الحربية يُبحر فيه قبل بضع ليالٍ فحسب. ثم

لأجلها، انطلق في وصف السكّة العالية، وستو، ونيران المخيم، تاركًا إيميت لأفكاره.

الآن وقد انطلقوا، كان إيميت قد تخيل أنه سيفكر في الطريق أمامهم؛ كان قد تطلّع إلى ذلك. عندما قال الأخوان غونزاليس إنهما أضافا قدرة حصانيّة إلى المحرك، لم يكن ذلك مزاحًا. شعر إيميت بذلك -وسمعه بإذنيه- في كل مرة يدوس بقدمه دوّاسة البنزين. على ذلك، قدّر أنّ باستطاعتهم، إذا وجدوا الطريق السريع بين فيلادلفيا ونبراسكا خاليًا على نحو معقول، قطعَ خمسين ميلًا في الساعة في المتوسط، وربما ستين. يستطيعون إنزال سالي في مورغن قبل غروب اليوم التالي، ثم الانطلاق في طريقهما، متوجّهين غربًا أخيرًا، يمتّعان أنظارهما بالمناظر الطبيعية الممتدة أمامهم في وايومنغ ويوتا ونيفادا. وفي محطتهما الأخيرة، يصلان إلى ولاية كاليفورنيا، التي يناهز عدد سكانها ستة عشر مليون نسمة.

لكن أثناء خروجهم من نفق لينكون، وبعد أن وضعوا مدينة نيويورك خلفهم، ما وجدَ إيميت نفسه يفكر فيه عوضًا عن الطريق أمامهم كان كلمات تاونهاوس ذلك الصباح: ضرورة أن يضع مسافة بينه وبين دوقه.

كانت نصيحة وجيهة وتتفق مع غرائز إيميت. المشكلة الوحيدة أنه ما دامت قضية الاعتداء على أكرلي مفتوحة، ستظل الشرطة تبحث عن دوقه وعنه. هذا بافتراض أن أكرلي سيتعافى. أمّا لو مات أكرلي قبل أن يستعيد وعيه، فلن تستريح السلطات حتى تحتجز واحدًا من الاثنين.

ألقي إيميت نظرة إلى يمينه، فرأى أن يبلي رجع للنظر في خريطة بينما سالي تراقب الطريق.

-سالي...

-نعم، يا إيميت.

-لماذا جاء الشّريف بيترسون لرؤيتك؟

رفع يبلي رأسه عن الخريطة.

-الشّريف جاء لرؤيتك يا سالي؟

طمأنتهما: لم يكن شيئًا مهمًا. بل إنني سأشعر بالسخف إذا قلته.
ولفت إيميت: قبل يومين، بدا لك مهمًا بما يكفي لأن تقطعي نصف
البلاد.

-كان ذلك قبل يومين.

-سالي.

-طبيب، طبيب. كان شيئًا يتعلق بورطتك الصغيرة مع جاك سنايدر.

سأل بيلي: تقصدين عندما ضربه جاك في البلدة؟

وقال إيميت: أنا وهو كنا نسوي حسابًا ما.

قالت سالي: هكذا فهمتُ. على أي حال. بدا أنك عندما كنت تسوّي
حساباتك مع جاك، كان هناك شخص آخر في الجوار، صديقٌ لجاك،
وبعدها بوقت قصير، ضُربَ على رأسه في الزقاق خلف سينما بيجو.
كانت الضربة قوية للغاية حتى إنهم أخذوه إلى المستشفى في سيارة
إسعاف. الشَّريف بيترسون يعرف أنك لست الفاعل لأنك كنت معه في
ذلك الوقت. لكنه سمع كلامًا عن شاب غريب كان في البلدة ذلك اليوم.
ولهذا السبب جاء لرؤيتي. ليسألني إن كنتُ استقبلتُ أيَّ زوّار.

نظر إيميت إلى سالي.

-وبداهة، قلتُ لا.

-قلتُ لا يا سالي؟

-نعم يا بيلي، قلتُ لا. وكانت كذبة. لكنها كذبة بيضاء. علاوة على
ذلك، مستحيل أن يكون أيُّ من صديقيّ أخيك متورطًا في هذا الشأن وراء
البيجو. وولي سيبعد عن طريقه ميالًا كاملاً ليتجنب أن يدوس على يرقعة
فراشة. ودوقة؟ طبيب، لا يمكن لشخص يطبخ طبقًا مثل «الفيتوشيني ما
اسمه» ثم يقدّمه على مائدة معدّة إعدادًا مثاليًا أن يضرب رجلًا آخر على
رأسه بلوح مقاس اثنين في أربعة.

وهذا ينهي المسألة، فكر إيميت.

لكنه لم يكن واثقًا...

-بيلي، صباح اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى البلدة، هل ظل دوقه وولي معك؟

-نعم يا إيميت.

-طوال الوقت.

-فكر بيلي لبرهة.

-وولي كان معي طوال الوقت. ودوقه كان معنا معظم طوال الوقت.

-متى لم يكن دوقه معكما؟

-عندما ذهب ليتمشى.

-وكم طالت تمشيته؟

-فكر بيلي ثانية.

-بطول «كونت مونت كريستو»، و«روبن هود»، و«ثيسوس»، و«زورو». اليسار التالي، يا إيميت.

رأى إيميت لافتة طريق لينكون السريع، فغيّر حارة السير، وأخذ المنعطف.

وإذ قاد إيميت باتجاه نيوآرك، استطاع أن يرى بعين عقله ما لا بُد قد حدث هناك في نبراسكا. بعد أن طلبَ إيميت من دوقه أن يتجنّب لفت الأنظار، ذهب دوقه إلى البلدة بأي حال. (بالطبع، فعلَ ذلك). وفور أن صار في البلدة، لا بُد أنه تعرّث بمواجهة إيميت مع جاك، وشهدَ المسألة القبيحة بأكملها. لكن إذا كان ذلك صحيحًا، لماذا كلّف نفسه عناءَ ضربِ صديق جاك؟

فكر إيميت في الغريب الطويل في قبعة الكابوي الذي كان يستند على الستاديبكر، وتذكر وقفته الكسولة وتعبير وجهه المنفوخ؛ تذكر كيف ظل يحرض جاك أثناء الشجار؛ وأخيرًا، تذكر أول كلمات قالها الغريب: يبدو أن جاك هنا لديه معك عمل لم ينتهِ بعد يا واطسن.

هكذا قال، وفكر إيميت: عمل لم ينتهِ بعد. ووفقًا للممثل القديم

فيتزوليامز، فالعمل الذي لم يتته هو نفس الوصف الذي استخدمه دوقه
للمسألة المتعلقة بينه وبين والده.

أوقف إيميت السيارة وظل جالسًا ويداه على عجلة القيادة.
نظرت سالي وبيلي إليه في فضول، وسأله بيلي: ما الأمر يا إيميت؟
-أظننا يجب أن نعرثر على دوقه ووولي.
أبدت سالي دهشتها.

-لكن مسز ويتني قالت إنهما في طريقهما إلى سالينا.
قال إيميت: ليسا في طريقهما إلى سالينا. إنهما في طريقهما إلى بيت
آل وولكوت في الأديرونداك. المشكلة الوحيدة أنني لا أعرف أين هو.
قال بيلي: أنا أعرف أين هو.
-تعرف؟

نكس بيلي رأسه، وحرك طرف إصبعه ببطء بعيدًا عن نيوآرك،
نيوجيرسي، بعيدًا عن طريق لينكون السريع، وعاليًا في منتصف شمال
نيويورك، حيث كان شخصٌ ما قد رسمَ نجمة حمراء كبيرة.

سالي

عندما كنا نتحرك بالسيارة داخل «ذلك المكان الذي يَعْلَمُ الربُّ وحده لماذا يعيش أيُّ إنسان هنا»، نيو جيرسي، وأوقفَ إيميت السيارة وأعلن أن علينا الذهاب إلى أعالي نيويورك لكي نعثر على دوقه ووولي، لم أنطق بكلمة. بعدها بأربع ساعات، عندما توقفنا في موتيل على الطريق بدا أشبه بمكان يصلح لجمع التبرعات لا لقضاء الليلة، لم أنطق بكلمة. وعندما وقف إيميت أمام المكتب الصغير المتداعي داخل الموتيل ووقع في السجل باسم مستر شولته، لم أنطق بكلمة أيضًا.

لكن...

فور أن استقرينا وأدخلتُ بيلى إلى الحمام ليتحمَّم، وجَّه إيميت انتباهه إليَّ مباشرة. اتخذ سمَتَ الجدية، وقال إنه ليس واثقًا كم سيستغرق العثور على دوقه ووولي. يمكن أن يستغرق بضع ساعات، وربما أكثر. لكن فور رجوعه، نستطيع ثلاثتنا أن نتناول شيئًا وننال نومًا هنيئًا، وإذا عُدنا إلى الطريق في السابعة صباحًا، يظن أنهما سيصير بمقدورهما إيصالي إلى مورغن ليلة الأربعاء من دون أن ينحرفا كثيرًا عن طريقهما.

تلك كانت اللحظة التي استنزفت فيها حصَّتي من عدم النطق بكلمة.

قلت: لا تقلق بشأن الانحراف عن طريقكما.

وطمأنني: ليست مشكلة.

-طيب، لا فارق إن كانت مشكلة أم لا. لأنني لا أريد توصيلة إلى مورغن.

قال، بقدر من التردد: طيب. إلى أين تريد أن نوصِّلك؟

-سان فرانسيسكو لا بأس بها.

للحظة، نظر إليَّ إيميت. ثم أغمض عينيه.

قلت: إغماض عينيك لا يعني أنني لم أعد هنا يا إيميت. ليس بأي حال. في الحقيقة، عندما تغمض عينيك، لن أظل أنا فقط هنا، بل سيظل بيلى هنا، وهذا الموتيل هنا، والعالم الواسع هنا -تمامًا حيثما تركتنا.

فتحَ إيميت عينيه من جديد، وقال: سالي، لا أعرف أيَّ توقُّعات قد أكون أوحيت لك بها، أو أيَّ توقُّعات قد تكوني توصلتَ لها بنفسك...

ما هذا؟ تساءلتُ. توقُّعات قد يكون أوحى لي بها؟ توقُّعات قد أكون توصلتُ إليها بنفسي؟ ملتُ عليه أكثر قليلًا حريصة على ألا أفوت كلمة.

...لكن أنا وبيلى مررنا بالكثير هذا العام. مع فقداننا للدنا والمزرعة...

قلت: استمر. أنا متببهة لك.

تنحى إيميت: كل ما في الأمر... وبالنظر إلى ما مررنا به... أعتقد بأن

ما نحتاجه أن وبيلى الآن... هو أن نبدأ بداية جديدة معًا. نحن الاثنين فقط.

جعلتُ أحرق فيه لبرهة. ثم أطلقتُ آهةً قصيرة، وقلت: إذا، هذا هو

الموضوع. تظنني أتطفل على توصيلة لسان فرانسيسكو على أمل أن أصير

جزءًا من بيتكما.

بدا منزعجًا بعض الشيء.

-كل ما أقوله يا سالي...

-أوه، أعرف ما تقوله -لأنك قلته حاليًا. وقد خرج واضحًا وصريحًا،

بالرغم من كل التردد والتلعثم. لذا دعني أكون واضحة وصريحة أنا أيضًا.

في المستقبل المنظور، يا مستر إيميت واطسن، البيت الوحيد الذي أنوي

أن أكون جزءًا منه هو بيتي أنا. حيث يصير كل ما أقوم به من طبخ وتنظيف

لحسابي أنا. أطبخ فطوري أنا، غدائي أنا، عشائي أنا. أغسل صحونى أنا،

ملابسي أنا. أكنس أرضيتي أنا. لذا لا تخشى أن أقف عقبة أمام بدايتك

الجديدة. آخر مرة أتذكرها، كانت هناك الكثير من البدايات الجديدة التي

تكفي للجميع.

بينما كان إيميت يخرج من الباب ويركب سيارته الصفراء الزاهية، فكَرْتُ أن هناك الكثير من الأشياء الكبيرة في أمريكا بكل تأكيد. مبنى إمباير ستيت وتمثال الحرية كبيران. نهر الميسيسيبي والغراند كانيون كبيران. السموات فوق البراري كبيرة. لكن لا شيء أكبر من رأي الرجل في نفسه. بهزة من رأسي، أغلقتُ الباب، ثم طرقتُ باب الحمام لأطمئن على بيلي.

باستثناء شقيقه، أظنني أعرف بيلي واطسن أفضل من أي شخص آخر. أعرف كيف يأكل دجاجه، وبازلاءه، وبطاطسه المهروسة (يبدأ بالدجاج، ثم ينتقل إلى البازلاء، ويترك البطاطس للنهاية). أعرف كيف ينجز فروضه المدرسية (يجلس معتدل الظهر أمام طاولة المطبخ ويستخدم تلك الممحاة الصغيرة في أسفل قلمه الرصاص ليمسح أي أثر لخطأ). أعرف كيف يتلو صلواته (دائمًا يتذكر إدراج أبيه، وأمه، وأخيه، وأنا). لكنني أعرف أيضًا كيف يُوقع نفسه في ورطة.

حدث ذلك في الخميس الأول من مايو.

أتذكر أنني كنت في منتصف إعداد فطائر مارينغ بالليمون من أجل فاعلية اجتماعية كَنَسِيَّة عندما تلقيتُ مكالمة تطلب مني الحضور إلى المدرسة. أعترف أنني، عندما دخلتُ مكتب الناظر، كنت متعكرة المزاج بعض الشيء. كنت قد انتهيتُ من خفق بياض البيض لأجل المارينغ عندما تلقيت المكالمة، لذا توجَّبتُ عليَّ أن أطفئ الفرن وأرمي بياض البيض في الحوض. لكن عندما فتحتُ الباب ورأيت بيلي جالسًا على كرسي أمام مكتب الناظر هكسلي وهو يحدق في حذائه، احمرَّ وجهي. أعرف كحقيقة أن بيلي واطسن لم يَعِش في حياته أيَّ موقف يضطره إلى التحديق في حذائه. لذا، إذا كان يحدق في حذائه فهذا لأن شخصًا ما جعله يشعر بالحاجة إلى ذلك، من دون وجه حق.

قلت للناظر هكسلي: طيّب. ها نحن أمامك. ما المشكلة؟

تبَيَّن أن المَدْرَسَة عقدت، بعد الغداء، ما يسمونه «تمرين الاحتماء تحت المكاتب». في منتصف الفصل، بينما يتلقى الأطفال التعليمات المعتادة، دَقَّ جرس المدرسة خمس مرات متتالية، عند تلك النقطة كان يُفترض بالأطفال أن ينزلوا تحت مكاتبهم ويضعوا أيديهم على رؤوسهم. لكن عندما دَقَّ الجرس، وذكَرْتُ مسز كوبر الأطفال بما يتوجب عليهم فعله، رفض بيلى.

بيلى لا يرفض كثيرًا. لكن عندما يقرر أن يرفض، يفعل ذلك بعناد شديد. وبرغم كل ما لجأت إليه مسز كوبر من محايلة، وإلحاح، وتبكيك، رفض بيلى ببساطة الانضمام إلى زملائه تحت مكاتبهم.

شرح لي الناظر هكسلي: حاولتُ أن أشرح لوليام أن الغرض من التمرين هو ضمان سلامته؛ وأنه برفضه المشاركة، لا يعرِّض نفسه فقط للخطر، لكنه يثير ارتباكًا في لحظة يمكن فيها للارتباك أن يسبب أكبر أذى للآخرين.

لم تكن السنوات رحيمة بالناظر هكسلي. كان شعره قد خفَّ على قمة رأسه، وتداول الناس في البلدة كلامًا عن أن مسز هكسلي لديها صديق في كنساس سيتي. لذا أعتقد أن الأمر كان يستدعي بعض التعاطف من جانبي. غير أنني لم أحب الناظر هكسلي كثيرًا عندما كنت طالبة في مدرسة مورغن الابتدائية، ولم أر سببًا يجعلني أحبه الآن.

استدرتُ إلى بيلى.

-هل هذا صحيح؟

من دون أن يرفع نظره عن حذائه، أو مأ بيلى برأسه. واقتراح الناظر: ربما تستطيع أن تخبرنا لماذا رفضت اتباع تعليمات مسز كوبر.

للمرة الأولى، رفع بيلى رأسه إليّ.

في مقدمة «موجزه الوافي»، يقول البروفيسور أبرناثي إن البطل لا يدير ظهره للخطر أبدًا. يقول إن البطل يقابل الأخطار دائمًا وجهًا لوجه. لكن

كيف يفترض بشخص أن يقابل الخطر وجهًا لوجه، إذا كان مختبئًا تحت مكتب ويده فوق رأسه؟

كلام واضح ومنطقي. في رأيي، حجة دامغة.

قلت: بيلي، لماذا لا تنتظر في الخارج.

-أوكيه يا سالي.

جعلنا أنا والناظر نراقب بيلي وهو يخرج من المكتب، لا يزال يحدق في حذائه. وعندما أغلق الباب، استدرتُ إلى الناظر لكي يستطيع أن يراني وجهًا لوجه.

قلت، باذلةً قصارى جهدي للحفاظ على طبيعتي الطيبة: حضرة الناظر هكسلي. هل تقول لي إنك، بعد تسع سنوات فقط من انتصار الولايات المتحدة الأمريكية على قوى الفاشية في أرجاء العالم، توبّخ طفلًا في التاسعة من عمره رفض أن يدسّ رأسه تحت مكتبه مثل نعامة في الرمل؟

-مس رانسوم...

تابعت: لم أدعي قط أنني عالمة. بل عندما كنتُ في المدرسة الثانوية، حصلتُ على تقدير C في الفيزياء وB في الأحياء. لكن القليل الذي تعلمته في تلك المواد يرجّح أن مقدرة سطح المكتب على حماية طفل من انفجار نووي لا تزيد عن مقدرة شعرك حين يُمشط على رأسك أن يحمي فروتها من الشمس.

أعرف. لم يكن تعليقًا مسيحيًا. لكن أعصابي كانت مستثارة. ولم تكن أمامي إلا ساعتان أعيد فيهما تسخين الفرن، وأنهى إعداد الفطائر، وأوصلها إلى الكنيسة. لذا لم يكن الوقت مناسبًا لتزويق الكلام.

ثم، بطبيعة الحال: عندما غادرتُ المكتب بعدها بخمس دقائق، كان الناظر هكسلي قد وافق على أنه من أجل ضمان سلامة مجموع التلاميذ، فإن شخصًا شجاعًا يحمل اسم بيلي واطسن سيُعيّن مراقبًا على «تمرين الاحتماء تحت المكاتب». وعلى ذلك، عندما دق جرس المدرسة خمس

مرات متتالية، عوضاً عن الاختباء تحت مكتبه، انتقل بيلي من غرفة إلى غرفة وفي يده لوحة كتابة ليتأكد من التزام الجميع بالتعليمات. مثلما قلتُ، أعرف بيلي أكثر من أي إنسان، بما في ذلك كيف يوقع نفسه في ورطة.

لذا لم يكن لديّ عذرٌ لأن أفاجأ عندما فتحت باب الحمام، بعد أن طرقت ثلاث مرات، لأجد الماء يجري في حوض الاستحمام، والشباك مفتوحاً، وبيلي قد اختفى.

إيميت

بعد أن قاد إيميت لمسافة ميل على الطريق الترابي الملتوي، بدأ يشتهبه في كونه انعطف في الطريق الخطأ. كان الرجل في محطة البنزين، الذي يعرف آل وولكوت بالاسم، قد قال لإيميت أن يستمر في الطريق 28 لثمانية أميال ونصف أخرى، ثم يأخذ يمينًا في الطريق الترابي المحفوف بأشجار أرز بيضاء. وقاس إيميت المسافة على عدّاد المسافات. ومع أنه لم يعرف جيدًا كيف تبدو أشجار الأرز البيضاء، كان الطريق الذي وصل إليه محفوفًا بأشجار دائمة الخضرة، لذا أخذ الانعطاف. لكن بعد ميل، لم يكن أي منزل قد ظهر في الجوار. لحسن الحظ، لم يكن الطريق واسعًا بما يسمح لإيميت بالاستدارة والعودة أدراجه، لذا ظل يمضي قدمًا وبعدها يبضع دقائق صادف بيتًا كبيرًا فاخرًا مشيدًا من جذوع الأشجار على حافة بحيرة - بجواره توقفت سيارة وولي.

توقف إيميت وراء الكاديلاك، وخرج من الستادبيكر وسار باتجاه البحيرة. كان الوقت عصرًا والمياه شديدة السكون، حتى إن سطحها يعكس على نحو مثالي أشجار الصنوبر على الشاطئ الآخر والسحابات مختلفة الهيئات في السماء، معطيًا العالم وهما بالتناظر الرأسي. الحركة الوحيدة جاءت من طائر بلشون أزرق هائل الحجم طار، بعد أن أزعجه إغلاق باب سيارة إيميت، عن سطح المياه الضحلة وصار يحلق الآن بصمت على ارتفاع نحو قدمين من البحيرة.

على يسار إيميت انتصب مبنى صغير بدا مثل ورشة مسقوفة من نوع ما،

إذ رأى بالقرب منها، فوق حصانِيَّ نَشْرٍ بانتظار الإصلاح⁽¹⁾، زورقًا مقلوبًا بحرقٍ في مقدمته. وعلى يمين إيميت كان البيت المطل على المروج، والبحيرة، والمرسى. وبطول واجهته شرفة كبيرة فيها كراس هزازة ودرج عريض نازل إلى العشب. عرف إيميت أن تلك الدرجات تقود إلى مدخل رئيسي، لكنه رأى، على الجانب الآخر من الكاديلاك، ممشي تصطف على جانبيه أحجار مطليّة يقود إلى درج خارجي وباب مفتوح. صعد إيميت الدرج، وفتح الباب الشبكي ونادى.

-وولي؟ دوق؟

وإذ لم يسمع ردًا، دخل، وترك الباب الشبكي يُصَفّق وراءه. وجد نفسه في غرفة وُحْلة فيها مجموعة من قَصَبَات الصيد، وأحذية تريّض، ومعاطف واقية من المطر، وأحذية تزلّج. كان كل شيء في الغرفة مرتبًا بعناية باستثناء كراسي الأديرونذاك المكدّسة في وسط الغرفة. فوق خزانة بنادق عُلِّقَت لافتة كبيرة كُتِبَت عليها بالطلاء قائمةٌ تحقّق بعنوان إغلاق البيت.

- 1 - إزالة إِبَر ضرب النار
- 2 - تخزين الزوارق
- 3 - تفريغ البرّاد
- 4 - إدخال الكراسي الهزازة
- 5 - إخراج القمامة
- 6 - ترتيب الأسرّة
- 7 - إغلاق المداخل
- 8 - إيصاد النوافذ
- 9 - إيصاد الأبواب
- 10 - الرجوع إلى الديار

ترك إيميت غرفة الوُحْلة، ودخل طُرقة، حيث توقّف، مصغيًا، ونادى مرة أخرى على وولي ودوقة. ولما لم يتلقَ جوابًا، شرع يدسُّ رأسه في مختلف الغرف. أوّل غرفتين، كان واضحًا أن أحدًا لم يدخلهما، أما الثالثة، فتركت فيها عصا بلياردو وعدّة كُرّات على جوخ طاولة بلياردو،

(1) حصان النشر: طاولة عمل مكونة من حاملين على شكل مثلث مقلوب ▽، يوضع عليهما لوح الخشب المراد نشره. وفي حالتنا هذه، استُخدم اثنان من أحصنة النشر، واحد من الأمام وواحد من الخلف، لرفع الزورق المقلوب من أجل صيانته. (م)

وكان شخصاً قد أوقف مباراة في منتصفها. في طرف الطُّرقة، دخل إيميت غرفة معيشة بسقف عالٍ بها ترتيبات مختلفة للأرائك والكراسي، وبئر سلم مفتوح يقود إلى الطابق الثاني.

هز إيميت رأسه في إعجاب. كانت واحدة من أرقى الغرف التي رآها في حياته. كان معظم الأثاث من طراز «حركة الفنون والحرف»⁽¹⁾، مصنوعاً من خشب الكرز أو البلوط، معشّقاً على نحو مثالي ومليئاً بالتفاصيل الدقيقة. فوق مركز الغرفة علقت وحدة إضاءة كبيرة مظلمة، مثل المصابيح، بالمايكا، لضمان أن تظل الغرفة في وهج دافئ فور حلول المساء. كانت المدفأة، والأسقف، والأرائك، وبيت الدّرج جميعاً قد شُيّدت بحجم أكبر من الطبيعي، بيد أنها كانت متناسبة مع بعضها ومتناغمة مع أبعاد الجسم البشري، على نحو جعل الغرفة تبدو حميمة وفسيحة في آنٍ.

فهم إيميت سبب احتفاظ هذا البيت بمكانة مميزة في خيال وولي. كان سيحتفظ بمكانة مميزة في خيال إيميت، لو أنه تمّتع بترف أن يُنشأ فيه. من باب مفتوح، رأى إيميت غرفة طعام فيها مائدة طويلة من خشب البلوط، وعلى امتداد الطُّرقة رأى أبواباً تفتح على غرف أخرى، ومطبخاً في النهاية. لكن لو كان وولي ودوقة في أيٍّ من تلك الغرف، لسمعاه ينادي. لذا اتجه إيميت إلى السلم.

في أعلى السلم، كانت الطُّرقة تمتد في الاتجاهين. أولاً، تفقّد غرف النوم عن يمينه. رغم اختلافها في الحجم والأثاث - بعضها بأسرة مزدوجة، وبعضها بأسرة مفردة، وواحدة بسرير من طابقين - كانت جميعاً تتشارك بساطة خشنة. في بيت كهذا، كذلك فهم إيميت، لا يُفترض بالمرء أن يتلصقاً في غرفته. بل يُفترض به أن يلتحق بالعائلة في الطابق السفلي لتناول الفطور على المائدة الخشبية المصنوعة من خشب البلوط، ثم يقضي بقية اليوم في الخارج. لم تُظهر أيٌّ من تلك الغرف أيّ

(1) Arts and Crafts: حركة ازدهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، جاءت كرد فعل على استخدام الآلات والإفراط في الزخرفة، ودعت إلى (م)

علامة على استخدامها في الليلة السابقة، لذا، رجع إيميت أدراجه، وتوجه إلى الطرف الآخر من الطريقة.

في طريقه، أدار إيميت رأسه للصور الفوتوغرافية المعلقة على الحائط، بقصد أن يلقي عليها نظرة عابرة. مع ذلك، وجد نفسه يتمهّل، ثم يتوقف ليعاينها عن قرب.

على اختلاف أحجامها، كانت جميعها تصوّر أشخاصًا. وبينها، كانت بورتريهات لمجموعات وأفراد، لأطفال وبالغين، بعضهم في حالة حركة، والآخرين في حالة استرخاء. إذا نظرت لكل صورة على حدة، لما لاحظت شيئًا غير عادي. الوجوه والملابس عادية. لكن إذا نظرت إليها معًا، لاحظت شيئًا مثيرًا لحسدٍ شديدٍ في هذا الجدار الذي يعرض صورًا فوتوغرافية في أطر سوداء متناسقة؛ لا لغلبة ضوء الشمس والابتسامات خلية البال. كان المثير للحسد هو ذلك التراث العائلي.

لقد شبَّ والد إيميت في بيت يشبه هذا البيت. ومثلما كتب في خطابه الأخير، ما توارثته عائلته من جيل إلى جيل لم يكن ببساطة أسهمًا وسندات، لكن بيوتًا ولوحات، أثاثًا وقوارب. وعندما كان والد إيميت يقرر أن يحكي نوادر من شبابه، كان يحكي عن أولاد عمومة، وأعمام، وعمات بلا نهاية، متجمعين حول طاولة الإجازات. لكن لسبب ما، لم يفسّره والد إيميت بوضوح، ترك كل ذلك وراءه عندما انتقل إلى نبراسكا. تركه وراءه وغادر ولم يحتفظ منه بأي أثر.

أو لم يحتفظ منه بأي أثر تقريبًا.

كانت هناك الصناديق في العلبة بملصقاتها الغرائبية الواردة من فنادق أجنبية، وسلال نزهة تحتوي على أدوات مائدة مرتبة ترتيبًا دقيقًا، وطقم الصيني غير المستخدم في خزانة التحف - أثرٌ من الحياة التي اعتزلها والد إيميت سعيًا وراء نموذج إمرسونيٍّ مثاليٍّ⁽¹⁾. هز إيميت رأسه، غير واثق إن كان ينبغي أن تثير أفعال والده إحباطه أم إعجابه.

(1) إمرسونيّ: نسبة إلى الفيلسوف رالف والدو إمرسون، سالف الذكر. (م)

كالعادة، مع حيرات القلب، كان الجواب الأرجح: كلاهما. واصل إيميت طريقه في الطريقة، فأدرك من جودة الصور وطرز الملابس أن تلك الصور تتراجع في الزمن. بدأت من نقطة ما في الأربعينيات، وجعلت تتراجع عبر الثلاثينيات والعشرينيات طوال الطريق إلى العقد الأول من القرن العشرين. لكن عندما مرَّ إيميت بالطاولة الجانبية أعلى السلم، انعكس مسار الصور الفوتوغرافية وبدأت تتقدم عبر العقود. وصل إيميت إلى الأربعينيات وأخذ ينظر بفضول إلى مساحة خالية على الجدار، وفي تلك اللحظة سمع الموسيقى -موسيقى تنبعث خافتة من مكان أمامه في الطريقة. جعل يتبع الصوت، مرورًا بعدد من الغرف، إلى أن توقف أمام الباب قبل الأخير وأصغى.

كان توني بينيت.

توني بينيت يغني قائلاً إنه سينتقل من الثرى إلى الثراء فقط لو قلت إنك ثبالين⁽¹⁾.

طرق إيميت الباب: وولي؟ دوق؟

عندما لم يتلق جوابًا، فتح الباب.

كانت غرفة أخرى مؤنثة تأثيثًا بسيطًا، فيها سريران مفردان صغيران وكومود. على أحد السريرين رقْد وولي، قدماه المُجَوَّرَتَان تمتدَّان إلى خارج السرير، وعيناه مغلقتان، ويداه متصالبتان على صدره. وعلى طاولة الفراش كانت زجاجتا دواء فارغتان وثلاث حَبَّات وردية.

بتوجُّس رهيب، اقترب إيميت من السرير. نطق باسم وولي، ثم هزَّه برفق من كتفه، فوجده متصلبًا إزاء لمستته.

قال وهو يجلس على السرير المقابل: أوه، وولي!

وإذ شعر إيميت ببوار غثيان، استدار بعيدًا عن ملامح صديقه الخالية من التعبيرات ووجد نفسه يحدق في طاولة الفراش. كان قد تعرَّف على الزجاجاة الزرقاء الصغيرة المسماة بدواء وولي. الآن التقط الزجاجاة

(1) من الثرى إلى الثراء: الإشارة إلى أغنية From Rags to Riches لتوني بينيت. (م)

البينة. لم يتعرف على اسم الدواء المطبوع على البطاقة، لكنه قرأ عليها أنه موصوف لسارة ويتني.

بهذه الطريقة بالضبط، فكر إيميت، يلدُ الشقاء شقاءً. إذ بقدر ما كانت شقيقة وولي ماهرة في الغفران، لن تستطيع أبدًا أن تغفر ذلك لنفسها. وإذ أعاد الزجاجة الفارغة إلى مكانها، انبعثت من المذيع نمرّة جاز، راقصةً وناشرةً. نهض إيميت من على السرير، واجتاز الغرفة إلى المذيع وأطفأه. على الكومود بجوار المذيع رأى علبة سيجار قديمة وقاموسًا قد يكون جاء من أي مكان، لكن على الحائط استندت صورة فوتوغرافية مؤطرة لا بُد أنها جاءت من المكان الشاغر على الحائط.

كانت لقطةً لـ وولي في صباه، يجلس في زورق بين أمه وأبيه. وكان كلُّ من والديّ وولي -زوجان وسيمان في أواخر الثلاثينيات- يمسك بمجداف مستند إلى حافة القارب، وكأنهما على وشك الإبحار. ومن التعبير المرتسم على وجه وولي، ترى أنه متوترٌ بعض الشيء، لكنه كان يضحك أيضًا، وكأن شخصًا خارج الإطار، شخصًا يقف على المرسى، يلوي وجهه لإضحاه.

قبلها ببضعة أيام فقط -وهم يقفون خارج دار الأيتام بانتظار دوقة- حكى بيلي لـ وولي عن أمّهما والألعاب النارية في سان فرانسيسكو، وحكى وولي لبيلي، بدوره، عن احتفالات الرابع من يوليو التي أقامتها عائلته هنا في المخيم. خطرَ لإيميت أن هذه الصورة لـ وولي الجالس بين والديه في زورقٍ يمكن أن تكون قد التقطت في نفس اليوم الذي رقد فيه إيميت بين والديه يشاهد الألعاب النارية في سيوارد. وللمرة الأولى ربما، خطرت ببال إيميت لمحة من السبب الذي جعل الرحلة غربًا على طريق لينكون السريع بتلك الأهمية لأخيه.

برفق، أعاد إيميت الصورة إلى مكانها على الكومود. ثم بعد أن ألقى نظرةً أخرى على صديقه، ذهب يبحث عن هاتف. بيد أنه سمع وهو يسير في الطريقة صلصلةً قادمة من الطابق السفلي.

دوقة، هكذا فُكِّرَ.

ثم بدأ الحزن الذي كان يفور بداخله يحتجب وراء إحساس بغضب هائج.

نزل إيميت السلم، وهروِل في الطُّرُقَة باتجاه المطبخ، متتبِّعًا مصدر الصوت مجددًا. وإذ ولجَ أول باب عن يساره، وجد نفسه في غرفة بدت أشبه بمكتب جنتلمان، ولكن في حالة فوضوية - حيث الكتب أنزلت من الخزانات، والأدراج سُحبت من المكتب، والأوراق بُعثرت على الأرضية. عن يسار إيميت، كانت لوحة مؤطرة متعامدة على الحائط، وراءها وقف دوقة، في يده بلطة، يوجه ضربات يائسة إلى سطح خزانة رمادي أملس.

قال دوقة مشجعًا نفسه وهو يضرب الخزانة مجددًا: هيا، هيا يا صغيرتي. -دوقة!

ناداه إيميت مرة واحدة.

مفزوعًا، أوقف إيميت ضربته ونظر خلفه. لكن فور أن رأى إيميت، افترَّ وجهه عن ابتسامة.

-إيميت! كم أنا سعيد برؤيتك!

وجد إيميت ابتسامة دوقة نشازًا مثل نمرة العجاز التي صدحت من الراديو في غرفة وولي؛ وشعر بالرغبة الملحة نفسها في إطفائها. تقدَّم إيميت باتجاه دوقة، فتحولت التعبيرات على وجه دوقة من الغبطة إلى القلق.

-ماذا بك؟ ما المشكلة؟

قال إيميت، وهو يتوقف ذاهلاً: ما المشكلة؟ ألم تصعد إلى الطابق العلوي؟ ألم ترَ وولي؟

وإذ فهمَ دوقة فجأة، وضع البلطة على كرسي، ثم هز رأسه بتعبير وقور. -رأيتَه يا إيميت. ماذا أقول؟ أمر فظيع.

اندفع إيميت قائلًا: لكن كيف...؟ كيف أمكنك أن تتركه؟

كرَّر دوقة في دهشة: أتركه؟ هل تظنني كنت سأترك وولي بمفرده لو عرفتُ نيته؟ لقد ظللت أبقي عينًا على وولي منذ اللحظة التي قابلته فيها.

بل إني، قبل أقل من أسبوع، ذهبت إلى حدّ أني أخذتُ منه آخر زجاجة من دوائه. لكنه لا بُدّ كان يخبئ واحدة أخرى. ولا تسألني من أين حصل على تلك الحبوب.

بكل مشاعر العجز والغضب، أراد إيميت أن يلوم دوقة. أراد أن يلومه، وبقوة. لكنه فهمَ أيضًا أنه ليس خطأ دوقة. وارتفعت داخله، مثل عصارة في الحلق، ذكرى تطمينه هو نفسه لأخت وولي أن كل شيء سيكون على ما يرام.

سأل إيميت بعد برهة، وهو يسمع صوته ذاته يتلعثم: هل اتصلتَ بالإسعاف، على الأقل؟

هز دوقة رأسه بتعبير اللاجدوى.

-عندما وجدته، كان الأوان قد فات. كان باردًا كالثلج.

قال إيميت: طيّب. سأتصل بالشرطة.

-الشرطة...؟ ولماذا تفعل ذلك؟

-يجب أن نخبر شخصًا ما.

-بالطبع. وهذا ما سنفعله. لكن سواء فعلناه الآن أو لاحقًا لن يشكّل أيّ

فارق لو وولي. لكنه يمكن أن يشكّل فارقًا كبيرًا لنا.

تجاهل إيميت دوقة، وتوجه إلى الهاتف على المكتب. وعندما رأى

دوقة مقصده، اندفع في الاتجاه نفسه، لكن إيميت سبقه.

أبعد دوقة إيميت بإحدى يديه، ورفع السماعة بالأخرى، فقط ليجد

صمًّا -الخدمة لا تزال مقطوعة ولم ترجع استعدادًا لبداية الموسم.

عندما أدرك دوقة أن الهاتف معطل، استرخى في وقفته.

-دعنا نتكلم عن هذا للحظة.

-هيا. سنذهب إلى المركز. قال إيميت، وهو يمسك دوقة من مرفقه.

أخرج إيميت دوقة من المكتب، وقاده في الطرقة، وقد صمّ أذنيه عن

سماع دوقة وهو يحاول تبرير حجته في ضرورة الانتظار.

-ما حدث أمرٌ فظيع يا إيميت. أنا أول من يقول هذا. لكن هذا ما اختاره

وولي لنفسه. لأسبابه الخاصة. أسباب قد لا نفهمها بالكامل أبدًا وليس لدينا حق انتقادها. المهم الآن بالنسبة لنا أن نتذكر ما أراده وولي. عندما وصلنا إلى الباب الشبكي في غرفة الوَحْلة، استدار دوقة ليواجه إيميت.

-كان يجب أن تكون هناك عندما تكلم أخوك عن البيت الذي يريد بناءه في كاليفورنيا. لم يسبق لي أن رأيت وولي متحمسًا إلى هذه الدرجة. كان يتخيل بعينه صورة لكما وأنتما تعيشان فيه معًا. إذا ذهبنا إلى الشرطة الآن، أقول لك، في غضون ساعة سيمتلئ هذا المكان بالناس، ولن نستطيع أبدًا إنهاء ما بدأه وولي.

بيد واحدة، فتح إيميت الباب الشبكي، وبالأخرى، دفع دوقة أسفل الدَّرَج. بعد أن تعثر دوقة لبضع خطوات باتجاه الزورق المقلوب، استدار حول نفسه فجأة وكأن فكرةً خطرت له.

-هيه! هل ترى بيت القوارب ذاك؟ هناك طاولة في الداخل عليها مجموعة كاملة من الأزاميل والمبارد والمثاقب. لم تكن ذات فائدة لي. لكنني أراهن أنك تستطيع فتح الحُزْنة في غضون دقائق. بعد أن نُخرج وديعة وولي، نستطيع البحث عن هاتف معًا. وفور أن تصير عربة الإسعاف في الطريق، نستطيع أن نتجه معًا إلى كاليفورنيا، تمامًا مثلما أراد وولي. قال إيميت، والحُمرة تتصاعد في وجهه: لن نذهب معًا إلى أي مكان. لن نذهب معًا لا إلى سان فرانسيسكو ولا إلى لوس أنجلوس ولا إلى تينسلتاون. أنا وأخي سنذهب إلى كاليفورنيا. وأنت ستذهب إلى سالاينا. نظر دوقة إلى إيميت غير مصدق.

-ولماذا بحق الأرض أذهب إلى سالاينا يا إيميت؟

عندما لم يرد إيميت، هز دوقة رأسه وأشار إلى الأرض.

-أنا باق هنا إلى أن أفتح الحُزْنة. وإذا لم ترغب في البقاء معي وتقديم المساعدة، فهذا شأنك. نحن في بلد حر. لكنني أقول لك يا إيميت،

كصديق: إذا غادرت الآن فستندم على هذا القرار. لأنك فور أن تصل إلى كاليفورنيا، ستدرك أن رزمتين من الدولارات لن توصلاك بعيدًا. وعندها ستتمنى لو أنك أخذت نصيبك من الوديعة.

تقدّم إيميت، وأمسك بدوقة من ياقته تمامًا مثلما فعلَ في بيت آل ويتني، فقط هذه المرة استخدم كلتا يديه، وشعر بالقماش يضيقُ حول حلقِ دوقة وهو يُدوّر قبضتيه.

قال بصوت خفيض: ألا تفهم؟ لا توجد وديعة. لا يوجد ميراث. لا مال في الخزانة. إنها قصة أطفال. قصة أطفال اختلقها وولي لكي تأخذه إلى دياره.

وكانما في اشمزاز، دفعَ إيميت دوقة إلى الوراء. تعثّر دوقة في أحجار الممشى، ثم سقط على العشب. قال إيميت: سنذهب إلى الشرطة، حتى لو اضطررتُ إلى أن أجركرك إلى المركز.

-لكن يا إيميت، هناك مالٌ في الخزانة.
استدار إيميت، فرأى أخاه يقف في مدخل باب غرفة الوَحْلة.
-بيلي! ماذا تفعل هنا؟

قبل أن يتمكن بيلي من الإجابة، تحوّلت تعبيراته من شخص يُبلغ خبرًا إلى شخص يحذّر من خطرٍ. ما جعل إيميت يستدير -في اللحظة التي انطلق فيها ذراع دوقة.

نزلت الضربة بقوة كافية للإطاحة بإيميت عن قدميه، لكن ليس لإفقاذه الوعي. وإذ شعرَ إيميت ببرودة الدم على جبينه، استجمع حواسه ونهض على أطرافه الأربعة ليرى دوقة يدفع بيلي إلى داخل البيت ويصفع الباب الداخلي.

دوقة

في اليوم السابق، بعد أن اعترف وولي بأن فكرة الرقم السري لم تخطر بباله قطعاً وبالتأكيد، سألتني إن كنت أريد أن تتمشى معاً إلى المرسى. قلت: اذهب أنت. سأخذ لحظة مع نفسي.

عندما خرج وولي، قضيت بضع دقائق أمام خزانة الجد الأكبر، أحرق فيها ويداي في خاصرتي. ثم بهزة رأس، شرعت في العمل. أولاً، حاولت أن أضع أذني على المعدن وأدير القرص الدوّار لأسمع طقّات اللسان مثلما يفعلون في الأفلام - وهو ما نجح بقدر ما ينجح أي شيء آخر تراه في الأفلام فتقلده.

أخرجت علبة عطيل من حقيبتني الصغيرة، وسحبت منها سكين أبي. كانت فكرتي أن أدفع طرف النصل إلى داخل اللحمية بين الباب وجانب الصندوق ثم ألويها إلى الأمام وإلى الخلف. لكن عندما حاولت أن أضع وزني بأكمله وراء السكين، كان ما انكسر هو النصل، حيث انقصم من عند المقبض.

غمغمت: صُنِعَ، وصُلِّدَ، وصُقلَ بيد معلّم في بيتسبرغ، يا للعظمة! بعدها، ذهبت أبحث عن أدوات حقيقية. لكن بعد أن فتحت كل درج في المطبخ وفتشت في كل خزانة، انتقلت إلى غرفة الأوحال، حيث بحثت وسط كل عين من عيون الأرفف وكل سلّة بلا طائل. للحظة، فكرت في إطلاق النار على الخزنة بواحدة من البنادق، لكن بالنظر إلى حظي، فالأرجح أنني كنت سأصاب بشظية.

وهكذا نزلت إلى المرسى، حيث كان وولي يمتّع عينيه بالمنظر.

ناديته من الأرض الجافة: هيه، يا وولي. هل تعرف إن كان هناك متجر معدّات في الجوار؟

سألني وهو يستدير: ماذا تقول؟ متجر معدّات؟ لست متأكّدًا. لكن هناك متجرًا عموميًّا على الطريق الصاعد على مبعده نحو خمسة أميال.

-ممتاز. لن أتأخّر. هل تحتاج إلى شيء؟

فكر وولي لبرهة، ثم هز رأسه، وقال بابتسامة من ابتسامات وولي: لديّ كل ما أحتاج إليه. فقط سأتجول قليلًا وأفرض أغراضي. ثم قد آخذ قيلولة قصيرة.

قلت: ولم لا؟ من حقّك.

بعدها بعشرين دقيقة، كنت أهيّئ وسط ممرات المتجر العمومي وأنا أفكر أنهم لا بُدّ أسموه كذلك لأنه يحتوي عمومًا على كل شيء إلا ما تبحث عنه. وكأن شخصًا قد أمال بيتًا على جنبه وهزّه إلى أن سقط كل ما لم يكن مُمسّمرًا إلى السجّادة خارج البيت: ملاعق مسطّحة، قفازات فُرن، وأجهزة توقيت لطهو البيض؛ إسفنجات، فُرش، وصابون؛ أقلام رصاص، دفاتر، ومماحي؛ يُوِيُوهاات وكُرات مطّاطة. وإذ أصابني الغيظ المعتاد لدى المستهلكين، سألتُ أخيرًا صاحب المتجر إن كانت لديه أي مِرزبات. وكان أفضل ما يقدمه لي شاكوُشٌ صغير وطقم مفكّات.

عندما رجعت إلى البيت، كان وولي قد صعد إلى غرفته، لذا عدت إلى المكتب ومعني أدواتي. ولا بُدّ أنني ظللت أضرب هذا الشيء في وجهه لساعة أو نحو ذلك من دون أن أنتهي إلى شيء سوى بعض المعدن المخربش وقميص غارق في العرق.

الساعة التالية قضيتها وأنا أبحث في المكتب عن الرقم السري. قدّرت أن صانع أموال عجوز مكار مثل مستر وولكوت لن يكون مهملاً لدرجة أن يترك رقم خزنته لتقلبات الذاكرة. خاصة وقد عاش إلى التسعينيات من عمره. لا بُدّ أنه كتبها في مكان ما.

بداهةً، بدأتُ بمكتبه. أولاً، أخذت أفتش في الأدراج بحثًا عن مفكرة أو

دفتر عناوين حيث قد تكون الأرقام المهمة مسجلة في الصفحة الأخيرة. ثم أخرجت الأدراج وقلبته لأرى إن كان قد كتب الرقم على أجنابها السفلى. نظرت تحت مصباح المكتب وتحت قاعدة تمثال أبراهام لينكون البرونزي، مع أنه كان يزن مثني رطل. بعدها، حوّلت انتباهي إلى الكتب، فأخذت أتصفحها جميعًا بحثًا عن قطعة مخفية من الورق. واستمر هذا المسعى إلى أن أدركت أن تصفح كل كتب الرجل العجوز سوف يستغرق مني بقية حياتي.

عند تلك اللحظة، قررت إيقاظ وولي - لأسأله أن يدلني على غرفة جده الكبير.

عندما قال وولي إنه سيأخذ قيلولة قصيرة، لم تساورني أي ظنون. مثلما ذكرت، لم يكن قد نال كثيرًا من النوم في الليلة السابقة، ثم أيقظني مع الفجر لغادر على عجل. لذا فعندما قال إنه سيأخذ قيلولة، قدّرت أن هذا بالضبط ما يتويّه.

لكن لحظة أن فتحت باب غرفة النوم، فهمت المشهد المائل أمامي. ففي نهاية المطاف، سبق لي الوقوف على تلك العتبة من قبل. لاحظت الحالة التي توحى بالنظام - حيث أغراض وولي مصطفة على الكومود وفردتًا حذائه متحاذيتان عند نهاية السرير. لاحظتُ السكون - الذي أبرزته ووضّحته حركة الستائر الرقيقة والههمّة الخفيفة لنشرة أخبار تنبعث من المذياع. ولاحظتُ التعبير على وجه وولي - تعبيرٌ كان، مثل تعبير مارسيلين، لا يشعُّ بالسعادة ولا بالحزن، لكنه يوحي بقدر من السكينة.

عندما سقط ذراعه عن جانب السرير، لا بُدَّ أنه كان قد رحل بعيدًا أو صار لا مبالٍ فلم يُزعج نفسه برفعه، لأن أصابعه كانت تلمس الأرضية، تمامًا مثلما كانت في فندق هوجو. ومثلما فعلتُ وقتها، أعدتُ ذراعه إلى حيث ينتمي، هذه المرة مُصالبًا يديه على صدره.

أخيرًا وبعد طول انتظار، فكّرتُ، ها هي البيوت، والسيارات، والروزفلتات جميعًا تنهار على نفسها.

-العجيب أنه تحمّل كل هذا الوقت⁽¹⁾.

عندما هممتُ بالمغادرة، أطفأت المذياع. لكنني عدتُ وشغّلته، ظانًّا أن وولي، في الساعات القادمة، سيحبُّ أن يأتي إعلانٌ تجاري ليرافقه في رحلته.

تلك الليلة، تناولت فاصولياء مطبوخة معلّبة وتجرّعْتُها ببيسي كولا دافئة، الأشياء الوحيدة التي وجدتها صالحة للأكل في المطبخ. ولكي لا أزعج شبح وولي، نمت على أريكة في الغرفة العظيمة. وعندما استيقظت في الصباح، عدت مباشرة إلى العمل.

في الساعات التي أعقبت ذلك، لا بُدَّ أني ضربتُ الخزانة ألف مرة. ضربتها بالمطرقة. ضربتها بمضرب كروكيه. بل حاولت أن أضربها بتمثال أبراهام لينكون، لكنني لم أتمتّع بالقوة الكافية.

حوالي الرابعة عصرًا، قررتُ أن أقوم بزيارة إلى الكاديلاك، على أمل العثور على عتلة لفكّ الإطارات. لكن أثناء خروجي من البيت، لاحظت أن قارب التجديف المقلوب على حصانيّ النّشر مخروق بثقب كبير في قوس مقدمته. وإذا قدّرتُ أن شخصًا ما وضعه هناك لإصلاحه، دخلتُ إلى بيت القوارب بحثًا عن أداة قد تكون مفيدة. بداهةً، وراء كل المجاديف والزوارق كانت طاولة عمل فيها عدد كبير من الأدراج. لا بُدَّ أني قضيت نصف ساعة أفتش في كل بوصة منها، لكنها لم تقدم لي إلا تشكيلة جديدة من الأدوات اليدوية التي لن تنفعني أكثر من الأدوات في المتجر العمومي. وإذا تذكرت أن وولي تحدّث عن عرض ألعاب نارية سنوي في المخيم، قلبتُ بيت القوارب رأسًا على عقب بحثًا عن متفجرات. ثم، لحظة هممت بالخروج وقد انهارت معنوياتي، عثرت على بلطة معلّقة بين علاقتين على الحائط.

بصافرة حطّاب على شفّتيّ، سرّْتُ الهويني عائداً إلى مكتب الرجل العجوز، واتخذت الوقفة المناسبة أمام الخزانة، وشرعت أؤرجح البلطة.

(1) العجيب أنه تحمل كل هذا الوقت: عبارة قالها كنت، في مسرحية «الملك لير»،

الفصل الخامس، المشهد الثالث. (م)

لا بُدَّ أني لم أضربها أكثر من عشر مرات عندما، فجأة، ومن العدم، دخل إيميت مندفعًا من الباب.

صحتُ: إيميت! كم أنا سعيد لرؤيتك يا فتى.

وكنت أقصدها. إذ لو كنت أعرف في هذا العالم الواسع الفسيح شخصًا واحدًا يستطيع تدبير طريقة لفتح الخزانة، فهذا الشخص هو إيميت.

قبل أن تسنح لي فرصة شرح الموقف، انحرف حوارنا قليلًا عن المسار -وإن على نحو مفهوم. إذ كان إيميت، الذي وصل وأنا في بيت القوارب ولم يجد أحدًا في البيت، قد صعد إلى الطابق العلوي واكتشف أمر وولي. بدا واضحًا أن ذلك أثار أعصابه. في الأغلب، لم تسبق له رؤية جثة من قبل، وبالتأكيد ليست جثة صديق. لذا لم أستطع حقًا انتقاده على إلقاء بعض اللوم ناحيتي. هذا ما يفعله الناس عندما تتوتر أعصابهم. يوجهون إصبع اتهام. يوجهون إصبع اتهام إلى أقرب شخص يجدونه حولهم -وبالنظر إلى الطبيعة البشرية الاجتماعية، فغالبًا ما يكون هذا الشخص صديقًا لا عدوًا.

ذكرتُ إيميت بأنني أنا من ظل يُبقي عينيًا على وولي على مدار العام ونصف الأخيرة، ورأيت أنه بدأ يهدأ قليلًا. لكنه عاد يتكلم كلامًا مجنونًا بعض الشيء. ويتصرف تصرفات مجنونة بعض الشيء.

أولًا، أرادنا أن نتصل بالشرطة. عندما اكتشف أن الهاتف معطل، أراد الذهاب إلى المركز -وأراد أن يأخذني معه.

حاولت أن أجعله يتعقل. لكن أعصابه كانت مشدودة جدًّا، حتى إنه ساقني في الطرقة، ودفعني من الباب، وطرحني أرضًا، زاعمًا أنه لا توجد أموال في الخزانة، وأني سأذهب إلى مركز الشرطة، وأنه، إذا تطلب الأمر، سيحرجني إلى هناك.

بالنظر إلى الحالة التي كان فيها، لم يساورني شكُّ أن ذلك ما سيفعله بالضبط -بغضِّ النظر عن مدى الندم الذي سيصيبه بعد ذلك. بعبارة أخرى، لم يترك لي أيَّ خيار.

وبدا أن القدر يتفق معي. لأنني، بعد أن طرحني إيميت أرضاً، سقطتُ على العشب ويدي تستند فعلياً على واحدة من تلك الأحجار المطليّة. ثم من العدم، يظهر بيلي - في اللحظة المناسبة لكي يجذب انتباه إيميت إلى الاتجاه الآخر.

الحجرُ الذي كان في يديّ كان بحجم ثمرة الغريب فروت. لكنني لم أنوي أن أسبّب لإيميت أيّ ضرر حقيقي. فقط أردت أن أخرجه لبضع دقائق، حتى يستطيع أن يعيد النظر في الموقف قبل أن يفعل شيئاً لا رجوع عنه. زحفتُ مبتعداً بضع أقدام عن طريقي، والتقطتُ حجراً آخر لم يكن أكبر من تفاحة.

بالطبع، طرحه الحجر أرضاً عندما ضربته به. لكن من فرط المفاجأة أكثر من قوة الضربة. وعرفت أنه سيعود إلى رشده في لمح البصر. وإذا قدّرتُ أن الشخص الوحيد القادر على أن يجعل إيميت يتعقّل هو أخوه، اندفعت صاعداً الدّرج، وأنا أقود بيلي إلى داخل البيت، وأوصدت الباب وراءنا.

صرخ بيلي، وقد صار متوتراً أكثر من أخيه: لماذا ضربتَ إيميت؟ لماذا ضربته يا دوق؟ ما كان عليك أن تضربه! وافقته، وأنا أحاول تهدئته: أنت محق تماماً. ما كان عليّ أن أضربه. وأقسم لك، لن أفعلها مرة أخرى.

قدته بعيداً عن الباب بضع خطوات، وأمسكت بكتفيه وحاولت أن أتكلّم معه رجلاً لرجل.

-اسمع يا بيلي، لقد انفلتت الأمور من عقالها بعض الشيء. الخزنة هنا، تماماً مثلما قال وولي. وأتفق معك من كل قلبي أن النقود بداخلها، بانتظار أن نحصدها. لكن الرقم السري ليس معنا. لذا فما نحتاج إليه هو قليل من الوقت، وبعضاً من براعة اليانكي، والكثير من العمل الجماعي. فور أن أمسكتُ بيلي من كتفيه، أغمض عينيه. وقبل أن أصل إلى منتصف كلامي، كان يهز رأسه ويكرّر هامساً اسم أخيه.

سألته: هل أنت قلقٌ على إيميت؟ هل هذه هي المسألة؟ أعدك أنه لا داعي للقلق. كانت ضربة خفيفة. الحقيقة، لا بُدَّ أن ينهض على قدميه في أي لحظة الآن.

وإذ قلت ذلك، سمعنا صلصلة مقبض الباب وراءنا، ثم إيميت يدقُّ على الباب ويصرخ باسمينا.

قلت، وأنا أقود الصبي إلى الطُّرقة: ها هو. ألم أقل لك؟
عندما توقف الدقُّ، خفضت صوتي لكي أوحى بالسرية.

- حقيقة الأمر يا بيلي، هي أن أخاك، لأسباب لا أستطيع الخوض فيها الآن، يريد الاتصال بالسلطات. لكنني أخشى إذا فعل ذلك ألا نستطيع فتح الخزانة أبدًا، ولن يكون لدينا تقسيم للثروة، وذلك البيت الذي تحلمان به - البيت الذي ستعيش فيه أنت وإيميت، ووالدتكما - لن يُشَيَّد أبدًا.
ظننتُ أنني أقدمُ حجة قوية، لكن بيلي ظل يهز رأسه وعيناه مغمضتان ويكرر اسم إيميت.

طمأنته، بقدر من الإحباط: ستتكلم مع إيميت. ستتكلم مع إيميت عن كل شيء، يا بيلي. لكن الآن، لا يوجد إلا أنت وأنا.
وفي لحظة، كفَّ الصبي عن هز رأسه.
ها نحن ذا، فكَّرْتُ. لا بُدَّ أنني أفننته.

لكنه عندها فتح عينيه وركلني في قصبة ساقي.
أليس شيئًا ممتعًا؟

بعدها بلحظة، كنت هناك، أنطُّ على قدم واحدة وهو يجري في الطُّرقة.
قلت، وأنا أنطلق وراءه: يا ربِّي المعبود!

لكن عندما وصلت إلى الغرفة العظيمة، كان قد اختفى.
أقول، ويشهد الله على كلامي، أن الفتى، رغم كونه لم يبتعد عن أنظاري أكثر من ثلاثين ثانية، تبخَّر في الهواء - مثل الببغاء لوسيندا.
-بيلي! بيلي!

رحت أناادي، وأنا أنظر وراء أريكة تلو أخرى.

من مكان آخر في البيت، سمعتُ قبضة باب أخرى تصلصل.
ناديت موجَّهاً كلامي إلى الغرفة بأكملها، وبنبرة استعجال متزايدة:
بيلي! أعرف أن الطَّيْشَةَ لم تتم كما خططنا لها بالضبط، لكن المهم أن نبقى
معاً ونتجاوز العقبات. أنت، وأخوك، وأنا! الكل للواحد والواحد للكل!
عند تلك اللحظة، تعالى من المطبخ صوت زجاج يتهشم. بعدها
بلحظة سيكون إيميت في البيت. لا شك في ذلك. وإذ لم أجد خياراً آخر،
انطلقتُ كالسهم إلى غرفة الأوحال، حيث وجدت خزانة البنادق موصدة،
فرفعت كرةً كروكيه ورميتها عبر الزجاج.

مكتبة

t.me/soramnqraa

بيلي

بعد أن سجلوا الدخول في الغرفة رقم 14 في موتيل «هوايت بيكس» على طريق 28، وأنزلَ بيلي حقيبة ظهره، قال إيميت إنه سيخرج للبحث عن وولي ودوقة.

قال لبيلي: في هذه الأثناء، الأفضل أن تبقى هنا.

وقالت سالي: علاوة على ذلك، متى كانت آخر مرة تحمَّمت فيها أيها الشاب؟ لن أفاجأ إذا كانت هناك في نبراسكا.

قال بيلي وهو يومئ برأسه: صحيح. آخر مرة تحمَّمتُ كانت هناك في نبراسكا.

وإذ بدأ إيميت يتكلَّم همسًا لسالي، علَّق بيلي حقيبة ظهره على ظهره واتجه إلى الحمام.

سألت سالي: هل تحتاج فعلاً لهذا الشيء معك بالداخل؟

أجاب بيلي ويده على مقبض الباب: أحتاج إليه، لأن فيه ملابسني النظيفة.

-طيَّب. لكن لا تنسى أن تغسل وراء أذنك.

-لن أنسى.

عندما عاد إيميت وسالي إلى حديثهما، دخل بيلي الحمام، وأغلق الباب، وفتح صنوبري حوض الاستحمام. لكنه لم يخلع ملابسه المتسخة. لم يخلع ملابسه المتسخة لأنه لم ينو أن يتحمَّم. كانت تلك كذبة بيضاء. مثل تلك التي قالتها سالي للشَّريف بيترسون.

بعد أن تأكد بيلي جيدًا أن البلاءة مفتوحة كيلا يفيض الحوض بالماء،

شدَّ حزاميّ حقّية ظهره، وصعد فوق المرحاض، ورفع إطار زجاج الشباك إلى أعلى، وانسل من النافذة، بلا حسٍّ ولا خَبَرٍ.

عرف بيلى أن الحديث بين أخيه وسالي قد لا يطول لأكثر من بضعة دقائق، لذا كان عليه أن يركض بأسرع ما في إمكانه حول الموتيل إلى حيث أوقفوا الستادبيكر. ركض بسرعة كبيرة حتى إنه، بعد أن تسلق إلى داخل الصندوق وأنزل الغطاء، سمع قلبه يدق في صدره.

عندما أخبر دوقه بيلى كيف اختبأ هو ووولي في صندوق سيارة المأمور، سألهما بيلى كيف خرجا ثانية، وشرح له دوقه أنه أحضر معه ملعقة ليرفع بها السَّقَاطة. لذا، قبل أن يتسلق بيلى إلى داخل صندوق الستادبيكر، أخرج مطواته من حقّية ظهره. وكذلك أخرج مصباحه اليدوي لأن الظلام سيعمُّ الصندوق فور أن يغلق الغطاء. لم يكن بيلى خائفاً من الظلام. لكنه تذكر أن دوقه أخبره كم كان صعباً رفعُ السَّقَاطة من دون القدرة على رؤيتها. كنا قريبين إلى هذا الحدِّ، كذلك قال له دوقه وهو يرفع إبهامه وسبابته ويجعل بينهما مسافة بوصة، إلى العودة إلى سالاينا من دون أن نحظى ولو بلمحة من نبراسكا.

أضاء بيلى مصباحه اليدوي، وألقى نظرة سريعة على ساعة وولي ليراجع الوقت. كانت 3:30. ثم أطفأ المصباح وانتظر. بعدها بدقائق، سمع باب السيارة يفتح وينغلق، والمحرك يدور، ثم كانا في طريقهما.

هناك في غرفة الموتيل، عندما قال إيميت لبيلى إن الأفضل أن يبقى في مكانه، لم يفاجأ بيلى.

كثيراً ما فكر إيميت أن الأفضل لبيلى أن يبقى في مكانه بينما يذهب هو إلى مكان آخر. مثل تلك المرة عندما كان يستعد لدخول المحكمة في مورغن لسماع حكم القاضي شومر. وقتها قال لبيلى: أظن من الأفضل أن تنتظر هنا في الخارج مع سالي. أو عندما كانا في المحطة في لويس وذهب إيميت للاستفسار عن قطارات البضائع المتجهة إلى نيويورك. أو عندما كانا فوق سَكَّة «ويست سايد» العالية وذهب لبحث عن والد دوقه.

في الفقرة الثالثة من مقدمة كتابه «الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من الرحالة البواسل»، يقول البروفيسور أبرناثي إن البطل غالبًا ما يترك أصدقاءه وأسرته وراءه عندما ينطلق إلى إحدى مآثره. يترك أصدقاءه وأسرته وراءه لأنه يخشى أن يعرضهم للخطر، ولأنه يمتلك الشجاعة لمواجهة المجهول بنفسه. لهذا السبب، كثيرًا ما فكر إيميت أن من الأفضل لبيلي أن يبقى في مكانه.

غير أن إيميت لم يعرف بأمر زينوس.

في الفصل الرابع والعشرين من «موجزه الوافي»، يقول البروفيسور أبرناثي: منذ ظهر رجال عظام ينجزون أشياء عظيمة، ظهر حكاؤون متشوقون لحكي مآثرهم. لكن سواءً مع هركيليس أو ثيسيوس، مع قيصر أو ألكسندر، فكل ما حققه أولئك الرجال من مفاخر، كل ما أحرزوه من انتصارات، كل من تغلبوا عليهم من خصوم، لم يكن ممكنًا لولا إسهامات زينوس.

قد يبدو زينوس اسم شخصية تاريخية -مثل زيريكس وزينوفون- لكن زينوس ليس اسم شخص بتاتًا. زينوس كلمة يونانية قديمة تعني الأجنبي الغريب، الضيف الصديق. أو ببساطة أكبر، «الآخر». مثلما يقول بروفيسور أبرناثي: زينوس هو الشخص الواقف على هامش الحكاية، الملتحف بكسوة متواضعة، الذي بالكاد تلاحظه. عبر التاريخ، ظهر في أبواب متعددة: حارس أو مرافق، رسول أو خادم، صاحب متجر، نادل، أو صعلوك. ومع إنه لا يسمّى عادةً، ويظل مجهولًا معظم الوقت، وكثيرًا جدًّا ما يطويه النسيان، يظهر زينوس دائمًا في الوقت المناسب في المكان المناسب لكي يلعب دوره الجوهري في مسار الأحداث.

لذلك، عندما اقترح إيميت أن الأفضل لبيلي أن يبقى في مكانه بينما يذهب هو للبحث عن وولي ودوقة، لم يكن أمام بيلي خيارٌ إلا أن يتسلل من النافذة ويختبئ في صندوق السيارة.

بعد أن غادرا الموتيل بثلاث عشرة دقيقة، توقفت الستادبيكر وانفتح باب السائق ثم انغلق.

همَّ بيلى بأن يرفع سقّاطة صندوق السيارة عندما شمَّ أبخرة البنزين. لا بُدَّ أنهما في محطة وقود، هكذا فكّر، وإيميت يسأل عن الاتجاهات. فمع أن وولي كان قد وضع نجمة حمراء كبيرة على خريطة بيلى لبيّن موقع بيت عائلته، كانت الخريطة مرسومة بمقياس رسم مكبّر جدًا لا تظهر فيه الطرق المحلية. لذا عرف إيميت أنه وصل إلى محيط بيت وولي، لكنه لم يعرف بالضبط أين كان.

أصغى بيلى بحرص، فسمع أخاه يشكر شخصًا ما. ثم انفتح الباب وانغلق وصارا على الطريق ثانية. بعدها باثنتي عشرة دقيقة، انعطفت الستادبيكر وبدأت تتحرك أبطأ فأبطأ إلى أن توقفت. ثم انطفأ المحرك، وانفتح باب السائق وانغلق من جديد.

هذه المرة قرر بيلى الانتظار لخمس دقائق على الأقل قبل أن يحاول رفع السقّاطة. سلّط شعاع مصباحه اليدوي على ساعة وولي، فرأى أنها الآن 4:02. عند 4:07 سمع أخاه ينادي على وولي ودوقة، أعقب ذلك صوت باب شبكيّ ينصفع. الأرجح أن إيميت دخل البيت، هكذا فكر بيلى، لكنه انتظر دقيقتين أخريين. عندما صارت 4:09، رفع السقّاطة وخرج من الصندوق. أعاد مطواته ومصباحه اليدوي إلى حقيبة ظهره، وأعاد تعليق الحقيبة على ظهره، وأغلق الصندوق بهدوء.

كان البيت أكبر من أي بيت رآه في حياته تقريبًا. في طرفه القريب كان الباب الشبكي الذي لا بُدَّ دخل منه إيميت. بهدوء، صعد بيلى درجات السلم الخارجي، واختلس نظرة من وراء الباب الشبكي، ثم دخل، حريصًا على ألا يترك الباب ينصفق ورائه.

أول غرفة دخلها كانت منطقة تخزين تحتوي على كل الأشياء التي سوف تستخدمها في الخارج، مثل الأحذية الطويلة ومعاطف المطر، الزلاجات والبنادق. وعلى الحائط كانت القواعد العشرة لإغلاق البيت.

عرف بيلي أن القائمة كُتبت بالترتيب المفترض لإنجاز المهام المطلوبة، لكنه استغرب البند الأخير، ذلك الذي يقول العودة إلى الديار. بعد لحظة، قرر بيلي أنه لا بُدَّ وُضع هناك على سبيل الدعاية.

أخرج بيلي رأسه من غرفة الخزين، فرأى أخاه في نهاية الطُّرقة، يحدق في سقف غرفة كبيرة. كان إيميت يفعل ذلك أحيانًا - يقف ويحدق في غرفة ما لكي يفهم كيف شُيّدت. بعد لحظة، صعد إيميت سلّمًا. عندما سمع بيلي وقع خطوات أخيه في الطابق العلوي، تسلل إلى الطرقة ومنها إلى الغرفة الكبيرة.

فور أن رأى بيلي المدفأة الكبيرة بما يكفي لاستيعاب الجميع حولها، عرف بالضبط أين هو. من النوافذ رأى الشرفة الخارجية بسقفها البارز، الذي تستطيع أن تجلس تحته في العصريّات المطيرة وترقد فوقه في ليالي الصيف الدافئة. في الطابق العلوي سوف يكون عددٌ كافٍ من الغرف لأجل الأصدقاء والأقارب الذين يزورون البيت في الإجازات. وهناك في الزاوية، كان موقع مخصص لشجرة الكريسماس.

وراء بيت السلم كانت غرفة فيها مائدة طويلة وكراسٍ. لا بُدَّ أنها غرفة الطعام، فكر بيلي، حيث ألقى وولي «خطاب غيتسبرغ».

اجتاز بيلي الغرفة الكبيرة وسار في الطرقة المقابلة، ثم دسَّ رأسه في أول غرفة مر بها. كانت مكتبة، تمامًا في المكان الذي رسمه وولي. وفي حين كانت الغرفة الكبيرة أنيقة ومرتبة، لم يكن المكتب كذلك. كانت تعمه الفوضى، حيث تتناثر الكتب والأوراق، ويرقد تمثال برونزي نصفي لأبراهام لينكون على الأرض تحت لوحة تصوّر توقيع «إعلان الاستقلال». على كرسي قريب من التمثال كانت مطرقة وبعض المفكّات، وكانت الخدوش تملأ واجهة الخزنة.

لا بُدَّ أن وولي ودوقة يحاولان فتح الخزنة بالمطرقة والمفكّات، فكر بيلي، لكنهم لن ينجحوا في ذلك. الخزنة تُصنع من الفولاذ وتُصمَّم لتكون حصينة. الخزنة التي تستطيع فتحها بمطرقة ومفكّات ليست خزنة.

في باب الخَزنة أربعة أقراص دَوَّارة، حوَّل كل منها أرقام من صفر إلى تسعة. ذلك يعني أن هناك أكثر من عشرة آلاف توليفة ممكنة من الأرقام. كان الأجدر بدوقة وولي أن يجربا كل التوليفات العشرة آلاف بدءًا من 0000 وانتهاء بـ 9999، فكر بيلي. كان ذلك سيستغرق منهم وقتًا أقل من محاولة فتح الخزانة عنوة بمطرقة ومفكَّات. أما الحل الأفضل، فهو تخمين الأرقام التي اختارها جدُّ وولي الكبير لتكون مفتاحًا لخزنته. استغرق ذلك من بيلي ستَّ محاولات.

فور أن انفتح باب الخَزنة، ذكَّر ذلك بيلي بالصندوق في الدُّرج السفلي من كومود والده، ذلك المكان المخصص للأوراق المهمة -الفارق أن الأوراق هنا كانت أكثر بكثير. لكن تحت رفِّ الأوراق المهمة، أحصى بيلي خمس عشرة رزمة من الأوراق النقدية فئة الخمسين دولارًا. تذكَّر بيلي أن جدَّ وولي الكبير وضعَ مئة وخمسين ألف دولار في خزانة. يعني هذا أن كل رزمة تحتوي عشرة آلاف دولار. رزْمٌ من عشرة آلاف دولار، فكر بيلي، في خزانة لها عشرة آلاف توليفة أرقام محتملة. أغلق بيلي باب الخزانة، واستدار، لكنه رجع لكي يدوِّر الأقراص.

ترك بيلي المكتب، ومضى في الطريقة ودخل المطبخ. كان أنيقًا ومرتبًا باستثناء زجاجة مياه غازية فارغة وعلبة فاصولياء تبرز منها ملعقة منتصبة مثل عصا مضّاصة التفاح. العلامة الأخرى الوحيدة على دخول شخص المطبخ كانت مظروفًا محشورًا بين رشاشتي الملح والفلفل على الطاولة. هذا المظروف، المكتوب عليه يُفتح في حال غيابي، تركه وولي. عرف بيلي أن وولي هو مَنْ تركه لأن الخط على المظروف كان متطابقًا مع خط وولي على رسمة البيت.

عندما أعاد بيلي المظروف إلى مكانه بين رشاشتي الملح والفلفل، سمع صوت معدن يضرب معدنًا. سار على أطراف أصابعه في الطريقة واختلس النظر عبر باب المكتب، فرأى دوقة يضرب الخَزنة ببلطة. همَّ بأن يشرح لدوقة مسألة العشرة آلاف توليفة من الأرقام عندما سمع

وقع قدمي شقيقه على السلم. ركض بيلى في الطُّرقة، وانسلَّ عائداً إلى المطبخ، ومبتعداً عن الأنظار.

فور أن صار إيميت داخل المكتب، لم يستطع بيلى سماع ما يقوله أخوه، لكنه عرف من نبرة صوته أنه غاضبٌ. بعد برهة، سمع بيلى أصواتاً بدت كشجار، ثم خرج إيميت من المكتب وهو يمسك بدوقه من مرفقه. وبينما إيميت يقتاده في الطُّرقة، ظلَّ دوقه يتكلم بسرعة عن شيءٍ اختاره وولي لنفسه لأسبابه الخاصة. ثم اقتاد إيميت دوقه إلى غرفة الخزين.

تبعهما بيلى في الطُّرقة بسرعة لكن بهدوء، واختلس النظر من إطار باب غرفة الخزين في اللحظة المناسبة لسمع دوقه يشرح لإيميت لماذا لا ينبغي عليهما الذهاب إلى الشرطة. ثم دفع إيميت دوقه خارج الباب.

في الفصل الأول من «الموجز الوافي للأبطال، والمغامرين، وغيرهم من البحارة البواسل» - بعد ذلك الجزء الذي يشرح فيه البروفيسور أبرناثي كَمْ من أعظم قصص المغامرات تبدأ *in medias res* - يستطرد لكي يشرح الخلل المأساوي للأبطال الكلاسيكيين. كل الأبطال الكلاسيكيين، يقول، مهما كانت قوتهم أو حكمتهم أو شجاعتهم، لديهم خلل مأساوي في شخصيتهم يقود إلى سقوطهم. بالنسبة لأخيل كان الخلل القاتل هو الغضب. كان أخيل، عندما يستبدُّ به الغضب، يعجز عن السيطرة على نفسه. ورغم النبوءة التي قالت إنه قد يموت أثناء حرب طروادة، رجع أخيل - فور أن لقي صديقه باتروكلوس مصرعه - إلى الميدان وقد أعماه غضب أسود وفتاك. وعندها أصابه السهم المسموم.

فهم بيلى أن أخاه يعاني من نفس الخلل الذي عانى منه أخيل. إيميت لم يكن متهوراً. ونادراً ما يرفع صوته أو يُظهر نفاد صبره. لكن عندما يثير شيءٌ ثائرتَه، يمكن أن يغلي غضبه ويفور إلى درجة تجعله يرتكب فعلاً طائشاً ذا عواقب لا يمكن إصلاحها. وفقاً لوالد بيلى، كانت تلك هي العبارات التي وصف بها القاضي شومر جريرته عندما ضرب جيمي سنايدر: فعل طائش ذو عواقب لا يمكن إصلاحها.

من وراء الباب الشبكي، رأى بيلي غضب إيميت يغلي ويفور. كانت الحمرة تتصاعد إلى وجهه، وقد جعل يصرخ، بعد إذ أمسك بدوقة من قميصه. يصرخ قائلاً إنه ما من وديعة، ولا ميراث، ولا مال في الخزانة. ثم دفع دوقة وأسقطه على الأرض.

لا بُدَّ أن الوقت قد حان، ففكر بيلي. لا بُدَّ أنه الوقت والمكان الذي يجب أن أظهر فيه لألعب دوري الجوهرى في مسار الأحداث. على ذلك، فتح بيلي الباب الشبكي وأخبر شقيقه أن ثمة مالا بالفعل في الخزانة.

لكن عندما استدار إيميت، ضربه دوقة على رأسه بحجر وسقط إيميت على الأرض. سقط على الأرض مثلما سقط جيمي سنايدر في ذلك اليوم. صرخ بيلي: إيميت!

لا بُدَّ أن إيميت سمع بيلي لأنه شرع ينهض على ركبتيه. ثم كان دوقة فجأة عند الباب يدفع بيلي إلى الداخل، ويوصد الباب، ويتكلم بسرعة. قال بيلي: لماذا ضربت إيميت؟ لماذا ضربته يا دوقة؟ ما كان عليك أن تضربه!

أقسم دوقة أنه لن يفعلها ثانية، لكنه رجع بعدها إلى الكلام بسرعة. تكلم عن انفلات الأمور من شيء يسمى «عقالها». ثم تكلم عن الخزانة. ووولي. وفريق اليانكيز⁽¹⁾.

عندما بدأ إيميت يدق على باب غرفة الخزين، دفع دوقة بيلي إلى الطرقة، وعندما توقف دق إيميت، بدأ دوقة يتكلم ثانية، هذه المرة عن السلطات والبيت في كاليفورنيا.

وفجأة، شعر بيلي أنه كان هنا من قبل. قوة قبضة دوقة والاستعجال الذي يتحدث به جعل بيلي يشعر وكأنه رجع إلى سكة «ويست سايد» العالية في الظلام بين يدي القس جون.

(1) اليانكي: عندما قال دوقة لبيلي إن فتح الخزانة سوف يتطلب بعضاً من براعة «اليانكي»، قاصداً «قدرًا من دهاء الأمريكيين القدماء»، ظنَّ دوقة أنه يتحدث عن فريق البيسبول الشهير «نيويورك يانكيز». (م)

قال دوقه: سنتكلم مع إيميت. سنتكلم مع إيميت عن كل شيء يا بيلي.
لكن الآن، لا يوجد إلا أنت وأنا.
عندها، فهم بيلي.

إيميت ليس هناك. يوليسيس ليس هناك. سالي ليست هناك. مجددًا،
كان وحيدًا ومهجورًا. مهجورًا من الجميع، حتى من خالقه. وما سيحدث
بعدها، أيًا كان، في يديه هو، هو فقط.

فتح بيلي عينيه، وركل دوقه بأقوى ما يستطيع.

على الفور، شعر بيلي بقبضة دوقه تتراخى. ثم كان بيلي يركض في
الطُرقة. كان يركض في الطُرقة إلى المخبأ تحت السلم. وجد الباب
ذا السقّاطة الصغيرة هناك مثلما وصفه وولي. كان المدخل أصغر بنحو
النصف من مداخل الغرف العادية، وله قمة مثلثة تتناسب مع موقعه تحت
بيت الدَّرَج. لكنه كان يتسع لدخول بيلي. انسلَّ إلى الداخل، وأغلق الباب،
وكتّم أنفاسه.

بعدها ببرهة سمع دوقه يناديه.

عرف بيلي أن دوقه على بعد بضعة أقدام لا أكثر، لكنه لن يستطيع العثور
على بيلي. فمثلما قال وولي، لا أحد يفكر قط أن ينظر في المخبأ أسفل
السلم لأنه أمام عينيه مباشرة.

إيميت

بعد أن جرَّب إيميت باب غرفة الوَحْلة ووجده موصدًا، ركض حول مؤخرة البيت وجرَّب الباب الذي يقود إلى غرفة الطعام. عندما وجد ذلك الباب موصدًا ثم باب المطبخ أيضًا، انتهى أمر فتح الأبواب بالنسبة له. خلع حزامه، ولَفَّه حول يده اليمنى مثبتًا إبريمه فوق قبضته. ثم هَشَّم أحد الألواح الزجاجية في الباب. استخدمَ سطحَ الإبريم لإسقاط بقايا شظايا الزجاج البارزة من الإطار. دَسَّ يده اليسرى عبر اللوح الخالي، وفتح الباب. أمَّا الحزام، فتركه ملفوفًا حول قبضته، مفكرًا أنه قد يكون مفيدًا حيث هو.

دخل إيميت المطبخ، فرأى هيئة دوق في الطرف البعيد من الطُّرقة يستدير حول زاوية بأقصى سرعة ويختفي داخل غرفة الوَحْلة - من دون يبلي. لم يركض إيميت في أعقابه. فهمَّ أن يبلي حرَّ نفسه، فلم يعد يشعر بالخطر. الآن، صار يشعر بالحتمية. لا تهم السرعة التي يركض بها دوقه. لا يهم إلى أين يركض. في النهاية سيمسك به إيميت. كان ذلك محتومًا. لكن بينما يغادر إيميت المطبخ، سمع زجاجًا يتهشم. ليس زجاج شَبَّاك، بل لوح زجاجي. وبعدها، ظهر دوق من جديد في الطرف البعيد من الطرقة حاملًا إحدى البنادق.

كَوْن دوقه يحمل بندقية لم يغيِّر من الأمر شيئًا بالنسبة لإيميت. ببطء، لكن من دون تردد، بدأ يتقدم باتجاه دوقه. وتقدم دوقه باتجاهه. عندما صارا على مبعده عشر أقدام من بيت الدَّرَج، توقفا، تاركين عشرين قدمًا بينهما. كان دوقه يحمل البندقية في إحدى يديه وماسورتها مصوَّبة إلى الأرض، وإصبعه على الزناد. من الطريقة التي يحمل بها البندقية، عرف

إيميت أن دوقه حمل بندقية من قبل، لكن ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً أيضاً.
قال: اترك البندقية.

-لا أستطيع يا إيميت. ليس قبل أن تهدأ وتبدأ الكلام بالعقل.
-العقل هو ما تكلمتُ به يا دوقه، لأول مرة منذ أسبوع. سواء أردت أم لا، سنذهب إلى مركز الشرطة.
بدا دوقه محبطاً بحق:

-بسبب وولي؟

-ليس بسبب وولي.

-ولماذا إذا؟

-لأن الشرطة تعتقد أنك ضربت شخصاً هناك في مورغن بلوح مقاس اثنين في أربعة، ثم أرسلت أكرلي إلى المستشفى.
الآن بدا دوقه متحيراً.

-عمّ تحدث يا إيميت؟ لماذا أضرب ذلك الشخص في مورغن؟ لم يسبق لي أن ذهبت إلى هناك في حياتي. وفيما يتعلق بأكرلي، فقائمة الناس الذين أتمنى إرسالهم إلى المستشفى لا بُد أن تكون بطول ألف صفحة.

-لا يهم حقاً إن كنت فعلت هذه الأشياء أم لا يا دوقه. المهم أن الشرطة تظنك فعلتها -وتظنني متورطاً بشكل ما. وما داموا يبحثون عنك، سيظلون يبحثون عني. لذا عليك أن تسلم نفسك وتصرف أمورك معهم.

تقدم إيميت خطوة إلى الأمام، لكن دوقه رفع البندقية حتى صارت ماسورتها مصوّبة إلى صدره.

في مؤخرة عقله، عرف إيميت أن عليه التعامل مع تهديد دوقه بجدية. فمثلما قال تاونهاوس، عندما يعقد دوقه العزم على شيء ما، يصير كل من حوله في خطر. وسواء ارتكزت نواياه الآن على تجنّب سالاينا، أو الحصول على النقود من الخزنة، أو استكمال الشأن المعلق مع والده، يستطيع دوقه في حمية اللحظة أن يرتكب حماقة من قبيل ضغط الزناد. وإذا ترك إيميت نفسه يُردى، ماذا سيكون مصير بيلى؟

لكن قبل أن يتمكن إيميت من الاعتراف بمزايا تلك الأفكار، قبل أن تسنح له الفرصة حتى لأن يتردد، لاحظ بطرف عينه قبعة فيدورا على وسادة فوق كرسي عالي الظهر، وعادته ذكرى دوقة وهو جالس أمام البيانو في صالون ما بل وقبعته مائلة على رأسه بتلك الطريقة شديدة الثقة، فشعر بدفقة جديدة من الغضب أرجعت له إحساسه بالاحتمية. إيميت سيقبض على دوقة بيديه، وسيأخذه إلى الشرطة، وسرعان ما سيصير دوقة في طريق العودة إلى سالينا، أو توبيكا، أو حيثما أرادوا إرساله.

تابع إيميت التقدم، مقلصًا المسافة بينهما.

قال دوقة، وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ من الندم الاستباقي: إيميت، لا أريد أن أطلق عليك النار. لكنني سأطلق عليك النار إذا لم تترك لي خيارًا. عندما صارا على بعد ثلاث خطوات، توقف إيميت. لم يكن تهديد البندقية أو توسل دوقة ما جعله يتوقف. بل لأن بيلي ظهر، وراء دوقة بعشر أقدام.

لا بُد أنه كان مختبئًا في مكان ما وراء بيت الدَّرَج. والآن كان يتحرك بهدوء إلى المحيط المكشوف حتى يتمكن من رؤية ما يحدث. أراد إيميت أن يشير لبيلي لكي يرجع إلى مخبئه، أيًا كان، أن يشير إليه من دون أن يلفت انتباه دوقة.

بيد أن الأوان كان قد فات. كان دوقة قد لاحظ التغير في تعبير وجه إيميت وألقى نظرة إلى الخلف ليرى ما ورائه. وعندما أدرك دوقة أنه بيلي، أخذ خطوتين إلى الجنب واستدار بزاوية خمس وأربعين درجة ليتمكن من رؤية إيميت بينما يصوب ماسورة بندقيته إلى بيلي.

-ابقَ هناك.

قالها إيميت لأخيه.

-هذا صحيح يا بيلي. ولا حركة واحدة. ولن يتحرك أخوك حركة واحدة ولن أتحرك أنا حركة واحدة، ونستطيع جميعًا أن نحلَّ الأمر سويًا. قال بيلي لإيميت: لا تقلق. لا يستطيع إطلاق النار عليّ.

-بيلي، أنت لا تعرف ما سيفعله أو ما لن يفعله دوقه.
قال بيلي: لا. لا أعرف ما سيفعله أو ما لن يفعله دوقه. لكنني أعرف أنه
لا يستطيع أن يطلق عليّ النار. لأنه لا يستطيع أن يقرأ.
-ماذا؟

قالها إيميت ودوقه في صوت واحد، أحدهما متحير، والآخر مستاء.
وسأل دوقه: من قال إنني لا أستطيع القراءة؟
شرح بيلي: أنت. أو لا قلت إن الخط الصغير يصيبك بالصداع. ثم قلت
إن القراءة في السيارات تقلب معدتك. ثم قلت إنك مصاب بحساسية من
الكتب.

استدار بيلي إلى إيميت.
-يقولها بتلك الطريقة لأنه يخجل من الاعتراف بأنه لا يستطيع القراءة.
تماماً مثلما خجل من الاعتراف بأنه لا يستطيع السباحة.
بينما يتكلم بيلي، ظل إيميت يركز انتباهه على دوقه ولاحظ أن وجهه
يحمّر. ربما من الخجل، كذلك فكر إيميت، لكن الأرجح من الغيظ.
حذر إيميت شقيقه: بيلي، سواء كان دوقه يستطيع القراءة أو لا يستطيع،
هذا لا يصنع فارقاً الآن. لماذا لا تترك هذا الأمر لي؟
لكن بيلي كان يهز رأسه.

-بل يصنع فارقاً يا إيميت. يصنع فارقاً لأن دوقه لا يعرف قواعد إغلاق
البيت.

نظر إيميت إلى أخيه للحظة. ثم نظر إلى دوقه -دوقه المسكين، الضال،
الأمّي. قطع إيميت الخطوات الثلاث المتبقية، ووضع يديه على البندقية،
وانتزعاها من قبضة دوقه.

بدأ دوقه يتكلم بسرعة ميل في الدقيقة حول كيف أنه لم يكن أبداً
ليضغط الزناد. لا ليردي شخصاً من آل واطسن. ليس بعد مليون عام. لكن
إيميت سمع شقيقه، بصوت يعلو عن صوت دوقه، يقول كلمة واحدة.
يقول اسمه وكأنه يذكره باتفاق سابق.

-إيميت...

وفهم إيميت. على مَرَجَة محكمة المقاطعة، كان إيميت قد قطع وعدًا لأخيه. وعدَّ ينوي الحفاظ عليه. لذا بينما جعل دوقه يثرثر بكل الأشياء التي لن يفعلها أبدًا، أخذ إيميت يعدُّ إلى عشرة. وبينما يعدُّ، شعر بالسخونة تتراجع، وشعر بالغضب يتسرَّب منه، حتى اختفى الغضب تمامًا. عندها، رفع كعب البندقية، وضرب دوقه في وجهه، ضربة حمَّ لها كل ما يعتملُ في نفسه.

-أظنك ينبغي أن تلقي نظرة على هذا الآن.
كذلك أصرَّ بيلى.

بعد أن ارتطم دوقه بالأرض، كان بيلى قد ذهب إلى المطبخ. وعندما رجع بعدها بلحظات، طلب منه إيميت أن يجلس ساكنًا على السلم لا يتحرك. ثم رفع دوقه من تحت إبطيه، وبدأ يجرُّه عبر غرفة المعيشة. كانت خطته أن يجرَّه إلى خارج غرفة الوَحْلة، ثم نزولًا على الدَّرَج الخارجي، ثم على المَرَجَة حتى الستادبيكر لكي يضعه فيها ويذهب إلى أقرب قسم شرطة ويكبُّه هناك على الباب. لكنه لم يأخذ إلا خطوتين عندما تحدث بيلى.

رفع إيميت رأسه، فرأى أخاه يمسك مظروفًا. خطاب آخر من أبيهما، فكر إيميت بقدر من الحق. أو بطاقة بريدية أخرى من أمهما. أو خريطة أخرى لأمريكا.

قال إيميت: أستطيع أن ألقى نظرة لاحقًا.

قال بيلى وهو يهز رأسه: لا. لا. أظنك ينبغي أن تلقي نظرة عليه الآن.

أسقط إيميت دوقه على الأرضية مجددًا، واتجه إلى أخيه.

قال بيلى: إنه من وولي. لكي يُفتح في حال غيابه.

بقدر من الذهول، نظر إيميت إلى الكتابة على المظروف.

سأل بيلى: إنه غائب، أليس كذلك؟

لم يكن إيميت قد قرر بالضبط إن كان عليه أن يخبر أخاه بما حدث لـوولي أم لا. لكن من الطريقة التي نطق بها ببلي كلمة غائب، بدا أنه يعرف بالفعل.

قال إيميت: نعم. هو كذلك.

جلس إيميت على السلم إلى جوار ببلي، وفتح المظروف. في الداخل كانت رسالة مكتوبة بخط اليد على ورقة من أدوات والاس وولكوت المكتبية. لم يعرف إيميت إن كان والاس وولكوت هذا هو جد وولي الكبير، أم جده، أم خاله. لكن ذلك لم يهم في شيء.

كان الخطاب، المؤرخ بتاريخ 20 يونيو 1954 وموجّه إلى من يهمهم الأمر، يقول إن الموقع أدناه، وهو في كامل قواه العقلية والجسدية، ترك ثلث وديعته البالغة قيمتها مئة وخمسين ألف دولار لمستـر إيميت واطسن، والثـلث إلى مستـر دوق هـيـويت، والثـلث إلى مستـر وليام واطسن -لكي ينفقوها كيفما شاءوا. وكان التوقيع باسم المخلصاني لكم، والاس وولكوت مارتـن.

وإذ طوى إيميت الخطاب، أدرك أن شقيقه قرأه من فوق كتفه.

سأل: هل كان وولي مريضاً. مثل أبي؟

وقال إيميت: نعم. كان مريضاً.

-ظننته كذلك عندما أعطاني ساعة خاله. لأنها ساعة صُنعت لكي

تتوارثها الأجيال.

فكر ببلي للحظة.

-ألهذا السبب أخبرت دوق أن وولي أراد أن يؤخذ إلى دياره؟

قال إيميت: نعم. هذا ما قصده.

قال ببلي، وهو يومئ برأسه موافقة: أظنك كنت محقاً في ذلك. لكنك

كنت مخطئاً بشأن النقود في الخزانة.

من دون أن ينتظر ردة فعل إيميت، نهض ببلي وسار في الطُرقـة. متردداً،

تبع إيميت شقيقه عائداً إلى مكتب مستـر وولكوت ثم إلى الخزانة. بجوار

رفوف الكتب كانت قطعة أثاث بدت مثل أول ثلاث درجات من سلم. جرّها بيلي ووضعها أمام الخزنة، ثم صعد درجاتها، ودوّر الأقراص الأربعة، وأدار المقبض، وفتح الباب. للحظة، وقف إيميت مبهورًا.

-كيف عرفت الأرقام يا بيلي؟ هل أخبرك وولي بها؟

-لا، لم يخبرني وولي بها. لكنه أخبرني أن جده الكبير كان يحب الرابع من يوليو أكثر من أي عيد آخر. لذا كانت أول أرقام أجربها هي 1776، ثم جربت 7476 لأن تلك هي الطريقة التي يُكتب بها الرابع من يوليو. بعدها جربت 1732، سنة ميلاد جورج واشنطن، لكنني تذكرت بعدها أن جدّ وولي الكبير قال إن واشنطن، وجيفرسون، وآدامز كانت لديهم رؤية لتأسيس الجمهورية، لكن مستر لينكون هو من امتلك الشجاعة لتحويلها إلى حقيقة. لذا جربت 1809، العام الذي ولد فيه الرئيس لينكون، و1865، العام الذي توفي فيه. وعندها أدركت أنها لا بدّ 1119 لأن يوم 19 نوفمبر كان يوم «خطاب غيتسبرغ». هاك. تعالٍ والتق نظرة.

قال العبارة الأخيرة وهو ينزل عن السلم.

دفع إيميت السلم جانبًا، واقترب من الخزنة، حيث، تحت رفٍّ من الأوراق، كانت آلاف الأوراق النقدية الجديدة فئة الخمسين دولارًا مرتّبة بأناقة في رُزَم.

وضع إيميت يده على فمه.

مئة وخمسون ألف دولار، فكّر. مئة وخمسون ألف دولار من ثروة مستر وولكوت وُرّثت إلى وولي، والآن ورّثها وولي لهم. ورّثها لهم عبر وصية أخيرة وقّعت وأرّخت طبقًا للأصول.

لم يكن ثمة شك في نوايا وولي. في هذا الصدد، كان دوقه محقًا تمامًا. كانت نقود وولي وكان يعرف بالضبط ما يريد أن يفعل بها. بعد أن حُكم عليه بأنه غير لائق مزاجيًا لاستخدامها بنفسه، أراد لأصدقائه، في غيابه، أن يستخدموها كيفما شاءوا.

لكن ماذا سيحدث لو أكمل إيميت جرّ دوقه إلى الستادبيكر وكتبه على باب قسم الشرطة؟

بقدر ما كرة إيميت الاعتراف بذلك، كان دوقه محققاً في ذلك أيضاً. فور أن يصير دوقه في أيدي الشرطة ويتضح أن وولي قد مات، ستوقّف عجلات مستقبل إيميت وييلي عن الدوران. سيحط الشرطة والمحققون على البيت، ومن ورائهم الأقارب والمحامون. ستستقصى الظروف. وتُجرّد المحتويات. وتُفسّر النوايا. وتُطرح أسئلة لا نهاية لها. وأي فرصة للحظ السعيد سيُنظر إليها بأكبر قدر من الشك.

في غضون دقائق قليلة، سيغلق إيميت باب خزانة مستر وولكوت. هذا مؤكد. لكن فور أن يُغلق الباب، سينشأ احتمالان لمستقبلين مختلفين. في أحدهما، تبقى محتويات الخزانة بلا مساس. وفي الآخر، تصير المساحة أسفل الرف خالية.

علّق بيلي قائلاً: وولي أراد الأفضل لأصدقائه.
-نعم، هكذا أراد.

قال بيلي: لك ولي. ولدوقه أيضاً.

فور أن اتخذ إيميت القرار، أدرك ضرورة التحرك بأقصى سرعة. عليهما أن يرتبا كل شيء ويتركا أقل قدر ممكن من الآثار وراءهما. بعد إغلاق باب الخزانة، كلّف إيميت بيلي بمهمة ترتيب المكتب بينما يعتني هو بأمر بقية البيت.

أولاً، لملّم كل الأدوات التي جمعها دوقه -المطرقة، والمفكات، والبلطة- ونقلها إلى الخارج مروراً بالزورق المخروق إلى سقيفة العمل. عندما رجع إيميت إلى البيت، ذهب إلى المطبخ. وإذ عرف أن وولي لم يكن ليأكل أبداً من العلبه، وضع العلبه وزجاجة البيسي في كيس ورقي ليحمله إلى الخارج. ثم غسل الملعقة وأعادها إلى دُرج الفضيات. اللوح الزجاجي المكسور في المطبخ لم يُقلقه. سوف تفترض السلطات

أن وولي كسر اللوح ليدخل إلى البيت الموصد. لكن خزانة البنادق كانت
أمرًا آخر. هذه ستكون أقرب لإثارة الأسئلة. أسئلة جادة. بعد إعادة البندقية
إلى مكانها في الخزانة، أخرج إيميت كُرّة الكروكيه. ثم أعاد وضع كومة
كراسي الأديرونذاك ليجعلها تبدو وكأنها قد سقطت وهشمت الزجاج.
والآن، حان الوقت للتعامل مع دوقه.
رفعه إيميت من تحت إبطيه، وجرّه في الطُّرقة، وخارج غرفة الوَحْلة،
وإلى العشب.

عندما قرر إيميت وبيلي أن يأخذا حصتيهما من المال وأن يتركا دوقه
وراءهما مع حصته، أخذ بيلي عهدًا على إيميت ألا يسبب لدوقه أذى أكثر
مما ناله بالفعل. لكن كل دقيقة تمرُّ كانت تزيد من خطر أن يستعيد دوقه
وعيه ويثير مشكلات جديدة. كان على إيميت أن يضعه في مكان يؤخره
لبضع ساعات. أو على الأقل إلى حين ينتهي بيلي وإيميت من عملهما
ويقطعان مسافة معتبرة على طريقهما.
صندوق الكاديلاك؟ تساءل.

المشكلة مع الصندوق أن دوقه، فور استعادة وعيه، إمّا سيتمكن من
الخروج بسرعة أو لن يتمكن على الإطلاق، وكلاهما سيئ العاقبة.
سقيفة العمل؟

لا. ما من وسيلة لتأمين بابها من الخارج.
بينما ينظر إيميت باتجاه السقيفة، خطرت له فكرة أخرى، فكرة مثيرة.
لكن فجأة، عند قدمي إيميت، أطلق دوقه آهًا.
-اللعنة!

قالها إيميت لنفسه.
نظر إلى أسفل، فرأى دوقه يحرك رأسه قليلًا من جنب إلى جنب،
يوشك على العودة إلى وعيه. وإذا أطلق دوقه آهًا أخرى، نظر إيميت من
فوق كتفه إلى الوراء ليتأكد أن بيلي ليس هناك. ثم انحنى إلى الأمام، ورفع
دوقه من ياقته بيده اليسرى ولكمه باليمنى في وجهه.

عندما استراح دوقه مجدداً، جرّه إيميت باتجاه السقيفة.

بعدها بعشرين دقيقة، كانا جاهزين للانطلاق.

كالعادة، كان بيلي قد أنجز مهمة إعادة المكتب إلى حاله على نحو مثالي. كل كتاب رجع إلى رفّه، وكل ورقة إلى كومتها، وكل دُرج إلى مجراه. الشيء الوحيد الذي لم يُرجعه هو تمثال أبراهام لينكون النُصفي لأنه كان ثقيلاً جداً. عندما رفعه إيميت وجعل ينظر حوله بحثاً عن مكان يضعه فيه، تقدم بيلي إلى طاولة المكتب.

-هنا.

قالها وهو يضع إصبعاً على بقعة ظهر فيها أثرٌ واهٍ لحدود قاعدة التمثال الخارجية.

بينما انتظر بيلي بجوار باب المطبخ، أوصد إيميت بابيّ الشرفة الخارجية وغرفة الوَحْلة ثم أخذ جولة أخيرة في البيت.

عاد إيميت إلى غرفة النوم بالطابق العلوي، وقف بإطار الباب. كان ينوي ترك كل شيء مثلما وجدّه بالضبط. لكنه حين رأى الزجاجاة البنيّة الخاوية، التقطها ووضعها في جيبه. ثم قال كلمة وداع أخيرة لوالاس وولي مارتن.

ثم وهو يغلق الباب، لاحظ حقيقته المدرسية القديمة على أحد الكراسي، وأدرك أن الحقيبة الأخرى التي أعارها لدوقه لا تزال في مكان ما في البيت، ولا بُد. عابن إيميت غرف النوم واحدةً بعد أخرى، ثم بحث في غرفة المعيشة فوجدها على الأرض بجوار أريكة لا بُد أن دوقه قضى ليلته عليها. فقط عندما كان إيميت في طريقه إلى المطبخ لينضم إلى بيلي، تذكر استعادة قبعة الفيدورا من فوق الكرسي عالي الظهر.

لدى خروجهما من المطبخ، ومروهما بالمرسى، أشار إيميت لبيلي إلى حيث يجلس دوقه سليماً معافى. في الكرسي الأمامي للكاديلاك، رمى حقيبة دوقه المدرسية والقبعة. في صندوق الستادبيكر، وضع كيسين ورقين -واحدًا يحتوي على القمامة من المطبخ، والآخر يحتوي على

حصّتهما من وديعة وولي. عندما همّ بإغلاق الصندوق، تذكّر أنه قبل تسعة أيام فقط، وقف في البقعة نفسها يتسلّم تركة أبيه: المال، والاقْتباس من إمرسون الذي كان نصف اعتذار، نصف تحريض. والآن، بعد أن قاد مسافة ألف وخمسة ميل في الاتجاه الخطأ، وإذ همّ بقطع ثلاثة آلاف ميل أخرى، آمنَ إيميت أن ثمة قوة جديدة بداخله، وأن لا أحدٍ سواه يعرف ما يقدر عليه، وأنه لم يبدأ معرفة نفسه إلا للتوّ.

أغلق صندوق السيارة، والتحق ببيلي في المقعد الأمامي، وأدار المفتاح، وضغط زر التشغيل.

قال إيميت لأخيه: فكرتُ في البداية أننا سنقضي ليلتنا هنا في الجبال. لكن ما رأيك أن نذهب لإحضار سالي ثم ننتقل على الطريق بدلاً من ذلك؟

قال ببيلي: هذه فكرة جيدة. دعنا نُحضر سالي وننتقل على الطريق. عندما رجع إيميت بالسيارة في قوسٍ لكي يوجّهها إلى المخرج، كان ببيلي قد بدأ في دراسة الخريطة بالفعل -بجيين مقطب. سأل إيميت: ما هذا؟

وهز ببيلي رأسه: هذا أسرع طريق من النقطة التي نحن فيها. وضع ببيلي طرف إصبعه على نجمة وولي الحمراء الكبيرة، وحركه على طول طرق مختلفة متجهًا في مسار جنوب غربي من بيت آل وولكوت إلى ساراتوغا سبرينغز وسكرامنتو، ثم غربًا إلى بيتسبرغ، حيث يعاودان أخيرًا الالتحاق بطريق لينكون السريع. وسأل إيميت: كم الساعة الآن.

نظر ببيلي إلى ساعة وولي وقال إنها الخامسة إلا دقيقة واحدة. أشار إيميت إلى طريق مختلف على الخريطة.

قال: إذا رجعنا من الطريق الذي جئنا عليه، نستطيع بدء رحلتنا من تايمز سكوير. وإذا أسرعنا، نستطيع الوصول إلى هناك في اللحظة التي نُضاء فيها كل الأنوار.

رفع بيلى رأسه بطريقته واسعة العينين: صحيح يا إيميت؟ صحيح
فعلاً؟ لكن أَلن يأخذنا ذلك بعيداً عن طريقنا.
تظاهر إيميت بأنه يفكر للحظة.
- بعيداً عن طريقنا بعض الشيء، أعتقد. لكن في أيّ يوم نحن؟
- الحادي والعشرون من يونيو.
وضع إيميت الستادبيكر على الغيار الأول.
- إذا فأمامنا ثلاثة عشر يوماً نقطع فيها البلاد من شرقها إلى غربها، إذا
أردنا أن نصل إلى سان فرانسيسكو قبل الرابع من يوليو.

دوقة

رجعتُ إلى وعيي بإحساس انجراف - مثل شخص يجلس في قارب في عصر يوم مُشمِس. ومثلما تبَيَّن، كان ذلك بالضبط حالي: جالسٌ في قارب في عصر يوم مُشمِس! هززت رأسي أَصْفِيه، ووضعت يديَّ على حافتي القارب ورفعتُ نفسي إلى أعلى.

أول ما لاحظته، سأعترف بذلك، كان الجمال الطبيعي أمام عينيَّ. مع أنني لم أكن فأرَ أريافٍ أبدًا - إذ أجد الخلاء الفسيح غير مريح عمومًا وطاردًا أحيانًا - كان هناك شيء يبعث على الرضا العميق في المنظر. ها هي أشجار الصنوبر ترتفع من شاطئ البحيرة، وأشعة الشمس تنهمر كشلال من السماء، وصفحة الماء تتموج بنسيم لطيف. لا يسع المرء إلا إطلاق تنهيدة أمام كل هذا الجلال.

غير أن الألم في مقعدتي أعادني إلى الواقع. نظرت إلى أسفل، فرأيت أنني جالس على كومة من الأحجار المطلية. رفعتُ أحدها لكي أعينه، فرأيت دمًا جافًا، ليس فقط على يدي، لكن على طول قميصي من الأمام. ثم تذكرت.

لقد ضربني إيميت بكعب البندقية!

اندفع من الباب وأنا أحاول فتح الحُزنة. واختلفنا في الرأي، ودخلنا في شجار من نوع ما، وأخذُ وردُّ. ومن أجل الأداء المسرحي، رفعتُ بندقية، ولوَحْتُ بها في اتجاه بيلي. لكن إيميت الذي أساء فهم نيتي شدَّ مني البندقية وناولني واحدةً بها.

بل ربما يكون كَسَرَ أنفي، هكذا فكرتُ. وهذا ما يفسر معاناتي في التنفس من منخاريَّ إلى هذا الحد.

عندما مددتُ يدي أتحسس إصابتي بحذر، سمعت محرك سيارة يتسارع. نظرتُ إلى يساري، فرأيت الستادبيكر، صفراءَ كطائر كناري، ترجع إلى الوراء، تتوقف، ثم تدور خارجة من مدخل بيت آل وولكوت. صحتُ: انتظر!

لكن عندما استندت على جنبي لكي أنادي إيميت، أخذ القارب غطسةً باتجاه الماء.

ترنحتُ إلى الوراء، واستعدت مكاني بحذر في المنتصف. طيّب، فكرت في نفسي، لقد أفقدني إيميت الوعي بالبندقية. لكن بدلاً من أن يأخذني إلى قسم الشرطة مثلما هدّد، تركني أنجرف في قارب تجديف بلا مجداف. فلماذا فعل ذلك؟ ثم ضاقت عيناى.

لأن المستر الصّغير العليم بكل شيء أخبره أنني لا أستطيع السباحة. هذا هو السبب. لقد فكر الأخوان واطسن أن يتركاني أنجرف في البحيرة، لكي يتوفر لهما الوقت لفتح الخزنة والاستيلاء على تركة وولي وحدهما. لكن حتى وأنا أفكر في هذه الفكرة القبيحة -الفكرة التي لن أستطيع أبداً التكفير عنها بشكل كامل- رأيت رُزم النقود في قوس مقدمة القارب. لقد فتح إيميت خزانة الرجل العجوز، تماماً مثلما ظننته سيفعل. لكن عوضاً عن تركي خاوي الوفاض، ترك لي نصيبي المستحق.

كان نصيبي المستحق، أليس كذلك؟ أقصد، ألن تبدو الخمسون ألف دولار هكذا؟

ولأنني فضولي بطبعي، بدأت أتحرك تجاه مقدمة القارب لأقوم بحسبة سريعة. لكن فور أن فعلت ذلك، تسبب تحوّل ثقلي في خفض مقدمة القارب وبدأت المياه تنسكب عبر قوس المقدّمة. تراجعتُ بسرعة إلى مقعدي، فارتفع القوس، وتوقف التدفق.

لم يكن ذلك أيّ قارب، كذلك أدركتُ، والمياه تسيل حول قدميّ. كان قارب التجديف الذي وُضع للإصلاح في بيت القوارب. ولهذا السبب

كَوْمَ إيميت الحجارة في مؤخرته. لكي يُبقي القوس المخروق فوق سطح الماء.

يا لها من عبقرية، هكذا فكرت بابتسامة. قارب مثقوب وبلا مجاديف في وسط بحيرة. كان الأمر يشبه مكاناً مجهزاً للزانتراكس. لم يكن ينقصني إلا أن يقيّد إيميت يديّ وراء ظهري. أو يكبّلني بالأغلال.

-طيب إذا.

قلتها، وأنا أشعر بالتحدي يملأ كياني.

في تقديري، كنت على مبعدة بضع مئات من الأقدام من الشاطئ. إذا ملّث إلى الورا، ووضعْتُ يديّ في الماء، وبدلْتُ برفق، لا بُدَّ أني سأتمكن من شقّ طريقي بسلام إلى الأرض الصلبة.

لكن تبَيَّن أن مدّ ذراعيّ من فوق مؤخرة القارب عملية مربكة على نحو مدهش، وتبيَّن أن الماء باردٌ على نحو مدهش. بل كان عليّ أن أوقف التبديل كل بضع دقائق لأدفع أصابعي.

ثم، فور أن بدأتُ في إحراز بعض التقدم، بدأ نسيم العصر يشتدُّ، ما جعلني كلما أخذت استراحة من التبديل، أنجرف عائداً إلى مركز البحيرة. لأعوّض عن ذلك، شرعْتُ أبذل بسرعة أكبر قليلاً وأخذ استراحات أقصر. لكن وكأنما ردّاً عليّ، اشتدَّ النسيم أكثر. اشتدَّ إلى حدّ أنه جعل إحدى الأوراق النقدية ترفرف مرتفعة عن رُزمتها وتهبط على بعد نحو عشرين قدماً على سطح الماء. ثم رفرفت أخرى. وأخرى.

جعلتُ أبذل بأسرع ما أستطيع، وتوقفتُ عن أخذ الاستراحات بالكلية. لكن النسيم ظل يهبُّ والأوراق ظلت تطير، ترفرف فوق جنب القارب، خمسون دولاراً في كل مرة.

وإذ لم يبقَ أمامي خيار آخر، توقفتُ عن التبديل، ونهضت على قدميّ، وبدأت أزحف إلى الأمام. عندما أخذت ثاني خطوة صغيرة، غطسَ قوس المقدمة على نحو خطير وبدأ الماء يتدفق إلى الداخل. أخذت خطوة إلى الورا فتوقف التدفق.

ما من سبيل لفعل ذلك بحذر، هكذا أدركت. سيكون عليّ أن أندفع لأمسك بالنقود، ثم أراجع بسرعة إلى مؤخرة القارب قبل أن يدخل كمّ كبير من الماء إلى القارب.

جهزت نفسي وذراعاي أمامي، وتأهّيت للاندفاع. الأمر يتطلب بعض المهارة، ليس إلا. حركة سريعة مصحوبة بلمسة رقيقة. مثلما تُخرج سداةً من زجاجة.

بالضبط، هكذا فكرت لنفسي. المحاولة بأكملها لن تستغرق أكثر من عشر ثوان. لكن من دون مساعدة بيّلي، سيكون عليّ أن أقوم بالعد التنازلي بنفسي.

عند كلمة عشرة، أخذتُ أول خطوة إلى الأمام واهتز القارب إلى اليمين. وعند تسعة عوّضتُ بأن خطوتُ إلى اليسار فمال القارب إلى اليسار. وعند ثمانية، مع كل الاهتزاز والتمايل، فقدتُ توازني وسقطتُ إلى الأمام، هابطاً فوق النقدية بينما يندفع الماء عبر الحرق.

مددت يدي إلى حافة القارب، وحاولت أن أدفع نفسي للنهوض، لكن أصابعي كانت نَمَلة للغاية من فرط التبديل حتى إن قبضتي انفلتت وسقطتُ إلى الأمام ثانية -صادماً أنفي المكسور بقوس المقدمة.

أطلقت عواءً، وغريزياً ترنحتُ واقفاً على قدميّ بينما يستمر الماء المثلج في التدفق حول كعبيّ. وإذ صار كل ثقلي في مقدمة القارب والمؤخرة ترتفع من خلفي، تدحرجت الأحجار المطلية باتجاه قدميّ، وأخذ القوس الأمامي غطسةً أخرى، وانقلبَت رأساً على عقب داخل البحيرة.

أخذت أركل في الأعماق بقدميّ وأضرب سطح الماء بذراعيّ، وأنا أحاول أن آخذ نفساً عميقاً من الهواء، لكنني أخذت نفساً عميقاً من الماء بدلاً من ذلك. جعلتُ أسعل وأتخبط، وشعرت برأسي ينزل إلى أسفل وجسدي يغوص. رفعت رأسي فوق السطح الأرقط، فرأيت ظلال الأوراق النقدية تطفو على الماء مثل أوراق الشجر في الخريف. ثم انجرف القارب وصار فوقيّ، ملقياً عليّ ظلاً أكبر بكثير، ظلاً بدأ يتمدد إلى الخارج في كل اتجاه.

لكن فور أن بدا أن البحيرة بأكملها ستغرق في الظلام، ارتفعت ستارة عظيمة ووجدتني أقف في شارع مزدحم في مدينة كبيرة مزدحمة، غير أنني عرفت كل من حولي، وكلهم كانوا متجمّدين في أماكنهم.

على مقعد قريب، كان يجلس وولي وبيلي معًا، يتسلمان لمخطط الطوابق الخاص ببيت كاليفورنيا. وهناك كانت سالي تميلُ على عربة أطفال لتُحكّم البطانية حول الطفل الذي في رعايتها. وهناك إلى جوار عربة الزهور كانت الأخت سارة، يبدو على وجهها الحسرة والأسى. وإلى اليمين هناك، على مبعدة أقل من خمسين قدمًا، كان إيميت، واقفًا بجوار باب سيارته الصفراء الزاهية، يبدو شريفًا ومستقيمًا.

-إيميت!

ناديته.

لكن فور أن فعلتُ ذلك، سمعتُ دَقَات ساعة حائط بعيدة. لم تكن ساعة حائط، ولم تكن بعيدة. كانت ساعة اليد الذهبية المدسوسة في جيب صدرتي التي صارت الآن فجأة في يدي. نظرتُ إلى بُنُورَتها، فلم أعرف الوقت، لكنني عرفت أن العالم بأكمله، بعد بضع دقائق أخرى، سيبدأ في التحرك من جديد.

لذا خلعت قبعتي مرفوعة الحواف، وانحنيت لسارة وسالي. انحنيت لولولي وبيلي. انحنيت لإيميت واطسن الفريد الذي ليس له مثل. وعندما صدحت الدقة الأخيرة، استدرتُ إليهم لكي أنطق بآخر كلماتي، الآن، لم يبقَ إلا الصمت، تمامًا قال هاملت.

أم كان إياغو؟

لم أتذكّر أبدًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أمور تاولز

طريق لينكون السريع

"أكثر من مليون نسخة بيعت حتى اليوم من طريق لينكون السريع".

كتاب مميّز بحسب نيويورك تايمز، وقد اختارته أوبرا دايلي، تايم، شبكة الإذاعة الوطنية (NPR)، واشنطن بوست، بيل غيتس وباراك أوباما كأفضل كتاب لعام 2021. في يونيو 1954، نُقل إيميت واطسن، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا إلى منزله في نبراسكا بواسطة حارس سجن الأحداث بعد أن أنهى للتو خمسة عشر شهرًا بتهمة القتل غير العمد. كانت والدته قد تركت البيت منذ فترة طويلة، وتوفي والده مؤخرًا، ومزرعة العائلة عليها حجز للبنك. قرّر إيميت اصطحاب شقيقه بيلي البالغ من العمر ثماني سنوات والتوجه إلى كاليفورنيا عبر طريق لينكون السريع، لبدأ حياة جديدة. لكن يكتشف إيميت أن صديقين له من سجن الأحداث قرّا في صندوق سيارة الحارس الذي أوصله إلى بيته، وقد وضعوا خطة مختلفة تمامًا لمستقبل إيميت، خطة ستأخذهم جميعًا في رحلة مصيرية في الاتجاه المعاكس - إلى مدينة نيويورك.

"مرة أخرى، أذهلتني كتابات تاولز- خاصة وأن رواية طريق لينكون السريع مختلفة تمامًا عن جنتلمان في موسكو من حيث الديكور والحبكة والموضوعات. إنه يستلهم من رحلات الأبطال المشهورين... كأنما يقول لنا إن رحلاتنا الشخصية لا تكون أبدًا على خط مستقيم، ولا يمكن التنبؤ بها".

بيل غيتس

"كتاب حكيم ومسلي للغاية... فيه الذكاء والشباب".

"رواية سنقرأها لسنوات قادمة".

"رحلة ممتعة حقيقية... مبنية بأناقة وتُقرأ بشغف".

(NPR)

مكتبة
t.me/soramnqraa

daraltanweer.com

